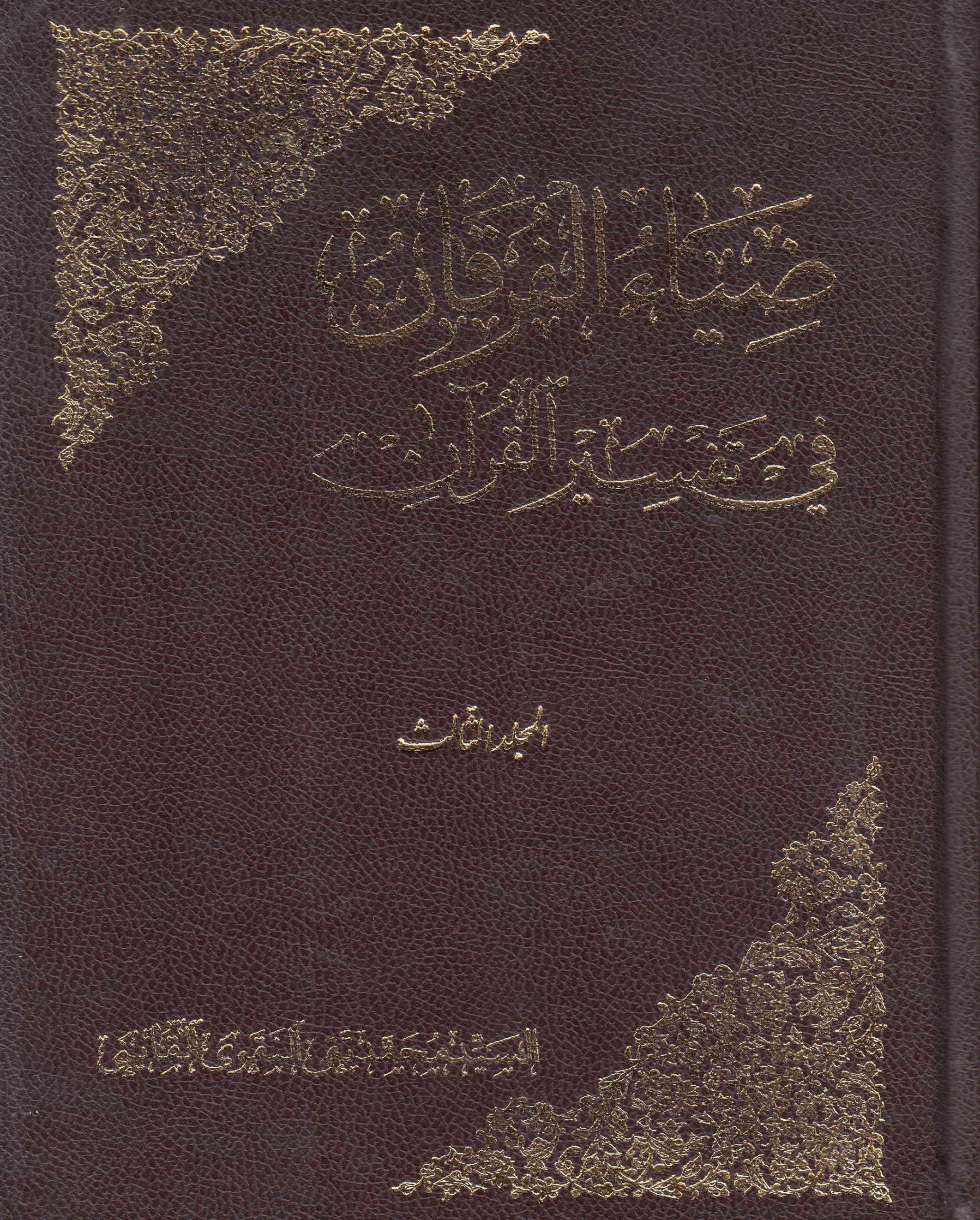


ضياء الفرقان
في تفسير القرآن
المجلد الثالث
السيد محمد تقي النقوي القائني


بسم الله الرحمن الرحيم



ضیاء الفرقان
فی
تفسیر القرآن

جلد ۳

لِمُؤلّفه سید محمد تقی النّقوی

سرشناسه	: نقوی قائنی، محمد تقی، ۱۳۰۸ ـ
عنوان و نام پدیدآور	: ضیاء الفرقان فی تفسیرالقرآن / لمؤلفه محمدتقی نقوی قائنی.
مشخصات نشر	: تهران: قائن، ۱۳۹۵.
مشخصات ظاهری	: ۱۸ج.
شابک	: دوره 978-964-8981-24-7 ؛ ج. ۳: 978-964-8981-27-8
وضعیت فهرست نویسی	: فیپا.
یادداشت	: عربی.
موضوع	: تفاسیر شیعه ـ ـ قرن ۱۴.
موضوع	: Qur'an - - Shiite hermeneutics - - 20th century
رده‌بندی کنگره	: ۱۳۹۵ ۹ض۷ن /۹۸ BP
رده‌بندی دیویی	: ۲۹۷/۱۷۹
شماره کتابشناسی ملی	: ۴۴۰۴۹۵۲

ضیاء الفرقان فی تفسیر القرآن ـ مجلد الثالث

المؤلف: محمد تقی نقوی قائنی

الکمیة: ۱۰۰۰

الطبعة: الاوّل

تاریخ الطبع: ۱۳۹۶ ش. – ۱۴۳۸ ق.

تنسیق الصفحات: محسن نقوی

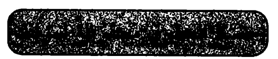
لیتوغرافی: لوح محفوظ

المطبعة: گوهر اندیشه

انتشارات: قائن

تلفن: ۰۹۱۲۳۱۷۳۵۵۰

مرکز التوزیع: تهران - شارع انقلاب - بازارچه کتاب - رقم ۱۰ - دارالکتب الاسلامیة



شابک: ۸ – ۲۷ – ۸۹۸۱ – ۹۶۴ – ۹۷۸

شابک دوره: ۷ – ۲۴ – ۸۹۸۱ – ۹۶۴ – ۹۷۸

الجزء
الثالث

تِلْكَ الرُّسُل فَضَّلْنٰا بَعْضَهُمْ عَلىٰ بَعْضٍ مِّنْهُمْ مِّنْ كَلَّمَ اللّٰهُ وَ رَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجٰاتٍ وَٰاتَيْنٰا عيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنٰاتُ وَاَيَّدْنٰاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شٰآءَ اللّٰهُ مَااقْتَتَلَ الَّذينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مٰا جٰاءَتْهُمُ الْبَيِّنٰاتُ وَلٰكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَّنْ اٰمَنَ وَمِنْهمْ مِّنْ كَفَرَ وَلَوْ شٰآءَ اللّٰهُ مَااقْتَتَلُوا وَلٰكِنَّ اللّٰهَ يَفْعَلُ مٰا يُريد ﴿٢٥٣﴾

◁ اللّغة

تِلْكَ الرُّسُل: تلك حرف إشارة والرسل بضمّ السّين جمع رَسُول و الرَّسُول مشتقّ من **الرَّسْل** بفتح الرّاء و سكون السّين و هو الإنبعاث علىٰ التّؤدة يقال ناقة **رَسِلة**، أي سَهلة السَّير وابل مراسيل، مُنبعثةٌ إنبعاثاً سَهلاً و منه الرّسول المنبَعث و تصوّر منه تارةً الرّفق فقيل علىٰ رسِلك اذا أمرته بالرّفق و تارةً الإنبعاث فإشتّق منه الرّسول و الرّسول يقال تارةً للقول المتحمّل كقوله، ألا أبلغ أبا حفص رسُولاً، و تارةً لمُتحمّل القول و الرّسالة و الرّسول يقال للواحد والجمع، أمّا الواحد كقوله تعالىٰ: **لَقَدْ جٰاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ**[1] و أمّا الجمع كقولهِ تعالىٰ: **اَنّٰا رَسُول ربِّ الْعٰالَمين** و جمعه **الرُّسُل** بضمّتين و **الرُّسْل** بضمّ **الرّاء** فقط و أرسُل، و رُسلاء و أفصحها الرُّسل كما جاء في القرأن ثمّ أنّ الرُّسل تارةً يراد بها الملائكة و تارةً يراد بها الأنبياء فَمن الملائكة قوله أنّه لقول رسول

١- البقرة = ١٢٨

كريم و هو جبرئيل و قوله إنّا رُسُل ربّك، في قصة لوط وهكذا ومن الأنبياء قوله تعالىٰ: **وَ مٰا مُحَمَّدٌ إِلّٰا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ اَلرُّسُلُ.**

فَضَّلْنٰا الفضل الزّيادة عن الإقتصار.

عِيسَى: بكسر العين إسمٌ علم و اذا جعل عرّبياً أمكن أن يكون من قولهم، بعيرٌ أعيس و ناقةٌ عَيساء و جمعها، عِيس و هي إبلٌ بيضٌ يعتري بياضها ظلمة أو من العيس و هو ماء الفَحل قاله الرّاغب في المفردات.

اَيَّدْنٰاهُ: التّأييد التّقوية أي قَوَّيناه برُوح القُدس.

بِرُوحِ اَلْقُدُسِ: بضمّ القاف والدّال يعني به جبرئيل من حيث أنّه ينزل بالقُدس من اللّه أي بما يطهّر به نفوسنا من القرأن والحكمة والفيض الإلٰهي و ذلك لأنّ القُدس الطّهارة و التقدّيس التطهّير و منه البيت المقدّس أي المُطّهر من النّجاسة أي الشِّرك وكذلك الأرض المقدّسة.

مَنْ كَفَرَ: الكُفر في اللّغة ستر الشّيء و وصف اللّيل بالكافر لستره الأشخاص، والكافر يطلق علىٰ من يجحد الوّحدانية أو النبوّة أو الشّريعة أو جميعها.

◁ الإعراب.

تِلْكَ اَلرُّسُلُ مبتدأ و خَبر **فَضَّلْنٰا** حال من الرُّسُل ويجوز أن يكون الرُّسل نعتاً أو عطف بيانٍ و فضّلنا الخبر **مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اَللّٰهُ** يجوز أن يكون مستأنفاً لا موضع له ويجوز أن يكون بَدلاً من موضع، فضّلنا، و يقرأ، كلَّم اللّه بالنّصب و يقرأ **كَلَّمَ اَللّٰهُ**، **دَرَجٰاتٍ** حال من بعضهم أي ذا دَرجات وقيل، درجات، مصدر في موضع الحال و قيل إنتصابه علىٰ المصدر لأنّ الدّرجة بمعنىٰ الرّفعة فكأنّه قال و رفعنا بعضهم رفعات و قيل أنّ التّقدير، علىٰ درجات، أو في درجات، أو الىٰ درجات، فلمّا حذف حرفُ الجرّ وصل الفعل بنفسه **مِنْ بَعْدِ مٰا جٰاءَتْهُمُ** يجور أن يكون بَدلاً من، بعدهم، بإعادة حرف الجرّ ويجوز أن تكون من الثّانية،

تتعلّق، بإقتل و الضّمير الأوّل يرجع الىٰ الرُّسل و في جاءتهم، الىٰ الأُمم **وَلٰكِنِ** إستدراك لِما دَلّ الكلام عليه لأنّ إقتتالهم كان عن إختلافهم ثمّ بيّن الإختلاف بقوله: **فَمِنْهُمْ مَّنْ اٰمَنَ وَمِنْهُمْ مَّنْ كَفَرَ**والتقدّير فاقتتلُوا **وَلٰكِنَّ اللّٰهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ** إستدراك علىٰ المعنىٰ أيضاً لأنّ المعنىٰ، ولو شاء اللّه لمنعهم، و لكنّ اللّه يفعل ما يريد و قد أراد أن لا يمنعهم أو أراد إختلافهم وإقتتالهم.

◁ التّفسير

تِلْكَ الرُّسُل فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلىٰ بَعْضٍ

قيل تِلك، بمعنىٰ أولئك لأنّه أراد بـه الإشـارة الىٰ الجـماعة أي جـماعة المرسلين التّي ذكرت قصصها في السّورة أو التّي ثبت علمها عند رسول اللّه و المراد بالرُّسل في الآية الأنبياء الّذين أرسَلهم اللّه لارشاد خلقه مـن آدم أبـو البشر الىٰ خاتم المُرسلين كما حكىٰ اللّـه تـعالىٰ بـقوله قـال إنّـا رسـول ربّ العالمين و الفرق بين الرّسول والنّبي علىٰ ما قيل من وجوه:

أحدها: أنّ الرَّسول هو المخبر عن اللّه بغير واسـطة أحـدٍ مـن البشـر و له شريعة مبتدءة كآدم صّفى أو ناسخة كمحمّد صلى الله عليه وآله والنّبي لا شريعة له.

ثانيها: أنّ النّبي هو الّذي يرىٰ في منامه ويسمع الصّوت ولا يعاين المَلك، والرّسول يرى في منامه ويَسمع الصّوت ويعاين المَلك.

ثالثها: أنّ الرّسول قد يكون من الملائكة بخلاف النّبي فأنّ المَلك لا يكون نبّياً و علىٰ هذا فَبين الرّسول والنّبي عمومٌ و خصوصٌ مطلق فكلّ رسولٍ نبّي و لا عكس اذ بعض الأنبياء رسول مثل موسىٰ و عيسىٰ و محمّد و غـيرهم و بعضهم ليس برسولٍ مثل يونس و هود و شعيب و أمثالهم و جميع الأنـبياء والمرُسلين علىٰ ما ورد في الأحاديث مائة ألف و عشرون ألفاً، والمرسلون منهم ثلاث مائة و ثلاثة عشر والباقي أنبياء و في حديث الصّادق عليه السلام الأنبياء

و المرسلون علىٰ أربع طبقات منبئٌ في نفسه لا يعدُو غيرها و نبّي يرىٰ في المنام و يسمع الصّوت و يعاين المَلك وقد أُرسل الىٰ طائفة أو أكثر كيُونس عليه السلام:

قال تعالىٰ: **وَ أَرْسَلْنٰاهُ إِلىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ**(١).

ثلاثين ألفاً والّذي يرىٰ في منامه ويسمع الصّوت ويُعاين في اليقظة و هو إمام مثل أُولو العَزم من الرُّسل وقد كان إبراهيم نَبّياً وليس بامام حتّىٰ:

قال تعالىٰ: **إِنّى جٰاعِلُكَ لِلنّٰاسِ إِمٰامًا**(٢).

اذا عرفت معنىٰ الرّسول وعلمت أنّه أفَضل من النّبي الذّي ليس برسولٍ و أنّ المُرسلين ثلاث مائة و ثلاثة عشر فأعلم أنّ الآية تدّل علىٰ أنّ اللّه تعالىٰ فَضَّل بعض المُرسلين علىٰ بعضٍ وإختلفت أراء المفسّرين في تعيين الفضيلة بعد اتّفاقهم علىٰ وجودها فيهم فقال بعض المفسّرين أراد اللّه تعالىٰ التّفضيل في الأخرة لتفاضلهم في الأعمال و تَحمُّل الأثقال و قيل التّفضيل بالشّرائع فمنهم من شرع ومنهم من لَم يَشرع، و قال بعض أخر التّفضيل في الدّنيا و المراد به ما خصّ كلّ واحدٍ منهم بالمنازل الجليلة نحو كلامه لموسىٰ و كارساله محمّد صلى الله عليه وآله الىٰ الكافّة من الجنّ و الإنس ثمّ أنّهم إتّفقوا علىٰ أنّ محمّداً صلى الله عليه وآله أفضل من جميع الأنبياء والمُرسلين ولم يختلف فيه أحد من ذوي العقول السّليمة لقوله صلى الله عليه وآله أنّا سيّد ولد آدم و لا فخر وقوله صلى الله عليه وآله أنّ آدم و من دونه تحت لوائي يوم القيامة و قبل الخوض في المقصود لابدّ لنا من التكلّم في الفضيلة والمراد بها في الآية فنقول الفضل في الأصل الزّيادة عن الإقتصار و ذلك علىٰ ضربين محمود، ومذموم فالفضل المحمود كفضل العلم و الحِلم و الشّجاعة و السّخاوة و الأمانة و أمثالها علىٰ أضدادها.

و المذموم، كفضل الغضب علىٰ ما يجب أن يكون عليه، والفضل في المحمود أكثر إستعمالاً منه في المذموم كما أنّ اللمذموم بالعكس ثمّ أنّ

١- الصّافات = ١٤٧

٢- البقرة = ١٢٤.

الفَضل اذا أستعمل لزيادة أحَد الشّيئين علىٰ الأخر فعلىٰ أقسام ثلاثة:

أحدها: من حيث الجنس كفضل جنس الحيوان علىٰ جنس النّبات.

ثانيها: من حيث النّوع كفضل الإنسان علىٰ الحَيوان وعلىٰ هذا النّحو قوله تعالىٰ: **وَ لَقَدْ كَرَّمْنٰا بَنِيٓ اٰدَمَ**[١].

ثالثها: من حيث الذّات كفَضل رجلٍ علىٰ أخر اذا عرفت هـذا فأعـلم أنّ الأوّلين منها أعني الفضل من حيث الجنس ومن حـيث النّـوع جـوهرّيان لا سبيل للنّاقص فيهما أن يزيل نقصه و أن يستفيد الفَضل كالفرس و الحمار لا يمكنهما أن يكتسبا الفَضيلة التّي خُصّ بها الإنسان.

أمّا القسم الثّالث: فقد يكون عرَضياً فيُوجد السّبيل الىٰ إكتسابه و من هذا النّوع التّفضيل المذكور في الأية:

قال اللّه تعالى: **وَ اَللّٰهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلٰى بَعْضٍ فِى اَلرِّزْقِ**[٢].

قال اللّه تعالى: **مٰا فَضَّلَ اَللّٰهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلٰى بَعْضٍ**[٣].

اذا أحطت بما تَلوناه عليك من أقسام الفَضل فقد علمت أنّ التّفضيل في قوله: **فَضَّلْنٰا بَعْضَهُمْ عَلىٰ بَعْضٍ**، ليس من قسـم الأوّل أعـني بـه التّـفضيل بحسب الجنس و ذلك لأنّ الجنس في جميع الأنبياء واحد فأنّ الإنسان حيوان ناطق، و الحيّوانية جنس لجميع أفراد الإنسان بمعنىٰ أنّه يصدق علىٰ الجميع علىٰ سبيل التّواطوء و لا سبيل للتّشكيك فيها لعدم التّشكيك في الماهّية والىٰ هذا المعنىٰ أشير بقوله تعالىٰ: **قُلْ أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُم** و هو واضح لا خفاء فيه عند التّأمل و أمّا القسمان الأخيران و هما التّفضيل النّوعي والذّاتي، فالأمر يدور مدارهما، فيمكن أن يقال أنّ المراد بالتّفضيل في الآية التّفضيل النّوعي و هو يتمّ بناءٌ علىٰ القول بأنّ المرسلين مثلاً نوعٌ والنّبيين نوع أخر فيقال أنّ هذا النّوع

١- الاسراء = ٧٠ ٢- النحل = ٧١.

٣- النساء = ٣٧.

منهم أعني به المرسلين أفضل من النّوع الأخر و هم غير المرسلين و معلوم أنّ المفضّل هو اللّه تعالىٰ فصّح أن يقال: **تِلْكَ الرُّسُل فَضَّلْنا بَعْضَهُمْ عَلىٰ بَعْضٍ** أو يقال أنّ بعض المُرسلين أفضل من بعضٍ أخر كصاحب الشّريعة من غيره، و يمكن أن يقال بأنّ التّفضيل في الآية تَفضيل الذّاتي كتَفضيل رجلٍ علىٰ أخر بعلمه و زهده و حِلمه وأمثال ذلك و عليه فالمراد به في الآية هو وجود بعض الصّفات و الفضائل في بعض المرسلين أكمل و أتّم منه في بعض أخر و هذا هو الوجه في المقام و ذلك لأنّ دخول التّفضيل في المقام في التّفضيل النّوعي بعيد غاية البعد لأنّ النّوع في الكلّ واحد و أن شئت قلت الحيّوانية جنسٍ و الإنسانّية نوع فكما أنّ الجنس في أولاد آدم واحد كذلك النّوع أعني به الإنسانّية و قد ثبت عدم التّشكيك فيها أيضاً و لذلك قالوا الإنسان كلّيٌ متواطئٌ لصدقه علىٰ أفراد نوعه بالسّوية فلا يمكن القول بأنّ زيداً مثلاً أفضل من عمروٍ من حيث كونه إنساناً نعم يقال أنّه أفضل منه من حيث كونه عالماً أو شجاعاً أو غير ذلك من الصّفات ومن المعلوم أنّ الصّفات في الإنسان زائدة علىٰ ذاته فثبُوت الفضيلة في الصّفة لا يستدعي بثوبتها في الذّات واذا إنتفت الفضيلة النّوعية تبقىٰ الذّاتية وهو المطلوب.

إن قلت هذا الّذي ذكرت من قبيل الكّر علىٰ مافَرّ و ذلك لأنّك نفيت الفضيلة الذّاتية في النّوع فكيف تقول به الأن، قلت أنّما نفيت الفضيلة النّوعية بمعنىٰ إنسانٍ أخر من حيث كونه إنساناً مع قطع النّظر عن صفاته، والأن نثبت الفضيلة باعتبار الصِّفة لا بإعتبار الذّات و أنّما عبرنا عنه بالفضيلة الذّاتية بمعنىٰ سراية الصّفة الىٰ الذّات بإعتبار أنّها قائمة به ففي الحقيقة ما نحن فيه من الفضيلة الوّصفية لا الذّاتية وأنّما أطلّقناها علىٰ الذّات مجازاً بعلاقة الحال والمحلّ أو بعلاقة المجاورة و لذلك نقول فضل العالم علىٰ الجاهل ليس بإعتبار الذّات بل بإعتبار العلم وأن شئت قلت المراد بالفضيلة الذّاتية الفضيلة

الثّابتة لذات الوصف لا لِذات الموصوف مع قطع النّظر عن الوصف فأفهم و تأمّل فيه فقوله تعالىٰ: **فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ** معناه فَضّلنا بعضهم علىٰ بعضٍ بالصّفات الموجودة فيه مثل العلم والقُدرة و الحِلم و غيرها ولاشكّ أنّهم مختلفون من هذه الجهات كمّاً وكيفاً وهذا هو الأصل و الأساس في هذا المضّمار فأنّ الإفاضات علىٰ أساس القابلّيات إمّا سعة دائرة الرّسالة أو أنّ بعضهم صاحب شريعة دون بعض، وأمثال ذلك من الأُمور التّي تمسّكوا بها في إثبات الفضيلة في كتبهم و تفاسيرهم و فضّلوا الكلام فيها فكلّها من فروع ما جعلناه أصلاً في المقام وهو الإتّصاف بالكمالات و الفضائل النّفسانية من المعرفة والعلم والحِلم والهمّة والشّجاعة و أمثالها من الصّفات التّي تحكي عن إستعداد الموصوف و لياقته و قابلّيته اذ لولم يكن الإنسان مستّعداً قابلاً لأن يكون صاحب شريعةٍ مثلاًكيف يصل الىٰ هذا المقام بل كيف يُكلّفه اللّه بذلك أليس هذا من التّكليف بما لا يطاق الّذي إستّقل العقل بقبحه و قد قال اللّه تعالىٰ: **لايُكَلِّفُ ٱللّٰهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا** [1] فاذا قلنا أنّ محمّداً ﷺ أفضل الأنبياء و المرسلين لأنّه بَعث الىٰ كافّة الخلق من الجنّ والإنس، فلقائلٍ أن يقول لم بعث نبّي الإسلام الىٰ كافّة الخلق و لم يُبعث غيره اليها فلابدّ لنا من الجواب بأنّه كان قابلاً لهذا المنصب من حيث إتّصافه بما لم يتّصف به غيره والىٰ هذه الدّقيقة أشار ﷺ بقوله حيث قال لو أدركني أخي موسىٰ ما وسعه إلاّ إتّباعي، و لذلك قال أنا سيّد وُلد آدم و لا فَخر و قال أنّ آدم و من دونه تحت لوائي غداً يوم القيامة، اذ هو ﷺ أعَرَفهم باللّه و أعقلهم و أعلمهم و أتقاهم الىٰ غير ذلك.

أن قلت ألستم تقولون أنّ النّبي يكون إنساناً كاملاً و معنىٰ الكمال كونه واجداً للصّفات الكماليّة من العلم والقُدرة وغيرهما بحيث لا يُوجد إنسان

١- البقرة= ٢٨٦

أفضل و أكمل منه فقولكم بالتّفضيل ينافي ذلك ضرورة أنّ المفضّل أفضل و أكمل من المُفضّل عليه فالجواب عنه أمّا أوّلاً فبأنّ النّبي لابدّ من أن يكون أفضل أهل زمانه هذا اذا كان مُرسلاً وكان مع ذلك صاحب شريعة و أمّا من لم يكن كذلك فلا يكون أفضل و أعلم أهل زمانه أيضاً اذ يمكن أن يكون في زمانه رسولاً أعلم و أفَضل منه كما ترىٰ في لوط النّبي و إبراهيم الخليل فأنّهما كانا في زمانٍ واحد و معلوم أنّ الخليل كان أفضل منه إماماً له نعم النّبي المُرسل يكون أفضل وأعلم أهل زمانه و هذا لاينافي كونه مفضولاً بالنّسبة الىٰ من قبله أو من بعده ألا ترىٰ أنّ عيسىٰ بن مريم كان نبّياً مُرسلاً و هو مع ذلك كان صاحب شريعة أيضاً ولاشكّ لأحدٍ في أفضّليته علىٰ أهل زمانه كائناً من كان و أمّا بالنّسبة الىٰ غير زمانه فلا لأنّ نبّينا كان أفضل منه قطعاً و هكذا في سائر الأنبياء.

و ثانياً، أنّ الكمال في الإنسان مُقولٌ بالتّشكيك يتفاوت بالشّدة والضّعف و الكمال و النّقص و عليه فلا منافاة بين أن يكون الإنسان كاملاً اذا قُيس الىٰ نفسه أو من دونه و لا يكون كاملاً بالنّسبة الىٰ من هو أكمل منه فأن الكمال المطلق لا يوجد في غير اللّه تبارك وتعالىٰ هذا تمام الكلام في أصل الفضيلة بقىٰ في المقام شيئ أخر و هو أنّ هذه الفَضيلة الثّابتة لبعضهم علىٰ بعضٍ أخر هل هو إفاضة من اللّه تعالىٰ أو من أنّها من قبل أنفسهم و بعبارةٍ أُخرىٰ هي إفاضّية محضته أو كسبيّة والّذي يظهر من ظاهر الآية هو الأوّل و هو أنّها من إفاضات اللّه تعالىٰ كما قال: **فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ** حيث نسب الفضيلة الىٰ نفسه و به قال بعض المحقّقين من العامّة والخاصّة، و قيل أنّها كسبّية و أنّما نسبها اللّه تعالىٰ الىٰ نفسه لأنّه كان يوّفقهم علىٰ هذا التّكسُب و إستدّلوا علىٰ المدّعىٰ بأنّه لو لم يكن الفضيلة كسبّية لا دليل لنا علىٰ تفضيلهم علىٰ الملائكة و للبحث فيه مقام أخر سيجئ إن شاء اللّه تعالىٰ.

مِّنْهُمْ مَّنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَ رَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجٰاتٍ

كلمة، من، في قوله: **مِّنْهُمْ**، للتّبعيض أي بعضهم من كَلَّم اللّه والمراد به موسىٰ بن عمران عليه السلام:

قال اللّه تعالى: **إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسٰالاٰتى وَ بِكَلاٰمي**[1].

قال اللّه تعالى: **وَ كَلَّمَ ٱللّٰهُ مُوسٰى تَكْلِيمًا**[2].

و قوله: **وَ رَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجٰاتٍ** قيل المراد به (و منهم نبّينا صلى الله عليه وآله حيث رفعه اللّه علىٰ كلّ الأنبياء بدَرَجات نُقل هذا القول عن ابن عبّاس و مجاهد و الشّعبي و أمثالهم و تبعهم علىٰ ذلك أكثر المفسّرين من المتأخّرين كالطّبري و القُرطبي و الزّمخشري و البيضاوي و الرّازي و غيرهم بل لم نجد في تفاسّيرهم مخالفاً لهذا القول وبه قال الطّبرسي في المجمع و الفيض في الصّافي والشّيخ قدس سره في التّبيان والحاصل أنّ قاطبة المفسّرين من العامّة و الخاصّة إختاروا هذا القول فلبحث في مقامين:

أحدهما: قوله وكَلَّم و **مِّنْهُمْ مَّنْ كَلَّمَ اللّٰهُ**.

الثّانى: قوله **وَ رَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجٰاتٍ**.

أمّا البحث في القمام الأوّل: فنقول قوله: **مِّنْهُمْ مَّنْ كَلَّمَ اللّٰهُ** أي من كَلّمه اللّه هو موسىٰ والدّليل عليه:

قال اللّه تعالى: **وَ كَلَّمَ ٱللّٰهُ مُوسٰى تَكْلِيمًا**[3]

قال اللّه تعالى: **وَ لَمّٰا جٰآءَ مُوسٰى لِمِيقٰاتِنٰا وَ كَلَّمَهُ رَبُّهُ**[4].

ثمّ أنّهم إختلفوا في معنىٰ الكلام في حقّه تعالىٰ بعد إتّفاقهم علىٰ أنّه تعالىٰ متكلّم، والفرق بين الكلام و التكلّم هو أنّ التكلّم أثر الكلام قال بعض المحقّقين الكلام جنسٌ لما يتكلّم به قليلاًكان أو كثيراً فالكلام هو اللّفظ الدّال

١- الأعراف=١۴۴.
٢- النّساء=١۶۴.
٣- النّساء=١۶۴.
۴- الأعراف=١۴٢.

علىٰ المعنىٰ و التكلّم في اللّغة مصدر قولك تكلّمتُ بكذا وهو حدوث فعل أثر الكلام اذا عرفت هذا فنقول لا شكّ أنّ اللّه تعالىٰ متكلّمٌ و اذا كان متكلّماً فله كلام لا محالة لما قلنا أنّ التكلّم أثَر الكلام و قد وَرد في الشّرع نسبة الكلام و التكلّم اليه تعالىٰ فتارةً يقال هذا كلام اللّه مثلاً وتارةً يقال كلّم اللّه موسىٰ تكليماً فعلىٰ الأوّل نثبت له الكلام و علىٰ الثّاني نقول أنّه متكلّم اذ لولا أنّه متكلّمٌ فكيف كلّم اللّه موسىٰ تكليماً ثمّ أنّهم إختلفوا في معنى الكلام في حقّه فعند المعتزلة أنّه تعالىٰ أوجد حروفاً و أصواتاً في الأجسام دالّة علىٰ المراد و قالت الأشاعرة أنّ الكلام في حقّه تعالىٰ معناه أنّه قائم بذاته يعني غير العلم و الإرادة و غيرهما من الصّفات، تدّل عليها العبارات وهو الكلام النّفسي وهو عندهم واحد ليس بأمرٍ و لا نهي ولا غير ذلك من أساليب الكلام والحقّ عندنا هو الأوّل أي أنّه أوجَد أصواتاً وحروفاً في الأجسام وأنّما قالوا ذلك لكونه تعالىٰ منزّهاً عن الجسم والجسمانيّات فلا يتكلّم بسبب الألة لكونه غنّياً عنها في جميع أفعاله فالتكلّم فيه تعالىٰ أنّما يتّوقف علىٰ القُدرة فقط وهي موجودة فيه عامّة لجميع الممكنات و من المعلوم أنّ فعل الكلام بدون الألة من الممكنات فعموميّة القُدرة تدّل علىٰ مقدّورية الكلام بالمعنىٰ المتقدّم أعني به إيجاد الحروف والأصوات في الأجسام لا علىٰ ثبوته في حقّه وأنّما الثّبوت يستفاد من الشّرع والحاصل أنّ الأدلة العقلّية لا تُثبت أنّه تعالىٰ متكلّمٌ بل تثبت أنّه مقدورٌ له تعالىٰ لعموم قُدرته فقول المحقّق الطّوسي ﵀ في التّجريد، و عموم قدرته يدّل علىٰ ثبُوت الكلام لا يخلو عن مسامحة نعم عموم القُدرة بضميمة النّقل من الأيات والأخبار يدّل علىٰ ثبوته في حقّه وكيف كان لا شكّ لأحدٍ من المسلمين في ثبوته فيه تعالىٰ و بذلك ظهر لك أنّ كلامه تعالىٰ حادث ليس بقديم و لتفصيل الكلام فيه موضع أخر، ثمّ أنّ قوله و منهم من كلّم اللّه، يدّل علىٰ أنّ موسىٰ ﵇ قد كَلّم اللّه معه بدليل سائر الأيات و أمّا

هذه الأية فلا دلالة فيها عليه فضلاً عن إختصاص التكلّم به، بل قوله، منهم، حيث أتىٰ، بلفظةٍ، من، التّي تفيد التّبعيض يدّل علىٰ أنّ موسىٰ كان منهم لا أنّه مختّصّ به.

المقام الثّاني: قوله **وَ رَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجٰاتٍ** قالوا المراد بهذا البعض هو نبّينا محمّد صلى الله عليه وآله حيث أنّه صلى الله عليه وآله كان أفضل الأنبياء و أكملّهم وأشرفهم و عليه إتّفاق المفسّرين من العّامة والخاصّة فيما نعلم.

و لقائل أن يقول، أمّا كون الرّسول صلى الله عليه وآله كذلك فلا كلام لنا ولا لأحدٍ من المسلمين فيه و أمّا أنّ المراد من قوله و رفع بعضهم درجات، هو الرّسول صلى الله عليه وآله فلا دليل عليه و علىٰ المدّعي الإثبات بل الحقّ أنّ الآية بصدد بيان مراتب الفضيلة في المرسلين و أنّهم ليسُوا علىٰ حّدٍ سواءٍ في مراتب الفضل فقال منهم من كلّم اللّه كموسى إبن عمرن و غيره و يرفع بعضهم درجات أي و منهم من كان كذلك مثل أنّ اللّه تعالىٰ إتّخذ إبراهيم عليه السلام خليلاً وجمع لداوود الملك و النبوّة و سخّر لسليمان الإنس والجنّ والطّير والرّيح و امثال ذلك ممّا خصّ اللّه بعض أنبيائه به دون بعض و هو يدّل علىٰ رفعة شأنهم و عظم قدرهم عنده و لا يبعد أن يكون الرّسول أيضاً منهم بل هو أرفعهم شأناً و أعظمهم قدراً وأمّا أنّ المراد من هذا الكلام بنبّينا صلى الله عليه وآله فيحتاج الىٰ دليل بل سياق الكلام يأباه لأنّ الغرض من الآية بيان مراتب الفضل في الرّسل للنبّي صلى الله عليه وآله و لذلك قال تعالىٰ تلك الرّسُل أي تلك الرّسل في القرون الماضية كانوا كذلك، وقد قالوا أنّ، تلك، بمعنىٰ أولئك، فيكيف يكون المخاطب داخلاً فيه واللّه تعالىٰ أعلم بمراده.

وَآتَيْنٰا عيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنٰاتُ وَاَيَّدْنٰاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ البيّنات جمع البيّنة وهي الدّلالة الواضحة عقّلية كانت أو محسوسة و سُمّي الشاهدان بيّنة لقوله عليه السلام البيّنة علىٰ المُدّعي واليمين علىٰ من أنكر:

قال اللّه تعالىٰ: **أَفَمَنْ كانَ عَلىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ**[1].

قال اللّه تعالىٰ: **جاءَتْهُمْ رُسُلُنا بِالْبَيِّناتِ**.

و بيّنات عيسىٰ هي إحياء الموتىٰ وإبراء الاكمه و الابرص و خلق الطّير من الطّين و غير ذلك ممّا سيأتي الإشارة اليه في تفسير الأيات في المستقبل إن شاء اللّه تعالىٰ.

و أمّا روح القُدس فالمراد به جبرائيل عليه السلام وإختلفوا في سبب تسميته به فقال قوم سمّي به لأنّه يحيي بما يأتي من البيّنات الأديان كما تحيي الارواح بالأبدان و قال الآخرون سُمّي بالرّوح لأنّ الغالب عليه الرّوحانية وكذلك سائر الملائكة و أنّما خصّ بهذا الإسم تشريفاً له.

ثالثها: أنّه سُمّي به و أضيف الىٰ القُدس لأنّه كان تبكوين اللّه أيّاه روحاً من عنده من غير ولادة والدٍ ولدّه.

رابعها: أنّ المراد بروح القُدس الانجيل كما سُمّي القرآن روحاً في قوله تعالىٰ وكذلك أوحينا اليك رُوحاً من أمرنا فكذلك سُمّي الإنجيل روحاً.

خامسها: أنّ الرّوح الّذي هو إسم كان عيسىٰ يُحيي به الموتىٰ.

سادسها: هو الرّوح الّذي نفخ فيه فأضافه الىٰ نفسه تشريفاً كما قال بيت اللّه و ناقة اللّه، قال الطّبرسي بعد نقله الأقوال المذكورة أقوىٰ الأقوال والوجوه قوله من قال هو جبرائيل و اذا قيل لم خصّ عيسىٰ من بين الأنبياء بأنّه مؤيّد بجبرائيل وكلّ نبّي مؤيّد به يقال له أنّما خصّ بذلك لثبُوت إختصاصه به من صِغره الى كبره فكان يسير مَعه حيث سار وكان تمثَّل لمريم عند حملها به و بشَّرها به و نفخ فيها و أمّا القُدس فقيل معناه الطّهر و قيل معناه البركة و قيل غير ذالک من الوجوه.

وَلَوْ شاءَ اللّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ ما جاءَتْهُمُ الْبَيِّناتُ

١- هود = ١٧

الضّمير في قوله: **مِنْ بَعْدِهِمْ**، يرجع الىٰ الرّسل أي من بعد الرّسل قيل في معناه أي ولو شاء اللّه لم يقتتل الّذين من بعد الأنبياء بأن يُلجئهم الىٰ الإيمان و يمنعهم عن الكفر إلاّ أنّه تعالىٰ لم يلجئهم الىٰ ذلك لأنّ التكلّيف لا يحسن مع الضرّورة و الإلجاء و الجزاء لا يحسن إلاّ مع التّخلية والإختيار، و قيل معناه، لو شاء اللّه ما أمرهم بالقتال: **مِّنْ بَعْدِ مٰا جٰآءَتْهُمُ الْبَيِّنٰاتُ** لأنّ الحجّة قد تمّت بالبعث و المقصود قد حصل بإيمان من آمنَ من قبل القتال، هذا و قال الطّبري في تفسيره يعني تعالىٰ ذكره بذلك و لكن إختلف هؤلاء الّذين من بعد الرّسل لما لم يشاء اللّه منهم أن لا يقتّلوا، فأقتتلوا من بعد ما جائتهم البّينات من عند ربّهم بتحريم الإقتتال والإختلاف وبعد ثبوت الحجّة عليهم بوحدانيّة اللّه و رسالته رُسله و وحى كتابه فكفر باللّه وبآياته بعضهم و آمن بذلك بعضهم فأخبر تعالىٰ أنّهم أتوا ما أتوا من الكفر والمعاصي بعد علمهم بِقيام الحجّة عليهم بأنّهم علىٰ خطأ تعمّداً منهم لِلكفر باللّه وآياته ثمّ قال ولو شاء اللّه ما أقتتلوا أي ولو أراد اللّه أن يحجزهُم بعصمته و توفيقه إيّاهم عن معصيته انَ يقتتلوا ما أقتتلوا و لا إختلفوا و لكّن اللّه يفعل ما يريد بأن يُوفّق هذا لِطاعته، والإيمان به فيؤمن به و يطيعه و يخذل هذا فَيكفُر به و يعصيه إنتهىٰ ما ذكره.

وَلٰكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مِّنْ اٰمَنَ وَمِنْهُمْ مِّنْ كَفَرَ وَلَوْ شٰآءَ اللّٰهُ مَاقْـتَتَلُوا وَلٰكِنَّ اللّٰهَ يَفْعَلُ مٰا يُرِيدُ

أي أنّ مَنشأ القتال بينهم بعد الأنبياء هو إختلافهم في دينهم فَمنهم من آمن بِالرّسول، ومنهم من كفر به، ولو شاء اللّه ما أقتتلوا أي ما أختلَفوا فما إقتتلوا و لكن اللّه يفعل ما يُريد.

أقول ما ذكروه في تفسير كلامه تعالىٰ لا يناسبه اذ لا يخلو من شائبة الجبر خصوصاً ما ذكره الطّبري لأنّ ظاهر كلامه أنّ الإقتتال فيهم كان بمشيّئته و ارادته ولو لم يشاء لم يكن والحقّ أنّ المستفاد من الآية هو أنّ منشأ الإقتتال فيهم

الإختلاف و تشّتت الأراء وعدم متابعتهم الحقّ فلو كانت الأمّة بعد النّبي مُتّفقة علىٰ متابعة أحكام الدّين التّي جاء بها النّبي لأمر دينهم و دنياهم لما كان بينهم إختلاف و اذا لم يكن إختلاف لم يكن إقتتال و لكن وقع الإختلاف فإقتتلوا و هذه السَّببية و المسببّيته من سنّة الإيجاد في عالم الطّبيعة فقوله: **وَلَوْ شَآءَ اللّٰهُ مَااقْتَتَلُوا** معناه ولو شاء اللّه تكويناً ما إقتتلوا وتوضيح ذلك إجمالاً هو أنّ في المّشيئة قولين:

أحدهما: أنّها و الإرادة بمعنىٰ واحد و ذلك قول أكثر المتكلّمين حيث قالوا المشيئة كالإرادة سواء و الإختلاف في اللّفظ.

ثانيها: أنّ الفرق بينهما بأنّ المّشيئة في الأصل إيجاد الشّئ و إصابته فالمّشيئة من اللّه الإيجاد و من النّاس الإصابة اذا عرفت هذا فنقول أمّا علىٰ القول الأوّل أعني به وحدة المّشيئة و الإرادة فالمعنىٰ لو أراد اللّه تكويناً عدم الإختلاف و الإقتتال ما إقتتلوا و ذلك لأنّ اللّه تعالىٰ كان قادراً علىٰ إيجاد الإنسان خالياً عن الإختلاف و الإقتتال كما في إيجاد الملائكة ولكنّه لم يرد هذا بل خلق الإنسان قادراً علىٰ الإختلاف الموجب للقتال.

و أمّا علىٰ القول الثّاني فالمعنىٰ في ولو شاء اللّه، لو أوجده اللّه و هو يرجع الى المعنىٰ الأوّل و محصّل الكلام أنّ اللّه تعالىٰ لم يرد إيجاد البشر في عالم التّكوين غير قادرٍ علىٰ الإختلاف و القتال ولو شاء كذلك لفعل، و أمّا بحسب التّشريع فلم يرد الإختلاف والقتال قطعاً و لذلك أمَرنا بالوحدة:

قال اللّه تعالىٰ: **وَ اَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اَللّٰهِ جَمِيعًا وَ لَا تَفَرَّقُوا**[١].

قال اللّه تعالىٰ: **مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى اَلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ اَلنَّاسَ جَمِيعًا**[٢]. و سيأتي الكلام في هذه الأُمور بوجه أبَسط.

■

١- آل عمران=١٠٣.

٢- سورة المائدة=٣٢

يٰاَيُّهَا الَّذِينَ اٰمَنُوا اَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنٰاكُمْ مِنْ قَبْلِ اَنْ يَاتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفٰاعَةٌ وَالْكٰافِرُونَ هُمُ الظّٰالِمُونَ ﴿٢٥٤﴾

◁ اللّغة

اَنْفِقُوا: الإنفاق معلوم يقال أنَفَق الشّيئ مضىٰ و نَفِد.

رَزَقْنٰاكُمْ: الرّزق تارة يقال للعطاء الجاري دنّيوياً كان أم أُخرَوياً وتارةً أُخرىٰ يقال للنّصيب، ولما يَصل الىٰ الجوف ويتّغذىٰ به و هو لا يختّص بالمال و لذلك يقال رُزقت علماً.

لَا بَيْعٌ فِيهِ: البَيع إعطاء الثّمن وأخذ الثّمن و الشّراء بالعكس.

وَلَا خُلَّةٌ: الخُلَة بضمّ الخاء مودّة متناهية في الإخلاص وصداقة قد تخلّلت القلب و صارت خلاله أي باطنه والمعنىٰ لا بَيع فيه و لا خلال أي لا مخالّة و لا مصادقة.

وَلَا شَفٰاعَةٌ: الشّفاعَة من الشَّفِع و هو ضمّ الشّيئ الىٰ مثله فالشّفاعة الإنضمام الىٰ أخر ناصراً له و سائلاً عنه فأكثر ما يُستعمل في إنضمام من هو أعلىٰ حرمةً ومرتبةً الىٰ مَن هو أدنىٰ.

◁ الإعراب

اَنْفِقُوا مفعوله محذوف أي شيئاً **مِمَّا** ما، بمعنىٰ الذّي والعائد محذوف أي رَزقناكمُوه **لَا بَيْعٌ فِيهِ** في موضع رفع صفة ليوم **وَلَا خُلَّةٌ** أي فيه **وَلَا شَفٰاعَةٌ** أي فيه.

◁ التّفسير

الخطاب في الآية للمؤمنين يأمرهم اللّه بالإنفاق ممّا رزقهم والإنفاق المأمور به علىٰ وجه الفَرض هو الزّكاة و غيرها و قال ابن جريح يدخل في

الخطاب الزّكاة والتّطوع و قوله: **مِنْ قَبْلِ اَنْ يَاتِيَ يَوْمٌ** الىٰ قوله: **شَفٰاعَةٌ** فيه إشارة الىٰ عِظم أهوال يوم القيامة و شدائدها فأنّ المراد باليوم الذّي **لٰا بَيْعٌ فِيهِ وَلٰا خُلَّةٌ وَلٰا شَفٰاعَةٌ** يوم القيامة فقوله: **لٰا بَيْعٌ فِيهِ** معناه لا يمكن في القيامة إبتياع حسنة و قوله: **وَلٰا خُلَّةٌ** أي لا يمكن إستجلاب الحَسنة بالمَوّدة و ذلك إشارة الىٰ قوله: **وَ أَنْ لَيْسَ لِلْاِنْسٰانِ إِلّٰا مٰا سَعىٰ**(١) و قوله: **لٰا بَيْعٌ فِيهِ وَلٰا خُلَّةٌ** وأمّا قوله **وَلٰا شَفٰاعَةٌ** لهم في هذا المورد خاصّة أو المعنىٰ لا شفاعة في بعض الموارد ومنه هذا و أنّما قلنا ذلك لأنّ أصل الشّفاعة في القيامة لا يقبل الإنكار إلاّ أنّها مقيّدة ببَعض القُيود والشّرائط و سيجيئ الكلام فيها عند قوله: **مَنْ ذَا الَّذي يَشْفَع عِنْدَهُ اِلاّ بِأذنِهِ** مفصّلاً فسلب الخاصّ لا يوجب سلب العامّ، و أمّا قوله: **وَالْكٰافِرُونَ هُمُ الظّٰالِمُونَ** فالظّاهر هو أنّ المراد بالكافر في المقام السّاتر للحقّ فهو من قبيل:

قوله: **وَ مَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذٰلِكَ فَأُولٰئِكَ هُمُ الْفٰاسِقُونَ**(٢).

و يحتمل أن يكون المراد بالكفر كفران النّعمة نحو قوله أنّ الإنسان لكفور:

و قوله: **وَ لِلّٰهِ عَلَى ٱلنّٰاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ** الىٰ قوله: **وَ مَنْ كَفَرَ فَإِنَّ ٱللّٰهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعٰالَمِينَ**(٣).

و امثال ذلك من معاني الكُفر و ليس المراد به الكفر بمعنى الشّرك و الإرتداد ضرورة من لا ينفق و لو كان الإنفاق واجباً مثل الزّكاة، لا يعدّ من الكافرين بالمعنىٰ لا مصطلح أعني به الشّرك مثلاً اذا لم ينكر شيئاً من الضرّوريات نعم في هذه الصّورة فهو كافر خارج عن الإسلام والأية ليست بصدد بيان الكُفر بهذا المعنىٰ وهو واضح و المراد بالظّلم هنا ظلمه علىٰ نفسه

١- النجم = ٣٢
٢- النور = ٥٥
٣- آل عمران = ٩٧

أو علىٰ غيره أن ضيع حقّه و قال بعض المفسّرين أنّما ذمّ اللّه تعالىٰ الكافر بالظّلم و أن كان الكفر أعظم منه لأمرين:

أحدهما: للدّلالة علىٰ أنّ الكافر قد ضرّ نفسه بالخلود في النّار فقد ظلم نفسه.

ثانيهما: أنّه لمّا نفي البيع في ذلك اليوم والخلّة و الشّفاعة قال و ليس ذلك مِنّا بل الكافرون هم الظّالمون لأنّهم عملوا ما إستّحقوا به حرمان الثّواب قال بعض المحقّقين أنّ اللّه تعالىٰ حثَّ المؤمنين في هذه الآية و أمثالها علىٰ الإنفاق ممّا رزقهم من النّعماء النّفسية والبدنيّة الجارّحية و أن كان الظّاهر في التّعارف إنفاق المال و لكن قد يراد به بذل النّفس والبدن في مجاهدة العدّو والهوىٰ و سائر العبادات و لمّا كانت الدّنيا دار إكتساب و إبتلاء والأخرة دار ثوابٍ وجزاء بيّن أنّه لا سبيل للإنسان الىٰ تحصيل ما ينتفع به في الأخرة فابتلىٰ بذكر هذه الثّلاثة لأنّها أسباب إجتلاب المنافع المفيضة اليها.

أحدها: المعاوضة و أعظمها المبايعة.

الثّاني: ما تناوله بالمّودة و هو المّسمىٰ بالصِّلات والهدايا.

الثّالث: ما يصل اليه بمعاونة الغير و ذلك هو الشّفاعة و لمّا كانت العدالة بالقول المجمل ثلاثاً، عدالة بين الإنسان و نفسه و عدالة بينه و بين النّاس و عدالة بينه و بين اللّه فكذلك الظّلم له مراتب ثلاث ظلم الإنسان علىٰ نفسه و ظلمه علىٰ غيره و ظلمه علىٰ اللّه وهو الشّرك به، و أعظم العدالة ما بين العبد و بين اللّه هو الإيمان و أعظم الظّلم ما يقابله وهو الكفر و لذلك قال و الكافرون هم الظّالمون، أي هم المُستحقّون لإطلاق هذا الوصف عليهم بلا مشوبة فليسارع العبد الىٰ تقوّية الإيمان بالإنفاق و الإحسان انتهىٰ ما ذكره.

■

اللّٰهُ لا اِلٰهَ اِلاّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ و لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ لَّهُ ما فِي السَّمٰواتِ وَما فِي الْاَرْضِ مَنْ ذَاالَّذي يَشْفَعُ عِنْدَهٓ اِلاّ بِاِذْنِهِ يَعْلَمُ ما بَيْنَ اَيْديهِمْ وَما خَلْفَهُمْ وَلا يُحيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهٓ اِلاّ بِما شٰآءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمٰواتِ وَالْأَرْضَ وَلا يَؤُدُهُ حِفْظُهُما وَهُوَ الْعَلِّي الْعَظيمُ ﴿۲۵۵﴾

◁ اللّغة

اللّٰهُ: علمٌ علىٰ الأصّح للذّات الواجب الوجود المُستجمع لجميع الصّفات الكمالّية و يعبّر عنه بإسم الجلالة وقد مضىٰ البحث فيه في أوائل الفاتحة بما لا مزيد عليه و بيّنا هناك مأخذ إشتقاقه.

الْحَيُّ الْقَيُّومُ: و هما أيضاً إسمان له تعالىٰ ياحَيّ و يا قَيّوم، فالحيّ إشارة الىٰ حياته تعالىٰ و القيّوم أي القائم الحافظ لكلّ شيءٍ والمعطي له ما به قوامه.

سِنَةٍ وَلا نَوْمٌ: السِّنة بكسر السّين قيل هي النّعاس وهو ما كان في العين فاذا صار في القلب صار نوماً و قيل السِّنة من الرأس والنِّعاس في العين و النَّوم في القلب و قال ابن زيد أبو سنان الّذي يقوم من النّوم و هو لا يعقل، والأصل في سِنة و سَنَة حذفت الواو كما حذفت من سين و قال الرّاغب فى المفردات الوسن و السنّة الغفلة والغفوة قال: **لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ** و قال بعض أهل اللّغة، السِنّة فتورٌ يتقدّم النّوم، هو في سنة أي غفلةٍ، و السنة مصدر قلّة النّوم، النّعاس و أمّا النّوم فهو معلوم قيل في بيان ماهيّته أنّه إسترخاء أعصاب الدّماغ برطوبات البخار الصّاعد اليه و قيل هو أن يتوفىٰ اللّه النَّفس من غير موتٍ.

كُرْسِيُّهُ: الكُرسى في تعارف العامّة إسمٌ لما يقعد عليه و هو في الأصل منسوبٌ الىٰ الكرسي أي المجتمع ومنه الكرّاسة لِلمتكّرِس من الاوراق.

وَلَا يَؤُدُهُ: أي لا يثقله وأصلهُ من الأوَد، أَدّ، فيؤد أوداً، و أياداً، اذا أثقله.
الْعَلِّى الْعَظِيمُ: العلّي بفتح العين وكسر اللاّم هو الرّفيع القدر مأخوذ من علىٰ، وصف اللّه تعالىٰ به فمعناه، يعلو أن يحيط به وصف الواصفين بل علم العارفين.
الْعَظِيمُ: بفتح العين ضدّ الصَّغير يقال عظم عظماً و عظامة فهو عظيم.

◁ الإعراب

اللّٰهُ لَا اِلٰهِ اِلاّ هُوَ مبتدأ و خبر **الْحَىُّ الْقَيُّومُ** يجوز أن يكون خبراً ثانياً وأن يكون خبر مبتدأ محذوف أي هو، و أن يكون مبتدأ و الخَبر، لا تأخذه، و أن يكون بدلاً من هو، أو مِن لا إلٰه، والقيّوم، فيعول، من قام يقوم فلّما اجتمعت الواو و الياء و سبقت الأولىٰ بالسّكون قلبت الواو ياء و أدغمتا **لاتَأخُذُهُ** يجوز أن يكون مستأنفاً و أن يكون له موضع وفيه وجوه. أحدها: أن يكون خبراً أخر لِلّه، أو خبراً للحىّ أو أن يكون في موضع الحال من الضّمير في القيّوم أي يقوم بأمر الخلق غير غافلٍ سِنَةِ أصلها، وسِنة، والفعل منه، وَسَن يَسَنُ مثل، وَعَد يَعُد فلمّا حذفت الواو في الفعل حُذفت في المصدر **وَلا نَوْمٌ** قيل، لا زائدة للتّوكيد و فائدتها أنّها لو حذفت لاحتمل الكلام أن يكون لا تأخذه سنة و لا نوم في حالةٍ واحدة فاذا قال، ولا نومٌ نفاهما علىٰ كلّ حال **له ما في السّموات** يجوز أن يكون خبراً أخر لما تقّدم و أن يكون مستأنفاً.

◁ التّفسير

اللّٰهُ لَا اِلٰهِ اِلاّ هُوَ الْحَىُّ الْقَيُّومُ يعني الذّات المستجمعة لجميع الكمالات والخيرات لأنّه تعالىٰ لمّا كان صرِف الكمال و محض الخير فلو كان فاقداً لكمالٍ وخيرٍ من حيث هما كمال وخير لتّركب ذاته من الكمال و الخير وفَقدهما فتحقّق فيه شيءٌ و شيءٌ و هذا خلفٌ و السِّر فيه هو أنّه تعالىٰ بسيط

الحقيقة و صرف الكمال و لا ميز في صرف الشّئ اذ الشّئ لا يتثنّىٰ و لا يتكرّر بنفسه كما قال الحكماء صرف الوجود الذّي لا اتمّ منه كلّما فرضت له ثانياً فهو هو لا غيره **لاٰ اِلٰه الاّ اللّٰه** كلمة، لا لنفي الجنس، و**إلٰه**، إسمٌ لكلّ معبودٍ لهم لأنّه مشتقّ من، **أَلَه** بمعنى عبد و قيل من **اَلِه** بكسر اللاّم بمعنىٰ تحيَّر فقوله **لا إلٰه** نفي لجنس المعبود أي لا مَعبود، **إلاّ اللّٰه** إلاّ لذّات الواجب الوجود و قيل أصل، اللّه، إله، فحذفت همزته وأُدخل عليه الألف و اللاّم فَخصّ بالبارئ تعالىٰ وكيف كان ففي قوله تعالىٰ: **لاٰ اِلٰهِ اِلاّ هُوَ** نفي الألهة بالكلّية في قوله: **لا إلٰه** و إثبات الألوهيّة للذّات الواجب في قوله: **اِلاّ هُوَ** و مرجع الضّمير، اللّه أي لا إلٰه إلاّ اللّه، في صدر الكلام كما هو الظّاهر لأهل الظّاهر من المفسّرين و أمّا أن قلنا أنّ هذه الكلمة إشارة الىٰ مقام الهُوّية المحضة والغَيب المطلق الّذي هو خال عن جميع التّعينات و الصّفات و الأسماء بحيث لا يمكن التّعبير منه إلاّ بكلمة هو، فالمعنىٰ نفي المَعبّودية عن كلّ ما سواه وإثباتها لمقام الهُوّية المحضة أي لا معبود إلاّ هو، و الى هذا المقام أشار اللّه تعالىٰ في سورة الإخلاص بقوله: **قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ** فقدّم مقام الهُوّية علىٰ مقام الإسم الدّال علىٰ المُسمّىٰ وسيأتي الكلام في هذه الدّقيقة هناك إن شاء اللّه تعالىٰ و ملّخص الكلام في المقام هو أنّه علىٰ التفسّير الظّاهر المشهور يرجع الكلام الىٰ لا اله إلاّ اللّه كما مرّ و على الثّاني يرجع الىٰ لا إله إلاّ هو أي لا إلٰه إلاّ ذاته المُجرد عن الأسماء و الصّفات و الفرق بين المقامين مشكل للعوام (الحَيّ القَيّوم) قال الشّيخ في التّبيان، والحَيّ هو من كان علىٰ صفةٍ لا يستحيل مَعها كونه عالماً قادراً و أن شئت قلت هو من كان علىٰ صفةٍ يجب لأجلها أن يدرك المدركات اذا وجدت و القَيّوم قيل في معناه أربعة أقوال:

أحدها: قال الحَسَن أنّه القائم علىٰ كلّ نفس بما كسبت حتّىٰ يجازيها بعملها من حيث هو عالم لا يخفىٰ عليه شئ منه.

الثاني: قال سعيد بن جبير أنّ معناه الدّائم الوجود.

الثالث: قال قتادة معناه القائم بتدبير خلقه.

الرّابع: قال قوم أنّ معناه العالم بالأُمور من قولهم فلان قيّوم هذا الكتاب أي عالمٌ به انتهىٰ.

ما ذكره و قال الطّبرسي في الحَيّ كما قال الشّيخ ﷺ و قد بيّناه و في القيّوم، القائم بتدبير خلقه من أنشأئهم ابتداءً و إيصال أرزاقهم اليهم نقله من قتادة ثمّ ذكر سائر الأقوال المذكورة و الحاصل أنه لم يأت بشئٍ جديد في تفسيرهما غير ما نقلناه عن التّبيان، و قال القُرطبي من العامّة، الحَيّ إسمٌ من أسماءه الحُسنىٰ يُسمّىٰ به و يقال أنّه إسم اللّه تعالىٰ الأعظم، ثمّ نقل عن الطّبري أنّه قال يقال حَيّ قيّوم كما وصف و يسلّم ذلك دون أن يُنظر فيه، ثمّ قال القُرطبي و قيل سمّىٰ نفسه حيّاً لصرفه الأُمور مصاريفها و تقدّيره الأشياء مقاديرها، و نقل عن قتادة أنّه قال الحَيّ، الّذي لا يموت و من السّدي، الحَيّ الباقي انتهىٰ.

وقال في الكشّاف، الحَيّ، الباقي الّذي لا سبيل عليه للفناء وهو علىٰ إصطلاح المتكلّمين الذّي يصّح أن يعلم و يقدر، والقيّوم الدّائم القيام بتدبير الخلق و حفظه انتهىٰ.

و قال البيضاوي، الحَيّ الذّي يصّح أن يعلم ويقدر و كلّ ما يصّح له فهو واجب لايزول لإمتناعه عن القّوة والإمكان، والقيّوم الدّائم القيام بتدبير الخلق انتهىٰ.

أقول هذه الأقوال هي رؤوس كلماتهم في تفسير هذين اللّفظين وأنّما نقلنا اقوالهم ليكون النّاظر فيها علىٰ بصيرةٍ فيما نذكره فنقول:

أنّ الحياة تستعمل علىٰ وجوهٍ:

الأوّل: للقوّة النّامية الموجودة في النّبات والحيوان و منه قيل نباتٌ حَيّ و حيوان حيّ واليه الإشارة:

قال اللّه تعالىٰ: **اِعْلَمُوٓا أَنَّ ٱللّٰهَ يُحْيِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهٰا**[١]

قال اللّه تعالىٰ: **وَ أَحْيَيْنٰا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا**[٢].

قال اللّه تعالىٰ: **وَ جَعَلْنٰا مِنَ ٱلْمٰآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَيٍّ**[٣].

الثّاني: للقوّة الحسّاسة وبه سُمّي الحيوان حيواناً:

قال اللّه تعالىٰ: **وَ مٰا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيٰآءُ وَ لَا ٱلْأَمْوٰاتُ**[٤].

قال اللّه تعالىٰ: **أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفٰاتًا، أَحْيٰآءً وَ أَمْوٰاتًا**[٥].

قال اللّه تعالىٰ: **إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيٰاهٰا لَمُحْيِ ٱلْمَوْتىٰٓ إِنَّهُ عَلىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ**[٦]

فَقوله: أحياها إشارة الىٰ القّوة النّامية وقوله لمُحي الموتىٰ إشارة الىٰ القّوة الحسّاسة.

الثّالث: للقوّة العاقلة العاملة ومنه:

قال اللّه تعالىٰ: **أَوَ مَنْ كٰانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنٰاهُ**[٧]

و قول الشّاعر:

وقـد نـاديتَ لو أسـمعتَ حـيّاً ولكـن لا حـياة لِـمَن تُـنادي

الرّابع: عبارةٌ عن إرتفاع الضَّم واليه أشار الشّاعر بقوله:

لَـيس مـن مـاتَ فـإستَراح بـميتٍ أنـما المَـيت مَـيّتُ الأحـياء

وقال اللّه تعالىٰ: **وَ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا فِى سَبِيلِ ٱللّٰهِ أَمْوٰاتًا بَلْ أَحْيٰآءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ**[٨].

أي هم متلذّذون لما روي في أخبار كثيرة في أرواح الشّهدا.

الخامس: الحياة الأُخرّوية الأبدّية و ذلك يتوصّل اليه بالحياة الّتي هي العقل والعلم:

١- الحديد = ١٧ ٢- ق = ١١
٣- الانبياء= ٣٠ ٤- الفاطر = ٢٢
٥- المرسلات = ٢٥/٢٦ ٦- الفصلت =٣٩
٧- الانعام = ١٢٢ ٨- آل عمران = ١٦٩

قال اللّه تعالىٰ: **اَسْتَجِيبُوا لِلّٰهِ وَ لِلرَّسُولِ إِذٰا دَعٰاكُمْ لِمٰا يُحْيِيكُمْ**[١].

قال اللّه تعالىٰ: **يٰا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيٰاتِي**[٢]. يعني بها الحياة الأُخرّوية الدّائمة.

السّادس: الحياة التّي يوصف بها الباريّ تعالىٰ وهذه هي المراد في المقام إختلفوا في المراد بها فيه تعالىٰ بعد إتّفاقهم علىٰ أصل وجودها وثبوتها في حقّه فقال جمهور المتكلّمين أنّها صفة توجب صحّة العلم و القُدرة قال العلاّمة الحلّي ﷺ في شرح التّجريد عند قول المَصنف وكلّ قادرٍ عالمٍ حَيّ بالضّرورة، ما هذا لفظه إتّفق النّاس علىٰ أنّه تعالىٰ حَيّ وإختلفوا في تفسّيره فقال قوم أنّه عبارة عن كونه تعالىٰ لا يستحيل أن يقدر و يعلم و قال أخرون أنّه من كان علىٰ صفةٍ لأجلها يصّح أن يعلم ويقدر ثمّ قال ﷺ و التحقّيق أنّ صفاته تعالىٰ أن قلنا بزيادتها علىٰ ذاته فالحياة صفة ثبّوتية زائدة علىٰ الذّات و إلاّ فالمرجع بها الىٰ صفة سلبّية و هو الحقّ و قد بَيّنا أنّه تعالىٰ عالمٌ قادرٌ فيكون بالضّرورة حيّاً لأنّ ثبوت الصّفة فرع عدم إستعالتها انتهىٰ ماذكره و قال القوشجي في شرحه عند كلام المصنّف إتّفق جمهور العقلاء علىٰ أنّه تعالىٰ حَيّ و إختلفوا في معنىٰ الحياة فقال جمهور المتّكلمين أنّها صفة توجب صحّة العلم والقدرة الحكماء و أبو الحسين البصري من المعتزلة أنّها كونه بحيث يصّح أن يعلم و يقدر انتهىٰ.

أقول ما نسبه القوشجي الىٰ الحكماء ليس بصحيح و ذلك لأنّهم يقولون الحَيّ هو الدَّرّاك الفعال، قال بهمنيار في التّحصيل أنّ الحَيّ هو الدّراك الفَعال و هذان الوصفان له تعالىٰ بذاته ومعنىٰ قولى بذاته أنّ وجوده تعالىٰ حياته فأنّ وجوده تعالىٰ هو كونه بحيث يصدر عنه أفعال الحياة انتهىٰ.

قال بعض الفلاسفة بعد نقله ما نقلناه عنه ما هذا لفظه، و محصول كلامه أنّه

١- الانفال = ٢٤   ٢- الفجر = ٢٤

تعالىٰ حيّ بذاته بمعنىٰ أنّ وجوده الّذي هو عين ذاته مصدر لأثر الإدراك و أفعال الحياة فيصدّق علىٰ ذاته بحيث يَصدر عنه أفعال الحياة و آثار الإدراك إنتهىٰ.

و قال الصّدر الشيرازي في الأسفار ما حاصله أنّ الحياة الّتي تكون عندنا في هذا العالم تتّم بإدراكٍ و فعلٍ و الإدراك في حقّ أكثر الحيوانات لا يكون غير الإحساس كما أنّ الفعل لا يكون إلاّ التحرّيك المكاني المنبعث عن الشّوق و حَيث أنّ هذين الأثرين مُنبعثان عن قُوتّين مُختلفتين أحديهما مدركة و الأخرىٰ مُحركّة فلاجَرم من كان إدراكه أشرف من إحساسه كالتّعقل و نحوه و كان فعله أرفع من مُباشرة التّحريك كالابداع و شبهه، يكون أولىٰ بإطلاق إسم الحياة عليه و ذلك لأنّ، من كان مبدأ ادراكه بعينه هو نفس مبدأ فعله من غير تغاير أيضاً أحّق بهذا الإسم لبرائته عن التّركيب إذا التّركيب مستلزم للإمكان و الأفتقار لإحتياج المركّب في قوام وجوده الىٰ غيره و الإمكان ضربٌ من العدم المقابل للوجود والموت المقابل للحياة والدّثور المقابل للبقاء فالحقّ الحقيقي ما لا يكون فيه تركيب أصلاً، إذا عرفت هذه المقّدمة فنقول لاشكّ فى انّ واجب واجب الوجود بسيط الحقيقة أحدى الذّات و الصّفة فردّاني القوّة والقُدرة وأنّ نفس تعقّله للأشياء هو نفس صدورها عنه وأنّ معنىٰ واحداً بسيطاً منه عقل لِلكلّ ومَنشأً لِلكلّ فهو أحقّ و أليق بإسم الحياة من جميع الأحياء كيف و هو مُحيي الأشياء ومُعطي الوجود و كمال الوجود كالعلم و القُدّرة لكلّ ذي وجودٍ وعلمٍ وقُدرةٍ انتهىٰ ملّخصاً.

أقول الحقّ أنّ الواجب تعالىٰ صرف النّور و محض الوجود و قد ثبت في موضعه أنّه عالم بالأشياء قادر عليها و قد ثبت أيضاً أنّ علمه بها حُضوّري بمعنىٰ حضور الأشياء عنده لا حصولّي كسبي كما هو في حقّنا كذلك فحينئذٍ علمه بها و قدرته عليها لا يتّم إلاّ بعد كونه حيّاً و هو واضح و صورة القياس

هكذا، و قد ثَبت أنّه تعالىٰ عالمٌ قادر، وكلّ من هو كذلك فهو حيٌّ فاللّه تعالىٰ حيٌّ و هو المطلوب.

ثانياً: أنّه تعالىٰ مُحيئ الموجودات و موجدها، وكلّ من كان كذلك فهو حَيٌّ لأنّ مُعطي الشيئ لا يكون فاقداً له فهو حَيٌّ.

ثالثاً: قد ثبت أنّ الممكن يحتاج في بقائه الىٰ المؤثر كما أنّه يحتاج اليه في حُدوثه ومن المعلوم أنّ المؤثر المعدوم لا أثَر له فالمؤثر موجودٌ المطلوب.

هذا كلّه من طريق العقل وأمّا النّقل أعني به الأيات والأخبار الدّالة علىٰ كونه تعالىٰ حَيّاً فلا نحتاج الىٰ ذكرها.

و أمّا القيّوم فقد عرفت ممّا سبق أنّ المفسّرين فسّروه بأنّه قائم بذاته و مدبّر لخلقه، والحقّ في معناه هو أنّه القائم بذاته و ما سواه قائم به كما قيل بالفارسيّة:

زيــــر نشــين عَــلَمت كــائنات　　　ما بـتو قـائم چـه تـو قـائم بـذات

فيصير المعنىٰ أنّه الحّي القائم بالذّات والحافظ لغيره بقيامه به بمعنىٰ أنّ ما سواه كائناً من كان لا قوام له بذاته وهذا هو معنىٰ الفقر الذّاتي الثابت لجميع الممكنات المشار اليه في قوله تعالىٰ:**يآ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنْتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللّٰهِ وَ ٱللّٰهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ**[1] **قال رسول اللّه الفقر سواد الوَجه في الدّارين** كما قيل:

ســيه رونــي ز مُـمكن در دو عـالم　　　جــدا هــرگز نشــد واللّـه أعـلم

هذا ما فهمنا من الآية الشّريفة، وكم ترَك الأوائل للاواخر:

لاتَأَخُذُهُ سِنَةٍ وَلا نَوْمٌ نهىٰ اللّه تعالىٰ في هذا الكلام السِنّة و النّوم عن ذاته و قد قلنا أنّ **السِنّة** بكسر السّين النّعاس و هو النّوم الخَفيف أو مقدمة النّوم أو ما شئت فسمّه و أمّا النّوم فقيل أنّه إسترخاء أعصاب الدّماغ بـرطوبات البـخار

١- الفاطر = ١٥

الصّاعد اليه واللّه تعالىٰ مُنزّهٌ عن السِّنة والنّوم و ذلك لأنّه من لوازم الأجسام الّتي لها أرواح البُخاريّة كالحيوان والإنسان وحيث قد ثبت أنّه تعالىٰ منزّه عن الجسم و الجسمانيّات فلا يتّصف بهذه الأوصاف الّتي هي من شؤن المرّكبات هذا أولاً.

ثانياً: أنّ النّوم والشّهو و الغفلة و امثال ذلك أمّا أن تكون عبارات عن عدم العلم أو عبارة عن أضداد العلم و علىٰ التّقديرين فجواز طريانها فيه يقتضي جواز زوال العلم عنه تعالىٰ ولو كان كذلك لكانت ذاته بحيث يصّح أن يكون عالماً و يصّح أن لا يكون عالماً فحينئذٍ يفتقر حصول صفة العلم له الىٰ الفاعل و الكلام فيه كما في الأوّل فيتسلسل و التّسلسل محال فلابدّ و أن ينتهي الىٰ من يكون علمه صفة واجبة الثّبوت ممتنعة الزّوال و اذا كان كذلك فالنّوم و أمثاله من الغفلة والسّهو و السّنة عليه محال و هو المطلوب.

أن قلت إذا كانت السّنة ما يتقدّم من الفُتور الّذي يسّمىٰ النّعاس أو هي مقدّمة النّوم و امثال ذلك من التّعابير فذكرها في الآية مُستغنٍ عن ذكر النّوم ضرورة من لا تأخذه سِنة لا يأخذه، نومٌ بطريق أولىٰ فكان ذكر النّوم بعدها تكريراً لا فائدة فيه، قلنا في الجواب هبّ أنّ الأمر ليس كما توهّمت و ذلك لأنّ تقدير الآية لا تأخذه سِنة فضلاً عن أن يأخذه النّوم والسِّر العقلي في إستحالتهما فيه تعالىٰ هو أنّ النّوم يوجب الغفلة خفيفاً كان مثل النّعاس أو ثقيلاً مثل النّوم فأنّ النّائم غافل و الغفلة توجب قطع الفيض عن المُفيض علىٰ المُستفيض وقطع الفّيض من الفّياض يوجب إمحاء المستفيض عن صفحة الوجود لأنّ المراد بالفيض في المقام إفاضة الوجود آناً فآناً ومن المعلوم أنّ قطعها يوجب عَدَمه و هو كما ترىٰ فالنّوم وأشباهه ممّا يوجب الغفلة في حقّه محال مضافاً الىٰ أنّه من شؤن الجسم و هو تعالىٰ مُنزّه عنه كما مرّ آنفا.

لَّهُ مٰا فِى السَّمٰوٰاتِ وَمٰا فِى الْاَرْضِ اللاّم في قوله:**لَه** لِلملك أي أنّه تعالىٰ مالك السّمٰوات والأرض و اذا كان مالكاً لهما فهو مالكٌ لِما فيهما من الموجودات بطريق أولَىٰ فلا شيئ في عالم الوجود إلاّ و هو تعالىٰ مالكه والدّليل عليه من العقل هو أنّه تعالىٰ خالق السّمٰوات والأرض و ما فيهما كان خالقاً موجوداً لهما فهو مالك لهما حقيقةً و هو المطلوب.

ثمّ أنّ المالّكية علىٰ ضربين حقيقّية، وإعتبّارية فالحقيّقية عبارة عن المُلك الّذي يكون للمالك بنفس ذاته، والإعتّبارية عبارة عمّا لا يكون كذلك بل كان حاصلاً له بسبب الغير وإعطاءه إيّاه.

أو نقول الحقّيقته عبارة عن المُلك الّذي يكون ثابتاً للمالك دائماً بحيث لا يقدر علىٰ ازالته منه و الإعتّبارية ما لا يكون كذلك و علىٰ كلا التّقديرين فهو تعالىٰ مالك لهما حقيقةً فمن حيث أنّه خالق موجد لما سواه فهو مالك له بنفس ذاته و من حيث أنّ الملك ثابت له ولا يمكن لأحدٍ أخذه منه و ازالته عنه فهو مالك حقّاً، و عليه فلا مُلك لأحدٍ سواه في الحقيقة و أنّما هو بإعطاء الغير إيّاه و هو مع ذلك لا دوام له فما وسىٰ اللّه تعالىٰ لا يكون مالكاً لشيٍ إلاّ بالإعتبار:

قال اللّه تعالىٰ: **مٰاعِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمٰا عِنْدَاللّٰهِ بٰاقٍ**(١)

قال اللّه تعالىٰ: **قُلِ اَللّٰهُمَّ مٰالِكَ اَلْمُلْكِ تُؤْتِى اَلْمُلْكَ مَنْ تَشٰآءُ**(٢)

قال اللّه تعالىٰ: **لا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ نَفْعًا وَ لا ضَرًّا**(٣)

قال اللّه تعالىٰ: **أَمْ مَنْ يَمْلِكُ اَلسَّمْعَ وَ اَلْأَبْصٰارَ**(٤)

قال اللّه تعالىٰ: **قُلْ لآ أَمْلِكُ لِنَفْسي نَفْعًا وَ لا ضَرًّا**(٥) و أمثالها كثيرة.

١- النحل = ٩۶ ٢- آل عمران = ٢۶
٣- الرعد = ١۶ ۴- يونس = ٣٢
۵- الاعراف = ١٨٨

ففي هذه الأيات سَلَب اللّه تعالىٰ المُلك عن غيره و لازم ذلك إثباته له فأنّ العبد و ما في يده كان لمولاه وهذا النّفي يرجع الىٰ ما ذكرناه أي أنّكم لا تملكون شيئاً حقيقيةً وأنّما هو منسوبٌ اليكم بحسب الإعتبار و أن شئت قلت **المُلك** له تعالىٰ والمِلك لنا فأنّ كلّ **مُلك مِلك** وليس كلّ **مِلك مُلكنا فالمُلك** بضّم الميم حقيقّي و بكسر **الميم** إعتباري و لذلك قال تعالىٰ: **لِمنَ الْـمُلْك الْيَوْم** ولَم يقل لمنِ الملك فإذا كان اللّه تعالىٰ مالِك المُلك بضمّ الميم كما في قوله تعالىٰ: **قُل اللّٰهُمَ مٰالِكَ الْمُلك** فهو تعالىٰ مالِك المِلك بطريق أولىٰ فهو مالك الكلّ لأنّه خالق الكلّ و هو واضح وأنّما قال، له ما في السّمٰوات وما في الأرض، ولَم يقل له من في السَّمٰوات و مَن في الأرض، لأنّ، كلمة، من، تشمل ذوي العقول فقط بخلاف، ما، لشموله ذوي العقول و غير ذوي العقول فالمعنىٰ أنّهما و ما فيهما من الموجودات له تعالىٰ حقّاً لا إعتباراً و هو كذلك عقلاً و نقلاً.

مَنْ ذَاالَّذي يَشْفَعُ عِنْدَهٓ اِلاّٰ بِاِذْنِهٖ أي من ذا الّذي يَشَفع لغيره عند اللّه إلاّ بأذن اللّه ويفّسر هذه الأية:

قال اللّه تعالىٰ: **لَا تَنْفَعُ اَلشَّفٰاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ اَلرَّحْمٰنُ**[١].

قال اللّه تعالىٰ: **لَا يَمْلِكُونَ اَلشَّفٰاعَةَ إِلَّا مَنِ اَتَّخَذَ عِنْدَ اَلرَّحْمٰنِ عَهْدًا**[٢].

قال اللّه تعالىٰ: **وَ لَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ اَرْتَضٰى**[٣] و أمثالها كثيرة.

قد قلنا في تفسير اللّغات أنّ الشّفاعة مِن الشّفع و هو في الأصل ضمّ الشّئ الىٰ مثله و يقال للمشفُوع شَفع قال الرّاغب الشّفاعة الإنضمام الىٰ أخر ناصراً له و سائلاً عنه و أكثر ما يستعمل في إنضمام من هو أعَلىٰ حرمةً و مرتبةً الىٰ من هو أدَنىٰ و منه الشّفاعة في القيامة انتهىٰ.

١- طه = ١٠٩
٢- مريم = ٨٧
٣- الانبياء= ٢٨

أقول يظهر من الآية أنّ الشّفاعة عند اللّه لا تكون إلاّ بأذنه فمن أذِنَ له الرّحمٰن يشفع و إلاّ فلا و هو حقّ إلاّ أنّ الآية لا تنفي الشّفاعة مطلقاً كما توّهم بل تثبتها مقيّدة بالإذن وحيث أنّ الموضوع من أهمّ الموضوعات عندنا فلا بأس بصرف الكلام اليه و لو إجمالاً فنقول الشّفاعة عندنا من المسّمات والقطعيّات التّي لا مجال للشكّ فيها فضلاً عن إنكارها وبه قال أهل السنّة أيضاً فأنّ أصلها محفوظ عندهم إلاّ أنّ البحث يقع في كيفيّتها نعم منعت الخوارج و بعض المعتزلة منها.

فعن النّوري في شرح صحيح المُسلم أنّه قال، قال القاضي عياض مَذهب أهل السنّة جواز الشّفاعة عقلاً و وجوبها سمعاً بصريح الأيات و بخبر الصّادق صلى الله عليه وآله و قد جاءت الأثار التّي بلغت بمجموعها التّواتر بصّحة الشّفاعة في الأخرة لمُذنبي المؤمنين وأجَمع السّلف الصّالح و مَن بعدهم أهل السُنّة عليها و منعت الخوارج و بعض المعتزلة منها و تعلّقوا بمذاهبهم في تخليد المذنبين في النّار و احتّجوا بقوله تعالىٰ: **فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ**(١) و أمثاله و هي الكفّار و أمّا تأويلهم أحاديث الشّفاعة بكونها زيادة في الدّرجات فباطل و ألفاظ الأحاديث في الكتاب و غيره صريحة في بطلان مذهبهم و اخراج من إستَوجب النّار ثمّ قال لكنّ الشّفاعة خمسة أقسام:

أوّلها: مختّصة بنّبينا صلى الله عليه وآله و هو الإزاحة من هول الموقف و تعجيل الحساب.

الثّانية: في إدخال قوم الجنّة بغير حساب و هذه أيضاً وردت لنبّينا صلى الله عليه وآله.

الثّالثة: الشّفاعة لقوم استوجبوا النّار فَيشفع فيهم نبّينا صلى الله عليه وآله ومَن يشاء اللّه.

الرّابعة: فيمن دخل النّار من المؤمنين و قد جاءت الأحاديث بإخراجهم منها بشاعة نبّينا صلى الله عليه وآله و الملائكة و أخوانهم من المؤمنين ثمّ يخرج اللّه تعالىٰ

١- المدثر = ٤٨

كلّ من قال لا إله إلاّ اللّه كما جاء في الحديث لا يبقىٰ فيها إلاّ الكافرون.

الخامسة: الشّفاعة في زيادة الدّرجات في الجنّة لأهلها و هذه لا ينكرها المعتزلة و لا ينكرون أيضاً شفاعة الحشر الأُولىٰ انتهىٰ.

و قال العلامّة الحلّي ﵀ في شرح قول المُصّنف في التّجريد (و الاجماع علىٰ الشّفاعة فقيل لزيادة المنافع و لا يبطل منّا في حقّه) ما لفظه، إتّفَقت العُلماء علىٰ ثبوت الشّفاعة للنّبي ﷺ و يدّل عليه قوله تعالىٰ: **عَسَىٰ أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا**[۱] و قيل أنّه الشّفاعة وإختلفوا فقالت الوعيّدية أنّها عبارة عن طلب زيادة المنافع للمؤمنين المُستحقّين للثّواب و ذهبت التّفضيلية الىٰ أنّ الشّفاعة للفساق من هذه الأُمّة في إسقاط عقابهم و هو الحقّ و أبطل المصنف ﵁ الأوّل بأنّ الشّفاعة لو كانت لزيادة المنافع لا غير لكنّا شافعين للنّبي ﷺ حيث نطلب له من اللّه تعالىٰ عُلّو الدّرجات والتالي باطل قطعاً لأنّ الشّافع أعلىٰ من المشفوع فيه مثله انتهىٰ.

ثمّ أنّهم أي الوّعيدية إستّدلوا علىٰ مذهبهم و هو أنّ الشّفاعة أنّما هي في زيادة المنافع بوجُوهٍ:

الأوّل: قوله تعالىٰ: **مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَ لَا شَفِيعٍ يُطَاعُ**[۲] تقرير الإستّدلال أنّ اللّه تعالىٰ نفىٰ قبول الشّفاعة في حقّ الظّالمين والفاسق ظالم فالشّفاعة في حقّه منتفية و هو المطلوب.

و أُجيب عنه بأنّه تعالىٰ نفىٰ الشّفيع المطاع ونحن أيضاً نقول به لأنّه ليس في الأخرة شفيع يطاع لأنّ المطاع فوق المطيع و اللّه تعالىٰ فوق كلّ موجود و لا أحد فوقه و لا يلزم من نفي الشّفيع المطاع نفي الشّفيع المجاب وكلامنا فيه.

ثانياً: لم لا يجوز أن يكون المراد بالظّالمين هنا الكفّار جمعاً بين الأدلّة.

۱- الاسراء= ۷۹ ۲- غافر= ۱۸

الثّاني: قوله تعالىٰ:**وَ مٰا لِلظّٰالِمِينَ مِنْ أَنْصٰارٍ**[١] ولو شفَّع في الفاسق لكان ناصراً له و هو ظاهر البطلان.

الثّالث: قوله تعالىٰ:**وَ لاٰ تَنْفَعُهٰا شَفٰاعَةٌ**[٢]

قال اللّه تعالىٰ: **يَوْمًا لاٰ تَجْزِى نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا**[٣]

قال اللّه تعالىٰ: **فَمٰا تَنْفَعُهُمْ شَفٰاعَةُ اَلشّٰافِعِينَ**[٤]

والجواب عن هذه الأيات كلّها أنّها مختصّة بالكفّار جمعاً بين الأدّلة.

الرّابع: قوله تعالىٰ: **وَ لاٰ يَشْفَعُونَ إِلاّٰ لِمَنِ اَرْتَضىٰ**[٥] نفى شفاعة الملائكة عن غير المرّضي لِلّه تعالىٰ و الفاسق غير مرتضىٰ والجواب أنّا لا نسلّم أنّ الفاسق غير مرتضىٰ لِلّه في إيمانه فثَبت و تحقّق أنّ الشّفاعة ثابتة للنّبي صلى الله عليه و آله أوكلّ من أذن اللّه له الشّفاعة في حقّ الفساق وأهل الكبائر من الأُمّة و لا مانع منها نقلاً بل الأيات تُؤيّدها.

و قوله صلى الله عليه و آله إدّخرتُ شفاعتي لأهل الكبائر من أُمّتي حديث مشهور بين العامّة والخاصّة.

ثمّ إعلم أنّ المفسّرين من أهل السُنّة أمثال الطّبري و السّيوطي والرّازي و القُرطبي و البيضاوي و صاحب الكشّاف و غيرهم مع أنّهم من أعاظم علماؤهم بالإتّفاق لم يتّكلموا في الشّفاعة إلاّ علىٰ سبيل الإشارة عجيبٌ و أمّا في مذهب أهل البيت فقد وردت أخبار كثيرة في جوازها و وقوعها و نحن نشير الىٰ شطرٍ منها تيمّناً و تبرّكاً فنقول:

روى في البحار بأسناده عن أنَس بن مالك قال: قال رسول اللّه صلى الله عليه و آله لكلّ نبّيٍ دعوة قد دَعىٰ بها وسأل سؤالاً و قد أخبأتُ دَعوتي لشفاعتي لأُمّتي يوم القيامة انتهىٰ.

١- البقرة= ٢٧٠
٢- البقرة = ١٢٣
٣- البقرة = ٤٨
٤- المدثر= ٤٨
٥- الانبياء= ٢٨

و أيضاً بأسناده قال رسول اللّه صلى الله عليه وآله: ثلاثة بشفعُون الىٰ اللّه عزّ وجلّ فَيشفعون، الأنبياء ثمّ العلماء ثمّ الشّهداء انتهىٰ.

و عن الأربع مائة قال أمير المؤمنين عليه السلام: لا تعنونا في الطّلب والشّفاعة لكم يوم القيامة فيما قدمتم و قال عليه السلام لنا شفاعة و لأهل موّدتنا شفاعة انتهىٰ.

و بأسناده عن الرّضا عليه السلام عن أبيه عن أباءه عن أمير المؤمنين عليه السلام قال: قال رسول اللّه صلى الله عليه وآله من لَم يؤمن بحوضي فلا أورده اللّه حوضي و من لم يؤمن بشفاعتي فلا أناله اللّه شفاعتي ثمّ قال صلى الله عليه وآله أنّما شفاعتي لأهل الكبائر من أُمّتي فأمّا المُحسِنون فما عليهم من سبيل قال الرّواي فقلتُ للرّضا عليه السلام يابن رسول اللّه فما معنىٰ قول اللّه عزّ وجلّ: وَ لا يَشْفَعُونَ إِلّا لِمَنِ ارْتَضىٰ قال عليه السلام لا يَشفعُون إلاّ لمن إرتضىٰ اللّه دينه انتهىٰ.

و بأسناده عن أبي عبد اللّه الصّادق قال عليه السلام: إذا كان يوم القيامة جمع اللّه الأولّين والآخرين في صعيدٍ واحدٍ فتغّشاهم ظلمة شديدة فَيضجُّون الىٰ ربّهم و يقولون يا ربّ أكشف عنّا هذه الظّلمة قال عليه السلام فيقبل قوم يمشي النّور بين أيديهم قد أضاء أرض القيامة فيقول أهل الجمع هؤلاء أنبياء اللّه فَيُجيئهم النّداء من عند اللّه ما هؤلاء بأنبياء فيقول أهل الجمع فهؤلاء ملائكة فَيجيئهم النّداء من عند اللّه ما هؤلاء بِملائكة فيقول أهل الجمع هؤلاء شهداء فيجيبهُم النّداء من عند اللّه ما هؤلاء بِشهداء فيقولون من هم فَيجيبهُم النّداء ياأهل الجمع سَلُوهُم من أنتم فيقولون نحن ذرّية محمّد رسول اللّه صلى الله عليه وآله نحن أولاد علّي ولّي اللّه نحن المخصوصُون بكرامة اللّه نحن الآمنون المُطّمئنونَ فَيُجيبهم النّداء من عند اللّه عزّ وجلّ إشفعوا في مُحبيّكم و أهل مُودّتكم و شيعتكم فيشفعون إنتهىٰ[1]

١- بحار الأنوار ج ٣ص ٢٩٩ باب الشّفاعة.

أقــول و يـظهر مـن هـذا الحـديث أنّ الشـفاعة يـوم القـيامة لا تـختّص بالرّسول صلى الله عليه وآله كما زعم أهل السّنة بل هي ثابتة في ذريتّه أيضاً بل يظهر مـن الأخبار ثبوتها في حقّ الشّيعة أيضاً.

روي في البحار بأسناده عن أبي عبد اللّه عليه السلام قال: شيعتنا من نور اللّه خلقوا واليه يَعوذُون واللّه أنكم لمُلحَقون بنا يوم القيامة وإنّـا لِنشفع و يشفعُون وما من رجلٍ منكم إلاّ وسترفع له نار عن شماله وجنّة عن يمينه فَيدخل أحبّائه الجنّة وأعدائه النّار إنتهىٰ[1].

و بأسناده عن الصّادق عليه السلام قال: من أنكر ثلاثة أشياء فليس مـن شيعتنا، المِعراج والمسائلة في القبر، والشّفاعة إنتهىٰ.

و بأسناده عن معاوية بن وهب قال: سئلتُ أبا عبد اللّه عن قول اللّه تبارك وتعالىٰ: لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَ قَالَ صَوابًا قال عليه السلام نحن واللّه المأذون لهم في ذلك والقائلون صواباً قلُ جعلتُ فداك و ما تقولون إذا كَلمتٌم قال عليه السلام نُمّجد ربّنا ونُصلّي علىٰ نبيّنا ونَشفع لِشيعتنا فلا يردّنا ربّنا إنتهىٰ.

و بهذا الأسناد قال: قلتُ لأبي عبد اللّه عليه السلام و قوله من ذا الّذي يشفع عنده إلاّ بإذنه يعلم ما بين أيديهم، قال عليه السلام: نحن أولئك الشّافعون، و بأسناده عنه عليه السلام في قول اللّه فما لنا من شـافعين و لا صـديق حميم، قال عليه السلام الشّافعون الأئمّة والصّديق من المؤمنين إنتهىٰ.

و بأسناده عن أبي حمزة قـال: قـال أبـو جـعفر عليه السلام أنّ لرسـول اللّه صلى الله عليه وآله شفاعة في أُمّته إنتهىٰ.

و بأسناده عنه عليه السلام قال: للنّبي شفاعة في أُمتّه ولنـا شـفاعة فـي شيعتنا و لشيعتنا شفاعة لأهل بيتهم إنتهىٰ.

١- ص ٣٠٠.

و من طريق العامّة عن أبي هُريرة قال: قال النّبي صلى الله عليه وآله الشّفعاء خمسة، القرآن و الرَّحم و الأمانة و نبيّكم و أهل بيت نبيّكم إنتهىٰ.

و بأسناده عن الرّضا عليه السلام عن آبائه عن أمير المؤمنين عليه السلام قال: قال رسول اللّه صلى الله عليه وآله إذا كان يوم القيامة ولّينا حساب شيعتنا فَمن كانت مظلمته فيما بينه وبين اللّه عزّ وجلّ حكمنا فيها فأجابنا ومن كانت مظلمة فيما بينه و بين النّاس استوجبناها فوجبت لنا ومن كانت مَظلَمة فيما بينه وبيننا كنّا أحّق من عفا و صفح إنتهىٰ[1].

أقول الأحاديث الواردة في الباب كثيرة جدّاً فَمن أراد الإطّلاع علىٰ أكثر ممّا نقلناه فَعليه بمراجعة البحار باب الشّفاعة وغيرها من الكتب المفّصلة وأنّما أطلنا الكلام في الشّفاعة ونقلنا الأخبار فيها أكثر من سائر المفسّرين لندخل في زمرة المَشفوعين لهم يوم القيامة إن شاء اللّه تعالىٰ آمين ياربّ العالمين.

يَعْلَمُ مٰا بَيْنَ اَيْديهِمْ وَمٰا خَلْفَهُمْ وَلاٰ يُحيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ اِلاّٰ بِمٰا شٰآءَ.

الضّمير في قوله:**اَيْديهِمْ** و ما خَلفهم قيل أنّهما عائدان علىٰ كلّ مَن يعقل مِمّن تَضمنه قوله:**لَهُ مٰا فِى السَّمٰوٰاتِ وَ الْاَرْضِ** و قيل المراد بقوله: **مٰا بَيْنَ اَيْديهِمْ** الدّنيا وبقوله: **وَمٰا خَلْفَهُمْ** الأخرة، و قيل المراد أنّه تعالىٰ يعلم ما كان قبلهم ممّا مضىٰ، وما يكون بعدهم ممّا يأتي وأمّا قوله: **وَلاٰ يُحيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ اِلاّٰ بِمٰا شٰآءَ**قالوا أي من معلوماته تعالىٰ و عليه فيصير المعنىٰ، لا معلوم لأحدٍ إلاّ ما شاء اللّه أن يعلمه هكذا قالوا في تفسير كلامه تعالىٰ والّذي يُقّوي في نفسي في تفسير كلامه تعالىٰ هو أنّ الآية بصدد بيان دقيقةٍ خفيّةٍ وهي أنّ أصل العلم منه تعالىٰ مثل الوجود فكلّما علمه النّاس أو يعلمه هو من

١- ج ٣ص ٣٠١.

إفاضات علمه وحيث أنّ الخالق لمكان خالّقيته وعلّيته محيطٌ علىٰ المخلوق كما هو شأن العلّة فلا جرم يعلم ما بين أيديهم و ما خلفهم، وأمّا المخلوق حيث صار مُحاطاً فلا يكون مُحيطاً قطعاً و اذا لم يكن مُحيطاً بخالقه و موجده فلا يعلم من علمه إلاّ بما شاء أي إلاّ بما أعطاه منه وكيف كان ففيه دلالة علىٰ عجز المخلوق و ضعفه و جهله و سيأتي الكلام في أمثال هذه المسائل في تضاعيف الكتاب قال اللّه تعالىٰ: **وَ مآ أُوتيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إلاّ قليلًا**(١).

وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمٰوٰاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَؤُدُهُ حِفْظُهُمٰا وَهُوَ الْعَلِّي الْعَظِيمُ.

قد مرّ منّا في شرح اللّغات أنّ الكرّسي في تعارف العامّة إسمٌ لِما يُقعد عليه قال اللّه تعالىٰ: **وَ أَلْقَيْنا عَلى كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنابَ**(٢) و هو في الأصل مَنسوبٌ الىٰ الكُرسي أي المُجتَمع وحيث أنّ الكُرسي بمعناه المتعارف يقال لما يُقعد عليه وكلّ قاعدٍ جسم فيلزم أن يكون اللّه جسماً و هو منزّه عنه لا جرم حملوا الكُرّسي في الآية و أمثالها علىٰ معنىٰ أخر و قد قيل فيه وجوه:

فقد روي عن ابن عبّاس أنّ الكُرّسي العلم أي وسَع علمه السّموات و الأرض أي أنّه تعالىٰ عالم بهما و ما فيهما، و قيل المراد به الملك أي وسَع مُلكه السّموات والأرض بمعنىٰ أنه تعالىٰ مالك السّموات والأرض، و قيل هو إسمٌ للفلك المحيط بالأفلاك و يعبّر عنه بفلك الأفلاك و قيل المراد به قدرة اللّه أي أنّه تعالىٰ قادر علىٰ كلّ شئ و قدرته تتعلّق بالممكنات و عليه فالمعنىٰ وسِع قدرته السّموات و الأرض، و قيل الكُرسي هو العرش، و قيل هو سريرٌ دون العرش، و قيل الكرسّي، أصل مُلكه و روي القُرطبي عن أبي مالك أنّه قال أنّ الصّخرة الّتي عليها الأرض السّابعة و منتهى الخُلق علىٰ أرجائها عليها أربعة من الملائكة لكلّ واحدٍ منهم أربعة وجوه، وجه إنسانٍ، و وجه ثور و وجه نسرٍ

١- الاسراء= ٨٥ ٢- ص = ٣٤

و الكُرسّي تحت العرش واللّه واضع كرسّيه فوق العَرش قال البهيقي في هذا إشارة الى كرسيّن أحدّهما تحت الأرض و الآخر موضوع علىٰ العرش و نقل عن أبي موسى الأشعري أنّه قال الكُرسّي موضع القدمين وله إطيط كأطيط الرّحل و الأقوال فيه كثيرة والمعتمد منها ما يؤيّده الخبر الصّحيح إذ لا مجال لإستنباطات العقول و الأوهام في أمثال هذه الموارد فأنّ العقل لا حكم له في ما وراء المحسوسات و ما نحن فيه من هذا القبيل فنقول.

قال الصّدوق قدس سره في العقائد، إعتقادنا في الكرسّي أنّه وعاء جميع الخلق من العرش والسّموات والأرض و كلّ شيءٍ خلق اللّه تعالى في الكرسّي وفي وجهٍ آخر الكرسّي هو العِلم.

و قد سُئل الصّادق عليه السلام عن قول اللّه عزّ وجلّ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمٰوٰاتِ وَالْأَرْضَ قال عليه السلام علمهُ إنتهىٰ[1].

و بأسناده عن زُرارة قال: سئلتُ أبا عبد اللّه عليه السلام عن قول اللّه عزّ وجلّ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ الىٰ قوله و العرش و كلّ شئ في الكُرسّي إنتهىٰ[2].

و بأسناده عن الفضيل قال: سئلتُ أبا عبد اللّه عليه السلام عن قول اللّه عزّ وجلّ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمٰوٰاتِ وَالْأَرْضَ قال عليه السلام: يا فضيل السّموات والأرض شئ في الكرسّي إنتهىٰ[3].

و بأسناده عنه عليه السلام في قول اللّه عزّ وجلّوَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمٰوٰاتِ وَالْأَرْضَ فقال عليه السلام السّموات والأرض و ما بينهما في الكرّسي والعرش هو العلم الّذي لا يقدر أحد قدره انتهىٰ[4].

و أنت ترىٰ أنّ هذه الأخبار قد دلّت علىٰ وجود الكُرّسي له تعالىٰ بعد ما

١- بحار الأنوار ج ١٤ ص ٩٣.
٢- ص ٩٧.
٣- ص ٩٨.
٤- ص ٩٨.

أثبته في كتابه فوجب لنا الإعتقاد به وأمّا حقيقة الكرّسي والعرش وما شابه هما فلا نعلمها وكم له من نظير في العالم.

و أمّا قوله **وَلَا يَؤُدُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ** فهو إشارة الىٰ كمال قدرته تعالىٰ وأنّ حِفظهما لا يثقل عليه، يقال أدَّه يؤدُّه اذا أثقَلَه وأجَهَده وكيف يثقل و يشقّ عليه تعالىٰ حفظ السّموات والأرض و هو العَلّي أي أنّه رفيع المنزلة والقدر، والعظيم الّذي هو أعظم من كلّ شيءٍ و من كان كذلك فلا يثقل عليه شيءٌ والمراد بحِفظهما حفظهما من الأفات وَ الدُّثور الىٰ أن شاء اللّه تعالىٰ و ذلك لأنّ اللّه تعالىٰ خالقهما وخالق كلّ شيءٍ وكلّ ما سواه قائم به كما مَرّ في الكلام في معنىٰ القيّوم فتخصيصهما بالذّكر لأنّ حِفظهما يوجب حفظ ما فيهما من الموجودات العلّوية والسّفلية ومن المعلوم إنطوائهما لكلّ المخلوقات فاذا كان حفظهما لا يثقل عليه فحفظ ما فيهما بطريق أولىٰ.

■



لَاۤ إِكْرَاهَ فِى الدِّينِ قَدْ تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَ يُؤْمِنْ بِاللّٰهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقٰى لَانْفِصَامَ لَهَا وَاللّٰهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾

◁ اللّغة

لَاۤ إِكْرَاهَ: الإكراه مصدر يقال أكرَه يَكره إكراهاً وهو مأخوذ من الكُره أو الكَرْه بمعنىٰ المشقّة التّي تنال الإنسان من خارج فيما يُحمل عليه بإكراهٍ و قيل هذا معنىٰ بفتح الكاف و امّا الكُره بضمّ الكاف فهو ما يناله الإنسان من ذاته و هو يَعافه و ذلك علىٰ ضربين أحدهما ما يعاف من حيث الطّبع والثّاني ما يعاف من حيث العقل أو الشّرع و لهذا يصّح أن يقال في الشّئ الواحد أنّي أُريده وأكرهه بمعنىٰ أنّي أُريده طبعاً وأكرهه عقلاً أو شرعاً أو بالعكس فقوله تعالىٰ: **كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَ هُوَ كُرْهٌ لَكُمْ**[1] أي تكرهُونه من حيث الطّبع.

الرُّشْدُ، **الرَشّد** خلاف الغّي يستعمل إستعمال الهداية يقال **رَشَد يَرشُد** بضمّ الشّين و **رَشَد يَرشد** بفتحها و قال بعضهم **الرَشّد** بفتح الشّين أخصّ من **الرّشد** بضمّها وذلك لأنّ الرُشّد يقال في الأُمور الدّنيوية والأُخرّوية والرّشد بفتح الشّين يقال في الأُمور الأخرّوية لا غير:

قال اللّه تعالىٰ: **هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلىٰ أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا**[2]

قال اللّه تعالىٰ: **لِأَقْرَبَ مِنْ هٰذا رَشَدًا**[3].

بِالطّٰاغُوتِ، **الطّاغوت** عبارة عن كلّ مُتّعدٍ وكلّ معبودٍ دون اللّه ويستعمل في الواحد والجمع.

١- البقرة= ٢١٦

٢- لكهف = ٦٦

٣- الكهف = ٢٤

بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ، العُروة بضمّ العين من عَرا يَعرُو عَرواً ما يوثق به جمعها عُرىٰ كالحبل و أمثاله والوُثقىٰ، بضمّ الواو تأنيث الأوثق فالعروة الوثقىٰ الحبل الوثيق المحكم المأمون إنفصامها.

لَا انْفِصَامَ لَهَا الإنفصام الإنقطاع يقال، تَفصّم و انفصَم أي إنقطع وإنكسر.

◁ الإعراب.

مِنَ الْغَيِّ في موضع نصب علىٰ أنّه مفعول بِالطَّاغُوتِ، الطّاغوت مصدر في الأصل مثل الملكوت والرَّهبوت و الجبروت و أمثالها و هو يذّكر ويؤنّث و يستعمل بلفظٍ واحد في الجمع و التّوحيد والتّذكير والتّأنيث لَا انْفِصَامَ لَهَا في موضع نصب علىٰ الحال من العروة و يجوز أن يكون حالاً من الضّمير في الوُثقىٰ

◁ التّفسير

إختلف المفّسرون في سبب نزول الآية علىٰ أقوالٍ:

الأوّل: أنّها نزلت في أهل الكتاب خاصّة و أنّهم لا يكرهون علىٰ الإسلام اذا أدّوا الجزية و امّا الذّين يُكرهون فهم أهل الأوثان اذ لا يقبل منهم إلاّ الإسلام فهُم الّذين نزل فيهم، يا أيّها النّبي جاهد الكفّار والمنافقين، الآية ذهب الىٰ هذا القول الشّعبي و قتادة و الحسن و الضّحاك.



الثّاني: ما رُوي عن ابن عبّاس قال نزلت هذه في الأنصار كانت تكون المرأة مقلاتاً فتجعل علىٰ نفسها أن عاش لها ولد أن تهوّده فلمّا أجليت بنو النّضير كان فيهم كثير من أبناء الأنصار فقالوا لا ندع أبناءنا فأنزل اللّه **لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ**.

الثّالث: ما نقل عن سعيد بن جبير و الشّعبي و مجاهد أنّهم قالوا أنّما فعلنا ما فَعلنا و نحن نرىٰ أنّ دينهم أفضل ممّا نحن عليه و امّا اذا جاء اللّه بالإسلام

فَنكرههم عليه فنزلت الأية، **لاۤ إِكْرَاهَ فِى الدِّينِ** من شاء إلتحق بهم ومن شاء دخل في الإسلام إلاّ أنّهم قالوا كان سبب كونهم في بني النّضير الإسترضاع.

الرّابع: قال السّدي نزلت الآية في رجلٍ من الأنصار يقال له أبو حصين كان له إبنان فقدم تجّارٌ من الشّام الىٰ المدينة يحملون الزّيت فلمّا أرادوا الخروج أتاهم إبنا الحصين فدعوهما الىٰ النّصرانية فتنصّر ومضيا معهم الىٰ الشّام فأتىٰ أبوهما رسول اللّه صلى الله عليه وآله مشتكياً أمرهما ورغب في أن يبعث رسول اللّه صلى الله عليه وآله من يردّهما فنزلت، **لاۤ إِكْرَاهَ فِى الدِّينِ** ولم يؤمر يومئذٍ بقتال أهل الكتاب وقال، أبعدهما اللّه هُما أوّل من كفر، فوجد أبو الحصين في نفسه علىٰ النّبي صلى الله عليه وآله حين لم يبعث في طلبهما فأنزل اللّه عزّ وجلّ:**فَلاٰ وَ رَبِّكَ لاٰ يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمٰا شَجَرَ بَيْنَهُمْ**[1] ثمّ أنّه نَسخ، لا إكراه في الدّين، فأمر بقتال أهل الكتاب في سورة براءة انتهىٰ.

أقول والصّحيح في سبب نزول قوله تعالىٰ:**فَلاٰ وَ رَبِّكَ لاٰ يُؤْمِنُونَ** هو حديث الزّبير مع جاره الإنصاري في السّقي علىٰ ما يأتي في سورة النّساء بيانه قاله القُرطبي بعد نقله ما نقلناه عن السّدي.

الخامس والسّادس: أنّها وردت في السّبي متىٰ كانوا من أهل الكتاب لم يجبروا اذا كانوا كباراً، و امّا اذا كانوا مجوساً صغاراً أو كباراً أو وثنيين فأنّهم يجبرون علىٰ الإسلام لأنّ من سباهم لا ينتفع بهم مع كونهم وثنّيين فهذه هي الأقوال التّي عثرنا عليها في سبب نزولها واللّه أعلم ولنرجع الىٰ تفسيرفنقول **لاۤ إِكْرَاهَ فِى الدِّينِ** أي لا إكراه في قبوله والمراد به الإسلام أي ليس لأحدٍ أن يجبر غيره علىٰ الإسلام والحقّ أنّ الآية غير منسوخة، والحكم ثابت في زماننا هذا أيضاً والوجه فيه هو أنّ الإنسان فاعلٌ مختار في عباداته فكما أنّه لا يجبر علىٰ الصّوم والصّلاة و غيرهما من الأحكام لا يجبر علىٰ أصل الدّين لئلا يلزم

١- النساء= ٦٥

منه زيادة الفرع علىٰ الأصل فلو كان في قبول الدّين مجبوراً كان في الصّلاة والصّوم و غيرهما من الأحكام أيضاً مجبوراً و اذ ليس فليس والدّليل علىٰ عدم الإكراه عقلاً هو أنّ اللّه تعالىٰ كان قادراً علىٰ أن يخلق الإنسان غير قادرٍ علىٰ المعصية و لم يخلقه كذلك بل خلقه قادراً عليها ثمّ أمره بتركها إختياراً منه من غير إجبارٍ و لا إكراه لأنّ العبادة اذا صدرت من العبد لا عن إختيارٍ لا قيمة لها لأنّه كان مجبوراً عليها و لذلك رُجّحت عبادة الإنسان علىٰ غيره حتّىٰ الملائكة فيلزم منه أن لا يكون الإنسان مجبوراً في دينه لكونه منافياً لِلغرض هذا أوّلاً،ثانياً فلأنّ الإكراه منه تعالىٰ في أمر الدّين ينافي عدله و ذلك لأنّ العدل عبارة عن وضع الشّئ في محلّه ومن المعلوم أنّ جعل التّكليف علىٰ أساس الجبر و الإكراه ليس من العدل بشئٍ ولأجل ذلك أردَف كلامه هذا بقوله: **قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ** الغيّ، ضرورة لو لم يكن الإنسان مختاراً في دينه لم يكن لهذا الكلام معنىٰ لأنّه كان علىٰ الرشّد حسب الفرض دائماً فقوله هذا يدّل علىٰ بيان طريقّي السّعادة والضّلالة بسبب الدّين وفيه إشّارة الىٰ أنّ الدّين شأنه هكذا وما كان كذلك لا إجبار فيه ولا إكراه والأيات بهذه المضامين كثيرة:

قال اللّه تعالىٰ: **إِنّٰا هَدَيْنٰاهُ اَلسَّبِيلَ إِمّٰا شٰاكِرًا وَ إِمّٰا كَفُورًا**[1]

قال اللّه تعالىٰ: **لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَ يَحْيٰى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ**[2].

و أمثال ذلك من الأيات الّتي دلّت بمفاهيمها علىٰ وجود الإختيار في قبول الّدين وعدم الإكراه فيه و قد مرّ في شرح اللّغات مَعنىٰ الرّشد والغَيّ وأنّها كنايتان عن الهداية والضّلالة ثمّ أوضح اللّه ذلك

فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطّٰاغُوتِ وَ يُؤْمِنْ بِاللّٰهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقىٰ لاَانْفِصٰامَ لَهٰا وَاللّٰهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ وفيه إشارات.

١- الإنسان = ٣.

٢- الأنفال آية ٤٢.

الأوّل: أنّ الدّين الصّحيح لا يحصل لأحدٍ إلاّ بالكفر بالطّاغوت والمراد بالطّاغوت الشّيطان من الجنّ والإنس وأن شئت قلت مطلق الباطل والمراد بالكفر به الإعراض عنه من جميع الوجوه وبالجملة نفي الباطل.

الثّانية: الإيمان باللّه بمعنىٰ الإقرار باللّسان والإعتقاد بالقلب، والعَمل بالجوارح و الأركان و أنّما قدّم النّفي أعني به الكفر بالطّاغوت علىٰ الإثبات أعني به الإيمان لأنّ النّفي عدم والإثبات وجود والعدم مقدّم علىٰ الوجود لأنّ الوجود في المحدّثات مسبوق به ألا ترىٰ أنّهم يقولون الممكن محفوفٌ بالعدمين عدمٌ سابق وعدمٌ لاحق ومن المعلوم أنّ الدّين حادث لا قديم فهو مسبوق بالعدم ولأجل هذه الدّقيقة إفادات كلمة **لا إله إلاّ اللّه**، التّوحيد لكونها مشتملة علىٰ النّفي والإثبات فقولنا، لا إله، نفيٌ لجميع المعبودين وقولنا إلاّ اللّه، إثبات المعبوديّة للذّات الواجب الوجود المستجمع لجميع الصّفات الكمّالية المعبّر عنه بكلمة، اللّه، فالموّحد ينفي الإلهة أوّلاً ويثّبت الألوهّية لِلّه ثانياً وما نحن فيه من هذا القبيل فقوله فمن يكفر بالطّاغوت بمنزلة النّفي وقوله يؤمن باللّه بمنزلة الإثبات.

الثّالثة: قوله: **فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى** أي إذا كان إيمان المؤمن بعد الكفر بالطّاغوت فهو بمنزلة العروة الوثّقىٰ من حيث الإستحكام و امّا إذا لم يكن الإيمان كذلك فليس كذلك كالّذي آمن باللّسان وحده أو بالقلب كذلك.

الرّابعة: قوله: **لَا انْفِصَامَ لَهَا** الإنفصام الإنقطاع والتّعبير بالإنفصام لِلدّلالة علىٰ أنّ هذا الإيمان لا يقبل القطع والزّوال وأنّما قلنا ذلك لأنّ الإنقطاع بمعنىٰ قبول القطع لا مطلق القطع كما هو مفاد باب الإنفعال وهذا الكلام بحسب المفهوم يدّل علىٰ أنّ الإيمان إذا لم يحصل من هذا الطّريق الّذي مرّ ذكره فهو يقبل القطع والزّوال و هو الّذي عبّر عنه بالإيمان المستّودع.

الخامسة: قوله: **وَاللّٰهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ** أي أنّه تعالىٰ سميعٌ بما تقولون، وأنّه عليمٌ بما تضمرون و تعملون فلا يخفىٰ عليه شئ من أقوالكم وأعمالكم، و ضمائركم وهو واضح.

تنبيهٌ:

إعلم أنّهم إختلفوا في معنىٰ المراد بالعروة الوثقىٰ، علىٰ أقوال.

أحدها: أنّ المراد بها الإيمان.

ثانيها: أنّ المراد بها الإسلام.

ثالثها: أنّ المراد بها، كلمة التّوحيد.

رابعها: دين الحقّ، و امثال ذلك من الأقوال الّتي لا طائل تحتها، والحقّ عندنا أنّ المراد بها ولاية أمير المؤمنين عليه السلام والأئمة من بعده و يدّل عليه ما رواه العّامة والخّاصة.

فمن العّامة.

ما رواه أبو المؤيّد موفّق بن أحمد من أعيان علماء العّامة بأسناده عن عبد الرّحمٰن بن أبي ليلىٰ قال: قال رسول اللّه صلى الله عليه وآله لعلّيٍ عليه السّلام أنتَ العُروة الوُثقىٰ انتهىٰ.

ما رواه أبو الحَسن الفقيه محمّد بن علّي بن شاذان في المناقب المِائة من طريق العّامة بحذف الأسناد عن إبن عبّاس قال: سمعت رسول اللّه يقول معاشر النّاس إعلموا أنّ لِلّه تعالىٰ باباً مَن دَخَله آمَن من النّار ومِن الفَزَع الأكبَر فقام اليه أبو سعيد الخُدري فقال: يا رسُول اللّه إهدِنا الىٰ هذا الباب حتّىٰ نعرفه قال صلى الله عليه وآله: هو علّي بن أبى طالب سيّد الوصيّين وأمير المؤمنين وأخو رسول ربّ العالمين وخليفة اللّه علىٰ النّاس أجمعين معاشر النّاس مَن أحبّ أن يتّمسك بالعُروة الوُثقىٰ الّتي لا إنفصام لها فلَيتّمَسك بولاية علّي بن أبي طالب فأنّ ولايته ولايتي و طاعته طاعتي الحديث.



ما رواه إبن شاذان من طريق العامة بحذف الأسناد عن الرّضا عليه السلام عن آبائه عليهم السّلام قال: قال رسُول اللّه صلى الله عليه وآله ستكون بعدي فتنة مظلمة النّاجي منها من تَمسّك بالعُروة الوُثقىٰ قيل يا رسُول اللّه وما العُروة الوُثقىٰ قال ولاية سيّد الوصيّين قيل يا رسُول اللّه ومَن سيّد الوَصيّين قال صلى الله عليه وآله أمير المؤمنين قيل يا رسُول اللّه وَمَن أمير المؤمنين قال صلى الله عليه وآله مَولىٰ المسلمين وإمامهم بعدي قيل يا رسُول اللّه وَمَن مَولىٰ المسلمين وإمامهم بعدك قال أخي علّي بن أبي طالب انتهىٰ.

وأمّا من طريق الخّاصة.

ما رواه إبن بابوية في معاني الأخبار بأسناده عن عبد اللّه بن عبّاس قال: قال رسُول اللّه صلى الله عليه وآله مَن أَحبّ أن يتّمسَك بالعُروة الوُثقىٰ الّتي لا إنفصام لها فليتّمَسك بولاية أخي و وصيّي علّي بن أبي طالب عليه السلام فأنّه لا يَهلَك من أحبّه و تولاّه ولا ينجُو من أبغضه و عاداه انتهىٰ.

ما رواه إبن بابويه بأسناده قال: قال رسُول اللّه صلى الله عليه وآله الأئّمة من وُلد الحسين، من أطاعَهم فقد أطاع اللّه وَمن عصاهم فَقد عَصىٰ اللّه هم العُروة الوُثقىٰ وهُم الوسيلة الىٰ اللّه تعالىٰ.

ما رواه أيضاً بأسناده قال: رسُول اللّه صلى الله عليه وآله مَن أحَبّ أن يستَمسك بالعُروة الوُثقىٰ فليتّمَسك بُحبّ علّي بن أبي طالب انتهىٰ.

ماروواه في بصائر الدّرجات بأسناده عن أبي عبد اللّه عليه السلام قال: في خطبةٍ طويلة له، مَضىٰ رسول اللّه صلى الله عليه وآله وخلّف في أمتّه كتاب اللّه و وصيّه علّي بن أبي طالب أمير المؤمنين وإمام المتّقين وحَبل اللّه المتين وعُروته الوُثقىٰ التّىٰ لا إنفصام لها الحديث[1].

١- غاية المرام ص ٢٤٤.

ما رواه في الماقب بأسناده عن النّبي صلى الله عليه وآله أنّه سأل إعرّابي عن هذه الأية فأخذ رسول اللّه صلى الله عليه وآله يَده فَوَضَعها علىٰ كتف علّيٍ فقال: يا إعرابي هذا حَبل اللّه فإعتصم به فَدار الإعرابي من خَلف علّي والتَزَمه ثمّ قال اللّهم أنّي أشهدك أنّي إعتَصمتُ بحبلك فقال رسول اللّه صلى الله عليه وآله من سَرَّه أن ينظر الىٰ رجلٍ من أهل الجنّة فلينظُر الىٰ هذا انتهىٰ.

ما رواه عن سفيان بن عينية عن الزّهري عن أنس بن مالك في قوله تعالىٰ:**وَ مَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اَللّٰهِ**[1] قال: نزل في علّيٍ وكان أوّل مَن أخلَص وَجهه لِلّه و هو مُحسنٌ أي مؤمن مطيع **فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقىٰ** قول لا إله إلاّ اللّه **وَ إِلَى اَللّٰهِ عٰاقِبَةُ اَلْأُمُورِ** واللّه ما قتل علّي بن أبي طالب إلاّ عليها، و روي فقد إستمسك بالعُروة الوُثقىٰ يعني ولاية علّيٍ عليه السلام انتهىٰ.

ما رواه عن الرّضا عليه السلام قال: قال النّبي صلى الله عليه وآله من أحَبّ أن تتَّمسك بالعُروة الوُثقىٰ فليتّمسك بُحبّ علّي بن أبي طالب انتهىٰ والأحاديث كثيرة[2].

أقول والىٰ هذا المعنىٰ أشار الحميري بقوله:

إنّا وجدنا له فيما نُخبره ... بعُروة العرش موصولاً بها سَبباً

حبلاً مَتيناً بكَفيّه له طُرقُ ... سدّ العراج اليه العقد والكربا

مَن يعتصم بالقوىٰ من حَبله فله ... أن لا يكون غداً في حال من عَطَبا

و قال العوني:

أمامي حَبل اللّه عُروة حقّه ... فطُوبىٰ وطوبىٰ من تَمسك بالحَبل

و قال ابن حماد:

١- لقمان = ٢٢

٢- المناقب لابن شهر آشوب ج ٣ص ٧٦.

هـو العُـروة الوُثـقىٰ هـو الجَـنب أنّـما يـفرط فـيه الخـاسر العَـمَه الفَـضل

و أيضاً قال:

عَـــلّيٌ عَـــلّيُ القـدر عـند مـليكه وأن أكـــثرت فـــيه الغـواة مـلالها

وعُـروته الوُثـقىٰ التـي مَـن تَـمّسكت يـداه بـها لم يـخش قَـطّ إنـفِصامها

■

اَللّٰهُ وَلِيُّ الَّذينَ اٰمَنُوا يُخرِجُهُمْ مِن الظُّـلُمٰاتِ اِلَى النُّور وَالَّذِينَ كَفَرُوا اَوْلِيٰاؤُهُمُ الطّٰـاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ اِلَـى الظُّـلُمٰات أُولٰـئِكَ أَصْحٰابُ النّٰارِ هُمْ فِيهٰا خٰالِدُونَ ﴿٢٥٧﴾

◁ اللّغة

وَلِيُّ: الولاية بفتح الواو وكسرها تَوَلىٰ الأمر.

النُّور: في اللّغة الضَّوء المنتشر الّذي يعين علىٰ الإبصار.

الظُّلُمٰاتِ: جمع الظّلمة وهي ضدّ النُّور.

◁ الإعراب

اَللّٰهُ مبتدأ وَلِيُّ الَّذِينَ اٰمَنُوا خبره وَالَّذِينَ كَفَرُوا مبتدأ اَوْلِيٰاؤُهُمُ مبتدأ ثانٍ الطّٰاغُوتُ خبر الثّاني والثّاني وخبره، خبر الأوّل يُـخْرِجُونَهُمْ مستأنف لا موضع له ويجوز أن يكون حالاً والعامل فيه معنىٰ الطّاغوت يُخرجهم يجوز أن يكون خبراً ثانياً و أن يكون حالاً من الضّمير في وَلّي.

◁ التّفسير

لمّا أفاد اللّه تعالىٰ في الآية السّابقة أنّ الكافر بالطّاغوت المؤمن باللّه مُستَمسك بالعُروة الوُثقىٰ الآية أفاد في المقام انّ اللّه تعالىٰ ولّي الّذين آمنوا أي أنّه تعالىٰ مُتولي أُمورهم في الدّنيا والأخرة:

اَللّٰهُ وَلِيُّ الَّذِينَ اٰمَنُوا و فى قوله يُخْرِجُهُمْ مِن الظُّلُمٰاتِ اِلَى النُّور إشارة الىٰ أمرين:

أحدهما: أنّ الإيمان عبارة عن الخروج من الظّلمات الىٰ النُّور والمخرج أنّما هو اللّه تعالىٰ لا غيره.

ثانيهما: أنّ الإيمان نور كما أنّ الكفر ظلمات و عليه فالإخراج من الظّلمات الىٰ النُّور معناه الإخراج من الكفر الىٰ الإيمان وأنّما عبّر عن الكفر بالظّلمات وعن الإيمان بالنُّور لأنّ النُّور ظاهر بالذّات و مظهرٌ للغير و ضدّه الظّلمة والإيمان أيضاً ظاهر بالذّات ومظهر للغير أمّا الأوّل فظاهر و امّا الثّاني و هو كونه مُظهراً للغير فلأنّ الإهتداء به و لذلك قال اللّه تعالىٰ:

وَالَّذِينَ كَفَرُوا اَوْلِيٰاؤُهُمُ الطّٰاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ اِلَى الظُّلُمٰات

أي أنّ الشّياطين أولياء الكفّار ومن المعلوم أنّ شأن الشّيطان ليس إلاّ الإخراج من النُّور الىٰ الظّلمة أي من الإيمان الىٰ الكفر ومن كان كذلك ينبغي طرده ولعنه ولأجل هذا نهانا اللّه تعالىٰ عن متابعته في كثير من الأيات:

قال اللّه تعالى: **وَ مَنْ يَكُنِ ٱلشَّيْطٰانُ لَهُ قَرِينًا فَسٰآءَ قَرِينًا**[١].

قال اللّه تعالى: **وَ يُرِيدُ ٱلشَّيْطٰانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلاٰلًا بَعِيدًا**[٢].

قال اللّه تعالى: **وَ مَنْ يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطٰانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ ٱللّٰهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرٰانًا مُبِينًا**[٣].

أي **أُولٰئِكَ أَصْحٰابُ النّٰارِ هُمْ فِيهٰا خٰالِدُونَ** أُولئك الذّين أولياءهم الطّاغوت، أصحاب النّار هُم فيها، أي في النّار، خالدُون.

■

١- النّساء=٣٠. ٢- النّساء=٦٠.

٣- النّساء=١١٩.

اَلَمْ تَرَ اِلَى الَّذي حٰاجَّ اِبْرٰاهِيمَ في رَبِّهِ اَنْ اٰتٰاهُ اللهُ الْمُلْكَ اِذْ قٰالَ اِبْرٰاهيمُ رَبِّىَ الَّذي يُحْيي وَيُميتُ قٰالَ اَنَا اُحْيي وَاُميتُ، قٰالَ اِبْرٰاهيمُ فَاِنَّ اللهَ يَاْتي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَاْتِ بِهٰا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذي كَفَرَ وَاللهُ لاٰيَهْدِى الْقَوْمَ الظّٰالِمينَ ﴿٢٥٨﴾

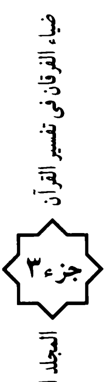
◁ اللّغة

حٰاجَّ: المحاجّة أن يطلب كلّ واحدٍ أن يرّد الأخر عن حجّته ومحجّته.

فَبُهِتَ: البهت التّحير، الدّهشة و باقي اللّغات واضح.

◁ الإعراب

اَنْ اٰتٰاهُ اللهُ في موضع نصبٍ عند سيبويه وجَرّ عند الخليل، لأنّ تقديره لأن أتاه اللّه فهو مفعول لأجله والعامل فيه، حاجّ، و الهاء ضمير إبـراهـيم أو ضمير الّذي، و اذ، يجوز أن تكون ظرفاً لحاجّ، و أن تكون ظرفاً لأتاه اَنَا اُحْيي الإسم الهَمزة و النّون و أنّما زيدت الألف عليها في الوقف لبيان حركة النّون و لذلك اذا وصلته بما بعده حذفت الألف مِنَ الْمَشْرِقِ ومِنَ الْمَغْرِبِ متعلقان بالفعل أعني يأتي.



◁ التّفسير

أشار اللّه تعالىٰ في هذه الآية الىٰ قصّة إبراهيم الخليل ونمرود ومحاجّته إيّاه أمّا أصل القصّة فسيأتي الكلام فيه و امّا الذّي أُشير اليه في هذهفحاصله أنّ إبراهيم لمّا خرج من النّار أدخلوه علىٰ الملك و لم يكن قبل ذلك دخل عليه

فكّلمه الملك و قال له من رَبّك قال: **رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ** قال نمرود و **أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ** إستحيي من أردتُ قتله فيكون ذلك منّي إحياء له و أقتل أخر فيكون ذلك منّي إماتة و قيل دعىٰ برجلين فقتل أحدهما و ترك الأخر ثمّ قال أحييتُ الأوّل وأفنيتُ الثّاني فقال له إبراهيم أنّ ربّي يأتي بالشّمس من مشرقها فأت بها أن كنت صادقاً من مغربها فبهت الذّي كَفر و هو نمرود يعني إنقطع وبطلت حجّته قال اللّه تعالىٰ: **وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ** أي لا يوفقهم علىٰ التّوبة ما داموا علىٰ ظلمهم باقين لا أنّ اللّه لا يهديهم أي لا يرشدهم الىٰ الحقّ و ذلك لأنّ اللّه تعالىٰ بعث إبراهيم عليه السلام و هكذا كلّ نبيٍ في زمانه لإرشاد الخلق ونمرود أيضاً كان من النّاس ولكنّه أبىٰ و إستكبر فلا جرم كان من المعاندين.

و قد رُوي عن بعض القّراء أنّه قرأ، فبهت الّذي كفر، أي فبهت إبراهيم الّذي كفر وهو نمرود و لكن هذا القول ضعيف والمشهور الأوّل ثمّ أنّ نمرود بضمّ النّون و بالذّال المعجمة قيل في نسبه هو نمرود بن كوش بن كنعان بن سام بن نوح ملك زمانه وصاحب النّار والبعوضة هذا قول ابن عبّاس و مجاهد و قتادة و الرّبيع و السّدي و ابن إسحاق و غيرهم وكان إهلاكه لمّا قصد المحاربة بأن فتح اللّه عليه باباً من البعوض فستروا عين الشّمس و أكلوا عسكره ولم يتركوا إلاّ العظام ودخلت واحدة منها دماغه فأكلته حتّىٰ صارت مثل الفأرة فكان أعزّ النّاس عنده بعد ذلك من يضرب دماغه بمطرقة عتيدة لذلك فبقي في البلاء أربعين يوماً و هو علىٰ ما قيل اوّل من تجبَّر و هو صاحب الصَّرح ببابل و قيل أنّه ملِك الدّنيا بأجمعها و هو أحد الكافرين والاخر بُخت النَصر، و قال بعض المؤرّخين أنّ الذّي حاجّ إبراهيم هو نمرود بن فالخ بن عابر بن شالخ بن أرفخشد بن سام، عن السّهيلي هو، إبن كوش بن كنعان بن حام بن نوُح قال و كان ملكاً علىٰ السّواد ملكّه الضّحاك بالّذي يعرف بالإزدهاق وإسمه بيوراب

بن آندراست وكان ملك الأقاليم كلّها و هو الّذي قتله أَفريدون بن أشفيان وكان الضّحاك طاغياً جبّاراً ودام ملكه ألف عام علىٰ ما قيل و هو أوّل من صلب و أوّل من قطع الأيدي والأرجل هذا ما قالوه في نسبه و امّا قصّة المحّاجة ففيه نقلان.

أحدهما: أنّهم خرجوا الىٰ عيد لهم فدخل إبراهيم علىٰ أصنامهم فكسرها فلّما رجعوا قال لهم أتعبدون ما تنحتون فقالوا له، فمن تعبد قال أَعبُد ربّي الّذي يحيي ويميت.

ثانيهما: أنّ نمرود كان يحتكر الطّعام فكانوا إذا أحتاجوا الىٰ الطّعام يشترونه منه فإذا دخلوا عليه سَجدوا له فَدخل إبراهيم فلم يسجد له فقال مالك لا تسجد لي قال أنا لا أَسجد إلاّ لِربّي فقال له نمرود، مَن ربّك قال إبراهيم ربّي الّذي يحيي ويميت ألخ.

أقول و سيأتي الكلام في نَسَب إبراهيم و ما جرىٰ عليه مفصّلاً إن شاء اللّه تعالىٰ.

■



اَوْ كَالَّذي مَرَّ عَلىٰ قَرْيَةٍ وَّ هِيَ خاوِيَةٌ عَلىٰ عُرُوشِها قالَ اَنّىٰ يُحْيي هٰذِهِ اللّٰهُ بَعْدَ مَوْتِها فَاَماتَهُ اللّٰهُ مِائَةَ عامٍ ثُمَّ بَعَثَه قالَ كَمْ لَبِثْتَ قالَ لَبِثْتُ يَوْماً اَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عامٍ فَانْظُرْ اِلىٰ طَعامِكَ وَشَرابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانْظُرْ اِلىٰ حِمارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ اٰيَةً لِّلنّاسِ وَانْظُرْ اِلَى الْعِظامِ كَيْفَ نُنْشِزُها ثُمَّ نَكْسُوها لَحْماً فَلَمّا تَبَيَّنَ لَه قالَ اَعْلَمُ اَنَّ اللّٰهَ عَلىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَديرٌ ﴿٢٥٩﴾

◁ اللّغة

مَرَّ: المُرور المُضِي والإجتياز بالشّيْ.

عَلىٰ قَرْيَةٍ: القَرية بفتح القاف إسم للموضع الّذي يجتمع فيه النّاس وللنّاس جميعاً و يستعمل في كلّ واحدٍ منها.

خاوِيَةٌ: خوت الدّار فهي خاوية تخوىٰ خواءً، إذ أباد أهلَها بخلّوها منهم، لأنّها من الخواء و هي الفرصة بين الشّيئين بخلّو ما بينهما.

عُرُوشِها: جمع عرش، والعرش البيت، أي بيوتها.

لَمْ يَتَسَنَّهْ: قيل أنّه مأخوذ من السنّة، والأصل فيه علىٰ قولهم سانيته مساناةً إذا هاملته سنة سنة، و قيل من قولهم: سانهة وسنهات و الهاء أصلّية مجزومة، بلم علىٰ القول، الأوّل فأنّها لِلسّكت حبّي بها بعد الوقف و كيف كان فمعناه لم تغّيره السّنون.

نُنْشِزُها: أهل النّشُوز الإرتفاع فمنه النّشز، المرتفع من الأرض، ومنه نشوز المرأة رفعها عن طاعة زوجها.

نَكْسُوها: أي نغطّيها باللّحم كما نغطّي باللّباس.

◁ الإعراب

اَوْ كَالَّذِي في الكاف و جهان:

أحدهما: أنّها زائدة والتّقدير ألم تَر الىٰ الّذي حاجّ أو الّذي مَرّ علىٰ قرية فهو مثل قوله، ليس كمِثله شي.

ثانيهما: أنّها غير زائدة وموضعها نَصب والتّقدير أو رأيت مثل الّذي ودّل علىٰ المحذوف قوله: **أَلَم تَر الىٰ الّذي حاجّ** وأو، لِلتفضيل أو لِلتّخيير في التّعجب بحال أيّ القبيلتين تاءٍ وأصل القرية من قريتُ الماء إذا جمعته **وَّ هِيَ خٰاوِيَةٌ** في موضع جرٍّ صفة لِقرية **عَلىٰ عُرُوُشِهٰا** يتّعلق بِخاوية و قيل هو بدل من القرية تقديره، مَرَّ علىٰ قرية علىٰ عُروشها أي مرّ علىٰ عروش القرية فيجُوز علىٰ هذا أن يكون صفة لقرية لا بَدلاً، تقديره، علىٰ قريةٍ ساقطة علىٰ عرُوشها فعلىٰ هذا يجوز أن يكون **وَّ هِيَ خٰاوِيَةٌ، خالاً** من العُروش، أو من القرية أو من هاء، المضاف اليه و العامل معنى الإضافة و هو ضعيف مع جوازه **أَنّىٰ** في موضع نصب بيحييٰ و هي بمعنىٰ، متىٰ، فعلىٰ هذا يكون ظرفاً ويجوز أن يكون بمعنىٰ كيف فيكون موضعها حالاً من هذه **مِاَئَةُ عٰامٍ** ظرفٌ لإماتة علىٰ المعنىٰ لأنّ المعنىٰ البثه مَيتا مائة عام، أو ظرفٌ لفعلٍ محذُوف تقديره فأماته فَلبث مائة عام **كَم** ظرف لِلَبث **لَمْ يَتَسَنَّهْ** الهاء زائدة في الوقف و قد مرّ في شرح اللّغات الكلام فيه **وَلِنَجْعَلَكَ** معطوف علىٰ فعلٍ محذوف تقديره أرَيناك ذلك لتعلم قدرتنا ولنجعلك الآية و قيل الواو زائدة **كَيْفَ نُنْشِزُهٰا** في موضع الحال من العظام والعامل في كيف، ننشزها ولا يجوز أن تعمل فيها، أنظر، لأنّ إستفهام لا يعمل فيه ما قبله **لَحْماً**مفعول ثان والباقي واضح لا خفاء فيه.

◁ التّفسير

اَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلىٰ قَرْيَةٍ وَّ هِيَ خٰاوِيَةٌ عَلىٰ عُرُوُشِهٰا. أو للعطف والتّقدير عند الكسائي والفّراء هل رأيت كالّذي حاجّ إبراهيم في ربّه أو كالّذي

مَرّ علىٰ قرية ونقل عن المبرد أنّ المعنىٰ، أَلَم تَرَ الىٰ الّذي حاجّ إبراهيم في ربّه، أَلَم تَرَ مَن هو كالّذي مَرَّ علىٰ قرية، فأضمر في الكلام من هو، و عن أبي سفيان بن حصين أنّه قرأ، **اَوْ كَالَّذِي مَرَّ** بفتح الواو هي واو العطف دخل عليها ألف الإستفهام الذّي معناه التّقرير ثمّ أنّهم إختلفوا في أنّ المراد بالّذي مَرَّ علىٰ قرية، مَن هو، فَنُقل عن ابن عبّاس وقتادة والرّبيع وعكرمة والضّحاك وغيرهم أنّ الّذي مَرَّ علىٰ القرية هو، عُزير، و قال وَهب وغيره، هو أرميا وكان نبيّاً، و قال إبن إسحاق، أرمياء هو الخِضر، و قيل أنّه رجل من بني إسرائيل غير مُسمّىٰ ونقل عن النّقاش أنّه قال هو غلام لُوط، وعن السّهيلي عن القُتبي هو شعياء في أحد قوليه، والقرية المذكورة في الآية هي بيت المقدس قالوا وكان مُقبلاً من مِصر والأقوال كثيرة نقلها القُرطبي في تفسيره وكيف كان لاشكّ لنا في أصل القضّية وأنّه مَرَّ رجل علىٰ قرية **وَّ هِيَ خَاوِيَةٌ عَلىٰ عُرُوشِهَا** أي خالية و قيل ساقطة علىٰ أبنيتها وسقُوفها بمعنىٰ أنّ السّقوف سقطت و وقعت البُنيان عليها.

قَالَ اَنّىٰ يُحْيِي هٰذِهِ اللّٰهُ بَعْدَ مَوْتِهَا أي أنّه قال كيف يُحي اللّه أهل هذه القرية بعد مَوتهم أو كيف يعّمر اللّه هذه القرية بعد خرابها قيل أنّه قال هذا الكلام علىٰ التّعجب و الإنكار و الإرتياب في البعث و قيل ليس كذلك ولكنّه أحبّ أن يريه اللّه تعالىٰ إحياء الموتىٰ مشاهدةً ليحصل له العلم به ضرورةً كما حصل له العلم دلالةً و ذلك كقول إبراهيم عليه السلام ربّ أرِني كيف تُحي الموتىٰ قال أولَم تؤمن قال بلىٰ و لكن ليّطمئن قلبي، قاله الطّبرسي رحمه الله و أنا أقول بين المقامين فرق واضح و ذلك لأنّ كلمة أنّىٰ، موضوعة للبحث عن الحال و المكان و لذلك قيل هي بمعنىٰ، أيَن، و كيف ، لتّضمنها معناهما قال اللّه عزّ وجلّ في قصّة زكرّيا ومريم، أنّىٰ لك هذا، أي من أين و كيف و هو سؤال عن حقيقة الأمر و اقعاً علىٰ سبيل الإستفهام، أو التّعجب وهذا بخلاف قول

الخليل، ربّ أرني كيف تُحي المَوتىٰ، لأنّه طلب الرّؤية مشاهدةً و لذلك لم يقل ربّ كيف تُحي الموتىٰ بل قال، أرني كيف تُحي الموتىٰ أي أنّي أعلم بأنّك تُحي المَوتىٰ و لكنّي أُحبّ أن أراه.

فَأَمَاتَهُ اللهُ مِائَةَ عَامٍ أي مائة سنة **ثُمَّ بَعَثَه** أي ثمّ أحياه بعد موته كما كان أوّلاً قبل موته **قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ** إختلف في القائل له، فقيل القائل هو اللّه تعالىٰ، و قيل سمع هاتفاً من السّماء يقول له ذلك القائل جبرئيل و قيل نبّي من الأنبياء و قيل رجل ممّن شاهده من قومه عند موته وعمّر الىٰ حين إحياءه فقال له كم لبثت والأظهر أنّ القائل هو اللّه تعالىٰ بدليل قوله تعالىٰ بعد ذلك.

وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْماً، واللّه أعلم **قَالَ لَبِثْتُ يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ** أنّما قال ذلك لغلبة ظنّه أنّه لَبث يوماً أو بعض يوم فلا يكون كاذباً فيه ومثله قول أصحاب الكهف، قالوا لَبثنا يوماً أو بعض يوم، وأنّما لَبثوا ثلاث مائة سنة وتسع سنين علىٰ ما يأتي ولم يكونوا كاذبين كأنّهم قالوا الذّي عندنا وفي ظنّوننا أنّا لَبثنا يوماً أو بعض يوم قال ابن جريح وقتادة و الرّبيع أماته اللّه غدوة يوم ثمّ بُعث قبل الغروب فَظنّ هذا اليوم واحداً فقال لَبثتُ يوماً ثمّ رأىٰ بقيةً من الشّمس فخشىٰ أن يكون كاذباً فقال أو بعض يوم فقيل له بل لَبثت مائة عام ورأىٰ من عمارية القرية و أشجارها و مبانيها مادلّه علىٰ ذلك فقيل له **فَانْظُرْ إِلىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ** قيل أنّ طعامه كان من التّين الّذي كان جمعه من الأشجار في القرية التّي مرَّ عليها،شرابه فكان ركوة من خمر و قيل من عصير و قيل قلّة ماء هي شرابه و قيل كان زاده تيناً و عصيراً و عنباً و هذه الثلاثة أسرع الأشياء الىٰ الفساد فلمّا بعث وجد العصير حلواً والتّين و العنب كما جنيتا لم يتّغيرا وقوله **لَمْ يَتَسَنَّهْ** أي لم تُغيّره السّنُون

نقل عن الجوهري أنّه قال **سُنون**، بضّم السّين والسَّنة واحدة السّنين و في نقصانها قولان:

أحدهما: الواو والأخر الهاء و أصَلها سَنهة مثل الجَبهة لأنّه من سَنهت النّخلة و تَسَنهت اذا أتَت عليها السّنون، و نخلة سنّاه، أي تحمل سنة و لا تحمل أُخرىٰ (وأُنظر الىٰ حمارك) فيه اقوال:

أحدها: معناه وأنظر الىٰ إتّصال عظامه وإحياءه جزاً جزاً ولازم هذا القول هو أنّ اللّه تعالىٰ أماتَه ثمّ أحَياه والقائل ملتزمٌ به.

ثانيها: و أنظر الىٰ حمارك قائماً مَربطه لم يُصبه شيئ مائة عام وأنّما العظام التّي نظر اليها عظام نفسه بعد أن أحياه اللّه عَينيه و رأسه و سائر جسده ميّت قال و أعمىٰ اللّه العيون عن أرميا وحماره طول هذه المدّة.

ثالثها: معناه أنظر اليه كيق تفرّق أجزاءه و تَبَّدد عظامه ثمّ أنظر كيف يُحيه اللّه وأنّما قال له ذلك ليستّدل به علىٰ طول مماته **وَانْظُرْ اِلَى الْعِظٰامِ كَيْفَ نُنْشِزُهٰا** فعلىٰ قراءة الراء المُهملة معناه أنظر الىٰ العظام كيف يُحيها من نشر اللّه المَوتىٰ بمعنىٰ أنَشَرهم فنشروا و قُرأ بالزّاء المعجمة و عليها المصاحف فالمعنىٰ نُحرّكها و نرفع بعضها الىٰ بعضٍ للتّركيب **ثُمَّ نَكْسُوهٰا لَحْماً** أي نكسُو العظام لحماً، و إختلفوا فيه أيضاً فقيل أراد اللّه عظام حماره و عليه فتقديره وأنظر الىٰ عظام حمارك، و قيل أراد عظامه قالوا أوّل ما أحيا اللّه منه عَينه و هو مثل عرقي البيض فجعل ينظر الىٰ العظام البالية المتّفرقة تجتمع اليه والىٰ اللّحم الذّي قد أكلته السّباع الذّي يأتلف الىٰ العظام من هاهنا ويلتزم ويلتزق بها حتّىٰ قام وقام حماره قاله الطّبرسي ﷺ في المجمع.

أقول القول الأوّل هو الحقّ وحاصله أنّ اللّه تعالىٰ أحَيىٰ حماره في منظره ليعلم ما يعلم و امّا أنّه تعالىٰ أحَيىٰ عَيَنيه قبل جَسده لينظر الىٰ العظام البالية الىٰ أخر ما قال فلا يساعده العقل والنّقل اذ كيف يعقل خلق العين قبل الجسد

وإثبات الرّؤية لها و قد ثبت وتحقّق في موضعه أنّ العَين والسّمع و غيرهما من القُوىٰ لا إدراك لها مع قطع النّظر عن وجود النّفس و وجود النفس فرع وجود البَدن و تفصيل الكلام في هذا البحث خارج عن موضوع الكتاب في هذا المقام و لعلّ القائل بهذا القول كان أجَنَبنا عن درك هذه المسائل العويصة و لذلك لفّق ما لَفّق أعاذنا اللّه منه.

فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَه قَالَ اَعْلَمُ اَنَّ اللّٰهَ عَلىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ أي فَلمّا ظَهر له ما ظهر من أنّه مات مائة سنين ثمّ أحياه اللّه تعالىٰ وكذلك ما رأىٰ في حماره وطعامه وشرابه وتقطّع أوصاله ثمّ إتّصال بعضها الىٰ بعضٍ حتّىٰ رجع الىٰ الحالة التّي كان عليها في أوّل أمره وأنّه لمّا رجع الىٰ وطنه رأىٰ ولد ولده شيوخاً و قد كان خلف أباءهم شباباً الىٰ غير ذلك من الأُمور التّي تغَيرت والأحوال التّي تقلّبت، فقال أعلم أنّ اللّه علىٰ كلّ شيءٍ قدير أي أعلم علماً قطعَياً لا شكّ فيه لأنّه حصل لي بالمشاهدة لا بالدّليلّ والبُرهان ومن المعلوم أنّ العلم الحاصل بالمشاهدة والعيان أقّوىٰ من العلم الحاصل بالدّلائل العقّلية أو النّقلية لإحتمال وجود الشكّ فيه دونه و لذلك حثّ اللّه تعالىٰ عليه في كثير من الأيات الدّالة علىٰ التّفكر في الأفاق والأنفس كما يأتي البحث فيه في تفسير الأيات إن شاء الله تعالىٰ.

■

وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾

◁ اللّغة

الْمَوْتَىٰ: بفتح الميم جمع المَيت بتخفيف الياء و سكونها و امّا الميّت بكسر الياء المشّدَدة وكذلك، مَيّتة فالجمع ميّتون وميّتات.

تُؤْمِنْ: فعل مضارع وماضيه آمَنَ إيماناً.

لِيَطْمَئِنَّ: الإطّمئنان سكون القلب.

فَصُرْهُنَّ: من صار الشّئ يُصوره أي قَطعه.

◁ الإعراب

وَإِذْ قَالَ العامل في، إذ محذوف تقديره أُذكُر، فهو مفعول به لا ظرف كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ الجملة في موضع نصب، بأرني، أي أرِني كيفَ تحيي الموتىٰ فكيف في موضع نصب تُحيي لِيَطْمَئِنَّ اللاّم متعلقة بمحذوف تقديره سألتك ليطّمئن مِنَ الطَّيْرِ صفة لأربعة فَصُرْهُنَّ بضّم الصاد وتخفيف الرّاء و بكسر الصاد و تخفيفها و لهما معنيان.

أحدهما: أملّهن، يقال هار يصوره و يصيره إذا أماله فعلىٰ هذا تتّعلق، الىٰ، بالفعل و في الكلام محذوف تقديره أملّهن إليك ثمّ قطّعهن

ثانيهما: قطّعهن من صار يصور بمعنىٰ قطع فعلىٰ هذا في الكلام محذوف يتّعلق به الىٰ أي فقطّعهن بعد أن تميلّهن إليك مِنْهُنَّ في موضع نصب علىٰ

الحال من، جُزءً، و في الجُزء لغتان ضمّ الزّاي و تسكينها و قد قُرء بهما يَأْتِينَكَ جواب الأمر سَعْياً مصدر في موضع الحال.

◁ التّفسير

قيل في سبب سؤال إبراهيم أن يريه كيف يحيي الموتىٰ ثلاثة أقوال.

أحدها: ما نُقل عن الحَسن وقتادة والضّحاك أنّه رأىٰ جيفةً قد مزّقها السّباع تأكل منها سبّاع البّر وسبّاع الهواء ودّواب البحر فسألَ اللّه تعالىٰ أن يريه كيف يحييها و قد روي هذا القول عن أبي عبد اللّه عليه السلام.

ثانيها: ما نقل عن إبن إسحاق أنّه قال كان سبب ذلك منازعة نمرود له في الأحياء وتوعدّ إيّاه بالقتل أن لم يحيي اللّه الميّت بحيث يشاهده و لذلك قال ليطّمئن قلبي الىٰ أنّه لا يقتلني الجبّار.

ثالثها: قال قومٌ أنّما سأل ذلك لقومه كما سأل مُوسىٰ الرؤّية لقومه، وهنا قول رابع و هو أنّه عليه السلام سأل الرؤّية في إحياء الموتىٰ لأنّه أحبّ أن يعلم ذلك بالمشاهدة والعيان بعد أن كان عالماً به من جهة الإستدلال و امّا قول من قال أنّه سأل ما سأل لأنّه كان شّاكاً فيه فهو من أضعف الأقوال وأوهنها إذ كيف يُعقل أن يكون مثل إبراهيم عليه السلام وهو من أعاظم الأنبياء شّاكاً في أصل البعث والنّشور و هو من المسائل الأوّلية الّتي بُعث النّبي لدعوة الخلق اليه مُضافاً الىٰ أنّ الشكّ في قدرة اللّه علىٰ إحياء الموتىٰ كفر لا يجوز علىٰ إحياء النّاس فضلاً عن الأنبياء.

رابعاً: كيف يجوز علىٰ اللّه تعالىٰ أن يبعَث الىٰ خلقه من هو جاهل بما يجوز وما لا يجوز عليه.

خامساً: أنّه تعالىٰ لمّا قال له، أو لَم تؤمن، قال إبراهيم **بَلىٰ وَلٰكِنْ لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي** ففيه دلالة علىٰ أنّه عليه السلام كان عارفاً بذلك مُصدّقاً به وأنّما سأل تخفيف

المِحنَة بمقاساة الشبّهات و دفعها عن النّفس هكذا قال الشّيخ ﴿ره﴾ في التّبيان و نقل بعض المُفسّرين من العّامة في المقام قولاً آخر و هو أنّ اللّه تعالىٰ وَعده أن يتّخذه خليلاً فأراد آيةً علىٰ ذلك ونقل عن السّدي وإبن جبير أنّهما قالا، أولَم تؤمن بأنّك خليلي، قال بَلىٰ و لكن ليطّمئن قلبي بالخلّة، و قيل دعىٰ أن يريه كيف يحيي الموتىٰ ليعلم هل تستجاب دعوته فقال اللّه أولم تؤمن أنّي أُجيب دُعائك قال بَلىٰ، و لكن لِيطّمئن قلبي إنّك تُجيب دعائي، و قال بعض الصّوفية المراد من المَوتىٰ في الآية القلوب المحجوبة عن أنوار المُكاشفات و التّجلي، و الإحياء عبارة عن حصول ذلك التّجلي والأنوار الإلٰهية فقوله أَرني كيف تُحيي الموتىٰ طلبٌ لذلك التّجلي والمكاشفة فقال، أوَلَم تؤمن، قال بلىٰ، أو من به إيمان الغيب و لكن أطلب حصولها ليّطمئن قلبي بسبب حصول ذلك التّجلي انتهىٰ.

أقول: هذا القول لا يمكن حَمل الآية عليه لأنّه خلاف ظاهر الآية بل و خلاف باطنها، و قيل لم يكن قصد إبراهيم إحياء المَوتىٰ بل كان قصده سماع الكلام بلا واسطة فهذه هي الأقوال التّي عثرنا عليها في كتبهم وتفاسيرهم و أنت ترىٰ أنّها ممّا لا يمكن التّعويل عليها لكونها ضعيفة إلاّ الرّابع منها و هو أنّه ﴿عليه السلام﴾ سأل ربّه إحياء المَوتىٰ بالمشاهدة والعيان بعد أن كان عالماً به من جهة الإستدلال و ذلك لأنّه ﴿عليه السلام﴾ سأل و قال: **رَبِّ اَرِني كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتىٰ** و السؤال بكيف، سؤال عن الحالة التّي يكون الشّئ عليها و قيل يُسأل به عمّا يصّح أن يقال فيه شبيه وغير شبيه كالأبيض والأسود والصّحيح والسّقيم كما قال الشّاعر:

قيل لي كيف أنت قلتُ عليلُ ... سَهرُ دائمُ وحُزنُ طويلُ

و لهذا لايصّح أن يقال في اللّه عزّ وجلّ كيفَ، فكلّ ما أخبر اللّه تعالىٰ بلفظة، كيف، عن نفسه فهو إستخبارٌ علىٰ طريق التّنبيه للمخاطب و توبيخاً:

قال اللّه تعالىٰ: **كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللّهِ**.

قال اللّه تعالىٰ: **كَيْفَ يَهْدِى ٱللّهُ**.

قال اللّه تعالىٰ: **كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ**.

قال اللّه تعالىٰ: **كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ ٱلْأَمْثَالَ**.

اذا عرفت هذا فنقول، قول الخليل **كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتىٰ** ليس سؤلاً عن نفس الإحياء بل هو سؤال عن كيّفية الإحياء وأنّه علىٰ أيّ نحوٍ يكون ألا تَرىٰ أنّه لم يقل ربّ أرني إحياء المَوتىٰ و قال كيف تُحي المَوتىٰ و ذلك لأنّ أصل الإحياء كان عنده عليه‌السلام من المسلّمات وقدرة اللّه علىٰ الإحياء من القطّعيات و امّا كيّفية الإحياء فهي أمرٌ أخر فالشكّ فيها ليس من الكفر بشيءٍ و ذلك لأنّ إحياء اللّه تعالىٰ المَوتىٰ علىٰ أقسام لا يَعلمها إلاّ هو:

قال اللّه تعالىٰ: **اِعْلَمُوٓا أَنَّ ٱللّهَ يُحْيِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا**[١].

قال اللّه تعالىٰ: **وَ أَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا**[٢].

قال اللّه تعالىٰ: **وَ جَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَيٍّ** [٣].

و أن شئت تفصيل ذلك فأعلم أنّ الحياة تُستعمل علىٰ خمسة أوجه:

الأوّل: لقوّة النّامية الموجودة في النّبات والحيوان و منه قيل نباتٌ حَيّ واليه الإشارة بقوله:

قال اللّه تعالىٰ: **اِعْلَمُوٓا أَنَّ ٱللّهَ يُحْيِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا**.

قال اللّه تعالىٰ: **وَ أَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا**

الثّاني: للقّوة الحسّاسة وبه سُمّي الحيوان حيواناً:

قال اللّه تعالىٰ: **وَ مَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَ لَا ٱلْأَمْوَاتُ**[٤]

قال اللّه تعالىٰ: **أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا، أَحْيَآءً وَ أَمْوَاتًا**[٥].

١- الحديد١٦=
٢- ق = ١١
٣- الانبياء= ٣٠
٤- الفاطر = ٢٢
٥- المرسلات = ٢٥/٢٦

الثّالث: للقّوة العاملة ومنه.

قال اللّه تعالىٰ: **أَوَ مَنْ كانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْناهُ**[١] قال الشّاعر:

و قد ناديتُ لَو أسمَعت حَيّاً ولكن لا حياة لمن تُنادى

الرّابع: إرتفاع الغّم و منه قول الشّاعر:

ليس من مات فإستَراح بميتٍ أنّما المَيت ميّتُ الإحياء

الخامس: الحياة الأُخرّوية الأبدّية و ذلك يتّوصل اليه بالحياة التّي هي العقل والعلم:

قال اللّه تعالىٰ: **اَسْتَجِيبُوا لِلّٰهِ وَ لِلرَّسُولِ إِذاٰ دَعاٰكُمْ لِما يُحْيِيكُمْ**[٢].

قال اللّه تعالىٰ: **يا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَياٰتي**[٣] يعني بها الحياة الأُخرّوية الدّائمة.

السّادس: الحياة التّي يُوصف بها الباريْ تعالىٰ و هذه هي المراد في المقام إختلفوا في المراد بها فيه تعالىٰ بعد إتّفاقهم علىٰ أصل وجودها وثبوتها في حقّه فقال جمهور المتّكلمين أنّها صفة توجب صحّة العلم والقُدرة قال العلاّمة الحلّي قدّس سرّه في شرح التّجريد عند قول المَصنف وكلّ قادرٍ عالمٍ حَيّ بالضّرورة، و زاد بعضهم في المقام قسماً سادساً وعبّر عنه بالحياة التّي يوصف بها الباريْ فأنّه اذا قيل فيه تعالىٰ هو حَيٌّ فمعناه لا يصّح عليه المَوت وليس ذلك إلاّ لِلّه تعالىٰ اذا عرفت أقسام الحياة فقد عرفت أقسام المَوت أيضاً فأنّ كلّ قسمٍ من أقسام الحياة يقابله المَوت الّذي هو عدم الحياة فاذا قيل أنّ اللّه تعالىٰ هو المُحي معناه أنّه يُحي الأموات بأقسامها و عليه فَلِلسائل أن يَسأل عن كيّفية إحياء المَوتىٰ لأنّه لا يعلم أنّ إحياء الإنسان مثلاً بعد مَوته من أيّ قسمٍ منها فَيطلب المعاينة والمشاهدة في الإحياء ليَنتقل من العلم الإستدلالي

١- الانعام = ١٢٢
٢- الانفال = ٢٤
٣- الفجر = ٢٤

البّرهاني الىٰ العلم الضّروري العيني وأن شئت قلت ليَنتقل من علم اليقين الىٰ عَين اليَقين وهذا ممّا لا إشكال فيه عقلاً ونقلاً فسؤال إبراهيم عليه السلام بقوله: **رَبِّ اَرِني كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتىٰ** من هذا القبيل، وفي قوله: **أرني** إشارة الىٰ ما ذَكرناه لأنّ المراد بالرّؤية في القمام رؤية العين لا رُؤية القلب كما في قول موسىٰ، **رَبِّ أَرِنىَ أَنْظُرْ اِلَيْكَ قٰالَ لَنْ تَرٰانيِ**[1] والدّليل علىٰ ما ذَكرناه من أنّ المراد بهما رؤية البَصَر قوله أنظر اليك، فالخليل طلب من اللّه تعالىٰ أن يشاهد كيفيّة إحياء اللّه المَوتىٰ، والكليم طلب النّظر اليه علىٰ ما سيجئ البحث فيه إن شاء اللّه تعالىٰ ولذلك قال تعالىٰ في جواب الكليم **لَنْ تَرٰانيِ** و امّا في جواب الخليل فقال خُذ أربعة من الطّير الآية و هو أي عدَم الرّد علىٰ إبراهيم دليل علىٰ أنّ السّؤال كان مَتيناً وقع في محلّه.

قٰالَ اَوَ لَمْ تُؤْمِنْ قٰالَ بَلىٰ وَلٰكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي فيه إشارة الىٰ أنّ مراتب اليقين متفاوتة **فالمَرتبة الأُولىٰ**: منه، علم اليقين و هو اليقين الحاصل للإنسان من طريق العلم والإستدلال.

الثّانية: عين اليقين و هو اليقين الحاصل بالمعاينة والمُشاهدة بعد حصول العلم الإستدلالي.

الثّالثة: حقّ اليقين و هو اليقين الحاصل بسبب العلم والمُشاهدة والإدراك بالحِسّ و هو أعلىٰ مراتب اليقين فقوله تعالىٰ: **اَوَ لَمْ تُؤْمِنْ** بقلبك لأنّ الإيمان هو التّصديق الذّي مَعه أمَنٌ، و قوله:**بلىٰ**، أي نعم أنّي مؤمن بقلبي أنّك تُحي المَوتىٰ وتبعث من في القبُور، ولكن لِيَطْمَئن قلبي، إشارة ما ذَكرناه الوصول من مقام علم اليقين بمقام عين اليقين ولا شكّ أنّ العلم الحاصل من الإدراك الحِسّي لا يبقىٰ مَعه شكّ في القلب أصلاً ولأجل ذلك قالوا أنّ العلم الضّروري

١- الأعراف=١٤٣

أقوىٰ من العلم الحصولي الكسّبي والهمزة في قوله، أَوَلَم تُؤمن، تفيد الإثبات أي أنّك قد آمنت لا محالة فَلِم تَسأل ذا فقال بلىٰ و لكن لِيَطْمئن قلبي قال الشّاعر:

أَلَستُم خير من رَكب المطايا وأنـدىٰ العالمين بطون راحٍ

أي أنّكم كذلك **قَالَ فَخُذْ اَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ اِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَاْتِينَكَ سَعْياً وَاعْلَمْ اَنَّ اللّٰهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ.**

أمّا الطّيور الأربعة فقيل هي الدّيك، والطّاووس، والغراب والحمام و قال ابن عبّاس مكان الغراب، الكركي، ومكان الحمام النَّسر، **فَصُرهنّ** أي قَطِعهُنّ، و قيل أضممّهن وأجمعهُن اليك من صاره يُصوره صوراً اذا أماته، و ذلك لأنّ اللّفظ جاء بكلا المعنيين يقال صار الشّيُ يُصوره أي قطّعه و عن أبي الأسود الدّئلي هو بالسّريانية التّقطيع والىٰ هذا المعنىٰ أشار الشّاعر بقوله:

فلمّا جذبت الحَبل أطّت نسُوغه بأطراف عيدانٍ شديد سُيورها

فَأدَنت لي الأسباب حتّىٰ بلغتُها بنَهضي و قد كاد إرتقاسُ يُصورها

والىٰ المعنىٰ الثّاني أشار الشّاعر بقوله:

وجاءت فلعة دَهَس صفايا يُصور عنُوقها أحوىٰ زنيم

معناه أنّ هذه الغَنم يعطف عُنوقها هذا التّيس الأحوىٰ و قال الأخر:

اللّه يعلم أنّا في تَلَفّتنا يوم الفراق الىٰ جيراننا صُور

و قد قُرأ بكسر **الصّاد** أيضاً والمعنىٰ واحد، قيل أنّ إبراهيم أُمِر بأن يقّطعها و يخلط ريشها بدَمها ويجعل علىٰ كلّ جبلٍ منّهن جزءً هذا قول مجاهد وابن زيد وابن جريح وابن إسحاق **ثُمَّ اجْعَلْ عَلىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا** إختلفوا في عدد الجبال فقيل أنّ الجبال كانت أربعة، و قيل سبعة، و قيل عشرة، وأنّما قال جزءً ولم يقل قسماً أو سَهماً، لأنّ السّهم من الجملة ما إنقسمت عليه وليس

كذلك الجُزء ألا تَرىٰ أنّ الأثنين سهم من العشرة لأنّها تنقسم عليه وليس كذلك الثّلاثة و هو جزءٌ منها لأنّه بعضٌ لها والمراد بقوله: **ثُمَّ ادْعُهُنَّ** الإشارة اليها لأنّ دعاء الجماد قبيح أي ثمّ أشر اليهنّ يأتينك سَعياً فَفَضل إبراهيم ما أُمر به وأجابه اللّه تعالىٰ بالإحياء فصار قلبه مُطّمئناً كما قال عليه‌السلام و قوله: **وَاعْلَمْ اَنَّ اللّٰهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ** أي أنّ اللّه يُقهِر و لا يُقهَر لأنّ العزّة حالة مانعة من أن يُغلَب من قولهم أرضٌ عزاز أي صُلبة والّذي لا يُغلَب أصلاً هو اللّه تعالىٰ و لذلك فهو العزيز بقولٍ مطلق قال اللّه تعالىٰ: **وَ لِلّٰهِ اَلْعِزَّةُ وَ لِرَسُولِهِ وَ لِلْمُؤْمِنِينَ**[1] ثمّ أنّها أن كانت دائمةٍ فهي الحقّيقة وأن كانت زائلة فهي غير حقّيقية وحيث أنّ العزّة فيه تعالىٰ أزَلّي أبدّي لا زوال لها أصلاً فهو يوصف بها حقّاً وما سواه مجازاًأنّه حكيم فقد مرّ معناه غير مرّةٍ وقلنا في معناه أي أنّه ذو حكمةٍ بالغة في أفعاله فَليس بناء أفعاله علىٰ الأسباب العادية لعجزه عن إيجادها بطريقٍ أخر خارق للعادات بل لكونه متّضمناً لِلحكم والمصالح الخفّية التّي لا يعلمها إلاّ هو.

تنبيهٌ عرفاني:

قال بعض العُرفاء الطّيور الأربعة أربعة معانٍ هي في النّفس في الطّاووس زينة و في الغراب أمَل، وفي الدّيك شهوة، وفي البّط حرص فأشار الىٰ أنّه ما لم يذبح نفسه بالمجاهدة لم يُحي قلبه بالمشاهدة.

و قال بعضٌ أخر، الطّيور الأربعة هي الصّفات الأربع التّي تولّدت من العناصر الأربعة التّي خمّرت طينة الإنسان منها وهي التّراب، والماء، والنّار، و الهواء، فتَّولدت من إزدواج كلّ عنصرٍ مع قَرينه صفتان فمن التّراب والماء تولد الحرص والبُخل وهما قرينان حيث وجد أحدهما وجد قرينه و من النّار و قرينه الهواء تولد الغَضب والشّهوة و هما قرينان يوجدان معاً ولكلّ واحدةٍ من هذه الصّفات زوج خلق منها ليسكن اليها كحوّاء و آدم و يتّولد منها صفات

١- المناقون = ٨

أُخرىٰ فالحِرص زوجه الحَسد و البُخل زوجه الحقد و الغضب زوجه الكبر و ليس للشّهوة إختصاص بزوجٍ معيّن بل هي كالمعشوقة بين الصّفات فَيتّعلق بها كلّ صفة و لها منها متّولداتٌ يطول شرحها فهي الأبواب السّبعة للدّركات السّبع من جهنّم يدخل الخلق منها فيها واليها و قد وَرد أنّ لها سبعة أبواب لكلّ بابٍ منها جزءٌ مقسوم يعني من الخلق فَمن كان الغالب عليه صفة منها فهو يدخل النّار من ذلك الباب فأمَر اللّه خليله بذبح هذه الصّفات و هي الطّيور الأربعة، طاووس، البُخل فلو لم يزّين المال في نظر البخيل كما زيّن الطّاووس بألوانه ما بَخل به، وغراب الحرص و هو من حرصه أكثر في الكّلب، و ديك الشّهوة بها معروف، ونَسر الغَضَب و نسبته اليه لتصريفه في الطّيران فوق الطّيور و هذه صفة المُغضب فلمّا ذبح الخليل بسكّين الصّدق هذه الطّيور و إنقطعت منه متّولداتها ما بقَي لها باب يدخل منه النّار فلمّا أُلقي فيها بالمنجنيق قهراً صارت النّار عليه برداً وسلاماً، ثمّ أنّ الإشارة بتّقطيعها بالمبالغة و نتف ريشها و تفريق أجزاءها وتخليط ريشها و دماءها و لُحُومها بَعضها ببَعض إشارةٌ الىٰ مَحو أثار الصّفات الأربعة المذكورة و هَدم قواعدها علىٰ يَدي إبراهيم بأمر الشّرع،الأمر بتقسيم أجزاءها وجعلها علىٰ كلّ جَبلٍ جُزءً فالجبال الأربعة إشارة الىٰ النّفوس التّي جبّل الإنسان عليها.

أوّلها: النّفس النّامية وتسمّىٰ النّباتية أيضاً.

ثانيها: النّفس الأمّارة وتسمّىٰ الرّوح الحيواني.

ثالثها: قوّة الشّيطنة وتسمّىٰ الرّوح الطّبيعي.

رابعها: قوّة الملّكية وتسمّىٰ بالرّوح الإنساني فطيور الصّفات لِمّا ذبحت وقطّعت وخلطت أجزاء بعضها ببعضٍ و وضع علىٰ كلّ جبل روحٍ ونفسٍ وقوّة منها جزء بأمر الشّرع تكون بمثابة أشجارٍ وزُرُوعٍ تجعل عليها التّراب المخلوطة بالزّبل والقاذورات بإستصواب دهقانٌ ذي بصارةٍ في الدّهقنة بمقدار معلوم و

وقتٍ معلوم ثمّ نُسقيها بالماء ليتّقوىٰ الزّرع بقوّة التّراب والزّبل و تتصرف النّفس النّامية النّباتية في التّراب المخلوط الميتة فيُحيها بأذن اللّه تعالىٰ فأنظر الىٰ أثار رحمة اللّه كيف يُحي الأرض بعد مَوتها، فكذلك الصّفات الأربعة و هي الحرص و البُخل و الشّهوة و الغَضب مهما كانت كلّ واحدةٍ منها علىٰ حالها غالبة علىٰ الجوهر الرّوحاني تكّدر صفاءه و تمنعه من الرّجوع الىٰ مقامه الأصلي و وطنه الحقيقي فاذا كسرت سَطوتها و وَهنت قوّتها و أُميتَت شعلتها و محيت أثار طباعها بأمر الشّرع وخلطت أجزاؤها المتّفرقة بعضها ببعضٍ ثمّ قسّمت أربعة أجزاء وجعل كلّ جُزء منها علىٰ جَبل قوّةٍ أو نفسٍ أو روح فيتّقوىٰ كلّ واحدٍ من هؤلاء بتقّويتها و يتّربىٰ بتربيتها فيتّصرف فيها الرّوح الإنساني فيُحميها ويبّدل تلك الظّلمات التّي هي من خصائص تلك الصّفات المذمومة بنورٍ هو من خصائص الرّوح الإنساني والملكي فتكون تلك الصّفات مَيتَة عن أوصافها مَيّتة بأخلاق الرّوحانيات انتهىٰ كلامه.

أقول ما ذكروه من التّأويل لا بأس به و امّا حمل الآية عليه فلا نقول به و الحقّ أنّ الآية الشّريفة ناظرة الىٰ مسألة المعاد الجسماني و سنتّكَلم فيه إن شاء اللّه تعالىٰ في المُستقبل فأنّ المعاد من أعظم المسائل في الإسلام و أصَعبها.

■

مَّثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ اَمْوَالَهُمْ فِى سَبِيلِ اللّٰهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ اَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَّاللّٰهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَّشَاءُ وَاللّٰهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾

◁ اللّغة

حَبَّةٍ: الحَبّ والحَبّة يقال في الحِنطة والشّعير ونحوهما من المعطُوفات والحِبّ والحِبّة بكسر الحاء يقال في بذُور الرّياحين.

سَنَابِلَ: جمع سُنبلَة نباتٌ طيّب الرّائحة السُّنبُل من الزّرع كالبّر والشّعير ما كان في أعالي سوقه.

يُضَاعِفُ: يقال أضعفت الشّئ وضَعّفته و ضاعَفته، ضَممتُ اليه مثله فَصاعداً قال بعضهم، ضاعفتُ أبلغ من ضَعّفتُ.

◁ الإعراب

مَّثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ اَمْوَالَهُمْ في الكلام حذف مضاف تقديره مَثل إنفاق الذّين يُنفقون، و مَثَل مبتدأ كَمَثَلِ حَبَّةٍ خبره اَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ الجملة في موضعِ حرٍّ صفة لحبَّة فِى كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ مبتدأ وخبر في موضع جرّ صفة لسنابلَ و النّون في سنبلة زائدة وأصله من أسبل و قيل هي أصل، والأصل في مائة، مَلَية ثمّ حُذفت اللّام تخفيفاً كما حُذفت لام يد.

◁ التّفسير

قيل هذه الآية متّصلة بقوله تعالىٰ من ذا الّذي يُقرض اللّه قَرضاً حَسناً، و قد مرَّت وما بينهما الإعتراض بالإستدعاء الىٰ الحقّ ممّا أمَر اللّه بالحُجج والعِبر

التّي ذكرها من إحياء المَوتىٰ لإبراهيم و من حاججه للّذي إدّعىٰ أنّه ربّ العباد الىٰ غير ذلك ممّا تقّدم ذكره روي القُرطبي عن ابن عُمر أنّه قال لمّا نزلت قال رسول اللّه صلى الله عليه وآله يارّبّ زد أُمّتي فنزلت من ذا الذّي يُقرض اللّه قرضاً حَسناً فيُضاعفه له أضعافاً كثيرة، قال رسول اللّه ياربّ زد أُمّتي فَنزلت أنّما يُوَفي الصّابرون أجرهم بغير حساب، وهذه الآية لفظها بيان مثالٍ لِشَرف النَّفَقة في سبيل اللّه ولِحُسنها وضمّنها التّحريض علىٰ ذلك.

مَّثَلُ الَّذينَ يُنْفِقُونَ اَمْوٰالَهُمْ في سَبيلِ اللّٰهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ شَبه اللّه تعالىٰ الإنفاق في سبيل اللّه بحَبّةٍ **اَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنٰابِلَ فِى كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ** فيصير حاصل الضَّرب سَبع مائة وهو من تشبيه المعقول بالمحسُوس فالمُشّبه هو الإنفاق، والمُشَّبه به هو الحَبّة التّي **اَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنٰابِلَ فِى كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ** والمُتّصدق الزّارع والصَّدقة بالبذر، واللّه يُضاعف لمن يشاء، أي أنّ اللّه تعالىٰ اذا شاء أن يضاعف بأن يُعطي أكثر من سبع مائة فلا مانع منه فأنّ أزِمّة الأُمور بيده والأجر يدُور مدار الإخلاص في العمل شدّةً وضعفاً وكمالاً و نقصاً و في قوله: **وَاللّٰهُ وٰاسِعٌ عَليمٌ** إشارة الىٰ سعة مقدرته و أنّه لا يضيق عنه ما شاء من الزّيادة أو أنّه واسع الرّحمة لا يضيق عن مضاعفة، عليمٌ، بما كان من النَّفَقة.

و عن تفسير العيّاشي عن المفضل بن محمّد الجُعفي قال: سألت أبا عبد اللّه عن قول اللّه، حَبّة اَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنٰابِلَ قال عليه السلام الحَبَّة فاطمة عليها السلام والسّبع السّنابل سبعة من ولدها سابعها قائمهم قلتُ الحَسن عليه السلام قال عليه السلام: أنّ الحَسن إمام من اللّه مُفترضٌ طاعته و لكن ليس من السّنابل السّبعة أوّلهم الحسين وأخرهم القائم فقلتُ قوله في كلّ سُنبلة مائة حَبّة، فقال عليه السلام: يولد الرّجل منهم في الكوفة مائة من صُلبه ولَيس ذلك إلاّ هؤلاء السّبعة انتهىٰ.

قال المُحدّث الحرّ العاملي في كتاب إثبات الهداة بعد ذكر الحديث أقول هؤلاء السّبعة من جملة الأثني عشر وليس فيه إشعار بالحَصر ولعلّ المراد السّابع من الصّادق عليه السلام لأنّه عليه السلام هُو المُتّكلم بهذا الكلام انتهىٰ.

و عن كتاب ثواب الأعمال عن أبي عبد اللّه عليه السلام قال: اذا أحَسن العَبد المؤمن ضاعف اللّه له عمله بكلّ حَسَنةٍ سبع مائة ضُعفٍ و ذلك قوله تعالىٰ: **وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَنْ يَشَآءُ**انتهىٰ.

و عن تفسير علّي بن إبراهيم قال أبو عبد اللّه عليه السلام: **وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَنْ يَشَآءُ** لِمن أنَفَق ماله إبتغاء مَرضات اللّه انتهىٰ.

أقول في الآية دلالة وافية علىٰ كمال التّحريض علىٰ الإنفاق الشّامل للواجب والمندُوب فالقول بأنّ المضاعفة في الآية خاصّة بالجهاد والإنفاق فيه لا دليل عليه ولا ينافيها ما وَرد في الآية من جاء بالحسَنة فَله عَشر أمثالها، و ذلك لأنّ العشرة أقلّ الجزاء ثمّ يتّزايد بإختلاف الأحوال و قيل بأنّ العشرة في الطّاعات والمضاعفة في الإنفاق.

■

الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَـهُمْ فِـي سَبِيلِ اللَّـهِ ثُـمَّ لاَيُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا مَنّاً وَلاَ أَذىً لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَـدَقَةٍ يَـتْبَعُهَا أَذىً وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ ﴿٢٦٣﴾ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَـدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ والأَذىٰ كَـالَّـذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلاَ يُؤْمِنُ بِاللّٰهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُه كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلْيهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْداً لايَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَـيْءٍ مِـمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٢٦٤﴾

◁ اللّغة

لاَيُتْبِعُونَ: بضمّ الياء مضارع، أتبَع والمصدر منه الإتباع مَنّاً، المَـنّ بـفتح **الميم** وتشديد النّون مصدر من قولك مَنَّ يَمُنُّ مَنّاً و هو في الأصل ما يؤذن به ويقال لِما يُقّدر ممنُون كما يقال مَوزُون، والمِنّة النّعمة الثّقيلة ويقال ذلك علىٰ وجهين:

أحدهما: أن يكون ذلك بالفعل فيقال، مَنَّ فلان علىٰ فلان اذا أثقَله بالنّعمة وعلىٰ ذلك:

قال اللّه تعالى: **لَقَدْ مَنَّ ٱللّٰهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ**[1]

قال اللّه تعالى: **وَ لَقَدْ مَنَنَّا عَلٰى مُوسٰى وَ هٰرُونَ**[2]

قال اللّه تعالى: **وَ نُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا فِى ٱلْأَرْضِ**[3]

١- آل عمران = ١٦٤ ٢- الصافات = ١١٤

٣- القصص = ٥

و أمثالها من الأيات و ذلك علىٰ الحقيقة لا يكون إلاّ لِلّه تعالىٰ.

الثانى: أن يكون ذلك بالقول و ذلك مُستَقبحٌ فيما بين النّاس إلاّ عند كُفران النّعمة ولقُبح ذلك قيل المِنّة تَهدِم الصّنيعَة ولحُسِن ذكرها عند الكفران قيل اذا كَفرت النّعمة حَسنت المنّة.

وَلاَ أَذىً: الأذىٰ ما يصل الىٰ الحيوان من الضّرر إمّا في نفسه أو جسمه أو متابعته دُنيَوياً كان أو أُخرَوياً قال تعالىٰ: **لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ والأَذَىٰ** والظّاهر أنّه مصدر قولك، أذىٰ، أذىً و أذاةً، أُصيب بأذىٰ و قيل الأذىٰ الضّرر اليَسير.

صَدَقَاتِكُمْ: جمع صَدَقة و هي ما يُخرجه الإنسان من ماله علىٰ وجه القُربة كالزّكاة لكنّ الصّدقة في الأصل تقال للمتّطوع به و الزّكاة للواجب و قد تطلق الصّدقة علىٰ الواجب أيضاً ومنه قوله تعالىٰ: **خُذْ مِنْ أَمْوالِهِمْ صَدَقَةً**(١) والمراد بها الزّكاة المفروضة.

رِئَاءَ النَّاسِ: الهمزة الأُولىٰ عين الكلمة لأنّه من رأىٰ والأخيرة بَدَلٌ من الياء لوقوعها طرفاً بعد ألفٍ زائدةٍ كالقضاء والدّماء و يجوز أن تُقرأ بالياء فراراً من ثقل الهمزة بعد الكسرة فيقال رياء و قد قرئ به في الأية.

صَفْوَانٍ: بفتح الصّاد جمع صَفوانة والأحَسن أن يقال هو جنس لا جمع عاد الضّمير اليه بلفظ الأفراد في قوله عليه تراب، و قيل هو مفرد ليس بجمع واحده صَفا، وحُكي بكسر الصّاد وهو أكثر الجمُوع ويُقرأ بفتح الفاء وهو شاذّ.

وَابِل: الوَبل و الوابل المَطر الثّقيل القطار قال اللّه تعالىٰ: **كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وابِلٌ**(٢).

صَلْداً: الحجر الصّلب الذّي لا ينبت ومنه قيل رأس صَلد لا يُنبت شعراً وناقة صَلود ومصلاد: قليلة اللّبن، وصَلَد الزّبد لا يخرج ناره.

١- التوبة = ١٠٢ ٢- البقرة = ٢٦٥

◁ الإعراب

الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ مُبتدأ **لَهُمْ أَجْرُهُمْ** خبره و لام الأذىٰ ياء يقال أذىٰ، يأذىٰ، أذىً مثل نَصب ينصب نصباً **قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ** مبتدأ و **مَغْفِرَةٌ** معطوف عليه **خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ** خبره **وَيَتْبَعُهَا** صفة لِصَدَقة **كَالَّذِي يُنْفِقُ** الكاف في موضع نصب نعتاً لِمَصدر مَحذُوف **رِئَاءَ النَّاسِ** مفعول لأجله و يجوز أن يكون مصدراً في موضع الحال أي يُنفق مرائياً **فَمَثَلُه** الفاء لربط الجملة بما قبلها **عَلَيْهِ تُرَابٌ** في موضع جرّ صفة لصَفوان و يجوز الرّفع بالإبتداء **فَأَصَابَهُ** الفاء عاطفة علىٰ الجّار لأنّ تقديره إستّقر عليه تراب فأصابَه و الألف منقلبة عن واوٍ لأنّه من صاب يصُوبُ **فَتَرَكَهُ صَلْداً** هو مَثَل **لا يَقْدِرُونَ** مُستأنف لا موضَع له.

◁ التّفسير

لما ذكر سبحانه الإنفاق وأحواله، والتّحريض عليه أعقب الكلام بذكر النّهي عن إتّباعه بما يُبطله وإن شِئت قلت بعد ذكره الانفاق وأنّه ممدوح عَقبّه ببيان كيفيّة الإنفاق.

الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أي يخرجون **أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ** أي في طريق طاعته **ثُمَّ لاَ يُتْبِعُونَ مَا أَنفَقُوا** من أموالِهم **مَنّاً وَلاَ أَذىً** مثل أن يقول أَلم أعطِك كذا أَلم أحسن إليك، أَلم أغنِك و امثال ذلك ممّا يدّل علىٰ المِنَّة والإيذاء.

لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ أي لهؤلاء المُعطين أجرهم **وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ** من أحوال يوم القيامة **وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ** لَفوته ونَقصانه و لذلك قال تعالىٰ **قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ** أي كلامٌ حسَنٌ جميل للسّائل **وَمَغْفِرَةٌ** قيل المغفرة هنا السّتر للخَّلة وسَوء حالة المحتاج ومن هذا قول الإعرابي و قد سأل قوماً بكلامٍ فصيح فقال له قائل مِمّن الرّجل فقال له اللّهم غفراً، سوء الإكتساب يمنع من الإنتساب و قيل المعنىٰ تجاوزٌ عن السّائل إذا ألحَّ وأغلظ و حَفي خير من التّصدق عليه مع

المنّ والأذىٰ و كيف كان فالقول المعروف و المغفرة **خَيْرٌ** أي أحسَن وأجمَل **مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذىً** بأن تَمُن بها علىٰ السّائل و بعبارةٍ أخرىٰ غفران اللّه خير من صَدقتّكم هذه الّتي تَمُنّون بها **وَاللَّهُ غَنِيٌّ** عن صَدقة العباد وأنّما أمَرَ بها لِيُثيبهم عليها **حَلِيمٌ** فلا يعجل بالعُقوبة علىٰ مَن مَنَّ و أذىً و لقبح المَنَّة و الأذىٰ أَكَدَّ كلامه فقال **يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا** باللّه و برسوله **لا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ والأَذَىٰ** بأن تَمنّوا السّائل **كَالَّذي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاس** أي لا تكونوا كالّذين ينفقون أموالهم رياءً لا قربةً الى اللّـه **وَلا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ** و **ذلك** لأنّ منشأ الريّاء عدم الإيمان أو قلتّه (**فَمَثَلُه**) أي مثل المرآئي **كَمَثَلِ صَفْوَانٍ** أي حجرٍ أملس **عَلَيْهِ تُرَابٌ** يستره **فَأَصَابَهُ وَابِلٌ** أي فأصاب الحجر المسّتور تحت التّراب مطرٌ عظيم القطر شديد الوقع **فَتَرَكَهُ صَلْداً** أي حجراً صلباً أملساً شبّه سبحانه فعل المنافق المنّان المؤذي المرآئي بالصَّفا الّذي أزال المطر ما كان عليه من التّراب فأنّه لا يقدر أحَد علىٰ ردّ ذلك التّراب عليه كذلك إذا دفع المنّان صدقة و قربٌ بها المنّ فقد أوقعها علىٰ وجه لا طريق له الى إستدراكه وتلافيه لوقوعها على الوجه الّذي لا يستّحق عليه الثّواب فأنّ وجوه الأفعال تابعة لحدوثها فإذا فات فلا طريق الى تلافيها ولذلك قال: **لا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا** أي لا يقدر هؤلاء علىٰ نفقتهم ولا علىٰ ثوابها و لا يعلمون أينٌ ثوابها و لا يحصلون منها على شئ كما لا يحصل أحد على التّراب الّذي أذهَبه المطر عن الحجر: **وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ** أي أنّه تعالىٰ لا يثيب الكافرين على أعمالهم إذ الكفر محبطٌ له وأنّما يُثيب المؤمنين الّذين أوقعوا أعمالهم علىٰ الوجوه الّتي يستحق بها الثّواب، و قيل معناه، أنّ اللّه لا يهديهم الىٰ الجنّة كما يهدي المؤمنين اليها، و قيل معناه أنّه تعالىٰ لا يعطيهم ما يُعطي المؤمنين في زيادة الألطاف والتّوفيق وأنّما عبَّر عنهم بالكافرين لأنّ المنّ و الأذىٰ من أُولىٰ النّعمة في الحقيقة كفران

النّعمة كما أنّ ترك المنّ والأذىٰ من الشّكر عليها هذا تمام الكلام في تفسير الألفاظ ولنشر الىٰ بعض ما ورد في الباب من الأخبار والآثار.

فَمن الأخبار ما رواه في الخصال عن جعفر بن محمّد عن أبيه عن عليّ عليه السلام قال: قال رسول اللّه صلى الله عليه وآله أنّ اللّه كرّه اليكم أيتّها الأُمّة أربعاً وعشرين خصلة ونَهاكم عنها الىٰ قوله صلى الله عليه وآله وكرّه المنّ والصدّقة انتهىٰ.

و عن أبي ذر عن النّبي صلى الله عليه وآله قال ثلاثة لا يُكلمهم اللّه المنّان، الّذي لا يُعطي شيئاً إلاّ يَمُنَّه، والمُسبل أزراره، والمُنفق سَلعَته بالحَلف الفاجر انتهىٰ.

و في حديث آخر عن أبي عبد اللّه عليه السلام قال: قال رسول صلى الله عليه وآله أنّ اللّه تعالىٰ كرّه ستّ خصال و كرهتّهُن للأوصياء من ولُدي و أتباعهم من بعدي، العَبث في الصّلاة، والرّفث في الصّوم، والمنّ بعد الصدّقة، الحديث.

و في روايةٍ أخرىٰ عنه عليه السلام مَن أسدىٰ الىٰ مؤمنٍ معروفاً ثمّ أذّاه بالكلام أو مَنَّ عليه فقد أبطَل صدقته.

و روي في الفقيه عن الوصّاني عن أبي جعفر عليه السلام قال عليه السلام: فيما ناجىٰ اللّه موسىٰ أن قال يا موسىٰ أكرم السّائل ببذلٍ يَسير أو برَدٍّ جَميل أنّه يأتيك من ليس بأنسٍ ولا جّانٍ ملائكة من ملائكة الرّحمٰن يُبلونك فيما خَولتّك و يسألونك فيما تَوليتّك فأنظر كيف أنت صانع يابن عمران الحديث.

و عن الكافي بأسناده عن أبي جعفر عليه السلام أنّه قال: الإبقاء علىٰ العَمل أشدّ من العَمَل قيل له و ما الإبقاء علىٰ العَمل قال عليه السلام يَصل الرّجل بصلةٍ وينفَق نَفقةً لِلّه وحده لا شريك له فتكتب له سرّاً ثمّ يذكرها فتُمحي فتكتب له علانية ثمّ يذكرها فتمحي فتُكتب له رياءً انتهىٰ.

و أيضاً بأسناده عن أبي عبد اللّه عليه السلام أنّه قال: كلّ رياءً شرك أنّه من عَمِل للنّاس كان ثوابه علىٰ النّاس و مَن عَمِل لِلّه كان ثوابه علىٰ اللّه انتهىٰ.

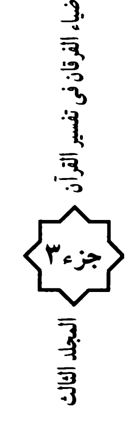
و في حديثٍ آخر من عَمل لغير اللّه وكلّه اللّه الىٰ مَن عَمل له، و فى أُخرىٰ وكلّه اللّه الىٰ عَمَله.

و عن أبي عبد اللّه عليه السلام قال: قال رسول اللّه صلى الله عليه وآله سيأتي علىٰ النّاس زمان تخبث فيه سرائرهم و تُحسن فيه علانيتهم طَمعاً في الدّنيا لا يريدون به ما عند ربّهم يكون دينهم رياء لا يخافون خوف يَعمّهُم اللّه بعقاب فيدعونه دعاء الغريق فلا يُستجاب لهم انتهىٰ.

أقول و نحن في هذا الزّمان كذلك صدق رسول اللّه والأحاديث الواردة في الباب.

كثيرة وفيما ذكرناه كفاية لأولي الدّراية وسيأتي البحث في هذا الموضوع غير مرّةٍ في تفسير الأيات.

■



وَ مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ اَمْوٰالَهُمُ ابْتِغٰآءَ مَرْضٰاتِ اللّٰهِ وَتَثْبِيتاً مِّنْ اَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ اَصٰابَهٰا وٰابِلٌ فَاٰتَتْ اُكُلَهٰا ضِعْفَيْنِ فَاِنْ لَمْ يُصِبْهٰا وٰابِلٌ فَطَلٌّ وَاللّٰهُ بِمٰا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٦٥﴾

◁ اللغة

جَنَّةٍ: الجنّة البستان وهي قطعة أرضٍ تنبتُ فيها الأشجار حتّىٰ تغطّيها فهي مأخوذة من لفظ الجّن والجّنين لإستتارهم.

بِرَبْوَةٍ: الرّبوة بفتح الرّاء وكسرها وضّمها المكان المرتفع و منه دَربا، إذا زاد وعلاً قال اللّه تعالىٰ: **إِلىٰ رَبْوَةٍ ذاتِ قَرارٍ وَ مَعِينٍ**[1] و منه الرّبا الزّيادة علىٰ رأس المال.

وٰابِلٌ: الوَابل المَطر الثّقيل القطر.

اُكُلَهٰا: الأكُل والأكَل بسكون الكاف وضّمها من الثّمر ما يُؤكل، الرّزق الواسع يعّبر عنه بالنّصيب فيقال فلان ذو أُكُل من الدّنيا أي ذو حظٍّ ونَصيب.

فَطَلٌّ: الطَّل بفتح التّاء أضعف المطر و هو ماله أثرٌ قليل ومنه طُلَّ، دم فلان إذا قلَّ الإعتداد به و يصير أَثَره كأنّه طَلٌّ كما يقال لأثر الدّار طَلَل، ولشخص الرّجل المُترائي طَلَل.

◁ الإعراب

ابْتِغٰآءَ مفعول من أجله **وَتَثْبِيتاً** معطوف عليه و يجوز أن يكونا حالين أي مُبتغين و مُثبتَين **مِّنْ اَنْفُسِهِمْ** مِن، بمعنىٰ اللاّم أي تَثبيتاً لأنفسهم و يجوز أن

١- المومنون = ٥٠

تكون علىٰ أصلها أي تَثبيتاً صادراً من أنفسهم، والتّثبيت مصدر فعل متعّد فعلىٰ الأوّل يكون، من أنفسهم، مفعول المصدر وعلىٰ الثّاني يكون المفعول محذوفاً تقديره ويُثّبتون أعمالهم بإخلاص النّية **اَصٰابَهٰا** صفة لِلجنة و يجوز أن تكون في موضع نَصب علىٰ الحال من الجنّة وأن تكون حالاً من الضّمير في الجّار **ضِعْفَيْنِ** حال أي مُضاعفاً، **فَطَلٌّ** خبرُ مبتدأ محذوف تقديره، فالّذي يُصيبها طلٌّ، أو فالمُصيب لها طلٌّ، أو فَمُصيبها و يجوز أن يكون فاعلاً تقديره، فَيُصيبها طَلٌّ.

◁ التّفسير

لمّا ضَرب اللّه تعالىٰ في الآية السّابقة مَثَلاً لعمل المُنافق والمنّان علىٰ ما مرّ شرحه ضَرب في هذه الآية مَثَلاً لِمَن أَنفَق مالَه إبتغاء مَرضات اللّه أي طلباً لرضاه:

وَ مَثَلُ الَّذينَ يُنْفِقُونَ اَمْوٰالَهُمُ ابْتِغٰآءَ مَرْضٰاتِ اللّٰهِ ثّم قال **وَتَثْبِيتاً مِّنْ اَنْفُسِهِمْ**. أي بقّوة اليقين والبَصيرة في الدّين و قيل أي توطيناً لنفوسهم علىٰ الثّبوت علىٰ طاعة اللّه، و قيل أي يوطّنون أنفسهم على حفظ هذه الطّاعة و ترك ما يفسدها من المّن والأذىٰ، و قيل **تَثْبِيتاً مِّنْ اَنْفُسِهِمْ** عند المؤمنين أنّها صادقة في الإيمان مخلصة فيه، و قيل أنّ النّفس لإثبات لها في موقف العّبودية إلاّ إذا صارت مقهورة بالريّاضة فإذا بذل ماله وروحه معاً فقد ثبت لِنفسه كلّها كما إذا بذل مالَه وحده فقد ثبت بعض نفسه فعلىٰ هذا، مِن، للتّبعيض الزّجاج معناه تصديقاً لِلإسلام وتحقيقاً للجزاء من أصل أنفسهم جازمين بأنّ اللّه تعالىٰ لا يضّيع ثوابهم، وعلىٰ هذا القول، مِن، لِلإبتداء وجزمهم بالثّواب هو التّثبيت و قيل أنّه إذا أَنفق لأجل عبودّية الحقّ لا لأجل غرض النّفس وحَظٍّ من حُظُوظها فهُناك إطّمأن قلبه وأستّقرت نفسه ولم يحصل لِنفسه منازعة مع قلبه فذلك الإستقرار هو التّثبيت و قيل غير ذلك والمعنىٰ واضح.

كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ اَصَابَهَا وَابِلٌ شبّه اللّه تعالىٰ: **الَّذِينَ يُنْفِقُونَ اَمْوَالَـهُمْ** كذلك بالجنّة و من المعلوم أنّ المنفق لا يشبه الجنّة و لذلك قالوا في بالحذف وتقديره مثل الّذين ينفقون ففي الحقيقة شبّه النّفقة الّتي تزكو بالجّنة الّتي تثمر و الحاصل أنّ الإنفاق في سبيل اللّه طلباً لمرضاته يشبه الجنّة في الثّمر فحاصل المعنىٰ هو أنّ مثل نفقة هؤلاء في زكاتها عند اللّه **كمثلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ،** أي في مكانٍ مرتفع و ذلك لأنّ الشّجر فيها أزكىٰ و أَحسن ثمراً منها إذا كانت بمكان خفضٍ) و لقائلٍ أن يقول أنّ المكان المرتفع لا يَحسن ريعه لبعده عن الماء وربّما تضّر به الرّياح كما أنّ الوهاد لكونها مصّب المياه قلّما يحسن ريعها فإذن البستان لا يصلح له إلاّ الأرض المستوية فالمواد بالرّبوة أرضٌ طيبّة حرّة تنتفخ و تربو إذا أنزل عليه المطر فأنّها إذا كانت علىٰ هذه الصّفة كثر دخلها وكمل شجرها كقوله تعالىٰ: **وَ تَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَآءَ اهْتَزَّتْ وَ رَبَتْ**[1] و ممّا يؤكّد ما ذكرناه أنّ هذا المثل في مقابلة المثل الأوّل فكما أنّ الصّفوان لا يربو ولا ينمو بسبب نزول المطر عليه فينبغي أن تكون هذه الأرض بحيث تَربُو وتَنمُو.

فَاٰتَتْ اُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَاِنْ لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ أي فأتَت الجنّة أُكلها أي ثمرتها ضعفين و الفرق بين الأكل بِسكون الكاف والأُكل بضمّها هو أنّ الأوّل مصدر و الثّاني أعني مفهوم الكاف هو الطّعام الّذي يؤكل، و المراد بقوله ضَعفين، أي مثلين لأنّ ضَعف الشّئ مثله زائداً عليه و امّا قوله: **فَطَلٌّ** فقيل هو اللّين من المطر و إنّما ذكر الطّل هيهنا لتشبيه أضعاف النّفقة به كثرت أو قلّت إذا كان خيرها لا يختلف علىٰ حالٍ وإنمّا قيل لما مضىٰ **فَاِنْ لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ** لأنّ فيه إضمار كان تقديره فأن لم يكن يُصبها وابلٌ، فطَلٌ ومثله قد أعتقتُ عَبدَين فأن لم أعتق إثنين فواحد بِقيّمهما والمعنىٰ أن أكُن لم أعتق قال الشّاعر:

١- الحج = ٥

إذا مـا أَنـبتنا لم تَـلدني لئيمةٌ ولَم تجدي من أن تقري بها بـدّاً

والمراد أنّها علىٰ جميع الأحوال لا تخلو من أن تثمر قلّ أو كثر وكذلك من أَخرجَ صدقةً لِوجه اللّه لا يضّيع اللّه أجره قلّ أوكثُر و يحتمل أن يمثّل حالهم عند اللّه بالجنّة علىٰ الرّبوة، و نفقتهم القليلة أو الكَثيرة بِالوابل والطَّل فكما أنّ كلّ واحدٍ من المطرين يضعف أُكل الجنّة فكذلك نفقتهم تزيد في زلفاهم و حُسن حالهم.

وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ أي أنّه تعالىٰ بصير بما تعملون من وجوه الإنفاق و كيفيّتها والأمور الباحثة عليها فيجازيكم بحسب نيّاتكم وإخلاصكم.

■

اَيَوَدُّ اَحَدُكُمْ اَنْ تَكُونَ لَه جَنَّةٌ مِّنْ نَّخِيلٍ وَّاَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْاَنْهَارُ لَه فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَاَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَه ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ فَاَصَابَهَآ اِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَالِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْاٰيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٦٦﴾

◁ اللّغة

جَنَّةٌ: الجَنّة البستان و قد مرّ.

مِّنْ نَّخِيلٍ: النَّخيل جمع النَخْل و هو معروف و قد يستعمل في الواحد والجمع يقال انتخلتُ الشّيْ أي انتقيته فأخذتُ خياره.

اَعْنَابٍ: العَنب يقال لثمرة الكَرم الواحدة عِنبة و جمعه أعناب.

وَلَه ذُرِّيَةٌ: الذُرّية أصلها الصغّار من الأولاد و أن كان قد يقع على الصّغار و الكبار معاً في التّعارف و يستعمل للواحد والجمع وأصله الجمع و فيها ثلاثة أقوال.

أحدها: أنّها من ذَرأ الخلق فترك هَمزُه نحو رويّة و بريّة.

ثانيها: أنّ أصلها، ذُرّية.

ثالثها: أنّها فعليّة من الذّر نحو قمرية.

ضُعَفَآءُ: جمع ضعيف.

اِعْصَارٌ: الإعصار ريحٌ تثير الغبار.

◁ الإعراب

مِّنْ نَّخِيلٍ صفة لجنّة تَجْرِي صفة أخرى لها لَه فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ في الكلام حذف تقديره له فيها رزق من كلّ أنواع الثّمرات وَاَصَابَهُ الجملة مال

من، أحد، و، قد، مرادة تقديره و قد أصابه **وَلَه ذُرِّيَةٌ** جملة في موضع الحال من الهاء في أصابه **فَاَصٰابَهٰآ** معطوف على صفة الجنّة.

◁ التّفسير

في هذه الآية أيضاً ضرب اللّه مثلاً في الحسرة بسلب النّعمة فقيل هو مثل للمرائي في النّفقة لأنّه ينتفع بها عاجلاً و تنقطع عنه آجلاً في أحوج ما يكون اليه هذا قول السّدي و قال مجاهد هو مثل للمفرط في طاعة اللّه بملاذ الدّنيا يحصل في الآخرة علىٰ الحسرة العظمى، و قال إبن عبّاس هو مثل للّذي يختم عمله بفساد.

اَيَوَدُّ اَحَدُكُمْ اَنْ تَكُونَ لَه جَنَّةٌ الوُدّ، الحبّ و الفرق بينهما أنّ المودّة قد تكون بمعنىٰ التّمني نحو قولك، أودّ لو قدم زيد بمعنىٰ أتّمنى لو قدم و لا يجوز أحبّ لو قدم، والمعنىٰ أيحبّ أحدكم أن تكون له جَنّة أي البستان الكثيرة الشّجر **مِّنْ نَّخيلٍ وَّاَعْنٰابٍ** أي أنّ أشجارها من نخيلٍ وأعناب **تَجْري مِنْ تَحْتِهَا الْاَنْهٰارُ لَه فيهٰا مِنْ كُلِّ الثَّمَرٰاتِ** أي في الجنّة من كلّ الثّمرات فالثّمرة طعام النّاس من الشّجر **وَاَصٰابَهُ الْكِبَرُ** أي لحقه الكِبَر و المراد به الشّيخوخة **وَلَه ذُرِّيَةٌ ضُعَفٰآءُ** الذّرية الولد من النّاس و الضّعف نقصان القوّة **فَاَصٰابَهٰآ** أي فأصاب الجنّة **اِعْصٰارٌ فيهِ نٰارٌ** أي أصابها ريحٌ فيه نار **فَاحْتَرَقَتْ** الجنّة أي أشجارها **كَذٰالِكَ يُبَيِّنُ اللّٰهُ لَكُمُ الْاٰيٰاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ** و تتّعطفون بها و ملخصّ ما يستفاد من الآية هو أنّ كبر السّن فِظّنة شدّة الحاجة الىٰ الجنّة الّتي فيها كلّ الثّمرات مضافاً الى وجود ذّريةٍ أي أولاد صغار ضعفاء لا يقدرون علىٰ الكسب و ترتيب مبادئ المعاش ففي هذه الصّورة لو أصاب الجنّة اعصارٌ أي ريحٌ عاصفة تستدير في الأرض ثمّ تنعكس منها صاعدةٌ الى السّماء علىٰ هيئة العمود فيه نارٌ شديدة فإحترقت الجنّة فصارت نعمها الىٰ

الذّهاب وأصلها الىٰ الخراب فلا محالة يبقى الرّجل متحيّراً لا يجدّ ما يعود به عليها ولا قوّة له أن يغرس مثلها و لا خير في ذرّيته من الإعانة لكونهم ضعفاء عاجزين عن أن يُعينوه فهذا كما ترىٰ تمثيل لحال من يفعل الأفعال الحسنة و يضمّ اليها ما يحبطها مثل الرّياء والإيذاء فأنّه لا يبقىٰ له إلاّ الحسرة و الأسف إذا كان يوم القيامة و اشتدّت حاجته اليها و لذلك قال اللّه تعالىٰ في آخر الأية: **كَذَالِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ** أي مثل ذلك البيان الواضح فيما مرّ من الجهاد والإنفاق في سبيل اللّه بداعي التّقرب اليه يكفي لكم كي تتفكّروا فيها و تعتبروا بها فيها وتعملوٗا بمُوجبها.

تَنبيةٌ عرفانّي.

قال بعض العرفاء هذه آيات ذكرها اللّه علىٰ جهة ضرب المثل، للمخلص، و المنافق.

و المنفق في سبيل اللّه والمُنفق في الباطل هؤلاء لا يحصل لهم الخلف والتّرف و هؤلاء يحصل لهم السّرف والتّلف و هؤلاء ضلّ سعيهم و هؤلاء شكر سعيهم و هؤلاء تزكوا أعمالهم و هؤلاء حبطت أعمالهم و خسرت أموالهم و ختمت بالسُّوء أحوالهم و تضاعف عليهم و بالهم و مثل هؤلاء كالّذي أنبت زرعاً زكىٰ أصله ونما فضله و علا فرعه وكثر نفعه، و مثل هؤلاء كالّذي خسرت صفقته و سرقت بضاعته و ضاعت علىٰ كبر سنّه غلّته و تواترت من كلّ وجهٍ محنته هل يستويان مثلاً و هل يتقاربان شبهاً انتهىٰ.

قال أبو عبد اللّه عليه السلام: فمن امتنّ علىٰ مَن تصدَّق عليه كان كَمن كان له جَنّة كثيرة الثّمار و هو شيخ ضعيف له أولاد ضعفاء فتجئ ريح أو نار فتُحرق ماله كلّه انتهىٰ.

فلا بدّ لنا من إخلاص الأعمال فأنّ الثّمرات تبتني علىٰ الأصول و لذلك قال رسول اللّه صلى الله عليه وآله لِمعاذ بن جَبل حين بعثه الىٰ اليَمن،

أخلص دينك يكفك العمل القليل، و قال ﷺ لأبي ذر الغفاري يا أبا ذّر جدّد السّفينة فأنّ البحر عميق وأكثِر الزّاد فأنّ السّفر بعيد، وأقل من الحمولة فأنّ الطّريق نخوف وأخلِص العَمَل فأنّ النّاقد بـصير انتهىٰ.

و المراد بالنّاقد البصير هو اللّه تعالىٰ فأنّه طيب لا يقبل إلاّ الطّيب الخالص عن الشّرك و الرّياء قال اللّه تعالىٰ: **فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَ لَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًا**[١] و في الحديث قال اللّه تـعالىٰ، أنـا غـنيٌ عـن الشّركاءِ فمن عمل لي و أشرك فيه غيري فأنّي بريئ منه، فعليك يا أخي في كلّ عبادةٍ بل في كلّ عَملٍ أن تفتّش قلبك وتخرج منه خواطر الرّياء بـل مـطلق الأرجاس كالحسد و البُخل و أمثالهما و تقرّه علىٰ الإخلاص الىٰ أنّ يتّم العَمل فأنّ العمل سهلٌ والإخلاص فيه صعبٌ و قد قال اللّه تعالىٰ:**إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ**[٢] والحمد لِله ربّ العالمين.

■

١- الكهف = ١١٠ ٢- المائدة= ٢٧

يٰا اَيُّهَا الَّذينَ اٰمَنُوٓا اَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبٰاتِ مٰا كَسَبْتُمْ وَمِمّٓا اَخْرَجْنٰا لَكُمْ مِنَ الْاَرْضِ وَلاٰ تَيَمَّمُوا الْخَبيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِاٰخِذيهِ اِلآّ اَنْ تُغْمِضُوا فيهِ وَاعْلَمُوٓا اَنَّ اللّٰهَ غَنِيٌّ حَميدٌ ﴿٢٦٧﴾

◁ اللّغة

مِنْ طَيِّبٰاتِ:الطّيبات بفتح الطّاء جمع الطَّيب و هذا من نوادر الجمُوع وأصل الطّيب ما تستّلذه الحواس و ما تستّلذه النّفس و هو ضدّ الخَبيث.

وَلاٰ تَيَمَّمُوا الْخَبيثَ: التّيَمم القصد أي لا تقصدوا الخَبيث ضدّ الطّيب.

بِاٰخِذيهِ :الأخذ بكسر الخاء إسم فاعل من أخَذَ يأخذ.

اَنْ تُغْمِضُوا: الغَمض في الأصل النّوم العارض تقول ما ذقتُ غمضاً وال غماضاً و بإعتباره قيل أرض غامضة ودارٌ غامضة وغَمض عَينه و أغمَضها وضع أحدى جفنيه علىٰ الاخرى ثمّ يستعار للتّغافل والتّساهل و ما نحن فيه بهذا المعنىٰ.

◁ الإعراب

اَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبٰاتِ المفعول محذوف وتقديره، شيئاً من طيّبات وَلاٰ تَيَمَّمُوا الجمهور علىٰ تخفيف التاء و ما ضيه تَيَمم والأصل تَتَيَمَمُوا فحذف التّاء الثّانية و يقرأ بتشديد التّاء و قبله ألف و هو جمع بين ساكنين و قرأ بضمّ التّاء وكسر الميم الأولىٰ علىٰ أنّه لم يحذف شيئاً و وزنه تفعلوا منه متعلّقة (بمنفقُون) والجملة في موضع الحال من الفاعل في تيمّموا و يجوز أن يكون حالاً من الخَبيث لأنّ في الكلام ضمير يعود اليه أي مُنفقاً منه وَلَسْتُمْ بِاٰخِذيهِ مستأنف لا موضع له اِلآّ اَنْ تُغْمِضُوا في موضع الحال أي إلاّ في حال

الإغماض والجمهور علىٰ ضمّ التّاء و إسكان الغين و كسر الميم و ماضيه، **أغمَض**، و هو متعدٍّ و قد حُذف مفعوله أي **تُغمِضوا** أبصاركم أو بصائركم و يجوز أن يكون لازماً مثل أغضىٰ عن كذا و يقرأ كذلك إلاّ أنّه بتشديد الميم و فتح الغين و التقدّير أبصاركم ويقرأ **تُغمَضُوا** بضمّ التّاء و التخفّيف و فتح الميم على ما لم يسمّ فاعله والمعنىٰ إلاّ أن تحملوا علىٰ التّفاعل عنه و المسامحة فيه و يقرأ بفتح الفاء و إسكان الغين و كسر الميم من **غَمِض يغمض** و هي لغة في غمض و يقرأ و كذلك الاّ أنّه بضّم الميم و هو من **غَمُض** كظرف أي خفي عليكم رأيكم فيه.

◁ التّفسير

يا أيُّها الَّذينَ آمَنُوا الخطاب للمؤمنين خاصّة دون سائر النّاس و قال الحسن و علقمة كلّ شئٍ في القرآن **يا أيُّها الَّذينَ آمَنُوا** فأنّما أُنزل بالمدينة و كلّما فيه **يا أيُّها النّاس** أُنزل بمكّة **أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّباتِ ما كَسَبْتُمْ** قيل المراد بالإنفاق هنا الزّكاة المعروضة نهى النّاس عن إنفاق الرَّديّ فيها بدل الجيّد و قال بعضهم أنّ الآية في التّطوع ندبوا أن لا يتّطوعوا إلاّ بمختارٍ جيّد و الحقّ فيها العموم اذ لا دليل علىٰ التخصّيص و عليه فالمراد بالإنفاق هنا هو التصدّق في سبيل الخير و وجوه البرّ من الصّدقة الواجبة وغيرها و أنّما حملناها علىٰ ذلك لأنّ ظاهرها العموم و لما فيه من الجمع بين الرّوايات الواردة في تفسيرها والمراد بالطّيب قيل هو الحلال، و قيل الجيّد والأُولىٰ أن يراد الأعم منهما قال بعض المحققين الطّعام الطّيب في الشّرع ما كان متناولاً من حيث ما يجوز ويقدر ما يجوز ومن المكان الذّي يجوز فأنّه متىٰ كان كذلك كان طيّباً عاجلاً وآجلاً لا يستوهم وإلاّ فأنّه وأن كان طيّباً عاجلاً لم يطيب آجلاً و علىٰ ذلك:

قال اللّه تعالىٰ: **كُلُوا مِنْ طَيِّباتِ ما رَزَقْناكُمْ**[1]

١- البقرة = ٥٧

قال اللّه تعالىٰ: **وَ كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اَللّٰهُ حَلاٰلاً طَيِّبًا**[١]

قال اللّه تعالىٰ: **لاٰ تُحَرِّمُوا طَيِّبٰاتِ مٰآ أَحَلَّ اَللّٰهُ لَكُمْ**[٢]

و هذا هو المراد بقوله الطّيبات من الرّزق انتهى.

أقول روي في الكافي عن أبي عبد اللّه عليه السلام في قوله تعالىٰ: يٰا اَيُّهَا الَّذِينَ اٰمَنُوٓا قال: كان رسول اللّه صلى الله عليه و آله اذا أمـر بـالنّخل أن يـزكّي يجئ قوم بألوانٍ من التّمر و هو من أردء التّمر يؤدّونهم من زكاتهم تمرٌ يقال له، الجَعرُور والمعاناراة، قليلة اللّحم عظيمة النّوىٰ و كان بعضهم يجئ بها عن التّمر الجيّد فقال رسول اللّه صلى الله عليه و آله لا تخرصوا هاتين التّمرتين ولا تجيئوا منهما بشئٍ و فى ذلك نزل: وَلاٰ تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ.

و في روايةٍ أُخرىٰ عن أبي بصير عن أبي عبد اللّه عليه السلام فـي قـوله تعالىٰ: اَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبٰاتِ مٰا كَسَبْتُمْ فقال عليه السلام: كان القوم قد كَسبُوا مكاسب سوء في الجاهليّة فلمّا أسلموا أرادوا أن يـخرجـوها مـن أموالهم ليتصدّقوا بها فأبىٰ اللّه تبارك و تعالىٰ إلاّ أن يخرجوا من أطيب ما كسبوا انتهىٰ.

و عن تفسير العيّاشي عن إسحاق بن عمّار عن أبي عبد اللّـه عليه السلام قال عليه السلام: كان أهل المدينة يأتون بصَدقة الفطر الىٰ مسجد رسول اللّه صلى الله عليه و آله و فيه، عرق، يسّمىٰ الجعرور، و عرق يسمّىٰ مـعانا راة، كانا عظيم نواهما رقيق لحاهما في طعمهما مـرارة فـقال رسـول اللّه صلى الله عليه و آله للخارِص لا تخرص عليهم هذين اللّونين لعلّهم يستحيون لا يأتون بهما فأنزل اللّه: يٰا اَيُّهَا الَّذِينَ اٰمَنُوٓا اَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبٰاتِ مٰا كَسَبْتُمْ الىٰ قوله: تُنفقون انتهىٰ.

١- المائدة= ٨٨
٢- المائدة= ٨٨

و قيل أنّها نزلت في قوم كانوا يأتون بالحشف فيدخلونه في تَمر الصّدقة.

و قد روي عن النّبي ﷺ أنّه قال: أنّ اللّه يقبل الصدّقات ولا يقبل منها إلاّ الطّيب.

وَمِمَّآ اَخْرَجْنٰا لَكُمْ مِّنَ الْاَرْضِ الحِنطة والشّعير وأمثالهما فقوله: **اَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبٰاتِ مٰا كَسَبْتُمْ** إشارة الىٰ ما يكسب الإنسان بالتجارة و الكسب و لذلك قال تعالىٰ: **مٰا كَسَبْتُمْ** ، و امّا الّذي يحصل للزّارع من الأرض بسبب الزّراعة فهو لا يدخل في الكسب عُرفاً و لذلك لا يقال للزّارع الكاسب و يقال للتّاجر، الكاسب وحيث أنّ المنافع الحاصلة للإنسان علىٰ قسمين منفعة حاصلة بسبب الكَسب و منفعة حاصلة بسبب الزّرع والإنفاق يجري فيهما معاً أشار اللّه تعالىٰ بكلا القسمين لئلا يظّن ظانّ أنّ الإنفاق في المنافع الحاصلة من الكَسب فقط فقال وممّا أخَرجنا لكم من الأرض و محصّل الكلام أنّه تعالى أمر بالإنفاق فيما حصل من الكسب و فيما حصل من الزّرع سواء كان المراد بالإنفاق في الآية الزّكاة المفروضة المعبّر عنه بالصدّقة الواجبة أم كان المراد مطلق الصدّقة الواجبة و غيرها و هو ظاهر **وَلاٰ تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ** أي ولا تقصدوا في إنفاقكم، الخبيث من المال ضدّ الطّيب و هو يشمل الرَّديّ من الطّعام و الحرام منه و الضّمير في قوله **منه**، يرجع الىٰ المال المستفاد من قوله: **ما كَسَبتُم**، و ممّا أخَرجنا لكم من الأرض، نقل القُرطبي عن الجرجاني في كتاب نظم القرأن أنّه قال:

قال فريق من النّاس أنّ الكلام، ثمّ في قوله: **الْخَبِيثَ** ثمّ إبتدأ خبر أخر في وصف الخبيث فقال: **منه تُنفقون**، و أنتم لا تأخذونه إلاّ اذا أغمضتم أي تساهلتم فكأنّ هذا المعنىٰ عتاب للنّاس و تقريع و الضّمير في قوله، منه، عائد علىٰ الخبيث و هو الدّون و الرّدئ ثمّ قال الجرجاني و قال فريق أخر الكلام

متّصل الىٰ قوله: **منه** فالضّمير في منه، عائد علىٰ ما كسبتم، و يجئ تنفقون كأنّه في موضع نصب علىٰ الحال و هو كقولك أنا أخرج أجاهد في سبيل اللّه انتهىٰ.

وَلَسْتُمْ بِاٰخِذيهِ اِلاّٰ اَنْ تُغْمِضُوا فيهِ أي لستم بأخذيه في ديونكم و حقوقكم من النّاس إلاّ أن تتساهلوا في ذلك وتتركوا من حقوقكم وتكرهونه ولا ترضونه أي فلا تفعلوا مَع اللّه ما لا ترضونه لأنفسكم، و قال بعضٌ، معنىٰ الأية و لستم بأخذيه ولو وجدتموه في السّوق يباع إلاّ أن يهضم لكم من ثمنه، قال ابن عطية و هذان القولان يشبهان كون الآية في الزّكاة الواجبة، و قال ابن العرّبي لو كانت في الفرض لما قال، و لستم بأخذيه، لأنّ الرّدئ والمعيب لا يجوز أخذه في الفَرض بحالٍ لا مع تقدير الإغماض و لا مع عَدمه و أنّما يؤخذ مع عدم إغماض في النّقل ونقل عن البراء بن عازب أنّه قال معناه، ولَستُم بآخذيه، لو أهدى لكم **اِلاّٰ اَنْ تُغْمِضُوا فيهِ** أي تستحي من المهدي فتقبل منه ما لا حاجة لك به و لا قدر له في نفسه، قال إبن عطّية و هذا يشبه كون في التّطوع **وَاعْلَمُوٓا اَنَّ اللّٰهَ غَنِيٌّ حَميدٌ** نبّه سبحانه و تعالى على صفة الغنّي أي لا حاجة به الى صدقاتكم فمن تقرّب و طلب مثوبة فليفعل ذلك قدر و بالٌ فأنّما يقدّم لنفسه و قوله: **حَميدٌ**، معناه محمود في كلّ حال و قال الزّجاج معناه أي لم يأمركم أن تصدّقوا من عوز و لكنّه، بلاء خياركم فهو حميد على ذلك على جميع نعمه انتهىٰ.

أقول و يستفاد من الآية أمور.

أحدها: أنّه بناءً علىٰ ما ذكرناه من حَمل الإنفاق علىٰ مطلق الرّجحان قد يستدّل بها علىٰ إستحباب الزّكٰوة في جميع ما يكال أو يوزن عدا ما خرج بدليل كالخضر.

ثانيها: يستدّل بعموم الكسب علىٰ ثبوت الزّكٰوة في مال التّجارة إلاّ أنّ الأصل والبيان الوارد من صاحب الشّرع دّل علىٰ أنّ ذلك علىٰ جهة الإستحباب كما دلّ على اعتبار النّصاب في قيمة المتاع و أن يطلب برأس المال أو زيادة وأن يحول عليه الحول.

ثالثها: يستفاد من إطلاق ما أخرج من الأرض لزوم الإخراج من سائر المعادن و الكنوز و الكاشف عن مقدار ما يتعلّق به و مقدار ما يلزم إنفاقه هو بيان الشّارع فأنّما يجب فيه الخمس علىٰ ما سيأتي في محلّه.

رابعها: يستفاد من قوله تيمّموا الخَبيث، الخ أنّه لو كان النّصاب ليس بالجيّد كلّه جاز الإخراج منه كما لو كان النّقد كلّه مغشوشاً والأنعام كلّها مرضى مثلاً لأنّه لا يصدّق عليه قصد الرّديئ دون الخبيث نعم لو كان بعضه جيداً و بعضه ليس كذلك فالأحوط الإعطاء من الجيّد و القول يقتضي الإعطاء بحسبه، و هكذا الحرام المختلط بالحلال ولم يتميّز ولم يعرف صاحبه فأنّ إنفاق خمسة داخل من الطّيب لعدم علمه بالحرام بعينه.

خامسها: قد يستفاد جواز توّلي المالك للإخراج هذا ما أستفدناه من واللّه أعلم بِحقائق الأمور.

■

اَلشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَ فَضْلاً وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦٨﴾

◁ اللغة

بِالْفَحْشَاءِ: الفُحش والفَحشاء والفاحشة ما عظم قبحه من الأفعال والأقوال والمتفحّش الّذي يأتي بالفحش.

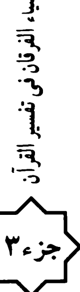
مَغْفِرَةً: الغَفر في الأصل إلباس ما يصونه عن الدّنس و منه قيل إغفر ثوبك في الوّعاء، و أصبغ ثوبك فأنّه أغفر للوسخ و الغُفران والمغفرة من اللّه هو أن يصون العبد من أن يمَّسه العذاب.

وَ فَضْلاً: الفضل الزّيادة عن الإقتصار.

◁ الإعراب

يَعِدُكُمُ أصله يُوعِدكم فحُذفت الواو لوقوعها بين ياء مفتوحة وكسرة و هو يتعدّى الىٰ مفعولين و قد يجيئ بالباء يقلا وعدته بكذا مَغْفِرَةً مِنْهُ يجوز أن يكون صفة وأن يكون مفعولاً متعلّقاً بيَعد أي يعدكم من تلقاء نفسه وَ فَضْلاً أي و فضلاً منه إستغنىٰ بالأولى عن إعادتها.

◁ التّفسير



وجه ربط الآية بالسّابقة معلوم لا يحتاج الىٰ بيان لأنّ:

اَلشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ أي يعدكم بالفقر لئلا تُنفقوا فهذه الآية متّصلة بما قبل وأنّ الشّيطان له مدخل في التّثبيط للإنسان عن الإنفاق في سبيل اللّه و هو مع ذلك يأمر بالفحشاء و هي المعاصي والإنفاق فيها و قيل أي بأن لا تتصدّقوا

فتعصوا و تتقاطعوا و قرأ الفقر بضمّ الفاء و هي لُغة قال الجوهري والفقر لغة في الفقر مثل الضّعف والضَّعف **وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ** لا يبعد أن يكون المراد بالفحشاء في المقام البخل بقرينة مجيئها بعد الإنفاق و قد يطلق الفاحش على البخيل عند العرب كما قيل:

أرىٰ المَوت لغيام الكرام ويصطفى عقيلة مال الفاحش المُتَشدد

و في الآية لطيفة و هي أنّ الشّيطان يخوّفه أوّلاً بالفقر ثمّ يتوصّل بهذا التخوّيف الىٰ أن يأمره بالفحشاء و يغريه بالبخل و ذلك لأنّ البخل مذمومة عند كلّ أحدٍ فالشّيطان لا يمكنه تحسين البخل في عينه إلاّ بتلك المقدّمة و هي التّخويف من الفقر.

وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَ فَضْلاً فالمغفرة إشارة الىٰ منافع الأخرة و الفضل إشارة الىٰ ما يحصل من الدّنيا من الخَلق و قد ذكر بعض المحققين في معنىٰ الفضل وجوهاً:

أحدها: أنّ المراد منه الفضيلة الحاصلة للنّفس و هي فضيلة الجود والسّخاء و ذلك لأنّ مراتب السّعادة ثلاثة، نفسّانية، بَدّنية، خارّجية ومُلك المال من الفضائل الخارّجية و حصول خلق الجود و السّخاء من الفضائل النّفسانية و تناسب الأعضاء و حسن الصّورة من الفضائل البدنيّة و أجمعوا على أنّ أشرف هذه المراتب الثّلاث السّعادات النّفسانية و أحسنها الخارّجية فمتىٰ لم يحصل إنفاق المال كانت السّعادة الخارّجية حاصلة والنّقيصة النّفسانية أيضاً معها حاصلة و متىٰ حَصل الإنفاق حَصل الكمال النّفساني والنّقصان الخارجي و لا شكّ أنّ هذه الحالة أكمل فثبت أنّ مجّرد الإنفاق يقتضي حصول ما وَعد اللّه به من الفضل.

الوجه الثّاني: أنّه متى حصلت ملكة الإنفاق زالت عن الرّوح هيئة الإشتغال بلذّات الدّنيا و لا مانع للرّوح من تجلّي نور جلال اللّه لها إلاّ حبّ الدّنيا.

قال رسول اللّه ﷺ: لولا أنّ الشّياطين يوحون الىٰ قلوب بني آدم لنظروا الىٰ ملكوت السّموات، فاذا زال عن وجه القلب غُبار حبّ الدّنيا إستنار بأنوار عالم القدس وصار كالكوكب الدرّي و التحق بأرواح الملائكة و هذه هو الفضل لا غير.

الثّالث: و هو أحسن الوجوه أنّه مهما عرف من الإنسان كونه منفقاً لأمواله في وجوه الخيرات مالت القلوب اليه فلا يضايقُونه في مطالبه فحينئذٍ تنفتح عليه أبواب الدّنيا و لأن أولئك الّذين أنفق ماله عليهم يعينونه بالدّعاء والهِمّة فيفتح اللّه عليه أبواب الخير في الدّنيا و لا شكّ أنّه فضل انتهىٰ.

ففي كتاب علل الشّرائع بأسناده عن أبي عبد الرّحمٰن قال قلت لأبي عبد اللّه عليه السلام ربما حزنت فلا أعرف فى أهل و لا مال و لا ولد، و ربّما فرحت فلا أعرف في أهل ولا مال ولا وَلد فقال عليه السلام أنّه ليس من أحدٍ إلاّ و معه ملك و شيطان فاذا كان فرحه كان دُنّو الملك منه و اذا كان حزنه كان دنّو الشّيطان منه و ذلك قول اللّه تعالىٰ: اَلشَّيْطٰانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشٰاءِ وَاللّٰهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَ فَضْلاً وَاللّٰهُ وٰاسِعٌ عَلِيمٌ.

عن تفسير علّي بن إبراهيم اَلشَّيْطٰانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشٰاءِ قال الشّيطان يقول لا تُنفق مَلك فأنّك تفتقر، واللّه يعدكم مغفرةً و فضلاً، أي يغفر لكم أن أنفقتم لِلّه، و فضلاً، قال يخلف عليكم انتهىٰ.

و عن تفسير العياشي عن هارون بن خارجة عن أبي عبد اللّه عليه السلام قال: قلت له أنّي أفرح من غير فرح أراه في نفسي ولا في مالي و لا في صديقي و أحزُن من غير حزنٍ أراه في نفسي ولا في مالي ولا في صديقي قال عليه السلام نعم أنّ الشّيطان يلم بالقلب فيقول لو كان ذلك

عند اللّه خيراً ما أوال عليك عدّوك و لا جعل بك اليه حاجة هل تنتظر إلاّ مثل الذّي إنتظر الّذين من قبلك فهل قالوا شيئاً فذاك الذّي يجزن من غير حزنٍ و امّا الفرح قال، الملك يلّم بالقلب فيقول أن كان اللّه أوال عليك عدّوك و جعل بك اليه حاجة فأنّما هي أيّام قلائل أبشر بمغفرةٍ من اللّه و فضلٍ و هو قول اللّـه: اَلشَّيْطٰانُ يَعِدُكُمُ الْـفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشٰاءِ وَاللّٰهُ يَعِدُكُمْ مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَ فَضْلاً.

■

يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴿٢٦٩﴾

◁ اللّغة

يُؤْتِى الْحِكْمَةَ: يُؤتي بضمّ الياء مضارع، آتىٰ وأصله أَءْتىٰ والحِكمة بكسر الحاء قال الرّاغب هي إصابة ألحق بالعلم والعقل، و قد يراد بها العَدل، والعلم والحِلم، والكلام الموافق للحقّ قاله في المنجد.

وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ: يُؤتَ بفتح التّاء ما لم يسّم فاعله.

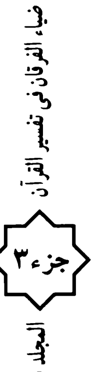
يَذَّكَّرُ: بفتح الياء و الذّال المشدّدة أصله يتذكر فأبدل التّاء ذالاً لتقرب منها فتدغم.

◁ الإعراب

وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ من مبتدأ وما بعدها الخبر و من قَرأ بكسر التّاء فَمن في، موضع نصب بيؤت و يؤت مجزوم بها فقد عمِل فيما عمل فيه والفاعل ضمير، إسم، اللّه.

◁ التّفسير

إختلفوا في المراد بالحكمة، فعن السّدي هي النبوّة و عن ابن عبّاس هي المعرفة بالقرأن، بفقهه و نسخه و محكمه و متشابهه و عن قتادة ومجاهد الحِكمة هي الفقه في القرأن، والإصابة في القول والعمل، و قيل هي في العقل الدّين و عن مالك بن أنس هي المعرفة بدين اللّه والفقه فيه و الإتّباع له و في قول أخر هي التّفكر في أمر اللّه و الإتّباع له و قال أيضاً هي طاعة اللّه والفقه في



الدّين والعمل به، و قال الرّبيع بن أَنَس هي الخشية و قال الحسن هي الورع ذكر هذه الأقوال القُرطبي في تفسيره ثمّ قال الحِكمة مصدر من الأحكام‌الإنفاق في قولٍ أو فعلٍ فكلّ ما ذكر فهو نوع من الحكمة الّتي هي الجنس فكتاب اللّه حكمة و سنّة نبّيه حكمة وكلّ ما ذكر من التّفضيل فهو حكمة وأصل الحِكمة ما يمتنع به من السّفه للعلم حكمة لأنّه يمتنع به و ساق الكلام الیٰ أن قال أنّ من أعطي الحكمة والقرأن فقد أعطي أفضل ما أعطي من جمع علم كتب الأوّلين من الصّحف و غيرها و يسمّىٰ هذا كثيراً لأنّ هذه هو جوامع الكِلم انتهىٰ.

أقول أكثر الأقوال المذكورة موجود في التّبيان وتفسير الطّبري و غيرها من المفصّلات ولا بأس بها فأنّها داخلة تحت اللّفظ.

أنا أقول الحكمة على قول الفلاسفة عبارة عن العلم بحقائق الموجودات علىٰ ماهي عليه بقدر الطّاقة البّشرية و علىٰ قول غيرهم إصابة الحقّ بالعلم و العقل كما ذهب اليه الرّاغب في المفردات ثمّ أنّه فرّق بين الحكمة من اللّه تعالىٰ و الحكمة من الخلق فهي من اللّه تعالى معرفة الأشياء و ايجادها على غاية الإحكام و من الخلق هي معرفة الموجودات و فعل الخيرات، و الحقّ أنّ ما ذكره في الفرق بين الحكميتين من عند نفسه و ذلك لأنّ الحِكمة معناها واحد في الخالق و الخلق إلاّ أنّها مقولة بالتشكّيك أي أنّ مصاديقها تختلّف شدّةً و ضعفاً وكمالاً و نقصاً و هذه هو الّذي دعى الرّاغب و أمثاله الیٰ الفرق بين المقامين و لم يعلم أنّ الفرق حاصل بين الخالق و المخلوق لا بين الحِكمة هنا و هناك و ليس هذا البحث مختّصاً بالحِكمة بل هو جار في جميع الألفاظ المستعملة في الخالق و المخلوق كالعلم و العدل و الكلام و الإرادة و الحياة و أمثالها و الحاصل أنّ اللّفظ أي لفظٍ كان يستعمل في معناه الموضوع له واحد في الجميع و أنّما الفرق في الموصُوف فاذا قلنا، اللّه تعالىٰ عالمٌ أو عادلٌ أو حيٌّ أو حكيمٌ مثلاً، فهو بعينه مثل قولنا زيد عالم أو عادل أو حيّ أو حكيمٌ

فهذه ألفاظ أستعملت في المقامين في معانيها الّتي وضعت لها إلاّ أنّها في الخالق عين ذاته و في المخلوق زائد عليه أو أنّها في الخالق أشدّ و أكمل صدقاً و في المخلوق بالعكس لا أنّ العلم فيه تعالىٰ غير العلم في المخلوق معنىً و هكذا سائر الصّفات و السرّ في ذلك هو أنّ هذه الصّفات قد أعطاها اللّه تعالىٰ للمخلوق علىٰ حسب إستعداده و قابليّته و بذلك صار مظهراً لعلمه و قدرته و عدله و حكمته الىٰ غير ذلك و هذا يتمّ بناءً علىٰ أنّ اللّه تعالىٰ قد أعطىٰ الإنسان من علمه الّذي هو عين ذاته ليكون العالم مظهراً لعلمه والقادر لقُدرته و هكذا فلو فرضنا أنّ ما أعطىٰ غيره يباين ما هو متّصف به حقيقةً فالمعطي له لا يكون مظهراً له في هذا الوصف و هو كما ترىٰ لا يساعده العقل فضلاً عن النّقل إذا عرفت هذا فنقول لا شكّ أنّه تعالى حكيمٌ بمعنى أنّه عالم بحقائق الأشياء علىٰ ما هي عليه، و على تفسير آخر للحكمة أنّه تعالى أوجد الموجودات علىٰ غاية النّظم والأحكام و على التقدّيرين هو حكيم وصف نفسه بها غير واحدٍ من الأيات:

قال اللّه تعالى: **فَاعْلَمُوٓا أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ**

قال اللّه تعالى: **وَ ٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ**

قال اللّه تعالى: **فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ**

قال اللّه تعالى: **إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ**

و هكذا ثمّ أنّه تعالىٰ قد منَّ علىٰ عباده بإعطائه أيّاه من الحكمة.

يُؤْتِى الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءَ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْراً كَثِيراً.

أي أنّه تعالىٰ يؤتي من الحكمة التّي وصَف بها نفسه بعض عباده علىٰ حسب لياقته و إستعداده و يدّل عليه، الألف و اللاّم في قوله: **يُؤْتِى الْحِكْمَةَ** أي يؤتي الحِكمة المعهودة المعلومة من يشاء فلو كان ما أعطاه غير ما وَصف به نفسه فيكتابه فكأنّ حقّ الآية أن يقول، يؤتي حكمةً من يشاء بلفظ النّكرة

المفيد للنّوعية نعم الحِكمة في المعطي و هو الخالق كاملة جامعة لا نقص فيها و امّا في المعطي له فهي ناقصة و بعبارة أخرىٰ هي فيه تعالىٰ العلم بحقائق الموجودات علىٰ ما هي عليه و امّا فينا فهي كذلك إلاّ أنّه بقدر الطّاقة البّشرية، و علىٰ التفسّير الآخر، هي فيه تعالىٰ إيجاد الأشياء علىٰ غاية الأحكام، وفينا ليس كذلك فالحكمة في المقامين بمعناها الواقعي إلاّ أنّها في الموجود الكامل كاملة و في النّاقص ناقصة فالنّقص والكمال في الوصف يرجع الىٰ النّقص و الكمال في الذّات فأفهمه أن كنت من أهله:

قال اللّه تعالىٰ: **وَ لَقَدْ اٰتَيْنا لُقْمانَ اَلْحِكْمَةَ أَنِ اَشْكُرْ لِلّٰهِ**(١).

قال اللّه تعالىٰ: **فَقَدْ اٰتَيْنآ اٰلَ إِبْرٰاهِيمَ اَلْكِتٰابَ وَ اَلْحِكْمَةَ**(٢).

قال اللّه تعالىٰ: **وَ قَتَلَ داٰوُدُ جٰالُوتَ وَ اٰتيٰهُ اَللّٰهُ اَلْمُلْكَ وَ اَلْحِكْمَةَ**(٣).

قال اللّه تعالىٰ: **وَ إِذْ عَلَّمْتُكَ اَلْكِتٰابَ وَ اَلْحِكْمَةَ وَ اَلتَّوْريٰةَ وَ اَلْإِنْجِيلَ**(٤).

قال اللّه تعالىٰ: **وَ شَدَدْنٰا مُلْكَهُ وَ اٰتَيْنٰاهُ اَلْحِكْمَةَ وَ فَصْلَ اَلْخِطٰابِ**(٥).

والأيات كثيرة والىٰ هذا المعنىٰ أشار بقوله :**وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثيراً** و أنّما سميّت بالخير الكثير إذ لا خير في عالم الوجود أفضل وأكمل و أشرف و أعلىٰ درجةً ومنزلةً منها ولأجل ذلك اخصّها اللّه تعالى بقوم خاصٍّ فقال: **يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءَ** و قال: **وَمٰا يَذَّكَّرُ اِلاّٰ أُولُوا الْاَلْبٰابِ** أي و ما يذّكر عظم شأنها إلاّ أُولوا الألباب فأنّ الجاهل بمعزلٍ عن دَرك هذه الحقائق و شرفها وفضلها وأنّما قالوا أُولوا الألباب أنّ اللُّب العقل الخالص الّذي لا يشوبه شيء.

روي في البحار عن أبي بصير قال: سمعت أبا جعفر عليه السلام أنّه يقول وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثيراً مَعرفة الإمام وإجتناب الكبائر الّتي أوجَب اللّه عليها النّار انتهىٰ.

١- لقمان = ١٢.
٢- النسّاء = ٥٤.
٣- البقرة = ٢٥١.
٤- المائدة = ١١٠.
٥- ص = ٢٠.

و أيضاً عن أبي بصير قال: سألته عليه السلام عن قول اللّـه وَمَنْ يُـؤْتَ الْحِكْمَةَ.

قال عليه السلام هي طاعة اللّه ومعرفة الإمام انتهىٰ.

و عن سليمان بن خالد قال: سألت أبا عـبد اللّـه عليه السلام ومـن يُـؤت الحِكمة الآية فقال أنّ الحكمة المعرفة والتّفقه في الدّين فـمن فـقه منكم فهو حكيمٌ الحديث.

و عن الصّادق عليه السلام الحِكمة ضياء المعرفة و ميراث التّقوىٰ و ثمرة الصدّق و ما أنعم اللّه علىٰ عبدٍ من عباده نِعمةً أنعَم وأعظم و أرفَع و أجزل وأبهىٰ من الحِكمة قال اللّه عزّ وجلّ: يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءَ الىٰ قوله: أُولُوا الْأَلْبَابِ أي لا يعلم ما أُودعت وهُيئت في الحِكمة إلاّ مَن إستَخلصتُه لِنفسي و خصصّته بها والحِكمة هي الثّبات وصفة الحكيم الثّبات عند أوائل الأمور والوقوف عند عواقبها و هو هادي خلق اللّه الىٰ اللّه قال رسول اللّه لعلّي عليه السلام لأن يهدي اللّه علىٰ يديك عبداً من عباد اللّه خير لك ممّا طلعت عليه الشّمس من مشارقها الىٰ مغاربها إنتهىٰ.

أقول هذا الحديث من أحسن الأحاديث في تفسير الحكمة و هو يكفينا في المقام كيف و قد جعلها، رأس جميع الأمور الّتي تحصل بها السّعادة في الدّنيا والأخرة ومن المعلوم أنّ طاعة اللّه وطاعة رسوله ومعرفة الإمام والتّفقه في الدّين و امثال ذلك كلّها من ثمرات المعرفة بحقائق الأشياء بسبب العلم وهذا هو بعينه تفسير الحكمة أعني به العلم بحقائق الأشياء علىٰ ما هي عليه بقدر الطّاعة فأنّ العالم بحقائق الأشياء العارف بها يقدر علىٰ تـمييز الخـبيث مـن الطّيب والجّيد من الرّديّ والولّي من الشّقي وهكذا و الحـمدللّه عـلىٰ هـذه النّعمة.

■

وَ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ ٱللَّٰهَ يَعْلَمُهُ وَ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴿٢٧٠﴾

◁ اللّغة

أَوْ نَذَرْتُمْ: النّذر به فتح النّون و سكون الذّال هو ان توجب على نفسك ما ليس بواجبٍ لحدوث أمر هكذا فسّره الرّاغب في المفردات.

◁ الإعراب

مَا أَنْفَقْتُمْ ما شرط وموضعها نصب بالفعل الّذي يليها.

◁ التّفسير

قد مرّ البحث في الإنفاق في الأيات السّابقة و سيأتي البحث فيه أيضاً و امّا النّذر المشار اليه في الآية فالضّابط فيه أن يكون طاعة واجباً كان أو مندوباً أو مباحاً راجحاً في الدّين أو الدّنيا فلو كان متساوي الطّرفين أو مكروهاً أو حراماً إلتزم فعلها لم ينعقد و هو في الأخيرين وفّاقي و في المتساوي قولان رجّح الشّهيد في الدّروس الصّحة وبه قال كثير من الفقهاء و ذهب الأخرون الىٰ البطلان علىٰ ما فصّل في الفقه و قال الشّيخ في التّبيان فالنّذر هو عقد الشّئ على النّفس فعل شئٍ من البرّ بشرطٍ ولا ينعقد ذلك إلاّ بقوله لِلّه علّي كذا ولا يثبت بغير هذا اللّفظ وأصل النّذر الخوف لأنّه يعقد ذلك علىٰ نفسه خوف التقصّير في الأمر ومنه نذر الدّم العقد علىٰ سفكه للخوف من مضّرة صاحبه قال الشّاعر:

هُـم يـنذرون دَمـي وأنـذر ... إن لَـقيت بأن أشـدا

و منه الإنذار و هو الإعلام بموقع العدّو للخوف منه ليتّقي يقال نذرت النّذر أنذره نذراً، وجمعه نذور انتهىٰ كلامه قدّس سرّه.

أقول و على ما ذكروه فمعنى الآية أنّ كلّ إنفاقٍ أو نذرٍ صدر منكم فأنّ اللّه يعلمه فيجازيكم عليه فدّل بذكر العلم على تحقيق الجزاء إيجازاً للكلام و بعبارةٍ أُخرىٰ أنّه تعالىٰ عالم بما تفعلونه وبما قصدتموه في فعلكم من خيرٍ و شرٍّ لا يفوته شيءٍ من ذلك فيجازيكم عليه ففي الآية حثّ على الفعل و إيقاعه علىٰ الوجه الذّي ينال به السّعادة و تحذير عن الإتيان به على خلافه ثمّ صرّح بالوعيد بقوله: **وَ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ** والمراد بالظّالمين المانعين للصدّقات الواجبة أو الصّارفين لها في غير الوجه الّذي أمروا به والّذين لا يوفون بالنّذر أو المراد الأعمّ من ذلك فهذه الآية ترشدنا الىٰ أمورٍ:

الأوّل: أنّ الإنفاق و النّذر مشروعان ممدوحان اذا أوقعهما المكلّف على الوجه المقّرر في الشّريعة.

الثاني: أنّ النّذر يجب الوفاء به و يستفاد هذا الأمر من قوله: **وَ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ** حيث عبّر عمّن لا يفي بالنّذر بالظّالم هذا إذا قلنا أنّ المراد بالإنفاق معناه العام الشّامل للواجب و المندوب حتّىٰ المباح و امّا إذا قلنا أنّ المراد منه في الآية الصدّقات الواجبة فالظّالم شامل لمانع الإنفاق أيضاً.

الثّالث: أنّ اللّه تعالىٰ عالم بما يفعله العبد من خيرٍ و شرٍّ و لازم العلم هو ثبّوت الجزاء علىٰ الفعل كما أشرنا اليه ثمّ أنّ المستفاد من الآية بعد ما ذكرناه أمور لا بأس بالإشارة اليها.

أحدها: أنّه تعالىٰ عطف النّذر علىٰ النفّقة فقال: **وَ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ** قالوا فيه إرشاد الىٰ مشروعيّة النّذر و يدّل عليه مع ذلك إجماع الأمّة والأخبار المستفيضة و امّا ما قيل من أنّه يدّل على رجحان النّذر ففيه تأمّل بل منع لما ورد من كراهيته أن يوجب الإنسان على نفسه شيئاً لم يفرض عليه، كموثقة إسحاق عن أبي عبد اللّه عليه السلام قال أنّي جعلت على نفسي ركعتين أصليّهما في الحضر و السّفر فقال نعم ثمّ قال عليه السلام أنّي أكره الإيجاب.

ثانيها: قالوا أنّ التّعقيب بالوعيد يدّل علىٰ أنه أنّما يلزم و ينعقد من البالغ العاقل المختار القاصد دون الصّبي و المجنون و المنكرة و فاقد القصد بسكرٍ أو اغماءٍ أو عدم النّية و نحو ذلك و يدّل عليه الأخبار و هو المفتي به بين الأصحاب.

ثالثها: قالوا المتبادر من إطلاق الآية فيه أنّه يشترط في الصّيغة مضافاً الى النّية والقصد النّطق باللّسان فلا ينعقد بالقصد بالضّمير خاصّة، أقول المتكفّل لهذه الشرائط هو السّنة و امّا الآية فإطلاقها لا يدّل على النّطق باللّفظ بل الأمر بالعكس و هو واضح.

رابعها: قالوا أنّ إطلاق لزُوم الوفاء بالنّذر يقتضي التّعميم في كلّ موردٍ إلاّ أنّ الأخبار الواردة خصتّها بما كان راجحاً في الدّين أو الدّنيا و هو يدّل علىٰ جواز تخصيص الكتاب بالسّنة.

خامسها: قالوا في الوعيد على المخالفة إشعار بكونه أنّما يلزم النّذر إذا كان مقدوراً للنّاذر أقول هذا يتمّ بضميمة قبح التّكليف بما لا يطاق قال اللّه تعالىٰ: **لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا**[1] وحيث أنّ العاجز لا يقدر فليس بمكلّفٍ فلا يصّح عقابه على ترك الواجب لعدم قدرته على الفعل.

سادسها: أنّ إطلاق الآية يقتضي عموم التكلّيف بالوفاء و المشهور بين الأصحاب أنّه لا ينعقد نذر المملوك بدو إذن المالك و لا الزّوجة بدون إذن الزّوج و ألحق بهما العلاّقه الولد و قال بإشتراط إذن الوالد.

أقول أمّا المملوك و الزّوجة فأن كان نذرهما من مال المالك و الزّوج أوكان بحيث يكون الوفاء به موجباً لتضييع حقّ المالك والزّوج فهو حقّ لا كلام لنا فيه لأنّ العبد وما في يده كان لمولاه والزّوجة مطيعة للزّوج ولابدّ لها من مراعاة حقّ الزّوجية و امّا إذا كان نذر المملوك في غير الأمور الماليّة بل كان نذره بشيءٍ من الأعمال كالصّوم و الصّلاة فيما إذا لم يوجب الوفاء به.

١- البقرة= ٢٨٦

تضييعاً لحقّ المالك كما إذا نذر العبد أن يستغفر اللّه أو يصلّي على محمّد و آله أو يختم جزءً من القرآن أيّام فراغته بل يصّلي و يصوم فيها فلا مانع فيه و هكذا الزّوجة فالقول بأنّ نذرهما لا ينعقد بقولٍ مطلق لا دليل عليه و ما ورد فيه ظاهراً لابدّ من تقيّيده بما ذكرناه و امّا الإبن فحاله معلوم ولم يقل به فيما نعلم إلاّ العلامة وتبعه الشهيد عليه في الدّروس والأكثر علىٰ خلافة و لنعم ما قاله الشّهيد الثاني في المسالك علىٰ ما نقل عنه حيث قال و لا نصّ علىٰ ذلك كلّه و تفصيل الكلام فيه موضع آخر.

■

إِنْ تُبْدُوا ٱلصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَ إِنْ تُخْفُوهَا وَ تُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌلَكُمْ وَ يُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ وَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٧١﴾

◁ اللغّة

تُبْدُوا: بضمّ التّاء مضارع و ماضيه ابدىٰ أصله أبداء يقال بدا له أي ظهر و أبدى الأمر، أظهره و عليه فالأصل في، تُبْدُوا، تُبْديُون نقلت الضمّة من اليّاء الىٰ الدّال لثقلها علىٰ اليّاء ثمّ حذفت اليّاء لدلالة الضمّة عليه فقيل، تبدوا.

ٱلصَّدَقَاتِ جمع الصَّدّقة و هي ما يخرجه الإنسان من ماله علىٰ وجه القربة كالزّكاة لكنّ الصدّقة في الأصل يقال للمقطّوع به والزّكاة للواجب.

فَنِعِمَّا هِيَ:نِعم فعل جامد لا يكون فيه مستقبل وأصله نعم كعلم و قد جاء علىٰ ذلك في الشّعر الا انّهم سكنوا العين و نقلوا حركتها الىٰ النّون ليكون دليلاً على الأصل و منهم من يترك النّون مفتوحة على الأصل ومنهم من يكسر النّون و العَين إتّباعاً و فاعل، نعم، مضمر و، ما، بمعنىٰ شئ و هو المخصوص بالمدح هى أي نعم الشّئ شيئاً.

إِنْ تُخْفُوهَا: الإخفاء ضدّ الإظهار.

يُكَفِّرُ بتشديد الفاء و ماضيه كَفَّر والكُفر في الأصل السَّتر يقال كفر درعه بثوبه أي غطّاها به فالتّكفير التغطية.

سَيِّئَاتِكُمْ: السّيئات جمع لاسَّيئة و هي ضدّ الحسنة.

◁ الإعراب

فَنِعِمَّا هِيَ تقدّم الكلام في نعمّا، وأنّه فعل جامد و،، هي خبر مبتدأ محذوف كأن قال قائلاً ما الشّئ الممدوح فيقال الصدّقة، و قيل هي، مبتدأ

مؤخراً ونعم و فاعلها، الخبر أي الصدّقة نعم الشئ **فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ** الجملة جواب الشّرط و موضعها جزم **وَ يُكَفِّرُ عَنْكُمْ** يقرأ بالنّون علىٰ إسناد الفعل الىٰ اللّه عزّ و جلّ و يقرأ بالياء علىٰ هذا التقدّير أيضاً و يقرأ و تكفر، بالتّاء علىٰ أنّ الفعل مسند الىٰ ضمير الصدّقة و يقرأ بجزم الرّاء عطفاً علىٰ موضع، فهو و بالرّفع علىٰ إضمار مبتدأ أي و نحن أو و هي و مِن هنا زائدة عند الأخفش **سَيِّئَاتِكُمْ** المفعول وعند سيبويه المفعول محذوف أي شيئاً من سيّئاتكم و لاسّيئة، فعيلة و عينها واو لأنّها من ساء يسُوء فأصلها سَيوِئة.

◁ التّفسير

جمهور المفسّرين علىٰ أنّ الآية في صدقة التّطوع لأنّ الإخفاء فيها أفضل من الإظهار وكذلك سائر العبادات فأنّ الإخفاء فيها أفضل في تطّوعها لإنتفاء الرّياء عنها قال الحسن إظهار الزّكاة أحسن وإخفاء التّطوع أفضل لأنّه أدّل علىٰ أنّه يراد اللّه عزّ وجلّ به وحده قاله القرطبي في تفسيره ثمّ أطال الكلام في الباب بما لا فائدة فيه و الحقّ أنّ الصدّقات بحسب الأمكنة والأزمنة و الأشخاص والمقاصد و النّيات وغير ذلك مختلفة ففي بعض الموارد إظهارها أفضل و في بعض الموارد إخفاؤها أفضل و لا فرق في ذلك بين التّطوّع فأنّما الأعمال بالنّيات فالقول بالإخفاء أو الإظهار بقولٍ مطلق لا دليل عليه :

إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ أي إن تظهروا الصدّقات بأن تعطوها علانية فهو حسن ممدوح ثمّ قال تعالىٰ **إِنْ تُخْفُوهَا** أي تُخفوا الصدّقات **وَ تُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ** أي إعطاؤها في الخفاء أيضاً حسن ممدوح **وَ يُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ** أي ويغطّي ويستر من سيّئاتكم بسبب الصدّقة **وَ اللّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ** و تعطون منها في الخفاء والعلن **خَبِيرٌ** لا يخفىٰ عليه شئ، و إعلم أنّ المفسّرين إستفادوا من الآية الشّريفة أنّ الإخفاء في الصّدقات مطلقاً

أفضل من الإظهار بها وبعضهم خصّ الأفضلية بالتّطوع و إستدلوا على مدّعاهم بالأية فمن قال بأن الآية نزلت في مطلق الصدّقة قال بالأوّل و من قال بأنّها نزّلت في صدقة التّطوع قال بالثّاني و الحقّ أنّ الآية لا تدّل على ذاک و لا على ذاك و بعبارةٍ أُخرىٰ ليست في الآية دلالة على أفضّلية الإخفاء أو الإظهار بقول مطلق سواء قلنا نزلت في مطلق الصدّقة أم قلنا بإختصاصها بالتّطوع و الحقّ ما قلناه من أنّ ذلك أي الإخفاء و الإظهار يختلفان بحسب الموارد و الأشخاص و النّيات و المكان والزّمان و غيرها و لا فرق في ذلك في الواجب والتّطوع فمن قصد بإظهار الصدّقة واجباً كانت أو ندباً الرّياء وكسب الشّهرة و امثال ذلك من المقاصد المذمومة شرعاً وعقلاً فالإخفاء بها له أفضل حذراً من الرّياء المبطل للعمل ومن قصد بإظهار ترغيب الغير و تحريصه علىٰ الصّدقة فالإظهار أفضل من الإخفاء وهذا الأصل جار في موضع الواجبات و المستحبّات من الصّوم والصّلاة و الزّكاة و الخمس و صلاة اللّيل و صدقة التّطوع و الصّوم المندوب و غيرها من غير تفاوت فيها فأنّ الأعمال بالنّيات ألا ترىٰ أنّ الصّلاة مثلاًلو أراد المصّلي بإظهارها تعليم الغير أو ترغيبه اليها أوكان متّهماً بترك الصّلاة فقصد بإظهارها الخروج عن فظّنة التّهمة و امثال ذلك من الدّواعي الممدوحة لا إشكال فيه بل هو أحسن و أقرب الىٰ القبول اذا لم يتّرتب علىٰ الإظهار مفسدة من ناحية أُخرىٰ كما اذا كان في مكانٍ وجب فيه على المصلّي التّقية فلو أظهر بها خالف المأمور به قطعاً و الموارد كثيرة و أنت تقدر علىٰ إخراجها بعد الوقوف علىٰ الأصل المذكور و أظنّ أنّ الّذي أوقع المفسّرين في تفسيرعلىٰ ما قالوه هو كلمة، خير، في الآية حيث قال اللّه تعالىٰ: **إِنْ تُبْدُوا ٱلصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ** أي فهو حسن ممدوح وأن تخفوها و تؤتوها الفقراء فهو أي الإخفاء خير لكم أي أنّه أحسن من الإظهار، ولم يعلموا أنّ هذه الكلمة أعني بها **خَيْرٌ** لا تدّل في جميع الموارد علىٰ الأفضّلية و أن شئت قلت لا تجئ دائماً بمعنىً.

أفعل، الدّال على التّفضيل بل قد تكون إسماً لا تدّل عليه وما نحن فيه من هذا القبيل و عليه فقوله تعالىٰ، **فَهُوَ خَيْرٌ** أي فهو حسن ممدوح لا أنّه أحسن وأفضل إلاّ أنّه تعالىٰ عبّر بهذه الكلمة في مورد إخفاء الصّدقة حذراً من التّكرار في قوله، فنعمّا هي اذ لو قال فنعّما، أيضاً كان تكراراً في اللّفظ وإختار هذه الكلمة علىٰ ما يشابهها في المعينٰ مثل كلمة، حسن، أو ممدوح، أو مرغوبٌ فيه و امثال ذلك لأنّ كلمة خير، أفصح وأجمع ممّا يرادفها في المعنىٰ كما حقّق في محلّه و يؤيّد ما ذكرناه الرّاغب في المفردات حيث قال والخير والشّر يقالان علىٰ وجهين:

أحدهما: أن يكونا إسمين كما تقدّم و هو قوله: **وَ لْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ**.

والثّاني: أن يكونا وصفين و تقديرهما تقدير أفعل منه، نحو خير من ذلك وأفضل وقوله تعالىٰ: **فَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَآ ،وَ أَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ** فخير هاهنا يصح أن يكون إسماً وأن يكون بمعنىٰ أفعل ومنه قوله:**وَ تَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوٰى**(١) فالخير يقابله الشّر مرّةً والضّر مرّةً نحو، أن يمسسك اللّه بضرٍ فلا كاشف له إلاّ هو، وأن يمسسك بخيرٍ فهو علىٰ كلّ شئٍ قدير انتهىٰ ما أردنا ذكره و هو صريح فيما قلناه و ممّا استعمل الخير إسماً، قوله تعالىٰ في الوّصية، إن ترك خيراً الآية أي مالاً كثيراً و قوله أنّه لحبّ الخير لشديد، أي المال الكثير،وقوله، قل ما أنفقتم من خيرٍ فللوالدين الأية:

قال اللّه تعالى: **وَ مَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللّٰهُ**(٢).

قال اللّه تعالى: **فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا**(٣) والأيات كثيرة.

■

١- البقرة= ١٩٧
٢- البقرة = ١٩٧
٣- النور= ٣٥

لَيْسَ عَلَيْكَ هُدٰيهُمْ وَ لٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشٰآءُ وَ مٰا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنْفُسِكُمْ وَ مٰا تُنْفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغٰآءَ وَجْهِ ٱللَّهِ وَ مٰا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَ أَنْتُمْ لاٰ تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٢﴾

◁ اللّغة

إِلَّا ٱبْتِغٰآءَ: الطَّلب.

يُوَفَّ: بفتح الفاء مضارع مجهول و ماضيه، وفّى، و مصدره التّوفية و هي إعطاء الحقّ تاماً.

◁ الإعراب

مٰا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنْفُسِكُمْ شرط وجزاء وَ مٰا تُنْفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغٰآءَ وَجْهِ ٱللَّهِ قيل لفظه نفي و معناه النّهي أي لا تنفقوا، و إبتغاء نصب لأنّه مفعول له وَ مٰا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ شرط كالأوّل و لذلك حذف النّون في الموضعين.

◁ التّفسير

قيل في وجه إتصال هذه الآية بما قبلها قولان.

أحدهما: ما روي عن إبن عبّاس و سعيد بن جبير و قتادة، **لَيْسَ عَلَيْكَ هُدٰيهُمْ** بمنع المشركين الأقرباء من الصدّقة ليدخلوا في الإسلام فعلىٰ هذا معناه الإباحة.

ثانيهما: ما قاله الحسن وأبو علّي الجبائي والزّجاج **لَيْسَ عَلَيْكَ هُدٰيهُمْ** بالحمل علىٰ النَّفقة في وجوه البرّ فعلى هذا معناه التّسلية و التّقدير ليس عليك

أن تهدي النّاس الىٰ نيل الثّواب و الجنّة و أنّما عليك أن تهديهم الىٰ الإيمان بأن تدّلهم عليه لأنّه عليه‌السلام كان يغتمّ إذا لم يمؤمنوا ولم يقبلوا منه لعلمه بما يصيرون اليه من العقاب فسّلاه اللّه بهذا القول وأنّه لا ينبغي ترك مواساة ذوي القربىٰ من أهل الشكّ ليدخلوا في الإسلام فيكون ذلك مبيحاً للصدّقة المندوبة اليهم قالوا نزلت هذه الآية لأنّهم كانوا يتّقون الصدّقة على المشركين حتّىٰ نزلت **لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَيهُمْ** هذا ما نقله الشّيخ في التّبيان و قال القرطبي في تفسيره هذا الكلام متّصل بذكر الصدّقات فكأنّه بيّن فيه جواز الصدّقة علىٰ المشركين روى سعيد بن جبير مرسلاً عن النّبي صلى‌الله‌عليه‌وآله في سبب نزول هذه أنّ المسلمين كانوا يتصدّقون علىٰ فقراء أهل الذّمة فلمّا كثر فقراء المسلمين قال رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله لا تتصدّقُوا إلاّ علىٰ أهل دينكم، فنزّلت هذه الآية مبيحة مصدّقة علىٰ من ليس من دين الإسلام ونقل عن النّقاشي أنّ النّبي صلى‌الله‌عليه‌وآله أوتي بصدّقات فجاءه يهودّي فقال أعطني فقال النّبي صلى‌الله‌عليه‌وآله ليس لك من صدقة المسلمين شئ فذهب اليهودي غير بعيد فنزلت **لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَيهُمْ** فدعاه رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله فأعطاه ثمّ نسخ اللّه ذلك بآية الصّدقات و حكى الطّبري أنّ مقصد النّبي صلى‌الله‌عليه‌وآله بمنع الصدّقة أنّما كان ليسلموا ويدخلوا في الدّين فقال اللّه ليس عليك هداهم، أقول.

لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَيهُمْ وَ لَكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَآءُ يمكن أن تكون الهداية في المقام بمعنىٰ الإيصال الى المطلوب لا بمعنى إرائة الطّريق أي ليس عليك إيصالهم الى المطلوب بل لك إرائة الّطريق فقط و لكن اللّه يوصلهم الى المطلوب وتوضيح الكلام هو أنّ الهداية على ما قيل قد تطّلق و يراد به إرائة الطّريق الى السّعادة والجنّة و الإيمان مثلاً و هي الإرشاد المحض و قد يراد بها الإيصال الى المطلوب أعني به الإيصال الى الجنّة والنّعيم الأبدي قالوا أنّ الهداية بالمعنى الأوّل شأن الرسول و بالمعنى الثّاني مختصّ باللّه تعالىٰ و

على هذا فمعنى الآية واضح كما مرّ و أنّما قلنا ذلك لأنّ الرّسول كان يرشدهم الى السّعادة دائماً فلا يصّح أن يقال ليس عليك إرشادهم مثلاً فالمسلوب هو الهداية بالمعنى الثّاني دون الأوّل كما قال اللّه تعالىٰ: **إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَ لٰكِنَّ اَللّٰهَ يَهْدِي مَنْ يَشٰاءُ**(١)

وَ مٰا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنْفُسِكُمْ المراد بالخير هنا المال كما في قوله تعالىٰ: **وَ إِنَّهُ لِحُبِّ اَلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ**(٢) أي لحبّ المال، ويمكن أن يكون المراد به ما يشمل الأعمال من قبيل قوله تعالىٰ: **وَ مٰا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اَللّٰهِ**(٣) أي من عملٍ و قوله: **فَلِأَنْفُسِكُمْ** أي أنّ نفع الإنفاق يعود اليكم، فعلىٰ الأوّل وهو أن يكون الخير بمعنىٰ المال، فالأية تدّل علىٰ حسن الإنفاق بل التّحريص عليه في وجوه البّر وتقديرها وما تنفقوا في وجوه البِّر من المال فنفعه عائدٌ اليكم، و على الثّاني و هو أن يكون الخير بمعنى العمل أو ما يشمله فالأية حاثّة علىٰ فعل الخيرات أعني به الأعمال الصّالحة النّاشئة عن الإيمانفالإنفاق المستفاد من قوله: **وَ مٰا تُنْفِقُوا**، لا يكون مختّصاً بالإنفاق المالي بل الأعم منه و من كلّ عملٍ صالح كما فصّلنا الكلام فيه في أوائل البقرة عند قوله تعالىٰ: **وَ مِمّٰا رَزَقْنٰاهُمْ يُنْفِقُونَ**(٤) و قلنا هناك أنّ الإنفاق كما يكون في المال كذلك يكون في سائر النِّعم من العلم والقدرة والعدالة والصّحة وغيرها فالعالم ينفق بعلمه والعادل بعدله والسّلطان بقدرته وصاحب الثروة بماله و هكذا.

وَ مٰا تُنْفِقُونَ إِلاَّ اِبْتِغٰاءَ وَجْهِ اَللّٰهِ قيل اللّفظ نفيّ والمعنىٰ نهيٌ أي لا تنفقوا إلاّ طلباً لمرضات اللّه ففي الحقيقة نهى اللّه تعالىٰ عن الإنفاق في سبيل

١- القصص = ٥٦
٢- العاديات = ٨
٣- البقرة= ١١٠
٤- البقرة= ٣

الشّيطان فمتابعة الهوىٰ ولأجل ذلك أردف كلامه بقوله **وَ مٰا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ** توفية الشيئ إكماله وعدّاه، بالىٰ، لتضمّنه معنى الإيصال أو التأدّية و المعنىٰ توفّون جزائه بلا نقصانٍ و لا ظلمٍ و قيل تعطون جزائه وافراً و فيها دلالة علىٰ نفي الإحباط و أطلاق الآية يدّل على حصول الجزاء بإعطاء غير العارف و يرشد اليه ما ذكر في سبب النّزول من أنّ المسلمين كانوا يمتنعون من التصدّق علىٰ غير أهل دينهم فأنزّل اللّه تعالى هذه الآية و يدّل على ذلك.

ما رواه في الكافي عن عمرو بن أبي نصير قال: قلت لأبيّ عبد اللّه عليه السلام أنّ أهل السّواد يقتحمُون علينا وفيهم اليهود والنّصارىٰ والمجوس فنصدّق عليهم قال عليه السلام نعم.

و عن عمر بن يزيد قال سألت أبا عبد اللّه عليه السلام عن الصدّقة علىٰ أهل البوادي والسّواد قال: تصّدق علىٰ الصُبيّان والنّساء والزمّناء والضّعفاء والشّيوخ وكان ينهى عن أولئك الجمانين يعني أصحاب الشّعور انتهىٰ.

و عن معاوية بن عمّار قال: قال أبو عبد اللّه عليه السلام إصنعوا المعروف الىٰ كلّ أحدٍ فأن كان أهله وإلاّ فأنت أهله انتهىٰ.

و في رواية معّلىٰ بن خُنيس عن الصّادق عليه السلام: أنّه خرج في ليلةٍ قد رشّت يريد ظلّة بني ساعدة بحرابٍ أعجز عن حمله من خبزٍ و تصدّق به علىٰ قومٍ كانوا هناك فقلتُ جُعلتُ فداك يعرف هؤلاء الحقّ فقال عليه السلام: لو عرفُوه لواسيناهم بالدّقة الحديث.

و روي الكشي في رجاله بسنده الىٰ عمر بن زيد قال: سألتُ أبا عبد اللّه عليه السلام عن الصدّقة علىٰ النّاصب والزّيدية فقال عليه السلام: لا تتصدّق عليهم بشيءٍ ولا تُسقهم من الماء أن إستطعت و قال لي أنّ الزّيدية هُم النُّصاب.

أقول هذه الأخبار نقلناها عن كتاب آيات الأحكام للجزائرى قدس سره[١].

امّا قوله تعالىٰ: **وَ أَنْتُمْ لٰا تُظْلَمُونَ** معناه أنّ اللّه تعالىٰ لا يضيع أجر عاملٍ ولا يظلم على أحدٍ وفيه إشارة الىٰ أنّ تضييع الحقّ ظلمٌ وأنّما لا يظلم لأنّ الظّلم قبيح و هو منزّهٌ عن القبائح كما ثبت في محلّه و قد نفى الظّلم عن نفسه في كثير من الأيات.

قال اللّه تعالى: **إِنَّ اَللّٰهَ لاٰ يَظْلِمُ اَلنّٰاسَ شَيْئاً وَ لٰكِنَّ اَلنّٰاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ**[٢]

قال اللّه تعالى: **ذٰلِكَ بِمٰا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَ أَنَّ اَللّٰهَ لَيْسَ بِظَلاّٰمٍ لِلْعَبِيدِ**[٣].

قال اللّه تعالى: **وَ مٰا رَبُّكَ بِظَلاّٰمٍ لِلْعَبِيدِ**[٤]

■

١- كتاب الزّكاة ص ٩٨- ٩٩.
٢- يونس = ٤٤.
٣- آل عمران = ١٨٢
٤- فُصلت = ٤٦

لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي ٱلْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْئَلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا وَ مَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴿۲۷۳﴾

◁ اللّغة

لِلْفُقَرَآءِ: جمع فقير وهو من لا مال له.

أُحْصِرُوا: بضمّ الألف ممّا لم يسّم فاعله والمعلوم منه، أحصَرَ والمصدر الإحصار: و هو المنع من طريق البيت و قيل هذا معنىٰ الحَصر و امّا الإحصار يقال في المنع الظّاهر كالعدّو والمنع الباطن كالمرض، والحصر لا يقال إلاّ في المنع الباطن.

لَا يَسْتَطِيعُونَ: الإستطاعة القدرة.

ضَرْبًا فِي ٱلْأَرْضِ: الضّرب فيّ الأرض الذّهاب فيها و هو ضربها بالأرجل.

مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ: التّعَفف مصدر باب التَّفعل و قال تَعفّف تَعَفّفاً و العِفَّة حصول حالةٍ للنّفس تمتنع بها عن غلبة الشّهوة و أصله الإقتصار علىٰ تناول الشّيئ القليل الجاري مجرىٰ العفافة.

إِلْحَافًا: بكسر الألف مصدر قولك الحَفَ إلحافاً، والإلحاف الإلحاح و التَّضرع و الإصرار و امثال ذلك.

◁ الإعراب

لِلْفُقَرَآءِ في موضع خبر إبتداء محذوف تقديره، الصدّقات المذكورة للفقراء فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ في متعلّقة، بأحصروا، على أنّها ظرف له و يجوز أن

تكون حالاً أي أحصِروا مجاهدين **لايَسْتَطِيعُونَ** في موضع الحال والعامل فيه، أُحصروا عاجزين و يجوز أن يكون مستأنفاً **يَحْسَبُهُمُ** أيضاً حال و يجوز فيه الإستئناف و فيه لغتان كسر السّين وفتحها و قد قرأ بهما **وٱلْجَاهِلُ** جنس و لذلك لم يجمع و لا يراد به واحد **مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ** من، يتّعلق بيحسب أي يحسبهم من أجل التَّعفف، و لا يجوز أن يتعلّق، بأغنياء، لأنّ المعنىٰ يصير الىٰ ضدّ المقصود **تَعْرِفُهُمْ** يجوز أن يكون حالاً وأن يكون مستأنفاً **لَا يَسْئَلُونَ** مثله **اِلْحَافًا** مفعول من أجله و يجوز أن يكون مصدراً لفعلٍ محذوف دلَّ عليه، يسألون و يجوز أن يكون مصدراً في موضع الحال تقديره ولا يسألون ملحفين.

◁ التّفسير

قال في أيات الأحكام كان ذلك من قبيل الإستئناف البياني الواقع جواباً لسؤالٍ مقّدر لأنّه لمّا حرّص على الإنفاق فيما سبق و بيّن ما ينبغي أن يكون المنفق عليه من الصّفة أشعر ذلك بالسّؤال عن بيان حال المنفق عليه، فاللاّم متعلّقة بنحو أجعلوا مقّدراً أي أنّهم أولىٰ بها لا أنّها مختصّة بهم ويكون الجارّ في موضع الرّفع خبراً لمبتدأٍ محذوف تقديره لهم حقٌّ عليكم حيث أنّهم حصروا أنفسهم في سبيل اللّه ثمّ قال ويدخل فيه المشتغلون في تحصيل العلوم الدّينية و ترويج المعالم الشّرعية المحمّدية بل في زماننا هذا هو الجهاد الأعظم والسّبيل الأقوم فالإلتفات اليهم بالنّوال والأفضال ممّا ورد الحثّ عليه في الأخبار المستفيضة انتهىٰ.

ما أردنا ذكره و لنرجع الى تفسير ألفاظ الأية.

لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ

عن الباقر عليه‌السلام نزّلت في أصحاب الصّفة و قال السّدي الفقراء في الآية فقراء المهاجرين و كيف كان فالعامل في الفقراء محذوف و تقديره النّفقة

للفقراء أو الصدّقة للفقراء و أنّما خصّ المهاجرين بالذّكر لأنّه لم يكن هناك سواهم و هم أهل الصّفة وكانوا نحواً من أربع مائة رجل و قيل أنّهم كانوا يقدمون على رسول اللّه ﷺ و مالهم أهل و لا مال فبنيت لهم صفّة في مسجد رسول اللّه فقيل لهم أهل الصّفة نقل عن أبى ذرّ أنّه قال كنت من أهل الصّفة وكنّا اذا أمسينا حضرنا باب رسول اللّه فيأمر كلّ رجل فينصرف برجل و يبقى من بقي من أهل الصّفة عشرة أو أقلّ فيؤتي النّبي ﷺ بعشاءه و نتّعشى معه فاذا فرغنا قال رسول اللّه ﷺ نوموا في المسجد (ناموا) قاله القُرطبي في تفسير **لَا يَسْتَطِيعُونَ** أي الفقراء **ضَرْبًا فِي ٱلْأَرْضِ** لكون البلاد كلّها كفراً مطبقاً و إنكار الكفّار عليهم إسلامهم كان مانعاً من التّجارة والزّراعة والكسب فبقوا فقراء و قيل معناه أنّهم كانوا لا يستطيعون لما قدموا بأنفسهم على الجهاد.

يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ

أي من كان جاهلاً بحالهم يحسب أنّهم أغنياء لا يحتاجون الىٰ شئ اذ لو كانوا محتاجين لسألوا النّاس كما هو شأن المحتاج الفقير في العرف ولم يعلم الجاهل أنّ تركهم المسألة لأجل التّعفف والتّوكل علىٰ اللّه فأنّ الفقير اذا كان عفيفاً لا يسأل النّاس إلاّ مع الضرّورة فترك المسألة لا يدّل على الغنى في جميع الموارد والتّعفف مصدر باب التّفعل و هو مبالغة من عفَّ الشّئ اذا أمسك عنه وتنزّه عن طلبه ومن، في قوله: **مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ** لإبتداء الغاية و قيل لبيان الجنس **تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ** الخطاب لرسول اللّه ﷺ وفي هذا الكلام دليل علىٰ أنّ للسّيماء أثراً في إعتبار من يظهر عليه ذلك و السّيماء مقصورة، معناها العلامة و قد تمدّ فيقال السّيماء و قد اختلفوا في تعينها فقال مجاهد هي الخشُوع والتّواضع السّدي أثر الفاقة و الحاجة في وجوههم و قلّة النّعمة، و قال ابن زيد، رثاثة ثيابهم، و قال قوم أثر السّجود.

لَا يَسْئَلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا. إلحافاً، مصدر في موضع الحال أي ملحفين يقال ألحف وأحَفىٰ وألَّح في المسألة سواء و قيل أنّ إشتقاقه من اللّحاف سمّي به لاشتماله على وجوه الطّلب في المسألة كإشتمال اللّحاف من التّغطية ثمّ أنّهم إختلفوا في معنى قوله: **لَا يَسْئَلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا** فقال قوم منهم الطّبري و الزّجاج أنّ المعنىٰ لا يسألون البتّة لأنّ التّعفف صفة ثابتة لهم أي لا يسألون النّاس إلحاحاً و لا غير إلحاحٍ و قال قوم أنّ المراد نفي الإلحاف أي أنّهم يسألون غير إلحافٍ و هذه هو السّابق للفهم أي يسألون غير مُلحفين و في هذا تنبيهٌ علىٰ سوء حالة من يسأل النّاس إلحافاً.

وَ مَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ و معناه ظاهر لأنّ علمه تعالىٰ بالأشياء حضّوري و هو عين ذاته فعلمه بذاته علمه بجميع ما سواه لأنّ العلم بالعلة مستلزم للعلم بالمعلول بطريقٍ أوّلي وسيأتي البحث في علمه تعالىٰ في محلّه إن شاء اللّه ثمّ أنّه يستفاد من الآية ذمّ السّؤال و كراهته حتّىٰ الإمكان و ذلك لأنّ اللّه تعالىٰ جعل عدمه مدحاً والأخبار أيضاً دالّة عليه.

قال أمير المؤمنين عليه السلام: من فتح عليه باب مَسَألة فتح اللّه عليه باب فقرٍ.

و عن الصّادق عليه السلام قال: قال رسول اللّه صلى الله عليه وآله أنّ اللّه تعالى أحبّ شيئاً لنفسه و أبغضه لخلقه، أبغض لِخلقه المسألة و أحبَّ لنفسه أن يسأل وليس شئ أحبَّ الىٰ اللّه أن يسأل فلا يستحي أحدكم أن يسأل اللّه من فضله ولو شسع نعلٍ انتهىٰ.

و عنه عليه السلام: إيّاكم و سؤال النّاس فأنّه ذُلٌّ في الدّنيا و فقر تعجّلونه و حساب طويل يوم القيامة والأخبار كثيرة.

■

ٱلَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَ ٱلنَّهارِ سِـرًّا وَ عَلانِيَةً فَلَهُمْ أَجْـرُهُمْ عِـنْدَ رَبِّـهِمْ وَ لا خَـوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٤﴾

◁ اللّغة

سِرًّا: الإسرار خلاف الإعلان و السِّر هو الحديث المكتم في النّفس.

وَ لا خَوْفٌ: الخَوف مصدر و هو توّقع مكروهٍ عن إمارة مظنُونة أو معلومة و ضدّه الأمن و امّا الخوف من اللّه تعالى يراد به الكَّف عن المعاصي و اختيار الطّاعات و لذلك قيل لا يعدّ خائفاً من لم يكن للذّنوب تاركاً.

◁ الإعراب

ٱلَّذِينَ يُنْفِقُونَ الموصول وصلته مبتدأ و قوله: فَلَهُمْ أَجْـرُهُمْ جـملة فـي موضع الخبر بِاللَّيْلِ ظرف و الباء فيه بمعنىٰ، في سِرًّا وَ عَلانِيَةً مصدران في موضع الحال.

◁ التّفسير

في الآية تحريضٌ علىٰ الإنفاق حيث أنّه لا يضيع ولا يغفل عنه سواء وقع سرّاً أو جهراً ليلاً أو نهاراً و لذلك قال تعالىٰ **فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ** دخلت **الفاء** للدّلالة على ترتّب عدم الخوف على دوام الإنفاق في هـذه الأوقـات والأحوال ولعلّ الفرض إيقاع التصدّق ليلاً سِرّاً و عَلانية، ونهاراً كذلك ويمكن أن يكون الفرض إيجادهما مطلقاً قال القُرطبي روي عن ابن عبّاس و أبى ذرّ و أبى إمامة و أبى عبد اللّه بن بشر الغافقي و الأوزعي أنّها نزلت في عكف الخيل المربوطة في سبيل اللّه ثمّ قال وذكر ابن سعد في الطّبقات بأسناده عن رسول اللّه صلى الله عليه وآله أنّه قال.

ٱلَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَ ٱلنَّهارِ هم أصحاب الخيل، وبهذا الأسناد قال رسول اللّه صلى الله عليه وآله المنفق على الخيل كباسط يده بالصدّقة لا يقبضها و أبوابها أوراثها عند اللّه يوم القيامة كذكى المسك و روي عن ابن عبّاس أنّه قال نزّلت في علّي بن أبي طالب كانت معه أربعة دراهم فتصدّق بدرهم ليلاً و بدرهم نهاراً و بدرهم سِرّاً وبدرهمٍ جهرا ذكره عبد الرّزاق قال أخبرنا عبد الوّهاب بن مجاهد عن أبيه عن ابن عبّاس.

ابن جريح نزّلت في رجلٍ فَعل ذلك و لم يسّم علّياً و لا غيره و قال قتادة نزّلت في المنفقين من غير تبذيرٍ و لا تقتيرٍ انتهى كلام القرطبي و نقل الطَّبري عن شيخ من غافق أنّ أبا الدّرداء كان ينظر الىٰ الخيل مربوطة بين البراذين و الهجن فيقول أهل هذه يعني الخيل من **ٱلَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوالَهُمْ بِـاللَّيْلِ وَ ٱلنَّهارِ** الىٰ قوله **وَ لا هُمْ يَحْزَنُونَ**.

ثمّ نقل عن قتادة حديثاً أخر و نسبه الىٰ رسول اللّه صلى الله عليه وآله ولو نسبه الى الجنّ كان أصوب لأنّ الحديث لا يفهمه إلاّ الجنّ و رسول اللّه أجلّ شأناً و أفصح بياناً من هذه الكلمات التّي لا يعلم تفسيرها إلاّ الطّبري أليس لقائلٍ أن يقول للطّبري، و من أبو الدّرداء الّذي كان ينظر الىٰ الخيل مربوطة بين البر اذين و يقول أهل هذه من **ٱلَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوالَهُمْ** وهل يرضىٰ المُسلم أن يُفسركلام اللّه هكذا أليس هذا من التفسّير بالرّأي و قد **قال رسول اللّه** صلى الله عليه وآله **من فَسّر القرأن برأيه فليتّبوء مقعده من النّار صدق رسول اللّه.**

و زاد السّيوطي في الدّر المنثور نغمةً أخرى فأنّه بعد نقله ما نقله الطّبري عن أبي الدّرداء نَقل عن أبي الباهلي أنّه قال من إرتبط فرساً في سبيل اللّه لا يرتبطه رياءً و لا سمعة كان من **ٱلَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَ ٱلنَّهارِ سِرًّا وَ عَلانِيَةً** قال هم الّذين يعلفون الخيل في سبيل اللّه و عن البخاري عن أبي كبشة عن النّبي صلى الله عليه وآله قال الخيل معقود في نواحيها الخير و أهلها معانون عليها والمنفق عليها كالباسط يده بالصدّقة انتهىٰ.

أقول هنيئاً لأرباب الخيول فأنّهم لإنفاقهم عليها كالباسط يده بالصدّقة فهم يتصدّقون ليلاً و نهاراً و سرّاً و علانية و ذلك لأنّ الإنفاق عليها إمّا يكون باللّيل و امّا بالنّهار و أمّا سرّاً و امّا جهراً وهذا هو المراد من الآية على مذهب الطّبري و السّيوطي و أمثالهما فاعتبروا يا أُولي الأبصار فأنّ هذا معنىٰ قولهم حسبنا كتاب اللّه أنّ الرّجل ليهجر ثمّ هذا معنىٰ الأخذ بالسنّة ولنعم ما قال ابن عبّاس حيث قال الرّزية كلّ الرّزية من يوم الأثنين و ما تدري ما يوم الأثنين الحديث.

في تفسير العيّاشي عن أبي إسحاق قال :كان لعلّي بن أبي طـالب أربعة دراهم لم يملك غيرها فتصدّق بدرهمٍ ليلاً وبدرهمٍ نـهاراً و بدرهمٍ سِرّاً و بدرهمٍ علانية فبلغ ذلك النّبي صلى الله عليه وآله فقال يـاعلّي مـا حملك على ما صنعت قال إنجاز موعود اللّـه فأنـزل اللّـه:ٱلَّـذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَ ٱلنَّهَارِ سِرًّا وَ عَلاٰنِيَةً الىٰ أخرانتهىٰ.

روى صاحب غاية المرام عن ابن بابويه بأسـناده عـن عـلّي بـن موسى الرّضا عن أبيه عن أباءه عن أمير المؤمنين عليه السلام قال: قال رسول اللّه صلى الله عليه وآله وذكر عدّة أحاديث ثمّ قال الذّين يُنفقون أموالهم باللّيل والنّهار الآية في علّي عليه السلام.

الشّيخ المُفيد في الإختصاص بأسناده قال: قال رسول اللّـه صلى الله عليه وآله ياعلّي عَملت في ليلتك قال ولم يارسول اللّه قال نزلت فيك أربـعة معاني قال بأبي أنت و أُمّي كانت مـعي أربـعة دراهـم فـتصدّقتُ بدرهمٍ ليلاً وبدرهمٍ نهاراً و بدرهمٍ سِرّاً وبدرهم علانية قال فأنّ اللّه أنزل فيك ٱلَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَ ٱلنَّهَارِ الىٰ أخروبه قال الطّبرسي رحمه الله في مَجمع البيان هو المرّوي عن أبي جعفر عليه السلام وأبي عبد اللّه.

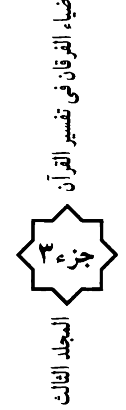
والأحاديث من طُرقنا كثيرة بل و عليه إجماع الشّيعة فيما نعلم وبه قال أكثر علماء العامّة أيضاً ورَووا فيه أخباراً كثيرة.

ما رواه أبو المُؤيّد موّفق بن أحمد من أكابر العامّة بأسناده عن عبد الوّهاب بن مجاهد عن أبيه قال: كان لعلّي عليه السلام أربعة دراهم فأنفقها واحداً ليلاً وواحداً نهاراً و واحداً سرّاً و واحداً علانيةً فنزل قوله تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَ ٱلنَّهارِ سِرًّا وَ عَلانِيَةً﴾ الىٰ أخر الآية.

ما رواه الثّعلبي في تفسيره قال و روى مجاهد عن ابن عبّاس قال كان عند علّي بن أبي طالب أربعة دراهم لا يملك سواها فتصدّق بدرهمٍ سرّاً و بدرهمٍ علانية و درهمٍ ليلاً و درهمٍ نهاراً فنزّلت هذه الأية.

ما رواه إبراهيم بن محمّد الحمويني من أعيان علماء العامّة بأسناده عن ابن عبّاس قال: في قوله تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَ ٱلنَّهارِ سِرًّا وَ عَلانِيَةً﴾ قال: نزلت في علّي بن أبي طالب كانت مَعه أربعة دراهم فأنفق باللّيل درهماً وبالنّهار درهماً و فى السرّ درهماً و بالعلانية درهماً انتهىٰ.

مارواه المالكي في فصول المهّمة قال: نقل الواحدي في تفسيره بسنده الىٰ ابن عبّاس قال كان مع علّي بن أبي طالب أربعة دراهم لا يملك غيرها فتّصدق بدرهمٍ سّراً و بدرهم علانية فأنزل اللّه سبحانه فيه ﴿ٱلَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَ ٱلنَّهارِ سِرًّا وَ عَلانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.



ماروواه ابن شهر آشوب من طرق العامّة و غيرهم عن ابن عبّاس و السّدي و مجاهد و الكلبي و أبي صالح و الواحدي و الطّوسي و الثّعلبي و الطّبرسي و الماوردي و القشيري و الثّمالي و النّقاش و الفتال و عبد اللّه بن الحسين و علّي بن حرب الطّائي في تفاسيرهم

أنّه كان عند علّي بن أبي طالب أربعة دراهم من الفّضة فتصدّق بواحدٍ ليلاً و بواحدٍ نهاراً و بواحدٍ سرّاً و بواحدٍ علانية فنزل: ٱلَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَ ٱلنَّهارِ فسمّي كلّ درهمٍ مالاً و بشّره بالقبول رواه النّطنزي في الخصائص انتهىٰ و الأخبار من طرقهم أيضاً كثيرة و فيما ذكرناه كفاية والذّي يفهم من مجموع الأخبار من الطّرفين هو أنّه لا يبقى شكّ لأحدٍ من ذوي الإنصاف أنّ شأن نزول الآية ما ذكرناه والأخبار نقلناها من كتاب غاية المرام[١].

و في كتاب ينابيع المودة للشّيخ سليمان الحنفي البلخي و هو من أعاظم أهل السُنّة قال - موّفق بن أحمد والحَمويني والثّعلبي و المالكي وأبو نعيم الحافظ بسندهم عن مجاهد عن ابن عبّاس أنّه قال كان عند علّي أربعة دراهم فتصدّق بواحدٍ ليلاً وبواحدٍ نهاراً وبواحدٍ سرّاً و بواحدٍ علانية فَنَزل: ٱلَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَ ٱلنَّهارِ سِرًّا وَ عَلانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لا هُمْ يَحْزَنُونَ.

و أيضاً جمع الفوائد في تفسير سورة البقرة عن ابن عبّاس قال: قوله تعالىٰ: ٱلَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَ ٱلنَّهارِ سِرًّا وَ عَلانِيَةً نزلت في علّي كانت عنده أربعة دراهم فأنفق باللّيل واحداً و بالنّهار واحداً و فى السِّر واحداً و فى العلانية واحداً انتهىٰ[٢].

و الأخبار من طرق العامّة أيضاً كثيرة والحمد للّه ربّ العالمين.

■

١- كتاب غاية المرام ص ٣٤٧. ٢-ص ٨٠.

ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبٰوا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِي يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَانُ مِنَ ٱلْمَسِّ ذٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓا إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبٰوا وَ أَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَ حَرَّمَ ٱلرِّبٰوا فَمَنْ جَآءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَٱنْتَهٰى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَ أَمْرُهُ إِلَى ٱللَّهِ وَ مَنْ عَادَ فَأُولٰٓئِكَ أَصْحَابُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٧٥﴾ يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبٰوا وَ يُرْبِي ٱلصَّدَقَاتِ وَ ٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ وَ أَقَامُوا ٱلصَّلٰوةَ وَ آتَوُا ٱلزَّكٰوةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٧﴾ يَآ أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا ٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَ ذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبٰوٓا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ ٱللَّهِ وَ رَسُولِهِ وَ إِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾

◁ اللّغة

ٱلرِّبٰوا: رَبا يَربُو رباءً و رَبوّاً، زاد و انما قاله في المُنجد و قال الرّاغب و ربا فلان حصل في ربوه و سُمّيت الرّبوة رابية كأنّها ربت بنفسها في مكانٍ ومنه، ربا اذا زاد و علا الىٰ أن قال والرّباء الزّيادة على رأس المال لكن خُصّ في الشّرع بالزّيادة علىٰ وجهٍ دون وجهٍ.

يَتَخَبَّطُهُ: الخَبط بفتح الخاء و سكون الباء الضرب على غير إستواء كخبط

البعير الأرض بيده و الرَّجل الشّجر بعصاه و أستعير لعَسف السّلطان فقيل سلطان خبوط، و إختباط المعروف طلبه بعسفٍ تشبيهاً بخبط الورق فقوله تعالىٰ: يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ يصّح أن يكون من خَبط الشّجر وأن يكون من الإختباط الّذي هو طلب المعروف.

مِنَ ٱلْمَسِّ: المَّس بفتح الميم وتشديد السّين مصدر مِن، مَسّ يَمُّس، مَسّاً و هو يقال فيما يكون معه إدراك بحاسّة اللّمس.

ٱلْبَيْعُ: مصدر يقال بَاع بيعاً و هو إعطاء المثّمن و أخذ الثَّمن.

سَلَفَ: أي مضى.

يَمْحَقُ: بفتح الياء مضارع و ماضيه فحق مثل ضَرب و المحق النّقصان و منه المحاق لأخر الشّهر يقال محَقه اذا نقَّصه و أذهب بركته.

يُرْبِي: بضمّ الياء مِن أَرَبَىٰ يُربي و الثّلاثي فيه، رَبا يَربُو بمعنى زاد و قد تقدم.

كَفَّارٍ أَثِيمٍ: الكفّار بفتح الكاف على فعّال، للمبالغة يقال رجل كفّار أي جاحد لنعم اللّه.

أَثِيمٍ: بفتح الألف بمعنى الآثم و هو المذنب يقال، أَثِمَ إثماً و أثاماً فهو آثم و أثيم و قال الرّاغب، الأِثم و الأثام إسم للأفعال المبطئة عن الثّواب و جمعه آثام.

ذَرُوا: فعل أمرٍ من، وَذَر و المضارع منه، يَذَر بفتح الياء و الذّال و معناه قال الرّاغب يقال فلان يذر الشّئ، أي يقذفه لقلّة إعتداده به و لم يستعمل ماضيه و قال في المنجد، وذَره، يَذره، أي تركه و لا يستعمل منه بهذا المعنى سوى المضارع و الأمر فتقول، ذَره، ويَذَره، أي دعه و أتركه، و يدعه، يتركه فاذا أريد الماضي قيل، تَرَك أو المَصدر، قيل التّرك أو إسم الفاعل قيل التّارك.

فَأْذَنُوا: أمرٌ من أَذِن، أو أَذَن، فعلى الأوّل معناه، أيقنُوا بحربٍ من اللّه. و على الثّاني، فأعلموا غيركم لأنّه من الإعلام.

وَإِنْ تُبْتُمْ: من تاب يَتُوب بمعنى رجع.

رُءُوسُ: بضمّ الرّاء جمع رأس.

◁ الإعراب

ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ ٱلرِّبَوٰا مبتدأ لَا يَقُومُونَ خبره و الكاف في موضع نصب وصفاً لمصدر محذوف تقديره، إلاّ قيام الذّي يتخبطه، و لام الرّبا واو لأنّه من ربا يربو مِنَ ٱلۡمَسِّ يتعلّق بتخبطه أي من جهة الخبوط فيكون في موضع نصب ذلك مبتدأ بِأَنَّهُمۡ قَالُوٓا الخبر أي مستحقّ بقولهم: جَآءَهُۥ مَوۡعِظَةٌ أنّما لم تثبت التّاء في الفعل لأنّ تأنيث الموعظة غير حقيقي فالموعظة و الوعظ بمعنى لَا تَظۡلِمُونَ وَلَا تُظۡلَمُونَ بتسمية الفاعل في الأوّل وتركها في الثّاني وإعراب الباقي واضح.

◁ التّفسير

هذه الأيات تضّمنت أحكام الرّبا وجواز عقود المبايعات والوعيد لمتن إستّحل الرّبا و أصرّ على فعله و نحن نشرح و نفسّر أوّلاً ألفاظ الأيات ثمّ نقول فيها ما يُناسب المقام من الأحكام وغيرها فنقول.

ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ ٱلرِّبَوٰا أي يأخذون الرّبا فعبّر عن الأخذ بالأكل لأنّ الأخذ للأكل فهو من تسمّية السّبب بالمُسّبب **لَا يَقُومُونَ** قيل من قبورهم **إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِي يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مِنَ ٱلۡمَسِّ** قيل في معناه جعل اللّه هذه العلامة لأكلة الرّبا و ذلك أنّه أرباه في بطُونهم فأثقلهم فهُم اذا خرجوا من قبُورهم يقومون و يسقطون و قيل أنّهم يُبعثون يوم القيامة قد إنتفخت بطونهم كالحبالى و كلّما قاموا سقطوا و النّاس يمشون عليهم، و قيل أنّما ذلك شعار لهم يعرفون به يوم القيامة ثمّ العذاب من وراء ذلك كما أنّ الغّال يجئ بما غلّ يوم القيامة بشهرةٍ يشهر بها ثمّ العذاب من وراء ذلك.

أقول قد مرّ الكلام منّا في شرح اللّغات في معنىٰ التّخبُّط وأنّ معناه الضّرب على غير استواءٍ و لذلك يقال للرّجل الّذي يتصرّف في أمرٍ و لا يهتدي فيه أنّه

يخبط عشواء و خبط البعير للأرض بأخفافه و تخبّطه الشّيطان اذا مسَّه بخبلٍ أو جنونٍ لأنّه كالضّرب على غير إستواءٍ في الإدهاش و تسمّىٰ إصابة الشّيطان بالجنُون و الخبط، خبطة و يقال به خبطةٌ من جنون والمسّ الجنون يقال مسّ الرّجل فهو ممسوس و به مَسٌّ و أصله من المسّ باليد كأنّ الشّيطان يمسّ الإنسان فيجنّه ثمّ سُمّي الجنون مسّاً كما أنّ الشّيطان يتخبّطه ويطأه برجله فيخبله فسُمّي الجنون خبطة، فالتَّخبُط بالرّجل، والمَسّ باليد هكذا قرّره بعض المحققين و عليه فالمعنىٰ لا يقومون من قبورهم إلاّ كما يقوم الّذي وَطئه الشّيطان برجله و مسّه بيده أي أنّه جنّه و خبّله.

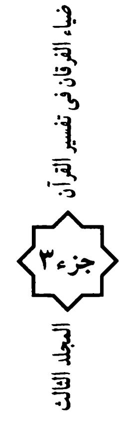
ذٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓا إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبٰوا أي أنّهم قالوا بِعَدم الفَرق بين البيع و الرّبا و ذلك لأنّ الزّيادة عند حلول الأجل كمثل أصل الثّمن في أوّل العقد قالوا أنّ العرب كانت لا تعرف رباً إلاّ ذلك فكانت إذا حلّ دينها قالت للغريم، إمّا أن تقضي و امّا أن تُربي، أي تَزيد في الدَّين فحّرم اللّه سبحانه ذلك ورّد عليهم بقوله:

وَ أَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَ حَرَّمَ ٱلرِّبٰوا و أوضح أنّ الأجل إذا حلّ و لم يكن عنده ما يؤّدي النَّظر الىٰ الميسرة و الألف و اللاّم لِلجنس لا للعهد و لا يمكن أن يكون للإستغراق و المآل واحد أي أحلّ اللّه جنس البيع وحرّم جنس الرِّبا أو أحلّ كلّ مصاديق البيع و حرّم كلّ مصاديق الرّبا قالوا وهذا الرّبا هو الّذي نسخه النّبي ﷺ يوم عرفة لمّا قال، ألا أنّ كلّ رباً موضوع و أنّ أوّل ربا أضعه ربانا ربا عبّاس بن عبد المطّلب فأنّه موضوع كلّه فبدأ ﷺ بعمّه و أخصّ النّاس به، ثمّ أنّ قوله تعالىٰ: **وَ أَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ** من عموم القرآن و هو أي كونه عامّاً ممّا لا كلام فيه ثمّ أنّ هذا العّام مُخصّص بالرّبا و لذلك قال وحرّم الرّبا و كذلك فخصّص بغير ذلك ممّا نهي عنه ومنع العقد عليه كبيع الخمر والميتّة و لحم

الخنزير و امثال ذلك ممّا هو ثابت في السّنة وإنعقد الإجماع على نهيه و قيل هو من مجمل القرآن الّذي فسّر بالمحلّل من البيع و بالمحرّم فلا يمكن أن يستعمل في احلال البيع و تحريمه إلاّ أن يقترن به بيان من سنته الرّسول و أن دَّل على اباحة البَيع في الجملة دون التفصّيل وهذا هو الفرق بين العموم و المجمل فأنّ العموم يدّل علىٰ إباحة البيوع في الجملة و التّفصيل ما لم يخصّ بدليلٍ و المجمل لا يدّل علىٰ اباحتها تفصيلاً حتّى يقترن به بيان قاله القُرطبي في تفسيره ثمّ قال و الأوّل أصّح انتهىٰ.

فَمَنْ جَاۤءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ أي فَمن جاءه زَجر و نهى و تذكير من ربّه **فَانْتَهىٰ** أي فأنزجر و تذكّر و اعتبر **فَلَهُ مٰا سَلَفَ** أي فَله ما أخذ و أكل من الرّبا قبل النّهي و لا يلزمه ردّه.

لقول الباقر عليه السلام من أدرك الإسلام وتاب ممّا كان عمله في الجاهليّة وضع اللّه عنه ما سلف، و قال: السّدي معناه، لَه ما أَكَل وليس عليه ردّ ما سلف فأمّا ما لم يقبض بعد فلا يجوز له أخذه و له رأس المال وَ أَمْرُهُ إِلَى ٱللّٰهِ أي أمره بعد مجيئ الموعظة والتّحريم والإنتهاء الىٰ اللّه إن شاء عصمه عن أكله و ثبتّه في إنتهاءه عنه و ان شاء خذله و قيل معناه، وأمرَه في الأخرة الىٰ اللّه إن لَم يتب و هو غير مستحّلٍ له إن شاء عذّبه بعدله و إن شاء عفى عنه بفضله ، و قيل معناه فلا يؤاخذه بما سَلف من الرّبا (و من عادَ) أي عاد الى أكل الرّبا بعد التّحريم و قيلٍ ما كان بقوله قبل مجيئ الموعظة من أنّ البيع مثل الرّبا فَأُولٰئِكَ أَصْحٰابُ ٱلنّٰارِ هُمْ فِيهٰا خٰالِدُونَ لأنّ ذلك لا يصدر إلاّ من كافرٍ مستّحلٍ للرّبا فلهذا توّعد بعذاب الأبد يَمْحَقُ ٱللّٰهُ ٱلرِّبٰوا وَ يُرْبِي ٱلصَّدَقٰاتِ المحق نقصان الشئ حالاً بعد حالٍ أي أنّ اللّه تعالىٰ ينقص الرّبا حالاً بعد حالٍ و يربي أي يزيد الصدّقات



وينموها بما يثمر المال في نفسه وبالأجر عليه و ذلك بحسب الإنتفاع بها وحسن النّية فيها و وجه زيادته علىٰ المستّحق بالعمل تفضّلٌ منه بالوعد به.

و قد روي عن النّبي ﷺ أنّه قال: أنّ اللّه يقبل الصدّقة و لا يقبل منها إلاّ الطّيب و يربيها لصاحبها كما يربي أحدكم مهره أو فصيله حتّىٰ أنّ اللّقمة لتصير مثل أحد

و ذلك قوله: **يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبٰوا وَ يُرْبِى ٱلصَّدَقٰاتِ وَ ٱللَّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ** قيل أنّما لم يقُل كلّ كافرٍ مع دخول الكفّار في الكافر لأنّ كلّ كفّارٍ كافر و ليس كلّ كافرٍ كفّار، للدّلالة على أنّ مستحلّ الرّبا في قوله: أنّما البيع مثل الرّبا، مع أنّه كافر كفار أيضاً و يجوز أن يكون الوجه للدّلالة على صفات الذّم إذ قد يتوهّم أنّ الكفّار من استكثر من كفر نعمة إنسان لا يبلغ به إستحقاق العقاب و يجوز أن يكون من باب الإختصاص بعظم المنزلة في الأمر الّذي تعلّق به الذّكر و الأثيم، هو المتمادي في الإثم والأثِم الفاعل لِلإثم وأنّما قال تعالىٰ لا يحبّ، ولم يقل لا يبغض، لأنّه إذا لم يحبّ المكلّف فهو يبغضه فقولك لا يحبّه اللّه من صفات الذّم كما أنّ قولك لم ينصف في المعاملة من صفات الذّم إذا عرفت هذا فلابدّ لنا من ذكر أمور ينبغي التّنبيه عليها توضيحاً.

للبحث الأمر الأوّل: في تعريف البيع والرّبا والفرق بينهما فنقول:

البيع في اللّغة مصدر باع بَيعاً كذا بكذا أي دفع عوضاً و أخذ معوّضاً و قيل هو مبادلة مالٍ بمالٍ و قال في المفردات البَيع إعطاء المثمن وأخذ الثَمن كما أنّ الشّراء إعطاء الثَّمن وأخذ المثمن ويقال للبيع الشّراء و للشّراء البيع بحسب ما يتصوّر من الثَّمن و المثّمن و علىٰ ذلك قوله تعالىٰ: **وَ شَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ**[1].

١- يوسف = ٢٠

و قال عليه‌السلام لا يبعينَّ أحدكم علىٰ بَيع أخيه، أي لا يشتري علىٰ شراه و أبعتُ الشيْ عرضتّهُ للبَيع انتهىٰ.

و علىٰ هذا فأركان البيع أربعة، البائع، و المُبتاع و الثَّمن و المُثمن، فالبائع هو المالك أو من ينزّل منزلته، و المبتاع هو الّذي يبذل الثّمن، والمبيع هو المثمُون و هو الّذي يبذل في مقابلته الثّمن، ثمّ أنّ المعاوضة تختلف بحسب إختلاف ما يضاف اليه، فأن كان أحد المعوّضين في مقابلة الرّقبة سمّي بيعاً و أن كان في مقابلة منفعة فأن كانت منفعة بضع سُمّي نكاحاً و أن كانت منفعة غيرها سُمّي اجارة، و أن كان عنياً بعينٍ فهو بيع النّقد و هو الصّرف و أن كان بدينٍ مؤجّلٍ، فهو السَّلم و تفصيل هذه الأقسام في كتب الفقه.

الأمر الثّاني: البيع قبول و إيجاب بمعنىٰ أنّه لا يتّحقق إلاّ بهما ثمّ أنّ الإيجاب يقع باللّفظ الماضي كقولك بعتُ هذا بهذا وهذا ممّا إتّفقوا علىٰ وقوعه بهإذا كان الإيجاب بلفظ المستقبل كقولك أنا أبيعك بعشرة فقال المشتري أنا أشتري أو قد إشتريتُ فقيل أنّه يقع به أيضاً لأنّ الماضي فيه حقيقة و المستقبل كناية المفهوم منها نقل الملك: و لابدّ من البائع أن يكون مكلّفاً أي بالغاً، عاقلاً، قاصداً، مُختاراً فلا يجوز بيع الصّبي و المجنون و النّائم أو الهازل أو اللاّعب، و المكره على ما ذكروه مفصّلاً في محلّه.

الأمر الثّالث: في الرّبا و هو بكسر الباء بمعنىٰ الزّيادة كما مرّ في شرح اللّغات.

و أمّا في الشّرع فهو بيع المثل بالمثل مع الزّيادة العيّنية كدرهم بدرهمين، أو الحكمية كبيع درهم بدرهم الىٰ مدّةٍ معيّنة و يدخل فيه ربا النّسيئة الّذي كان متعارفاً في الجاهليّة و هو أن يدفع المال الىٰ مدّةٍ على أن يأخذ كلّ شهرٍ قدراً معيّناً ثمّ إذا حلَّ الدّين و طلب المديون برأس المال فأن تعذر عليه الإداء زاد في الحقّ و الأجل، و يثبت الرّبا في كلّ قليلٍ وموزُونٍ مع اتّحاد الثّمن والمُثمن

جنساً قال المحقّق في الشّرائع يثبت الرّبا في البيع لكن مع وصفين.

أحدهما: في الجنّسية. **الثانی**: بالكيل والوزن وكذا ثبوته في القرض.

أقول و عليه فالرّبا يتحقّق في موردين.

أحدهما: في المكيل. **الثّانی**: في القرض و هو الّذي قد يعبّر عنه بربا النّسيئة فالثّاني أعمّ من الأوّل موضوعاً إذ يثبت في غيرهما أيضاً.

أمّا القسم الأوّل: أعني به الإتّحاد في الجنس فقال ﵀ كلّ شيئين مثلاً يتناولهما لفظٌ خاصّ كالحنطة مثلاً بمثلها و الارز بمثله فيجوز بيع المتّجانس بمثله وزناً بوزن نقداً و لا يجوز مع الزّيادة الىٰ أن قال ولو إختلف الجنسان جاز التّماثل والتّفاضل نقداً وا لحنطة و الشّعير جنس واحد في حُكم الرّبا وكذا ثمرة النّخل و الكرم انتهى.

هذا إذا كان الجنس واحداً و مع ذلك كان هو ممّا يكال أو يوزن، فلو إنتفىٰ الوصفان أو أحدهما لم يتحقّق الرّبا، أمّا إختلاف الجنس فكالحنطة والتَّمر أو ثمر الكرم و أمثالهما فلو باع أحدهما بالأخر نقداً مع الزّيادة فلا ربا هناك.

و أمّا الثّاني فكما اذا باع ما لا كيل فيه ولا وزن، متفاضلاً مثل بيع ثوبٍ بثوبين والبيضة بالبيضتين فهو ممّا لا إشكال فيه اذا كان نقداً.

والقسم الثّانی: و هو الرّبا في النّسيئة مثل أن يبيع جنساً بجنسه مع الزّيادة مؤجّلاً كدرهم بدرهمين ومحصّل الكلام هو أنّه مع إتحاد الجنسين وكونهما من المكيل و الموزون لا يكون بيع أحدهما بالأخر مع الزّيادة لا نقداً و لا نسيئةً و أمّا اذا لم يكونا من جنسٍ واحد أوكانا و لم يكونا من المكيل و الموزون فلا إشكال فيه فالملاك في تحقّق الرّبا هو وجود الوصفين معاً و لا يكفي وجود أحدهما فقط، فلا ربا في المعدود مطلقاً ولا في المكيل والموزون من جنسين مختلفين ولا في جنسٍ واحد اذا لم يكن ممّا يُكال أو يُوزن كالثّوب بالثّوبين مثلاً، نعم يستثنى من ذلك أمور:

أحدها: إتّفقوا على أنّه لا ربا بين الوالد و ولده بمعنى إرتفاع حكم الحُرمة بينهما فيجوز لكلّ واحد منهما أخذ الفضل والمراد بالأب والولد، النّسبي فلا يتعدّى الحكم الىٰ الأمّ والجدّ ولو كان للأب ولا الىٰ ولد الرّضاع إقتصاراً بالرّخصة علىٰ مورد اليقين وإحتمل بعض الفقهاء جواز الرّبا في الأخيرين لإطلاق إسم الولَد عليهما شرعاً و امّا الأُمّ فلا كلام لأحدٍ في خروجها عن البحث و أنّ الرّبا يجري في حقّها مع ولدها.

ثانيها: بين الزّوج والزّوجة دواماً بلا خلاف فيه و متعةً على الأظهر.

ثالثها: بين المسلم و الحربي اذا أخذ المُسلم الفضل و إلاّ ثبت و امّا بين المُسلم والذّمي فيثبت الرّبا و قيل لا يثبت فيه للرّواية المخصّصة له هذا اذا أخذ المسلم الفضل و امّا إعطاءه إيّاه فحرامٌ قطعاً كالحربي و امّا تفصيل الكلام في الرّبا و أقسامه فهو خارج عن وظيفة الكتاب وموضعه الكتب الفقهّية.

الأمر الرّابع: في علّة تحريم الرّبا و قد ذكروا فيها وجوهاً.

أحدها: ما أشار اليه في الجواهر حيث قال و أنّما حرّمه اللّه لئّلا يترك النّاس فعل المعروف من القَرض و غيره بل لئّلا تركوا التّجارة أيضاً بل هو في نحو شراء الدّرهم بدرهمين من السفّه المفسد للمال كما أومى اليه الرّضا عليه السلام في جواب السؤال عن علّة تحريمه.

قال عليه السلام: لما فيه من فساد الأموال لأنّ الإنسان إذا إشترىٰ الدّراهم بالدّرهمين كان ثَمن الدّرهم دِرهماً و ثَمن الآخر باطلاً فبيع الرّبا و شراؤه وكس على كلّ حالٍ علىٰ المشتري والبائع فحرّم اللّـه عزّ وجلّ على العباد الرّبا لعلّة فساد الأموال كما حصر على السفيه أن يدفع اليه ماله لما يتخوّف عليه من فساده حتّىٰ يؤنس فيه رشد فلهذه العلّة حرّم اللّه الرّبا انتهىٰ.

أقول والىٰ ما ذكره أشار إبن بابويه في الفقيه **بأسناده عن إبن سنان**

عن الرّضا عليه السلام قال: علّة تحريم الرّبا بالنّسيئة لعلّه ذهاب المعروف و تلف الأموال ورغبة النّاس في الرّبح وتركهم للقرض والقرض من صنائع المعروف ولما في ذلك من الفساد والظّلم وفناء الأموال انتهىٰ.

ثانيها: ما ذكره بعضهم و هو أنّه من أكل المال بالباطل و قد قال اللّه تعالىٰ: **وَ لا تَأْكُلُوا أَمْوالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْباطِلِ**[1] و قرّروه بأنّ المُربي أخَذ من صاحبه شيئاً بغير عوض و هو الزّيادة و لا نعني من أَكل المال بالباطل إلاّ هذا.

ثالثها: أنّ الرّبا يوجب تعطيل الصّناعات و التّجارات و الزّراعات و أمثالها لأنّ المربى لا يحتاج الى الكسب و الحرفة و الزّراعة و أمثالها لإحتمال الضّرر فيها أحياناً و امّا المُرابحة فليست كذلك و غير ذلك من الوُجوه الّتي ليست بعللٍ حقيقته وأنّما هي إستظهارات مَحضة وأظّن بل أعلم أنّ الفلسفة الواقعية في تحريمه مجهولة لنا وكم من نظير من هذه الجهة في الأحكام ولا سيّما التعبُدّيات منها.

الأمر الخامس: في الإشارة الىٰ بعض الأخبار الواردة في حرمته و ذمّه أعاذنا اللّه منه.

ما رواه العَياشي في تفسيره عن شهاب بن عبد ربه قال: سمعتُ أبا عبد اللّه عليه السلام يقول آكل الرِّبا لا يخرج من الدّنيا حتّىٰ يتخبّطه الشّيطان انتهىٰ.

ما رواه علّي بن إبراهيم بأسناده عن هشام عن أبي عبد اللّه عليه السلام قال: قال رسول اللّه صلى الله عليه وآله لما أُسري بي الىٰ السّماء رأيتُ قوماً يريد أحدهم أن يقوم فلا يقدر أن يقوم من عظم بطنه فقلتُ من هؤلاء يا جبرائيل فقال هؤلاء الّذين يأكلون الرّبا لا يقومون إلاّ كما يقوم الّذي يتّخبطه الشّيطان من المسّ انتهىٰ.



١- البقرة= ١٨٧

ما رواه في الوسائل بأسناده عن هشام بن سالم عن أبي عبداللّه عليه السلام قال عليه السلام: درهم رباً عند اللّه أشدّ من سبعين زنيةٍ كلّها بذات محرم.

ما رواه بأسناده عن أبي جعفر عليه السلام قال عليه السلام: أخث المكاسب كسب الرّبا.

ماروواه أيضاً بأسناده عن أبي عبد اللّه عليه السلام قال عليه السلام: درهم رباً أشدّ عند اللّه من ثلاثين زنيةٍ كلّها بذات محَرَم مثل عمّة و خالة.

ماروواه بأسناده عن سعيد بن يسار قال: قال أبو عبد اللّه عليه السلام درهم واحد ربا أعظم من عشرين زنيةٍ كلّها بذات محَرم.

ماروواه بأسناده عن زرارة عن أبىعبد اللّه قال: قلت له أنّي سمعت اللّه يقول، يمحق اللّه الرّبا ويربي الصدّقات و قد أرىٰ من يأكل الرّبا يربوُا ماله فقال عليه السلام أيّ محقٍ أمحق من درهم رباً يمحق الدّين وأن تاب منه ذهب ماله وافتقر.

ما رواه بأسناده عن جعفر بن محمّد عن آبائه عن النّبي صلى الله عليه وآله في وصيّته لعلّيٍ قال: يا علّي الرّبا سبعون جزءٍ فأيسرها مثل أن ينكح الرّجل أمّه في بيت اللّه الحرام يا علّي درهم رباً أعظم عند اللّه من سبعين زنيةٍ كلّها بذات محرم في بيت اللّه الحرامانتهىٰ.

و قال رسول اللّه صلى الله عليه وآله: شرّ المكاسب كسب الرّبا.

ما رواه عن النّبي صلى الله عليه وآله في حديث قال: و من أكل الرّبا ملاء اللّه بطنه من نار جهنّم بقدر ما أكل و أن اكتسب منه مالاً لم يقبل اللّـه منه شيئاً من عمله ولم يزل في لعنة اللّه و الملائكه ما كان عنده قيراط واحد انتهىٰ.

أقول والأحاديث كثيرة جدّاً و امّا من طُرق العّامة.

ما رواه السّيوطي في الدّر المنثور بأسناده عن إبن عبّاس أنّه قال: آكل الرّبا يُبعث يوم القيامة مجنوناً يخنق انتهىٰ.

ما رواه بأسناده عن أنس قال: خطبنا رسول اللّه صلى الله عليه وآله فذكر الرّبا و عظّم شأنه فقال أنّ الرّجل يصيب درهماً من الرّبا أعظم عند اللّه في الخطيئة من ستّ وثلاثين زنيةٍ يزنيها الرّجل و أنّ أربى الرّجل عرض الرّجل المسلم.

ما رواه بأسناده عن إبن عبّاس عن النّبي صلى الله عليه وآله قال: درهم رباً أشّد على اللّه من ستّة و ثلاثين زنيةٍ و قال من نبت لحمه من السُّحت فالنّار أولى به.

و قد ذكر كثيراً من الأحاديث بهذه المضامين و مثله الطّبري في تفسيره و امّا:

إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَ عَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ وَ أَقَامُوا ٱلصَّلَوٰةَ وَ ءَاتَوُا ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لَا هُمْ يَحْزَنُونَ.

فقد تقدّم الكلام فيه فأنّ المؤمن إذا عمل عملاً صالحاً و أقام الصّلاة و أتى الزّكاة فقد تمّت عبُودّيته و عَمل بَوظيفته ومن كان كذلك فلا خوف عليه إذ الخوف في الحقيقة انّما هو من الذّنب فمن لا ذنب له لا خوف و هو ظاهر.



يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَ ذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ.

قيل أنّ الآية نزّلت بسبب ثقيف و ذلك لأنّهم كانوا عاهدوا النّبي صلى الله عليه وآله علىٰ أنّ مالهم من الرّبا علىٰ النّاس فهو لهم و ما للنّاس عليهم فهو موضوع منهم فلّما أن جاءت آجال رباهم بعثوا الى مكّة للإقتضاء وكانت الدّيون لبني عبدة و هم بنو عمرو بن عُمير من ثقيف وكانت علىٰ بني المُغيرة المخزوميّين فقال

بنوالمغيرة لا نعطي شيئاً فأنّ الرّبا قد رفع و رفعوا أمرهم الىٰ عاتب بن أسيد فكتب به الى رسول اللّه صلى الله عليه وآله ونَزلت الآية فكتب بها رسول اللّه صلى الله عليه وآله الىٰ عتاب فعلمت بها ثقيف فكفّت و عليه فالمعنىٰ، اجعلوا بينكم و بين عذاب اللّه وقايةً بترككم ما بقى لكم من الرّبا، إن كُنتم مؤمنين باللّه و بِرسوله، و قيل سبب نزولها أنّه لمّا نَزل قوله تعالىٰ: **ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰا** قام خالد بن الوليد الى رسول اللّه صلى الله عليه وآله فقال يا رسول اللّه، ربا أبي في ثقيف، فأوصاني عند موته بأخذه فأنزل اللّه هذه الأية.

فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا أي أن لم تذروا الرّبا أو مابقي منه **فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ ٱللَّهِ وَ رَسُولِهِ** أي فأعلموا أنّكم تحاربون اللّه و رسوله حيث إستحللتم ما نهاكم عنه فيجب قتالكم بقوله عليه السلام مَن أخَذ الرّبا وجب عليه القتل، أو المعنى أنّكم محاربون لِلّه و لرسوله في الأخرة فجزاكم النّار و من فعل ذلك غير مستحلٍ يؤدّب فيقتل في الثّالثة أو الرّابعة فيمكن أن تكون محاربة اللّه و رسوله بهذا النّوع و لعّل في تنكير الحرب إشارةٌ الىٰ ذلك هكذا قيل **وَ إِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ** أي و إن تبتم و عملتم بمقتضى ايمانكم فلكم رؤوس أموالكم و أتركوا الزّيادة لا تظلمون المدنيين بأخذ الزّيادة الّتي بقيت عندهم، و لا تظلمون بإنقاصكم من رؤوس أموالكم شيئاً، فتكون كالتّأكيد والبيان لقوله تعالىٰ: **ٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَ ذَرُوا مَا بَقِيَ** و قيل أنّ المعنىٰ.

إن تبتم بعد أن فعلتم ذلك بعد البيان و العلم بالتّحريم **فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ** و أرجعوا لهم ما أخذتم زائداً علىٰ ذلك، ذكر بعض المفسّرين أنّ المراد من التّوبة هنا في قوله: **وَ إِنْ تُبْتُمْ** الرّجوع عن إعتقاد حلّ الرّبا أي أن رجعتم من هذا الإعتقاد فلكم رؤوس أموالكم، و قال صاحب الكشّاف المراد من الآية التّوبة من العمل أي و أن رجعتم عن عمل الرّبا، فلكم رؤوس أموالكم لا

الزّيادة الّتي شرطتم **لَا تُظْلَمُونَ** بالبناء للفاعل أي حينئذٍ لا تطلمون معامليكم بأخذ الزّيادة والرّبا (ولا تظلمون أنتم بأخذ النّاقص عن رأس مالكم) قال بعض المحققين ولا يخفى أنّ مفهوم الشّرط المُعتبر عند أكثر الأصُوليين يفيد عدم جواز أخذ رأس مالهم أيضاً مع عدم الرّجوع، و هو محّل التّأمل.

و قال البيضاوي و هو سديد علىٰ ما قلناه إذ المصّر علىٰ التّحليل مُرتّد وماله فى و قال في الكشّاف، قالوا و مالهم فئ للمسلمين هذا تمام الكلام في تفسير هذه الأيات الواردة في حُرمة الرّبا والحمد للّه علىٰ كلّ حالٍ.

■



وَ إِنْ كانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلى مَيْسَرَةٍ وَ أَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٨٠﴾

◁ اللغة

ذُو عُسْرَةٍ: ذو بمعنى الصّاحب، و العُسرة بضمّ العين و سكون السّين الضّيق والشدّة فأنّ العسر نقيض اليسر.

فَنَظِرَةٌ: النَّظرة بفتح النّون و كسر الظّاء التّأخير ومنه رجل يشتري المتاع بنظرة أي بتأخيرٍ و مهلةٍ.

مَيْسَرَةٍ: السعّة.

◁ الإعراب

وَ إِنْ كانَ ذُو عُسْرَةٍ كان هنا التّامة أي أن حدث ذو عسرةٍ و قيل هي النّاقصة و الخبر محذوف، تقديره وأن كان ذو عسرةٍ لكم عليه حقّ أو نحو ذلك إِلى مَيْسَرَةٍ أي الى وقت مَيسَرة أو وجود مَيسَرة وَ أَنْ تَصَدَّقُوا في أصله تتصّدقوا أن قرأناه بالتشدّيد بتقليب التّاء الثّانية صاداً و إدغامها في، صاد و امّا أن قرأناه بالتّخفيف فعلى أنّه حذف التّاء حذفاً.

◁ التّفسير

لمّا حكم اللّه تعالىٰ في الآية السّابقة لأرباب الرّبا برؤوس أموالهم و تركهم الزّيادة حكم هنا في ذي العسرة بالنّظرة أي التّأخير و المهلة من جانب المربي فقال وَ إِنْ كانَ أي المَدين ذُو عُسْرَةٍ لا يقدر على ردّ رأس المال الى صاحبه فَنَظِرَةٌ إِلى مَيْسَرَةٍ قالوا أنّ ثقيفاً لمّا طلبوا المال الّذي كان لهم علىٰ بني المغيرة شكوا العسرة نعني بني المغيرة، وقالوا ليس لنا شئ وطلبوا الأجل الىٰ

وقت ثمارهم فنزلت هذه الآية فهي عامّة في جميع النّاس فكلّ من، أعسر أنظر عطا، والضّحاك و غيرهما أنّ الآية لكلّ معسرٍ ينظر في الرّبا والدّين كلّه، و قال إبن عبّاس و شريح ذلك في الرّبا خاصّة فأمّا سائر الدّيون و المعاملات فليس فيها، نظرة، بل يؤدّي الىٰ أهلها أو يحبس فيه حتّىٰ يوفّيه، و قال بعض أهل التحقّيق أنّ ذلك حقّ لولم يكن هناك فقر مدقع، و امّا وجوده فالحكم هو النظرة، **وَ أَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ** مبتدأ و خبر أي والتصدّق خير ندب اللّه تعالىٰ بهذه الألفاظ الىٰ الصدّقة على المعسر و جعل ذلك خيراً من إنظاره و امهاله **إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ** بأنّ التصدّق خير من الإنظار.

فقد روى غير واحدٍ من أصحابنا عن أبي عبد اللّه عليه السلام قال عليه السلام: صعد رسول اللّه صلى الله عليه وآله المنبر ذات يومٍ فحمد اللّه و أثنى عليه و صلّى على أنبيائه ثمّ قال -(أيّها النّاس ليبلغ الشّاهد منكم الغائب، إلاّ و من أنظر معسراً كان له على اللّه في كلّ يومٍ صدقة بمثل ماله حتّى يستوفيه ثمّ قال أبو عبد اللّه عليه السلام وَ إِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ وَ أَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ أنّه معسرٌ فتصدّقوا عليه بما لكم عليه فهو خير لكم إنتهىٰ.

و أيضاً عنه عليه السلام قال: من أراد أن يظلّه اللّه يوم لا ظِلّ إلاّ ظِلّه قالها ثلاثاً فهابه النّاس أن يسألوه فقال عليه السلام فلينظر معسراً أو ليدع له من حقّه إنتهىٰ.

و أيضاً عنه عليه السلام قال: خلّوا سبيل المُعسِر كما خلاه اللّه والأخبار كثيرة.

و روى القُرطبي بأسناده قال رسول اللّه صلى الله عليه وآله من أنظر معسراً كان له بكلّ يومٍ صَدقة ثمّ قلت بكلّ يومٍ مثله صَدقة قال فقال صلى الله عليه وآله بكلّ يومٍ صَدقة مالم يحلّ الدّين فإذا أنظره بعد الحلّ فله بكلّ يومٍ مثله صدقة إنتهىٰ.

و أيضاً نقل عن صحيح مُسلم عن أبي مسعود قال قال رسول اللّه ﷺ حُوسب رجل ممن كان قبلكم فلم يوجد له من الخير شئ إلاّ أنّه كان يُخالط النّاس و كان معسراً فكان يأمر غلمانه أن يتجاوزوا عن المُعسِر قال: قال اللّه عزّ وجلّ نحن أحقّ بذلك منه تجاوزوا عنه.

و روي عن أبي قتاده أنّه طلب غريماً له فتوارى عنه ثمّ وجده فقال أنّي معسر فقال اللّه قال اللّه قال فأنّي سمعتُ رسول اللّه ﷺ يقول من سرّه أن ينجّيه اللّه من كرب يوم القيامة فلينفس عن معسرٍ أو يضع عنه.

و أيضاً روي عن أبي اليسر الطّويل وإسمه كعب بن عمرو أنّه سمع رسول اللّه ﷺ يقول من أنظر معسرً أو وضع عنه أظلّه اللّه في ظلّه إنتهىٰ.

قال القرطبي بعد نقل الأحاديث مالفظه، ففي هذه الأحاديث من التّرغيب ما هو منصوصٌ منها وحديث أبي قتادة يدّل علىٰ أنّ ربّ الدّين إذا علم عسرة غريمه أو ظنّها حرمت عليه مطالبته و أن لم تثبت عسرته عند الحاكم و انظار المعسر تأخيره الى أن يوسر والوضع عنه إسقاط الدّين عن ذمّته و قد جمع المعنيين أبو اليسر لغريمه حيث محى عنه الصّحيفة و قال له إن وجدت قضاءاً نا قص و إلاّ فأنت في حلٍّ إنتهىٰ ما قال وأنا أقول أنّما أكثرنا من نقل الأحاديث عن العامّة والخاصّة لتعلم أنّ إمهال المديون وأحياناً الصّفح عنه ممّا رغّب اللّه تعالىٰ عباده به وفيه خير كثير لمن علم وتدّبر فيّ هذه الآثار كما قاله **إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ** .

■

وَ ٱتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مٰا كَسَبَتْ وَ هُمْ لاٰ يُظْلَمُونَ﴿٢٨١﴾

◁ اللغّة

تُوَفّىٰ: بضمّ التّاء ممّا لم يسمّ فاعله، و توفّيت الشّيئ بذله وافياً و استيفاءه تناوله وافياً قال اللّه تعالىٰ و أنّما توفّون أجوركم ثمّ تُوفى كلّ نفسٍ، أنّما يُوفّىٰ الصّابرون أجرهم بغير حساب أي يجزون كاملاً.

◁ الإعراب

تُرْجَعُونَ عن ألجملة صفة يوم **هُمْ لاٰ يُظْلَمُونَ** يجوز أن يكون حالاً من كلّ لأنّها في معنى الجمع و أن يكون حالاً من الضّمير في يرجعون، على القراءة بالياء على أنّه خرج من الخطاب البغية كقوله تعالىٰ:**حَتَّىٰ إِذٰا كُنْتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَ جَرَيْنَ بِهِمْ**[١].

◁ التّفسير

قيل هذه الآية أخر أية نزلت علىٰ النّبي ﷺ قبل موته بتسع ليالٍ ثمّ لم ينزل بعدها شيئ و قال ابن جبير و مقاتل، بسبع ليال و روى بثلاث ليالٍ و روى أنّها نزلت قبل موته بثلاث ساعات و أنّه قال ﷺ اجعلوها بين أية الرّبا وأية الدّين نقل هذه الأقوال القُرطبي ثمّ نقل عن مكّي أنّ النّبي قال جاءني جبرئيل فقال إجعلها على رأس مائتين و ثمانين أية ثمّ قال بعد ذلك قلت و حكى عن أبّي ابن كعب و ابن عبّاس و قتادة أنّ أخر ما نزل هو قوله: **لَقَدْ جٰاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ**[٢] والقول الأوّل أعرف و أكثر و أصّح و أشهر انتهىٰ ما أردنا نقله عنه.

١- يونس = ٢٢ ٢- التوبة= ١٢٨

أقول و قد نقل الطّبري أيضاً بأسناده عن ابن عبّاس أنّه قال أخر أيةٍ نزلت على النّبي صلى الله عليه وآله، وإتّقوا يوماً ترجعون فيه الىٰ اللّه، ثمّ نقل روايات كثيرة في هذا الباب واللّه أعلم بحقائق الأُمور و كيف كان فقوله:

وَ اتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ إشارة الىٰ يوم القيامة ويمكن أن يكون المراد عنه يوم الموت وعلىٰ كلّ حالٍ أمَرنا بالإتّقاء من شرّ ذلك اليوم و فيه دلالة على شدّة اليوم و هوله و أنّه لا ملجأ إلاّ اليه تعالىٰ و هو يومٌ لا ينفع فيه مال ولا بنون إلاّ من أتىٰ اللّه بقلبٍ سليم.

ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مٰا كَسَبَتْ وَ هُمْ لٰا يُظْلَمُونَ إشارة الىٰ أمرين بعد الموت والرّجوع الىٰ اللّه.

أحدهما: بثبوت الجزاء في اليوم الموعود و لذلك قد يعبّر عن ذلك اليوم بيوم الحساب و يوم الجزاء، ويوم تبلى السّرائر و يوم الميعاد و امثال ذلك من التعابير:

قال اللّه تعالىٰ: **اَلْيَوْمَ تُجْزٰى كُلُّ نَفْسٍ بِمٰا كَسَبَتْ**[1].

قال اللّه تعالىٰ: **لَهٰا مٰا كَسَبَتْ وَ عَلَيْهٰا مَا اكْتَسَبَتْ**[2].

قال اللّه تعالىٰ: **وَ وُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مٰا كَسَبَتْ وَ هُمْ لٰا يُظْلَمُونَ**[3].

قال اللّه تعالىٰ: **ثُمَّ تُوَفّٰى كُلُّ نَفْسٍ مٰا كَسَبَتْ وَ هُمْ لٰا يُظْلَمُونَ**[4].

ثانيهما: أنّهم لا يظلمون عند الحساب و ذلك لأنّ اللّه تعالىٰ منّزه عن الظّلم:

قال اللّه تعالىٰ: **لٰا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللّٰهَ سَرِيعُ الْحِسٰابِ**[5].

قال اللّه تعالىٰ: **وَ نَضَعُ الْمَوٰازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيٰمَةِ**[6].

١- غافر=١٧
٢- البقرة=٢٨٦.
٣- آل عمران=٢٥.
٤- آل عمران=١٦١
٥- غافر=١٧.
٦- الأنبياء=٤٧.

قال اللّه تعالىٰ: **وَ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَ هُمْ لا يُظْلَمُونَ**[١].

والأصل في الجميع هو قوله تعالىٰ: **شَهِدَ ٱللّٰهُ أَنَّهُ لَآ إِلٰهَ إِلَّا هُوَ وَ ٱلْمَلَآئِكَةُ وَ أُولُو ٱلْعِلْمِ قَآئِمًا بِالْقِسْطِ**[٢].

و سيأتي البحث فيه إن شاء اللّه ولنختم الكلام في المقام بما قاله الطّبرسي قدس سره في تفسيره لهذه الآية نقلاً عن المفسّرين قال قال المفسّرون لمّا نزلت هذه الأية: **إِنَّكَ مَيِّتٌ وَ إِنَّهُمْ مَيِّتُونَ**[٣] قال رسول اللّه صلى الله عليه وآله ليتني أعلم متىٰ يكون ذلك فأنزل اللّه تعالىٰ سورة النّصر: **إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللّٰهِ وَ ٱلْفَتْحُ**[٤] فكان رسول اللّه صلى الله عليه وآله يسكت بين التّكبير والقراءة بعد نزول هذه السّورة فيقول سبحان اللّه و بحمده أستغفر اللّه و أتوب اليه فقيل له أنّك لم تكن تقوله قبل هذا فقال أما أنّ نفسي نعيت اليّ ثمّ بكى بكاءً شديداً فقيل يارسول اللّه أتبكي من الموت و قد غفر اللّه لك ما تقدّم من ذنبك و ما تأخّر قال صلى الله عليه وآله فأين هول المطلع و أين ضيق القبر و ظلمة اللّحد و أين القيامة و الأهوال فعاش رسول اللّه صلى الله عليه وآله بعد نزول هذه السّورة عاماً ثمّ نزلت **لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ**[٥] الىٰ أخر السّورة و هذه السّورة أخر سورةٍ كاملة نزلت من القرأن فعاش رسول اللّه بعدها ستّة أشهر ثمّ لمّا خرج رسول اللّه صلى الله عليه وآله الى حجّة الوداع نزلت عليه في الطّريق **وَ يَسْتَفْتُونَكَ فِى ٱلنِّسَآءِ قُلِ ٱللّٰهُ يُفْتِيكُمْ**[٦] الىٰ أخرها فسمّيت أية الصّيف ثمّ نزل عليه واقف بعرفة **ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُم** فعاش بعدها أحد و ثمانين يوماً ثمّ نزلت عليه أيات الرّبا ثمّ نزلت بعدها **وَ ٱتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللّٰهِ** وهي أخر أيةٍ نزلت من السّماء فعاش رسول اللّه صلى الله عليه وآله بعدها أحداً و عشرون يوماً و قال ابن جريح تسع ليالٍ و قال مقاتل و ابن جبير سبع ليالٍ ثم مات صلى الله عليه وآله يوم الأثنين لليلتين خلتا من ربيع

١- يونس=٥٤
٢- آل عمران أية ١٨.
٣- الزمر= ٣٠
٤- النصر= ١
٥- التوبة= ١٢٨
٦- النساء= ١٢٧

الأوّل حين بزغت الشّمس على قول العامّة أصحابنا لليلتين بقيتا من صفر سنة أحدى عشر من الهجرة انتهىٰ.

أقول و في هذه الرّواية ما لا يخفى علىٰ أحدٍ مِمّن أمن باللّه واليوم الأخر من الموعظة والخوف والهول و ذلك لأنّه اذا بكىٰ النّبي صلى الله عليه وآله من هول المطلع و ضيق القبر و ظلمة اللّحد و هو هو فحالنا معلومٌ فنقول إلٰهنا عاملنا بنفسك و لا تعاملنا بعدلك ياكريم بحقّ محمّدٍ وآله ولنعم ما قاله السّعدي بالفارّسية:

بر سايبان حسن عمل إعتماد نيست   سعدى مگر بسايهٔ لطف خدا رَود

ففرّوا من اللّه الى اللّه.

■

يٰٓ أَيُّهَا ٱلَّذِينَ اٰمَنُوٓا إِذاٰ تَداٰيَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلىٰٓ أَجَلٍ مُسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَ لْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كاٰتِبٌ بِالْعَدْلِ وَ لاٰ يَأْبَ كاٰتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَماٰ عَلَّمَهُ ٱللّٰهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ ٱلَّذِي عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ وَ لْيَتَّقِ ٱللّٰهَ رَبَّهُ وَ لاٰ يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا فَإِنْ كاٰنَ ٱلَّذِي عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لاٰ يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ وَ ٱسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجاٰلِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُوناٰ رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَ ٱمْرَأَتاٰنِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدآٰءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْديٰهُماٰ فَتُذَكِّرَ إِحْديٰهُماٰ ٱلْأُخْرٰى وَ لاٰ يَأْبَ ٱلشُّهَدآٰءُ إِذاٰ ماٰ دُعُوا وَ لاٰ تَسْئَمُوٓا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلىٰٓ أَجَلِهِ ذٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ ٱللّٰهِ وَ أَقْوَمُ لِلشَّهاٰدَةِ وَ أَدْنىٰٓ أَلَّا تَرْتاٰبُوٓا إِلَّآ أَنْ تَكُونَ تِجاٰرَةً حاٰضِرَةً تُدِيرُونَهاٰ بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُناٰحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهاٰ وَ أَشْهِدُوٓا إِذاٰ تَباٰيَعْتُمْ وَ لاٰ يُضآٰرَّ كاٰتِبٌ وَ لاٰ شَهِيدٌ وَ إِنْ تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ وَ ٱتَّقُوا ٱللّٰهَ وَ يُعَلِّمُكُمُ ٱللّٰهُ وَ ٱللّٰهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٢٨٢)

◁ اللّغة

تَداٰيَنْتُمْ: التَّداين مصدر باب التفاعل يقال تَداين القوم اذا إستدان بعضهم من بعضٍ و قال الرّاغب، التّداين و المداينة ولعلّ مراده الدّين من الطّرفين

قضاءً لحقّ باب التّفاعل.

بِدَيْنٍ: قال أبو عبيدة، دِنته، أقرضتُه.

أَجَلٍ: الأجَل بفتح الألف و الجيم المدّ المضروبة.

وَ لَا يَأْبَ: مضارع و ماضيه، أبىٰ أي إمتنع.

وَلْيُمْلِلِ: مضارع والماضي منه، أملَل و فيه لغةٌ أخرىٰ، أَملىٰ ومنه قوله تعالىٰ: **إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا إِثْمًا**(١) وفيه كلام يأتي في موضعه.

وَ لَا تَسْئَمُوٓا سَئم يَسئم سَوماً: السّامة الملالة ممّا يكثر لبثه فعلاًكان أو إنفصالاً قال تعالىٰ(لا يسأم الإنسان من دعاء الخير).

أَقْسَطُ: أفعل من القِسط و هو النّصيب بالعدل كالنّصف والنِصّفة.

وَ أَدْنَىٰٓ: أي أقرب.

تَرْتَابُوٓا: إرتاب يرتاب إرتياباً، الإرتياب الشّك والشّبهة.

تُدِيرُونَهَا: من أدار يُدير إدارةً.

جُنَاحٌ: بضّمّ الجيم ألأثم.

يُضَآرَّ: يجوز أن يكون مسنداً الى الفاعل كأنّه قال، لا **يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى**.

يضاري و أن يكون مفعولاً، أي لا يضاري.

فُسُوقٌ: فَسَق وفَسُقَ، فِسقاً وفسُوقاً خرج عن طريق الحقّ والصّلاح.

◁ الإعراب

إِلَىٰٓ أَجَلٍ هو متعلّق بتداينتم و يجوز أن يكون صفة لِدين أي مُؤخّرٍ و مؤجّل، و ألف في مُسَمًّى منقلبة عن ياء بِالْعَدْلِ متعلّق بقوله وَ لْيَكْتُبْ أي ليكتب بالحقّ و يجوز أن يكون مفعولاً به أي بسبب العدل و قيل الباء زائدة و

١- آل عمران = ١٧٨

التقدّير و ليكتب العدل و قيل هو متعلّق بكاتب أي كاتب موصوفٍ بالعدل كَمَا عَلَّمَهُ الكاف في موضع نصب صفة لمصدر محذوف و قيل هو متعلّق بقوله فَلْيَكْتُبْ و يكون الكلام قد تمّ عند قوله، أن يكتب والتقدّير فليكتب كما عَلَّمه اللّه مِنْهُ شَيْئًا متعلّق بيبخس و يجوز أن يكون التقدّير شيئاً منه فلمّا قدّمه صار حالاً و الهاء للحقّ.

أَنْ يُمِلَّ هُوَ هو هنا توكيد والفاعل مضمر مِنْ رِجَالِكُمْ يجز و أن يكون صفة لشهيدين و يجوز أن يتعلّق بإستشهدوا فَإِنْ لَمْ يَكُونَا الألف ضمير الشّاهدين فَرَجُلٌ خبر مبتدأ محذوف أي فالمستهد رجل آمْرَأَتَانِ قيل هو فاعل أي فليشهد رجل و قيل الخبر محذوف تقديره رجلٌ و إمرأتان يشهدون مِمَّنْ تَرْضَوْنَ هو في موضع رفع صفة لرجل وإمرأتين تقديره، مرضيّون و قيل هو بدل من رجالكم و أصل، ترضون، تَرضوون لأنّ لام الرّضا واو لقولك الرّضوان من آلشُّهَدَآءُ يجوز أن يكون حالاً من الضّمير المحذوف أي ترضونه كائناً من الشّهداء و يجوز أن يكون بدلاً من، مِن، أَنْ تَضِلَّ يقرأ بفتح الهَمزة علىٰ أنّها الصمّدرية النّاصبة للفعل و هو مفعول له و تقديره لأن تضلّ أحداهما فَتُذَكِّرَ بالنّصب معطوفاً عليه ويُقرأ بالرّفع على الإستئناف أحداهما، للفاعل آلْأُخْرَىٰ المفعول أَنْ تَكْتُبُوهُ في موضع نصب بتسأموا و تسأموا يتعدّى بنفسه بحرف الجّر صَغِيرًا او كَبِيرًا حالان من الهاء الىٰ متعلّقة بتكتبوه و يجوز أن تكون حالاً من الهاء أيضاً عِنْدَ آللّٰهِ ظرف لأقسط والّلام في قوله لِلشَّهَادَةِ يتعلّق، بأقوم، وألف في أدنى، منقلبة عن واو لأنّه من دَنا يَدنو.

أَلَّا تَرْتَابُوا في موضع نصب و تقديره و أدنى لئلا تَرتابُوا أو الىٰ أن لا تَرتابوا تِجَارَةً بالرّفع علىٰ أن تكون التامّة حَاضِرَةً صفتها و يجوز أن تون ناقصة و إسمها تجارة وحاضرة صفتها تُدِيرُونَهَا الخبر بَيْنَكُمْ ظرف لتُديرُونها فَلَيْسَ إيذاناً بتعلّق ما بعدها بما قبلها أَلَّا تَكْتُبُوهَا تقدّيره في ألاّ تكتبوها بكُم متعلّق

بمحذوف تقديره لاحقٌ بكم وَ يُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ مستأنف لا موضع له و قيل موضعه حال من الفاعل في، إتّقُوا و يجوز أن يكون حالاً مقدّرة.

◁ التّفسير

في كتاب عِلل الشّرائع بأسناده الىٰ أبي جعفر عليه السلام: أنّ اللّه عزّ وجلّ عرض على آدم أسماء الأنبياء و أعمارهم قال فمرّ بآدم إسم داود النّبي فاذا عمره في العالم أربعون سنة فقال آدم ياربّ ما أقل عمر داود و أكثر عُمري ياربّ أن أنا زدت داود من عمري ثلاثين سنة أتثبت ذلك له قال نعم ياآدم قال فأنّي قد زدته من عمري ثلاثين سنة فأنفذ ذلك له و أثبتها له عندك وأطرحها من عُمري قال أبو جعفر عليه السلام فأثبت اللّه عزّ وجلّ لداود في عمره ثلاثين سنة وكانت له عند اللّه مثبتة فذلك قوله عزّ وجلّ: يَمْحُوا ٱللَّهُ مٰا يَشٰآءُ وَ يُثْبِتُ وَ عِنْدَهٗٓ أُمُّ ٱلْكِتٰابِ[١] قال فمحى اللّه ما كان عنده مثبتاً لآدم وأثبت لداود ما لم يكن عنده مثبتاً قال فمضى عمر آدم فهبط ملك الموت ليقبض روحه فقال له آدم يا ملك الموت أنّه قد بقى من عُمري ثلاثين سنة فقال له مَلك الموت يا آدم ألَم تجعلها لإبنك داود النّبي و طرحتها من عُمرك حين عُرض عليك أسماء الأنبياء من ذُرّيتك وعرضت عليك أعمارهم وأنت يومئذٍ بوادي الدّحنا فقال له آدم ما أذكر هذا قال فقال له ملك المَوت يا آدم لا تَجحد ألم تسأل اللّه عزّ و جلّ أن يُثبته لداود ويَمحُوها من عُمرك فأثبتها لداود في الزّبور و محاها من عُمرك في الذّكر قال آدم حتّىٰ أعلم ذلك قال أبو جعفر عليه السلام و كان آدم صادقاً لم يذكر و لَم يجحد فمن ذلك اليوم أمر

١- الرعد= ٣٩

اللّه تبارك وتعالىٰ العباد أن يكتبوا بينهم اذا تداينوا و تعاملوا الىٰ أجل كذا، لنسيان آدم و جحوده ما جَعَل علىٰ نفسه انتهىٰ.

و في الكافي بأسناده عن أبي عبد اللّه قال: لمّا عرض على آدم ولده نظر الى داود فأعجبه فزاد خمسين سنة من عمره قال عليه‌السلام و نزل عليه جبرئيل و ميكائيل فكتب عليه ملك المَوت صكّاً بالخمسين سنة فلمّا حضرته الوفاة أنزل عليه ملك المَوت فقال آدم قد بقي من عمري خمسون سنة قال فأيَن الخمسُون التّىٰ جعلتها لإبنك داود قال فأمّا أن يكون نسيها أو أنكرها فنزل جبرئيل و ميكائيل فشهدا عليه و قبضه ملك المَوت فقال أبو عبد اللّه عليه‌السلام كان أوّل صكٍّ في الدّنيا انتهىٰ. الصّك كتاب الإقرار بالمال وغيره[1]

اذا علمت هذا فلنرجع الى تفسير ألفاظ الآية **يَآ أَيُّهَا ٱلَّذِينَ اٰمَنُوٓا إِذاٰ تَداٰيَنْتُمْ** أي تعاملتم **بِدَيْنٍ** أي قبضٍ **إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُسَمًّى** أي كان الدَّين مؤجلاً الىٰ أجَلٍ مُسمّىٰ مثل شهرٍ أو سنةٍ أو غير ذلك إن قلت قوله: **إِذاٰ تَداٰيَنْتُمْ** يستفاد منه الدّين فما وجه ذكر الدَّين بعده، قلت يمكن أن يكون ذكر الدّين بعده للتّأكيد كما تقول ضربته ضرباً.

الثاني: أنّ تداينتم يكون بمعنى تجازيتم من الدّين الّذي هو الجزاء فاذا قال، بدينٍ، إختصّ بالدّين خاصّةً كذا في التّبيان **فَاكْتُبُوهُ** قيل ظاهره الأمر بالكتابة و به قال الرّبيع والكعب، و قيل المعنى النّدب وبه قال الشّعبي والحَسَن و أبوسعيد الخدري و هو الحقّ للإجماع و عن ابن عبّاس أنّ الآية في السّلم خاصّة و قال غيره حكمها في كلّ دينٍ من سلمٍ أو تأخيرِ ثمنٍ في بيع و هو الأقوى **وَ لْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كاٰتِبٌ بِالْعَدْلِ** قيل في معناه أي لا يكتب لصاحب الحقّ أكثر ممّا قاله ولا أقلّ وأنّما قال بينكم ولم يقل و ليكتب أحدكم بالقول

١- تفسير نور الثّقلين ج ١ ص ٢٩٨.

مثلاً لأنّه لمّا كان الّذي له الدّين يتّهم في الكتابة للّذي عليه الدّين فكذلك بالعكس شرع اللّه سبحانه كاتباً غيرهما يكتب بالعدل لا يكون في قلبه و لا قلمه موّادة لأحدهما علىٰ الأخر و قيل أنّ النّاس لمّا كانوا يتعاملون حتّىٰ لا يشذ أحدهم عن المُعاملة وكان منهم من يكتب و من لا يكتب أمر اللّه سبحانه أن يكتب بينهم كاتب بالعدل **وَ لَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ** نهى اللّه الكاتب عن الإباء إختلفوا في وجوب الكتابة فقال الطّبري والرّبيع واجب على الكاتب اذا أُمِر أن يكتب و قال الحسن ذلك واجب عليه في الموضع الّذي لا يقدر علىٰ كاتبٍ غيره فيضّر صاحب الدّين إن إمتنع فأن كان كذلك فهو فريضة وأن قدر على كاتبٍ غيره فهو في سعة اذا قام به غيره و قال السّدي واجبٌ عليه حال فراغه أقول لا دليل من العقل والنّقل علىٰ هذه الأقوال و كيف يكون واجباً على زيد مثلاً أن يكتب لعمرو و بكر و ما ذَنب زيد في المقام ثمّ أيّ دليل دلّ على هذا الوجوب سوى أنّه تعالى نهى الكاتب عن الإباء نعم لو ثبت أنّ النّهي في الآية للتّحريم بمعنى أنّه يحرم عليه الإباء فلقوله وجهٌ و أنّى لهم باثبات ذلك و الحقّ أنّ النّهي تنزيهى لا تحرّيمي بمعنى أنّه لا ينبغي للكاتب الإباء عن الكتابة قضاءً لإداء بعض الحقوق الواجبة من حقّ المسلم على المسلم و هو أمرٌ أخر لا كلام فيه **كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُ فَلْيَكْتُبْ** قيل الكاف في، كما، متعلّقة بقوله، أن يكتب والمعنىٰ: كتباً كما علّمه اللّه و قيل متعلّقة بما في قوله: **وَ لَا يَأْبَ** في المعنى أي كما أنعم اللّه عليه بعلم الكتابة فلا يَأب هو و ليُفضل كما أفضل اللّه عليه و يحتمل أن يكون الكلام على هذا المعنىٰ تامّاً عند قوله: **أَنْ يَكْتُبَ** ثمّ يكون، كما علّمه اللّه إبتداء كلام وتكون الكاف متعلّقة بقوله: **فَلْيَكْتُبْ** هكذا قيل: **وَلْيُمْلِلِ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ** و هو المديون فأنّ الحقّ أي الدّين عليه فهو الّذي يقرّ على نفسه بلسانه ليعلم ما عليه فيقول المديون للكاتب مثلاً لزيد علّي كذا الى أجل كذا وهذا هو المراد بالإملاء و الإملال وهما لغتان، أمَّل،

وأملىٰ، فأَمَلَّ لغة الحجاز و بني أسد و تميم و جاء القرأن بهما قال تعالىٰ: **إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا إِثْمًا**(١) و قال فهي تُملي عليه بكرةً و أصيلاً، و الأصل أمللت أبدل من اللاّم ياء لأنّه أخفّ فأمر اللّه تعالىٰ الّذي عليه الحقّ بالإملاء لأنّ الشّهادة أنّما تكون بحسب إقراره **وَ لْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ** أمَره تعالى بالتّقوىٰ فيما يملّ و نهى عن أن يبخس شيئاً من الحقّ فقال: **وَ لَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْـًٔا** أي لا ينقص منه شيئاً فأنّ البخس النّقص **فَإِن كَانَ ٱلَّذِي عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ** أي المديون **سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ** السَّفه خفّة في البدن و منه قيل زمامٌ سفيه كثير الإضطراب، وثوب سفيه أي رديئ النَّسج و إستعمل في خفّه النّفس لنقصان العقل و في الأمور الدنّيوية و الأخرّوية فقيل سفه نفسه.

قال اللّه تعالىٰ: **وَ لَا تُؤْتُوا ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ**(٢).

فهذا هو السَّفه الدّنيوي.

قال اللّه تعالىٰ: **وَ أَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى ٱللَّهِ شَطَطًا**(٣).

فهذا من الَّفه في الدّين.

قال اللّه تعالىٰ: **قَالُوٓا أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَ لَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ**(٤).

والضَّعيف، الضَّعف خلاف القوّة يقال ضعف فهو ضعيف، والضَّعف قد يكون في النّفس و في البَدن و في الحال والضَّعف بفتح الضّاد والضعف بضمّها لغتان قال الخليل الضُّعف بالضّم في البَدن، والضَّعف بالفتح في العقل والرّأي و منه قوله تعالىٰ:

فَإِن كَانَ ٱلَّذِي عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا انتهىٰ و عليه فمعنىٰ الآية فأن كان الّذي عليه الحقّ أي فأن كان المديُون متّصفاً بالسَّفاهة والضّعف في العقل

١- آل عمران = ١٧٨
٢- النساء = ٥
٣- الجن = ٤
٤- البقرة = ١٣

و الرّأي أو لا يستطيع أي لا يقدر أن يملّ علىٰ الكاتب وأن لم يكن سفيهاً أو ضعيفاً بل كان عاقلاً رشيداً مثل أن يكون محبوساً أو مريضاً أو ممنوعاً عن التكلّم بأيّ نحوٍ كان ففي هذه الصورة **فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ** لأنّ الوّلي نائب عن المولي عليه في جميع الأمور سواء كانت الولاية أصلّية كولاية الأب و الجدّ أو منصوبة من قِبل الحاكم الشّرعي كما إذا نصَب الحاكم للصّغير ولياً وكيف كان فالولّي يملّي على الكاتب من جانب السّفيه والضّعيف و العاجز عن الإملاء، و قيدّه، بالعدل للإشارة الىٰ أنّ الولّي يراعي حقّ السّفيه و الضّعيف بمعنى إعطاءه الحقّ ايّاه فأنّ العَدل وضع الشيئ في محلّه و أنّما قلنا ذلك لأنّ تصرّف الولّي فى مال المولّي عليه أو حقّه منوطٌ بالصّلاح و حيث أنّ الوّلي أيضاً قد يقع مورداً للتّهمة و البهتان عند النّاس قال اللّه تعالىٰ لأجل رفعها عنه: **وَ ٱسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ** الإستشهاد طلب الشّهادة فأن لم يوجد هناك رجلين واجدين لشرائط الشّهادة **فَرَجُلٌ وَ ٱمْرَأَتَانِ و ذلك** لأنّ المرأة في الشّهادة والميراث نصف الرّجل علىٰ ما يأتي بيانه في محلّه وفي قوله: **رِجَالِكُمْ** إشارة الى رجال المؤمنين لأنّ صَدر الآية خطاب لهم فيخرج الكفّار لكفرهم الصّبيان لعدم صدّق الرّجل عليهم عرفاً و هكذا الكلام في المرأة و قوله: **مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ** أي أنّ الشّاهد لابدّ من أن يكون مرّضياً عند المتداينين أو عند الحاكم و يمكن أن يكون قوله **مِمَّنْ تَرْضَوْنَ**، أي ممّن ترضون عدالتهما بأن لا يكونا فاسقين فأنّ الفاسِق قد ينكر قوله و فعله و لعلّه لأجل هذه الدّقيقة أوضح كلامه بقوله:

أَنْ تَضِلَّ إِحْدَيٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَيٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ

قالوا المراد بالضّلالة النّسيان فمعنى تضلّ، تنسى و الضّلال عن الشّهادة أنّما هو نسيان جزء منهما وذكر جُزء و عليه فالمعنىٰ أنّ تضلّ أي تنسى احدى المرأتين فتذكّرها المرأة الاخرىٰ و هذا هو السبب في عدم الإكتفاء بشّهادة

إمرأة واحدة و هكذا في جانب الرّجل فقول بعض المفسّرين أنّ النّسيان غالب على النّساء لا معنىٰ له فأنّ الحكم لا يختصّ بالنّساء فقط بل هو ثابت في الرّجلين أيضاً فأنّ الإنسان محلّ النّسيان هذا إذا قلنا أنّ قوله، تضلّ بمعنى تنسى كما مرّ، ولقائلٍ أن يقول هذا ممّا لا يساعده العقل ولا اللّغة ولو كان الأمر كما ذكروه لقال اللّه، أن تَنسى إحداهما الخ.

و حيث لم يقل ذلك علمنا أنّ الضّلالة بمعناها اللّغوي أعني به ضدّ الهداية و أمّا بحسب اللّغة فواضح فلا يقال لمن نسي شيئاً أنّه ضّل و بالعكس فالمعنى أن تضلّ إحداهما، أن أعرض احداهما عن شهادته بعد أن شهد أوّلاً بجهةٍ من الجهات أو كتم شهادته فأنّ كتمان الشّهادة أو إنكارها من الضّلالة كما أنّ إظهارها في موردها من الإيمان ففي هذه الصّورة يقول أحدهما لصاحبه أما رأيت أما شهدت أما تَخاف اللّه، أما تعلم أنّ اللّه نهى عن كتمان الشّهادة و توّعد عليه و امثال ذلك ممّا هو داخل تحت التذّكر فالأية على ظاهرها لا إشكال فيها فلا نحتاج الىٰ التصرّف في ألفاظها أو حمل اللّفظ على غير معناه المُصطلح **وَ لَا يَأْبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُوا** أي لا يأبى الشّاهد عن شهادته إذا دعي اليها لأنّ الشّهادة من الإيمان:

قال اللّه تعالىٰ: **وَ مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ ٱللّٰهِ**[1].

قال اللّه تعالىٰ: **وَ لَا تَكْتُمُوا ٱلشَّهَادَةَ وَ مَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ**[2].

وَ لَا تَسْئَمُوٓا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِ.

معناه لا تملوا أن تكتبوا الّدين للدّاين على المديون صغيراً كان أو كبيراً، قالوا أي قليلاًكان أوكثيراً بأن يقولوا الكاتب مثلاً هذا قليل لا يحتاج الى الكتابة و قال الطّبرسي أي لا تسأموا أن تكتبوا الحقّ صغيراً كان الحقّ أوكبيراً، و هو

١- البقرة = ١٤٠.
٢- البقرة = ٢٨٣.

يرجع الى ما ذكرناه ثمّ قال، أنّ هذا خطاب للشّاهد و معناه لا تملّوا أن تكتبوا الشّهادة على الحقّ الى أجَلَه أي الىٰ أجل الدّين و قيل الى أجل الشّاهد أي الى الوقت الّذي تجوز فيه الشّهادة قال والأوّل أقوى و هو أن يكون الخطاب الىٰ الجميع.

أقول ظاهر الآية الخطاب الى الجميع لقوله تعالىٰ:**و لا تَسأموا** وهو يشمل الكلّ و أمّا قوله: **صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا**، فالظّاهر أنّ المراد من الصِّغر والكِبَر في المقام الصغر و الكبر فيمن عليه الحقّ و هو المديون أو من له الحقّ و هو الدّاين أي إكتبوا الحقّ للصغير والكبير و علىٰ الصغير و الكبير فلا فرق بينهما في هذا المورد ذهبوا اليه من أنّ المراد بالصغير والكبير في الآية القليل والكثير أي سواء كان الحقّ قليلاً أو كثيراً كما ذكره القُرطّبي و قبله الطّبري و من حذىٰ حذوهما جمهور المفسّرين من العامّة و الخاصّة فلا نفهم معناه و لا نعلم ما الذّي ألجأهم الىٰ هذا التفسّير و أظنّ أنّ المؤسّس لهذا الأساس هو الطّبري لأنّه كان أقدم زماناً و تفسيره قبل هذه التفاسّير فهو قال ما قال ثمّ بعده قلده المفسّرون قال الطّبري ما لفظه، يعني بذلك جلّ ثناؤه و لا تسأموا أيّها الّذين تداينون النّاس الىٰ أجلٍ أن تكتبوا صغيراً الحقّ يعني قليله أو كبيره يعني كثيره الى أجله أي الى أجل الحقّ فأن الكاتب أحصى للأجل والمال انتهىٰ كلامه و به قال الزمخّشري و القُرطبي والبيضاوي و السّيوطي و غيرهم من العامّة و به قال أيضاً الطّبرسي و الفيض في الصّافي و غيرهما فلعلّهم فهموا من اللّفظ غير ما نفهم منه وإلاّ فحمل لفظ الصّغير و الكبير على قليل المال وكثيره أو قليل الحقّ وكثيره بعيد جدّاً غاية البعد إذ لقائلٍ أن يقول أن كان الأمر كذلك فلم لم يقل اللّه تعالىٰ: **قليلاً أو كثيراً** بدل قوله: **صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا** فكان الأحسن لهم أن يبنوا سرّ هذا التّعبير أوّلاً ثمّ يحملوا اللّفظ علىٰ غير معناه الموضوع له فأن قالوا التّعبير بالصّغير والكبير أفصح من التعبير بالقليل و الكثير و لذلك قال تعالى ما

قال فهو كما ترىٰ كلام بلا محصّل بل الأمر بالعكس و أن قالوا يلزم منه محذورٌ آخر فما هو المحذور و محصّل الكلام أنّ العقل واللّغة و الذّوق السّليم لا يساعدهم عليه ، والّذي نفهم من الآية هو حمل اللّفظ على معناه الحقيقي و المعنى و لا تسأموا أي لا تملّوا أن تكتبوا الحقّ صغيراً أو كبيراً أي صغير كان أحَد المتداينين أو كبيراً أو صغيراً كان المديون أو كبيراً و أنّما قلنا ذلك لأنّ اللّفظ ظاهر فيما ذكرناه فأنّ الصّغير لا يطلق علىٰ القليل و لا الكبير علىٰ الكثير إلاّ بضرب من المجاز ومن المعلوم أن الحقيقة خير منه.

ذٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ ٱللّٰهِ وَ أَقْوَمُ لِلشَّهٰادَةِ وَ أَدْنىٰ أَلَّا تَرْتٰابُوٓا

أي ما ذكرناه أوفق و أعدل عند اللّه وأصّح و أقوم للشهادة و أقرب بأن لا تشكوا فيه **إِلَّآ أَنْ تَكُونَ تِجٰارَةً حٰاضِرَةً تُدِيرُونَهٰا بَيْنَكُمْ** أي أنّ ما ذكرناه من الكتابة والشّهادة و غيرهما أنّما هو في الدّين المؤجّل و امّا في المعاملات النّقدية التّي تديرونها بينكم فلا يلزم ما ذكرناه لما فيه من المشّقة والصُّعوبة و لذلك قال: **فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنٰاحٌ** أي ليس عليكم بأس **أَلَّا تَكْتُبُوهٰا** لأنّه مستلزم للعسر والحرج **وَ أَشْهِدُوٓا إِذٰا تَبٰايَعْتُمْ** أمر بالإشهاد دون الكتابة إذا وقع البيع و بعبارةٍ أخرى الكتابة و الإشهاد في الدّين المؤجل و الإشهاد وحده في النّقد **وَ لٰا يُضٰآرَّ كٰاتِبٌ وَ لٰا شَهِيدٌ** نقلوا فيه ثلاثة أقوال.

أحدها: لا يكتب الكاتب ما لم يمل عليه ولا يزيد الشّاهد في شهادته ولا ينقص منها قاله الحسن و قتادة و طاووس وإبن زيد وغيرهم.

ثانيها: أنّ المعنىٰ ، لا يمتنع الكاتب أن يكتب ولا الشّاهد أن يشهد، هذا إذا كان قوله، **يضّار** بكسر الرّاء بأن كان أصله، **يُضارِر**، بالكسر ثمّ وقع الإدغام و فتحت الرّاء في الجزم لخفّة الفتحة.

ثالثها: ما ذهب اليه مجاهد والضّحاك والسّدي و روى عن ابن عبّاس أيضاً أنّ المعنى لا تدعوا الكاتب ولا الشّهيد بالكتابة والشّهادة إذا كانا مشغولين،

فإذا إعتذرا بعذرهما اقبلوا عذرهما ولا تخرجوهما قهراً و جبراً بأن تقولوا لهما خالفتما أمر اللّه و امثال ذلك من القول فيضّر بهما على هذا القول فالأصل في **يضّار** يضارر بفتح الرّاء فنهى اللّه سبحانه عن هذا لأنّه لو أطلقه لكان فيه شغل لهما عن أمر دينهما و معاشهما و لفظ المضّارة اذ هو من أثنين يقتضي هذه المعاني، والكاتب والشّهيد علىٰ القولين الأوّلين رفع بفعلهما و على القول الثّالث رفع على المفعول الّذي لَم يسمّ فاعله **وَ إِنْ تَفْعَلُوا** أي أن تفعلوا المضّارة **فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ** أي معصية و ذلك لأنّ إذايتهما اذا كانا مشغولين معصية و خروج عن الصّواب من حيث المخالفة لأمر اللّه و لذلك قال **وَ ٱتَّقُوا ٱللَّهَ** في معصيته **وَ يُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ** معالم دينكم **وَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ** و لمّا فرغنا عن تفسير الألفاظ نذكر ما يستفاد من الآية من الإطعام علىٰ سبيل الإجمال فأنّ فيها فوائد و دقائق ينبغي التوجّه اليها فنقول:.

أنّ الآية دالّة على أحكام ذكروها في أيات الأحكام:

أحدها: إباحة الإدانة و الإستدانة و قد ثبت أنّ النّبي صلى الله عليه وآله والحسَن والحسين عليهم السّلام ماتوا و عليهم دين و بالجملة لا خلاف في رجحان الإدانة مع دلالة الأدلّة عليه كما لا خلاف في رجحان الإستدانة مع الحاجة اليها بل قد تجب مع الضّرورة و يدّل على المدّعىٰ.

ما رواه الشّيخ بأسناده عن موسىٰ بن بكر قال: أبو الحسن من طلب هذا الرّزق من حلّه ليعود به علىٰ عياله أو نفسه كان كالمجاهد في سبيل اللّه عزّ وجلّ فأن غَلب عليه ذلك فليستدن على اللّه عزّ و جلّ و على رسوله ما يقوت به عياله الحديث.

و روي أنّه جاءت أُمّ سَلمة الىٰ النّبي فقالت يا رسول اللّه يحضر الأضحىٰ وليس عندي ثمن الأضحية فأستقرض و أضحي قال صلى الله عليه وآله: أستقرضي وضحّي فأنّه دينٌ مقضّي انتهىٰ.

و سُأل الصّادق عليه السلام عن رجل ذى دين يستدين ويحجّ قال عليه السلام: نعم هو أقضىٰ للدّين.

و نحو ذلك من الأخبار و عليه فما ورد في بعض الأخبار من المنع عن الإستدانة فهو محمول علىٰ الكراهة عند عدم الضّرورة وعدم الحاجة اليه و يمكن الحمل أيضاً على من لم يكن عنده وفاء به ولا بالفعل ولا بالقوّة.

الثّاني: إباحة المعاملة بالدّين مؤجلاً نسيئة و سلما لأنّ الدّين حقّ يثبت في الذّمة فهو أعم من المؤجّل و غيره و يدّل على هذا قوله تعالىٰ: **إِذَا تَدَايَنتُمْ بِدَيْنٍ إِلَىٰ أَجَلٍ**.

الثّالث: أن يكون الأجل أعني به المدّة في الدَّين مصوناً عن الزّيادة و النّقصان والى هذا أشار بقوله، فسمّي، فأنّ التّعبير بالمُسمّىٰ يدّل علىٰ أنّه لابدّ من كون الدّال على ذلك لفظاً و لو بالقرينة فلا يكفي القصد.

الرّابع: الأمر بكتابة الدَّين لئّلا يذهب المال بطول مدّته و عند عروض النّسيان أو الموت و يكون قاطعاً لسبيل النّزاع في الزّيادة والنّقصان و يدّل على ذلك قوله فأكتبوا الخ فالأمر الإرشاد و قيل للنّدب و قيل للوجوب و أوّل الأقوال أقوى و الأخير أضعف و الأوسط له وجه ضعيف و ذلك لأنّ النّاس مسلطون علىٰ أموالهم و أنفسهم يفعلون بأموالهم كيف شاؤوا اذا لم يَصرفوها في الحرام و أمثاله.

الخامس: ينبغي أن يكون الكاتب أن يكتب الدّين علىٰ وفق ما تراضيا عليه لا حيف و لا زيادة و لا نقصان ولازم ذلك أن يكون عادلاً، و يدّل عليه قوله تعالىٰ بالعدل.

السّادس: ينبغي للكاتب أن لا يمتنع من أن يكتب الصّك علىٰ الوجه الذّي تراضيا عليه أداءً لشكر ما أنعم اللّه عليه بمعرفة الكتابة و قيل علىٰ الوجه الّذي علّمه اللّه من الكتابة بالعدل والإنصاف ومجانبة الجور و الإعتساف أي على

الوجه المقرّر في الشّرع و يدّل عليه قوله: **وَ لَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُ** أمّا أنّ هذه الكتابة واجبة عليه أو لا تجب فالحقّ أنّه واجب كفايةً و هل يجوز أخذ الاجرة علىٰ الكتابة أو لا يجوز فيه قولان والحقّ في المقام أنّه لو قلنا بأنّ الأمر للوجوب فلا يجوز أخذ الاجرة كسائر الواجبات، و أن قلنا بعدم الوجوب في الأمر كما هو الحقّ فيجوز عليه الأخذ لأنّ الكتابة منفعة محللّة ولم يجب على الكاتب بذلها نعم يجوز الإرتزاق له من بيت المال لأنّه من المصالح و امّا اذا لم يوجد بيت المال فيجوز أخذها من الآمر بها و امّا المصالح كالورق والقلم و المداد و أمثالها فكلّها علىٰ صاحب الدّين أو على بيت المال أن وجد و قلنا به.

السّابع: الإملاء علىٰ الكاتب ممّن عليه الحقّ لأنّه الغارم والمشهود عليه لأنّ الكاتب اذا لم يملي عليه لا يدري ما يكتب و الى هذا أشار اللّه بقوله: **وَلْيُمْلِلِ ٱلَّذِي عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ** فأن كان من عليه الحقّ سفيهاً أو ضعيفاً أو لا يستطع على الإملاء، فولّيه كما قال تعالىٰ فليملل ولّيه بالعَدل.

الثّامن: لمّا كان مجرّد وجود الصّك والكتابة غير كافٍ لإثبات الحقّ اذا لم يكن هناك إشهاد عليه لمظنّة الإتّهام في حقّ الكاتب بل و فيمن له الحقّ أيضاً، فينبغي الإشهاد علىٰ ما في الصّك لئّلا ينجّر الموضوع الىٰ الإنكار و أمثاله قال اللّه تعالىٰ: **وَ ٱسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ** إثباتاً للحقّ ودفعاً للتهمة.

التّاسع: اذا لم يكن الإستشهاد بالرّجلين كما اذا كان هناك رجل واحد ولم يوجد الثّاني ففي هذه الصّورة يستشهد به وإمرأتان فأنّ المرأتين في حكم رجل واحدٍ في باب الشّهادة و لذلك قال تعالىٰ فرجلٌ وامرأتان ممّن ترضون من الشّهداء.

العاشر: أنّ الشّاهد لابدّ من أن يكون عادلاً فأنّ الفاسق لا تُقبل شهادته سواء فيه الرّجل والمرأة و يدّل على هذا قوله: **مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ**

بعد التّنبيه عليه بقوله، **منكم** و الأخبار به ناطقة و سيأتي الكلام فيه بوجهٍ أبسط في محلّه وبعد ما ذكرناه تقدر علىٰ إستخراج وجوه كثيرة لم نتعرّض لها حذراً من االإطناب وأن شئت الإطّلاع علىٰ بعضٍ منها فعليك بالكتب التّي دونت في أحكام الأيات فأنّ المحقّقين قدّس اللّه أسرارهم ذكروا و حققوا في هذا الباب ما لا مزيد عليه كيف والقرأن بحرٌ عميق لا يدرك ساحله ولا يمكن لأحدٍ الوصول الىٰ قعره فأنّ الكلام حاكٍ عن المُتكلّم.

■

وَ إِنْ كُنْتُمْ عَلٰى سَفَرٍ وَ لَمْ تَجِدُوا كٰاتِبًا فَرِهٰانٌ مَقْبُوضَةٌ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ ٱلَّذِي ٱؤْتُمِنَ أَمٰانَتَهُ وَ لْيَتَّقِ ٱللّٰهَ رَبَّهُ وَ لاٰ تَكْتُمُوا ٱلشَّهٰادَةَ وَ مَنْ يَكْتُمْهٰا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ وَ ٱللّٰهُ بِمٰا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨٣﴾

◁ اللّغة

فَرِهٰانٌ: رِهان بكسر الرّاء مصدر قولك راهَنتَه رِهاناً والرَهـن ما يوضع وثيقةً للدّين والرهّان مثله لكن يختصّ بما يوضع في الخطأ و أصلها مصدر يقال رَهنتُ الرّهن وراهِنتُه رِهاناً: فهو رهين ومَرهون و يقال في جمع الرَهّن رِهان و رُهُن و رُهون و ذالک قرأ فرُهُنٌ.

مَقْبُوضَةٌ: قاله فى مفردات مَقْبُوضَةٌ،المَقبوض إسم مفعول من القَبض.

أَمِنَ: فعل ماضي و مصدره الأمن يقال آمِن آمِناً، وأصل الأمن طمأنينة النَّفس و زوال الخَوف.

فَلْيُؤَدِّ: أَدّىٰ يُؤدّي تأدية والتّأدية الإداء.

ٱؤْتُمِنَ: على بناء المفعول يقال إئتَمنه، أي عَدّه أميناً.

آثِمٌ: فاعل من أَثِمَ و مصدره الإِثم بسكون الثّاء و هو إسم للأفعال المبطئة عن الثّواب و جمعه آثام.

◁ الإعراب

فَرِهٰانٌ خبر مبتدأ محذوف تقديره فالوثيقة أو التّوثق ٱلَّذِي ٱؤْتُمِنَ اذا وقفت على و ابتدأت أؤتمن فالهمزة للوصل والواو بدل من الهَمزة الّتي هي فاء الفعل وإذا حُذفت همزة الوصل و أعدت الواو الى أصلها و هو الهَمزة و حذفت

ياء الّذي لإلتقاء السّاكنين **أَمٰانَتَهُ**مفعول، **يُؤَدِّ** لا مصدر **اُؤْتُمِنَ** والأمانة بمعنىٰ **فَإِنَّهُ** الهاء ضمير، من، يجوز أن تكون ضمير الشّان **اٰثِمٌ** خبر أن و **قَلْبُهُ** مرفوع به و قيل، قلبه، مبتدأ و، **اٰثِمٌ** خبر مقدّم عليه.

◁ التّفسير

لمّا بيّن اللّه تعالىٰ في الآية السّابقة النّدب الىٰ الإشهاد في الإدانة و الإستدانة بعد الكتب لمصلحة الأموال والدّيون عقّب ذلك بذكر حال الأعذار المانعة من الكتب فأشار الىٰ مشرّوعية الرهّن و ذكر السفَر لأنّه هو الغالب في الأعذار لا سيّما فى ذلك الوقت لكثرة الغزو و الاّ يدخل في ذلك كلّ عذرٍ نافع من الكتب فقال:

وَ إِنْ كُنْتُمْ عَلٰى سَفَرٍ وَ لَمْ تَجِدُوا كٰاتِبًا يكتب لكم الصّك **فَرِهٰانٌ مَقْبُوضَةٌ** يقتضي بينونة المرتهن بالرّهن و أجمع العلماء على صحّة قبض المرتهن و كذلك على قبض وكيله **فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا** يعني أن كان الّذي عليه الحقّ و هو المديون أميناً عند صاحب الحقّ وثقة **فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ** أي ينبغي أن يؤدّي الّذي عليه الحقّ أمانته بأن لا يجحد حقّه ولا يبخس منه شيئاً و يؤدّيه اليه وافياً من غير مطل ولا تسويف، وأراد بقوله، أمانته، ما أئتمن فيه فهو مصدر بمعنى المفعول **وَ لْيَتَّقِ اللّٰهَ رَبَّهُ** أي وليّتق الّذي عليه الحقّ عقوبة اللّه فيما أؤتمن عليه بِجحوده أو النّقصان منه **وَ لاٰ تَكْتُمُوا الشَّهٰادَةَ** يعني بعد تحمّلها و هو خطاب للشّهود **وَ مَنْ يَكْتُمْهٰا** أي من يكتم الشّهادة **فَإِنَّهُ اٰثِمٌ قَلْبُهُ** إضافة الإثم الىٰ القلب مشعرٌ بأنّ الكِتمان يقع بالقلب و هو كذلك لأنّ الغرم عليه إنّما يقع به **وَ اللّٰهُ بِمٰا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ** أي هو عالم بما تسّرونه وتعلنونه من الأقوال والأفعال وفي الآية فوائد:

الأولى: أنّ وصف الرّهان بالمقبوضة يدّل على اشتراط القبض بل قيل بعدم إنعقاد الرّهن بدون القبض و يؤيّده **ما رواه الشّيخ عن الباقر** عليه السلام **قال** عليه السلام: **لا رَهن إلاّ مقبوضاً**، و ذهب جماعة من الأصحاب منهم الشّيخ في الخلاف و ابن ادريس الىٰ عدم الإشتراط ويه قال مالك من العامّة للأصل و لعموم الأوامر الدّالة على الوفاء بالعقود و أجابوا عن الآية بأنّها دلّت على الإشتراط بطريق الخطاب و هو ليس حجّة عند المحققين و بأنّ القبض لو كان شرطاً في الرّهن لكان ذكر القبض تكراراً لا فائدة فيه فكما لا يحسن أن يقال رهان مقبولة ان يقال مقبوضة و لأنّه سمّاه رهناً قبل ذكر القبض و المجاز خلاف الأصل وبأنّ الأية وردت لبيان الإرشاد الى حفظ المال و ذلك انّما يتمّ بالإقباض كما أنّه إلاّ بالارتهان فالاحتياط لحفظ المال يقتضي القبض كما يقتضي الرّهن و كما أنّ الرّهن ليس شرطاً في الدّين فكذلك القبض في الرّهن و يُؤيّده التقيّيد بالسفر و عدم وجود الكاتب إذ لو تجرد الرّهن عن الإقباض في تلك الحال لكان فطنّة للإنكار فلا يحصل الإستيثاق لأنّه لا يسمع قول مدّعي الرّهن عند التّنازع و بأنّ الرّواية ضعيفة لجهالةٍ في السّند بإشتراك الرّاوي هـذا خـلاصة كـلام النّـافين للإشتراط و هو الحقّ الحقيق بالاتّباع ثمّ بناءً على القول بكون القبض شرطاً فهل هو شرط لصّحة الرّهن بمعنى أنّه لو لم يقع لكان الرّهن باطلاً أو هو شرط اللّزوم بمعنى أنّه لو لم يقع لكان صحيحاً إلاّ أنّه ليس بلازم فيجوز له الرّجوع فيه ففيه قولان والثّاني أقوى.

الثّانية: حيث قلنا بعدم الإشتراط في دوام القبض هل يكفي حصول فسّماه ولو بعد مضّي زمانٍ من العقد لصدق حصول القبض بالجملة أوّلا.

الثّالثة: يدّل الإرشاد الى الإستيثاق لحفظ المال بالرّهن أنّه لا يصّح رهن مالا يمكن إستيفاء الحقّ منه كالأعيان الّتي لا يصّح تملّكها كالحُر، والأعيان الّتي لا يصّح بيعها كالأعيان النّجسة و آلات القمار و نحو ذلك.

الرّابعة: يشعر الإرشاد بذلك الى حفظ المال كون الرّهن أمانة لا تضمن إلاّ مع التّعدي أو التّفريط إذ لو كان مضموناً مطلقاً لا تحصل الغاية الكاملة بل ربّما كان ذلك باعثاً لإتلاف المال كما إذا هلك الرّهن فيكون ذلك تغريراً.

الخامسة: النّهي عن كتمان الشّهادة عند الإحتياج اليها لإثبات الحقّ.

و قد روي عن أبي جعفر عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله من كتم شهادةً أو شهد بها ليهدر دم إمرءٍ مسلمٍ أتى يوم القيامة لوجهه كدوح تعرفه الخلائق باسمه و نسبه وفي الفقيه عن جابر عنه عليه السلام قال، آثم قلبه أيّ كافر قلبه، وفي الأمالي عنه صلى الله عليه وآله ومن كتمها أطعمه اللّه لحمه على رؤوس الخلائق قوله اللّه عزّ وجلّ: وَ مَنْ يَكْتُمْهٰا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ.

السّادسة: يستفاء من الآية أنّ كتمان الشّهادة من الكبائر لتّوعد اللّه سبحانه عليه بالإثم والعذاب و يدّل عليه.

ما روي عن إبن جعفر عليه السلام لما سُأل عن الكبائر قال: كلمّا أوعد اللّه عليه النّار.

و ما روي عن عبد العظيم عن الجواد عليه السلام عن آبائه عن الصّادق عليه السلام و ذكر الكبائر الى أن قال: و كتمان الشّهادة لأنّ اللّه يقول: وَ مَنْ يَكْتُمْهٰا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ.

■

لِلَّهِ مَا فِي السَّمٰوٰاتِ وَ مَا فِي الْأَرْضِ وَ إِنْ تُبْدُوا مَا فِيٓ أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَآءُ وَ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَآءُ وَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٨٤﴾

◁ اللّغة

تُبْدُوا: بضمّ التّاء من أبدىٰ يُبدي و اصله، تُبديُو،أي تظهروا والباقي واضح.

◁ الإعراب

فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَآءُ وَ يُعَذِّبُ يقرآن بالرّفع على الإستئناف أي فهو يغفر، و بالجزم عطفاً على جواب الشّرط، و بالنّصب عطفاً علىٰ المعني بإضمار، أن، تقديره، فإن يغفر و هذا يسّمىٰ الصّرف والتقدّير، يكن منه حساب و غفران.

◁ التّفسير

لِلَّهِ مَا فِي السَّمٰوٰاتِ وَ مَا فِي الْأَرْضِ قد تقدّم معناه وقلنا أنّ اللاّم في قوله:**لِلَّهِ** لِلملك، أو للإختصاص فعلى الأوّل معناه أنّه مالك السّمٰوات و الأرض، و على الثّاني ما في السّمٰوات و الأرض مختصّ به تعالىٰ والمآل واحد لأنّه الخالق و ما سواه مخلوق له **وَ إِنْ تُبْدُوا مَا فِيٓ أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ** أي إن تظهروا ما في أنفسكم بالقول و العَمل أو تخفوه يحاسبكم به اللّه إختلفوا في معناه علىٰ أقوالٍ.

الأوّل: أنّها منسوخة قاله ابن عبّاس و ابن مسعود و أبو هريرة و الشّعبي و غيرهم و أنّه بقىٰ هذا التكلّيف حولاً حتّىٰ أنزل اللّه الفرج بقوله: **لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ**

نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا[١] نقل القُرطبي عن صحيح مسلم عن إبن عبّاس قال لمّا نزّلت، إن تُبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به اللّه، قال دخل قلوبهم منها شيئ لم يدخل قلوبهم من شيئ فقال النّبي ﷺ قولوا سمعنا وأطعنا، قال فألقى اللّه الايمان في قلوبهم فأنزلَ اللّه تعالىٰ:

لايُكَلِّفُ اَللّٰهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهٰا لَهٰا مٰا كَسَبَتْ وَ عَلَيْهٰا مَا اَكْتَسَبَتْ رَبَّنٰا لا تُؤاخِذْنٰآ إِنْ نَسينٰآ أَوْ أَخْطَأْنٰا[٢] قال قد فعلت **رَبَّنٰا وَ لا تَحْمِلْ عَلَيْنٰآ إِصْرًا كَمٰا حَمَلْتَهُ عَلَى اَلَّذينَ مِنْ قَبْلِنٰا** قال قد فعلت)**رَبَّنٰا وَ لا تُحَمِّلْنٰا مٰا لا طٰاقَةَ لَنٰا بِهِ وَ اَعْفُ عَنّٰا وَ اَغْفِرْ لَنٰا وَ اَرْحَمْنٰآ أَنْتَ مَوْلٰنٰا فَانْصُرْنٰا عَلَى اَلْقَوْمِ اَلْكٰافِرِينَ** (قال قد فعلت) في روايةٍ فلمّا فعلوا ذلك نسخها اللّه ثمّ أنزَل اللّه تعالىٰ:**لايُكَلِّفُ اَللّٰهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهٰا**[٣].

الثاني: قال إبن عبّاس و عكرمة والشّعبي ومجاهد، أنّها محكمة مخصُوصة و هي في معنىٰ الشّهادة التّي نهى عن كتمها ثمّ أعلم في هذه الآية أنّ الكاتم لها المُخفي ما في نفسه محاسب.

الثّالث: أنّ الآية فيما يطرء علىٰ النّفوس من الشّك و اليقين وقاله مجاهد أيضاً.

الرّابع: أنّها محكمة عامّة غير منسوخة واللّه محاسب خلقه على ما عملوا من عملٍ و على ما لم يعملوه ممّا ثبت في نفوسهم و أضمروه و نووه و أرادوه، فيغفر للمؤمنين و يأخذ به أهل الكفر و النّفاق ذكره الطّبري عن قومٍ و أدخل عن ابن عبّاس ما يشبه هذا روي عن علّي إبن أبي طلحة عن إبن عبّاس أنّه قال لم تنسخ ولكن إذا جمع اللّه الخلائق يقول أنّي أخبركم بما أكننتم في أنفسكم فأمّا المؤمنون فيخبرهم ثمّ يغفر لهم و امّا أهل الشّك والرّيب فيبخرهم بما

١- البقرة= ٢٨٦
٢- البقرة= ٢٨٦
٣- البقرة= ٢٨٦

أخفوه من التكذيب فذلك قوله: **يُحَاسِبْكُمْ بِهِ ٱللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَآءُ وَ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَآءُ** انتهىٰ كلام القُرطبي.

الخامس: رجّح الطّبري أنّ الآية محكمة غير منسوخة قال إبن عطيّة و هذا هو الصّواب و ذلك أنّ قوله تعالىٰ:**إِنْ تُبْدُوا مَا فِيٓ أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ** معناه، ممّا في وسعكم و تحت كسبكم و ذلك إستصحاب المعتقد و الفكر، و قد أطالوا الكلام حول الآية بما لا فائدة فيه، و قال البيضاوي، و أن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه، يعني ما فيها من السُّوء والعزّم عليه لترتّب المغفرة و العذاب عليه، يحسابكم به اللّه، يوم القيامة و هو حجّة علىٰ من أنكر الحساب كالمعتزلة و الروافّض انتهى.

أقول أنظر الى الكلام الّذي بزعمه تفسير لكلام اللّه تعالىٰ مع أنّه ليس إلاّ كذب و بهتان و ذلك لأنّ مَن آمن باللّه و رسوله و اليوم الأخر كيف أنكر الحساب يوم القيامة و من الّذي أنكره من المعتزلة و الرّوافّض حفظنا اللّه من سوء النّية و العناد.

و قال الطّبرسي ﭬ في قوله: **يُحَاسِبْكُمْ بِهِ ٱللَّهُ** أي يعلم اللّه ذلك فيجازيكم عليه و قيل معناه إن تظهروا الشّهادة أو تكتموها فأنّ اللّه يعلم ذلك و يجازيكم به و قيل أنّها عامّة في الأحكام الّتي تقدّم ذكرها في السّورة خَوفّهم الّه سبحانه من العمل بخلافها و قال قوم أنّ هذه الآية منسوخة بقوله: **لَايُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا**(١) و قد روى في ذلك خبراً ضعيفاً و هذا لا يصّح لأنّ تكليف ما ليس في الموضع غير جائز فكيف ينسخ و أنّما المراد بالأية ما يتناوله الأمر والنّهي من الإعتقادات و الارادات و غير ذلك ممّا هو مستوراً عنّا فأمّا ما يدخل في التكلّيف من الوساوس و الهواجس و ممّا لا يمكن التّحفظ عنه من الخواطر فخارج عنه لدلالة العقل و لقوله، تجوز لهذه الآية عن نسيانها

١- البقرة= ٢٨٦

و ما حدثّت به أنفسها فعلىٰ هذه يجوز أن يكون الآية الثّانية مبيّنةٌ للأولى (لِلّه و أزالت توهّم من صرف ذلك الى غير وجهه وظّن أنّ ما يخطر بالبال أو يتحدّث به النّفس ممّا لا يتعلّق بالتكلّيف فأنّ اللّه يؤاخذ به والأمر بخلاف ذلك انتهىٰ.

أقول هذه الأقوال الّتي نقلناها هي رؤوس أقوال المفسّرين من العامّة والخاصّة في تفسير الآية والّذي حصل لنا في المقام هو أنّ الخواطر النّفسانية علىٰ قسمين.

أحدهما: ما يحصل في القلب بسبب الإرادة والعزم على إيجاده في الخارج و بعبارةٍ أخرىٰ يريد أوّلاً و يعزم على إيجاده ثانياً كما هو الشأن في كلّ فعلٍ صادر عن الإنسان في الخارج أو يصدر فأنّ الفعل مسبوق بالمبادئ الأربعة من التّصور و الشّوق، و الإرادة، و حركة العضلات نحو إيجاده فإذا تمّت المبادئ لا محالة يوجد في الخارج لولا المانع كما في جميع العلل و ذلك لأنّ وجود العلّة لا يكفي في تحقّيق المعلول إذا كان هناك مانع يمنع عن تأثير العلّة و لذلك قالوا من شرائط تأثير العلّة وجود المقتضي و رفع المانع.

ثانيهما: ما يحصل في القلب و لا يكون مسبوقاً بشيٍ من المبادئ المذكورة يعبّر عنه بالخواطر النّفسانية و الهواجس و الوساوس و امثال ذلك فهذه الأوصاف قد تعرض عليها آناً فآناً بدون التّصور و الشوق والإرادة وهذا ممّا لا ينكره إلاّ مكابر إذا عرفت هذا فنقول.

الثّواب و العقاب و بعبارةٍ أخرى الجزاء يوم القيامة لا يكون إلاّ على المقدور للعبد و امّا ما لا قدرة له على إيجاده أو تركه فلا ثواب عليه و لا عقاب فكما أنّ الفعل يجب أن يكون مقدوراً حتّى يثاب عليه كذلك تركه أيضاً يجب أن يكون تحت قدرة العبد حتّىٰ يعاقب عليه و هذا في جانب الفعل واضح لا خفاء فيه و أمّا جانب التّرك فكما اذا كان العبد مجبوراً على فعل الحرام و لا يقدر على تركه مثل المضّطر و المكره والمجبور و امثال ذلك ففي هذه الصّورة هل يجوز لقائلٍ أن يقول هو معاقبٌ على فعل الحرام أو علىٰ عدم تركه و

المفروض أنّه غير قادرٍ علىٰ التّرك و محصّل الكلام هو أنّ فعل الصّلاة و الزّكاة و الحجّ و الصّوم و أمثالها مشروط بقدرة العبد و ترك الحرام من الزّنا و شرب الخمر و امثال ذلك أيضاً مشروط بقدرته و الدّليل عليه من العقل و النّقل ثابت، أمّا العقل فلأنّه لولا ذلك لَلزِم منه التّكليف بما لا يطاق و هو قبيح عقلاً، و امّا لا نقل فلقوله تعالىٰ: **لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا**[1] هذا في الأفعال و التّروك الخارّجية ظاهر لا كلام لأحدٍ فيه إلاّ من سفه نفسه.

ثمّ أنّه لا شكّ أنّ الأفعال الخارّجية لها منشأٌ في القلب بمعنى أنّ الفعل الخارجي في الحقيقة معلول للنّفس و السّنخية بين العلّة والمعلول موجودة فحينئذٍ أن كان الفعل في الخارج مسبوقاً بالمبادئ المذكورة الموجودة في النّفس يسمّى إختيارياً وهذا هو الّذي يثاب به و يعاقب عليه و أن كان غير مسبوق بها أي صدر الفعل من غير تصّور و تفكّر و شوقٍ و إرادة فهو خارج عن الإختيار و قد يُسمّىٰ باللّغو و العبث والباطل و امثال ذلك و هذا ممّا لا يُثاب به و لا يعاقب عليه و اذا كان الفعل الصّادر عن الإنسان هكذا حاله فما ظنّك بالخواطر النّفسانية التّي لا أساس لها أصلاً فكيف يعقل بثبوت الجزاء عليها اذا تمهدت هذه المقدّمة لك فلنرجع الىٰ تفسير كلام اللّه ونقول قوله:

إِنْ تُبْدُوا مَا فِيٓ أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ ٱللَّهُ.

معناه واللّه أعلم هو إن تبدوا، أي تظهروا في قالب العَمل في الخارج **مَا فِيٓ أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ** بأن لا تظهروا الفعل لوجودِ مانع هناك، **يُحَاسِبْكُمْ بِهِ ٱللَّهُ** مثلاً اذا أراد الإنسان قتل زيد ظلماً و أضمرّ ذلك و انتهز الفرصة له فلمّا ظفر به وجده ميّتاً فهذا ممّا يحاسبه اللّه به و هكذا في الصّورة المفروضة اذا منع مانع عن قتله أو أنّ المريد للقتل مات قبل أن يرىٰ زيداً فيقتله ففي هذه الصّورة هو محاسبٌ علىٰ ما في نفسه لأنّه كان عازماً قاطعاً مريداً حريصاً على

١- البقرة= ٢٨٦

قتله بحيث لو لم يوجد هناك مانع لقتله فالمحاسبة عليه معقول مشروعٌ و امّا أنّه معقول فلأنّه أراد قتله بالإختيار فالعزم و الإرادة مسبوقان بالتّصور والشّوق إلاّ أنّه أي المراد لم يوجد في الخارج لا لأنّه لم يوجده بل لعدم قدرته عليه بوجود المانع فقوله، تعالىٰ: **أَوْ تُخْفُوهُ** إشارة الى هذه الدّقيقة هذا و امّا القول بأنّ المحاسبة على مطلق الخواطر النّفسانية و الوساوس الشّيطانية فلا يقول به عاقل فضلاً عن فاضلٍ يدّعي العلم و المعرفة، و امّا أنّه مشروع:

قال الّله تعالى: **لَهَا مَا كَسَبَتْ وَ عَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ**[١].

قال الّله تعالى: **وَ لٰكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ**[٢]

قال الّله تعالى: **ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَ هُمْ لَا يُظْلَمُونَ**[٣]

قال الّله تعالى: **لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ**[٤] و امثال ذلك من الأيات و من المعلوم أنّ كسب الشّئ غير ما يعرض عليه من غير كسب له و الجزاء علىٰ ما كسب و لا خفاء بعد الكَسب هذا ما فهمنا من الآية واللّه تعالى أعلم بكلامه و ما أوتيتم من العلم إلاّ قليلاً ثمّ أنّ الّذي ذكرناه في توجيه الآية بناءً علىٰ أن يكون الخطاب في قوله: **إِنْ تُبْدُوا** أو تخفوه للمؤمنين و امّا اذا قلنا بعموم الخطاب بحيث يشمل الكفّار و المنافقين أيضاً فلا نحتاج الىٰ هذه التكلّفات لأنّ الكافر والمُنافق يحاسب علىٰ ما في قلبه بل يُعاقب عليه و هو واضح أمّا الكافر فلاكلام فيه و امّا المنافق فلأنّه أضمر الكفر و أظهر الإيمان و الإسلام فلو لم يحاسب و لا يعاقب على ما أضمر في قلبه فعلى أيّ شئ يحاسب غداً يوم القيامة و ما الفرق بينه و بين المؤمن و هو ممّا لا خفاء فيه، و امّا قوله: **فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** فمعناه معلوم لأنّ الأمور بيده وقدرته عامّة تامّة كاملة فأن شاء عذّب وأن شاء غفر.

■

١- البقرة=٢٨٦.
٢- البقرة=٢٢٥.
٣- البقرة=٢٨١.
٤- إبراهيم=٥١.

اٰمَنَ ٱلرَّسُولُ بِمٰآ أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَ ٱلْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ اٰمَنَ بِاللّٰهِ وَ مَلاٰئِكَتِهِ وَ كُتُبِهِ وَ رُسُلِهِ لاٰ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَ قٰالُوا سَمِعْنٰا وَ أَطَعْنٰا غُفْرٰانَكَ رَبَّنٰا وَ إِلَيْكَ ٱلْمَصيرُ ﴿٢٨٥﴾ لاٰ يُكَلِّفُ ٱللّٰهُ نَفْسًا إِلاّٰ وُسْعَهٰا لَهٰا مٰا كَسَبَتْ وَ عَلَيْهٰا مَا ٱكْتَسَبَتْ رَبَّنٰا لاٰ تُؤٰاخِذْنٰآ إِنْ نَسينٰآ أَوْ أَخْطَأْنٰا رَبَّنٰا وَ لاٰ تَحْمِلْ عَلَيْنٰآ إِصْرًا كَمٰا حَمَلْتَهُ عَلَى ٱلَّذينَ مِنْ قَبْلِنٰا رَبَّنٰا وَ لاٰ تُحَمِّلْنٰا مٰا لاٰ طٰاقَةَ لَنٰا بِهِ وَ ٱعْفُ عَنّٰا وَ ٱغْفِرْ لَنٰا وَ ٱرْحَمْنٰآ أَنْتَ مَوْلٰنٰا فَانْصُرْنٰا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكٰافِرينَ ﴿٢٨٦﴾

◁ اللّغة

غُفْرٰانَكَ: غَفَر الشّيء ستره و غطّاه والغُفران والمَغفرة من اللّه هو أن يصون العبد من أن يمسّه العذاب.

لاٰ يُكَلِّفُ: التّكليف مأخوذ من الكُلْفَة بمعنى المشقة.

إِنْ نَسينٰآ: النّسيان ترك الإنسان ضبط ما استودع إمّا لضعف قلبه و امّا عن غفلةٍ.

أَخْطَأْنٰا: الخطأ العدول عن الجهة.

إِصْرًا: الأصر عقد الشّيء و حبسه بقهره و قيل معناه الثِّقل.

تُحَمِّلْنٰا: التَّحميل التكلّيف.

وَ ٱعْفُ: العفو الصَّفح عن الذّنب.

◁ الإعراب

وَ ٱلْمُؤْمِنُونَ معطوف علىٰ الرّسول و قيل المؤمنون مبتدأ وكُلٌّ مبتدأ ثان و التقدّير كلٌّ منهم و اٰمَنَ خبر المبتدأ الثّاني والجملة خبر الأوّل و أفرد الضّمير

في آمَنَ، ردّاً على لفظ كلٍّ وَ كُتُبِهِ يقرأ بغير ألف علىٰ الجمع لأنّ الذّي مَعه جمع و يقرأ وكتابه، على الأفراد و هو جنس و يجوز أن يراد به القرأن وحده وَ رُسُلِهِ يقرأ بالضمّ و الإسكان و قد ذكر وجهه لَا نُفَرِّقُ تقديره يقولون و هو في موضع الحال و أضاف بَيْنَ الى أحدٍ لأنّ أحداً في معنىٰ الجمع وقَالُوا معطوف علىٰ، آمن، غُفْرَانَكَ أي أغفر غفرانك فهو منصوب علىٰ المصدر كَسَبَتْ وفي الثّانية ٱكْتَسَبَتْ قيل لا فرق بينهما.

◁ التّفسير

روي في الإحتجاج عن موسى بن جعفر عن أبيه عن أباءه عليهم السّلام إحتجاجاً طويلاً من أمير المؤمنين عليه السلام: على حبرٍ من أحبار اليهود ممّن قرأ الصُّحف و الكتب و في هذا الحديث أشار عليه السلام الىٰ كثيرٍ من معجزات النّبي صلى الله عليه وآله وفَضائله الّتي فضله اللّه تعالىٰ علىٰ جميع أنبياءه وهذا لفظ الحديث.

روي عن موسىٰ ابن جعفر عن أبيه عن أباءه عليهم السّلام عن حسين بن علّي عليه السلام قال: أنّ يهوديّاً من يهود الشّام و أحبارهم كان قد قرأ التّوراة، والانجيل والزّبور صحف الأنبياء عليهم السّلام و عرف دلائلهم جاء الىٰ مجلسٍ فيه أصحاب رسول اللّه صلى الله عليه وآله و فيهم علّي ابن أبي طالب وابن عبّاس وابن مسعود و أبو سعيد الجهني فقال يا أمّة محمّد ما تركتم لنّبى درجة و لا لمرسلٍ فضيلة إلاّ أنحلتموها نبيّكم فهل تجيبوني عمّا أسألكم عنه، فاعرض القوم عنه فقال علّي بن أبي طالب نعم ما أعطى اللّه نبيّاً درجة و لا مرسلاً فضيلة إلاّ و قد جمعها لمحمّدٍ صلى الله عليه وآله و زاد محمّداً على الأنبياء أضعافاً مضاعفة فقال اليهودي فهل أنت مجيبي قال عليه السلام له نعم

سأذكر لك اليوم من فضائل رسول اللّه صلى الله عليه وآله ما يقّر اللّه بـه عـين المؤمنين و يكون فيه إزالة الشّك لِلشّاكين في فضائله أنّه كان اذا ذكر لنفسه فضيلة قال و لا فخر وأنا أذكر لك فضائله غير مـضّرٍ بالأنبياء و لا منقصٍ لهم ولكن شكراً لِلّه على ما أعطى محمّداً مثل ما أعطاهم و ما زاده اللّه و ما فضّله عليهم فقال له اليـهودي أنّـي أسألك فأعد له جواباً قال له علّى هات قال اليهودي هـذا آدم عليه السلام أسجد اللّه له ملائكته فهل فَعل لمحمّدٍ شيئاً من هذا فقال له علّى عليه السلام لقد كان كذلك أسجد اللّه لآدم مـلائكته فأنّ سـجودهم له لم يكـن سجود طاعة و أنّهم عبدوا آدم من دُون اللّه عزّ وجلّ اعترافاً لآدم بالفضيلة و رحمة من اللّه له و محمّداً أعطي ما هو أفضل من هذا أنّ اللّه عزّ وجلّ صلّى عليه في جبروته والمـلائكة بأجـمعها وتـعبّد المؤمنين بالصّلاة عليه فهذه زيادة له يايهوّدي قال له اليّهودي فأنّ آدم تاب اللّه عليه بعد خطيئته قال له علّي عليه السلام لقـد كـان كـذلك و محمّد نزل فيه ما هو أكبر من هذا من غير ذنب أتى قال اللّه عزّ و جلّ: **لِيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَ مَا تَأَخَّرَ**[1] أنّ محمّداً غير موافٍ يوم القيامة بوزرٍ ولا مطلوب فيها بذنبٍ.

أقول ثمّ سأل اليّهودي عنه عليه السلام في القياس بأدريس النّبي و نوح النّبي و هُود النّبي و صالح النّبي و غيرهم من الأنبياء حتّىٰ انتهىٰ كلامه الى سليمان النّبي عليه السلام و عرضنا من ذكر الحديث هذا فقال اليّهودي فأنّ هذا سليمان قد سخّرت له الرّياح فسارت به في بلاده غدّوها شهر و رواحـها شـهر قـال له علّي عليه السلام لقد كان كذلك و محمّد أعطي ما هو أفضل من هذا أنّه أسرى به من المسجد الحرام الى المَسجد الأقـصىٰ مسـيرة شـهر و عـرج فـي مـلكوت

١- الفتح = ٢

السّموات مسيرة خمسين ألف عام في أقلّ من ثلث اللّيلة حتّى انتهى الى ساق العرش فدنى بالعلم فتدلّى من الجنّة رفرف أخضر و غشي النّور بصره فرأى عظمة ربّه عزّ وجلّ بفؤاده ولم يره بعينه فكان كقاب قوسين بينه و بينها أو أدنى فأوحى اللّه الى عبده ما أوحى وكان فيما أوحى اليه الأية التّي في سورة البقرة قوله:**لِلّٰهِ مٰا فِى ٱلسَّمٰوٰاتِ وَ مٰا فِى ٱلْأَرْضِ وَ إِنْ تُبْدُوا مٰا فىٓ أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحٰاسِبْكُمْ بِهِ ٱللّٰهُ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشٰآءُ وَ يُعَذِّبُ مَنْ يَشٰآءُ وَ ٱللّٰهُ عَلٰى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ**[1] وكانت الآية قد عرضت علىٰ الأنبياء من لدن آدم الىٰ أن بعث اللّه تبارك و تعالىٰ محمّداً و عرضت علىٰ الأمم فابوا أن يقبلوها من ثقلها و قبلها رسول اللّه و عرضها علىٰ أُمّته فقَبلوها فلمّا رأى اللّه تعالىٰ منهم القبول علم أنّهم لا يطيقونها فلمّ أن سار الى ساق العرش كرَّر عليه الكلام ليفهمه فقال، آمن الرّسول بما أنزل اليه من ربّه، فأجاب صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ مجيباً عنه و عن أمّته.

وَ ٱلْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللّٰهِ وَ مَلآئِكَتِهِ وَ كُتُبِهِ وَ رُسُلِهِ لاٰ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ فقال جلّ ذكره لهم الجنّة والمغفرة علىٰ أن فعلوا ذلك فقال النّبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ أما اذا فعلت ذلك بنا **غُفْرٰانَكَ رَبَّنٰا وَ إِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ** يعني المَرجع في الأخرة قال فأجابه اللّه عزّ وجلّ قد فعلت ذلك بك و بأمّتك ثمّ قال عزّ وجلّ أمّا اذا قبلت الآية بتشدّيدها و عظم ما فيهاعرضتها علىٰ الأمم فأبوا أن يقبلوها و قبلها أمّتك حقٌّ علي أن أرفعها عن أُمّتك.

لاٰ يُكَلِّفُ ٱللّٰهُ نَفْسًا إِلاّٰ وُسْعَهٰا لَهٰا مٰا كَسَبَتْ من خيرٍ **وَ عَلَيْهٰا مَا ٱكْتَسَبَتْ** من شرٍّ فقال النّبي لمّا سمع ذلك أما اذا فَعلت ذلك بي و بأُمّتي فزدني قال، سَل، قال :**رَبَّنٰا لاٰ تُؤٰاخِذْنآ إِنْ نَسِينآ أَوْ أَخْطَأْنٰا** قال اللّه عزّ وجلّ لستُ أؤاخذ أمّتك بالنّسيان والخطأ لكرامتك علّي وكانت الامم السّالفة اذا نسوا ما

١- البقرة= ٢٨٤

ذكّروا به فتحت عليهم أبواب العذاب و قد دفعتُ عن أُمّتك و كانت الامم السّالفة اذا أخطأوا أخذوا بالخطأ و عوقبوا عليه و قد رفعت ذلك عن أمّتك لكرامتك علّي فقال صلى الله عليه وآله اللّهم اذا أعطيتني ذلك فزدني قال اللّه تبارك و تعالى، سل، قال صلى الله عليه وآله **رَبَّنَا وَ لَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى ٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا** يعني بالإصر الشدّائد التّي كانت على من كان قبلنا فأجابه اللّه عزّ وجلّ الى ذلك و قال تبراك إسمه قد رفعت عن أمّتك الأصار التّي كانت على الامم السّالفة كنت لا أقبل صلاتهم إلاّ في بقاع معلومة من الأرض إخترتها لهم و ان بعدت جعلت الأرض كلّها لأمّتك مسجداً و طهوراً فهذه من الأصار التّي كانت على الامم قبلك فرفعتها عن أمّتك، و هكذا رفع اللّه تعالى عن هذه الامّة بسبب النّبي أصراً بعد إصر و ساق الحديث بطوله الىٰ أن قال النّبى صلى الله عليه وآله اذا أعطيتني ذلك كلّه فزدني قال، سل، قال: **رَبَّنَا وَ لَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ** قال تعالىٰ قد فعلتُ ذلك بأُمّتك و قد رفعتُ عنهم بلايا الامم و ذلك حكمي في جميع الأُمم أن لا أكلّف خلقاً فوق طاعتهم فقال النّبي **وَ ٱعْفُ عَنَّا وَ ٱغْفِرْ لَنَا وَ ٱرْحَمْنَآ أَنْتَ مَوْلَٰنَا** قال اللّه عزّ و جلّ قد فعلت ذلك بتائبي أُمّتك ثمّ قال **فَانْصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَافِرِينَ** قال اللّه عزّ وجلّ اسمه أن أُمّتك في الأرض كالشّامة البيضاء في الثّور الأسود هم القادرون وهم القاهرون و يستخدمون و لا يستخدمون لكرامتك علّي و حقٌّ علّي أن أظهر دينك علىٰ الأديان حتّى لا يبقى في شرق الأرض وغربها دين إلاّ دينك أو يؤدّون الىٰ أهل دينك الجزية انتهى موضع الحاجة منه و أن شئت الإطّلاع على تمام الحديث بطوله فعليك بالإحتجاج للطّبرسي قدس سره و أنّما لم ننقل الحديث حَذراً من الإطناب و قد ظهر منه تفسير الآية بنحوٍ أحسن فلا نحتاج في تفسيرها الىٰ بحثٍ وتحقيق وراء ما ذكرناه نعم يستفاد من الآية و الحديث من قوله تعالىٰ: **لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا** عدم التّكليف بما لا يطاق، و من قوله: **لَهَا مَا**

كَسَبَتْ وَ عَلَيْهٰا مٰا اَكْتَسَبَتْ أنّ **كُلُّ نَفْسٍ بِمٰا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ** و لا تزر وازرة وزر أخرىٰ، ومن قوله: **رَبَّنٰا لاٰ تُؤٰاخِذْنٰآ إِنْ نَسِينٰآ أَوْ أَخْطَأْنٰا**، أنّ اللّه تـعالىٰ لا يعاقب العبد على الخطأ والنّسيان.

و من قوله: **وَ لاٰ تَحْمِلْ عَلَيْنٰآ إِصْرًا كَمٰا حَمَلْتَهُ عَلَى اَلَّذِينَ مِنْ قَبْلِنٰا** رفع الشّدائد و المشّاق عن هذه الامّة في التكالّيف و من قوله **وَ اَعْفُ عَنّٰا وَ اَغْفِرْ لَنٰا وَ اَرْحَمْنٰآ**، أنّ الآية المرحومة وقعت موقع العفو والغفران و الرّحمة من قِبل الرَّب.

و من قوله: **فَانْصُرْنٰا عَلَى اَلْقَوْمِ اَلْكٰافِرِينَ** أنّ الإسلام يعلو و لا يعلىٰ عليه و أنّ هـذه الامّـة لو عـملت بـوظيفتها مـواظـبت عـلى فـعل الطّـاعات وتـرك المحرّمات و أخلصت أعمالها لِلّه تعالىٰ فقد فازت بالفوز العظيم.

روي عن قتادة قال: كان رسول اللّه ﷺ اذا قرأ هـذه الآيـة آمـن الرّسول بما أنزل اليه من ربّه حتّىٰ يختمها قال وحقّ اللّـه أنّ لِـلّه كتاباً قبل أن يخلق السّموات والأرض بألفي سنة فوضعه عند فوق العرش فأنزل أيتين فختم بهما البقرة فأيّما بيت قرأتا فيه لم يدخله الشّيطان انتهىٰ.

و في كتاب الإحتجاج عن النّبي ﷺ حـديث طـويل وفـيه خـطبة الغدير:

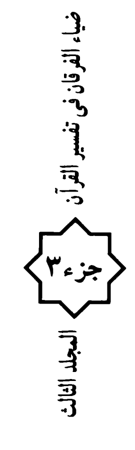
و فيها معاشر النّاس قولوا الّذي قلتُ لكم و سلّموا على علّي بإمرة المؤمنين وقولوا :سَمِعْنٰا وَ أَطَعْنٰا غُفْرٰانَكَ رَبَّنٰا وَ إِلَيْكَ اَلْمَصِيرُ.

و في كتاب التّوحيد بأسناده عن أبي عبد اللّه عليه السلام قال: قال رسول اللّه ﷺ رفع عن أمّتي تسعة أشياء: الخَطأ والنّسيان و ما أكرهوا عليه و ما لا يطيقون وما لا يعلمون و ما أضطرّوا عـليه والحسـد والطّيرة والتفكير في الوسوسة في الخلق و ما لا ينطق بشفهٍ.



أقول هذا الحديث يستفاد من هذه الأيات و الحمد لِلّه ربّ العـالمين و الصّلاة على رسوله و آله المنتجبين و ليكن هذا أخر الكلام في تفسير سورة البقرة و نحمده و نشكره على هذا التّوفيق و أرجو من فضله أن يوفّقني لاتمام هذا السِّفر الجليل وأن يرزقني توفيق الطّاعة و بعد المعصية و الإخلاص في تفسير كلامه و أن يعصمني عن الخَطأ والزّلل والسّهو والنسّيان و أن لا يَجعل قلبي و فكري مرتعاً للشّيطان فاللّه خير حافظاً و هو أرحم الرّاحمين.





سورة آل عمران

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحيمِ

الٓمٓ ﴿۱﴾ اَللّٰهُ لآَ إِلٰهَ إِلَّا هُوَ اَلْحَيُّ اَلْقَيُّومُ ﴿۲﴾ نَزَّلَ عَلَيْكَ اَلْكِتٰابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمٰا بَيْنَ يَدَيْهِ وَ أَنْزَلَ اَلتَّوْرٰيةَ وَ اَلاْنِجيلَ ﴿۳﴾ مِنْ قَبْلُ هُدًى لِلنّٰاسِ وَ أَنْزَلَ اَلْفُرْقٰانَ إِنَّ اَلَّذينَ كَفَرُوا بِاٰيٰاتِ اَللّٰهِ لَهُمْ عَذٰابٌ شَديدٌ وَ اَللّٰهُ عَزيزٌ ذُو اَنْتِقٰامٍ﴿۴﴾

الٓمٓ، اَللّٰهُ لآَ إِلٰهَ إِلَّا هُوَ اَلْحَيُّ اَلْقَيُّومُ.

أقول قد مرّ الكلام في تفسيره في أية الكُرسّي بما لا مزيد عليه فلا وجه لإعادته في المقام، قالوا صدر هذه السُورة الىٰ نيّف وثمانين أية نزل في وفد نجران و كانوا نصارىٰ وفدوا علىٰ رسول اللّه ﷺ بالمدينة في ستّين راكباً فيهم من أشرافهم أربعة عشر رجلاً في الأربعة عشر ثلاثة، نفر اليهم يرجع أمرهم، العاقب أميرهم و ذو أراءهم و اسمه عبد المسيح، و السيّد ثمالهم وصاحب مجتمعهم و إسمه الأيهم، و أبو حارثة بن علقمة أحد بحكر بن وائِل أُسقفهم و عالمهم فدخلوا علىٰ رسول اللّه ﷺ أثر صلاة العصر عليهم ثياب الحبران جببٌ و أردية فقال أصحاب النّبي ﷺ ما رأينا وفداً مثلهم جمالاً و جلالةً و حانت صلاتهم فقاموا فصّلوا في مسجد النّبي الى المشرق فقال

النّبي ﷺ دعوهم ثّم أقاموا بها أيّاماً ينظرون (يُناظرون) رسول اللّه ﷺ في عيسىٰ و يزعمون أنّه ابن اللّه الىٰ غير ذلك من أقوال شنيعةٍ مضطربة و رسول اللّه ﷺ يرّد عليهم بالبراهين السّاطعة و هم لا يبصرون فنزّل فيهم صدر هذه السُّورة الى نيّف و ثمانين أية الىٰ أن آل أمَرهم الىٰ أن دعاهم رسول اللّه الى المباهلة حسب ما هو مذكور في سيرة ابن إسحاق و غيره و سيأتي الكلام فيها في محلّه إن شاء اللّه تعالىٰ.

نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتٰابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِما بَيْنَ يَدَيْهِ وَ أَنْزَلَ ٱلتَّوْرٰيةَ وَ ٱلْاِنْجِيلَ، مِنْ قَبْلُ هُدًى لِلنّاسِ وَ أَنْزَلَ ٱلْفُرْقانَ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا بِاٰياتِ ٱللّٰهِ لَهُمْ عَذابٌ شَدِيدٌ وَ ٱللّٰهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنْتِقامٍ.

◁ اللّغة

نَزَّلَ: النّزول في الأصل هو إنحطاط من عُلّوٍ يقال نزّل عن دابّته و نزّل في مكان كذا حطَّ رحله فيه.

ٱلْكِتٰابَ: بكسر الكاف في الأصل مصدر قولك كَتَب كتباً وكتاباً ثمّ سُمّي المكتوب: فيه كتاباً و الكِتاب في الأصل إسمٌ للصّحيفة مع المكتوب فيه.

وَ أَنْزَلَ ٱلتَّوْرٰيةَ وَ ٱلْاِنْجِيلَ: الفرق بين التنزّيل و الانزال مع أنّهما بمعنىٰ واحد هو أنّ التّنزيل يختصّ بالموضع الذّي يشير اليه انزاله مصراً و مرّةً بعد أخرىٰ، والإنزال عامّ.

ٱلتَّوْرٰيةَ الكِتاب الذّي ورثوه عن موسىٰ و قد قيل هو فوعلة و لم يجعل، تفعلة لقلّة وجود ذلك و التّاء بَدل من الواو نحو، يتصوّر لأنّ أصله و يصوّر.

ٱلْاِنْجِيلَ هو كتاب عيسى ابن مريم عليه‌السلام يذكر و يؤنّث فمن أنّث أراد الصّحيفة و من ذكّر أراد الكتاب قيل هو، أفعيل، من النجل و هو الأصل، فالإنجيل أصل العلوم والحكم و قيل هو من نجلت الشّئ اذا استخرجته

فالإنجيل مستخرجٌ به علومٌ و حكم و النَّجل النّسل أيضاً.

عَزِيزٌ: العزيز القاهر الغالب.

◁ الإعراب

بِالْحَقِّ حال من الكتاب **مُصَدِّقًا** حالاً ثانياً و قيل بدل من، موضع، الحقّ حال من الضّمير في المجرور **مِنْ قَبْلُ** يتّعلق بأنزل، بنيت، قبل، لقطعها عن الاضافة **هُدًى** حال من الإنجيل و التّوارة **لِلنَّاسِ** صفة لهدى، أو متعلّق به **ٱلْفُرْقَانَ** بضمّ الفاء فعلال من الفرق و هو مصدر في الأصل فيجوز أن يكون بمعنى الفارق أو المفرُوق.

◁ التّفسير

نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَابَ بِالْحَقِّ.

و الضّمير في قوله: **نَزَّلَ** راجع الى اللّه الحيّ القيّوم أي نـزَّل اللّـه عـليك الكتاب، و المراد بالكتاب هنا القرأن و عليه فاللاّم فيه للعهد الحاضر أي نزّل عليك الكتاب المعهود أو الحاضر و هو القرأن لا غير اذ لم ينزل عليه غيره و المصدر أعني به الكتاب بمعنىٰ المفعول فالكتاب إسم للصّحيفة مع المكتوب فيه و هو مأخوذ من الكُتب الّذي هو ضـمّ أديـم الىٰ أديـم بـالخياطة و فـي التّعارف ضمّ الحروف بعضها الىٰ بعضٍ بالخّط فـالأصل فـي الكـتابة النـظم بالخّط و لكن قد يقال ذلك للمضمُوم بعضها الىٰ بعضٍ باللّفظ ولذلك يستعار كلّ واحدٍ من الضّمين أعني بهما ضمّ الخّطي و ضمّ اللّفظي للأخر ولهذا سمّي كلام اللّه و أن لم يكتب كتاباً و عليه فالفرق بين الكتاب و الكـلام أنـما هـو بالإعتبار فبإعتبار ضمّ الحروف بعضها الىٰ بعضٍ بسبب الخّط يسمّى كلاماً و الجامع بينهما هو النّظم فالقرأن كتاب اللّه و كـلام اللّـه، كـتابٌ بـإعتبار ضـمّ

الحروف خطّاً و كلام باعتبار ضمّها لفظاً، و في قوله: **بِالْحَقِّ** إشارة الىٰ أنّ هذا الكتاب ليس مثل سائر الكتب التّي فيها حقّ و باطل بل هذا الكتاب نزّل بالحقّ فقط بحيث يصدّق بعضه بعضاً و في قوله: **نَزَّلَ** إشارة الىٰ أنّه القرأن نزل نجوماً أي شيئاً بعد شئ فأنّ التنزّيل مرّةً بعد مرّةً والقرأن هكذا نزل والظّاهر أنّ الباء في قوله: **بِالْحَقِّ** للسّبب أي بسبب الحقّ الّذي هو اللّه تعالىٰ لا غير لأنّ الحقّ المطلق لا يطلق علىٰ غير اللّه تعالىٰ و ذلك لأنّ الحقّ هو الثّاتب الّذي لا فناء له أو لا سبيل للبطلان اليه و هو منحصر في ذاته تعالىٰ فهو حقّ بذاته و ما سواه حقٌّ به و القرآن هكذا لأنّه كلام اللّه والكلام صفة للمتكلّم قائم به فهو حقٌّ باللّه تعالىٰ لا بذاته و اذا كان كذلك فهو أي القرآن حادث فلا قديم سوى اللّه تعالى و لذلك فسرّ و الحقّ بالقديم.**مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ** أي حال كونه مصدّقاً لما بين يديه قالوا يعني من الكتب المنزّلة على جميع الأنبياء من التّوراة و الإنجيل والصُحّف و غيرها، إن قيل كيف سُمّي ما مضىٰ بأنّه بين يديه فالجواب أن تلك الأخبار والكتب لغاية ظهورها له صلّى الله عليه وآله كظهور الّذي بين يَديه **وَ أَنْزَلَ ٱلتَّوْرٰيةَ وَ ٱلْاِنْجِيلَ** و إنّما قال فيهما، أنزّل لأنّ التّوراة و الإنجيل نزلا دفعةً واحدة هكذا قالوا، و الحقّ أنّ التّعبير بقوله، نزّل الكتاب، و أنزّل التّوراة، إنّما هو لأجل التّفنن في العبارة كماهو مقتضى قانون البلاغة، أو أنّ تغييّر اللّفظ لأجل الإحتراز عن التّكرار و امثال ذلك و امّا ما ذكروه من الوجه فيه فليس بسديدٍ:

قال اللّه تعالىٰ: **هُوَ ٱلَّذيٓ أَنْزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتٰابَ مِنْهُ اٰياتٌ مُحْكَمٰاتٌ**(١).

قال اللّه تعالىٰ: **وَ أَنْزَلَ ٱللّٰهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتٰابَ وَ ٱلْحِكْمَةَ**(٢).

قال اللّه تعالىٰ: **وَ هُوَ ٱلَّذيٓ أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتٰابَ مُفَصَّلًا**(٣).

قال اللّه تعالىٰ: **إِنّٰآ أَنْزَلْنٰاهُ في لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ**(۴).

١- آل عمران=٧
٢- النساء= ١١٣
٣- الانعام = ١١۴
۴- القدر=١.

و امثال ذلك من الأيات الّتي قال فيها، أنزّل ولم يقل، نزّل، و الحاصل أنّ المعنى فيها واحد فقد عبّر بهذا و قد عبّر بذاك، و امّا لفظ التّوراة والإنجيل فقد قلنا في إشتقاقهما ما هو الحقّ فيه و لكن ذكر الكشّاف أنّهما إسمان أعجمّيان و تكلّف إشتقاقهما من الوَرىٰ والنّجل إنّما يصّح بعد كونهما عربييّن، ثمّ قال وقأ الحسن، الإنجيل بفتح الهمزة و هو دليل علىٰ العجمة لأنّ أفيعل عديمٌ في أوزان العَرب إنتهىٰ.

مِنْ قَبْلُ هُدًى لِلنَّاسِ وَ أَنْزَلَ ٱلْفُرْقَانَ أي أنّ اللّه تعالىٰ أنزل التّوراة و الإنجيل من قبل ذلك أو من قبل القرآن، وقوله **هُدًى** في موضع نصب علىٰ الحال أي حال كون التّوراة والإنجيل و إنمّا كذلك و إنّما قيل هدىً للنّاس لأنّ النّاس في كلّ زمان كانوا يهتدون بالكتاب الالاهي المنزل على رسولهم و هو واضح قوله: **وَ أَنْزَلَ ٱلْفُرْقَانَ**، فقيل هو القرأن قال الطّبرسي بعده تفسّيره الفرقان بالقرأن و أنّما كرّر ذلك لما إختلف دلالات صفاته و أن كانت لموصوف واحد لأنّ لكلّ صفةٍ فيها فائدة غير فائدة الاخرىٰ فأنّ الفرقان هو الّذي يفرق بين الحقّ والباطل فيما يحتاج اليه من أمور الدّين في الحجّ و غيره من الأحكام و ذلك كلّه في القرأن انتهىٰ.

أقول و الى هذا المعنى يشير من قال أنّ القرأن يقال لما بين الدّفتين والفرقان يقال بإعتبار أنّه فارق بين الحقّ والباطل، قال الرّاغب و القرأن في الأصل مصدر نحو كفران و رجحان قال تعالىٰ أنّ علينا جمعه و قرأنه، فاذا قرأناه فاتَّبع قرأنه قال ابن عبّاس اذا جمعناه و أثبتناه في صدرك فأعمل به و قد خُصّ بالكتاب المنزّل على محمّد صلى الله عليه وآله فصار له كالعلم انتهىٰ.

و أمّا الفرقان فهو أيضاً مصدر و هو مأخوذ مِن الفَرق قال تعالىٰ: **وَ قُرْآنًا فَرَقْنَاهُ** أي بيّنا فيه الأحكام و فصّلناه و قيل فرقناه أي أنزّلناه مفرّقاً قالوا الفُرقان أبلَغ

من الفرق لأنّه يستعمل في الفرق بين الحقّ والباطل و لذلك سُمّي يوم القيامة بيوم الفرقان أي اليوم الّذي يفرّق فيه بين الحقّ والباطل.

ففي تفسير علّي بن إبراهيم بأسناده عن أبي عبد اللّه لمّا سأل عن قوله تعالىٰ و أنزّل الفرقان، قال عليه‌السلام هو محكم، و الكتاب هو جملة القرأن الذّي يصدّقه من كان قبله من الأنبياء و عن الكافي عنه عليه‌السلام قال القرأن جملة الكتاب و الفرقان المحكم الواجب العمل به.

اذا عرفت هذا فنقول هذه الأخبار و الأقوال كلّها يدّل على الفرق الحاصل بين القرأن و الفرقان و هذا ممّا لا كلام فيه ولم ينكره أحَد و بعبارةٍ أُخرىٰ الإشكال الموجود في الآية ليس من هذه الجهة و أنّما الإشكال في أنّ المنزّل على رسول اللّه كتاب واحد أو كتابان أحدهما القرأن والثّاني الفرقان لا طريق الى القول الثّاني بالإجماع فيبقى القول الأوّل و هو أنّ المنزّل علىٰ رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله كتاب واحدٍ يُسمّىٰ بإعتبار القرآن و بإعتبارٍ أخر الفرقان فاذاكان الكتاب المُنزل من جانب الرّب علىٰ رسول الإسلام واحداً و هو الّذي قال نزّل عليك الكتاب بالحقّ، فما الّذي سمّاه بالفرقان و أنزّله ثانياً، فأن كان الكتاب واحداً كما هو كذلك فالمنزل أيضاً واحد مع أنّ المُنزل في الآية شيئان أو كتابان، الكتاب والفُرقان، و محصّل الكلام هو أنّه اذا كان الإنزال أثنين فالمنزل أيضاً أثنان فلو كان المنزل واحداًكما يقولون لم يذكر اللّه تعالىٰ الإنزال في مقامين مع الفصل بينهما بل قال: **نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا** فارقاً و امثال ذلك من التّعابير و هو دليل علىٰ أنّ المنزل شيئان وهذا هو الإشكال الّذي أشرنا اليه و لم نر بعد الفحص الكامل في التفاسّير التّي موجودة عندنا ما يرفع الإبهام به و ذلك لأنّهم نظروا الى لفظ الكتاب، و الفرقان فقالوا بالفرق بينهما إعتباراً لئّلا يلزم التّكرار في المعنى و غفلوا عمّا ذكرناه من تكرار الإنزال، تارةً بلفظ نزّل و

أخرى بلفظ، أنزل، مع أنّ المعنى فيهما واحد حذراً من التّكرار اللّفظي ولعلّ الزّمخشري قد تنَّبه لهذا الإشكال حيث و جد بزعمه مهرباً عنه فقال في تفسيره لهذه الآية ما هذا لفظه:

فأن قلت ما المراد بالفرقان، قلت جنس الكتب السّماوية لأنّ كلّها فرقان يفرق بين الحقّ و الباطل أو الكتب الّذي ذكرها كأنّه قال بعد ذكر الكتب الثلاثة و أنزّل ما يفرق بين الحقّ و الباطل من كُتبه أو من هذه الكُتب أو أراد الكتاب الرّابع و هو الزّبور كما قال:**وَ اٰتَيْنٰا داٰوُدَ زَبُورًا**[1] أو كَرَّر ذكر القرأن بما هو نعتٌ له و مدح من كونه فارقاً بين الحقّ و الباطل بعد ما ذكره بإسم الجنس تعظيماً لشأنه و إظهاراً لفضله انتهىٰ كلامه.

أقول ما ذكره أيضاً لا يحسم مادّة الإشكال لأنّه فرق بين الكتاب و الفرقان بنوعٍ أخر ولا بحث فيه و امّا أنّ المراد به الزّبور فهو بعيد غاية البعد.

اذا عرفت ذلك فقد علمت أنّ منشأ الإشكال هو أنّهم فسرّوا الفرقان في بالقرأن ثمّ وقعوا فيما وقعوا بل كرّوا على ما فَرّوا عنه وأنّما فسرّوه به لأنّهم رأوا إطلاق القرأن على الفرقان من حيث كونه فارقاً بين الحقّ والباطل فقالوا هو هو والفرق بالإعتبار ولم يعلموا أنّ إطلاق شيءٍ علىٰ شيءٍ أخر بحسب مقام الإعتبار ليس معناه أنّه هو بعينه و عليه فالقرأن موضوع أو علم لهذا الكتاب المعلوم و أمّا الفرقان فليس كذلك لأنّه مصدر بمعنىٰ الفاعل و هو موضوع لكلّ ما يفرق به بين الحقّ و الباطل سواء كان قرأناً أم غيره ولأجل ما ذكرناه فلَيس بينهما من النّسب التّساوي كالإنسان والبشر حيث قال كلّ إنسانٍ بشر وكلّ بشرٍ إنسان فلا يصّح أن يقال كلّ قرأنٍ فرقان وكلّ فرقانٍ قرأن بل الحقّ أنّ بينهما من النّسب

١- النساء = ١٦٣

العُموم و الخصوص مطلقاً فكلّ قرأنٍ فرقان وليس كلّ فرقانٍ قرأن بل بعض الفرقان قرأن و بعضه ليس كذلك فأنّ الفرقان كما يطلق على القرأن قد يطلق على غيره:

قال اللّه تعالىٰ:**وَ مَآ أَنْزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ**(١).

و من المعلوم أنّ المراد بيوم الفرقان هو يوم القيامة لأنّه اليوم الّذي يفرق به بين الحقّ والباطل.

و قال اللّه تعالىٰ:**إِنْ تَتَّقُوا ٱللّٰهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا**(٢).

و ليس المراد به القرأن قطعاً بل المراد أنّه تعالى يجعل نوراً و توفيقاً في قلوب المتّقين يفرق به بين الحقّ والباطل.

و قيل أنّ المراد بيوم الفرقان في الآية الأولى، يوم بدر فأنّه أوّل يوم فَرّق فيه بين الحقّ والباطل و كيف كان لم يرد به القرأن و هو المطلوب.

و عن النّقاش في تفسيره قال ابن عبّاس جلّ ما تعلّمت من التفسّير من علي بن أبي طالب، و عن ابن مسعود أنّ القرأن أنزّل علىٰ سبعة أحرفٍ ما منها إلاّ له ظهرٌ و بطن و أنّ على بن أبي طالب علم الظّاهر والباطن.

حبر عليمٌ بالّذي هو كائنٌ واليه في علم الرّسالة يرجع
أصفاه أحمد من خفّي علُومه فهو البطين من العلُوم الأنزع

و الأخبار كثيرة ولو لا مخافة الإطناب في الكلام والخروج عن موضوع الكتاب لأشبعنا الكلام في الباب و لكن ما ذكرناه يكفي لمن له قلب ولنختم الكلام في هذا المقام ونقول لا تعجب ممّا قيل أو يقال في أهل البيت عليهم السّلام لأنّ الكتاب انزّل علىٰ الرّسول و أهل البيت أدرىٰ بما في البيت ولنعم ماقيل في حقّ علّي وأولاده:

١- سورة الأنفال أية ٤١.
٢- الأنفال=٢٩.

بآل محمّدٍ عرف الصَّواب وفي أبياتهم نزل الكتاب
وهم حجج الإله علىٰ البرايا بهم و بجدّهم لا يستراب
ولا سيّما أبو حسنٍ علّي له في الحرب مرتبة تهاب
فضربته كبيعة نجمٍ حصائدها من القوم الرّقاب
طعام سيوفهم مهج الأعادي وفيض دم الرّقاب لها شرابُ
هو الحلاق صابات الأعادي هو السّاقي على الحوض الشّراب
هو البّكاء في المحراب ليلاً هو القتال اذا إشتدّ الضّراب
اذا لم تبرء من أعداء علّيٍ فما لك في محبّته ثواب
علّي الدرّ والذهب المصّفىٰ وباقي النّاس كلّهم ترابُ
هو النباء العظيم وفلك نوحٍ وباب اللّه وانقطع الخطاب

و أمّا قوله تعالىٰ: **وَ مَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُولُوا ٱلْأَلْبَابِ** فقيل في معناه أي ما يذّكر المشابه و تأويله الىٰ المحكم إلاّ أولوا الألباب أي ذوو العقول الخالصة وهم الرّاسخُون في الأية.

أقول ما ذكروه لا بأس به إلاّ أنّه من قبيل توضيح الواضحات و ذلك لأنّ في قوله ُ **والرّاسخون** غنى عنه لأنه الرّاسخ في العلم لا يكون إلاّ من ذوي الألباب والحقّ في معنى الكلام أنّ معناه، لا يذّكر، أي لا يهتدي الى معنى المراد من الرّاسخين و تعيينهم إلاّ أُولوا الألباب و قد عرفت الكلام فيه بما لا مزيد عليه.

و بقوله أنزّل الفُرقان هو وجود النّبي الفارق بين الحقّ والباطل بهدايته و معجزاته وكرامته و عِصمته و هكذا و بعد النّبي أوصياءه ولأجل هذه الدّقيقة قرنهم بكتاب اللّه فقال: **إنّي تاركٌ فيكم الثّقلين كتاب اللّه وعِترتي ما إن تَمَّسكتُم بهما لَن تَضلُوا أبداً** الحديث إذ لو كان الكتاب هو الفرقان أعني به الفارق بين الحقّ والباطل، بنفسه، لما قال الرّسول كتاب اللّه و عِترتي الخ فقوله

ما إن تمسّكتم بهما لن تضلّوا أبداً، يدّل بالمفهوم علىٰ أنّ المتمسّك بأحدهما يضّل فلو كان القرأن مع قطع النّظر عن العترة بعد الرّسول، كافياً وافياً فارقاً بين الحقّ و الباطل كما قال القائل حسبنا كتاب اللّه، فلم قال رسول اللّه، كتاب اللّه و عترتي و سيأتي لهذا بسط كلام فى موضعه إنشاء اللّه.

والسّر فيه إن كنت من أهله هو أنّ الكتاب أعني به القرأن سببٌ و وسيلة للفرق بينهما لا أنّه بنفسه فارقٌ بينهما لأنّ الفارق إسم فاعلٍ من الفرق والذّات على التحقّيق معتبر في المشتق فإذا قلنا زيد ضارب معناه ذاتٌ ثبت له الضّرب لا أنّه نفس الضّرب و هكذا إذا قُلنا فلان فارق بين الحّق والباطل معناه ذات ثبت له الفرق و لا يمكن أن يقال القرأن فارق بين الحّق والباطل إلاّ على سبيل التّجوز إذ ليس هناك ذات وصفة و كيف يكون الحرف أو الحُروف كذلك و الحروف ليست من الذّوات بشئ حتّىٰ يتثبت لهما الصّفة فالفارق هو اللّه تعالى أوّلاً ثمّ النّبي ثانياً ثمّ الوّصي ثالثاً فقوله و أنزّلنا الفُرقان معناه و أنزّلنا الفارق بين الحّق و الباطل و هو الإنسان الكامل المعبّر عنه بالقرأن النّاطق لئّلا يكون للنّاس على اللّه حُجّة فبذلك قد تمّت الحجّة على النّاس ليهلك من هلك عن بيّنة و يحيى من حيّ عنها، واللّه أعلم.

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَ ٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنْتِقَامٍ.

قيل لمّا بيّن حجّجه الدّالة على توحيده و صِدق أنبيائه عقّب ذلك بوعيد من خالفه ليتكامل به التكلّيف و قال: **وَ ٱللَّهُ عَزِيزٌ** أي قادر قاهِرٌ ذو قدرةٍ على الإنتقام من الكُفّار و لا يتمكّن أحد أن يمنعه منه و الإنتقام مجازاة المُسيئ على إساءته على أساس العدل فأنّ ربّك ليس بظّلامٍ للعبيد.

■

إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخۡفَىٰ عَلَيۡهِ شَيۡءٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴿٥﴾ هُوَ ٱلَّذِي يُصَوِّرُكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ كَيۡفَ يَشَآءُۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٦﴾

◁ اللّغة

يُصَوِّرُكُمۡ: الصُّورة ما ينتقش به الأعيان و يتميّز بها عن غيرها.

فِي ٱلۡأَرۡحَامِ: الأرحام جمع الرَّحِم والرَّحِم بفتح الرّاء و سكون الحاء رَحِمُ المرأة، و امرأةٌ رَحُوم تشتكي رحمها و منه أستعير الرَّحم للقرابة لكونهم خارجين من رحِم واحدة.

◁ الإعراب

فِي ٱلۡأَرۡضِ إمّا صِفة لشيءٍ و امّا متعلّق بيخفى فِي ٱلۡأَرۡحَامِ متعلّقة بيصّورأن يكون حالاً من الكافَ و الميم كَيۡفَ يَشَآءُ كيف في موضع نصب بيشاء حال و المفعول محذوف تقديره، يشاء تصّويركم.

◁ التّفسير

إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخۡفَىٰ عَلَيۡهِ شَيۡءٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ

أخبر اللّه تعالىٰ عن علمه الكامل الشّامل المُحيط بجميع ما سواه وأنّه لا يخفى عليه شيئ والدّليل عليه من العقل أنّه لو خفي عليه شيئ في عالم الوجود لزم منه أن لا يكون مخلوقاً له تعالىٰ إذ لو كان مخلوقاً لكان مَعلوماً له، و اذا لم يكن مخلوقاً له فلا يخلو إمّا أن يكون خالقاً أو يكون مخلوقاً لغيره فعلىٰ الأوّل يلزم تعدّد الا له ثبت عدمه.

علىٰ الثّاني: فإمّا أن يكون الغير واجباً أو ممكناً فعلىٰ الأوّل يلزم التعدّد و

المفروض عدمه و على الثّاني يلزم التّسلسل الىٰ أن ينتهي الخالق الىٰ الموجود بالذّات و هو المطلوب.

فلا يعقل أن يكون في عالم الوجود شئ إلاّ و هو مخلوق له وكلّ مخلوق معلوم له فهو معلوم له فالمدّعىٰ ثابت.

و امّا النّقل فللأيات والأخبار و هو ظاهر:

قال اللّه تعالى: **وَ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًا**[١].

قال اللّه تعالى: **إِنَّمَآ إِلٰهُكُمُ ٱللّٰهُ ٱلَّذِي لَآ إِلٰهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا**[٢].

قلنا في شرح اللّغات أنّ الصّورة ما ينتقش به الأعيان و يتميّز بها عن غيرها والأن نقول أنّ الصُّورة علىٰ قسمين:

أحدهما: الصُّورة المحسوسة الّتي يدركه الخاصّة و العامّة بل يدركه الإنسان وكثير من الحيوان كصورة الإنسان و الفَرس و الحمار بل النّبات والجماد.

الثّانى: الصُّورة المعقولة الّتي يدركه الخاصّة دون العامّة كالصُّورة الّتي أختصّ الإنسان بها من العقل والرُّؤية والمعاني الّتي خصّ بها شئ بشئٍ و الى الصورتين أشار اللّه تعالىٰ بقوله:

هُوَ ٱلَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي ٱلْأَرْحامِ كَيْفَ يَشآءُ

قال اللّه تعالى: **وَ صَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ**[٣].

قال اللّه تعالى: **فِيٓ أَيِّ صُورَةٍ ما شآءَ رَكَّبَكَ**[۴] و غيرها من الأيات.

و أمّا قوله: **فِي ٱلْأَرْحامِ** فلا يدّل على الحصر بمعنىٰ أنّ التّصوير لا يكون إلاّ في الرحم بل فيه إشارة الىٰ أنّ الغالب بل الأغلب يكون التّصوير في الرَّحِم في هذا العالم لأنّ اللّه تعالىٰ قادر على التّصوير في غير الرَّحِم كما صوّر

١- الطّلاق=١٢.
٢- طٰه=٩٨.
٣- غافر= ۶۴
۴- الانفطار= ٨

أدم عليه السلام و حوّاء و لا أمّ لهما ولا أب والحاصل أنّ اللّه تعالىٰ أشار بكلامه هذا الىٰ كمال قدرته و أنّه هو الّذي يقدر علىٰ ذلك و امّا غيره فلاكائناً من كان و من عرف ما في تصوير الأجنّة في الأرحام من الحكم و النّظام علم و أذعن بأنّ ذلك فعل عالمٍ خبير بالدّقائق حكيم يستحيلُ عليه العبث عزيزٌ لا يغلب على ما قضى به علمه و تعلّقت به إرادته واحد لا شريك له في المُلك لا إلٰه إلاّ هو العزيز الحكيم.

إعلم إنّ هذه الأيات من أوّل السُّورة الىٰ نحو ثمانين أية نزلت في نصارى نجران على ما قاله المفسّرون وحيث أنّهم قالوا بألُوهيّة عيسىٰ و كان أساس عقيدتهم فيه على العلم والقدرة بمعنى أنّ عيسىٰ كان يحي الموتى و هو راجع الى القدرة وكونه يخبر بالغيب و هذا راجع الى العلم و من كان عالماً قادراً فهو إلٰهٌ فعيسىٰ الٰهٌ و أنّما قالوا ذلك لأنّ القيّوم هو القائم بإصلاح مصالح الخلق و مهمّاتهم وكونه كذلك لا يتمّ إلاّ بأمرين:

أحدهما: أن يكون عالماً بحاجاتهم على جميع الوجوه كمّاً وكيفاً.

الثّاني: أن يكون قادراً على جميع الممكنات و حيث أنّ عيسى كان عالماً بالغيوب قادراً على إحياء المَوتى فقد تمّ الأمران فيه فهو القيّوم، قالوا أجاب اللّه تعالىٰ عنهم بقوله: **إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي ٱلْأَرْضِ وَ لَا فِي ٱلسَّمَآءِ** و أين هذا من علم عيسى بِبعض الأشياء مع أنّه أيضاً لم يكن من عنده بل كان من مواهب اللّه إيّاه، ثمّ أين هذه القدرة و هي إحياء الموتى بإذن اللّه من قدرة الحقّ تعالىٰ الّتي عامّة لجميع الممكنات فقال تعالىٰ **هُوَ ٱلَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي ٱلْأَرْحَامِ**.

أقول الحقّ أنّ هذه الأيات ليست مرتبطة بهذه الأُمور ولا دليل علىٰ قول المفسّرين في المقام بل كلّ واحدةٍ منها موضوع مستقل برأسه دالّ على علمه و قدرته و حكمته واللّه العالم و حاصل الكلام في الآية هو أنّ اللّه تعالىٰ

لكمال قدرته يصّوركم في أرحام أمّهاتكم كيف يشاء من الطّول والقصر واللّون و الذّكورة و الانوثة و حسن الجمال و قبحه و غير ذلك من الأُمور و هذا من الأمور المحسوسة التّي نراها مشاهدةً و عياناً و نفهم من هذا الإختلاف في الصُّور أنّ المُصّور لهذه الصُّور موجود أخر غير ذي الصُّورة و أنّه عالم قادر علىٰ الإيجاد والتّصوير كيف يشاء وليس هو إلاّ ما أشار إليه بقوله: **لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ** و هو المطلوب.

■

هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنْزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَ أُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَ ٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِ وَ مَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ وَ ٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَ مَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُولُوا ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٧﴾

◁ اللّغة

ءَايَٰتٌ مُحْكَمَٰتٌ: الأيات جمع أية و هي العلامة والمُحكمات جمع المُحكَم و هو في اللّغة المضبُوط المتقن و في الإصطلاح على ما ذكره بعض المحقّقين يطلق على ما إتضح معناه و ظهر لكلّ عارف باللّغة.

و قال الرّاغب المحكم ما لا يعرض فيه شبهة من حيث اللّفظ ولا من حيث المعنى.

أُمُّ: بضمّ الألف الأصل.

مُتَشَٰبِهَٰتٌ: جمع متشابه و هو ما أشكل تفسيره لمشابهته بغيره أمّا من حيث اللّفظ أو من حيث المعنى.

زَيْغٌ: الزَّيغ بفتح الزّاء مصدر و معناه الميل عن الإستقامة.

ٱبْتِغَآءَ: الإبتغاء الطَّلب.

وَ ٱلرَّٰسِخُونَ: جمع الرَّاسِخ، رسُوخ الشّئ ثباته ثباتاً متمكناً و رَسَخ الغدير نضب ماؤه و الرّاسخ في العلم الّذي لا يعرضه شُبهة.

◁ الإعراب

مِنْهُ ءَايَٰتٌ الجملة الجملة في موضع نصب على الحال من الكتاب هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ في موضع رفع صفة لأيات و أنّما أفرد، أمّ، و هو خبر عن جمع لأنّ

المعنى أنّ جميع الأيات بمنزلة أيةٍ واحدة فأفرد على المعنىٰ ويجوز أن يكون المعنى كلٌ منهنّ أمّ الكتاب **أُخَرُ** معطوف علىٰ الأيات **مُتَشَٰبِهَٰتٌ** نعت لاخر **مَٰا تَشَٰابَهَ مِنْهُ** ما، بمعنى الّذي، و منه، حال من ضمير الفاعل و الهاء تعود علىٰ الكتاب **ٱبْتِغَٰآءَ** مفعول له **تَأْوِيلِه**،**التّأويل** مصدر أوَّل يؤَّل و أصله من أل **يئُول** إذا إنتهى نهايته **ٱلرّٰاسِخُونَ** معطوف على إسم اللّه و المعنى أنّهم يعلمون تأويله أيضاً **يقُولُونَ** في موضع نصب على الحال **كُلٌّ** مُبتدأ **مِنْ عِنْدِ** الخبر و موضع، أمنّا وكلٌّ من عند ربّنا نصب، بيقولون.

◁ التّفسير

هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنْزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ و هو القرأن بإتّفاق جميع المفسّرين و قد مرّ الكلام في الكتاب و الانزال في أوائل السُّورة **مِنْهُ اٰيَاتٌ مُحْكَمٰاتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَ أُخَرُمُتَشَٰابِهَٰاتٌ** من، للتّبعيض **والهاء** ترجع الى الكتاب أي بعض أيات الكتاب محكمٌ وبعض أخر متشابهٌ ثمّ أنّهم إختلفوا في معنىٰ المُحكم و المُتشابه بحسب الإصطلاح و أنّه ما المراد بهما في الآية بعد وضوح المعنى بحسب اللّغة كما مرّ قال السّيوطي في الإتقان المُحكم ما لا يتوقّف معرفته على البيان والمتشابه ما يرجى بيانه قال و قد أختلف في تعيين المحكم و المُتشابه على أقوالٍ:

فقيل **المُحكم** ما عرف المراد منه إمّا بالظّهُور و امّا بالتّأويل والمُتشابه ما إستأثر اللّه بعلمه كقيام السّاعة و خروج الدّجال والحروف المقطّعة في أوائل السُّور.

و قيل **المُحكم** ما وضح معناه و المُتشابه نقيضه.

و قيل **المُحكم** ما لا يحتمل من التّأويل إلاّ وجهاً واحداً و المُتشابه ما احتمل أوجها.

و قيل **المُحكم** ما كان معقول المعنى و المُتشابه بخلافه كأعداد الصّلوات و اختصاص الصّيام برمضان دون شعبان قاله الماوردي.

و قيل **المُحكم** ما استقلّ بنفسه و المُتشابه ما لا يستقلّ بنفسه إلاّ بردّه الىٰ غيره.

و قيل **المُحكم** ما تأويله تنزيله و المُتشابه ما لا يدرك إلاّ بالتّأويل.

و قيل **المُحكم** ما لم تتكرر ألفاظه و مقابله المُتشابه.

و قيل **المُحكم** الفرائض و الوعد و الوعيد و المُتشابه القصص و الأمثال.

و عن إبن عبّاس أنّه قال المُحكمات ناسخة و حلاله و حرامه و حدوده و فرائضه و ما يؤمن به و يعمل به و المُتشابهات منسوخة و مقدّمه و مُؤخرّه و أقسامه و ما يؤمن به و لا يعمل به.

و عن مجاهد، **المُحكمات** ما فيه الحلال والحرام و ما سوىٰ ذلك منه متشابه يصدّق بعضه بعضاً.

و عن الرّبيع قال: **المُحكمات** هي أوامره الزّاجرة.

و عن الضّحاك، **المُحكمات** ما لم ينسخ منه والمُتّشابهات ما قد نسخ إنتهى.

أقول كيف كان شكّ في وجودهما في الكتاب بنص الآية الشّريفة **فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ** أي قيل عن الحقّ و منشأه الشّك و الجهل **فَيَتَّبِعُونَ مٰا تَشٰابَهَ مِنْهُ** أي فيتّبعون المتّشابهات من الكتاب **ٱبْتِغٰآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَ ٱبْتِغٰاءَ تَأْوِيلِهِ** أي أنّ غرضهم من الإتّباع لهما هو طلب الفتنة والتّشكيك في القرآن وإضلال العوام و تأويل الأيات على طبق أميالهم و آرائهم الفاسدة.

وَ مٰا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ وَ ٱلرّٰاسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ.

أي علم التّأويل لا يُوجد إلاّ عند اللّه تعالىٰ والرّاسِخين في العِلم الّذين أخذوا علومهم من علم اللّه بغير واسطةٍ من البشر كالنّبي والوصّي.

يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا أي والحال أنّهم يقولون كذلك.

وَ مَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُولُوا ٱلْأَلْبَابِ أي و ما يتفكّر في أيات اللّه إلاّ من له عقلٌ و لبٌّ، والألباب جمع لَبٌّ و هو العقل الخالِص عن شوائب الأوهام فهذا معنى ألفاظ الآية إلاّ أنّها تستدعي التكلّم فيهما إجمالاً فَنقُول.

يستفاد من الآية الشّريفة وجود المحكمات والمُتشابهات في القرآن و هذا ممّا لا كلام فيه لأحَدٍ من المُسلمين والّذي إختلفوا فيه هو أنّ المتشابهات هل يعلم تأويلها غير اللّه أوّلاً فأن كان الأوّل فيمكن الأخذ بهما ولو بسبب السّؤال عمّن يعلمها و أن كان الثّاني فلا سبيل اليها لأحدٍ لأنّ المفروض أنّ العِلم بها مختصّ به تعالىٰ و قد إستأثر اللّه بعلمه فقال قومٌ و هُم أكثر المفسّرين من أهل السُّنة فيما نعلم أنّ المُتشابهات يجب على كلّ أحدٍ تركها و رّد علمها الىٰ اللّه تعالى قد إستأثر بعلمه ولم يرخصّ لأحد الخوض في المُتشابه.

و قالت الشّيعة أعني بهم إتّباع أهل البيت عليهم السّلام أنّ الرّسول و الأئمّة بعده واحداً بعد واحدٍ أخذُوا علم المُتشابه عن اللّه تعالىٰ واللّه تعالىٰ أعطاهم العلم به لمكان قربهم اليه و احتياج العباد الى فهم هذه الأيات و ذلك لأنّ اللّه تعالى أعطى نبيّه و أوصيائه من العلم ما يحتاج إليه البشر فلو كان العلم بالمتشابه مختصّ به تعالى ولم يعلم أحداً العلم به فلم أنزّله في كتابه و هذا هو الّذي صار باعِثاً لوجود الخلاف بين المُسلمين.

إن قُلت ما الّذي يستفاد من الآية في هذا الباب.

قُلتُ المستفاد فيهما أمّا علىٰ رأي العامّة فهو إنحصار العِلم بالمُتشابه باللّه تعالى لا غيره و امّا علىٰ ما نقُول فلا وإنّما قلنا ذلك لأنّ.

وَ مَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ وَ ٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ

إن قلنا فيه بأنّ الواو في قوله: **وَ ٱلرَّٰسِخُونَ** للعطف أي أنّ الرّاسخين معطوف على إسم الجّلالة وهو، اللّه، ثمّ الوقف علىٰ قوله أمنّا به و عليه

فيكون الواو واو الجمع، فالأية تدّل علىٰ ما ذهبنا إليه وإخترناه لأنّ معناها، و ما يعلم تأويل المتشابه إلاّ اللّه فأنّه يعلمه و هكذا الرّاسخون في العلم فأنّهم أيضاً عالمون به و يقولون هؤلاء الرّاسخون أمنّا به كلّ من عند ربّنا، الآية.

و أمّا القول بأنّه أي قوله: **وَ ٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ** كلام مقطوع عمّا قبله و أنّ الكلام قد تمّ عند قوله: **إِلَّا ٱللَّهُ** فيصير معنىٰ الآية ما يعلم تأويل المتشابه إلاّ اللّه أي أنّ العلم به منحصرٌ به، و امّا **ٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ** فلا علم لهم به بل يقولون: **اٰمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا** و عليه أكثر المُفسّرين من العامّة فعلى هذا يجب الوقوف عند المتشابه الى يوم القيامة و هو كما ترىٰ.

قال القرطبي في تفسير قوله: **وَ ٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ** إختلف العلماء فيه هل هو إبتداء كلام مقطوع عمّا قبله، أو هو معطوف على ما قبله فتكون الواو للجمع فالّذي عليه الأكثر أنّه مقطوع ممّا قبله و أنّ الكلام تمّ عند قوله : **إِلَّا ٱللَّهُ**، هذا قول إبن عمر و إبن عبّاس و عائشة و عروة بن الزّبير و عمر بن عبد العزيز و غيرهم و هو مذهب الكسائي و الأخفش و أبي عُبيد وغيرهم.

قال أبو نهيك الأسدي أنّكم تصلون هذه الآية و أنّها مقطوعة و ما إنتهى علم الرّاسخين إلاّ قولهم، **اٰمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا** و قال مثل هذا عمر بن عبد العزيز.

و حكى الطّبري نحوه عن يونس عن أشهب عن مالك بن أنس، و يقولون، على هذا خبر الرّاسخُون.

ثمّ نقل عن الخطابي أنّه قال و قد جعل اللّه تعالىٰ أيات كتابه الّذي أمرنا بالإيمان به والتصدّيق بما فيه على قسمين: مُحكماً و مُتشابهاً.

فقال عز من قائل **هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنْزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَابَ مِنْهُ اٰيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَابِ وَ أُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ** الىٰ قوله: **كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا**.

قال فاعلم أنّ المُتشابه من الكلام قد إستأثر اللّه بعلمه فلا يعلم تأويله أحدٌ غيره ثمّ أثنى اللّه عزّ وجل علىٰ الرّاسخون في العلم بأنّهم يقولون أمنّا به ولولا

صحّة الإيمان منهم لم يستحقّوا الثّناء عليه و مذهب أكثر العلماء أنّ الوقف التّام في هذه الآية أنّما هو عند قوله: **وَ مَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ** وأنّ ما بعده إستئناف كلامٍ أخر و هو قوله: **وَ ٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ** وروي ذلك عن ابن مسعود و أبّي بن كعب و إبن عبّاس و عائشة.

و أنّما روي عن مجاهد أنّه نسق، الرّاسخون، على ما قبله و زعم أنّهم يعلمونه، و ساق الكلام الىٰ أن قال فكان قول عامّة العلماء مع مساعدة مذهب النّحويين أنّه أولىٰ من قول مجاهد وحده و أيضاً فأنّه لا يجون أن ينفي اللّه سبحانه شيئاً عن الخلق و يثبّته لنفسه ثمّ يكون له في ذلك شريك ألا ترىٰ:

قال اللّه تعالى: **لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ**[1].

قال اللّه تعالى: **كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ**[2].

قال اللّه تعالى: **قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَ ٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ**[3].

فكان هذا كلّه ممّا إستأثر اللّه بعلمه لا يشركه فيه غيره وكذلك قوله: **وَ مَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ** ولو كانت الواو في قوله والرّاسخون للنسق لم يكن لقوله كلٌّ من عند ربّنا، فائدة إنتهىٰ كلام القُرطبي بألفاظه و عباراته.

أقول ما ذكره القُرطبي في تفسير الآية من الإختلاف في قوله: **وَ ٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ** هل هو إبتداء كلام مقطوع ممّا قبله، أو هو معطوف على ما قبله فتكون **الواو** للجمع صحيح لا كلام فيه لوجود الإختلاف قطعاً.

و أمّا قوله بعد ذلك، فالّذي عليه الأكثر أنّه مقطوعٌ ممّا قبله و أنّ الكلام تمّ عند قوله: **إِلَّا ٱللَّهُ** فلا يعتمد عليه لأنّ نسبته هذا القول الىٰ الأكثر كذبٌ محض.

نعم أكثر المفسّرين منهم و منّا بل جميعهم نقلوا الإختلاف الّذي أشار إليه القُرطبي و أنّ الواو في قوله: **وَ ٱلرَّٰسِخُونَ** هل هو للعطف أي عطف

١- الاعراف = ١٨٧ ٢- القصص = ٨٨
٣- النمل = ٦٤

الرّاسخين على إسم الجلالة أو للإبتداء و الإستئناف بمعنى أنّ الكلام قد تمّ عند قوله: **إِلَّا ٱللَّهُ** و أنّ ما بعده إستئناف كلامٍ أخر.

أوّلاً: و من المعلوم أنّ نقل الإختلاف من وظائف المُفسّرين.

ثانياً: أنّ المفسّرين من العامّة الّذين ذهبوا الىٰ ما ذهب إليه القُرطبي بأكثر من مخالفيهم بل الأمر بالعكس.

ثالثاً: من قال بمقالة القُرطبي وإستحسنها بعض العوام أو بعض المُتعصّبين دون المُحقّقين منهم و كم فرقٌ بين المُفسّرين لكلام اللّه و هو من أهل النّظر والتحقّيق و من لم يأت في كتابه إلاّ نقل الأقوال الضّعيفة التّي لا يقبلها العقل والنّقل و ذلك لأنّ فهم كتاب اللّه تعالىٰ والوصول الىٰ حقائقه و دقائقه لا يمكن إلاّ بالرّياضة و التذكيّة للنّفس والمجاهدة في تحصيل العلم وممارسته الكُتب و فهم كلمات المحقّقين و إعمال الفكر الثّاقب ومع ذلك الإستمداد من علاّم الغيوب فأنّ الإنسان بعد ذلك كلّه يفهم من كلام اللّه بقدر إستعداده ولياقته و نحن نشير الى أراء بعض المُفسّرين منهم ثمّ نقول في الآية ما هو الحقّ عندنا فنقول:

قال الزّمخشري في الكشّاف و هو من فحُول العامّة ولا سيّما في كشف الدّقائق عن كلام العرب لإحاطته علىٰ اللّغة و الأدب و وجوه الإستعارات و الكنايات وجهات الفصاحة و البلاغة وغير ذلك ممّا لا ينكره أحد قال في تفسيره لهذه الآية **وَ مَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ وَ ٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ** أي لا يهتدي الىٰ تأويله الحقّ الّذي يجب أن يحمل عليه إلاّ اللّه وعباده الّذين راسخو في العلم أي ثبّتوا فيه و تمكّنوا وعضّوا فيه بضرسٍ قاطع، و منهم من يقف علىٰ قوله إلاّ اللّه و يبتدئ والرّاسخون في العلم يقولون المتشابه بما إستأثر اللّه بعلمه و بمعرفة الحكمة فيه من أياته كعدد الزّبانية ونحوه والأوّل هو الوجه، و يقولون كلام مستأنف مُوضحٌ لحال الرّاسخين بمعنى هؤلاء العالمون بالتّأويل **يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ** أي بالمُتشابه **كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا** أي كلّ

واحدٍ منه ومن المحكم من عنده أو بالكتاب كلٌّ من مُتشابهه و محكمه من عند الحكيم الّذي لا يتناقض كلامه و لا يختلف كتابه.

وَ مَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُولُوا ٱلْأَلْبَابِ مَدحٌ للرّاسخين بإلقاء الذّهن وحُسن التأمّل و يجوز أن يكون (يقولون) حالاً من الرّاسخين إنتهى ما أردنا ذكره من كلامه وأنت ترىٰ أنّه أخذ بالقول الأوّل لقوله و الأوّل هو الوجه و هو ظاهر.

و قال البيضاوي في تفسيره في المقام ماهذا لفظه: **إِلَّا ٱللَّهُ وَ ٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ** أي الّذين ثبّتوا و تمكّنوا فيه، و من وقف على، إلاّ اللّه، فسّر المُتشابه بما إستأثر اللّه بعلمه كمدّة بقاء الدّنيا و وقت قيام السّاعة و خواص الأعداد كعدد الزّبانية أو بما دّل القاطع على أنّ ظاهره غير مرادٍ ولَم يدّل على ما هو المراد **يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ** إستئناف موضح لحال الرّاسخين أو حال منهم أو خبر أن جعلته مبتدأ **كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا** أي كلّ من المُتشابه و المحكم من عنده **وَ مَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُولُوا ٱلْأَلْبَابِ** مدحٌ للرّاسخين بجودة الذّهن و حسن النّظر و إشارة الى ما إستعدّوا به للإهتداء الىٰ تأويله و هو مجرّد العقل عن غواشي الحسّ إنتهى.

أقول و هذا الكلام منه أيضاً صريح في المدّعى و هو أنّ الرّاسخين معطوف علىٰ اللّه.

و قال الألوسى: **وَ مَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ وَ ٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ** في موضع الحال من ضمير، يتّبعون بإعتبار العلّة الأخيرة أي يتّبعون المتشابه لإبتغاء تأويله و الحال أنّ التّأويل المطابق للواقع كما يشعر به التّعبير بالعلم و الإضافة مخصوص به سبحانه و بمن و فقه عزّ شأنه من عباده الرّاسخين في العلم أي الّذين ثبّتوا و تمكّنوا فيه ولم يتزّلزلوا في مزّال الأقدام و مداحض الأفهام دونهم حيث أنّهم بمعزلٍ عن تلك الرّتبة هذا ما يقتضيه الظّاهر في تفسير الرّاسخين الىٰ أن قال: **يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ** إستئناف مُوضح لحال الرّاسخين ولهذا فصل والنّحاة يقدرون له مبتدأ دائماً أي هُم يقولون و يجوز أن يكون

حالاً من الرّاسخين و الضّمير المجرور راجع الىٰ المُتشابه إنتهىٰ موضع الحاجة من كلامه و هو أيضاً صريح في المُدّعىٰ.

و قال في تفسير المنار: **وَ مٰا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللّٰهُ وَ الرّٰاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ** قال بعض السّلف أنّ قوله: **وَ الرّٰاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ** كلامٌ مستأنف و بعضهم أنّه معطوف علىٰ لفظ الجلالة قال الأستاذ الإمام (مراد الشّيخ محمّد عبده) إستبدل الّذين قالوا بالوقف عند لفظ الجلالة ويكون ما بعده إستئنافاً بأدلّةٍ:

منها أنّ اللّه تعالىٰ ذمّ الّذين يتّبعون تأويله.

منها يَقُولُونَ آمَنّٰا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنٰا فأنّ ظاهر الآية التّسليم المحض للّه تعالىٰ و من عرف الشّئ و فهمه لا يعبّر عنه بما يدّل على التّسليم المَحض و هذا رأي كثير من الصّحابة كأُبي بن كعب و عائشة و ذهب إبن عبّاس و جمهور من الصّحابة الى القول الثّاني وكان إبن عبّاس يقول، أنا من الرّاسخين في العلم أنا أعلم تأويله و قالوا في إستدلال أولئك أنّ اللّه تعالىٰ أنّما ذمّ الّذين يتّبعون التأويل بذهابهم فيه الى ما يخالف المحكمات يبتغون بذلك الفتنة، و الرّاسخون في العلم ليسوا كذلك فأنهم أهل اليقين الثّابت الّذي لا زلزال فيه و لا إضطراب فهؤلاء يُفيض اللّه تعالىٰ عليهم فهم المتشابه بما يتّفق مع المحكم و امّا دلالة **آمَنّٰا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنٰا** علىٰ التّسليم المحض فهو لا ينافي العلم فأنّهم أنّما سلموا بالمتّشابه في ظاهره أو بالنّسبة الىٰ غيرهم لعلمهم باتّفاقه مَع المحكم فهُم لرسوخهم في العِلم و وقوفهم على حقّ اليقين لا يضطربون و لا يتزعزعُون بل يؤمنون بهذا و بذاك علىٰ حدٍّ سواء لأنّ كلّاً منهما من عند اللّه ربّنا و لا غرو فالجاهل في إضطرابٍ دائم والرّاسخ في ثبات لازم و من إطّلَع على ينبوع الحقيقة لا تشتبه عليه المجاري فهو يعرف الحقّ بذاته و يرجع كلّ قولٍ إليه قائلاً أمنّا به كلّ من عند ربّنا إنتهىٰ.

ما أردنا نقله و هو أيضاً صريح في المُدّعىٰ والأقوال في الآية كثيرة مختلفة بحيث لا يمكن لأحدٍ إستقصاؤها و لسنا بصدده أيضاً و أنّما المقصود من نقل هؤلاء الأعلام من العامّة أنّ كثيراً منهم بل أكثرهم ذَهبوا الىٰ أنّ **الواو** للعطف أي عطف الرّاسخين علىٰ إسم الجلالة لا للإبتداء والإستئناف كما قاله القُرطبي و أمثاله و عليه فالمعنىٰ أنّ الرّاسخين في العلم يعلمون تأويل المتشابه بأذن اللّه تعالىٰ وإفاضة إيّاهم.

و أمّا المراد بالتّأويل في الآية فمنهم من قال أنّ المراد به الإنطباق أعني به ما يؤُول إليه الشّئ و ينطبق عليه لا بمعنىٰ ما يفسّر به وإستّدلوا علىٰ مدّعاهم بقوله تعالىٰ: **يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ** (١) قالوا فتبيّن ممّا قررناه أنّه لا يقال علىٰ هذا لماذا كان القرأن منه مُحكم و مُتشابه لأنّ المُتشابه بهذا المعنىٰ من مقاصد الدّين فلا يلتبس له سبب لأنّه جاء علىٰ أصله.

و منهم من قال أنّ المراد به التفسّير لأنّ التّأويل هو التفسّير و أصله في اللّغة المرجع والمصير في قولك الأمر الىٰ كذا إذا صار إليه و أوّلته تأويلاً إذا صيّرته إليه هذا معنى التّأويل في اللّغة ثمّ يسمّىٰ التفسّير تأويلاً قال تعالىٰ: **سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا**(٢) و قال تعالىٰ: **وَ أَحْسَنُ تَأْوِيلًا و ذلك** أنّه إخبار عمّا يرجع إليه اللّفظ من المعنىٰ قاله الفخر الرّازي في تفسّيره ثمّ قال.

إعلم أنّ المراد منه أنّهم يطلبون التّأويل الّذي ليس في كتاب اللّه عليه دليل ولا بيان مثل طلبهم أنّ السّاعة متىٰ تقوم و أنّ مقادير الثّواب والعقاب لكلّ مطيعٍ وعاصٍ كم تكون قال القاضي هؤلاء، الزّائغون قد إبتغوا المتشابه من وجهين:

أحدهما: أن يحملوه على غير الحقّ و هو المراد من قوله إبتغاء الفِتنة.

١- الاعراف = ٥٣

٢- الكهف = ٧٨ /٧٧

الثاني: أن يحكموا بحكمٍ في الموضع الّذي لا دليل فيه و هو المراد من قوله **ٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِ** إنتهىٰ.

موضع الحاجة من كلامه و أنت ترىٰ أنّ كلامه هذا قريبٌ من تشكيكاته الّتي إشتهر بها و ذلك لأنّ التّأويل وأن كان في الأصل بمعنى المرجع و المصير إلاّ أنّ قوله مثل طلبهم أنّ السّاعة متىٰ تقوم وأنّ مقادير الثّواب و العقاب لكلّ مطيعٍ وعاصٍ كم تكون، ليس من المُتشابه بشئٍ و هو ظاهر و ذلك لوجود الفرقِ بين ما لا يعلم معناه إلاّ اللّه مثل قيام السّاعة، و ما لا يكون العلم به مخصوصاً كالمتشابه ألا ترىٰ أنّهم قالوا فيه أنّ المتشابه ما كان إثبات المعنى فيه اللّفظ الدّال عليه و نفيه عنه متساويان فقد تشابه فيه النّفي والإثبات أو ما دّل فيه اللّفظ علي شئٍ والعقل علىٰ خلافه فتشابهت الدّلالة كالإستواء علىٰ العرش و كون عيسى روح اللّه وكلمته، و أينَ هذا ممّا ذكره الرّازي من العلم بقيام السّاعة الّتي قال اللّه تعالىٰ فيها **يَسْئَلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ ٱللّهِ**(١).

أتى بكلمة (أنّما) الدّالة علىٰ إنحصار العلم بها باللّه تعالىٰ وهكذا الثّواب و العقاب و امثال ذلك فأنّ أمثال هذا لا يعدّ من المُتشابهات ولم يقل أحد أنّ الرّاسخين في العلم يعلمون كلّ ما يعلمه اللّه بل نقول يعلمون تأويل المتشابه من الألفاظ وحيث أنّ الرّازي كان أجل شأناً من أن يكون جاهلاً بمعنىٰ المتشابه و وجود الفرق بين الموردين قلنا إنّه شَكك في المقام كما هو دأبه هذا ما قالوه في المراد بالتّأويل.

و الحقّ أنّ التّأويل في الأصل بمعنىٰ المرجع والمصير كما ذكره الرّازي إلاّ أنّ المراد منه في الآية ليس ما ذكره بل المراد أنّ الرّاسخين في العلم يرجعون المتشابهات الىٰ المحكمات الّتي هي الأصل في الكتاب لقوله تعالىٰ: **هُنَّ أُمُّ**

١- الأحزاب=٦٣.

اَلْكِتٰابِ والأُمّ الأصل ومن المعلوم أنّ كلّ شئٍ يرجع الى أصله ففهيه إيماءٌ الى أنّ المتشابه كلام اللّه كالمحكم و لا فرق بينهما من هذه الجهة إلاّ أنّ المحكمات هي الأُصول والمُتشابهات بمنزلة الفروع المتولّدة عن الأُصول كما هو الشّأن في كلّ فرعٍ بالنّسبة الىٰ أصله فالرّاسخون في العلم يرجعونها الىٰ المُحكمات و بذلك يخرجونها عن التّشابه.

إن قلت لم كان في القرأن متشابه لا يعلمه إلاّ اللّه والرّاسخون في العلم، ولِمَ لم يكن كلّه مُحكماً يستوي في فهمه جميع النّاس و هو قد نزّل هادياً و المُتشابه يحول دون الهداية بما يُوقع اللّبس في العقائد و يفتح باب الفِتنة لأهل التّأويل و قد ذكر الرّازي هذا السّؤال في كتابه مُفصّلاً بحيث فتح فيه باب الشّبهة لمن كان في قلبه زيغ و هو بنفسه منهم ثمّ ذكر وجوهاً في الجواب عن السّؤال لم نَر في نقلها فائدة لبطلانها و كونها مخالفاً للعقل والنّقل أن شئت الإطّلاع على كلامه مفصّلاً فعليك بكتابه الّذي سمّاه تفسيراً و لقد أجاد صاحب المنار في هذا المقام حيث قال بعد نقله الأجوبة بتمامها ما هذا لفظه:

أنّه لم يأت بشئٍ نيّر و لم يحسن بيان ما قاله العُلماء و أسخف هذه الوجوه و أشدّها تشّوهاً الثّاني و لا أدري كيف أجاز له عقله أن يقول أنّ القرأن جاء بالمُتشابهات ليستميل أهل المذاهب الىٰ النّظر فيه و أنّ هذا طريق الىٰ الحقّ.

قال في المنار أين كانت هذه المذاهب عند نزوله و من إهتدى من أهلها بهذه الطّريقة و يقرب من هذا ما قاله في بيان السّبب الأقوى من دعوة العوام الىٰ المُتشابه أوّلاً الىٰ أخر ما قال.

و نحن نقول الحقّ في الجواب أنّ هذا السّؤال ساقط من أصله بحيث لا يليق بأن يجاب عنه لأنّه لا يختّص بالقرأن بل هو موجود في جميع الكتب المدوّنة لأنّك لا تجد كتاباً يستوي في فهمه جميع النّاس، وهذا واضح لا خفاء فيه فهو مثل أن يقال لِم لَم يخلق اللّه تعالىٰ جميع النّاس علماء بل جعل بعضهم من

العلماء وبعضهم من الجهّال فلو جَعَل اللّه تعالىٰ العلم في الجميع لم يحتج الجاهل الىٰ العالم لوجود العلم فيه علىٰ الفرض.

أو يقال لم لم يجعل اللّه جميع الخلق أغنياء حتّىٰ لا يحتاج الفقير الىٰ الغنّي ولمَ لَم يَجعل اللّه تعالىٰ كلّهم أقوياء حتّىٰ لا يوجد ضعيفٌ أصلاً ولِمَ ولِمَ.

والجواب عن الكلّ هو أنّ نظام العالم إقتضىٰ ذلك أي التّفاوت بين النّاس من حيث العلم والجهل والغنىٰ والفقر وهكذا و قد ثبت أنّ في نظام الكُلّ كلٌّ منتظم، ثمّ أنّه لو كان الأمر كما ذكره هذا السّائل لما يحتاج النّاس الىٰ العُلماء الرّاسخين، فكيف يُعرف فضلهم و قدرهم فَجَعل المُتشابه في الكتاب لمصلحةٍ رأها وأعَظمها تمّسك النّاس بالعترة بعد النّبي لفهم الكتاب وما فيه لئلا يقولُوا حَسبنا كتاب اللّه كما سيأتي تفصيل الكلام فيه ومن هذه المصالح إختبار النّاس و ابتلاؤهم بالمُتشابهات ليميز الخَبيث من الطّيب والّذي في قلبه مرض من غيره و امثال ذلك من المصالح التّي لا يعلمها إلاّ هُو ومحصل الكلام فيه و في أمثاله هو أنّ اللّه لا يُسأل عمّا يفعل و هم يسألون.

قال بعض المحقّقين أنّ اللّه أنزّل المتشابه في كتابه ليمتحن قلوبنا في التّصديق به فأنّه لو كان كلّ ما ورد في الكتاب معقولاً واضحاً لا شبهة فيه عند أحدٍ من الأذكياء ولا من البُلداء لماكان في الإيمان شئ من معنىٰ الخضُوع لأمر اللّه والتّسليم لرسله إنتهىٰ.

إن قلت لِم قال اللّه تعالىٰ **وَ ٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ** ولَم يقل والرّاسخون في الدّين.

فالجواب أنّ العلم أعمّ و أشمل من الدّين فمِن رحمته تعالىٰ أن جعل في الدّين مجالاً لبحث العقل بما أوَدع فيه من المتشابه فهو يبحث أوّلاً في تمييز المتشابه عن غيره و ذلك البحث في الأدّلة الكونيّة و البراهين العقلية و طرق

الخطاب و وجوه الدّلالة ليصل الى فهمه و يهتدي الىٰ تأويله و هذا الوجه لا يأتي إلاّ علىٰ قول من عطف (والرّاسخون) علىٰ لفظ الجلالة هذا ما ذكروه حول الآية و لنرجع الى ما نحن بصدد ذكره في المقام فنقول:

إعلم أنّ الآية الشّريفة قد دلّت على وجود المتشابهات في الكتاب كالمُحكمات و هذا ممّا لا كلام فيه لقوله: **مِنْهُ ءَايَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَابِ وَ أُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ** و قد مرّ تفسير المُحكم والمُتشابه وأيضاً دلّت علىٰ أنّ المحكمات هي الأُصول لقوله: **هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَابِ** و أنّه لا يعلم تأويل المتشابهات إلاّ اللّه تعالىٰ: **وَ ٱلرَّاسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ** و هُم الّذين خصّهم اللّه تعالىٰ بإفاضة العلم علىٰ قلوبهم لإستعدادهم و قابلّيتهم وهذا أيضاً ممّا لا كلام فيه، بناءً على عطف الرّاسخين على إسم الجلالة كما هو الحقّ الحقيق بالمقام و أنّما الكلام في أنّ الرّاسخين، مَن هُم، لأنّ هذا هو الأصل في الآية الشّريفة بل نقول لم ينزل الآية إلاّ لأجل إفادة هذا المعنىٰ وأنّ الوظيفة بعد النّبي في فهم المتشابهات من الكتاب للنّاس ما هِي.

قال الطّبري في تفسيره، يعني بالرّاسخين في العلم العلماء الّذين قد أتقنوا علمهم و وعوه فحفظوه حفظاً لا يُدخلهم في معرفتهم و علمهم بما عِلموه شكّ ولا لبس، وأصل ذلك من رسوخ الشّيئ في الشّيئ و هو ثبوته يقال رسخ الإيمان في قلب فلان فهو يرسخ رسوخاً و قد رُوي في نعتهم خبر عن النّبي صلى الله عليه وآله و هو:

ما حدّثنا موسىٰ بن سَهل الرّملي قال: حَدّثنا محمّد بن عبد اللّه قال: حدّثنا فياض بن محمّد الرّقي قال: حدّثنا عبد اللّه بن يزيد بن أدم عن أبي الدّرداء وأبي إمامة قالا سئل رسول اللّه صلى الله عليه وآله من الرّاسخ في العلم قال صلى الله عليه وآله: من برّت يمينه و صدَق لسانه وإستقام قلبه وعفّ بَطنه فذلك الرّاسخ في العلم.

ثمّ نقل حديثاً أخر بأسناده عنهما قالا أنّ رسول اللّه سئل عن الرّاسخين في العلم فقال ﷺ: من بَرّت يمينه و صدق لسانه و إستقام قلبه وعفَّ بطنه و فرجه فذلك الرّاسخ في العلم إنتهىٰ.

ثمّ قال الطّبري و قد قال جماعة من أهل التّأويل أنّما سمّىٰ اللّه عزّ وجلّ هؤلاء القوم الرّاسخين في العلم بقولهم، أمنّا به كلٌّ من عند ربّنا ونقل في تأييد هذا القول ما يدّل عليه عن مجاهد و إبن عبّاس و ابن جريح وغيرهم.

أقول و قد نقل القُرطبي في تفسيره والسّيوطي في الدّر المنثُور مثل ذلك و منهم من قال أنّ إبن عبّاس كان من الرّاسخين في هذه الآية قال بعض المُفسّرين منهم وممّا يحتّج به من قال (الرّاسخون في العلم يعلمون التّأويل) ما ثبت في صحيح البخاري و غيره **عن إبن عبّاس أنّ النّبي ﷺ دعا له و قال اللّهم فقّهه في الدّين وعلّمه التّأويل.**

فقد دعا له بعلم التّأويل مطلقاً وإبن عبّاس فسّر القرأن كلّه.

قال مجاهد عرضت المصحف علىٰ إبن عبّاس من أوّله الىٰ أخره أقفه عند كلّ أيةٍ وأسأله عنها وكان يقول أنا من الرّاسخين في العلم الّذين يعلمون تأويله و أيضاً فالنقول متواترة عن إبن عبّاس أنّه تكّلم في جميع معاني القرأن و أيضاً فقد قال إبن مسعود ما من أيةٍ في كتاب اللّه إلاّ و أنا أعلم فيماذا أنزّلت قاله في تفسير المنار.

أقول و بهذه المقالة قال كثير من مفسّري العامّة فزعموا أنّ عبد اللّه بن عبّاس و إبن مسعود و أمثالهما من الرّاسخين في العلم.

و أمّا الشّيعة فلا تقول بها و اتّفقت علىٰ أنّ الرّاسخين في العلم منحصرة في الأئمّة المعصومين أوّلهم علّي بن أبي طالب الّذي هو باب مدينة علم الرّسول لقوله ﷺ **أنا مدينة العلم وعلّي بابها**، و أخرهم حجّة بن الحسن العسكرى (عج) **الّذي يَملأ اللّه الأرض به قسطاً وعدلاً بَعد ما مُلئت ظُلماً وجَوراً.**

و أمّا عبد اللّه بن عبّاس فهو من أصحاب أمير المؤمنين و تلاميذه كما أقرَّ بذلك غير مرّةٍ و هو الّذي يقول على رؤوس الأشهاد ما كان علمي في جنب علم علّي عليه السلام إلاّ كالقطرة في جنب البحر و لا أظنّ أنّه أي إبن عبّاس كان راضياً بما يقولون أعداء علّي في حقّه و امّا ما نقلوه عن رسول اللّه صلى الله عليه وآله أنّه قال فيه اللّهم فقّهه في الدّين و علّمه التّأويل، فعلى فرض صحّة الحديث لا يثبت المدّعىٰ لأنّ المعنىٰ علّمه التّأويل بحسب إستعداده وفهمه في الإكتساب والتّحصيل و هذا هو موجود في كلّ فردٍ من العُلماء بحسب مراتب علمهم و اذا كان إبن عبّاس هكذا حاله فما ظنّك بإبن مسعود الّذي لا يعدّ من العُلماء في الصّدر الأوّل واقعاً وأنّما هو أحد القرّاء والحقّ أنّ إبن عبّاس لا يقاس به أمثال إبن مسعود و زيد بن ثابت و أبي الدّرداء و أمثالهم.

و أمّا الأحاديث الّتي رووها عن رسول اللّه صلى الله عليه وآله حين سُئل من الرّاسخ في العلم فقال من برّت يَمينه و صدق لسانه الخ فهي علىٰ فرض صحتّها لا تصلح لما نحن بصدده و ذلك لأنّ البحث في الرّاسخين في العلم و هُم الّذين رسخ العلم فيهم و ثبت، و امّا صدق اللّسان وبرّ اليمين وإستقامة القلب و عفّة البَطن و الفَرج فلا رابط لها بالعلم والعالم الرّاسخ فيه العلم و ذلك لأنّ ما ذكروه في الحديث فهو من أوصاف الزّهاد والعبّاد المؤمنين و أن لم يكونوا راسخين في العلم وأيّة ملازمةٍ بين الرّسوخ في العلم و عفّة البطن و الفرج وصدق اللّسان و أمثالها.

نعم قد يجمع العلم مع هذه الأوصاف لكن لا ملازمة بينهما من الطّرفين و أنا لا أظنّ أنّ رسول اللّه صلى الله عليه وآله قال بهذه المقالة لأنّه صلى الله عليه وآله كان أعظم شأناً و أجل قدراً و علماً مِن أن فَسَّر الرّاسخين بالعلم بمن برَّت يمينه و صدق لسانه الخ.

و أمّا قول الطّبري نقلاً عن جماعةٍ من أهل التّأويل، أنّما سمّي اللّه عزّ وجل هؤلاء القوم الرّاسخين في العلم بقولهم: **آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا** وتأييده بما

رواه عن مجاهد و إبن عبّاس فهو بعيد عن الصّواب غاية البعد لأنّ القول المذكور أعني به **اٰمَنَّا بِهٖ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا** قول جميع المسلمين والمؤمنين و بالجملة كلّ من أمن باللّه و برسُوله و باليوم الأخر يقول بهذه المقالة فلا يختصّ التّقول بها بالرّاسخين إذ ليس لأحدٍ من المسلمين عالمهم وجاهلهم أنّ الكتاب المنزّل علىٰ رسولل الإسلام أعني به القرأن من عند ربّه وفيه المحكم و المتشابه، و هذا المعنىٰ لا يخفى على المسلم الجاهل فكيف خفى على الطّبري و أمثاله اللّهم إلاّ أن يقال:

وعين الرّضا عن كلّ عيبٍ كليلةُ ولكنّ عين السّخط تبدي المساويا

و أمّا نقل المجاهد عن إبن عبّاس أنّه قال أنا من الرّاسخين في العلم الّذين يعلمون تأويله، فكذبه أظهر من أن يَخفىٰ علىٰ أحَدٍ وكيف يمكن القبول منه على فرض صحّة النّقل هذا الإدّعاء الّذي ينادي بأعلىٰ صوته بكذب المُدّعي له فلا يخلو هذا النّقل إمّا أنّ الرّاوي كذب في نقله أو المرّوي عنه أو كلاهما والوجه فيه هو أنّ علم إبن عبّاس و أمثاله كسبيٌّ تحصّيلى أخذوه من أفواه الرّجال على قدر إستعدادهم و العلم بتأويل المُتشابهات بل كلّ المعضلات من الكتاب و السّنة لابدّ من أن يكون حضوريّاً لدنّياً افاضّياً من مبدأ الفيّاض من غير واسطةٍ بين الخالق والمخلوق و هو لا يوجد إلاّ للنّبي أو الوَّصي وأيَن إبن عبّاس من هذا المقام و هو أحد من علماء الإسلام في الصّدر الأوّل وكم له من نظيرٍ و بعد اللّتيا والّتي المراد بالرّاسخين في الآية الشّريفة ليس إلاّ النّبي والأوصياء بعده و دُونه خرط القتاد ولنُشر الىٰ بعض ما وَرد في الباب تكميلاً للبحث:

قال أمير المؤمنين في نهج البلاغة:

اَيْنَ الَّذِينَ زَعَمُوا اَنَّهُمْ الرَّاسِخُونَ فِى الْعِلْمِ دُونَنَا كَذِباً وَبَغْياً عَلَيْنَا اَنْ رَفَعَنَااللهُ وَوَضَعَهُمْ وَاَعْطَانَا وَحَرَمَهُمْ وَاَدْخَلَنَا وَاَخْرَجَهُمْ بِنَا يُسْتَعْطَى الْهُدَىٰ وَيُسْتَجْلَى

الْعَمَىٰ إِنَّ الْأَئِمَّةَ مِنْ قُرَيْشٍ غُرِسُوا فِى هٰذَا الْبَطْنِ مِنْ هَاشِمٍ لاَ تَصْلُحُ عَلَىٰ سِوَاهُمْ وَلَا تَصْلُحُ الْوُلَاةُ مِنْ غَيْرِهِمْ(١).

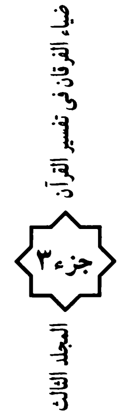
و قال عليه السلام:

وَاعْلَمْ اَنَّ الرَّاسِخِينَ فِى الْعِلْمِ هُمُ الَّذِينَ اَغْنٰاهُمْ عَنِ اقْتِحٰامِ السُّدَدِ الْمَضْرُوبَةِ دُونَ الْغُيُوبِ الْاِقْرٰارُ بِجُمْلَةِ مٰا جَهِلُو تَفْسِيرَهُ مِنَ الْغَيْبِ الْمَحْجُوبِ، فَمَدَحَ اللّٰهُ اعْتِرٰافَهُمْ بِالْعَجْزِ عَن تَنٰاوُلِ مٰالَمْ يُحِيطُوا بِهِ عِلْماً،وَّ سَمّٰى تَرْكَهُمُ التَّعَمُّقَ فِيمٰا لَمْ يُكَلِّفهُمُ الْبَحْثَ عَن كُنْهِهِ رُسُوخاً، فَاقْتَصِرْ عَلٰى ذٰالِكَ وَ لاٰ تُقَدِّرْ عَظَمَةَ اللّٰهَ سُبْحٰانَهُ عَلٰى قَدْرِ عَقْلِكَ فَتَكُونَ مِنَ الْهٰالِكِينَ(٢)إنتهىٰ.

روى الكليني بأسناده عن أبي بصير عن أبي عبد اللّه عليه السلام قال: نحن: ٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ و نحن نعلم تأويلة.

و بأسناده عن أبي الصّباح الكناني قال: قال أبو عبد اللّه عليه السلام نحن قومٌ فرض اللّه عزّ وجلّ طاعتنا لنا الأنفال ولنا صفو المال و نحن: ٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ.

روى سليم بن القيس الهلالي عن أمير المؤمنين عليه السلام في حديث له مع معاوية قال عليه السلام: يا معاوية القرأن حقّ ونور و هدىً وشفاء للمؤمنين الّذين أمنوا والّذين لا يُؤمنون في أذانهم وقرٌ و هو عليهم عمىً يا معاوية أنّ اللّه عزّ وجل لَم يَدع صنفاً من أصناف الضّلالة والدّعاة الىٰ النّار إلاّردّ عليهم و احتّج في القرأن و نهى عن إتّباعهم و أنزّل فيهم قرأناً ناطقاً عليهم عِلمَه من عِلمه و جَهلَه من جَهله و أنّي سمعت رسول اللّه صلى الله عليه وآله يقول ليس من القرأن أية إلاّ و لها ظهرٌ و بطنٌ و لا منه حرفٌ إلاّ وَله حَدٌّ ولكلّ حدٍّ مطلع ظَهر القرأن و



١- خ ١۴۴.
٢- خ ٩١.

تأويله وَ مٰا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ وَ ٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ وأمَرَ اللّه عزّ وجلّ الأُمّة أن يقولوا، أمنّا به كلٌّ من عند ربّنا، وأن يسلّموا النا و أن يردّوا علمه إلينا و قال اللّه عزّ وجلّ ولو ردُّوه الى الرّسول و الى أُولي الأمر منهم لعلمه الّذين يَستنبطونه منهم و يطلبونه إنتهىٰ.

علّي بن إبراهيم بأسناده عن أبي بصير عن أبي عبد اللّه قال: سمعته يقول القرأن زاجرٌ و آمِرٌ يأمر بالجنّة و يزجر عن النّار و فيه محكمٌ و متشابه فأمّا المحكم فيعمل به و يؤمن به ويعتبر به و امّا المُتشابه فيُؤمن به ولا يُعمل به و هو قوله فأمّا الّذين في قلوبهم زيغ الىٰ قوله كلٌّ من عند ربّنا قال عليه السلام أل محمّدٍ وَ ٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ.

و عن أبي جعفر الباقر ٧ قال: أنّ رسول اللّه صلى الله عليه وآله أفضل الرّاسخين في العلم فقد علم جميع ما أنزل اللّه عليه من التّنزيل والتّأويل وما كان اللّه ليُنزل عليه شيئاً لم يعلّمه التّأويل و أوصياءه من بعده يعلمونه كلّه قال قلت جُعلت فداك أنّ أبا الخطّاب يقول فيكم قولاً عظيماً قال عليه السلام وما كان يقول قلت قال أنكم تعلمون علم الحلال والحرام و القرأن قال عليه السلام أنّ علم الحلال والحرام والقرأن يَسيرٌ في جَنب العلم الّذي يحدث في اللّيل والنّهار.

و بأسناده عن أبي بصير عن أبي عبد اللّه عليه السلام يقول: أنّ القرأن محكم و متشابه فأمّا المُحكم فتُؤمن به و تَعمل به و تدين و امّا المُتشابه فتؤمن به و لا تعمل به و هو قول اللّه عزّ وجلّ و امّا الّذين في قلوبهم زيغٌ فيَتّبعون ما تَشابه منه الىٰ قوله: كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنٰا وَ ٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ هُم أل محمّدٍ عليهم السّلام.

و عن بريدة قال: قلت لأبي جعفر عليه السلام قول اللّه: وَ مٰا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ وَ ٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ قال عليه السلام يعني تأويل القرأن كلّه إلاّ

اللّه والرّاسخون في العلم فرسول اللّه أفضل الرّاسخين قد عَلّمه اللّه جميع ما أنزّل عليه من التّنزيل والتّأويل و ما كان اللّه منزلاً عليه شيئاً لم يعلّمه تأويله و أوصياءه من بعده يعلمونه كلّه فقال، الّذين لا يعلمون ما نقول إذا لم نعلم فأجابهم اللّه، يقولون أمنّا به كلٌّ من عند ربّنا، و القرأن له خاصّ و عامّ و ناسخ و مَنسُوخ و مُحكم و مُتشابه وَ ٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يعلمونه.

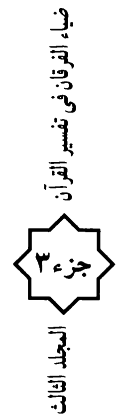
و عن الفضيل بن يسار عن أبي جعفر عليه السلام: و ما يعلم تأويله إلاّ اللّه وَ ٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ نحن نَعلمه.

و عن أبي بصير عن أبي عبد اللّه عليه السلام قال: نحن ٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ فنحن نعلم تأويله، وهذه الأحاديث نقلناها عن تفسير البرهان[١].

أقول والأخبار في الباب كثيرة أعرضنا عن ذكرها مخافة الإطناب والخروج عن موضوع الكتاب والسِّر فيما ذَكرناه من تفسير الرّاسخين بهم هو أنّ القرآن لا ينطق كما:

روي عن أبي بصير عن أبي عبد اللّه عليه السلام قال: قلت له، هذا كتابنا ينطق عليكُم بالحّق، قال عليه السلام أنّ الكتاب لا ينطق و لكن محّمد و أهل بيته هم النّاطِقون بالكتاب[٢].

روي في المَناقب عن تفسير النّقّاش عن إبن عبّاس أنّه قال علّيُ علم علماً علَّمه رسول اللّه صلى الله عليه وآله ورسول اللّه عَلَّمه اللّه فعلمُ النَّبي من عِلم اللّه و عِلم علّي من عِلم النّبي صلى الله عليه وآله و عِلمي من عِلم علّيٍ و ما عِلمي و عِلم أصحاب محّمد صلى الله عليه وآله في عِلم علّيٍ إلاّ كقَطرةٍ في سَبعة أبحر.



١- ج ١ ص ١٦٧.
٢- بحار الأنوار ج ٧ ص ٤٠.

و عن الضّحاك عن أبي عبّاس قال: أعطي علّي إبن أبي طالب تِسعة أعشار العِلم وأنّه لأعلمهُم بالعشر الباقي.

يَحيىٰ بن مُعين بأسناده عن عطاء بن أبي رياح أنّه سئل هل تعلم أحداً بعد رسول اللّه أعلَم من علّيٍ عليه السلام قال لا واللّه ما أعلمه.

روي الخطيب في الأربعين قال عُمر بن الخطّاب العِلم ستّة أسداسٍ لِعلّي من ذلك خَمسة أسداسٍ وللنّاس سُدس ولقد شاركنا في الّدُس حتّىٰ لَهُوَ أَعلَمٌ به منّا إنتهىٰ.

ولِنعم ما قيل:

وعلّيٌ خازن الوحي الّذي كان مستودع آيات السُّور

و قال إبن حمّاد:

عِلم بما قد كان أو هو كائنٌ

وما هو دقٌّ في الشّرائع أو جلَ

فَسمّي مجّلى في الصّحائف كلّها

فسل أهلها و أسمع تلاوة من يتلو

ولولا قَضاياه الّتي شاع ذكرها

لعطّلت الأحكام والفرض والنّقل

فهذه شهادة العّامة في حقّه عليه السلام وما يثبت فيه ثبت في الأئمة بعده وعن فضائل البكري قال الشّعبي ما أَحدٌ أعلم بكتاب اللّه بعد نبّي اللّه من علّي إبن أبي طالب.

و عن تاريخ البلاذري وحلية الأولياء، قال علّيٌ واللّه ما نزلت أية إلاّ و قد علمت فيما نَزّلت و أينَ نَزّلت، أبليلٍ نَزّلت أم بنهارٍ في سهلٍ أو جبلٍ أنّ ربّي وَهَب لي قلباً عقولاً و لساناً سئولاً.

■

رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَ هَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴿٨﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴿٩﴾

◁ اللّغة

لَا تُزِغْ: بضّم التّاء مضارع من أَزَاغَ يُزِيغ، والإزاغة، فساد القلب والمَيل عن الدّين.

هَبْ: فعل أمرٍ من، وَهَب يَهب، أي أعطِ وجُد لَنا.

لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ:الخُلف بضّم الخاء مصدر و قيل جمع الخَلِيف وهو عدم إنجاز الوَعد و هو في المستقبل كالكذب في الماضي، والميعاد بكسر الميم مِفعال من الوَعد وأصله مِوعاد، ومثله الميزان من الوَزن.

◁ الإعراب

مِنْ لَدُنْكَ لدن مبنّية علىٰ السّكون وهي مضافة لأنّ علّة بناءها موجودة بعد الإضافة والحكم يتبع العلّة و هي أنّ، لدن، بمعنىٰ، عِند، الملاصقة للشّئ وفيها لغات هذه أحدايها، والأخرىٰ فيها سكون النّون. الثّالثة، ضمّ اللاّم و سكون الدّال و الرّابعة لدىً، و الخامسة، لَدا بفتح اللاّم و ضمّ الدّال من غير نونٍ، و السّادسة، فتح اللاّم و إسكان الدّال و لا شئ بعد الدّال جَامِعُ النَّاسِ الإضافة غير مَحضة لأنّه مستقبل والتقدّير جامع النّاس لعرض يوم أو حساب يوم و قيل اللاّم بمعنىٰ، في، أي في يوم لَا رَيْبَ من موضع جرٍ صفة ليومٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ يجوز أن يكون مُستأنفاً وليس محكيّاً عمّن تقدّم الميعاد نصب على المفعول و قد مرّ الكلام فيه.

◁ التّفسير

رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا

قيل في الكلام حذفٌ تقديره، يقولون، وهذا حكاية عن الرّاسخين، و قيل الخطاب للرّسول، أي قل يا محمّد قاله القُرطبي و قال الطّبرسي ﴿رحمه الله﴾ هذه حكاية عن قول الرّاسخين في العلم الّذين ذكرهم اللّه في الآية الأولىٰ ثمّ ذكر في تأويله وجوهاً أحدها أن معناه لا تمنعنا لطفك الّذي مَعه تستقيم القلوب عن الإيمان بعد إذ وفقتّنا بألطافك حتّىٰ اهتدينا اليه و هذا دعاء للتّثبيت علىٰ الهداية والإمداد بالألطاف والتّوفيقّات وساق الكلام الىٰ أن قال فكأنّهم قالوا لا تحل بَيننا وبين نُفوسنا بَمنعك التّوفيق والألطاف فنضيع و نضَل و أنّما يُمنع ذلك بسبب ما يكتبه العبد من المعصية و يفرط فيه من التّوبة كما قال: **فَلَمَّا زَاغُوٓا أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ**[1].

ثانيها: أنّ معناه لاتكلّفنا من الشدائد مايصعب علينا فعله و تركه الخ ما قال.

ثالثها: ما نقله عن الجبائي أنّ المراد لا تزغ قُلوبنا من ثوابك ورحمتك الخ.

رابعها: أنّ الآية محمولة علىٰ الدّعاء بأن لا تزيغ القُلوب عن اليقين والإيمان الخ.

و قال الفيض ﴿رحمه الله﴾ في الصّافي: **رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا** عن نهج الحقّ الىٰ إتّباع المتشابه بتأويلٍ لا ترتضيه و أنّما أضيف الزّيغ الىٰ اللّه لأنّه مسبّبٌ عن إمتحانه و خذلانه، و قال صاحب الكشاف أي لا تبتلنا ببلايا تزيغ فيها قلوبنا، و به قال البيضاوي و غيره من مفسّري العّامة، والّذي يختلج بالبال في تفسير كلامه تعالىٰ هو أنّه لا يختّص بالرّاسخين ليكون مَقوّلاً لقولهم فقط بل هو دعاء ينبغي لكل مؤمون مسلمٍ أن يدعُو به ويطلب من اللّه تعالىٰ التّوفيق و دوام اللُّطف لأنّ بقاء الإيمان كَحدوثه بسبب توفيقه، قال بعض المفسّرين من العّامة، إن قلت أفكانوا يخافون و قد هُدوا أن ينقلهم اللّه الىٰ الفساد.

١- الصف = ٥

فالجواب أن يكونوا سألوا اذ هداهم اللّه أن لا يبتليهم بما يثقل عليهم من الأعمال فيعجّزوا عنه ُ أقول والحقّ في الجواب أن يقال أنّ الهداية مِن اللّه تعالىٰ كما تحتاج في حدوثها الىٰ توفيقه وعنايته كذلك في بقاءها تحتاج الىٰ توفيق اللّه تعالىٰ للعبد لأنّ الممكن الباقي محتاج الىٰ المؤثّر في بقاءه كما في حُدوثه والإيمان كذلك، قيل أنّ الآية حُجّة علىٰ المُعتزّلة في قولهم أنّ اللّه لا يضّل العباد، إذ لو لم تكن الإزاغة من قِبله لما جاز أن يدعى في دفع ما لا يجوز عليه فعله، أقول والتحقّيق أنّ الإزاغة ليست بمعنىٰ الإضلال بل هي بمعنى سلب التّوفيق الّذي هو سبب للإضلال والفرق واضح.

وَ هَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ ٱلْوَهَّابُ

الرَّحمة رقّة تقتضي الإحسان الىٰ المرحوم تُستعمل تارةً في الرّقة المجّردة وتارةً في الإحسان المجّرد عن الرَّقة نحو رحم اللّه فلاناً و اذا وُصف به الباري فليس يراد به إلاّ الإحسان المجّرد دُون الرّقة وعلىٰ هذا روي أنّ الرّحمة من اللّه إنعامٌ وإفضال و من الآدميّين رقّة و تعطّف و عليه فإذا قيل وهَب لنا من لَدُنك رحمة معناه إعطِ لنا من عندك إحسان أنّك أنتَ المُحسن وفيه إشارة الىٰ أنّ الإحسان منه تعالىٰ علىٰ أساس التَّفضُل لا الوُجوب أي أنّه تعالى يرحم العبد تفضّلاً و كرامةً منه.

رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ

أي أنّك تحيي و تبعث من في القبور ليومٍ لا ريب فيه و هو يوم القيامة وفي قوله أنّ اللّه لا يُخلف الميعاد إشارة الىٰ أنّ يوم القيامة هو اليوم الموعود:

قال اللّه تعالى: **إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ وَ مَآ أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ**[1].

قال اللّه تعالى: **هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ**[2]

١- الأنعام = ١٣٤.
٢- ص = ٥٣.

قال اللّه تعالى: **إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ**[۱].

قال اللّه تعالى: **ثُمَّ جَآءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ**[۲] و أمثالها كثيرة.

■

۱- المرسلات = ۷.

۲- الشعراء= ۲۰۶

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوالُـهُمْ وَ لآ أَوْلادُهُمْ مِنَ ٱللّٰهِ شَيْئًا وَ أُولٰئِكَ هُمْ وَقُودُ ٱلنّارِ ﴿١٠﴾ كَدَأْبِ الِ فِرْعَوْنَ وَ ٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِاٰيَاتِنا فَأَخَذَهُمُ ٱللّٰهُ بِذُنُوبِهِمْ وَ ٱللّٰهُ شَدِيدُ ٱلْعِقابِ ﴿١١﴾ قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَ تُحْشَرُونَ إِلىٰ جَهَنَّمَ وَ بِئْسَ ٱلْمِهٰادُ ﴿١٢﴾

◁ اللّغة

وَقُودُ ٱلنّارِ: الوَقُود بفتح الواو ما تُوقد به النّار مثل الحطب.

كَدَأْبِ: الدّأب بسكون الهَمزة و قد تفتح، العادة والشأن و أصلَه من دَأَب في العَمل إذا جدَّ و تعب.

ٱلْمِهٰادُ: بكسر الميم الفِراش.

◁ الإعراب

مِنَ ٱللّٰهِ في موضع نَصب لأنّ التّقدير من عذاب اللّه شَيْئًا في موضع المصدر و يجوز أن يكون مفعولاً به علىٰ المعنىٰ كَدَأْبِ الكاف في موضع نصب نَعتاً لمصدرٍ محذوف أي كفروا كفراً كعادة آل فرعون ،والّذين من قبلهم في موضع جرّ عطفاً علىٰ آل فرعون و قيل الكاف في موضع رفع خبر إبتداء محذوف تقديره دَأبهم في ذلك مثل دَأب آل فرعون، شديد العقاب، تقديره شديد عقابه فالإضافة غير مَحضة بِئْسَ ٱلْمِهٰادُ أي جهنّم فحذف المخصُوص بالذَّم.

◁ التّفسير

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا الكُفر في اللّغة ستر الشّئ و هو بحسب موارد الإستعمال علىٰ أقسامٍ ذكرناها في أوائل البقرة ومنها الكُفر في الّدين و هو المراد في

المقام و هو يقال علىٰ من جحد الوحدّانية أو النّبوة أو الشّريعة أو جَـميعها وأنّما قلنا هو المراد لأنّ اللّه تعالىٰ بعد هذه الآية كَدأب آل فرعون والّذين من قبلهم الآية و من المعلوم أنّ فرعون وآله كانوا كافرين بالمعنىٰ الّذي ذكـرناه فكذا المُشّبه. **لَنْ تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوالُهُمْ وَ لآ أَوْلادُهُمْ** أتىٰ بكلمة، **لَن**، الّتي لنفي الأبد إشعاراً بأن عدم الغنىٰ ثابت لهم أبداً.

وَ أُولٰئِكَ هُمْ وَقُودُ ٱلنّارِ.

والوَقُود بفتح الواو إسم للحطب و هو الذّي تـوقد بـه النّار، ذكـر بـعض المفسّرين أنّ المراد بالكُفّار الّذين لَن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم، وَفـد نجران قالوا أنّ أبا حارثة بن عَلقمة قال لأخيه أنّي لأعلم أنّه رسول اللّه حَقّاً و لكنّني أظهرت ذلك أخذ ملوك الرّوم منّي ما أعطوني من المال والجاه فنزلت الآية و قيل أنّ اللّفظ عام وخصوص السّبب لا يمنع عموم اللّفظ و هو الحقّ، ثمّ أنّ تخصيص الأموال والأولاد بالذّكر في الآية لأنّ الإنسان عند الخـطوب و النّوائب في الدّنيا يفزع اليهما و يدفع النّوائب بهما أقرب الأمور اليه في دفع البّليات و لذلك قد يظّن أنّ الأخرة كالدّنيا من هذه الجهة فقال اللّه تعالىٰ أنّ الأمر ليس كما ظَنَنت وأنّ صفة ذلك اليوم مخالفة لِصفة الدّنيا فإذا كان أقرب الطّرق الىٰ دفع المضّار و هو المال والوَلَد لا ينفع في ذلك اليـوم فـما عـداه بالتعذّر أولى ولأجل ذلك قال تعالىٰ في موضع آخر من الكتاب:

قال اللّه تعالى: **يَوْمَ لا يَنْفَعُ مالٌ وَ لا بَنُونَ، إِلّا مَـنْ أَتَـى ٱللّـهَ بِـقَلْبٍ سَلِيمٍ**[1].

قال اللّه تعالى: **وَ لَقَدْ جِئْتُمُونا فُرادىٰ كَما خَلَقْناكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَ تَرَكْتُمْ ما خَوَّلْناكُمْوَرآءَ ظُهُورِكُمْ**[2].

١- الشعراء= ٨٨/٨٩ ٢- الانعام = ٩٤

و أنّما قال تعالىٰ: **هُمْ وَقُودُ ٱلنَّارِ** ولَم يَقل هم في النّار، أولهم النّار و امثال ذلك من التّعابير للإشارة الىٰ أنّ عذاب هؤلاء الكُفّار من أشّد أنواع العذاب إذ لا عذاب أشّد وأزيَد من أن تشتعل النّار بهم وفيهم كإشتعالها في الحَطَب اليابس:

قال اللّه تعالىٰ: **وَ أَمَّا ٱلْقاسِطُونَ فَكانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا**(۱).

قال اللّه تعالىٰ: **فَاتَّقُوا ٱلنّارَ ٱلَّتِي وَقُودُها ٱلنّاسُ وَ ٱلْحِجارَةُ**(۲).

قال اللّه تعالىٰ: **يٰآ أَيُّهَا ٱلَّذِينَ اٰمَنُوا قُوٓا أَنْفُسَكُمْ وَ أَهْلِيكُمْ نارًا وَقُودُها ٱلنّاسُ وَ ٱلْحِجارَةُ**(۳) وغيرها من الأيات

كَدَأْبِ اٰلِ فِرْعَوْنَ وَ ٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ

أي كعادة آل فرعون في تكذيبهم برسولهم و ما أنزل عليه وهكذا من كان قبل آل فرعون فأنّهم أيضاً كانوا كذلك في التّكذيب والإنكار كما قال تعالىٰ: **كَذَّبُوا بِاٰياتِنا فَأَخَذَهُمُ ٱللّٰهُ بِذُنُوبِهِمْ** أي عاقبهم اللّه بذنوبهم وسُمّي المعاقبة مُؤاخذة لأنها أخذٌ بالذّنب فالأخذ بالذّنب عقوبة **وَ ٱللّٰهُ شَدِيدُ ٱلْعِقابِ** لمن يعاقبه لأنّ العقاب لا يكون إلاّ عن غضبه أعاذنا اللّه منه.

قل يامحمّد **لِلَّذِينَ كَفَرُوا** من اليهود و النّصارىٰ والمشركين وغيرهم **سَتُغْلَبُونَ** في الدّنيا **وَ تُحْشَرُونَ اِلىٰ جَهَنَّمَ** في الأخرة **وَ بِئْسَ ٱلْمِهادُ** أي أنّها بئس القرار.

قال بعض أرباب السِّير لمّا أصاب رسول اللّه ﷺ قريشاً ببدر وقدِم المدينة جمع اليهود و قال لهم يا معشر اليَهُود أحذروا من اللّه مثل ما نزل بقريش يوم بدر قبل أن ينزل بكم ما نزل بهم فقد عرفتم أنّي نبّي مرسل تجدون ذلك في

۱- الجنّ = ۱۵.
۲- البقرة = ۲۴
۳- التّحريم = ۶

كتابكم و عهد اللّه اليكم فقالوا لرسول اللّه لا يغرّنك يامحمّد ما نزل لهم فأنّك قاتلت أقواماً أغماراً لا علم لهم بالحَرب فأصبت فيهم فرصة واللّه لو قاتَلتَنا لعَرفت أنّا نحن النّاس فأنزل اللّه تعالىٰ **قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا** قال القُرطبي فهذه رواية عكرمة و سعيد بن جبير عن ابن عبّاس و في رواية أبي صالح عنه أنّ اليهود لما فَرحوا بما أصاب المسلمين يوم أخذ نزلت فـالمعنىٰ عـلىٰ هـذا، **سَيُغْلبُون**، بالياء يعني قريشاً، **ويُحشرون**، بالياء فيها وهي قراءة نافع انتهىٰ.

■

قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِي فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ ٱلْعَيْنِ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿١٣﴾

◁ اللّغة

ءَايَةٌ: الأية العَلامة.

فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا فِئَةٌ: الفِئة بكسر الفاء و فتح الهَمَزة والجماعة المتّظاهرة التّي يرجع بعضهم الىٰ بعضٍ في التّعاضد و الإلتقاء والملاقات.

رَأْيَ ٱلْعَيْنِ: الرّأي مصدر أي رؤية البَصَر.

◁ الإعراب

ءَايَةٌ إسم كان ولم يؤنث لأنّ التّأنيث غير حقيقي و لانّه فصّل و لأنّ و الدّليل بمعنىٰ و في الخبر وجهان:.

أحدهما: لكم و في فِئَتَيْنِ نعتٌ لأية.

الثّانى: أنّ الخبر في فِئَتَيْنِ و لكم متعلّق، بكان، و يجوز أن يكون، لكم، في موضع نصب علىٰ الحال علىٰ أن يكون صفة لأية أي أية كائنة لكم، ٱلْتَقَتَا في موضع جرٍّ نعتاً لفئتين فِئَةٌ خبر مبتدأ محذوف أي أحداهما فئة أُخْرَىٰ نعت لمبتدأ محذوف تقديره و فئةٌ أخرىٰ مِّثْلَيْهِمْ حال و رأي العين، مصدر مؤكّدٍ.

◁ التّفسير

قيل نزلت الآية في قصّة بَدر وكان المسلمون ثلاث مائة و ثلاثة عشر رجلاً علىٰ عدّة أصحاب طالُوت الذّين جاوزوا مَعه النّهر، سبعة و سبعون رجلاً من

المُهاجرين و مائتان و ستّة و ثلاثون رجلاً من الأنصار وكان صاحب لواء رسول الله صلى الله عليه وآله والمُهاجرين علّي بن أبي طالب عليه السلام و صاحب راية الأنصار سعد بن عبادة الأنصاري وكانت الإبل في جيش رسول اللّه سبعين بعير والخَيل فَرسين فَرسٌ للمقداد بن أسَود و فَرسٌ لمرثد بن أبي مرثد وكان مَعهم من السّلاح ستّة أدرع و ثمانية سيوف و جميع من إستشهد يومئذٍ أربعة عشر رجلاً من المهاجرين و ثمانية من الأنصار وإختلف في عدّة المشركين فروي عن علّي و ابن مسعود أنّهم كانوا ألفاً و عن قتادة و عُروة بن زُبير أنّهم كانوا بين ستّ مائة و ألف وكانت خَيلهم مائة فَرس و رأسهم عتبة بن ربيعة بن عبد شمس وكان حَرب بدرٍ أوّل مَشهد شهده رسول اللّه صلى الله عليه وآله وكان سبب ذلك عير أبي سفيان **قَدْ كَانَ لَكُمْ** أيّها المسلمون **فِي فِئَتَيْنِ** أي في جماعتين وطائفتين. **ٱلْتَقَتَا** في بَدر **فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ** وهي المسلمون **وَأُخْرَىٰ** أي و فئةٌ أُخرىٰ **كَافِرَةٌ** باللّه و برسوله وهي المشركين **يَرَوْنَهُمْ** أي يرونهم المسلمون **مِثْلَيْهِمْ** أي ضِعفَهم **رَأْيَ ٱلْعَيْنِ** أي بظاهر العين قيل معناه، يرى المسلمون المشركين مثلي عدد أنفسهم و ذلك لأنّ اللّه تعالىٰ قلّل المشركين في أعين المسلمين حتّى رأوهم ستّ مائة وستّ وعشرين رجلاً تقوّيةً لقلوب المسلمين و قد كانوا ثلاث أمثالهم ثمّ ظهر العدد القليل علىٰ العدد الكثير، و قيل أنّ الرّؤية للمشركين يعني يرى المشركون المسلمين ضعفي ما هم عليه و عليه فأنّ اللّه تعالىٰ قلّل المسلمين في أعين المشركين قبل القتال فلمّا أخذوا في القتال كثّرهم في أعينهم أي كثّر المسلمين في أعين المشركين و هذا القول أنّما يصّح بناءً علىٰ قراءة الياء في يرونهم، و امّا علىٰ قراءة التّاء فالقول، الأوّل و سيأتي الكلام في قصّة بَدر مفصّلاً في محلّه **وَ ٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ** سواء كانت النّصرة منه تعالىٰ بالغلبة أم بالحُجّة فأنّ النّصر منه تعالىٰ على قسمين:

فالنّصر بالغلبة يحصل بغلبة القليل على الكثير كما في غزوة بَدر وأنّما سمّي به لأنّه علىٰ خلاف مجرىٰ العادة.

و أمّا النّصر بالحُجّة فهو وعده، بالغلَبَة لأحدىٰ الطّائفتين وهذا لا يعلمه إلاّ اللّه **إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي ٱلْأَبْصَٰرِ** أي أنّ في ظهُور المسلمين علىٰ المشركين مع أنّهم كانوا أكثر من المسلمين لعبرة لأُولي الأبصار كما يقال، فلان بصير بالأُمور، أي له بصيرة كاملة بها:

قال اللّه تعالىٰ: **كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ ٱللّٰهِ** (١)

قال اللّه تعالىٰ: **إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَٰابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ** (٢)

■

١- البقرة=٢٤٩. ٢- الأنفال=٦٥.

زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَ ٱلْبَنِينَ وَ ٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَ ٱلْفِضَّةِ وَ ٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَ ٱلْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَ ٱللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾

◁ اللّغة

ٱلشَّهَوَٰتِ: بفتح الشّين و الهاء جمع شَهوة و هي توقان النّفس الى المشتَهى، و هي فعل اللّه تعالىٰ جعلها فينا و لا يمكننا دفعها عن نفُوسنا.

ٱلْقَنَٰطِيرِ: بفتح القاف جمع قِنطار و هو المال الكثير.

ٱلْمُقَنطَرَةِ: المحصّلة من قناطير أي مجعولة.

ٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ: يعني الرّاعية في المرُوج و المسارح، يقال سامت الدّابة و الشّاة اذا سرحت تَسوم سَوماً فهي سائمة.

ٱلْأَنْعَٰمِ: يقولون نعمٌ واردٌ، و يجمع أنعاماً قال الهَروي يذكر و يؤنّث و قال الفرّاء لا يؤنّث والأنعام المواشي من الإبل والبقر والغنم و اذا قيل، النَّعم، فهو الإبل خاصّة.

وَ ٱلْحَرْثِ: بفتح الحاء إسمٌ لكلّ ما يُحرث و هو مصدر تقول حَرث حَرثاً اذا أثار الأرض لمعنىٰ الفلاحة.

ٱلْمَـَٔابِ: المَرجع آب يؤوب إياباً اذا رَجع قال إمرؤ القَيس:

وقد طَوَّفتُ في الأفاق حتّىٰ رَضيتُ من الغَنيمة بالإياب

◁ الإعراب

مِنَ ٱلنِّسَآءِ في موضع الحال من الشّهوات وَ ٱلْبَنِينَ معطوف علىٰ النّساء وهكذا ٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ و النّون في القِنطار أصلٌ ووَزنه فِعلان مثل عِملاق

و قيل هي زائدة وإشتقاقه من قطر يقطر اذا جرىٰ مِنَ ٱلذَّهَبِ في موضع الحال من المقنطرة ٱلْخَيْلِ معطوف علىٰ النّساء لا علىٰ الذّهب والفّضة لأنّها لا تُسمّىٰ قنطاراً وواحد الخَيل خائل و هو مشتق من الخيلاء مثل طي و طائر و قال قومٌ لا واحد له من لفظه بل هو إسمٌ للجمع والواحد، فَرَس، ولفظه لفظ المصدر وَ ٱلْحَرْثِ مصدر بمعنى المفعول ذٰلِكَ مبتدأ مَتَاعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خبره وَٱللّٰهُ مبتدأ و الجملة خبره.

◁ التّفسير

زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَاتِ زُيّن، بضّم الزّاء علىٰ بناء الفعل للمفعول إختلفوا في المزّين فقالت فرقة، المُزّين هو اللّه تعالىٰ و هو قول عُمر علىٰ ما نقل القُرطبي في تفسيره و قالت فِرقة، المزّين هو الشّيطان وبه قال الحَسن ثمّ أنّ الرّاغب قسّم الزّينة علىٰ ثلاثةٍ: نفسّية، بدّنية، خارّجية.

فالنّفسية، كالعلم والإعتقادات الحَسَنة.

والبَّدنية، كطول القامة والقُوّة.

والخارّجية، كالمال والجاه والأولاد، فقوله تعالىٰ:**حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْايمانَ وَ زَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ**[١] فهو من الزّينة النّفسية وقوله المال والبَنُون زينة الحياة الدّنيا الأية، وقوله:**فَخَرَجَ عَلٰى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ**[٢] فمن الخارّجية والمقصُود أنه زُيّن للنّاس حبّ الشّهوات والأميال النّفسانية، أمّا أصل الشّهوة فلا شكّ لأحدٍ أنّها من فعل اللّه تعالىٰ لا من فعل العبد و امّا تَزيينها فالحقّ أنّه من وسوسة الشّيطان، وقل قائلٍ أن يقول أن كان المال و الأولاد والجاه و أمثالها زينة في الحقيقة فلا معنىٰ لقولكم أنّ تزيينها من وَسوسة الشّيطان لأنّه من تحصيل الحاصل، و أن لم يكن المال و الأولاد من الزّينة فكيف زيّنها الشّيطان وجعل غير الزّينة زينة.

١- الحجرات = ٧ ٢- القصص = ٧٩

والجواب: أنّ الزّينة الحقّيقية ما لا يشين الإنسان في شئٍ من أحواله لا في الدّنيا و لا في الأخرة فأمّا ما يزينه في حالةٍ دون حالةٍ فهو من وجهٍ شيّن وليس بزينةٍ علىٰ الإطلاق اذا عرفت هذا فنقول الزّينة الوّاقعية هي الزّينة النّفسية لا غير و امّا البّدنية والخارّجية فهما خارجان عنها حقيقةً لعدم بقاءهما وثباتهما علىٰ و تيرةٍ واحدة مضافاً الىٰ زوالها و تفسيرهما عمّا كانا عليه و لأجل ذلك إطلاق الزّينة على المال و الأولاد بالإعتبار العرفي و بحسب الدّنيا في نظر أهل الدّنيا ألا ترى أنّ اللّه تعالىٰ يقول: **ٱلْمَالُ وَ ٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا**[1] أي أنّهما بحسب الدّنيا و في نظر أهل الدّنيا كذلك و امّا في الواقع ونفس الأمر فلا ولذلك فقد يُجعل ما ليس بزينةٍ زينة في نظر الرّائي وليس ذلك إلاّ بوسوسة.

قال اللّه تعالىٰ: **وَ إِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ**[2].

بل قد يُجعل القَبيح حَسناً بوَسَوسة في نظر الرّائى:

قال اللّه تعالىٰ: **زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ**[3].

أي زيَّنه شركاؤهم ومعلوم أنّ قتل الأولاد بل مطلق القتل قبيح في نفسه **مِنَ ٱلنِّسَآءِ** من للتّبين والنّساء والنّسوان والنّسوة جمع المرأة من غير لفظها كالقوم في جمع المرء بيّن اللّه تعالىٰ حُبّ الشَّهوات بقوله: **مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَ ٱلْبَنِينَ** الخ ...

و أنّما بدأ بالنّساء قيل لكثرة ميل النّفوس اليهنّ لأنّهن حبائل الشّيطان و فتنة الرّجال بل قيل أنّ النّساء مظاهر الشّهوة و مصاديقها الأكمل روي عن النّبي ﷺ أنّه قال ما تركت بعدي فتنة أشّد علىٰ الرّجال من النّساء أخرجه البخاري و مسلم، ففتنة النّساء أشّد من جميع الأشياء قال بعض الأذكياء في النّساء، فتنتان، وفي الأولاد فِتنةٌ واحدة، فأمّا اللّتان في النّساء فأحداهما أن

١- الكهف = ٤٦
٢- الانفال = ٤٨
٣- الانعام = ١٣٧

تُؤدّي الىٰ قطع الرِّحم لأنّ المرأة تأمر زوجها بقطعه عن الأُمّهات والأخوات.

والثّانية: يبتلى بجمع المال من الحلال والحَرام.

و أمّا البنون فأنّ الفتنة فيهم واحدة و هو ما أبتلي بجمع المال لأجلهم **وَ ٱلْبَنِينَ** جمع إبن، معطوف علىٰ النّساء و ذكر البَنين بعد النسّاء إشارة الىٰ أنّه لا شئ بعد النّساء أعزّ للإنسان من أولاده و أنّما قال تعالىٰ البَنين ولم يقل من النّساء و الأولاد مثلاً لأنّ البَنين أعَزّ علىٰ الأباء من البنات و لذلك قال تعالىٰ المال والبنون زينة الحياة الدّنيا الأية، **وَ ٱلْقَنَاطِيرِ ٱلْمُقَنْطَرَةِ** بعد النّساء والبنين لا شئ أحَبّ عند الإنسان من ماله قال اللّه تعالىٰ و أتيتم أحداهنّ قنطاراً، و هو العقدة الكبيرة من المال و قيل هو إسم للمعيار الّذي يُوزن به كما هو الرّطل والرّبع و يقال لما بلغ ذلك الوزن، هذا قِنطار أي يعدل القنطار والعرب تقول قنطر الرّجل إذا بلغ ماله أن يوزن بالقنطار و قال الزّجاج القنطار مأخوذ من عقد الشّئ وإحكامه تقول العرب قنطرت الشّئ إذا حكمته و منه سُمّيت القنطرة لإحكامها والقَنطرة المعهودة فكأنّ القِنطار عقد مالٍ ثمّ إختلفوا في تحرير حدّه كم هو علىٰ أقوالٍ فقيل القِنطار ألف أوقية و مائتا أوقية و قيل إثني عشر ألف أوقية و قيل غير ذلك والحقّ أنّه يختلف بإختلاف البلاد في قدر الأوقية، المُقنطَرة فأختلفوا في معناها فقال الطّبري و غيره معناها المضَّعفة و كأنّ القناطير ثلاثة والمقنطرة تسعٌ و روي عن الفرّاء أنّه قال القناطير جمع القِنطار والمُقنطرة جمع الجمع فيكون تسع قناطير و قيل المقنطرة المضروبة حتّى صارت دنانير أو دراهم و قيل المقنطرة المكمّلة كما يقال بدرٌ مبدّرة وآلافٌ مؤلّفة قال بعضهم ولهذا سُميّ البناء القنطرة لتكاثف البناء بعضه علىٰ بعضٍ وقال إبن كيسان والفرّاء لا تكون المُقنطرة أقّل من تسع قناطير و قيل المُقنطرة إشارة الىٰ حضور المال وكونه عقيداً وفي صحيح البستي عن عبد اللّه بن عُمر عن رسول اللّه ﷺ أنّه قال من قام بعشر آيات لم يكتب من الغافلين و من قام

بمائة أية كُتب من القانتين و من قام بألف أية كتب من المقنطرين فقل هـهذ الوجوه كلّها القُرطبي في تفسيره **مِنَ ٱلذَّهَبِ وَ ٱلْفِضَّةِ** الذَّهب معلوم يذّكر و يؤّنث و قيل الذّهب مؤنّثة و جمعها ذهـاب و ذهـوب، و الفـضّة مـعروفة و جمعها فضض فالذّهب مأخوذة من الذّهاب والفّضة مأخوذة من انفّض الشّئ تفّرق، ومنه فضضتُ القوم فأنفّضوا أي فرّقتهم فتفرّقوا و هذا الإشتقاق يشعر بزوالهما و عدم ثبوتها كما هو شاهد في الوجود كما قيل:

النّـــار آخـــر ديـــنارٍ نـــطَقت بـــه   والهَـم آخـر هـذا الدّرهـم الجـاري
والمـــرء بـــينهما أن كـــان ذا ورعٍ   مُـــعذّب القـــلب بـين الهَـمّ والنّـار

و لا شّك أنّ الإنسان حريص علىٰ كسبهما بل قد يقال أنّه عبيد الدّرهم و الدّينار **وَ ٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ** قيل الخيل مؤنثّة والواحد منها خائل مثل طَير و طائر و سُمّي الفَرس بذلك لأنّه يختال في مشيه و قال قوم هو إسم جمع لا واحد له من لفظه كالقوم والرَهط والنّساء والإبـل ونـحوها والمُسـوّمة يـعني الرّاعية يقال سومّتها تسويماً فهو مسومّة.

وَ ٱلْأَنْعَامِ وَ ٱلْحَرْثِ الأنعام المئَواشي من الأبل والبَقر والغَنم و اذا قيل النِّعم فهو الإبل و امّا الحَرث فهو هنا إسمٌ لكلّ ما يُحرث وهو مـصدر فـيقع إسـم الحراثة علىٰ زرع الحبوب و غيرها من أنواع الفلاحة، قال بعض الأذكياء ذكر اللّه تعالىٰ أربعة أصناف من المال في هذا المقام كلّ نوعٍ منها يتموّل به صنف من النّاس، أمّا الذّهب والفضّة فيتمّول بها التّجار، و امّا الخيل المسّومة فيتّمول بها الملوك.



و أمّا الأنعام فَيّتمول بها أهل البوادي، و امّا الحرث فيتّمول بها أهل الرّساتيق فتكون فتنة كلّ صنفٍ في النّوع الّذي يتموّل فأمّا النّساء والبنون ففتنته للجميع أي ذلك الّذي ذكرناه من النِّساء والبَنين ألخ.

مَتَاعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا أي ما يتمتّع به فيها ثمّ يذهب فلا يبقىٰ وهذا منه تزعيد في الدّنيا وترغيب في الأخرة و فيه إيماء الىٰ أنّ الدّنيا وما فيها.

لا دوام لها فلا ينبغي للعاقل أن يعتمد عليها ويركن اليها و لنعم ماقيل:

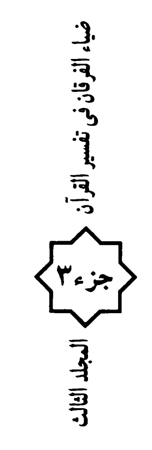
لئن كنت في الدّنيا بصيراً فإنّما	بلاغك منها مثل زاد المسافر
إذا أبقت الدّنيا علىٰ المرء دينه	فما فاته منها فليس بضائرٍ

و قال الأخر:

تاه الأعيرج وأستعلىٰ به البَطَر	فقُل له خير ما إستعملته الحذر
أحسنت ظنّك بالأيّام إذ حَسُنت	ولَم تخف سُوء ما يأتي به القَدر
وسالمتك اللّيالي فأغتَررت بها	وعند صَفو اللّيالي يحدث الكَدِرُ

وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ المآب المرجع أي ما عند اللّه خير من الدّنيا و ما فيها لأنّ الدّنيا فانية زائلة والأخرة الّتي هي المرجع باقية ثابتة ومن المعلوم أنّ الباقي خير من الفاني، ما عندكم سينفد وما عند اللّه باق ومُحصّل ما يستفاد من الآية هو التّرغيب الىٰ الأخرة.

■



قُلْ أَؤُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذٰلِكُمْ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَ أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَ رِضْوَانٌ مِنَ ٱللَّهِ وَ ٱللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿١٥﴾ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَ قِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٦﴾ اَلصَّابِرِينَ وَ ٱلصَّادِقِينَ وَ ٱلْقَانِتِينَ وَ ٱلْمُنْفِقِينَ وَ ٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾

◁ اللّغة

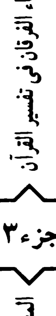
أَؤُنَبِّئُكُمْ: الهمزة الأولىٰ إستفهامية والثّانية جُزء الكلمة مِن نبَّأ، يُنبّئ والنبّأ الخبر.

أَزْوَاجٌ: جمع زَوج.

رِضْوَانٌ: الرّضوان الرّضا الكثير ولّما كان أعظم الرّضا رضا اللّه تعالىٰ خُصّ لفظ الرّضوان في القرآن بما كان من اللّه تعالىٰ.

وَ ٱلْقَانِتِينَ: جمع قانِت و هو فاعل من قَنَتَ والقُنُوت لزوم الطّاعة مع الخضُوع.

بِالْأَسْحَارِ: جمع سَحَر والسَحَر والسَحَرّة إختلاط ظلام آخر اللّيل بِضياء النّهار.



◁ الإعراب

أَؤُنَبِّئُكُمْ يقرأ بِتحقيق الهمزتين علىٰ الأصل وتقلب الثّانية واواً خالصة لإنضمامها و تليينها و هو جَعلها بين الواو والهمزة بِخَيْرٍ مِنْ ذٰلِكُمْ مِن في موضع نَصب بخير تقدّيره بما يفضل ذلك لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا خبر المبتدأ الّذي هو، جنّات

و تَجْرِي صفة لها و عِنْدَ رَبِّهِمْ يجوز أن يكون ظرفاً للإستقرار و أن يكون صفة للجنّات في الأصل قدم فأنتصب علىٰ الحال و يجوز أن يكون العامل، تجري و مِنْ تَحْتِهَا متعلّق بتجري و يجوز أن يكون حالاً من ٱلْأَنْهَارُ أي تجري الأنهار كائنة تحتها خَالِدِينَ فِيهَا حال من الهاء في تحتها أو من الضّمير في، إتّقوا، والعامل الإستقرار و هي حال مقدّرةٌ أَزْوَاجٌ معطوف علىٰ جنّات بالرّفع و امّا علىٰ القراءة الأخرى فيكون مبتدأ و خبره محذوف تقديره و لهم أزواج رِضْوَانٌ بكسر الرّاء و ضمّها و هما لُغتان و هو مصدر ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ يجوز أن يكون في موضع جرّ صفة، لِلّذين إتّقوا، أو بدل منه و يجوز أن يكون في موضع جرِ صفة، للذّين إتّقوا، أو بدَل منه و يجوز أن يكون في موضع نَصب علىٰ تقدير، أعني، و أن يكون في موضع رفع علىٰ إضمار، هُم، اَلصَّابِرِينَ وما بعده يجوز أن يكون مجروراً و أن يكون منصوباً صفة للذّين إذا جعلته في موضع جرّ و نَصب و أن جعلت الّذين رفعاً نصبت الصّابرين بأعني.

◁ التّفسير

قُلْ يامحمّد أَؤُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذٰلِكُمْ أي أُخبركم بخير من ذلكم، ممّا سبق ذكره في الآية المتقدّمة من شهوات الدّنيا ولذّاتها الفانية لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا بفعل الواجبات و ترك المحرّمات عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَارُ أي من تحت أشجارها الأنهار و أنّها ليست كأنهار الدّنيا الّتي تجري تارةً و تنقطع أخرىٰ خَالِدِينَ فِيهَا أي مقيمين في تلك الجنّات وَ أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ من الأقذار كالحيض والنّفاس بل ومن الأدناس والطّبائع الذّميمة والأخلاق الرّديئة اللّئيمة وَ رِضْوَانٌ مِنَ ٱللَّهِ وراء الجنّات وَ ٱللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ أي خبير عليم بأفعالهم و أقوالهم ثمّ وصف المتّقين في قوله: لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا فقال: ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ آمَنَّا بك وبرسولك و بجميع ما جاء به

الرّسول من عندك **فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا** أي أسترها و تجاوز عنها **وَ قِنَا** أي و أدفع عنّا **عَذَابَ ٱلنَّارِ** يوم القيامة ثمّ وصفهم اللّه بصفات أخر و مدحهم فقال **اَلصَّابِرِينَ** في البأساء والضّراء و حين البأس وأن شئت قلت و الصّابرين علىٰ الطّاعة و عن المَعصية **وَ ٱلصَّادِقِينَ** قولاً و عَملاً **وَ ٱلْقَانِتِينَ** أي الخاضعين الخاشعين و قيل الدّائمين علىٰ الطّاعة والعبادة **وَ ٱلْمُنْفِقِينَ** بأموالهم في سبيل اللّه من الواجبات والمندوبات **وَ ٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ** المصلّين وقت السَّحر و قيل السّائلين المَغفرة في وقت السّحر و أمثال ذلك من الأقوال و هو معلوم نقل الطّبري في تفسيره عن قتادة أنّه قال الصّادقين قوم صدقت أفواههم و استقامت قلوبهم و ألسنتهم و صدقوا في السِّر والعلانية، والصّابرين، قوم صبروا علىٰ طاعة اللّه و صبروا عن محارمه و القانتون هم المطيعون لِلّه و امّا المنفقون فهُم المؤتون زكوات أموالهم و واضعوها علىٰ ما أمرهم اللّه بإتيانها والمُنفقون أموالهم في الوجوه التّي أذن اللّه لهم بإنفاقها فيها.

روي في تفسير البُرهان عن ابن عبّاس أنّه قال: قُلْ أَؤُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ الأيات نَزلت في علّي وحمزة و عُبيدة بن الحارث بن عبد المُطلب قال: و روي الشّيخ بأسناده عن أبي بصير عن أبي عبد اللّه عليه السلام قال قلت له المستَغفرين بالأسحار فقال عليه السلام إستغفر رسول اللّه في وتره سبعين مرّة و عنه عليه السلام قال من قال في أخر الوتر في السَّحر أستغفر اللّه ربّي و أتُوب اليه سبعين مرّة ودام علىٰ ذلك سنة كَتَبه اللّه من المُستغفرين بالأسحار.

و في روايةٍ أُخرىٰ وجبت له المغفرة، ابن بابويه بأسناده عن أبي عبد اللّه قال عليه السلام: من قال في وتره أستغفر اللّه وأتوب اليه سبعين مرّة و واظب علىٰ ذلك حتّىٰ تمضي سنة كتبه اللّه من المستغفرين بالأسحار ووَجَبت المَغفرة له من اللّه عزّ وجلّ.

العيّاشي عن أبي بصير عن أبي عبد اللّه عليه السلام: في قول اللّه فيها وَ أَزْواٰجٌ مُطَهَّرَةٌ قال عليه السلام لا تحضن و لا يحدثن.

و عن زرارة قال قال أبو جعفر عليه السلام من دام علىٰ صلاة اللّيل والوَتر و أستغفر اللّه في كلّ وترٍ سبعين مرّة ثمّ واظب علىٰ ذلك سنة كتَب من المُستغفرين بالأسحار.

والأحاديث في الباب كثيرة اللّهم أجعلنا من المُستغفرين بالأسحار.

■

شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُولُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾

◁ اللّغة

شَهِدَ: الشّهود والشّهادة الحضور مع المُشاهدة إمّا بالبصر أو بالبصيرة و قد يقال للحضُور مُفرداً.

بِالْقِسْطِ: القِسط هو النّصيب بالعدل كالنّصف والنُّصفة والباقي واضح.

◁ الإعراب

شَهِدَ ٱللَّهُ فعل و فاعل أَنَّهُ أي بأنّه في موضع نصب أوجرّ قَآئِمًا حال من، هو، و العامل فيه معنىٰ الجملة أي يفرد قائماً و قيل هو حال من إسم، اللّه، أي شهد لنفسه بالوّحدانية.

◁ التّفسير

شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ قال بعض المحققين شهادة اللّه بوحدّانيته هي إيجاد ما يدّل علىٰ وحدّانيته في العالم وفي نفوسنا قاله الرّاغب في المفردات ثمّ قال:

قال بعض الحكماء أنّ اللّه تعالىٰ لمّا شهد لنفسه كان شهادته أن أنطق كلّ شئ كما نطق بالشّهادة له وَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ قال و شهادة الملائكة بذلك هو إظهارهم أفعالاً يؤمرون بها وَ أُولُوا ٱلْعِلْمِ وشهادة أوُلي العلم إطّلاعهم علىٰ تلك الحكَم و اقرارهم بذلك وهذه الشّهادة تختّص بأهل العلم انتهىٰ ما ذكره الرّاغب.

أقول ما ذكره ونقله عن بعض الحكماء لا يرجع الىٰ محصّل بل هو كلام لا طائل تحته و ذلك لأنّ تفسير شهادة اللّه بوحدّانيته بإيجاد ما يدّل عليها لا يُقبله العقل السّليم فضلاً عن ذوق الحكيم ضرورة أنّ شهادة ما في العالم من الموجودات علىٰ و حدّانيته غير شهادته تعالىٰ عليها لنفسه مضافاً الىٰ أنّه قال **شَهِدَ ٱللَّهُ** ولم يقل شهد المخلُوق وحيث أنّ الخالق غير المخلوق فشهادته أيضاً غير شهادته و امّا ما نقله عن بعض الحكماء من أنّ شهادته تعالىٰ هي إنطاقه كلّ شيئ فلا نفهم معناه والكلام فيه كالكلام في ما قبله اذ لا فرق بين إيجاد ما يدّل على وحدّانيته وإنطاقه الموجودات عليها و هو واضح.

قال الطّبرسي ﷺ، **شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ** أخبر بما يقوم مقام الشّهادة علىٰ وحدّانيته من عجيب صنيعته وبديع حكمته و قيل معنىٰ شهد اللّه قضىٰ اللّه عن أبي عبيدة و قال الزّجاج و حقيقّته علم اللّه و بيّن ذلك فأنّ الشّاهد هو العالم الّذي يُبيّن ما عَلِمه **وَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ** أي و شهدت الملائكة بما عاينت من عظيم قُدرته **وَ أُولُو ٱلْعِلْمِ** أي و شهد أُولوا العلم بما ثبت عندهم وتبَّين من صنعه الذّي لا يقدر عليه غيره.

و قال بعض المفسّرين من العامّة أنّ الشّهادة في الآية عبارة عن الأخبار المقرون بالعلم و هذا المعنى مفهوم واحد و هو حاصل في حقّ اللّه والملائكة و أولوا العلم و يمكن أن تجعل الشّهادة عبارة عن الإظهار والبيان أمّا منه تعالىٰ فلأنّه خلق ما يدّل علىٰ ذلك و امّا الملائكة و أُلوا العلم فقد أظهروا ذلك و بيّنوه بعض المعاصرين في تفسيره أن المراد بالشّهادة شهادة القول دون شهادة الفعل و أن كانت في حقّه أيضاً صحيحة إلاّ أنّ المراد هنا الأوّل و قال الفيض ﷺ في الصّافي، شهد اللّه أنّه لا إله إلاّ هو، بَيّن وحدّانيته لقومٍ بظهوره في كلّ شيئٍ و تَعرّفُه ذّاته في كلّ نورٍ و فَيْءٍ و لقومٍ بنصب الدّلائل الدّالة عليها و لقومٍ بإنزّالِ الأيات النّاطقة بها **وَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ** بالإقرار ذاتاً لقومٍ وفعلاً و قولاً لقومٍ

وَ أُولُو ٱلْعِلْمِ بالإيمان والعَيان والبيان شَبَّه الظُّهور والإظهار في الإنكشاف و الكشف بشهادة الشّاهد **قَآئِمًا بِالْقِسْطِ** مُقيماً بالعَدل انتهىٰ.

أقول توضيح الآية وكشف القناع منها يستدّعي التّكلم فيها إجمالاً فنقول أنّ الطّرق الىٰ معرفة اللّه تعالىٰ وأن كانت كثيرة بل بعدد أنفاس الخلائق كما ورد في الحديث لكن أشرفها و أحصرها و أوثقها طريقة الحُكماء الإلٰهيين الّذين يستشهدون به تعالىٰ لا بغيره و بعبارةٍ أخرىٰ يستدّلون علىٰ ذاته بذاته و هي بحسب إصطلاحهم تُسمّىٰ بطريقة الصِّديقين و أساسها علىٰ الوجُود و الموجُود من حيث هو موجود ولابأس بالإشارة الىٰ سائر الطَّرق أيضاً، قالوا الطُّرق الّتي اصطلحوا عليها في الوصول الىٰ مقام المعرفة خَمسة.

أحدها: ما أشرنا اليها.

ثانيها: طريقة الطَّبيعين من الحكماء.

ثالثها: طريقة المُتّكلمين.

رابعها وخامسها: طريقة الحُكماء و أنّما إنحصروها في خمسة لأنّ العوالم خمسة، عالم ألوّهية وأن شئت قلت عالم الرّبوبي، و عالم العقول، وعالم النّفوس الكّلية و عالم الأجسام، و عالم الأعراض، فالإستدلال علىٰ الذّات بالذّات طريقة الصدّيقين، والإستدلال علىٰ الذّات بوجود العقل، والإستدلال عليه بوجود النّفس، طريقة الحكماء، و الإستدلال عليه بوجود الجسم من طريق الحركة في، طريقة الطّبيعين، والإستدلال عليه من جهة الحُدوث طريقة المتكلّمين.

أمّا من طريق العقل فحاصله أنّه لا شكّ في وجود العقل ولا شّك أيضاً في أنّ ذاته مجرّدة عن المّواد وعلائقها فهو أي وجوده التجرّدي دلّ علىٰ وجود مبدعٍ واحد مجرّد عن الممكنات علىٰ الإطلاق وكذا علمه يدّل علىٰ مفيض العقلَ و واهب النّور والحياة و وحدته دلّت علىٰ الفرد لأحد الصَّمد لأنّ الكثير

لا يفعل الفرد الواحد بل الفرد هو الّذي يفعل الكثير قال اللّه تعالىٰ: **وَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنٰا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ**(١) والواجب هو الفرد لأحد لكونه مُبدا الأزواج و إعتبر بالأعداد إذ كلّ عددٍ قليله وكثيره فهو فعل الواحد ومعلوله و حيث أنّ العقل مُممكنٌ وكلّ ممكنٍ زوج ترّكيبي له ماهيّته و وجودٌ فالعقل زوج و ليس بفرد وكلّ زوجٍ فهو معلول مخلوق للفرد فالعقل معلول مخلوق للفرد و الفرد المطلق هو الواجب و هو المطلوب هذه خلاصة الإستدلال من وجود العقل عليه تعالىٰ.

أمّا طريق النّفس فلأنّها أي النّفس نور من أنوار اللّه تعالىٰ الفائض علىٰ الهيكل البشري و هي أيضاً جوهرٌ حيٌّ قائم بذاته عالمٌ مريدٌ سميعٌ بصيرٌ قادرٌ إلاّ أنّها ليست بقديم بل هي من المُمكنات الحادثة فتحتاج الى مؤثّرٍ قديم حيٍّ قيومٍ عالمٍ قادرٍ مريدٍ سميعٍ بصيرٍ علىٰ وجهٍ أعلى و ألطَف و لأنّ النّفس في مبدء الفطرة خالية عن العلوم وهي عقل بالقّوة ثمّ تصير عقلاً بالفعل فلها مُعلّمٌ مكملٌّ آخر إذ الشّيُ لا يستكمل عن ذاته بذاته فهو أي مُعلّمها و مُكمّلها جوهرٌ كامل عقلّي كما قال تعالىٰ: **عَلَّمَهُ شَدِيدُ اَلْقُوىٰ**(٢) و وجود الجوهر الكامل العقلي دليل علىٰ وجود المبدء الأوّل كما علمت فطريق الإستدلال بالنّفس علىٰ وجوده تعالىٰ علىٰ طريق ما ذكرناه في العقل إلاّ أنّ لكلٍّ من المَنهَجَين جهة رجحانٍ علىٰ الأخر ولا شبهة في كون دليل العقل أشرف و أنور و أقرب الىٰ المطلوب من دليل النّفس.

أمّا طريق الجسم وهو الّذي نُسب الىٰ الحُكماء الطّبعين فخلاصة الكلام فيه أنّ الأجسام مشتركة في الجسّمية متماثلة في الجسم بالمعنىٰ الّذي هو مادّة أي مأخوذ بشرط أن لا يعتبر معه غيره وإن لم تكن متماثلة في الجسم بالمعنىٰ الّذي هو جنس أي مأخوذ لا بشرط شيُ مَعه وجوداً أو عَدَماً فالجسم بالمعنىٰ

١- الذاريات = ٤٩ ٢- النجم = ٥

الأوّل لكونه متّحد النّوع في الجميع لا يتميّز إلاّ بأُمورٍ زائدة علىٰ ذاته خارجة عنها كالمقادير و الهيّئات و الكمّالآت و الصُّور، فعلّة هذه المقارنات اللاّحقة أن كانت هي الجسّمية المُشتركة يلزم إتّفاق الكلّ فيها ضرورة أنّ المعلول لا يُفارق العلّة والعلّة مشتركة فيكون معلولها مُشتركاً فلا فرق بين الأجرام فلا مُشاركة أيضاً ومن المعلوم ثبُوت الفرق والمُشاركة فلا محالة علّة هذه المخصّصات شئ غير الجسميّة وغير الجسم بما هو جسم و هو الواجب تعالىٰ المطلوب.

أمّا طريق المتكلمين هو الإستدلال بِالحَدوث علىٰ الواجب وأن شئت قلت الإستدلال عليه تعالىٰ بِأحوال الجسم وعوارضه و حاصله أنّ العالم حادث لأنه متغيّرٌ و كلّ حادثٍ محتاج الىٰ غيره لحدوثه فأن كان الغير حادثاً يَلزم التّسلسل وأن كان واجباً فهو المطلوب و بعبارةٍ اخرى العالم حادث حادثٍ مسبوق بالعدم فمن أخرجه من العدم الىٰ الوجود فأن كان المخرج حادثاً يتسلسل و أن كان واجباً فهو المطلوب فهذه الأقسام الأربعة ذكرناها في المقام علىٰ سبيل الإجمال توضيحاً للمقال و أن كانت خارجة عن البحث فعلاً، و الّذي عليه مدار البحث هو القسم الأوّل من الطّرق الخمسة الّذي أشرنا اليه في أوّل البحث و قلنا أنّه طريقة الصدّيقين و الآن نتكلّم فيه علىٰ سبيل الإجمال أيضاً قالوا أنّ أساس البحث في هذه الطّريقة علىٰ الوجود والموجود من حيث هو موجود كما أشرنا اليه في صَدر البحث و امّا الطّرق الأربعة الأخرىٰ الّتي أومأنا اليها فليست كذلك بل يُستشهد فيها علىٰ معرفة الذّات بغير الذّات فالطّريقة الحقّة الإلٰهّية بل التألّهية أن يقال الموجود من حيث هو موجود أن كان واجباً فهو المطلوب و إلاّ استلزمه و ذلك لأنّ الموجود من حيث هو موجود هو الوجود الحقيقي الّذي هو حيثيّة طرد العدم و الإباء عنه، لا المفهوم العام البديّهي الّذي يصدّق عليه و علىٰ غيره من حيث المَفهُوم و

المراد بالوجود الحقيقي هو الّذي يترتّب عليه الأثر و هو معنون هذا المفهوم و محلّىٌ عنه به و قد ثبت في الحِكمة أصالته و أنّه حقيقة كلّ ذي حقيقة فكما أنّ لمفهومه عُموماً يصدّق علىٰ كلّ الأشياء كذلك لحقيقة سِعةٌ لا يشذّ عن حطيتها شيئ و لذلك لا ثاني لها لأنّه صِرف الحقيقة و قد ثبت أنّ صرف الحقيقة لا تكثّر فيها بوجهٍ من الوجود ولذلك لا سبب لها مطلقاً، لا سبب منه، و لا عنه، ولا فيه، ولا به، ولا لَه، لإستلزام وجودها لها الخُلف وكما أنّ لمفهومه بداهة حتّىٰ قيل أنّ مفهومه من أعرف الأشياء كذلك لحقيقته شدّة نورّية و قوّة ظهورٍ لا اظهر منها و هي الظّاهرة بذاتها المُظهرة لغيرها ولذلك يكون كنهها في غاية الخفاء و الىٰ هذا المعنىٰ أشارَ السبّزواري في منظومته في الحكمة المُتعالية حيث قال:

معرّف الوجود شرح الإسم — وليسَ بالحَدّ ولا بالرّسَم

مفهومه من أعرف الاشياء — وكُنه في غاية الخفاء

فقوله معرّف الوجود شرح الإسم، إشارة الىٰ أنّه لا يُمكن أن يشرح لغير الإسم ولذلك قال وليسَ، أي ليسَ المُعرّف له، بالحَدّ والرّسم، أمّا أنّه ليس بالحدّ لأنّه بسيط لا فصل له ولا جنس له والتّعريف بالحَدّ لا يكون إلاّ بهما فأن كان التّعريف بهما مُسمّي حدّاً تّاماً مثل الإنسان حيوان ناطق، و أن كان بالفصل فقط مثل أن يقال الإنسان ناطق يُسمّىٰ ناقصاً وأن كان بالعرضي الّذي من الكلّيات الخمس كان يقال الإنسان ماشيٍ مستقيم القامة يُسمّىٰ رسماً ذلك لا يمكن في تعريف الوجود و ذلك لأنّه لا جنس له ولا فصل فلا حدّ هناك و لا عرضّي له لأنّ مقسم الكلّيات شيئية المهيّة والوجود ليس من سنخ المهّية و لأنّ المُعرف لابدّ أن يكون أظهر و أجلىٰ من المُعرف و لا شيئ أظهر من الوجود إذ ظهور الأشياء به، ثمّ أنّ الوجود الحقيقي الّذي يكون منشأ للآثار الخارجيّة لا يخلو حاله من وجهين.

أحدهما: أن يكون الوجود ذاتيّاً له بمعنىٰ عَدم إمكان سَلبه عنه وأن شئت قلت أنّ الوجود واجبٌ له.

ثانيهما: أن لا يكون كذلك بل يمكن سلب الوجود عنه إذ ليس واجباً له فنسبة الوجود والعدم اليه علىٰ السّواء أو نسبته اليهما علىٰ حدٍّ سواء و عليه فيمكن أن يكون موجوداً و يمكن أن يكون مَعدوماً و لا ثالث في المقام إذ الحصر عقلّي دائرٌ بين النّفي والإثبات إذ نقول إمّا أن يكون الوجود واجباً له، أو لا يكون و هذا معنىٰ قولنا أنّ الحصر عقّلي والأوّل يُسمّىٰ واجب الوجود و الثّاني ممكن الوجود والموجود منحصرٌ في هذين القسمين فرفعهما عنه مستلزم لإرتفاع النقّيضين و جمعهما فيه مستلزم لإجتماع النقّيضين وكلاهما محال.

ثمّ نقول أن كان الوجود واجباً له فهو المطلوب إذ لا نعني بالواجب إلاّ هذا و أن لم يكن واجباً له فهو ممكن الوجود و كلّ ممكن محتاج في وجوده الى غيره لأنّ المفروض إستواء الوجود و العدم بالنّسبة اليه فترجح أحدهما على الآخر محتاج الىٰ مُرجّح أن كان ممكناً نقل الكلام اليه و هكذا و يتسلسّل و التسلسّل باطل فلا محالَة ينتهي الأمر الىٰ مرجحٍ غير ممكنٍ و هو ليس إلاّ الواجب المطلوب.

و هذا معنى قولنا أن كان واجباً فهو المطلوب وإلاّ أي أن لم يكن واجباً إستلزمه أي إستلزم الواجب كما عَرفت دفعاً للدّور والتّسلسل فثبت و تحقّق أنّ الوجود الحقيقي هو الواجب الوجود بالذّات والواجب بالذّات واجب الوجود من جميع الجّهات و هو المطلوب فذاته تبارك وتعالىٰ تدّل علىٰ ذاته أي وجوده و يدّل علىٰ وجوبه والوجود والوجوب عين ذاته و هذا البُرهان من أحسَن البراهين و أتقنها بخلاف الطّرق الأربعة المذكورة فأنّ الإستدلال فيها من وجود المعلول علىٰ وجود العّلة و وجود المعلول و أن كان دّالاً علىٰ

وجود العلّة إلاّ أنّه أي المعلوم يستدعي علّة مّا و بعبارةٍ أخرىٰ كلّ معلول يستدعي علّةً و امّا أنّ العلّة واجب الوجود أو ليس بواجب فهو يحتاج الىٰ دليل آخر غير إستدعاء المعلول و لهذا قلنا أنّ برهان الصّديقين أتقَن و أخصَر و لفصيلِ الكلام في هذا الباب مقام آخر إذا عرفت هذا فأعلم أنّ قوله تعالىٰ: **شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ** الّذي مفاده شهادة اللّه تعالىٰ علىٰ وحدّانيته من قبيل الإستدلال علىٰ ذاته بذاته و هو البرهان الّذي أشرنا اليه إجمالاً و هذا طريق أصيل في معرفة اللّه لأنّه بمعزلٍ عن الإشكالات التّي أوردوها علىٰ غيره من البراهين كما هو مقّرر في مَحلّه والىٰ هذا البرهان أشار أمير المؤمنين عليه السلام في دعاء الصّباح حيث قال(يامن دَلَّ علىٰ ذاته بذاته وتَنزّه عن مجانسة مَخلُوقاته وجلَّ عن ملائمة كيفيّاته و بعد عن ملاحظة العيون و قرب من لحظات الظّنون وعَلِم بما كان قبل أن يكون و قال السّبط الشّهيد عليه السلام الغيرك من الظّهور ما ليس لک حتّىٰ يكون هو المُظهر لك مَتىٰ غبت حتّىٰ تحتاج الىٰ دليلٍ يدّل عليك أو متىٰ بعدت حتّىٰ تكون الأثار هي التّي توصل اليك عميت عين لا ترك و لا تزّال عليها رقيباً و خسرت صفقة عبدٍ لم تجعل له من حبّك نصيباً الىٰ أخر ما قال عليه السلام في دعاء العَرفة و قد شرحناه مفصّلاً بالفارّسية [1].

قال الصّدر الشّيرازي في بعض تأليفاته أنّه تعالىٰ أجَّل وأجلىٰ و أنور و أعلىٰ من أن يدّل عليه شئ من مخلوقاته و مصنوعاته فأنّ الذّرات المبثوثة المطموسة تحت أنوار الشّمس في عالم الظّهور والحسّ و أن كانت موجودة لكن كيف يعرف بها وجود الشّمس مع أنّ وجودها و نورها و عَظَمتها و قهرها يبهر أبصار النّاظرين و يغشي أنظار الباصرين فاذا كان النّور في الشّمس المحسوسة هكذا فكيف شمس عظمة جلال الأزل و نور إشراق الجمال الأوّل

۱- انتشارات قائن ۱۳۸۱.

فهو أنور من أن ينّوره و يدّل عليه شيئ من ذرّات وجوده الأفاضي و هيأت جوده الفّياضي للعقول البّشرية و البصائر القلّبية التّي كالخفافيش بالنّسبة الىٰ قرص الشّمس مع أنّ وجودها و ظهورها و قوامها و دوامها منه و به و اليه ولَه و كفى باللّه شهيداً علىٰ نفس الوجود وذات المعبود فالنّظر الىٰ حقيقة الوجود المنبسط على كلّ موجودٍ يُعطي أنّه بكماله وتمامه موجود بلا شوب عدم و يعطي أنّه لا ثاني له في أصل الوجود وكلّ ما فَرضه العقل ثانياً فبعد تحديق النّظر وجَده عين الأوّل انتهىٰ كلامه.

أنا أقول ما ذكره و ذكرناه صدق و حقّ واليه أشار اللّه تعالىٰ بقوله:

أَوَ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ(١).

قال اللّه تعالىٰ: **أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَ لَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا**(٢).

و سيأتي البحث في كلّ واحدة منها في محلّه إن شاء اللّه تعالىٰ.

و أمّا قوله تعالىٰ: **وَ ٱلْمَلَآئِكَةُ وَ أُولُو ٱلْعِلْمِ** فهو أيضاً مثل قوله: **شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ** في كيفّية الإستدلال أي أنّ الملائكة و أُولوا العلم أيضاً استّدلوا بذاته علىٰ ذاته ولم يسلكوا طريقاً أخر في معرفته لعلمهم بأنّه أحسن الطّرق و قوله تعالىٰ: **قَآئِمًا بِٱلْقِسْطِ** حالٌ من فاعل، شهد، و هو، اللّه، أي أنّه اللّه تعالىٰ لا إله إلاّ هو حال كونه قائماً بالقِسط، والدّليل عليه من العقل هو أنّه تعالىٰ أوجَد النّظام علىٰ أحسن الوجوه و هو دليل علىٰ عدله لأنّ العَدل عبارة عن وضع الشّيئ في محلّه.

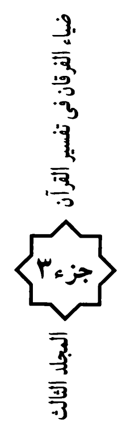
ثانياً: لو لم يكن عادلاً يكون ظالماً لعدم الواسطة بينهما لأنّ الظّلم عبارة عن وضع الشّيئ في غير محلّه فنقول أن كان الشّيئ في محلّه وفي غير محلّه يلزم

١- الفصلت = ٥٣
٢- الفرقان = ٤٥

إجتماع النقيضّين وأن لم يكن فيهما معاً يلزم إرتفاعهما فالأمر دائر بين أحد الإحتمالين و هو الوضع في محلّه أو في غير محلّه فأن كان الأوّل فهو المطلوب وأن كان الثّاني فهو ظالم والظّلم قبيح و قد ثبت أنّه تعالىٰ منّزه عن القبائح فهو منزّه عن الظّلم و اذا لم يكن ظالماً فهو عادل و هو المطلوب.

و أمّا قوله تعالىٰ **لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ** حيث وصف نفسه بالعزّة و الحكمة فهو إشارة الىٰ أمرين أحدهما أنّه عزيز، والثّاني أنّه حكيم، فكونه عزيزاً يدّل علىٰ قاهرّيته وكونه حكيماً علىٰ تدبيره التّام الكامل، و قيل شهادة الأُلىٰ أشهد اللّه أنّه لا إلٰه إلاّ هو وصفٌ وتوحيد، و الثّانية (لا إلٰه إلاّ هو العزيز الحكيم) رسمٌ وتعليم نقله القُرطبي عن مولانا الصّادق عليه السلام يعني قوله **لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ** فتدّبر في ما ذكرناه في تفسير الآية الشّريفة أن كنت من أهله فأنّك لا تَجد هذا في غير هذا الكتاب واللّه ولّي التّوفيق و هو حسبنا ونعم الوكيل نعم المَولىٰ ونعم النّصير.

■



إِنَّ ٱلدِّينَ عِنْدَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَامُ وَ مَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَ مَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩﴾

◁ اللّغة

ٱلدِّينَ: بسكون الدّال يقال للطّاعة والجزاء و أستعير للشّريعة والدّين كالملّة لكنّه يقال إعتباراً للطّاعة و الإنقياد للشّريعة.

ٱلْإِسْلَامُ: مصدر من أسَلَم إسلاماً، و هو مأخوذ من السِّلم والسّلامة بمعنى التّعري عن الأفات الظّاهرة والباطنة قال تعالىٰ، بقلبٍ سليم، أي مُتَعرٍ من الدّغل فهذا في الباطن، و قال مسلّمة لاشية فيها، فهذا في الظّاهر.

بَغْيًا: البَغي مصدر بَغىٰ بَغياً، و معناه طلب تجاوز الإقتصاد فيما يُتَحرىٰ، تَجاوزه أو لَم يتجاوزه فتارةً يعتبر في القدر الّذي هو الكميّة وتارةً يعتبر في الوَصف الّذي هو الكيفيّة يقال بغيت الشّيء اذا طلبت أكثر ما يجب.

◁ الإعراب

إِنَّ ٱلدِّينَ الجمهور علىٰ كسرة الهَمزة علىٰ الإستئناف و يقرأ بالفتح علىٰ أنّ الجملة مصدر و موضعه جرّ بدلاً من أنّه لا إله إلاّ هو، أي شهد اللّه بوحدّانيته به إِنَّ ٱلدِّينَ عِنْدَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَامُ و قيل هو بَدل من القِسط، و قيل هو في موضع نصب بَدلاً من الموضع والبَدل علىٰ الوجوه كلّها بَدل الشّيء من الشّيء و هو و يجوز بَدل الإشتمال عِنْدَ ٱللَّهِ ظرف والعامل فيه الدّين وليس بحالٍ منه بَغْيًا مفعول من أجله والتقدّير اختلفوا بعد ما جاءهم العلم للبَغي و يجوز أن يكون مصدراً في موضع الحال وَ مَنْ يَكْفُرْ مبتدأ وخَبر و قيل الجملة من الشّرط و الجزاء هي الخَبر و قيل الخبر هو الجواب والتّقدير سريع الحساب له.

◁ التّفسير

إِنَّ ٱلدِّينَ عِنْدَ ٱللّٰهِ ٱلْإِسْلاٰمُ أي أنّ الدّين عنده تعالىٰ مُنحصرٌ في الإسلام بمعنىٰ أنّه لا يقبل غيره كما قال: **وَ مَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلاٰمِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَ هُوَ فِى ٱلْاٰخِرَةِ مِنَ ٱلْخاٰسِرِينَ**(١) ولأنّ تقديم الخَبر علىٰ المبتدأ يفيد الحصر كما اذا قلت العالم زيد، بخلاف زيد عالم فأنّه لا يفيد حصر العلم فيه ولأجل هذا لم يقل أنّ الإسلام دينٌ عند اللّه و قال **إِنَّ ٱلدِّينَ عِنْدَ ٱللّٰهِ ٱلْإِسْلاٰمُ** وأكدَّ الكلام بأنّ ليكون التّأكيد في الحَصر ثمّ أنّ الدّين يطلق في اللّغة علىٰ معانٍ كثيرة.

منها، الملّة و منها المذهب و منها الشّأن و منها العادة و منها الحال و منها القضاء و منها السّيرة و منها التدبير و منها الوَرع و منها الطّاعة و منها الجزاء و منها المكافاة و منها القَهر والغلبة و منها الذّل. و امّا في القرأن فقد جاء الدّين علىٰ معانٍ سبعة:

أحدها: التّوحيد كما في الآية إنّ الدّين عند اللّه الإسلام يعني أنّ التّوحيد عند اللّه الإسلام و في العنكبوت:

قال اللّه تعالى: **فَإِذاٰ رَكِبُوا فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا ٱللّٰهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ**(٢) يعني التّوحيد.

و قوله تعالىٰ: **فَاعْبُدِ ٱللّٰهَ مُخْلِصًا لَهُ ٱلدِّينَ**(٣).

يعني مخلصين له التّوحيد والأيات بهذا المعنىٰ كثيرة.

ثانيها: بمعنىٰ الحُكم ومنه:

قال اللّه تعالى: **ٱلزّاٰنِيَةُ وَ ٱلزّاٰنِي فَاجْلِدُوا كُلَّ واٰحِدٍ مِنْهُمٰا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَ لاٰ تَأْخُذْكُمْ بِهِمٰا رَأْفَةٌ فِي دِينِ ٱللّٰهِ**(٤) أي في حكم اللّه الذّي حَكم به عليهما.

١- آل عمران=٨٥.
٢- العنكبوت=٦٥.
٣- الزّمر=٢.
٤- النّور=٢.

ثالثها: بمعنىٰ الجزاء ومنه:

قال اللّه تعالى: **وَ ٱلَّذِيٓ أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيٓئَتِي يَوْمَ ٱلدِّينِ**[١] أي يوم الجزاء.

قال اللّه تعالى: **وَ قَالُوا يَا وَيْلَنَا هٰذَا يَوْمُ ٱلدِّينِ**[٢] أي يوم الجزاء.

قال اللّه تعالى: **ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ**[٣] أي بيوم الجزاء.

قال اللّه تعالى: **مَالِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ**[٤] أي يوم الجزاء وغيرها.

رابعها: بمعنىٰ الطّاعة و منه:

قال اللّه تعالى: **وَ لَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ**[٥] أي ولا يطيعون طاعة الحقّ.

خامسها: بمعنىٰ الحساب و منه:

قال اللّه تعالى: **أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ**[٦] يعني ذلك الحساب القيّم.

و قال اللّه تعالى: **يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللّٰهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ**[٧] يعني حسابهم الحقّ.

سادسها: بمعنىٰ العادة و منه:

قال اللّه تعالى: **مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلْمَلِكِ**[٨] يعني في عادة المَلِك.

سابعها: بمعنىٰ دين الإسلام و منه:

قال اللّه تعالى: **هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدٰى وَ دِينِ ٱلْحَقِّ**[٩].

قال اللّه تعالى: **وَ ذٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ**[١٠].

١- الشّعراء=٨٢.
٢- الصّافات=٢٠.
٣- المطفّفين=١١.
٤- الفاتحة=٤.
٥- التّوبة=٢٩.
٦- التّوبة=٣٦.
٧- النّور=٢٥.
٨- يوسف=٧٦.
٩- الصّف=٩.
١٠- االبيينة= ٥.

قال اللّه تعالى: **لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ**[١].

يعني دين الإسلام بعَينه والدّين بهذا المعنىٰ في القرأن كثير، ثـمّ أنّـه اذا أطلق فقد يقال علىٰ كلّ مايَتّعبد به الإنسان حقّاً كان أوباطلاً و هو واضح.

و أمّا الإسلام فهو الدّخول في السّلم و هو أن يسلم كلّ واحدٍ منهما أن يَناله من ألم صاحبه و هو مصدر، أسلمتُ الشّئ الىٰ فلان اذا أخرجته اليـه ومـنه السَّلم في البيع والإسلام قد يطلق في الشّرع ويراد به معناه الظّاهر و هو بهذا المعنىٰ يتحقّق بالإعتراف والإقرار بـاللّسان وحـده بـالشّهادتين حـصل مـعه الإعتقاد أو لم يحصل ومنه:

قوله تعالىٰ:**قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَ لَكِنْ قُولُوٓا أَسْلَمْنَا**[٢].

و تارةً يراد به الإيمان و هو الإقرار و الإعتقاد والعمل بل الإستسلام للّـه تعالىٰ في جميع ما قضىٰ وقدّر ومنه:

قوله تعالىٰ:**إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَالَمِينَ**[٣].

و منه قوله: **إِنَّ ٱلدِّينَ عِنْدَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَامُ** و قد يجئ بمعنىٰ الإنقياد للحقّ والإذعان:

قال اللّه تعالى: **إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ**[٤] أي منقادون للحقّ.

و قال اللّه تعالى: **يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا**[٥].

أي الّذين إنقادوا من الأنبياء الّذين ليسوا من أولي العزم لأُولي العَزم الذّين يهتدون بأمر اللّه ويأتون بالشّرائع قال أمير المؤمنين عليه السلام في خطبةٍ له:

لأنسبنّ الإسلام نِسبةً لَم يَنسبها أحَدٌ قبلي الإسلام هو التّسليم، والتّسليم هو اليقين واليقين هو التّصديق والتّصديق هو الإقرار والإقرار هو الأداء والأداء هو العَمَل الخ)

١- الكافرون=٦. ٢- الحجرات = ١٤
٣- البقرة ١٣١= ٤- النمل = ٨١
٥- المائدة= ٤٤

و علىٰ ما ذكرناه في معنىٰ الدّين والإسلام فالمراد به في الآية هو الإيمان أن الإستسلام والإنقياد في جميع ما قضىٰ وقدّر وهذا هو الدّين المرّضي عند اللّه و أمّا الإسلام الظّاهري بمعنىٰ الإقرار بالشّهادتين من غير إعتقادٍ وعَمَل فهو ليس من الدّين المرّضي عنده تعالىٰ فلا يكون مراداً في الآية قطعاً ويدّل علىٰ ما ذكرناه.

ما روي عن محمّد بم مسلم عن أبي جعفر عليه السلام في قوله تعالىٰ: إِنَّ ٱلدِّينَ عِنْدَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَامُ قال عليه السلام: يعني الدّين فيه الإيمان.

و في أُصول الكافي بأسناده عن أبي عبد اللّه عليه السلام: حديث طويل، يقول فيه أنّ الإسلام قبل الإيمان و عليه يتّوارثون و يتّناكحون والإيمان عليه يُثّابون انتهىٰ.

و عن عدّة من أصحابنا عن أبي جعفر عليه السلام قال عليه السلام: الإسلام لا يشرك الإيمان والإيمان يشرك الإسلام وهما في القول والفعل يجتمعان كما صارت الكعبة في المسجد والمسجد ليس في الكعبة و كذلك الإيمان يشرك الإسلام والإسلام لا يشرك الإيمان و قد قال اللّه عزّ وجلّ قالت الأعراب أمنّا قُل لم تؤمنوا و لكن قُولوا أَسَلمنا ولمّا يَدخل الإيمان قلوبكم، فقول اللّه عزّ وجلّ أصدق القول الحديث.

عن تفسير علّي بن إبراهيم بأسناده عن أبي جعفر عليه السلام قال: أنّ اللّه فضّل الإيمان علىٰ الإسلام بدرجة كما فَضّل الكعبة علىٰ المسجد الحرام بدرجة انتهىٰ.

روىٰ العيّاشي عن محمّد بن مسلم قال: سألته عن قوله تعالىٰ الدّين عند اللّه الإسلام فقال عليه السلام: الذّي فيه الإيمان.

و الأحاديث في الباب كثيرة و امّا العامّة فحيث أنّ الإسلام والإيمان عندهم واحد لا فرق بينهما فقد رَووا في المقام أنّ المراد بالإسلام في الآية هو الإقرار فقط.

روي الطّبري في تفسيره لهذه الآية عن قتادة في قوله تعالىٰ: **إِنَّ ٱلدِّينَ عِنْدَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَامُ** قال والإسلام شهادة **أن لا إله إلاّ الله** والإقرار بما جاء به من عند اللّه وهو دين اللّه الّذي شرع لنفسه وبعث به رُسلُه ودَّل عليه أولياءه لا يقبل غيره ولا يجزي إلاّ به انتهىٰ.

و قال البيضاوي أي لا دين مرّضي عند اللّه سوىٰ الإسلام و هو التّوحيد والتّدرع بالشّرع الذّي جاء به محمّد صلى الله عليه وآله وهذه عقيدتهم فأنّهم يطلقون المؤمن على كلّ من أقَّر بالشّهادتين وأن لم يعتقد بقلبه ولم يعمل بوظائفه المقّررة في الشّريعة وهذا أمرٌ لا يقبله العقل السّليم والفطرة المُستقيمة لأنّ الإيمان أو الإسلام المرّضي عند اللّه الّذي هو الإيمان لو حصل بمجرّد الإقرار اللّساني من دون إعتقادٍ و عملٍ فجميع المسلمين من المؤمنين حقّاً فلا فرق بين أبي سفيان الذّي أقّر بالشّهادتين وبين سلمان و أبى ذر و مقداد ممن أقرّوا بها و إعتقدوا بقلوبهم و عملوا بجوارحهم ولا يقول بهذه المقالة عاقل وسيأتي البحث فيه في المستقبل إن شاء اللّه تعالىٰ، فأنّ كلّ حزبٍ بما لديهم فَرِحُون.

وَ مَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ.

قيل المقصود من الّذين أُوتوا الكتاب نصارىٰ نجران و قيل المراد بهم اليهود والأحسن حمل اللّفظ علىٰ معناه العّام الشّامل لهما ولغيرهما من أهل الكتاب، و كلمة، ما، في ما إختَلَف، للنّفي أي لم يكن أو ليس إختلاف أهل الكتاب إلاّ بعد علمهم بالحقّ بغياً وظلماً بينهم، قيل المراد بإختّلافهم إختلافهم في نبوّة محمّد صلى الله عليه وآله بعد ما جاءهم العلم، بنبوّته في التّوراة و

الإنجيل و ذلك لأنّ الرّسول ﷺ كان مشهوراً بينهم بصفاته الّتي كانت في كتبهم، و قيل المراد بالإختلاف في الأية الموجود بينهم و ذلك لأنّ أمّة موسىٰ وكذلك أُمّة عيسىٰ بعد نبيّهم صاروا مختلفين مشتّتين، و قيل المراد بالإختلاف فيها إختلافهم بحسب عقائدهم في حقّ عيسىٰ و موسىٰ و علىٰ كلّ حالٍ لاشّك في وجود الإختلاف بينهم بحسب الآية وأنّ هذا الإختلاف كان بعد ما جاءهم العم لا قبله و لذلك وُصف بالبَغي والظّلم و فيه إشارة الىٰ قُبحه بعد العلم و توضيح ذلك إجمالاً هو أنّ الإختلاف الواقع بين النّاس علىٰ قسمين قسمٌ منشأه الجهل و قسمٌ منشَأه العناد والتّعصب وحبّ الدّنيا و امثال ذلك من الدّواعي.

أمّا القسم الأوّل: فرفعه برفع الجهل و هو سَهلٌ.

أمّا القسم الثّانى: فرفعه برفع العناد والتّعصب و أمثالهما من الدّواعي الفاسدة و هو مشكل جدّاً ثمّ أنّ الآية الشّريفة وأن كانت في اليهود أو النّصارىٰ أو جميع أهل الكتاب قبل الإسلام إلاّ أنّها شاملة بل صادقة علىٰ المسلمين أيضاً فأنّهم أيضاً إختلفوا بعد نبيّهم وإفترقوا علىٰ أكثر من سبعين فرقة علىٰ ما أخبر به النبّي ﷺ في الحديث المشهور بين الفريقين حيث قال:

ستفترق أُمتّي علىٰ ثلاثة وسبعين فرقة واحدة منهافي الجنّة و سائرهم في النّار و علىٰ نقل بعض العّامة تفرّقت بنو إسرائيل علىٰ إحدىٰ و سبعين فرقة واحدة في الجنّة وسائرهم في النّار و لتزيدّن عليهم هذه الأمّة واحدة، واحدةٌ في الجنّة وسائرهم في النّار و كيف كان فالحديث مشهور مقطوع به وأن كانت ألفاظه مختلفة و قد وقع ما أخبر به ﷺ أليسَ هذا الإختلاف من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم، ألَم يقل اللّه تعالىٰ في كتابه العزيز:وَ ٱعْتَصِمُوا بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَ لاَ تَفَرَّقُوا فَلِمَ تَفرّقُوا أليسَ هذا التّفرق بغياً و ظلماً قال رسول

اللّه صلى الله عليه وآله إنّي تاركٌ فيكم الثقلَين كتاب اللّه وعِترتي أهل بيتي ما أن تمسّكتُم بهما لَن تَضلّوا أبَداً لن يَفترَقا حتّىٰ يُردا علّي الحَوض

رواه الفريقين بطرق مختلفة فَلِمَ لم يتَمسّكوا بعترته بعد موته صلى الله عليه وآله بل قتلوهم و شردوهم في البلاد وحرموهم عن حقوقهم الأوليّة الّتي لابدّ لكلّ إنسان في حياته أليسَ هذا بعد علمهم بلزوم مراعاة العترة الّتي جعلت عِدلاً للكتاب العزيز في التّمسك بهما نِعم علموا و لكن زيّنت لهم الدّنيا و زخارفها أو حسدوا علىٰ أهل بيت نبّيهم فَفَعلوا بهم ما فعلوا و سيعلم الّذين ظلموا أيّ منقلبٍ ينقلبون.

قال أمير المؤمنين عليه السلام في الخطبة الّتي خطب بها و هي معروفة بالشّقشقية:

أمّا واللّه لقد تقَمّصها إبن أبي قحافّة وأنّه ليعلم أنّ محلّي منها محلّ القطب من الرّحىٰ الخ.

فقوله عليه السلام: وأنّه ليعلم دليل علىٰ المدّعى و هو رأس الإختلاف وأساسه و عليه بني ما وقع من الظّلم علىٰ الأمّة و ما يقع الآن و ما سيقع الىٰ اليوم الموعود و معلوم أنّ الظّلم مَنشَأه الإختلاف فلو لم يختلفوا بعد نبّيهم لما وقعوا فيما وَقَعوا فيه من الحيرة والضّلالة والحقارة والذّلة و قد قال اللّه تعالىٰ: **وَ لَا تَهِنُوا وَ لَا تَحْزَنُوا وَ أَنْتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ**[1].

و مِن أعجب الأمور أنك ترىٰ علماءهم يبحثون في تفاسيرهم في هذه الأية و نظائرها أنّ المراد بها نصارىٰ نجران أو اليَهود أو مُطلق النّصارىٰ و غفلوا عن أنّ المراد بالأية كلّ أمّةٍ اختلفت بعد نبّيها من بعد ماجاءهم العلم سواء فيما ذكرناه اليهود أو النّصارىٰ أو جميع أهل الكتاب ومنهم المسلمون فأنّ

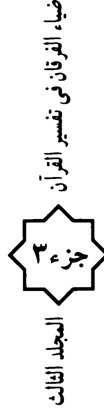
١- آل عمران = ١٣٩

خصوص المورد لا ينافي عموم الآية من حيث المصداق ولم يقل أحدٌ منهم أنّ الآية شاملة لنا أيضاً عجيب.

وَ مَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ.

قد مرّ الكلام في أقسام الكفر مراراً والمراد به هنا ليس الكفر بمعنىٰ إنكار الدّين بل المراد به كفران النّعمة وذلك لأنّ الإختلاف في الدّين بعد العلم علىٰ أساس البغي و الظّلم هو كفران النّعمة أي نعمة العلم أو نعمة الدّين و لذلك قال اللّه تعالىٰ: **وَ مَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ ٱللَّهِ** أي سترها عن العوام مع علمه بها كما هو شأن علماء السّوء في كلّ ملّةٍ وأُمّةٍ **فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ** فأنّ تعالىٰ حافظٌ علىٰ كلّ عاملٍ عَمله ويحاسبه عليه.

■



فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَ مَنِ اتَّبَعَنِ وَ قُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَ الْأُمِّيِّينَ ءَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَ إِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَ اللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿٢٠﴾

◁ اللّغة

فَإِنْ حَاجُّوكَ: المحاجّة أن يطلب كلّ واحدٍ أن يَرّد الأخر عن حُجّته و مَحَجّته.

الْأُمِّيِّينَ: جمع الأمّي و هو المنسوب الىٰ الأم.

تَوَلَّوْا: التَّولي الإعراض عن الشّيء.

◁ الإعراب

وَ مَنِ اتَّبَعَنِ مَن في موضع رفع عطفاً علىٰ التّاء في أسلمتُ أي و أسلَم من إتَّبَعني وجُوههم لِلّه و قيل هو مبتدأ والخَبر محذوف و يجوز إثبات الياء علىٰ الأصل و حذفها تشبيهاً له برؤوس الأي والقوافي ءَأَسْلَمْتُمْ هو في معنىٰ الأمر أي أَسلَمُوا كقوله تعالىٰ فَهل أنتم مُنتهون، أي إنتَهُوا.

◁ التّفسير

فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَ مَنِ اتَّبَعَنِ الخِطاب للنّبي ﷺ أي فإن حاجّوك أهل الكتاب من اليهود و النّصارىٰ بأن يطلب كلّ واحدٍ من أهل الكتاب أن يرّدك عن حجّتك فقُل له أسلمت وجهي لِلّه ومن إتّبعن، أي و من إتَّبعن أيضاً أسلم لِلّه و جاز العطف علىٰ الضّمير المرفوع من غير تأكيدٍ للفصل بينهما و عليه فهو عطف علىٰ التّاء في قوله: أَسْلَمْتُ و الأصل في إتَّبعنِ، إتَّبعني، و به قُرأ، نافع و أبو عمرو و يعقوب و أنّما حذفها الأخرون

إتّباعاً للمصحف اذا وقعت فيه بغير ياء، و قيل في قوله تعالىٰ **أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلّٰهِ** و جهان:

أحدهما: معناه أنقدت لأمر اللّه في إخلاص التّوحيد له والحجّة فيه أنّه أَلزمهم علىٰ ما أقرّوا من أنّ اللّه خالقهم و إتّباع أمره في أن لا يعبدوا إلاّ إيّاه.

ثانيهما: أنّ معناه أعرضتُ عن كلّ معبودٍ دون اللّه و أخلصتُ قصدي بالعبادة اليه وذكر الأصل الذّي يلزم جميع المكلّفين الإقرار به ذكرهما الطّبرسي ﷺ في المجمع و قيل معناه أقبلتُ عليه بعبادتي مُخلصاً له مُعرضاً عمّا سواه أنا ومن إتَّبَعني من المؤمنين، قيل يستفاد من الآية أنّ من يقصد الىٰ الحجاج بعد تأييد الحقّ لا يقصد في حجاجه إلاّ المجادلة والمشاغبة لمحض العنادشأن المُبطلين و امّا طالب الحقّ فأنّه يبخل بالوقت أن يضيع سدىٰ.

وَ قُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتابَ وَ ٱلْأُمِّيِّنَ

أي قُل لليهود و النّصارىٰ و مشركي العرب قيل و كانوا ينسبون الىٰ الأُمّ لجهلهم فأنّ الجاهل أُمّي، أقول لا يبعد أن يكون الوجه في الإنتساب الىٰ الأُمّ كونهم أهل مكّة و مكّة أُمّ القُرىٰ و ذلك لأنّ المُشركين الّذين كانوا يُحاجّونه لم يكونوا من أهل المَدينة بل كانوا أهل مكّة **ءَأَسْلَمْتُمْ** كما أسلَمتُ قيل ظاهر اللّفظ، إستفهام و معناه أمرٌ أي أسلموا كما أسلَمتُ الإستفهام للتّقريع والمراد بالإسلام روح الدّين الذّي نزّل به الكتاب ومقصده يعني أنّه ليس لهم إلاّ الرّسوم منه **فَإِنْ أَسْلَمُوا** هذا الإسلام **فَقَدِ ٱهْتَدَوْا** أي فقد إهتَدوا الىٰ طريق الحقّ **وَ إِنْ تَوَلَّوْا** أي و أن أعرضوا عن الحقّ و بقوا علىٰ الباطل الّذي كانوا عليه **فَإِنَّما عَلَيْكَ ٱلْبَلاغُ** و ذلك لأنّ وظيفة الرّسول تبليغ الأحكام فحسب قال اللّه تعالىٰ و ما علىٰ الرّسول إلاّ البلاغ، وقال: **يٰآ أَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ ما أُنْزِلَ إِلَيْكَ.**

وَ ٱللّٰهُ بَصِيرٌ بِالْعِبادِ فهو أعلم بمن طمس قلبه من الإهتداء ومن ليس كذلك بل يرجي له حسن العاقبة بتوفيقٍ من اللّه تعالىٰ.

■

إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ ٱللَّهِ وَ يَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّنَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَ يَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾ أُولَٰئِكَ ٱلَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا وَ ٱلْآخِرَةِ وَ مَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴿٢٢﴾

◁ اللّغة

حَبِطَتْ: قد مرّ الكلام في معنىٰ **الحَبط** وبيّنا أقسامه وقلنا أنّه بمعنىٰ البطلان أي بطلت أعمالهم ولم يؤجروا عليها لأنّ إستحقاق الثّواب مشروط بالموافاة.

◁ الإعراب

فَبَشِّرْهُمْ هو خبر، أنّ، و دخلت الفاء فيه حيث كانت صلة، الذّي، فعلاًمؤذنٌ بإستحقاق البشارة بالعذاب جزاءً علىٰ الكفر.

◁ التّفسير

في نزول الآية ذكروا وجوهاً:

أحدها: أنّه كان ناس من بني إسرائيل جاءهم النَّبيُّون يدعونهم الىٰ اللّه عزّ وجلّ فقتلوهم فقدم أُناس من بعدهم من المؤمنين فأمروهم بالإسلام فقتلوهم ففيهم نزّلت هذه الآية و رُوي عن ابن مسعود أنّه قال قال النّبي صلى الله عليه وآله بئس القوم قوم يقتلون الذّين **يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ** بئس القوم قومٌ لا يأمرون بالمعروف ولا ينهون عن المُنكر، بئس القوم قومٌ يمشي المؤمن بينهم بالتّقية.

و روي عن أبي عبيدة بن الجرّاح أنّه قال قال النّبي صلى الله عليه وآله قتلت بنو إسرائيل ثلاثة و أربعين نبّياً من أوّل النّهار في ساعةٍ واحدة فقام مائة رجل وأثني عشر

رجلاً من عبّاد بني إسرائيل فأمروا بالمعروف ونهوا عن المُنكر فقُتلوا جميعاً في أخر النّهار من ذلك اليوم و هم الّذين ذكرهم اللّه في هذه الآية و في روايةٍ أُخرىٰ كانت بنو إسرائيل تقتل في اليوم سبعين نبّياً ثمّ تقُوم سُوق بقلهم من أخر النّهار رواها القُرطبي في تفسيره.

إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أي ينكرُونها **وَ يَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّۦنَ بِغَيْرِ حَقٍّ** كقَوم بني إسرائيل **وَ يَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ** أي يقتلون الأمرين بالمَعروف **فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ** يوم القيامة أقول في الشّريفة ثلاث مسائل:

المسألة الأُولىٰ: قوله **إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ** و هو حكم عامّ يشمل جميع الأمم وأن كان مورده خاصّاً و هو علماء اليهود و النّصارىٰ في عصر النّبي ﷺ حيث أنكروا نبوّته وفي الحقيقة أنكروا كتبهم من التّوراة و الإنجيل و غيرهما لأنّ أوصاف النّبي كانت موجودة فيها فإنكارها إنكار أياتها و أنّما قلنا بعموم الحكم لأنّ إنكار الأيات لا يختصّ بهم بل هو موجود في المسلمين أيضاً و لا سيّما في خلفائهم فأنّ كثيراً منهم كانوا من منكري الضّروريات من الدّين و تبعهم فيه غير واحدٍ من أتباعهم وأشياعهم و هو واضح.

أمّا المسألة الثّانية: و هي قوله **وَ يَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّۦنَ بِغَيْرِ حَقٍّ** فهو مخصوص بالأمم الماضية اذ لا نبّي بعد نبّي الإسلام والسّالبة تنتفي بإنتفاء موضوعه.

امّا الثّالثة: فهي نعمّ جميع الأُمّم فأنّ الّذي يأمر بالقسط و العدل في دولة الجائر الظّالم يقتل لا محالة سواء كان في حكومة فرعون و نمرود و أمثالهما قبل الإسلام أم كان في حكومة معاوية ويزيد وعبد المَلك ووو قبلهم وبعدهم و تاريخ الخلفاء في الإسلام يُؤيّد هذا ألا ترىٰ أنّ الحُسين بن علّي سلام اللّه عليهما قام بالأمر بالمعروف والنّهي عن المُنكر فقُتل هو و جميع أصحابه و أقرباءه و أولاده في كربلاء وسُبي أهله وأيّ فرقٍ بين قتل الحُسين وقتل رسول

اللّه و لذلك قلنا السّالبة منتفيةٌ في الإسلام بإنتفاء موضوعه أي أنّهم أي حكّام المسلمين لم يجدوا نبّياً يخالفهم و إلاّ قتلوه كما قتلوا أولاد النّبي و ملاك القتل لم يكن في أولاده إلاّ أنّهم كانوا يأمرون بالمعروف و ينهون عن المنكر و هذا أمرٌ لا خفاء فيه ولا ينكره إلاّ متعصّبٌ عنيد بل نقول قتلهم الإمام المَعصُوم أمير المؤمنين و بعده الحسين بن علّي في كربلاء بل وجميع الأئمّة بالسّيف و السّم و السّجن كان أشدّ جرماً و أعظم ذنباً من قتل بني إسرائيل أنبياءهم لأنّ الأئمّة أفضل من أنبياء بني إسرائيل قطعاً فقوله تعالىٰ **فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ** يشمل الكلّ لعنة اللّه عليهم أجمعين.

أُولَٰئِكَ ٱلَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَ ٱلْاٰخِرَةِ وَ مَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ

أي هؤلاء الأشرار من الأوّلين والأخرين حبطت و بطلت أعمالهم من الصّوم و الصّلاة والحَجّ و أمثالها ممّا كانوا يفعلونها لإغفال النّاس في الدّنيا والأخرة أمّا في الدّنيا فواضح لأنّهم إستّحقوا بذلك اللّعن والطّرد الىٰ يوم القيامة و امّا في الأخرة فلأنّ شرط الثّواب علىٰ العمل الموافاة واذ ليس فلَيس و لذلك قال تعالىٰ، وما لهم من ناصرين، أي ليس لهم من ينصرهم، لقوله تعالىٰ: **مَنْ ذَا ٱلَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُٓ إِلَّا بِإِذْنِهِ**[1] والمَطرُود من رَحمة اللّه حاله معلوم.

قال القُرطبي دلّت الآية علىٰ أنّ الأمر بالمعروف والنّهي عن المُنكر كان واجباً في الأمم المتقدّمة و هو فائدة الرّسالة و خلافه النبوّة، و الحقّ أنّ الآية لا تدّل علىٰ هذا إلاّ القول بأنّ الآية نزلت فيهم و لا تشمل غيرهم و قلنا أنّ خصوصّية المورد علىٰ فرض ثبوتها لا تنفي عموم اللّفظ إلاّ بدليلٍ منفصلٍ و أنّى له بإثبات ذلك ولَو ثبت فالحكم ثابت به لا بها كما هو المدّعىٰ.

■

١- البقرة= ٢٥٥

أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ ٱلْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ ٱللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ وَ هُمْ مُعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ ذٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلاَّ أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ وَ غَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾ فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لاَ رَيْبَ فِيهِ وَ وُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَ هُمْ لاَ يُظْلَمُونَ ﴿٢٥﴾

◁ اللّغة

نَصِيبًا: النَّصيب بفتح النّون الخطّ المَنصُوب أي المعيّن.

فَرِيقٌ مِنْهُمْ: الفَريق الجماعة المُتَفَرقة عن أخرين.

تَمَسَّنَا: المَّس كاللَّمس إلاّ أنّ المَّس يقال فيما يكون مَعه إدراك بحاسّة الّمس لكنّ اللَّمس قد يقال لطلب الشّيْ وأن لم يوجد.

وَ غَرَّهُمْ: يقال غررتُ فلاناً أصبتُ غرَّته و نلتُ منه ما أريده و الغرور كلّ ما يغرّ الإنسان من مالٍ و جاهٍ و شهوةٍ و شيطانٍ.

يَفْتَرُونَ: الفتُور سكون بعد مدّةٍ ولينٍ بعد شدّةٍ وضعفٍ بعد قوّةٍ لا يفترون، أي لا يسكنون عن نشاطهم في العبادة.

وُفِّيَتْ: الواو في الّذي ببلغ التّمام يقال درهم وافٍ وكيل وافٍ و أوفيتُ الكيل والوَزن، و توفية الشّئ بذله وافياً وإستيفاءه تناوله وافياً.

◁ الإعراب

يُدْعَوْنَ في موضع حال من الّذين وَ هُمْ مُعْرِضُونَ في موضع رفع صفة لفريق أو حالاً من الضّمير في الجارّ ذٰلِكَ هو خبر مبتدأ محذوف أي ذلك الأمر

ذلك فعلى هذا يكون قوله بِأَنَّهُمْ قَالُوا في مضوع نصب على الحال ممّا في ذا، من، معنى الإشارة والأحسن أن يكون ذلك مبتدأ، و بِأَنَّهُمْ خبره أي ذلك العذاب يستحقّ بقولهم فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ كيف في موضع نصب على الحال والعامل فيه محذوف تقديره كيف يصنعون أو كيف يكونون.

◁ التّفسير

أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ ٱلْكِتَابِ قيل معنى، ألم ترَ، ألم تعلم يا محمّد **إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا** أي عطوا نصيباً أي حظّاً من الكتاب و المراد بالكتاب التّوراة على ما قيل و أنّما قال أُوتوا نصيباً من الكتاب، لأنّهم كانوا يعلمون بعض ما فيه و قيل أنّ اليهُود دُعيت الى التّوراة فأبوا لعلمهم بلزوم الحجّة عليهم بما فيه من الدّلائل على نبوة نبّينا و تصدّيقه و قيل دُعوا الى القرأن لأنّ ما فيه موافق لما في التّوراة في أُصول الدّيانة و أركان الشّريعة ثمّ أنّهم إختلفوا في الحُكم الّذي دعوا اليه على أقوال ثلاثة:

أحدها: المراد به نبّوة النّبي صلّى الله عليه وآله.

ثانيها: أن يكون المراد به أمر إبراهيم فأنّ دينه الإسلام.

ثالثها: أن يكون حدّاً من الحدود لأنّهم نازعُوا في ذلك والكلّ محتمل، و أنّما قال تعالى دعوا، ولم يقل أُمروا، لأنّهم لم يكونوا مأمورين و أنّما كانوا مدعوّين الى المحاكمة لتظهر الحجّة فأبوا إلاّ المخالفة، وفي قوله: **لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ** إشارة الى أنّ بالحكم يفصل الحقّ من الباطل و حيث أنّهم دُعوا الى كتاب اللّه لِلمُحاجّة أو فيما إختلفوا فيه فلا فاصِل إلاّ الحكم والى هذا المعنى أشار اللّه بقوله، يدعون الى كتاب اللّه ليحكم بينهم و امّا قوله: **ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ وَ هُمْ مُعْرِضُونَ** فالتولّي عن الشّئ هو الإعراض عنه فليس على وجه التّكرار لأنّ معناه يتولى عن الدّاعي و هو مُعرض عمّا دعا اليه لأنّه قد كان

يمكنه أن يتّولىٰ عنه و هو متّأمل لما دعا اليه فلمّا لم يفعل كان العيب له ألزم والذّم علىٰ ما فعل أعظم قاله الشّيخ في التّبيان، أقول الحقّ في الجواب عن التّكرار هو أنّ التولّي قد يكون بالجسم و قد يكون بترك الإصغاء والإئتمار، قال اللّه تعالىٰ: **وَ لا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَ أَنْتُمْ تَسْمَعُونَ**[١] أي لا تفعلوا ما فَعِل الموصوفون بقوله، و استغشوا ثيابهم و أصرّوا و إستَكبروا إستكباراً، ولا ترتسموا قول من ذكر عنهم: **وَ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لا تَسْمَعُوا**[٢] لهذا القرأن وألغُوا فيه.

و أمّا الإعراض فلا يطلق علىٰ ترك الإصغاء والإئتمار و عليه فقوله تعالىٰ: **ثُمَّ يَتَوَلّٰى فَرِيقٌ مِنْهُمْ** معناه لم يصغوا الىٰ دعوة النّبي وقوله: **وَ هُمْ مُعْرِضُونَ** معناه أعرضوا عنه يقال أعرض عنه، أي أظهر عرضه أي نـاحيته و اذا قـيل أعرض عنّي فمعناه ولّى مـبدياً أي مُـظهراً عـرضه فـظهر الفَـرق بـينهما ولو بالإعتبار وبحسب الإستعمال وهذا القدر يكفي في الفرق و أنّه لا تكرار في الأية.

ذٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَعْدُوداتٍ

أي أنّ إعراضهم وتوّليهم عن الحقّ كان سببه أنّهم **قَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَعْدُوداتٍ** قيل أنّ المراد بها الأيّام التّي عبدوا فيها العـجل وهـي أربعون يوماً، و قيل سبعة أيّام و قال الجبائي أنّ المراد بها أيّامُ منقطعة لإنقضاء العذاب فيها و انقطاعه **وَ غَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ مٰا كٰانُوا يَفْتَرُونَ** الإفتِراء الكذب و المعنىٰ أنّ هذه الأكاذيب غَرَّتهم في دينهم والغُرور الأطماع فيما لا يصّح وهؤلاء كانوا كذلك و قيل في الإفتِراء قولان:

أحدهما: قوله حكايةً عنهم: **نَحْنُ أَبْنَآءُ ٱللّٰهِ وَ أَحِبّآؤُهُ**[٣].

١- الانفال = ٢٠٢ ٢- الفصلت = ٢٦
٣- المائدة= ١٨

ثانيهما: أنّهم قالوا ما عصينا إلاّ أيّاماً معدودات فلن تمسّنا النّار أيضاً إلاّ أيّاماً معدودات، ثمّ قال: **فَكَيْفَ إِذاٰ جَمَعْنٰاهُمْ** أي جمعنا هؤلاء وغيرهم **لِيَوْمٍ لاٰ رَيْبَ فيهِ** و هو يوم القيامة **وَ وُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مٰا كَسَبَتْ** إن خَيراً فخيراً و إن شّراً فشرّاً **وَ هُمْ لاٰ يُظْلَمُونَ** لأنّ اللّه تعالىٰ لا يظلم علىٰ أحَد كما قال و ما ربّك بظلامٍ للعَبيد فلها ما كسبت و عليها ما إكتسبت.

■

قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَنْ تَشَآءُ وَ تَنْزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَآءُ وَ تُعِزُّ مَنْ تَشَآءُ وَ تُذِلُّ مَنْ تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَ تُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَ تُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَ تُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَ تَرْزُقُ مَنْ تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٧﴾

◁ اللّغة

تَنْزِعُ: نَزع الشّيَ جَذَبه من مقّره كنزع القوس عن كبده ويُسنعمل ذلك في الإعراض و منه نَزع العداوة والمحبّة من القلب.

تُولِجُ: مِن أوَلَج يُولج و مصدره الإيلاج يقلب الواو ياء و الوُلوج الدّخول في مضيق و باقي اللّغات واضح.

◁ الإعراب

قُلِ ٱللَّهُمَّ الميم المُشدّدة عوض من ياء والأصل فيه، يا اللّه أمّنا بخير **مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ** هو نداء ثان أي يا مالك المُلك **تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ** هو وما بعده من المعطوفات خبر مبتدأ محذوفٍ أي أنتَ و قيل مستأنف، و قيل الجملة في موضع الحال من المنادي **بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ** مستأنف و قيل حكم ما قبله من الجُمل **ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ** يقرأ الميت بالتخفيف والتشديد **بِغَيْرِ حِسَابٍ** يجوز أن يكون حالاً من المفعول المحذوف أي ترزق من تشاءُه غير محاسب و يجوز أن يكون حالاً من ضمير الفاعل أي تشاء غير محاسب له أو غير مضيق له و يجوز أن يكون نعتاً لمصدر محذوف أي رزقاً غير قليل.

◁ التّفسير

قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ الخطاب للنّبي في الظّاهر ولجميع المسلمين في الواقع وأمّا أنّه تعالىٰ مالِك المُلك فهو واضح بل لا مالك في الحقيقة إلاّ هو و ذلك لأنّه الخالق لجميع ما سواه وكلّ خالقٍ فهو مالِك لمخلوقه قهراً وطبعاً و عقلاً و توضيح ذلك أنّ **المُلك** بضمّ الميم ضبط الشّئ المتصرّف فيه بالحكم **المِلك** بكسر الميم فهو كالجنس للمُلك فكلّ **مُلكٍ مِلك** وليس كلّ **مِلك مُلكاً** و لأجل ذلك قال تعالىٰ: **مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ** بضّم الميم و لم يقل مالِك المِلك بكسرها لأنّ المالك للمُلك بالضمّ يكون مالِكاً لِلمِلك بالكسر لكونه أعمّ منه و لا عكس.

فقوله تعالىٰ: **مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ** يفيد مالكيّته تعالىٰ لكلّ مُلكٍ و مِلكٍ وكلّ ما في العالم لا يخلو عنهما فهو تعالىٰ مالِكٌ لِلكلّ حقّاً و هو المطلوب، ثمّ أنّ المُلك علىٰ قسمين حقيقّي، و اعتّباري، ونعني بالحقيقي ما كان ثابتاً لمالكه ولم يأخذه عن غيره لأنّ المأخوذ من الغير لا يكون ثابتاً دائماً لمالكه اذ المفروض أنّه ليس له ذاتاً و أنّما هو مِن غيره أعطاه إيّاه فاذا شاء المُعطي إسترداده فهو له فهو في يد الغير عارية في الحقيقة.

و أمّا الإعتّباري فليس كذلك بل المال في الحقيقة مال الغير إلاّ أنّه أعطاه لمصلحةٍ رأها فيه دام كون المال في يده يعتبرون العقلاء له المِلّكية و يقولون هذا ملكه فالملكيّة علىٰ هذا إعتبارية اذا عرفت هذا فنقول أنّ اللّه تبارك و تعالىٰ مالكٌ لكلّ ما سواه لأنّه أوَجده و خَلَقه فهو ملك له حقّاً ولم يقدر أحدٌ علىٰ أخذه منه و امّا غيره تعالىٰ كائناً من كان فهو في نفسه ملكٌ لغيره فكل ما في يده ملكٌ للّه تعالىٰ بطريقٍ أولىٰ فأنّ العبد وما في يده كان لمولاه ولأجل هذه الدّقيقة قال اللّه تعالىٰ: له المُلك وله الحَمد، و قال، لمن المُلك اليوم لِلّه الواحد القّهار و امثال ذلك من الأيات و قال في موضع أخر، أمَّن يملك السّمع و الأبصار الآية و قال قل لا أمِلك لِنَفسي نفعاً ولا ضرّاً الأية.

تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَنْ تَشَآءُ

اذا ثبت أنّه تعالىٰ مالك المُلك حقّاً بلا معارض فقد ثَبت أنّه لصَنيعه حيث يشاء اذ لو لم يكن كذلك لكان مقهوراً مغلُوباً في مُلكه و هو خلاف الفرض و بعبارةٍ أُخرىٰ الفاعل مختار والمَلك له فأمّا أن يعطي من ملكه من يشاء وما يشاء أولا فعلى الأوّل يثبت المطلوب و على الثّاني أمّا أن يمنعه مانع أو لا و الأوّل محال لأنّه القاهر الغالب و القاهر لا يكون مقهوراً.

و علىٰ الثّاني فالمطلوب ثابت فنقول، لك المُلك تُعطي من تَشاء وتَمنع.

وَ تَنْزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَآءُ

أي و تخرج الملك مِمّن تَشاء وهذا فرعٌ على سابقه لأنّه اذا فَرضنا أنّ إعطاء المُلك بيده فإخراجه و إنزاعه عن موضِعه أيضاً بيده لأنّ الأوّل وضعٌ و الثّاني رفع، و الرّفع فرعٌ علىٰ الوضع فلو فرضنا أنّه تعالىٰ وضَع المُلك في موضعٍ ثمّ لم يقدر علىٰ رَفعه منه للزم فيه العجز والضّعف والواجب منزّه عنهما لكونه علىٰ كلّ شئ قدير.

وَ تُعِزُّ مَنْ تَشَآءُ وَ تُذِلُّ مَنْ تَشَآءُ

في هذا الكلام إشارة الى أنّ العزّة والذّلة بيده كما أنّ الكلام المتقدّم دلّ علىٰ أنّ الملك بيده، و أعلم أنّ العزّة حالة مانعة للإنسان من أن يغلب من قولهم أرضٌ عزاز أي صُلبة و الذِّلة تقابلها و لذلك يكون الذّليل مقهوراً مغلوباً و لذلك قالوا في تفسير الذّل، الذّل ما كان عن قهرٍ اذا علمت معنىٰ العِزّ والذّل فنقول العزّة بقولٍ مطلق لا تكون إلاّ لِلّه تعالىٰ و ذلك لأنّ الموجود على قسمين:

أحدهما: الموجود الّذي وجوده وصفاته منه بمعنىٰ أنّه ليس مَخلوقاً لغيره و لا محتاجاً في ذاته و صفاته و هو مُنحصر في الواجب تعالىٰ و حيث أنّ علمه

و قدرته كسائر صفاته شاملة كاملة فهو بكلّ شئ عليم و علىٰ كلّ شئ قدير اذ لو لم يكن كذلك للزم عليه الجهل والضّعف و هما من صفات المخلوق كما ثبت في محلّه فهو القادر على كلّ شئ و هو القاهر الغالب علىٰ جميع ما سواه فلا يكون مقهوراً مغلوباً أصلاً و اذا لم يكن مقهوراً فهو العزيز لا غير و الى هذا المعنىٰ أشار بقوله ولِلّه العزّة و لرسوله و للمؤمنين، فقوله و للّه العِزّة بتقديم الخبر علىٰ المبتدأ يدّل على حصر الصّفة علىٰ الموصوف أي أنّ العزّة منحصرة به و لأجل هذه الدّقيقة لم يقل العزّة لِلّه، ألا ترىٰ أنّ قولنا في الدّار زيد يفيد الحصر بخلاف زيد في الدّار فثبت أنّ العزّة منحصرة فيه تعالىٰ: **أَيَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلّٰهِ جَمِيعًا**[1]. و هو صريح في المدّعىٰ وهذا معنىٰ قولنا في صدر البحث أنّ العزّة بقولٍ مطلق لا تكون إلاّ له تعالىٰ.

ثانيهما: الموجود الّذي وجوده وصفاته من غيره و هو المخلوق الّذي قائم بالغير من جميع الجهات وكلّ مخلوقٍ مغلوبٌ و مقهور لخالقه وموجده كما هو شأن المعلول بالنّسبة الىٰ العلّة وجميع ما سوىٰ اللّه داخل تحت هذا الأصل فالجميع كائناً من كان مقهور له تعالىٰ و اذا كان كذلك فلا يتّصف المخلوق بالعزّة المطلقة لأنّ العزّة علىٰ ما مرّ حاله مانعة من أن يغلب أي أنّ العزيز الحقيقي لا يكون مقهوراً أبداً و هذه الحالة لا تحصل للمخلوق أصلاً اذ نفس المخلوقية لا ينّفك عن المَقْهورية دائماً فكيف يكون عَزيزاً بقولٍ مطلق فالمخلوق ذليل حقير قال ولقد نَصَركم اللّه ببَدرٍ وأنتم أذّلة الأية، و قال مخاطباً لرسوله:

قال اللّه تعالى: **وَ ٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ**[2].

قال اللّه تعالى: **سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَ ذِلَّةٌ**[3] وغيرها من الأيات.

١- النساء = ١٣٩
٢- الاسراء = ٢٤
٣- الاعراف = ١٥٢

و قال من كان يريد العزّة فَلِلّه العزّة جميعاً اذا عرفت معنىٰ العزّة والذّلة و علمت موضعهما فقد ظهر لك معنىٰ قوله و تعز من تشاء و تذّل من تشاء، أي أنّ الإعزاز والإذلال بيدك والمخلوق محتاج اليك لا يملك لنفسه شيئاً.

و في قوله **بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**

إشارة الىٰ أنّ كلّ ما يفعله اللّه تعالىٰ خير لأنّه علىٰ أساس المصلحة فقد تقتضي العِزّة و هي خير و قد تقتضي عَدمها فهو أيضاً خير فأنّ اللّه تعالىٰ خيرٌ محض ومن الخير المحض لا يوجد إلاّ خيراً والشّرور من أنَفسنا وفي قوله قدير اشارة الىٰ عموم قدرته و لذلك ذكره بعد قوله علىٰ كلّ شيْءٍ أي أنّ قدرته تعالىٰ تتّعلق بكلّ الأشياء و منها العزّة والذّلة.

تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَ تُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ

هذا الكلام بمنزلة الإستدلال علىٰ قوله: **إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** و ذلك لأنّه لمّا وصف نفسه بكونه قادراً على كلّ شيْ و هو أمرٌ يصعب فهمه و دركه بالنّسبة الى بعض العقول الضّعيفة ذكر موضعاً من مواضع أعماله القدرة و هو أنّه تعالىٰ تولج أي تُدخل اللّيل في النّهار و با لعكس و لا يقدر عليه أحد غيره فهو من أدلّ الدّليل علىٰ عموم قدرته و تقريره أنّ ولوج ليس بمعنىٰ الدّخول كيف إتّفق أوكيف كان بل هو بمعنى الدّخول في مضيقٍ و عليه فمعنى الآية أنّ اللّه تعالىٰ تدُخل اللّيل في النّهار وبالعكس في مَضِيقٍ ألا ترىٰ الى قوله تعالىٰ حيث قال: **حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِي سَمِّ ٱلْخِيَاطِ**(١).

و من المعلوم أنّ سَّم الخياط ضيقٌ فدخول الجَمل فيه صعب عسيرٌ بـل يقال غير مُمكن ثمّ أنّ المراد بإيلاج اللّيل في النّهار وبالعكس زيادة اللّيل في النّهار و زيادة النّهار في اللّيل و ذلك بحسب مطالع الشّمس و مغاربها و لذلك

١- الاعراف = ٤٠

يختلف اللّيل والنّهار طولاً و قصراً يحسب إختلاف الفصول و معلوم أنّ هذا الترتّيب الخّاص الّذي لا يتفاوت في القرون والأعصار لا يكون إلاّ من فاعلٍ قادرٍ حكيم مدبّرٍ وهكذا قوله: **وَ تُخْرِجُ اَلْحَىَّ مِنَ اَلْمَيّتِ وَ تُخْرِجُ اَلْمَيّتَ مِنَ اَلْحَيِّ**(١) فأنّ هذا أيضاً من عظيم قدرته ثمّ أنّهم اختلفوا في معنىٰ الأية، فقال الحسن معناه تخرج المؤمن من الكافر وتخرج الكافر من المؤمن و عليه فالمراد من الحيّ والميّت الحيّ والميّت بحب القلب و ذلك لأنّ حياة القلب بالإيمان و المعرفة و موته بالكفر والإلحاد، و قال بعضهم أنّ الحياة والمَوت في الأية حقيقّتان فقال عَكرمة هي إخراج الدّجاجة وهي حيّة من البيضة و هي ميتة، و إخراج البيضة وهي ميتة من الدّجاجة وهي حيّة، و قال إبن مسعود هي النطفّة تخرج من الرّجل و هي ميّتة و هو حيٌّ، و يخرج الرّجل منها حيّاً و هي ميتة، و قال السّدي هي الحبّة تخرج من السنبلة و السنبّلة تخرج من الحبّة و النّواة من النّخلة و النّخلة من النّواة، أقول كلّ ما ذكروه لابأس به ولكلٍّ وجهٌ وجيه و أنّما قالوا ذلك لأنّ الحياة تستعمل علىٰ وجوهٍ و قد ذكرناها فيما مضى والّذي لابدّ لنا من ذكره في المقام هو أنّ الحياة علىٰ قسمين إضافيّة، و حقيقّية فالإضافّية تعتبر بالموت الإضافي فأنّ الحياة والموت في الإضافية متقابلان بمعنى أنّه لكلّ حياةٍ موت ولكلّ موتٍ حياة كما في الأمثلة المذكورة الحقيّقية منها فهي عبارة عن الحياة الّتي لا موت لها ولا زوال و لا دثور و لا ضعف و لا فتور و هي مختصّة باللّه تعالىٰ فإذا قلنا أنّه حيٌّ معناه لا يصّح عَليه المـوت الحياة في سائر الموجودات فتنتهي بالأخرة الىٰ المَوت.

قال اللّه تعالىٰ: **كُلُّ مَنْ عَلَيْها فانٍ ،وَ يَبْقى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو اَلْجَلالِ وَ اَلْإِكْرامِ**(٢)

وَ تَرْزُقُ مَنْ تَشاءُ بِغَيْرِ حِسابٍ

١- آل عمران = ٢٧
٢- الرحمن = ٢٦/٢٧

الرزّق يقال للعطاء الجاري تارةً دنيويّاًكان أم أخرّوياً و للنصيب تارةً أخرىٰ، و أيضاً يقال لما يصل الىٰ الخوف ويُتّغذىٰ به.

قال اللّه تعالىٰ: **فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ**(١) أي بطعامٍ يُتغذّىٰ به.

قال اللّه تعالىٰ: **وَ تَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ**(٢) أي وتجعلون نصيبكم من النّعمة تحرّي الكِذب.

قال اللّه تعالىٰ **وَ أَنْفِقُوا مِمّا رَزَقْناكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ**(٣) أي من المال والجاه والعلم.

و كذلك قوله : **و مِمّا رَزَقْناكُمْ تُنفقون** والحاصل أنّ الرزّق يطلق علىٰ هذه المعاني وأمّا الرزّق في الآية الشّريفة الّتي نحن بصدد تفسيرها فالظّاهر أنّ المراد منه ما يتغذّى به و لو حمل على معناه العّام لا بأس به و امّا قوله: **بِغَيْرِ حِسابٍ** فقيل أي بغير تضيّيقٍ ولا تقتيرٍ كما تقول فلان يعطي بغير حساب أي كأنّه لا يحسب ما يعطي، و قيل أي بغير نقصانٍ لأنّه لا نهاية لما في مقدوره فما يوجد منه لا ينقصه و لا هو علىٰ حساب جزءٍ من كذا و كذا جزءً منه فهو بغير حساب التّجزية.

و قيل بغير حساب الإستحقاق لأنّه تَفضّلٌ منه أقول الوجوه كلها محتملة و الأخير أحسَن لأنّه أي من الرزّق منه تعالىٰ علىٰ أساس الجُود و هو يقتضي ذلك كما ثبت في محلّه.

■

١- الكهف = ١٩ ٢- الواقعة = ٨٢
٣- المنافقون = ١٠

لَا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَ مَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَىٰةً وَ يُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُ وَ إِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴿٢٨﴾

◁ اللّغة

إِلَّآ أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَىٰةً: و قرأ منهم تقّية و التّقية والتّقاة إسمان موضوعان موضع الإتّقاء وأصل التّقاة، وُقاة قلبت الواو تاءً فصارت، تُقاة، و هي من الوقاية بمعنىٰ حفظ الشيء ممّا يؤذيه و يضرّه يقال دقيتُ الشيء أقِيه و قاية و وقاءً.

يُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ: الحَذر إحترازٌ عن مخيفٍ يقال حَذِر حَذَراً وحَذِرتُه

ٱلْمَصِيرُ مَصدر يقال صار الىٰ كذا انتهىٰ اليه.

◁ الإعراب

لَا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ هو نهي وأجاز الكسائي فيه الرّفع علىٰ الخبر والمعنىٰ لا يبتغي مِن دُونِ في موضع نصب صفة لأولياء فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ فَمِنَ اللّه في موضع نصب علىٰ الحال لأنّه صفة للنّكرة قدّمت عليه إِلَّآ أَن تَتَّقُوا هذا رجوع من الغيبة الىٰ الخطاب وموضع، أن تتّقوا، نصب لأنّه مفعول من أجله.

◁ التّفسير

لَا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نهىٰ اللّه المؤمنين أن يتّخذوا الكفّار أولياء لأنفسهم من دون المؤمنين وَ مَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ قالوا أي ليس من حزب اللّه ولا من أولياءه في شيءٍ

إِلَّآ أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ أي من الكفّار **تُقَيٰةً** و تقّية أي إلاّ في مورد التّقية **وَ يُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُ** أي يخفوكم اللّه أو يحذّركم اللّه أيّاه **وَ إِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ** أي أنّكم تردون علىٰ اللّه يوم القيامة والمراد بالوُرود علىٰ الوُرود على جزاءه ففيه إشارة الىٰ البعث أيضاً وفي الآية مسائل.

الأوّلىٰ: نهى اللّه عزّ وجلّ المؤمنين أن يتّخذوا الكفّار أعواناً و أنصاراً و ظهوراً قيل و لذلك كسر، يتّخذ لأنّه في موضع جزم بالنّهي و لكنّه كسر الذّال منه للسّاكن الّذي تقيه و هي ساكنة قالوا و معنى ذلك لا تتّخِذوا أيّها المؤمنون الكفّار ظهراً و أنصاراً و ذلك لما نبّه اللّه تعالىٰ فيما مضىٰ المؤمنين الىٰ الإلتجاء اليه معترفين أنّ بيده الملك والعزّ و مجامع الخير و السّلطان المطلِق في تصريف الكون يعطي و يمنع من يشاء فإذا كانت العزّة والقوّة له فَمن الجهل و الغُرور أن يعتزّ بغيره تعالىٰ و أن يلتجأ الىٰ غير جنابه أو يذّل المؤمن في غير بابه و الأصل فيه هو أنّ العزّة للّه و لرسوله و للمؤمنين و أنّ الإسلام يعلو و لا يعلى عليه فالإلتجاء الى الكافر و الرّكون اليه يوجب الذّلة و الحقارة و المؤمن أعزّ شأناً و أجلّ قدراً من أن يكون كذلك والسرّ العقلي في المنع هو الإيمان بمعنى أنّ العزّة و الذّلة في المؤمن يرجعان الىٰ إيمانه و هو أمرٌ لا يرضىٰ اللّه به و لذلك قال لا يتّخذ المؤمنين الخ.

و لم يقل لا يتّخذ النّاس بل ولم يقل لا يتّخذ المسلمين أيضاً لأنّ المسلم قد لا يكون مؤمناً بقلبه فهو في القلب كافر وفي اللّسان مسلمٌ، والخضوع أمرٌ ينشأ من القلب و يظهر علىٰ الجوارح و هو الّذي يعبّر عنه بالذّلة و الحقارة و امّا إذا لم يكن القلب خاضعاً خاشعاً موالياً للكافر فلا إشكال فيه و أن أظهر الموالات بلسانه كما في صورة التّقية علىٰ ما يأتي بيانها و حاصل الكلام أنّ قلب المؤمن عرش الرّحمٰن و مظهر العافية وعناياته فهو مخصوصٌ به فيجب على المؤمن حِفظه من الأفات ثمّ أنّ المراد بالأية ليس النّهي عن المعاشرة و المعاملة و أمثال ذلك بل المراد به إتّخاذهم أولياءً أي أنصاراً و بعبارة أخرىٰ

نهى اللّه عن الرّكون اليهم والإستنصار بهم بحيث يوجب الذّلة علىٰ المؤمن لا مطلقاً بل ظاهر الآية يدّل علىٰ أن ترجيح الكافر علىٰ المؤمن منّهيٌ عنه لقوله تعالىٰ: **مِنْ دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ** و علىٰ أيّ حالٍ فالملاك في المنع هو ما ذكرناه أعني به الذّلة والحقارة.

الثّانية: إشار بقوله: **وَ مَنْ يَفْعَلْ ذٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللّٰهِ فِي شَيْءٍ**، أي و ليس من ولاية اللّه في شئ هكذا قال البيضاوي و غيره و قيل معناه إنقطاع صلة الإيمان بينه وبين اللّه أي فيكون من الكافرين.

قال اللّه تعالىٰ: **وَ مَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ**[1].

أو معناه فيكون عدّواً لِلّه، أقول والأصل فيه.

قال اللّه تعالىٰ: **اَللّٰهُ وَلِيُّ الَّذِينَ اٰمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمٰاتِ اِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا اَوْلِيٰاؤُهُمُ الطّٰاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ اِلَى الظُّلُمٰاتِ.**

و علىٰ هذا الأساس فَمن كان مُؤمناً حقّاً فاللّه تعالىٰ ولّيه و من كان كفراً فولّيه الطّاغوت فالمؤمن لا يتّخذ ولّياً غير اللّه تعالىٰ فمِن إتّخذ ولّياً غيره فهو ليس بمؤمنٍ حقّاً و مورد البحث من هذا القبيل فالحقّ أن يقال أنّه ليس بمؤمن واقعاً لأنّه كافر خارجٍ عن الإيمان بالكّلية و هو واضح.

الثّالثة: قوله تعالىٰ: **إِلاّٰ أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقٰيةً** قال بعض المفسّرين من العامّة إنّ هذا استثناء من أعمّ الأحوال أي أنّ ترك مولاة الكافرين على المؤمنين حتمٌ في كلّ حالٍ إلاّ في حال الخوف من شئ تتقونه منهم فلكم حينئذٍ أن توالوهم بقدر ما يتّقي به ذلك الشئ لأنّ دَرء المفاسد مقدّم علىٰ جلب المصالح و هذه المولاة تكون صوّرية لأنّها للمؤمنين لا عليهم قال و الظّاهر أنّ الإستثناء منقطع والمعنىٰ ليس لكم أن توالوهم علىٰ المؤمنين و لكن لكم أن تتّقوا ضررهم بموالاتهم و اذا جازت مُوالاتهم لإتّقاء الضّرر فجوازها لأجل منفعة المسلمين

١- المائدة= ٥١

يكون أولىٰ وعلىٰ هذا يجوز لحكّام المسلمين أن يحلفوا الدُوّل غير المسلمة لأجل فائدة المؤمنين بدفع الضّرر أو جلب المنفعة وليس لهم أن يُوالوهم في شئٍ يضرّ بالمسلمين و أن لم يكونوا من رعيتّهم و هذا الموالاة لا تختّص بوقت الضّعف بل هي جائزة في كلّ وقتٍ انتهىٰ[1]

أقول هذا البحث يرجع الىٰ معنىٰ الولاية في الآية الشّريفة و ذلك لأنّ اللّه تعالىٰ يقول:

لَا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَافِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِنْ دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ

و الظّاهر من معنىٰ الوّلي أن يكون أولىٰ بالتّصرف في أمور المُسلمين من أنفسهم بمعنىٰ أن يكونوا مطيعين لهم في جميع الأمور فهذا هو المذموم المنّهي عنه فالمعنىٰ لا تجعلوا الكافرين مسلّطين علىٰ أموالكم و أعراضكم و نفوسكم لأنّ الإسلام يَعلُوا و لا يُعلىٰ عليه فأن كانوا أي الكفّار مسلّطين عليكم قهراً فلا تطيعوهم حتّىٰ الإمكان فأن لم تقدروا علىٰ دفعهم و تخافون علىٰ أنفسكم أو أموالكم مخالفتهم في العَلَن فوافقوهم ظاهراً وخالفوهم باطناً وهذا هو التّقية المشار اليها في الآية لا إنّها من الوقاية وهي الحِفظ، أي حفظ النّفوس و الأموال و الأعراض قال اللّه تعالىٰ: **إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَ قَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْايمانِ**[2]

و أعلم أنّ هذه الآية هي الأصل في مَشروّعية التّقية مضافاً الىٰ السنّة المستفيضة و العقول السّليمة.

و حيث أنّ هذه المسألة أعني بها التّقية من المسائل الإختّلافية بين العامّة و الخاصّة و هي مع ذلك من أمّهات المسائل في الشّريعة المطّهرة بحيث ورد فيها من لا تقّية له لا دين له فلابدّ لنا من البَحث فيها علىٰ قدر الطّاقة و اقتضاء المقام فنقول، التّقية علىٰ ما مرّ في شرح اللّغات بمعنى الإتّقاء قال أهل اللّغة **التّقية** و **التّقاة** إسمان موضوعان موضع **الإتّقاء** و قال في المُنجد، **تقىٰ يَتّقي**

١- تفسير المنار ج ٣ص ٢٨٠.

٢- النحل = ١٠٦

تُقىً و تِقاءً و تقّيةً بمعنى إتّقىٰ و هي مأخوذة من الوَقـي و الوقـاية بـمعنىٰ الحفظ سميّت التّقية بها لأنّها توجب حـفظ النّـفس و المـال و العـرض فـي مواضع الخطرالشّيخ الأنصاري ﵀ والمراد هنا التّحفظ عن ضرر الغير بموافقته في قولٍ أو فعلٍ مخالفٍ للحقّ ثـمّ قـال ﵀ والكـلام تـارةً يـقع فـي حكـمها التكلّيفي و أخرىٰ في حكمها الوّضعي والكلام في الثّاني تارةً من جهة الآثار الوّضعية المترتّبة علىٰ الفعل المخالف للحقّ و أنّها تتّرتب علىٰ الصّادر تّقيةً كما تترتّب على الصّادر اختياراً، أم وقوعها تّقية يوجب دفع تلك الآثار وأخرىٰ في أنّ الفعل المخالف للحقّ هل يترتّب عليه آثار الحقّ بمجرّد الإذن فيها من قبل الشّارع أم لا و ساق الكلام الىٰ أن قال أمّا الكلام في حكمها التكلّيفي فهو أنّ التقّية تنقسم الىٰ الأحكام الخـمسة، الواجب، والمُستّحب، والمـباح، و المكروه، والحرام، ثمّ قال ﵇ فالواجب منها يـبيح كـلّ مـحظورٍ مـن فـعل الواجب و ترك المحرّم و الأصل في ذلك أدلّة نفي الضّرر و حديث رفع عن أمّتي تِسعة أشياء وعدّ منها ما إضطّره اليه مضافاً الىٰ عـمومات التّـقية مـثل قوله ﵇ في الخبر أنّ التّقية واسعة ليس شيءٌ من التّقية إلاّ و صاحبها مأجور و غير ذلك من الأخبار و جـميع هـذه الأدّلة حـاكـمة عـلى أدّلة الواجـبات و المحرّمات فلا يعارض بها شيئ منها حتّى يلتمس التّرجيح ويرجع الىٰ الأصول كما زعمه بعض في بعض موارد هذه المسألة ثمّ ذكر ﵀ أحكام التّقية مفصّلاً بما لا مزيد عليه و أنّما أعرضنا عن نقلها مخافة الإطالة وخروج الكتاب عن موضوعه و أن شئت الإطلاع على تحقيقاته الرّشيقة فعليك بمراجعة الرّسالة في آخر المتاجر و لنشر الىٰ بـعض الأخـبار الواردة فـي البـاب عـن الرّسـالة المذكورة و غيرها.

ما رواه عن الإحتجاج بسنده عن أمير المـؤمنين ﵇ فـي بـعض إحتجاجاته قال ﵇: وأمُرك أن تَستعمل التّقية في دينك فأنّ اللّـه عزّ وجلّ يـقول: لَا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَافِرِينَ أَوْلِـيَآءَ مِـنْ دُونِ

ٱلْمُؤْمِنِينَ ومن يفعل ذلك فَليس من اللّه في شئ إلاّ أن تَتّقوا منهم تقاة الآية و قد أذنت لك في تفضيل أعدائنا أن ألَجأك الخوف اليه و في إظهار البراءة أن حَمَلك الوَجل عليه وفي ترك الصلّوة المكتوبات ان خَشيت علىٰ حشاشة نفسك الآفات والآهات فأنّ تفضيلك أعدائنا عند خوفك لا يَنفعهم ولا يضُرّنا و أنّ إظهار برائتك عند القتل لا يقدح فينا و لا يَنقُصنا تَبَرؤّك منّا ساعة بلسانك و أنت موالٍ لنا بجنابك لتُبقىٰ علىٰ نفسك رُوحها الّتي قوامها و مالها الّذي به قيامها وجاهها الّذي به تمسكها وتصون بذلك من عرف من أوليائنا و إخواننا فأنّ ذلك أفضل من أن تتّعرض للهلاك و تنقطع به عن عملٍ في الدّين و صلاح إخوانك المؤمنين ثمّ أيّاك أن تترك التّقية الّتي أمَرتك بها فأنك شائط بدمك ودم إخوانك متعرض لنفسك و لنفسهم للزّوال فتذّلهم في يَدي أعداء الدّين و قد أمرك اللّه باعزازهم فأنّك أن خالفت وصيّتي كان ضررك علىٰ إخوانك و نفسك أشدّ من ضَرر النّاصب لنا الكافر بنا انتهىٰ.

ما رواه عن الصّادق عليه السلام في رواية أبي الصّباح قال ما صنعتم من شئ أو حلفتم.

عليه من يمينٍ في تقيّة فأنتم منه في سعة انتهىٰ.

و قال عليه السلام: ليس منّا من لم يجعل التّقية شعاره و دثاره مع من يأمنه لتكون سجيّته مع مَن يحذَرُه انتهىٰ.

و في حديث أبي الحَسَن الرّضا عليه السلام معاتباً لبعض أصحابه أنّكم تتّقون حيث لا تجب التّقية وتتركون التّقية حيث لابدّ من التّقية.

و قال الصّادق عليه السلام: التّقية ديني ودين آبائي، وقوله عليه السلام من لا تقّية له لا دين له.

و أمثال ذلك من الأحاديث كثيرة بل لو خالف التّقية في محلّ وجوبها فقد

أطلق بعض الأصحاب بطلان العَمَل إذاكان العمل عباديّاًكالسّجود على التربة الحسيّنية مع إقتضاء التّقية بتركه فأنّ السّجود يقع منّهياً عنه النّهي فيفسد و يفسد الصّلاة لأنّ النّهي في العبادات يوجب الفساد فيها وتفصيل الكلام في التقّية موكول الىٰ محلٍّ آخر ومحصّل الكلام فيها أنّها من الواجبات عندنا ولم يخالف فيه أحدٌ من الشّيعة.

و أمّا العامّة فالظّاهر عندهم عدم وجوبها بل بعضهم شنّع على الشّيعة في القول بوجوبها وعدّها من النّفاق ولا بأسٍ بالإشارة الىٰ بعض كلماتهم فيها فنقول قال القرطبي عند قوله تعالىٰ: **إِلَّآ أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقيٰةً** قال معاذ بن جبلٍ و مجاهد كانت التّقية في جدّة الإسلام قبل قوّة المسلمين فأمّا اليوم فقد أعزّ اللّه الإسلام أن يتّقوا من عَدَرهم و قال إبن عبّاس هو أن يتكلّم بلسانه و قلبه مطمّئن بالإيمان و لا يقتل ولا يأتي مأثماً، و قال الحسن التّقية جائزة للإنسان الى يوم القيامة و لا تقّية في القتل و قيل أنّ المؤمن إذاكان قائماً بين الكفّار فله أن يداريهم باللّسان اذاكان خائفاً على نفسه و قلبه مطمئن بالإيمان و التّقية لا تحّل إلاّ مع خوف القتل أو القلع أو الإيذاء العظيم و من أكره على الكفر فالصحيح له أن يتقلّب و لا يجيب الىٰ التّلفظ بكلمة الكفر بل يجوز له ذلك علىٰ ما يأتي بيانه في النّحل انشاء اللّه.

و أمّا الطّبري فقد خصّ التّقية بالكفّار و لم يجوّزها في حقّ المسلم من مسلم آخر قال في تفسير الآية **إِلَّآ أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقيٰةً** إلاّ أن تكونوا في سلطانهم فَتخافوهم على أنفسكم فتظهروا لهم الولاية بألسنتكم و تضمروا لهم العداوة و لا تشايعوهم علىٰ ما هم عليه من الكُفر و لا تعينوهم على مسلم بفعلٍ ثمّ نقل الأحاديث فيه فمنها ما رواه بسنده عن إبن عبّاس في الآية أنّه قالَ نهىٰ اللّه المؤمنين أن يلاطفوا الكفّار أو يتّخذوهم وليجة من دون المؤمنين إلاّ أن يكون الكفّار عليهم ظاهرين فيظهرون لهم اللّطف و يخالفوهم في الدّين و ذلك قوله إلاّ أنّ تتّقوا منهم تقاة إنتهىٰ.

ثمّ ذكر عدّ أحاديث بهذه المضامين الىٰ أن قال حدّثني محمّد بن سنان قال حدّثنا أبو بكر الحنفي قال حدّثنا عباد بن منصور عن الحسن في قوله: **إِلَّآ أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَيٰةً** قال صاحبه في الدّنيا معروف الرّحم و غيره فأمّا في الدّين فلا و هذا الّذي قاله قتادة تأويلٌ له وجه (أشار الىٰ قوله قتادة في الخبر المتّقدم حيث قال إلاّ أن تتّقوا منهم تقاة) الرّحم من المشركين من غير أن يتولّهم في دينهم إلاّ أن يصل له رحماً في المشركين إنتهىٰ قول قتادة).

قال الحَسن و هذا ليس بالوجه الّذي يدّل عليه ظاهر الآية إلاّ تتّقوا من الكافرين تقاة فالأغلب من معاني هذا الكلام إلاّ أن تخافوهم مخافة فالتّقية الّتي ذكرها في هذه الآية إنّما هي تقّية من الكفّار لا من غيرهم و وجهّه قتادة الى أنّ تأويله إلاّ أن تتقّوا اللّه من أجل القرابة الّتي بينكم و بينهم تقاة فتصلون رحمها و ليس ذلك الغالب على معنىٰ الكلام والتّأويل في القرآن علىٰ الأغلب الظّاهر من معروف كلام العرب المستعمل فيهم إنتهى ما أردنا نقله منه.

و به قال السّيوطي في الدّر المنشور والبيضاوي في تفسيره والزّمخشري في الكّشاف و غيرهم من مفّسري العّامة فانّهم حَملوا التّقية في الآية علىٰ تقيّة المسلم من الكافر، و قال الألوسي في تفسيره الّذي سمّاه برُوح المعاني قي قوله تعالىٰ: **إِلَّآ أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَيٰةً** وفي الآية دليل علىٰ مشرّوعية التّقية و عرّفوها بمحافظة النّفس أو العِرض أو المال من شّر الأعداء والعدّو قسمان.

الأوّل: من كانت عداوته مبنّية علىٰ إختلاف الدّين كالكافر والمُسلم والثّاني من كانت عداوته مبنّية علىٰ أغراض دنيويّة كالمال و المتاع و المُلك و الإمارة و من هنا صارت التّقية قسمين أمّا القسم الأوّل فالحكم الشّرعي فيه أنّ كلّ مؤمن وقع في كلّ محلٍ لا يمكن له أن يُظهر دينه لِتعّرض المخالفين وجب عليه الهجرة الى محّلٍ يقدر فيه علىٰإظهار دينه ولا يجوز له أصلاً أن يبقى هناك و يخفي دينه و يتشبّث بعذر الإستضعاف فأنّ أرض اللّه تعالىٰ واسعة نعم إن كان ممّن لهم عُذر شرّعي في ترك الهُجرة كالصّبيان و النّساء و العميان و المحبوسين الىٰ أن قال أو بنحو ذلك فأنّه يجوز له المكث مع المخالف و

الموافقة بقدر الضّرورة الىٰ أن قال في آخر كلامه فلو تلفت نفسه لذلك فأنّه شهيد قطعاً ثمّ قال و ممّا يدّل على أنّها رخصة ما روى عن الحسن أنّ مسيلمة الكّذاب أخذ رجلين من أصحاب رسول اللّه ﷺ فقال لأحدهما أتشهد انّ محمّداً رسول اللّه قال نعم قال أتشهد أنّي رسول اللّه قال نعم ثمّ دعىٰ بالآخر فقال له كذلك قال أنّي أصّم قالها ثلاثاً وفي كلّ يجيبه بأنّي أصّم فضرب عنقه فبلغ ذلك رسول اللّه ﷺ فقال أمّا هذا المقتول فقد مضى على صدقه و يقينه وأخذ بفضله فهنيئاً له و امّا الآخر فقد رخّصه اللّه تعالىٰ فلا تبعة عليه.

وأمّا القسم الثّاني: فقد إختلف العلماء في وجوبه و عدمه فقال بعضهم تجب لقوله تعالىٰ: **وَ لا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ**[1] وبدليل النّهي عن إضاعة المال و قال قوم لا تجب إذا الهجرة عن ذلك المقام مصلحة من المصالح الدّنيويّة ولا يعودمن تركها نقصان في الدّين لا تحّاد الملّة وعدّوه القّوي المؤمن لا يتعرّض له بِالسُّوء من حيث هو مؤمن و قال بعضهم أنّ الهجرة قد تجب أيضاً إذا خاف هلاك نفسه أو أقاربه الىٰ آخر ما قال ثمّ قال وعدّ قومٌ من باب التّقية مداراة الكّفار والفسقة والظّلمة والانّة الكلام لهم والتّبسم في وجوههم و الإنبساط معهم وإعطائهم لكّف أذاهم وقطع لسانهم و صيانة العرض منهم و لا يعدّ ذلك من باب المولاة المنهّي عنها بل هي سنّة و أمرٌ مشروع ثمّ ذكر الأخبار والآثار المرّوية بطُرقهم علىٰ أنّ المُداراة مع النّاس مستحسنة و نقل عن رسول اللّه ﷺ أنّه قال أنّ اللّه تعالىٰ أمرني بمداراة النّاس كما أمرني بإقامة الفرائض و هكذا.

و قال في آخر كلامه لكن لا تنبغي المُداراة الىٰ حيث يخدش الدّين و يرتكب المنكر و تسئ الظّنون إنتهىٰ كلامه في هذا المقام الّذي سمّاه بالتّحقيق بزعمه ثمّ قال بعد ذلك و وراء هذا التّحقيق قولان لفئتين متباينتين من النّاس و هم الخوارج و الشّيعة.

١- البقرة= ١٩٥

أمّا الخوارج فذهبوا الىٰ أنّه لا تجوز التّقية بحالٍ و لا يراعي المال وحفظ النّفس و العرض في مقابلة الدّين أصلاً و لهم تشديدات في هذا الباب عجيبة منها أنّ أحداً لو كان يصلّي وجاء سارق أو غاصب ليسرق أو يغصب ماله الخطير لا يقطع الصّلاة بل يحرم عليه قطعها وطعنوا علىٰ بريدة الأسلمي صحابي رسول اللّه ﷺ بسبب أنّه كان يُحافظ فرسه في صلاته كي لا يهرب و لا يخفى أنّ هذا المَذهب من التّفريط بمكانٍ إنتهىٰ كلامه في الخوارج.

وأنّا أقول كان هذا الرّجل لم يفهم معنىٰ التّقية وإلاّ فما ذكره في المقام من أنّه لا يجوز قطع الصّلاة لأجل حفظ المال فهو ليس من باب التّقية و إنّما هو بحث آخر لا ربط له بهذا المقام أصلاً ثمّ أنّ طعنهم علىٰ بريدة الأسلمي ليس لأجل أنّه راعىٰ التّقية بل الوجه فى أنّ المصّلي يجب أن يكون في مقام الحضور قلباً و إذا كان في حال صَلواته محافظاً لفرسه فقلبه مشغول بفرسه لا بربّه و أين هذا من التّقية فأن كان الخوارج قائلين بِعدم التّقية علىٰ قول الآلُوسي فلا محالة لهم دليل على إثبات مدّعاهم وكان علىٰ النّاقل أن يذكره فانّ ما ذكره لا يثبت المدّعىٰ و هو واضح ثمّ قال صاحب الكتاب و امّا الشّيعة فكلامهم مضطرب في هذا المقام فقال بعضهم أنّها جائزة في الأقوال كلّها عند الضّرورة و ربّما وجبت فيها لِضرب من اللّطف و الإستصلاح و لا تجوز في الأفعال كقتل المؤمن و لا فيما يعلم أو يغلب على الظّن أنّه إفساد في الدّين و قال المفيد أنّها أحياناً و قد يكون فعلها في وقتٍ أفضل من تركها و قد يكون تركها أفضل من فعلها و قال أبو جعفر الطّوسي أنّ ظاهر الرّوايات يدّل علىٰ أنّها واجبة عند الخوف علىٰ النّفس و قال غيره أنّها واجبة عند الخَوف علىٰ المال أيضاً و مستحبّة لِصيانة العرض حتّىٰ يسّن لمن إجتمع مع أهل السّنة أن يوافقه في صلواتهم و صيامهم و سائر ما يدينون به و رووا عن بعض أئمة أهل البيت من صلّىٰ وراء سنّي تقّيتةً فكأنّما صلّىٰ وراء النّبي (نبيّ) وفي وجوب قضاء تلك الصّلاة عندهم خلاف وكذا في وجوب قضاء الصّوم علىٰ من أفطر تقّيتةً

حيث لا يحلّ الإفطار قولان أيضاً وفي أفضلّية التّقية من سنّي واحد صيانةً لمذهب الشّيعة عن الطّعن خلاف أيضاً و أفتى كثير منهم بالأفضّلية و منهم من ذهب الى جواز بل وجوب إظهار الكفر لأدنى مخافة او طمع و لا يخفي أنّه من الإفراط بمكانٍ و حملوا أكثر أفعال الأئمّة ممّا يوافق مذهب أهل السّنة و يقوم به الدّليل علىٰ ردّ مذهب الشّيعة على التّقية و جعلوا هذا أصلاً أصيلاً عندهم و أسّسوا عليه دينهم و هو الشّائع الأن فيما بينهم حتّىٰ نسبُوا ذلك للأنبياء عليهم السّلام وجلّ غرضهم من ذلك إبطال خلافة الخلفاء الرّاشدين و يأبىٰ اللّه تعالىٰ ذلك ثمّ قال:.

ففي كتبهم ما يبطل كون أمير المؤمنين علّي وبَنيه رضي اللّه عنهم ذوي تقّية بل ويبطل أيضاً فضلها الّذي زعموه ففي كتاب نهج البلاغة الّذي هو أصحّ الكتب بعد كتاب اللّه تعالىٰ في زعمهم أنّ الأمير كرّم اللّه وجهه قال علامة الإيمان إيثارك الصّدق حيث يضّرك علىٰ الكذب حيث ينفعك و أين هذا من تفسيرهم قوله تعالىٰ: **إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اَللّٰهِ أَتْقٰيكُمْ** بأكثركم تقّيةً وفيه أيضاً أنّه قال أنّي واللّه لو لقيتهم واحداً وهُم طلاع الأرض كلّها ما باليتُ ولا إستوحشت و أنّي من ضلالتهم التّي هم فيها والهدىٰ الّذي أنا عليه لعلىٰ بصيرةٍ من نفسي و يقين من ربّي والى لقاء اللّه تعالىٰ و حسن ثوابه لمنتظرٌ راج، و في هذا دلالة على أنّ الأمير لم يخف و هو منفرد من حرب الأعداء و هم جموع و مثله لا يتّصور أن يأتي فيما فيه هدم الدّين قال.

و روي العيّاشي عن زرارة بن أعين عن أبي بكر بن حزم أنّه قال توّضأ رجل و مسح علىٰ خفّيه فدخل المسجد فجاء علّيٌ فوجاء علىٰ رقبته فقال ويلك تصّلي وأنت علىٰ غير وضوء فقال أمرني عمر فأخذ بيده فإنتهىٰ اليه ثمّ قال أنظر ما يقول هذا عنك ورفع صوته علىٰ عُمر فقال عُمر أنا أمرته بذلك فأنظر كيف رفع الصّوت وأنكر ولم يتق، ثمّ روىٰ عن الرّاوندي شارح نهج البلاغة عن سلمان الفارسي رواية أخرىٰ وهكذا ذكر روايات أخر وأطال الكلام في الباب

و إفترى على الشّيعة في جميع ما ذكره و نقله عنهم و ليس هذا أوّل قارورةٍ كسرت في الإسلام بعد رسول اللّه ﷺ بل في حياته فأنّهم كانوا يفترون على النّبي في حياته كما هو مذكور في التّواريخ والسّير ثمّ أنّهم إفتروا عليه ﷺ بعد موته وقبل دفنه بأنّه قال نحن معاشر الأنبياء لا نورث ما تركناه صدقة فكأنّ أساس الإسلام على الإفتراء والتّهمة والكذب والخيانة والظّلم و امثال هـذه الأمور و لذلك ترى كتب العامّة مملوّةٌ من الأكاذيب والأراجيف التّي لا يقول بها عاقل فضلاً عن مؤمنٍ أنظر الى ما نقله ابن حزم الأندلسي ونسبه الى الشّيعة وما نقله ابن تمّيته في كتبه وهلّم جرّا الى أن وصلت النّوبة الى الألوسي وبعده الىٰ الّذين خرجوا من جامع الأزهر بمصر وهـذا كـلّه مـن أدَلّ الدّليـل عـلى مظلّومية الشّيعة من أوّل الأمر ولا دليل أقوىٰ منه على مشرّوعية التّقية عندهم كما يأتي في أخر البحث وأنّما نقلنا كلام الألوسي بألفاظه وعباراته الخارجة عن قانون الأدب لئّلا تتّوهم أنّ ما نقول وننقل عنهم مثل ما يقولون وينقلون عن الشّيعة بغير درايةٍ ومأخذٍ صحيح فنقول:

قوله و امّا الشّيعة فكلامهم مضطرب في هذا المقام، فنقول في جوابه ليس في كلام الشّيعة إضطراباً أصلاً فأنّهم يقولون بوجوب التّقية في موردها قولاً و فعلاً و قد بيّنا في صدر البحث معناها وموارادها ووجوبها وإجماع الشّيعة على وجوبها في محلّها ولم يخالف فيه أحدٌ منهم وقوله ومنهم من ذهب الىٰ جواز بل وجوب إظهار الكفر لأدنىٰ مخافة أو طمعٍ ولا يخفىٰ أنّه من الإفراط بمكان فهو تهمة علىٰ الشّيعة وكان على النّاقل أن يسمّى المفتي بذلك وكيف يفتي بذلك من أمن باللّه واليوم الأخر ثمّ كيف يعقل وجوب إظهار الكـفر لأدنـىٰ مخافةٍ أو طمع فهذا كلام تضحك به الثّكلىٰ (وقوله حتّىٰ نسبوا ذلك الىٰ الأنبياء) فهو تهمة ثانية فأنّ الشّيعة إتّفقت علىٰ عدم جواز التّقية في النّبي لكن جهل الرّجل بعقائد الشّيعة دعاه الى الكذب والإفتراء وقوله (وجلّ غرضهم من ذلك إبطال خلافة الخلفاء الرّاشـدين ويأبـى اللّـه تـعالىٰ ذلك) مـن أردء

الأقوال وأبطلها لأنّ خلافة الخلفاء من حيث الصّحة وعدمها لا ربط لها بالتّقية نعم أن كان غرضه من هذا الكلام أنّ غصب الخلافة في صدر الإسلام و إستمراره الىٰ زماننا هذا أوجب التّقية على الشّيعة فقولهم بوجوب التّقية يدّل بدلالة الإلتّزامية على بطلان خلافتهم فهو كلام متين لأنّ الخلافة لو كانت بعد الرّسول في محلّها الّذي عيَّنه اللّه تعالىٰ وبلَّغه الرّسول الينا في غدير خم وغيره من الموارد و بعبارةٍ أخرىٰ لو كان علّي وأولاده عليهم السّلام حاكمين علىٰ النّاس في ظاهر الأمر لم يحتج أحدٌ في الدّنيا الىٰ التّقية لا الشّيعة ولا غيرها لأنّ مورد التّقية الخوف و هو يتَّحقق في حكومة الظّالم و امّا اذا كان الحاكم عادلاً واقعاً فلا معنىٰ للتّقية و هو ظاهر و امّا قوله ويأبىٰ اللّه ذلك، فهو طريف جدّاً ومن أظلم ممّن إفترىٰ علىٰ اللّه كذباً، فأن كان اللّه يأبىٰ ذلك فلم قال لرسوله **يَآ أَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ** علىٰ ما سيجئ البحث فيها فكأنّ قوله هذا ممّا زلّ به القلم لأنّه أراد أن يكتب في كتابه وتأبىٰ أصحاب السّقيفة وأتباعهم الىٰ يوم القيامة ذلك أي إبطال الخلافة، فزلّ قلمه وكتب ما كتب ونسب الىٰ اللّه ما نسب نعوذ باللّه من هذه الجرءة ولعلّه زعم أن كلّ ما يفعله الإنسان بسوء سريرته وشهوات نفسه فهو ممّا شاء اللّه ويأبىٰ اللّه غيره و ليس كذلك بل ليهلك من هلك عن بيّنة ويحيىٰ من حيّ عنها وسيعلم الّذين ظلموا أيّ منقلبٍ ينقلبون، و امّا نقله عن نهج البلاغة عن أمير المؤمنين عليه السلام أنّه قال علامة الايمان إيثارك الصِّدق حيث يضّرك على الكذب حيث ينفعك و أين هذا من تفسيرهم قوله تعالىٰ: **إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ ٱللّٰهِ أَتْقَيٰكُمْ** بأكثركم تقيّةً.

فنقول ما نقله عن النّهج ناقص كمّاً وكيّفاً والموجود فيه هكذا.

قال امير المؤمنين عليه السلام:

الإيمَانُ أنْ تُؤثِرَ الصِّدْقَ حَيْثُ يَضُرُّكَ عَلىٰ الْكَذِبِ حَيْثَ يَنْفَعُك وَأنْ لا يَكُونَ فِي حَدِيثِكَ فَضْلٌ عَنْ عَمَلِكَ وأنْ تَتَّقِيَ اللّهَ فِي حَدِيثِ غَيْرِكَ [1].

١- كلمات القِصار ٤٥٨.

و هذا ممّا لا ربط له بالتّقية و ذلك لأنّ معنى الكلام هو أنّ الإيمان أن تؤثر أي تختار الصّدق حيث يضّرك على الكذب حيث ينفعك في أُمور الدّنيوية مثلاً اذا كان البائع بصدد بيع المبيع و قال للمشتري إشتريته بمائة وأبيعك بمائة و خمسين وفرضنا أنّه إشتراه بثمانين أو أقلّ ففي هذه الصّورة آثر الكذب على الصّدق لأجل المنفعة و هو خارج عن الإيمان لأنّ المؤمن لا يكذب لأجل النّفع الدّنيوي بل وخليفة المؤمن إيثار الصّدق على الكذب وأن كان نفعه أقلّ لأنّه ليس مناط الصّدق في المعاملات النّفع دائماً بل قد يكون الصّدق موجباً للضّرر المالي والكذب باعثاً على النّفع و لذلك ترى النّاس يكذبون غالباً ولا سيّما في المعاملات فكلامه عليه‌السلام إشارة الىٰ أنّ المؤمن ينبغي أن لا يكون كذلك بأن يختار الكذب وآثره على الصّدق لأجل الحطام الدّنيوية بل المؤمن يؤثر الصّدق على الكذب و أن كان في صدقه ضررٌ في دنياه وأين هذا من التّقية.

ثانياً: أنّ القائل بالتّقية لا يكذب في قوله أو عمله لأنّه في قلبه منكرٌ لما يقول بلسانه خوفاً.

ثالثاً: أي نفعٍ من هذا الكذب اللّساني لقائله والحاصل أنّ ما ذكره عليه‌السلام من علائم لا ربط له بمورد التّقية و لذلك قال عليه‌السلام وإلاّ يكون في حدثك فضلٌ عن عملك، أي لا تقول أزيد ممّا تفعل، وأن تتّقي اللّه في حديث غيرك، أي إتّق اللّه في الرّواية عنه.

و أمّا قوله فأين هذا من تفسيرهم قوله تعالىٰ: **إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَيٰكُمْ** بأكثر تقيّةً، فنسأل الألوسي ونقول من الّذي فسّر كلام اللّه هكذا من الشّيعة فأن كنت صادقاً في قولك فلم لا تسّميهم أليس لهذا المفسر إسم ولا رسم فهذه تفاسير الشّيعة موجودة عند العامّة والخاصّة فأين هذا التّفسير ومن هذا المفّسر فأنّك لو تفّحصت جميع تفاسير الشّيعة لا تجد واحداً منهم فسّر قوله: **إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَيٰكُمْ** بأكثركم تقيّةً، أمّا أوّلاً فلأنّ الآية ولا سيّما صدرها تنادي بأعلىٰ صوتها أنّ المراد بقوله أتّقاكم، التّقوىٰ لا التّقية.

قال اللّه تعالىٰ: **إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَ أُنْثَىٰ وَ جَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَيٰكُمْ**(١).

و هو أوضح من أن يخفىٰ على الألوسي فضلاً عن علماء الشّيعة.

وأمّا نقله عن نهج البلاغة ثانياً بقوله عليه‌السلام:

أنّي واللّهِ لوْ لَقِيتُهُمْ واحِداً وهُمْ طِلاَعُ الأَرْضِ كُلّها ما بَالَيْتُ ولا إسْتَوْحَشْت.

ليس مراده عليه‌السلام ما فهمه الألوسي من كلامه حيث قال وفي هذا دلالة علىٰ أنّ أمير المؤمنين عليه‌السلام لم يخف و هو منفرد من حرب الأعداء وهم جموع، و ذلك لأنّ كلام الآلوسي مشعر بأنّ المقصود من هذا الكلام هو أنّه عليه‌السلام كان لا يبالي من حرب الأعداء وهم جموع ومن كان كذلك فكيف تتّقي، بل معنىٰ كلامه عليه‌السلام أنّه كان على الحقّ ومن كان على الحقّ لا يستوحش وأن كان منفرداً فهو كقوله عليه‌السلام في موضع آخر حيث قال:

لاَ تَسْتَوْحِشُوا فِى طَرِيقِ الْهُدَىٰ لِقِلَّةِ أَهْلِهِ فَإِنَّ النَّاسَ قَدِ اجْتَمَعُوا عَلَىٰ مَائِدَةٍ شِبَعُهَا قَصِيرٌ وُجُوعُهَا طَوِيلٌ ألخ.

و أين هذا من قوله لم يخف و هو منفرد من حرب الأعداء وأين حرب الأعداء في كلامه ومن أين إستخرجه الآلوسي وليس في كلامه عليه‌السلام منه عين ولا أثر والدّليل علىٰ ما قلناه واضح ومع ذلك ننقل كلامه عليه‌السلام ثمّ نقول فأقض ما أنت قاضٍ.

و من كتاب له عليه‌السلام الىٰ أهل مصر مع مالك الأشتر لمّا ولاّه إمارتها (٦٢).

أمَّا بَعْدُ فإنَّ اللّهَ سُبْحانَهُ بَعَثَ مُحَمَّداً صلىٰ اللّهُ عَليْهِ وآلِهِ نَذِيراً لِلْعالَمينَ ومُهَيْمِناً علىٰ المُرسَلينَ فَلمَّا مَضَىٰ عَلَيْهِ السَّلاَمُ نَازَعَ المُسْلِمُونَ الأَمْرَ منْ بَعْدِهِ فَوَاللّهِ ما كانَ يُلْقَي في رُوعي ولا يَخْطُرُ بِبَالي أَنَّ العَرَبَ تُزْعِجُ هٰذَا الأَمْرَ منْ

١- الحجرات = ١٣

بَعْدِهِ صلىٰ اللّهُ عَلَيْهَ وآلِهِ عنْ أهْلِ بَيْتِه ولا أنّهُمْ مُنَحُّوهُ عَني مِنْ بَعْدِهِ فَما رَاعني إلّا إنْثِيَالُ النَّاسِ علىٰ فُلاَنٍ يُبايِعُونَهُ فأمْسكْتُ يَدِي حتّىٰ رَأيْتُ رَاجِعةَ النَّاسِ قدْ رَجَعَتْ عَنِ الإسْلاَمَ يَدْعُونَ إلىٰ مَحْقِ دِينِ مُحَمَّدٍ صلىٰ اللّٰهُ علْيهِ وآلِهِ فخَشِيتُ أنْ لم أنصر الإسلاَمِ وأهْلَهُ أنْ أرَىٰ فِيهِ ثَلْماً أوْ هَدْماً تُكونُ المُصيبَةُ بهِ عَلَّيَ أعْظَمَ منْ فَوْتِ وِلاَيَتِكُم الّتي أنّما هِي مَتَاعُ أيَّامٍ قَلاَئِلَ ... الىٰ أن قال عليه السلام: أنّي واللّهِ لوْ لَقِيتُهُمْ واحِداً وهُمْ طِلاَعُ الأَرْضِ كُلّها ما بَالَيْتُ ولا إسْتَوْحَشْت الىٰ قوله عليه السلام: أنِّي واللّهِ لوْ لَقِيتُهُمْ واحِداً وهُمْ طِلاَعُ الأَرْضِ كُلّها ما بَالَيْتُ ولا إسْتَوْحَشْت ... لَمُنْتَظِرٌ رَاجٍ ولكِنّني آسَي أنْ يلي أمْرَ هَذِهِ الأُمَّةِ سُفَهاؤُها وفُجّارُها فَيَتَّخِذُوا مالَ اللّهِ دُوَلاً وعِبَادَهُ خَوَلاً والصَّالحِينَ حَرْباً والفَاسِقينَ حِزباً الىٰ أخر كلامه عليه السلام...

و أنت اذا تأمّلت فيه لا تشّك أنّ هذا الكلام بمعزلٍ عمّا قاله الألوسي ولعلّه فهم من قوله طلاع الأرض الجموع الذّي في كلامه ولم يعلم أنّ معنىٰ طلاع الأرض أي ملأ الأرض وفيه إشارة الىٰ سرٍ خفّيٍ وهي أنّه لو كانت الأرض مملّوة من أشباه الرّجال وسلكوا مسلكاً باطلاً وكنت أنا وحيداً فريداً علىٰ طريق الحقّ ما باليت ولا إستوحشت من الوحدة والغربة لأنّ اللّه تعالىٰ معي و هو يكفيني في الدّنيا والأخرة وفي هذا الكلام دليل علىٰ تصلّبه عليه السلام علىٰ الحقّ وعدم وحشته من إنفراده وغربته من النّاس وليس كلامه ناظراً الىٰ الحرب والتّقية وأمثالهما أصلاً و قد فصّلنا البحث في شرح هذا الكلام و غيره في شرحنا الكبير علىٰ نهج البلاغة بما لا مزيد عليه فمن أراد الإطّلاع علىٰ حقائقه فعليه بالرّجوع اليه.

■

قُلْ إِنْ تُخْفُوا مٰا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ ٱللّٰهُ وَ يَعْلَمُ مٰا فِي ٱلسَّمٰوٰاتِ وَ مٰا فِي ٱلْأَرْضِ وَ ٱللّٰهُ عَلىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مٰا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَ مٰا عَمِلَتْ مِنْ سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهٰا وَ بَيْنَهُۥٓ أَمَدًا بَعِيدًا وَ يُحَذِّرُكُمُ ٱللّٰهُ نَفْسَهُ وَ ٱللّٰهُ رَؤُفٌ بِالْعِبٰادِ﴿٣٠﴾

◁ اللّغة

تُخْفُوا: بضمّ التّاء مضارع من أخفىٰ يُخفى والأصل تخفيون وهكذا الكلام في.

تُبْدُوهُ: من أبدَىٰ يُبدى أي أظهر و هو ضدّ الإخفاء.

صُدُورِكُمْ: الصّدور جمع صدر و هو الجارحة ثمّ أستعير المقدّم الشّئ.

◁ الإعراب

وَ يَعْلَمُ مٰا فِي ٱلسَّمٰوٰاتِ الخ.. هو مستأنف وليس من جواب الشّرط لأنّه تعالى يعلم ما فيها على الإطلاق.

◁ التّفسير

الخطاب للنّبي صلى الله عليه وآله أي قل يا محمّد لهؤلاء الكفّار أو المنافقين أو جميع النّاس.

إِنْ تُخْفُوا مٰا فِي صُدُورِكُمْ

أي ما في قلوبكم بأن لا تظهروه، **أَوْ تُبْدُوهُ** أي تظهروا وتعلنوه، **يَعْلَمْهُ ٱللّٰهُ** لأنّه تعالىٰ عالم بالسِّر والعلن **وَ يَعْلَمُ مٰا فِي ٱلسَّمٰوٰاتِ وَ مٰا فِي ٱلْأَرْضِ** أي

أنّه لا يخفىٰ عليه شئ ممّا هو في عالم الوجود فضلاً عمّا في صدوركم وفي هذا الكلام إشارة بسعة علمه تعالىٰ وأنّه عالم بكلّ الأشياء، والدّليل عليه من العقل هو أنّه تعالىٰ عالم بذاته والعلم بالذّات يستلزم العلم بما سواه لأنّ الذّات علّة له والعلم بالعّلة يستلزم العلم بالمعلول كاملاً فهو عالم بما سواه و هو المطلوب.

ثانياً: لو لم يكن عالماً بشئ من الأشياء لكان جاهلاً به لا محالة لعدم الواسطة بين العلم والجهل والجهل نقص و كلّ ناقصٍ ممكن الوجود لكونه محتاجاً الىٰ غيره في رفع نقصه فيلزم أن يكون اللّه تعالىٰ ممكن الوجود و قد فرضناه واجباً هف و امّا قوله واللّه علىٰ كلّ شئ قدير، فهو إشارة الىٰ عموم قدرته بل نصٌّ عليه، و قد مرّ البحث فيه غير مرّةٍ وقلنا أنّ الواجب صرف النّور ومحض الوجود فهو حيٌّ و قد عرّفوا الحيّ بالدّراك الفّعال فالدّرك إشارة الىٰ العلم والفعال إشارة الىٰ القدرة فكلّ حيّ عالمٌ قادرٌ وأن شئت قلت هو تعالىٰ نورٌ محض ووجود بحت والنّور ظاهر بالّذات مظهراً للغير وكونه مظهراً للغير يعبّر عنه بالفيّاضة وهي القدرة وحيث أنّ هذا النّور عين المشّية والشّعور فهو عين العلم والعلم عينه فالنّور أو الوجود يدّل علىٰ العلم والقدرة و هو المطلوب والقدرة عند اللمتّكلمين عرّفت بصّحة الفعل وتركه، وهذا التّعريف لها باطل لأنّ الصّحة هي الإمكان والواجب، بالّذات واجبٌ من جميع الجهات فالحقّ أنّ القدرة كون الفاعل بحيث أن شاء فعل و أن لم يشألم يفعل والىٰ هذا المعنىٰ أشار السبّزواري في المنظومة حيث قال:

وكونه نُوراً علىٰ القُدرة دلّ — لا يلزمنّها حدُوث ما إنفَعل

يُعطي عُمومها عُموم الجَعِل — ونفىٰ إعطاء القَوة للفِعل

الىٰ أن قال في غُرر الحياة:

أنّ بيان كون صَرف النّور حَيّ — بعد بيان العلم والقُدرة طيّ

يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مٰا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَ مٰا عَمِلَتْ مِنْ سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهٰا وَ بَيْنَهُۥٓ أَمَدًا بَعِيدً

المراد باليوم هو يوم القيامة والمعنىٰ أن في ذلك اليوم تجد كلّ نفسٍ ما عملت، في دار الدّنيا من خيرٍ و ما عملت فيها من سوءٍ وقبيحٍ إلاّ أنّها لما وجدت سوء عملها في الأخرة، توّد، أي تحبّ لو أنّ بينها أي بين النّفس وبينه، أي وبين العمل أمداً أي أجلاً بعيداً كما بين المشرق والمغرب والحاصل أنّ النّفس اذا رأت يوم القيامة أعمالها السّيئة إستحيت منها و ندمت علىٰ ما فعلت **وَ يُحَذِّرُكُمُ ٱللّٰهُ نَفْسَهُۥ وَ ٱللّٰهُ رَؤُفُۢ بِالْعِبٰادِ** أي و يحذّركم اللّه إيّاه قاله الزّجاج و عليه فوضع نفسه مكان، إيّاه، ومعناه و يحذّركم اللّه عقابه علىٰ أعمالكم القبيحة وقوله **وَ ٱللّٰهُ رَؤُفُۢ بِالْعِبٰادِ** أي رحيم بهم ومن تمام رأفته أن حظرهم عقابه علىٰ معاصيه قال أمير المؤمنين عليه السلام لا يرّجون أحدٌ منكم إلاّ ربّه ولا يخافنّ إلاّ ذنبه الخ.

■

قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَاتَّبِعُونى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَ ٱللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٣١﴾ قُلْ أَطِيعُوا ٱللَّهَ وَ ٱلرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَافِرِينَ ﴿٣٢﴾

◁ اللّغة

فَإِنْ تَوَلَّوْا: أي فأن أعرضوا وباقي اللّغات واضح.

◁ الإعراب

فَإِنْ تَوَلَّوْا يجوز أن يكون خطاباً فتكون التّاء محذوفة أي فأن تتّولوا و يجوز أن يكون للغيبة فيكون لفظه لفظ الماضي.

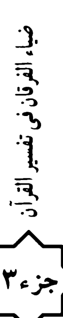
◁ التّفسير

قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَاتَّبِعُونى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ

الخطاب للنّبي صلّى الله عليه وآله أي قل يا محمّد لهم أن كنتم تحبّون اللّه، حقّاً وصدقاً **فَاتَّبِعُونى** أي أطيعوا أمري **يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ** حتّىٰ يحببكم اللّه **وَ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ** أي ويغفر اللّه لكم ذنوبكم **وَ ٱللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ** يغفر الذّنوب ويرحم العباد.

قُلْ أي وقل لهم **أَطِيعُوا ٱللَّهَ** في أوامره ونواهيه والرّسول، أي وأطيعوا الرّسول أيضاً لأنّ إطاعته إطاعة اللّه ومعصيته معصيته **فَإِنْ تَوَلَّوْا** وأعَرضوا عن ذلك **فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَافِرِينَ**

أي لا يرضىٰ فعلهم ولا يغفر لهم، إعلم أنّ الحبّ و ضدّه الكراهية لمّا كانا تابعين للإدراك فينقسمان بحسب القوّة المدركة التّي هي الحوّاس الظّاهرة،



والحوّاس الباطنة، والقوّة العاملة، فمن الحبّ ممّا هو مدركٌ وملّذٌ عندها كالصُّور الجميلة المرئية والنّغمات الموزونة والرّوائح الطّيبة و المطاعم النّفسية والملبوسات بالنّظر الى الخمس الظّاهرة.

و منه ما يتّعلق بالحوّاس الباطنة بمعنىٰ أنّ المحبوب ممّا هو مدركٌ وملّذٌ عندها و ذلك كالصُّور الملائمة الخيّالية والمعاني الجزئية الملائمة بالنّسبة الىٰ المتّخيلة والواهمة.

و منه ما يتّعلق بالعاملة بمعنىٰ أنّ المحبوب ممّا هو مدركٌ وملّذٌ عندها كالمعاني الكلّية والذّوات المجّردة ولا ريب في أنّ العقل من الحبّ واللّذات أقوىٰ اللّذات وأبلغها اذ البصيرة الباطنة أقوىٰ من البصيرة الظّاهرة والعقل أقوىٰ إدراكاً وأشّد غوصاً ونفوذاً في حقائق الأشياء وبواطنها من الحسّ وجمال المعاني المدركة بالعقل أعظم من جمال الصّور الظّاهرة الحسنة فتكون لذّة العقل وحبّه بما يدركه من الأُمور الشّريفة الإلهّية التّي جلّت عن إدراك الحوّاس أتمّ وأبلغ ولذا جعل رسول اللّه صلى الله عليه وآله الصّلاة أبلغ المحبوبات عنده في الدّنيا حيث قال حبّب الّي من دنياكم ثلاث الطّيب والنّساء وقرّة عيني فى الصّلاة، و ذلك لأنّ الإلتذاذ بالصّلاة عقلّية كما أنّ الإلتذاذ بالطّيب شمّية، وبالنّساء نظّرية ولمسّية.

اذا عرفت هذا فأعلم أنّ أسباب الحبّ ومبادئها لمّا كانت متّعددة مختلفة فينقسم الحبّ لأجلها علىٰ أقسام:

الأوّل: حبّ الإنسان وجود نفسه و بقاءه وكماله و هو أشّد أقسام الحبّ وأقواها لأنّ المحبّة أنّما تكون بقدر الملائمة والمعرفة ولا شئ أشّد ملائمةً لأحدٍ من نفسه ولا هو بشئ أقوىٰ معرفةً منه بنفسه ولهذا جعلت نفسه مفتاحاً لمعرفة ربّه وكيف لا يكون حبّ الشّئ لذاته أقوىٰ المراتب مع أنّ الحبّ كلّما صار أشّد جعل الإتّحاد بين المحبّ والمحبوب أكد وأبلغ وأيّ إتّحادٍ أشّد من الوحدة ورفع الأثنينية بالمّرة كما بين الشّئ و نفسه فالمحبّ والمحبوب واحد

و سبب الحبّ غريزة في الطّباع بحكم سنّة اللّه ولن تجد لسنّة اللّه تبديلاً و معنىٰ حبّه لنفسه كونه محبّاً لدوام وجوده و مكرهاً لعدمه و هلاكه فالبقاء و دوام الوجود محبوب والعدم ممقوت وكما أنّ دوام الوجود محبوب فكذلك كمال الوجود محبوب لأنّ فقد الكمال نقص والنّقص عدم بالإضافة الىٰ القدر المفقود فالوجود محبوب في أصل الذّات و بقاءه و في صفات كماله والعدم ممقوت فيها جميعاً والتّحقيق أنّ المحبوب ليس إلاّ الوجود والمبغوض ليس إلاّ العدم و جميع الصّفات الكمالّية راجعة الىٰ الوجود و جميع النّقائص الىٰ العدم.

الثّاني: حبّه لغيره لأجل إلتذاذه منه لذّة حيّوانية كحبّ كلٍّ من الرّجل والمرأة للأخر لأجل الجماع، و حبّ الإنسان للمأكولات و الملبوسات و المشروبات و أمثالها والجامع في هذا القسم هو اللّذة وهي سريعة الحصول و سريعة الزّوال و أضعف المراتب لحساسة سببه و سرعة زواله وتشّبه الإنسان بالحيوان من هذه الجهة.

الثّالث: حبّه للغير أيضاً لأجل الغرائز الحيّوانية بل لأجل نفعه وإحسانه فأنّ الإنسان عبيد الإحسان و قد جبّلت النّفوس علىٰ حبّ من أحسن اليها و بغض من أساء اليه و لذا قال رسول اللّه صلى الله عليه وآله اللّهم لا تجعل لفاجرٍ علّي يداً فيحبّه قلبي، فالسّبب الجامع في هذا القسم من الحبّ هو النّفع والإحسان.

الرّابع: أن يحبّ الشّيء لذاته لا لحظٍّ يناله منه وراء ذاته بل تكون ذاته عين حظّه وهذا هو الحبّ الحقيقي البالغ الّذي يوثق به و ذلك كحبّ الجمال والحسن فأنّ كلّ جمالٍ حسن محبوبٌ عند مدركه و ذلك لعين الجمال لأنّ إدراكه عين اللّذة وهي محبوبة لذاتها ولا لغيرها ويدخل في هذا القسم الكمال أيضاً فأنّ الإنسان يحبّ العالم لعلمه والشّجاع لشجاعته والسّخي لسخاوته كما أنّه يحبّ الجمال والمناظر الحسنة لحسنها كما قال الشّاعر في هذا المقام:

ثلاثة تذهب عن قلب الحَزن ... الماء والخضراء والوجه الحَسَن

الخامس: أن تكون المحبّة لمناسبةٍ خفّية أو مجانسةٍ معنّوية فربّ شخصين

تتّأكد المحبّة بينهما من غير ملاحظة جمال ولا طمع في جاهٍ ومالٍ بل بمجّرد تناسب الأرواح ووجود السّنخية بينهما كما قال رسول اللّه ﷺ الأرواح جنودٌ مجّندةٌ فما تعارف منها إئتلف و ما تناكر منها إختلف.

السّادس: أن تكون المحبّة لأجل الألفة و الإجتماع في بعض المواضع مثل المجاورة و المسافرة والملاقاة في بعض الأوقات.

السّابع: أن تكون المحبّة لمن يشاركه في وصفٍ ظاهر كحبّ الصّبي للصّبي والشّيخ الىٰ الشّيخ لشيخوخته والتّاجر الىٰ التّاجر والفاسق الىٰ الفاسق وهكذا.

الثّامن: أن تكون المحبّة علىٰ أساس الأسباب والعلل مثل حبّ كلّ سببٍ لمسّببه وكلّ علّةٍ لمعلولها وبالعكس فأنّ المعلول لمّا كان مثالاً للعلّة وترّشحاً عنها فالعلّة تحبّه لأنّه فرعها وبمنزلة بعض أجزاءها وهكذا المعلول يحبّها لأنّها أصله فكأنّ كلاً منهما في حبّه للأخر يحبّ نفسه.

التّاسع: محبّة المتشاركين في سبب واحد بعضهم لبعض كمحبّة الأخوان والأقارب فكلّما كان السّبب أقرب كانت المحبّة أشّد و لذلك تكون محبّة الأخوين أشّد من محبّة أبناء الأعمام مثلاً فهذه هي أقسام المحبّة التّي يكون المدار عليها في الإنسان وحيث علمت ذلك فأستمع لما يتلىٰ عليك.

فنقول الحقّ أنّه لا مستّحق للحبّ غير اللّه تعالىٰ و لا محبوب في الحقيقة عند ذوي البصائر إلاّ هو فلو كان غيره قابلاً للحبّ و موضعاً له في ظاهر الأمر فأنّما هو محبوب من جهة إنتسابه اليه تعالىٰ فمن أحبَّ غيره لا من حيث نسبته اليه فذلك لجهله وقصوره في معرفة اللّه بل لا محبوب له واقعاً مع قطع النّظر عن الإنتساب و ذلك لأنّ غيره كائناً ما كان فهو موجود به مخلوق له فهو مع قطع النّظر عن الإنتساب ليس إلاّ العدم والعدم كيف يصلح للحبّ فينبغي أن يكون حبّه لعموم الخلق بعموم النّسبة أي من حيث أنّ الخلق منه اذ بدون النّسبة لا حكم له أصلاً فأن المعدوم لا حكم له ولا عليه وتوضيح ذلك أنّ جميع أسباب الحبّ المذكورة موجودة مجتمعة في حقّ اللّه تعالىٰ فهو

محبوب من جميع الجهات ولا توجد الأسباب مجتمعة في غيره، أمّا السّبب الأوّل أعني محبّة النّفس فمعلوم أنّ وجود كلّ أحدٍ فرع لوجود ربّه وظلّ له ولا وجود له من ذاته فوجود النّفس مثلاً و دوام وجودها وكمال وجودها من اللّه وباللّه و الىٰ اللّه فهو الموجد المبدع لها وبقاءها أيضاً به ثمّ هو المكّمل لوجودها بإيجاد صفات الكمال فيها فهي صرف العدم لولا فضل اللّه عليه بالإيجاد وهالكة بعد وجودها لولا فضله عليها بالإبقاء فهو العلّة الموجدة لها كما أنّه العلّة المبقية لها أيضاً فحينئذٍ محبّة كلّ شئ لنفسه ترجع الىٰ محبّة ربّه و أن لم يشعر المحبّ به وكيف يتّصور أن يحبّ الإنسان نفسه ولا يحبّ ربّه الّذي به قوام نفسه فأنّ من أحبّ النّور أحبَّ الشّمس التّي بها قوام النّور.

وأمّا السّبب الثّاني والثّالث: أعني الإلتذاذ في الأوّل والإحسان في الثّاني سواء كان متّعدياً الىٰ المحبّ أم لا فمعلومٌ أنّه لا لذة ولا إحسان إلاّ من اللّه فأنّه خالق الإحسان و ذويه وفاعل أسبابه و دواعيه فكلّ محسنٍ فهو حسنة من حسنات قدرته و حسن فعاله.

أمّا الرّابع: أعني به الحسن والجمال والكمال فلا ريب في أنه تعالىٰ هو الجميل بذاته و هو الجمال الخالص و الكمال المطلق و ما يوجد في غيره منهما فهو منه و مع ذلك لا يخلو عن شوائب الخلل و النّقصان اذ النّقص شامل لجميع الممكنات والتّفاوت بالشّدة و الضّعف والكمال والنّقص لقوله تعالىٰ: **يآ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنْتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ**[1].

أمّا الخامس: أعني به المناسبة الخفّية والمجانسة المعنّوية فلا ريب في أنّ النّفس النّاطقة مناسبة مجهولة خفّية مع بارئها موجدها و لذلك **قال رسول اللّه** صلى الله عليه وآله **من عرف نفسه فقد عَرف ربّه و قال تعالىٰ**: **قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى** و قال:**إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً** اذ لم يستّحق آدم مقام الخلافة إلاّ تبلك المناسبة وبها ينقطع العبد الىٰ ربّه ثمّ أنّ المناسبة علىٰ قسمين خفّية وجلّية

١-الفاطر ١٥=

وأن شئت قلت، باطّنية وظاهّرية والبّاطنية الخفّية فقد مضىٰ الكلام فيها وقلنا أنّ للنّفس مناسبة مجهولة خفّية مع بارئها، و امّا المناسبة الظّاهرة فهي قرب العبد الى ربّه في الصّفات الرّبوبية والأخلاق الإلهّية كالعلم والقدرة والبّر و الإحسان واللّطف و إفاضة الخير على الخلق وإرشادهم الى الحقّ وغير ذلك من الصّفات التّي جعل العبد مظهراً لصفات ربّه وفي هذا الباب أبحاث عميقة ولا سيّما في المناسبة الخفّية التّي زلّت فيها الأقدام وتحيّرت فيها الأفهام وكلّت فيها عقول ذوي الألباب فضلاً عن عقول العوام حتّىٰ وقع قومٌ في التّشبيه الظّاهر و أخرون في الحلول و الإتّحاد و امّا أهل الحقّ الّذين إنكشفت لهم إستحالة التّشبيه والإتّحاد وفساد طرفي التّفريط والإفراط و إتّحضت لهم حقيقة السِّر فهم الاقلّون و لذلك فالسّكوت أولىٰ.

و أمّا سائر الأسباب فأنت تقدر علىٰ إستخراجها بقدر فهمك وإستعدادك.

ولنرجع الىٰ تفسير كلامه تعالىٰ و هو أنّ قوله:

قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ

إشارة الىٰ أنّ حبّ اللّه تعالىٰ لا يكون واقعاً إلاّ بمتابعة رسوله و أنت بعد ما عرفت الحبّ للّه ومعناه تقدر علىٰ فهم الآية و ذلك لأنّ الرّسول مظهر كمالات الرّب لكونه خليفته في الأرض فمتابعته متابعة اللّه ومخالفته مخالفته و لذلك قال يحببكم اللّه لأنّ اللّه تعالىٰ يحبّ المطيع والمفروض أنّ إطاعة الرّسول إطاعته فمن إتّبع الرّسول فهو محبوب له تعالىٰ و هو المطلوب ثمّ نقول أنّ في الأية الشّريفة سر آخر يجب التّنبيه عليه وهي أنّ اللّه تعالىٰ علّق حبّه للعبد علىٰ متابعة الرّسول لا علىٰ حبّ العبد له تعالىٰ كيف كان و لذلك لم يقل، قل أن كنتم تحبّون اللّه فاللّه يحببكم مثلاً بل قال **فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ** و عليه فالمفهوم من الكلام هو أنّ العبد اذا أحبَّ اللّه تعالىٰ ولم يتّبع الرّسول فلا يحبّه اللّه فيكون الحبّ من جانب العبد فقط و هو ممّا لا أثر له لأنّ المحبّة اذا لم تكن من الجانبين فهي كالعدم ألا ترىٰ أنّ العاشق اذا أحبّ المعشوق والمعشوق لا

يعشقه ولا يحبّه فهذا العشق لا أثر له إلاّ المحنة والحزن بخلاف ما اذا كان المعشوق أيضاً عاشقاً ومحبّاً له فأنّ في هذه الصُّورة يبدّل الفراق بالوصال والمحنة والحزن الىٰ السّرور فمن كان محبّاً للّه تعالىٰ واللّه لا يحبّه لا فائدة في حبّه أصلاً فأفاد في الآية أنّه لا طريق الىٰ جذب حبّه تعالىٰ إلاّ من طريق متابعة الرّسول فقال، **فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ** و عليه فمن كان محبوباً له تعالىٰ لا يكون إلاّ تابعاً لرسوله مطيعاً لأوامره ونواهيه وفيه إيماء الىٰ أنّ الإنسان كائناً من كان يحتاج في كسب محبّة اللّه إيّاه والوصول الىٰ مقام قربه الىٰ الرّسول فهو لا يقدر علىٰ كسب هذا النّعمة إلاّ بسبب وجود الرّسول و متابعته له فالرّسول واسطة بين الخالق والمخلوق وطريق العبّودية منحصرٌ بالتّمسك به و هو دليل عقّليّ علىٰ لزوم البعثة لحصول هذه النِّعمة و لذلك قال اللّه بعد هذا الكلام ويغفر لكم ذنوبكم، لأنّ المغفرة تحصل بعد المحبّة فمن لا يكون محبوباً له تعالىٰ لا يكون مغفوراً أبداً، **وَ ٱللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ** بالنّسبة الىٰ المحبوب المتّابع للرّسول قولاً وفعلاً والىٰ هذه الدّقيقة أشار اللّه بقوله:

قُلْ أَطِيعُوا ٱللَّهَ وَ ٱلرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ ٱللَّهَ لا يُحِبُّ ٱلْكَافِرِينَ

فجعل الملاك في صدق إطاعة اللّه وإطاعة رسوله وعبَّر عمّن لا يطيعهما بالكافر ومن المعلوم أنّه لا يحبّ الكافرين:

قال اللّه تعالىٰ: **وَ مَنْ يُطِعِ ٱللَّهَ وَ رَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَارُ**[1].

قال اللّه تعالىٰ: **وَ مَنْ يُطِعِ ٱللَّهَ وَ ٱلرَّسُولَ فَأُولٰئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ**[2].

قال اللّه تعالىٰ: **مَنْ يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ**[3].

■

١- النّساء=١٣. ٢- النّساء=٦٩.
٣- النّساء=٨٠.

إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَ نُوحًا وَ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَ ءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَ ٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾

◁ اللّغة

ٱصْطَفَىٰٓ: الإصطفاء الإختيار.

ءَادَمَ: قيل سمّي بذلك لكون جسده من أديم الأرض و قيل لسمرةٍ في لونه يقال رجل آدم نحو أسمر و قيل سمّي بذلك لكونه من عناصر مختلفة وقوىً متّفرقة يقال جعلت فلاناً، أُدْمة أهلي أي خلطته بهم، و قيل سمّي بذلك لما طيّب به من الرّوح المنفوخ فيه، لقوله تعالىٰ: **وَ نَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي**[1] و عليه فهو مأخوذ من الإدام و هو ما يطيب به الطّعام.

نُوحًا: إسم نبّي من الأنبياء والنَّوح بفتح النّون مصدر يقال ناحَ يَنُوح نَوحاً، أي صاح بعويلٍ و أصل النَّوح إجتماع النّساء في المناحة.

ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ: **الآل** مقلوبٌ عن **الأهل** و يصّغر علىٰ **أُهيل** و آل الرّجل أقاربه.

عِمْرَٰنَ: إسمٌ.

ذُرِّيَّةً: **الذُرّية** بضّم **الذّال** في الأصل، الصّغار من الأولاد و قد تطلق علىٰ الصّغار والكبار معاً في التّعارف.



◁ الإعراب

ذُرِّيَّةً نصبها علىٰ البدل من نوح وما عطف عليه من الأسماء ولا يجوز أن يكون بدلاً من آدم لأنّه ليس بذرّية و يجوز أن يكون حالاً منهم والعامل فيها، إصطفىٰ **بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ** مبتدأ و خبر في موضع نصب صفة لذرّية.

١- الحجر= ٢٩

◁ التّفسير

إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ أي أنّ اللّه إختار آدم ونوحاً وآل إبراهيم وآل عمران، الظّاهر أنّ اللّه إختارهم للنّبوة و قال بعض المفسّرين أي إصطفىٰ دينهم و هو الإسلام فحذف عنه المضاف انتهىٰ.

أقول و هو خلاف ظاهر الآية والأصل عدم الحذف مضافاً الىٰ أنّ الدّين للّه تعالىٰ لا لآدم و لا لنوح و لا لغيرهما و أنّما أضيف الآل الىٰ إبراهيم وعمران لأنّه يضاف الىٰ الأشرف يقال آل اللّه، و آل السّلطان، و لا يقال آل الخيّاط وآل البقّال و قلنا أنّ الآل مقلوب عن الأهل و لذلك يصّغر علىٰ أهيل والفرق بينهما هو أنّ الآل خصّ بالإضافة الى أعلام النّاطقين دون النّكرات و دون الأزمنة و الأمكنة فلا يقال آل رجل ولا آل زمان، و امّا الأهل فليس كذلك فهو يضاف الىٰ الكلّ يقال أهل اللّه و أهل الخيّاط كما يقال أهل زمن كذا و في المقام قول أخر و هو أنّ الآل في الأصل إسم الشّخص ويصّغر أويلاً و يستعمل فيمن يختّص بالإنسان إختصاصاً ذاتيّاً أمّا بقراءةٍ قريبة أو بموالاةٍ و قد تكلّمنا في معنىٰ الآل فيما مضىٰ مفصلاً.

عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ جمع العالم أي علىٰ جميع الخلق لأنّ العالم يطلق علىٰ الخلق كلّه و قال صاحب المفردات العالم إسمٌ للفلك وما يحويه من الجواهر والأعراض و قال في وجه تسميته به هو في الأصل إسمٌ لما يعلم به كالطّابع والخاتم لما يطبع بهو ويختم به وجعل بناءه علىٰ هذه الصّيغة لكونه كالألة والعالم ألةٌ في الدّلالة على صانعه ولهذا أحالنا تعالىٰ عليه في معرفة وحدّانيته فقال، أولم ينظروا في ملكوت السّموات والأرض الآية انتهىٰ كلامه **ذُرِّيَّةَۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ** أي ذرّية بعضها من ولد بعضٍ أو بعضهامن بعضٍ **وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ** أي عالم بالمسموعات **عَلِيمٌ** بكلّ شئ.

عن حنان بن سدير عن أبيه عن أبي جعفر عليه السلام قال عليه السلام: إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ الىٰ قوله: من بعضٍ نحن منهم و نحن بقية تلك العترة في كتاب الخصال عن أبي الحسن الأوّل قال

قال رسول اللّه أنّ اللّه تبارك وتعالىٰ إختار من كلّ شئٍ أربعة الىٰ أن قال وإختار من البيوت أربعة فقال اللّه تعالىٰ: إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَ نُوحًا وَ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَ ءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ.

و عن جعفر ابن محمّد عليه‌السلام عن أبيه عن جدّه عن علّي بن أبي طالب عن النّبي أنّه قال: في وصّيةٍ له - ياعّلي أنّ اللّه عزّ وجلّ أشَرف على الدّنيا فإختارني منها علىٰ رجال العالمين، ثمّ أطَلع الثّانية فأختارك علىٰ رجال العالمين بعدي ثمّ أطَلع الثّالثة فأختار الأئمّة مـن وُلدِك علىٰ رجال العالمين بعدك ثمّ أطلع الرّابعة فأختار فاطمة علىٰ نساء العالمين.

و في كتاب كمال الدّين وتمام النّـعمة بأسـناده عـن أبـي حـمزة الثّمالي عن أبي جعفر محمّد بن علّي الباقر عليه‌السلام حديث طويل يقول فيه - فلمّا قضىٰ محمّد نبّوته وإستكمل أيامه أوحىٰ اللّه عزّ وجلّ اليه أن يامحمّد قد قَضيت نبّوتك و إستكمَلَت أيّامنا فأجعل العـلم الذّي عندك والإيمان والإسم الأكبر و ميراث العلم وأثار علم النّبوة عند علّي بن أبي طالب فأنّه فأنّي لم أقطع العلم و الإيمان و الإسم الأكبر و ميراث العلم وأثار علم النّبوة من العَقل من ذُرّيتك كما لَم أقَطعها من بيُوتات الأنبياء الّذين كانوا بينك و بين أبيك آدم و ذلك قوله عزّ وجلّ :إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَ نُوحًا وَ ءَالَ إِبْرَٰهِـيمَ وَ ءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ(٣٣) ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَ ٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ.

وفي روضة الكافي عن أبي جعفر عليه‌السلام مثله والأحاديث كثيرة في الكافي وغيره[1].

■

١- نور الثّقلين ج ١ ص ٣٢٩.

إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَةُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّيٓ إِنَّكَ أَنْتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنْثَىٰ وَ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَ لَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنْثَىٰ وَ إِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَ إِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَ ذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾

◁ اللّغة

نَذَرْتُ: النّذر أن توجب علىٰ نفسك ما ليس بواجبٍ لحدوث أمرٍ.

بَطْنِي: أصل البَطن الجارحة وجمعه بُطون والبَطن خلاف الظّهر في كلّ شيءٍ.

مُحَرَّرًا: التّحرير جعل الإنسان حَراً و قيل في معناه هو أنّه جعل ولده بحيث لا ينتفع به إلاّ الإنتفاع الدّنيوي بل جعله مخلصاً للعبادة ولهذا قيل معناه مخلصاً.

أُنْثَىٰ: الأُنثىٰ خلاف الذَّكر.

مَرْيَمَ: هو إسم أعجمي غير منصرف لأنّه مؤنث معرفة قيل معناه في لغتهم، خادم الرّب.

ذُرِّيَّتَهَا: الذُّرّية أصلها الصّغار من الأولاد و امّا في العرف فقد يقع علىٰ الصّغار والكبار جميعاً.

ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ: الشّيطان من شَطن أي تباعد قيل النّون فيه أصلّية و قيل زائدة و عليه فهو من شاط يُشيط، إحترَق غضباً والرَّجيم مبالغة في الرَّجم و هو الرَّمي بالرّجام أي الحجارة ومعناه المطرود من الخيرات.

◁ الإعراب

إِذْ قٰالَتِ أي إذكر يا محمّد إذ قالت و قيل هو ظرف يعلم **مُحَرَّرًا** حال من، ما، و هي بمعنىٰ الّذي و قيل هو صفة لموصوفٍ محذوف أي غلاماً محرّراً وأنّما قدّروا غلاماً لأنّهم كانوا لا يجعلون لبيت المقدس إلاّ الرّجال **وَضَعَتْهٰا أُنْثٰى** أُنثىٰ حال من الهاء و بدلٌ منها.

◁ التّفسير

لمّا قال اللّه تعالىٰ في الأية السّابقة: **إِنَّ ٱللّٰهَ ٱصْطَفَىٰ اٰدَمَ وَ نُوحًا وَ اٰلَ إِبْرٰاهِيمَ وَ اٰلَ عِمْرٰانَ عَلَى ٱلْعٰالَمِينَ** أشار في الآية وبعدها الىٰ ما أنعَم اللّه علىٰ آل عمران حيث بعث علىٰ قومه المنّ والسّلوىٰ وإصطفىٰ لعمران، مريم بولادة عيسىٰ بغير أب ولم يكن ذلك لغيره في العالم.

إِذْ قٰالَتِ ٱمْرَأَةُ عِمْرٰانَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مٰا فى بَطْنى مُحَرَّرًا.

أي إذكر يا محمّد إذ قالت إمرأة عمران قيل وهي، حنَّة، بالحاء المهملة والنّون بنت ناقود بن تنبلٍ أمّ مريم جدّة عيسىٰ قالوا وليس بعربّي إذ لا يعرف في العرّبية، حنَّة، إسم إمرأة، قاله القُرطبي و ذكر عبد الغني بن سعيد الحافظ، حنَّة أمّ عمرو و يروي حديثها إبن جُريح، و امّا عمران، فقيل هو عمران بن ماشان من ولد سليمان بن داوود و هو أبو مريم البتول أمّ عيسىٰ عليه السلام و قيل هو عمران عليه السلام أبو موسىٰ وهارون و هو عمران بن نصير قاله مقاتل والحقّ الأوّل للنّص علىٰ أنّ مريم بنت عمران بن ماشان ولدت عيسىٰ وأن زكرّيا كفل مريم أمّ عيسىٰ وكان زكرّيا قد تزّوج أخت مريم، أمشاع، إبنة عمران بن ماشان فكان يحيىٰ وعيسىٰ إبني خالة وبين العمرانيين أعمار كثيرة قيل ألف سنة وثمان مائة سنة و قال الطّبري في نسب عمران ما لفظه فأمّا زوجها (أي زوج حنَّة أم مريم) فأنّه عمران بن ياشهم بن أمون بن منشاءبن حزيتا بن أحريق بن يويم بن

عزاريا بن أمصيابن ياوش بن أحرنهيو بن يازم بن يهفابن أشابر أبان رجعم بن سليمان بن داوود بن إيشا، أقول أصل الإختلاف نشأ من وجود عمرانين ومريمين في كتب السّير.

أحدهما: أبو موسىٰ و هارون وكانت له بنت تسمّىٰ مريم وكانت أكبر من موسىٰ وهارون سنّاً.

ثانيهما: أبو مريم أمّ عيسىٰ، أحدهما، يقال له عمران بن ماشان، والآخر عمران بن نصير، و علىٰ قول الطّبري أحدهما عمران بن ياشهم والآخر عمران بن نصير وكيف كان فالحقّ في المقام هو أنّ مريم بنت عمران الّتي كانت أمّ عيسىٰ ليست هي مريم أخت موسىٰ و هارون إذ لو كان كذلك لكان عيسىٰ عليه السلام إبن أخت موسىٰ وهارون و لازم ذلك أن يكون بعث عيسىٰ بعد موسىٰ ولم يقل به أحد لأنّ ولادة عيسىٰ بعد موت موسىٰ بقرونٍ كثيرة و عليه فعمران أبو موسىٰ و هارون غير عمران الّذي كان أباً لمريم و هذا الّذي ذكرناه هو الحقّ الحقيق بالإتّباع و يطابقه النّص أيضاً واللّه أعلم بحقائق الأمور.

قال الطّبري في تفسيره بأسناده عن محّمد بن إسحاق قال تزوّج زكريا وعمران أُختين فكانت أمّ يحيىٰ عند زكريا وكانت أمّ مريم عند عمران فهلك عمران وأمّ مريم حامل بمريم وهي جنين في بطنها وكانت فيما يزعمون قد امسك عنها الولد حتّىٰ أسنّت وكانوا أهل بيت من اللّه تعالىٰ بمكان فبينما هي في ظلّ شجرة نظرت الىٰ طائرٍ يطعم فرخاً له فتّحركت نفسها للولد فدعت اللّه أن يهب لها ولداً فولدت (فحملت) بمريم وهلك عمران فلمّا عرفت أنّ في بطنها جنيناً جعلته للّه نذيرة والنذيرة أن تعبده للّه فتجعله حبساً في الكنيسة لا ينتفع به شيءٍ من أمور الدّنيا انتهىٰ.

و بأسناده عن الضّحاك في قوله أنّي نذرت لك ما في بطني محرّراً قال جعلت ولدها للّه و للذّين يدرسون الكتاب و يتّعلمونه، و بأسناده عن الشّعبي في قوله: **إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا** قال جعلته في الكنيسة و فرّغته للعبادة انتهىٰ.

أقول ذكر الطّبري في المقام أخباراً كثيرة بهذه المضامين وعلىٰ ما ذكره فالمراد يقوله تعالىٰ: **مُحَرَّرًا** هو أن يكون خادماً للكنيسة يخدمها ويعبد اللّه فيهاموافق لقول الرّاغب في المفردات حيث قال هو (أي التّحرير) أنّه جعل ولده بحيث لا ينتفع به الإنتفاع الدّنيوي بل جعله مخلصاً للعبادة وبه قال القُرطبي وغيره من العّامة قال القُرطبي **مُحَرَّرًا** مأخوذ من الحرّية الّتي هي ضدّ العبودّية ومن هذا تحرير الكتاب و هو تخليصه من الإضطراب والفساد و روي عن عكرمة أنّه قال أنّ المحرّر الخالص للّه عزّ وجلّ لا يشوبه شئ من أمر الدّنيا ثمّ قال القُرطبي و هذا معروف في اللّغة أن يقال لكلّ ما خَلص، حرّ، و محرّر بمعناه **فَتَقَبَّلْ مِنِّيٓ إِنَّكَ أَنْتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ** أي فتّقبل منّي ما نذرت لك و هو أن يكون ما في بطني محرّراً، مخلصاً لعبادتك أنّك تسمع ما أقول و تعلم ما في قلبي ونيّتي من الصِّدق.

فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنْثَى

قال ابن عبّاس أنّما قالت هذا لأنّه لم يكن يقبل في النّذر إلاّ الذّكور فقبل اللّه مريم، والمعنىٰ فلمّا وضعت أمّ مريم وهي حنّة زوجة عمران ما في بطنها ورأت أنّها أُنثىٰ قالت ربّ أنّي وضعتها أُنثىٰ، أي وضعت النّذيرة أُنثىٰ و لذلك أنّث ولو كانت الهاء عائدة علىٰ، ما، التّي في قوله: **إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى** لكان الكلام فلّما وضعته قالت أنّي وضعته أُنثىٰ.

إن قُلت أين كانت النّذيرة في الآية لتكون مرجعاً للضّمير في قوله: **وَضَعْتُهَآ** قلتُ النّذيرة معنىٰ ومفاد، ما، لأنّ النّذر في قوله: **إِنِّى نَذَرْتُ** قد تعّلق بما في بطنها فالمراد بقوله، ما، هو النّذيرة فالمعنىٰ أنّها **قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ** أي أنّي ولدتُ النّذيرة أُنثىٰ **وَ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ** إختلف القُّراء في قراءة ذلك قال الطّبري قراءة عامّة القرّاء، وضعت خبراً من اللّه عزّ وجلّ عن نفسه أي أنّه العالم بما وضعت، و قرأ بعض المتّقدمين **وَ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ** علىٰ وجه الخبر بذلك عن أمّ مريم أنّها هي القائلة واللّه أعلم بما ولدت منّي قال الطّبري

بعد ذلك وأولىٰ القراءتين بالصّواب قراءة من قرأ، واللّه أعلم بما وضعت، ولا يعترض بالشّاذ عنها عليها فتأويل الكلام اذا، واللّه أعلم من كلّ خلقه بما وضعت، ثمّ رجع جلّ ذكره الىٰ الخبر عن قولها وأنّها قالت إعتذاراً الىٰ ربّها ممّا كانت نذرت في حملها محرّرته لخدمة ربّها، وليس الذّكر كالأنثىٰ لأنّ الذّكر أقوىٰ علىٰ الخدمة و أقوم بها وأنّ الأُنثىٰ لا تصلح في بعض الأحوال لدّخول القدس والقيام بخدمة الكنيسة لما يعتّريها من الحيض والنّفاس انتهىٰ كلام الطّبري ثمّ أنّه نقل الأخبار من طرقهم علىٰ مدّعاه **وَ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَ لَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ** فعلىٰ المشهور بينهم أنّ هذا الكلام أعني به، **وَ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَ لَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ** ليس كلّه من كلام أُمّ مريم بل قوله واللّه أعلم بما وضعت، من كلام اللّه وليس الذّكر كالأُنثىٰ، من كلامها كما عرفت من كلام الطّبري و امّا علىٰ القول الأخر و هو قراءة، **وَضَعتُ**، بضّم التّاء فهو من جملة كلامها والكلام متّصلّ انتهىٰ

أقول قال الشّيخ في التّبيان قرأ **وَ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ** ابن عامر و أبو عمرو و عاصم و يعقوب بمعنىٰ قولي **فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنْثَىٰ** قيل فيه قولان.

أحدهما: الإعتذار من العدول الىٰ النّذر لأنّها أُنثىٰ،

الثّاني: تقديم الذّكر في السّؤال لها بأنّها أُنثىٰ و ذلك أنّ عيب الأُنثىٰ أفظع اليها أسرع وسعيها أضعف وعقلها أنقص فقدّمت ذكر الأُنثىٰ ليّصح القصد لها في السّؤال علىٰ هذا الوجه وقوله: **وَ لَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ** إعتذار بأنّ الأُنثىٰ لا تصلح لما يصلح له الذّكر و أنّما كان يجوز لهم التّحرير في الذّكور دون الأُناث لأنّها لا تصلح لما يصلح له الذّكر من التّحرير لخدمة المسجد المقدس لما يلحقها من الحيض والنّفاس و الصّيانة عن التّبرح للنّاس و قال قتادة لم يكن التّحرير إلاّ للغلمان فيما جرت به العادة انتهىٰ

و قال الطّبرسي **وَ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ** إخبار منه تعالىٰ بأنّه أعلم

بوضعها لأنّه هو الّذي خلقها وصوَّرها وعلىٰ القراءة الأُخرىٰ، وأنت ياربّ أعلم منّي بما وضعتُ انتهىٰ و يظهر من كلام الزّمخشري في الكشّاف أنّه رجّح القول المشهور و هو سكون التّاء في، وضعت، وأنّه قول اللّه تعالىٰ لا قول أُمّ مريم لأنّه قال معناه واللّه أعلم بالشّئ الّذي وضعت و ما علق به من عظائم الأُمور وأن يجعله وولده أية للعالمين وهي جاهلة بذلك لا تعلم منه شيئاً فلذلك تحسَّسرت ثمّ قال وفي قراءة ابن عبّاس، واللّه أعلم بما وضعت، علىٰ خطاب اللّه تعالىٰ لها أي أنّك لا تعلمين قدر هذا الموهوب وما علم اللّه من عظم شأنه وعلّو قدره انتهىٰ كلامه.

أقول فعلىٰ ما ذكره تكون الأقوال حول الآية ثلاثة:

أحدها: أن يكون قوله: **وَ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ** قول المرأة و عليه فالتّاء تضّم.

الثّانية: أن يكون من كلام اللّه تسليةً لنفسها و عليه فالتّاء ساكنة.

الثّالثة: أن يكون من كلام اللّه علىٰ وجه الخطاب لها و عليه فالتّاء مكسورة و لكلٍ من هذه الوجوه وجه و امّا قوله: **وَ لَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ** ففيه إحتمالان ولا ثالث لهما:

أحدهما: كونه قول المرأة.

ثانيهما: أن يكون من كلام اللّه أي أنّ اللّه أعلم بما وضعت وأعلم بأنّ اذّكر ليس كالأُنثىٰ فهذه خلاصة كلمات المفسّرين من الخاصّة والعامّة واللّه تعالىٰ أعلم بمراده **وَ إِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَ إِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَ ذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ** قال أُمّ مريم بعد مات وضعتها أُنثىٰ وأنّي سمّيتها مريم، يعني خادم الرّب في لغتهم ثمّ بعد التّسمية لها دعت لها وقالت أنّي أُعيذها بك يعني مريم بك وذرّيتها، أي وأعيذ ذرّيتها أيضاً بك من الشّيطان الرّجيم المطرود أي من أغواءه و أضلاله، و فى هذا الكلام إشارة الىٰ أنّ النّجاة من أغواءه لا يمكن إلاّ بعون اللّه وتوفيقه و لذلك أمرنا أن نقول، أعوذ باللّه من

الشّيطان الرّجيم في جميع الأمور و لا سيّما العبادات كالصّوم و الصّلاة و الحجّ و أمثالها و ذلك لأنّ الشّيطان من أقوىٰ الأعداء بالنّسبة الىٰ أولاد آدم نعوذ باللّه من شرّه آمين قال القُرطبي في تفسير قوله: **وَ ذُرِّيَّتَهَا** يعني عيسىٰ ثمّ قال وهذا يدّل علىٰ أنّ الذّرية قد تقع علىٰ الولد خاصّة.

أنا أقول الذّرية لا تقع علىٰ الولد خاصّة بل تقع علىٰ الأولاد وفي المقام أيضاً كذلك أي أستعملت في معناها اللّغوي والعرفي إلاّ أنّ الكلّي منحصر في الفرد و هو يوجد بوجود الفرد ويعدم بإنعدام جميع الأفراد فاذا قلنا مثلاً، أكرم العلماء ولم يوجد منهم إلاّ واحد فهو مصداق للعلماء فيجب إكرامه ألا ترىٰ أنّ الإنسان قد يطلق علىٰ زيد فيقال إنسان مع أنّه بحسب المفهوم يطلق عليه و علىٰ غيره والحاصل، فرق بين صدق الكلّي علىٰ الفرد من حيث أنّه مصداق له و بين صدق الكلّي علىٰ الفرد بمعنىٰ أنّه موضوع له اذا عرفت هذا فنقول الذّرية موضوعة لجنس الولد صغيراً كان أوكبيراً واحداً أوكثيراً مذكراً أو مؤنّثاً فهي تطلق علىٰ الفرد من باب أنّه أحد المصاديق كما تطلق علىٰ المجموع فالقول بأنّ الذّرية قد تقع علىٰ الولد خاصّة أن كان بعنوان أنّه أي الولد من مصاديقه والكلّي يصدق علىٰ أحد المصاديق أيضاً فهو صحيح و أن كان غرضه أنّ الذّرية كما أنّها تطلق علىٰ الجميع وصفاً كذلك تطلق علىٰ الولد خاصّة بالوضع فهو غلط فاحش.

قال القُرطبي وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة قال قال رسول اللّه ﷺ ما من مولودٍ يولد إلاّ نخسه الشّيطان فيَّستهل عارفاً من نخسة الشّيطان إلاّ ابن مريم وأُمّه ثمّ قال أبو هريرة إقرأوا أن شئتم وأنّي أُعيذها بك وذرّيتها من الشّيطان الرّجيم، قال القُرطبي، قال علماؤنا فأفاد هذا الحديث أنّ اللّه تعالىٰ إستجاب دعاء أُمّ مريم فأنّ الشّيطان ينخس جميع ولد آدم حتّىٰ الأنبياء والأولياء إلاّ مريم وابنها قال قال قتادة كلّ مولودٍ يطعن الشّيطان في جنبه حين يولد غير عيسىٰ وأُمّه جعل بينهما حجاب فأصابت الطَّعنة الحجاب ولم ينفد

لهما منه شئ، قال: قال علماؤنا وأن لم يكن كذلك بطلت الخصّوصية بـهما انتهىٰ كلام القُرطبي وأنّما نقلنا ما نقله في تفسير الآية لرفع الملالة وأن تـقرأ حديث أبي هريرة وقول علماؤهم ثمّ تضحك كما ضحكنا أو تبكي علىٰ الإسلام من هذا الدّاء الّذي لا دواء له.

نعم اذا أُخذ تفسير كلام اللّه تعالىٰ من أبي هريرة وأنس وسمرة و امثالهم فهكذا يفسّر كلام اللّه ولست أدري ما ذنب الأنبياء وفيهم إبراهيم الخليل و خاتم المرسلين أنّ الشّيطان نخسهم حين الولادة ولم ينخس ابن مريم وأُمّه، أكان عيسىٰ أفضل من رسول الإسلام و جميع الأنبياء أم كان أبو هريرة من أكذب النّاس علىٰ اللّه و رسوله نعوذ باللّه من هذه الأباطيل وهكذا حديث قتادة إلاّ أنّ ذنب أبي هريرة أعظم من ذنب قتادة لأنّ أبا هريرة نسب الحديث المجعول الىٰ رسول اللّه و إفترىٰ عليه و امّا قتادة فقال ما قال من قبل نفسه و كم له نظير من النّاس من الحمقاء والمجانين الذّين يقولون ما لا يعلمون اذ لو كان عالماً بقوله هذا لم يقل كلّ مولودٍ يطعن الشّيطان في جنبه الخ لأنّ المولود الصّغير حين ولادته بأيّ دليلٍ من العقل والنّقل يصير مورداً لطعن الشّيطان و هو ليس بمكلّفٍ بل ولا عاقل بالفعل ثمّ أنّ الحجاب الذّي أثبته قتادة بين الشّيطان، وأُمّ عيسىٰ وعيسىٰ من أيّ جنسٍ كان حتّىٰ لم ينفد منه شئ ولم لم يوجد هذا الحجاب بين الشّيطان ورسول اللّه أو سائر الأنبياء حين ولادتهم نقول هذا جزاء من ترك العترة التّي جعلت عدلاً للكتاب في قوله ﷺ **كتاب اللّه وعترتي أهل بيتي** الحديث وأخذ بالحشيش لئلاّ يغرق ولم يعلم أنّه لا يقدر علىٰ نجاته من الغرق والحمد لِلّه علىٰ ما هدانا.

■

فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَ أَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَ كَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَـٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٨﴾

◁ اللّغة

كَفَّلَهَا: الكفالة الضّمان تقول لكَفَّلتُ بكذا **وكَفَّلتُه** فلاناً.

زَكَرِيَّا: بالمّد والنَّصب، وقرأ حفص وحمزة **زَكَرِيَّا** بغير مدّ ولا همز ومدّه الباقون وهمزوه ونقل عن الأخفش أنّه قال فيه أربع لغات، المّد والقصر و زكرّي: بتشديد الياء و الصّرف، و زَكرٍ و رأيت زكريا.

ٱلْمِحْرَابَ مأخوذٌ من **الحَرب** ومنه **محراب** المسجد قيل سمّي بذلك لأنّه موضع محاربة الشّيطان والهوىٰ و قيل سمّي بذلك لكون حقّ الإنسان فيه أن يكون حريباً من أشغال الدّنيا ومن توزع الخواطر و قيل الأصل فيه أنّ محراب البيت صدر المجلس ثمّ إتّخذت المساجد فسمّي صدر به و قيل سمّي صدر البيت محراباً تشبيهاً بمحراب المسجد وجمعه محاريب والباقي واضح مرَّ الكلام في بعضه.

◁ الإعراب

وَ أَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا نباتاً، مصدر علىٰ غير لفظ الفعل المذكور و هو نائب عن، نبات، **فَتَقَبَّلَهَا** أي قبّلها **زَكَرِيَّا** المفعول الثّاني **ٱلْمِحْرَابَ** مفعول، دَخَل

عِنْدَهٰا يجوز أن يكون ظرفاً، لوجد، وأن يكون حالاً من الرّزق و هو صفة له في الأصل أي رزقاً كائناً عندها **قٰالَ يٰا مَرْيَمُ أَنّٰى لَكِ** فهو مستأنف فلذلك لم يعطفه بالفاء و لذلك **قٰالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اَللّٰهِ** و لا يجوز أن يكون قال، بدلاً، من وجد لأنّه ليس في معناه **هُنٰالِكَ** أكثر ما يقع، هنا، ظرف مكان، و هو أصلها و قد وقعت هنا زماناً فهي في ذلك، كعند و قيل، هنا مكان أي في ذلك المكان دعا زكّريا و الكاف حرف للخطاب **مِنْ لَدُنْكَ** يجوز أن يتّعلق بقوله، هب لي، فيكون، من لإبتداء غاية الهبة و يجوز أن يكون في الأصل صفة، لذرّية، قدّمت فإنتصبت علىٰ الحال **سَمِيعُ** بمعنىٰ سامع.

◁ التّفسير

فَتَقَبَّلَهٰا رَبُّهٰا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَ أَنْبَتَهٰا نَبٰاتًا حَسَنًا.

الضّميران يرجعان الىٰ مريم أي قبل مريم ربّها وأنّما فسّروا، تقّبل، بقولهم، قبل لأنّ مصدر، تقّبلها، علىٰ القبول دون التّقبل لأنّ فيه معنىٰ، تقّبلها كما يقال تكّرم كرماً لأنّ فيه معنىٰ، كرم، و مثلها **وَ أَنْبَتَهٰا نَبٰاتًا حَسَنًا** لأنّ فيه معنىٰ نبت و لذلك قال الزّجاج الأصل فيهما، فتّقبلها بتّقبلَ حسنٍ، وأنبتها إنباتاً حسناً، و لكن قبول محمول علىٰ قبلها قبولاً لا يقال قبل الشّيء قبولاً اذا رضيه والقياس فيه الضّم كالدّخول والخروج ولكنّه جاء بالفتح وأجازوا ضمّ القاف أيضاً، والمعنىٰ أنّ اللّه تبارك وتعالىٰ قبلها أي قبل الأنثىٰ بدل الذّكر و رضي بها في النّذر الّذي نذرت حنَّة للعبادة في بيت المقدّس، أو قبل دعاؤها حيث قالت فتّقبل منّي **إِنَّكَ أَنْتَ اَلسَّمِيعُ اَلْعَلِيمُ**[1] وقوله: **بِقَبُولٍ حَسَنٍ** أصلها بتّقبلٍ حسن كما مرّ و لكنّه محمول علىٰ قوله: فتّقبلها قبولاً حسناً و قيل معناه سلك بها طريق السُّعداء، و قيل معناه تكّفل بها في تربيتها والقيام بشأنها قال صاحب الكشّاف عند قوله تعالىٰ: **بِقَبُولٍ حَسَنٍ** فيه وجهان:

١- البقرة= ١٢٧

أحدهما: أن يكون القبُول، إسم ما تقبل به الشّئ كالسَّعُوط واللّدود لما يسعط به ويلد و هو إختصاصه لها بإقامتها مقام الذّكر في النّذر ولم يقبل قبلها أنثىٰ في ذلك.

الثّاني: أن يكون مصدراً علىٰ تقدير حذف المضاف بمعنىٰ فَتَّقبلها بذي قبولٍ حسنٍ أي بأمرٍ ذي قبولٍ حسنٍ و هو الإختصاص، و يجوز أن يكون معنىٰ، فتقبلها، فأستقبلها كقولك تعجّله بمعنى إستعجله و تقّصاه بمعنىٰ إستقصاه و هو كثير في كلامهم من إستقل الأمر اذا أخذه بأوّله و عنفوانه قال القطامي:

وخير الأمر ما إستقبلت منه   وليس بأن تتّبعه إتباعاً

و منه المَثل، خُذ الأمر بقوابله و عليه فالمعنىٰ فأخذها في أوّل أمرها حين ولدت بقبولٍ حَسنٍ انتهىٰ كلامه.

و أمّا قوله: **وَ أَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا** فهو مجاز عن التّربية الحسنة العائدة عليها بما يصلحها في جميع أحوالها و قيل المعنى جعل نشؤها نشؤاً حسناً، و قيل سوّى خلقها فكانت تنبت في يوم ما ينبت غيرها في عام، و قيل أنبتها في رزقها و غذائها حتّىٰ تمّت إمرأة بالغة تامّة و عن ابن عبّاس قال، لمّا بلغت مَريم تسع سنين صامت النّهار وقامت اللّيل و تبتلت حتّىٰ غلبت الأحبار والأحسن أن يقال المعنىٰ أنّ اللّه تعالىٰ و فَّقَها لما أحبَّ ورضى به **وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا** فعلىٰ قراءة التشدّيد معناه، ضمّها اللّه الىٰ زَكريّا لأنّ، كفَّل، بالتشدّيد يتعدّى الى مفعولين فالتقدّير وكفلها ربّها زكّريا أي ألزمه كفالتها، و امّا علىٰ قراءة التّخفيف فمعناه، ضَمَّها زكّريا الىٰ نفسه.

و عن السّدي في قول اللّه عزّ وجلّ: **فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا** الىٰ قوله: **نَبَاتًا حَسَنًا** قال فأنطلقت بها أمّها في خرقها يعني أُمّ مريم بمريم حين وَلدتها، الىٰ المحراب و قال بعضهم إنطَلقت حين بلغت الىٰ المِحراب وكان الذّين يكتبون التّوراة اذا جاؤوا اليهم بإنسانٍ يُجّربونه إقترعوا عليه أيّهم يأخذه فيعلمه وكان

زَكرّيا أفضلهم يومئذٍ وكان بينهم وكانت خالة مريم تحته فلمّا أتوا بها إقترعوا عليها و قال لهم زَكّريا أنا أحقّكم بها تحتي خالتها فأبوا فخرجوا الىٰ نهر الأردن فأقلوا أقلامهم الّتي يكتبون بها أيَّهم يقوم قلمه فيكفلها فجرت الأقلام و قام قلم زَكّريا علىٰ كأنّه في طينٍ فأخذ الجارية و ذلك قول اللّه عزّ وجلّ: **وَ كَفَّلَهَا زَكَرِيَّا** معه في بيته و هو المِحراب.

و أمّا على رواية عَكرمة فلّما خرجت بها يعني أُمّ مَريم بمَريم في خرقها تحملها الى بني الكاهن بن هارون أخي موسىٰ بن عمران قال و هم يومئذٍ يلون من بيت المقّدس ما يَلي الحَجَبة من الكَعبة فقالت لهم دونكم هذه النّذيرة فأنّي حرّرتها و هي إبنتي ولا يدخل الكنيسة حائضٌ وأنا لا أردّها الىٰ بيتي فقالوا هذه إبنة إمامنا وكان عمران يؤمّهم في الصّلاة وصاحب قربانهم فقال زَكّريا أدفعوها إلّي فأنّ خالتها عندي قالوا لا تطيب أنفسنا هي إبنة إمامنا فذلك حين إقترعوا فإقترعوا بأقلامهم عليها بالأقلام التّي يكتبون بها التّوراة فقرعهم زَكّريا قالوا الكاهن في كلامهم، العالم انتهىٰ.

و روي بعض أخر أنّ إسم أُمّ يحيىٰ أشيع فضّمها الىٰ خالتها أُمّ يحيىٰ فكانت اليهم ومعهم حتّىٰ اذا بلغت أدخلوها الكنيسة لنذر أُمّها التّي نذرت فيها قالوا والإقتراع فيها بالأقلام أنّما كان بعد ذلك بمّدةٍ طويلة لشدةٍ أصابتهم ضَعُف زَكّريا عن حمل مؤنتها فتدافعوا حَمل مؤنتها لا رغبةً منهم و منافساً عليها وكيف كانت القصّة فلا شّك في وجُودها لما نطق القرآن بها و هو يكفي لنا.

كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا.

المراد بالجواب إمّا مِحراب بيت المقدِس أي مكان العِبادة و امّا بيتها على إختلافٍ ذكرناه في معنىٰ المِحراب والمراد بالرّزق الّذي وجده عندها فاكهة الشّتاء في الصّيف وفاكهة الصّيف في الشّتاء و قد روي عن إبن عبّاس و غيره

أنّ الفاكهة كانت عنباً في غير حينه، و روى عن محمّد بن إسحاق أنّه قال كفّلها بعد هلاك أمّها فضمّها الى خالتها أُمّ يحيىٰ حتّىٰ إذا بلغت أدخلوها الكنيسة لنذر أمّها الّتي نذرت فيها فجعلت تنبت و تزيد قال ثمّ أصابت بني إسرائيل أزمة و هي علىٰ ذلك من حالها حتّىٰ ضعف زكّريا عن حملها فخرج على بنىإسرائيل فقال يا بني إسرائيل أتعلمون واللّه لقد ضعفت عن حمل إبنة عُمران فقالوا و نحن لقد جهدنا و أصابنا من هذه السّنة ما أصابكم فتدافعوها بينهم و هم لا يرون لهم من حملها بدّاً حتّىٰ تقارعوا بالأقلام فخرج السّهم بحملها علىٰ رجل من بني إسرائيل نجّار يقال له جريح قال فعرفت مريم في وجهه شدّة مؤنة ذلك عليه فكانت تقول له يا جريح أحسِن باللّه الظّن فأنّ اللّه سيرزقنا فجعل جريح برزق بمكانها فيأتيها كلّ يوم من كسبه بما يصلحها فإذا أدخله عليها وهي في الكنيسة أنماه اللّه و كثّره فيدخل عليها زكّريا فَيَرىٰ عندها فضلاً من الرّزق وليس بقدر ما يأتيها به جُريح فيقول يا مريم أنّىٰ لك هذا فتقول: **هُوَ مِنْ عِنْدِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ** قال و امّا المحراب فهو مقّدم كلّ مجلس و مصّلىٰ و هو سيّد المجالس و أشرفها و كذلك هو من المساجد.

قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ أنّىٰ، سؤال عن المذاهب والجِهات والمعنىٰ من أيّ المذاهب ومن الجهّات لك هذا قالت مريم هو من عند اللّه قالوا وإنّما كان زكّريا يقول لها ذلك لأنّه كان يغلق عليها سبعة أبواب ويخرج ثمّ يدخل عليها فيجد عندها فاكهة الشّتاء في الصّيف وفاكهة الصّيف في الشّتاء فكان يعجب ممّا يرى من ذلك ويقول لها تعّجباً ممّا يرىٰ أنّىٰ لكِ هذا فتقول، أي مريم، هو من عند اللّه يرزق من يَشاء بغير حساب أي بغير إحصاءٍ ولا عَدد يحاسب عليه عبده.

أقول ذكر السّيوطي في الدّر المنثور وقبله الزّمخشري في الكشّاف و بعد الآلوسي في روح المعاني والحقّي في روح البيان، وأبو حيّان في بحر المحيط و غيرهم من مفسّري العامّة نظير ما وقع لمريم بنت عُمران لفاطمة بنت رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله و نحن ننقل الحديث عن السّيوطي في الدّر المنثور لأنّه نقل الحديث مسنداً بوجهٍ أبسط قال و أخرج أبويعلى عن جابر أنّ رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله أقام أيّاماً لم يطعم طعاماً حتّىٰ شقّ ذلك عليه فطاف في منازل أزواجه فلم يجد عند واحدةٍ منهّن شيئاً فأتىٰ فاطمة فقال يا بنيّة هل عندك شيئ آكله فأنّي جائع فقالت لا واللّه فلّما خَرج من عندها بَعثت أليها جارية لها برغيفين وقطعة لحم فأخذته منها فوضعته في جفنةٍ لها وقالت واللّه لاؤثرّن بهذا رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله علىٰ نفسي ومن عندي وكانوا جميعاً محتاجين الىٰ شبعة طعامٍ فبعثت حسناً أو حسيناً الىٰ رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله فرجع اليها فقالت له بأبي أنت و أمّي قد أتىٰ اللّه بشيئٍ قد خبّأته لك فقال صلى‌الله‌عليه‌وآله هلمّي يابنّية بالجفنة فكشفت عن الجفنة فاذا هي مملوّة خبزاً و لحماً فلمّا نظرت اليها بهتت و عرفت أنّها بركة من اللّه فحمدت اللّه تعالىٰ و قدّمته الىٰ النّبي صلى‌الله‌عليه‌وآله فلمّا رأه حمد اللّه و قال من أين لك هذا يابُنّية قالت يا أبَت هو من عند اللّه أنّ اللّه يرزق من يشاء بغير حساب فحَمِد اللّه ثمّ قال الحمد لِلّه الّذي جعلك شبيهة سيّدة نساء بني إسرائيل فأنّها كانت اذا رزقها اللّه رزقاً فسألت عنه **قالت هُوَ مِنْ عِنْدِ ٱللّٰهِ إِنَّ ٱللّٰهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ** انتهىٰ ما ذكره في الدّر المنثور.

لكن في الكشّاف بعد ما نقلناه عن السّيوطي ما لفظه ثمّ جمع رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله علّي بن أبي طالب والحَسن والحسين وجميع أهل بيته فأكلوا عليه حتّىٰ شبعوا وبقي الطّعام كما هو فأوسَعت فاطمة علىٰ جيرآنها انتهىٰ ما في الكشّاف.

والعجب أنّ الألوسي نقل الحديث عن جابر من طريق أبو يعلىٰ كما ذكره السّيوطي طابق النّعل بالنّعل و لكن أخر الحديث مطابق لما في الكشّاف قوله و قد جمع أو ثمّ جمع علّياً والحَسن عليه‌السلام والحسين عليه‌السلام الخ و منه يحصل الظّن بأنّ السّيوطي أسقط أخر الحديث أو نسّاخ الحديث أسقطوه من الدّر المنثور حتّىٰ لا تثبت الفضيلة لعلّي والحَسن والحسين مضافاً الىٰ ما ثبت لفاطمة عليها‌السلام و ذلك لأنّ فضائل البيت بطيئة الهَضم علىٰ بعضهم، والذّي يوقعني في التّعجب هو أنّ الألُوسي نقل هذا الحديث في المقام و هو إقرار منه بأنّ فاطمة عليها‌السلام كانت في هذه الأمّة كما كانت مَريم بنت عمران في بني إسرائيل و قد صرّح رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله في الحديث و غيره من الأحاديث بأنّها شبيهة بها أو هي أفضل منها كما ورد به النّص فلو فرضنا أنّ فاطمة لم تكن أفضل منها كما إعترف المخالف به فلا أقّل من كونها شبيهة بها ومثلها كما في هذا الحديث و هذا ممّا لم ينكره أحد، ثمّ أنّه أي الألُوسي صرَّح في[1] عند تفسيره لقوله تعالىٰ: **إِلَّآ أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَيةً**[2] بأنّ عمر ضربها و أضرم على بابها النّار وهذه عباراته و ألفاظه.

في كتاب أبان بن عيّاش أنّ أبا بكر رضي‌الله‌عنه بَعث الىٰ علّي قُنفذاً حين بايَعه النّاس ولم يبايعه علّيٌ و قال إنطلق الى علّي وقُل له أجب خليفة رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله فإنطلق فبلَغه فقال له ما أسرعَ ما كذبتم علىٰ رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله وأرتَددتم واللّه ما إستخلف رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله غيري وفيه أيضاً أنّه لمّا يجب علّيٌ غَضب عُمر و أضرم النّار بباب علّي و أحرَقه و دَخَل فإستَقبلَته فاطمة وصاحت يا أبتاه و يا رسول اللّه فَرَفع عُمر السَّيف و هو في غمده فوجاء به جَنبها المبارك و رَفع السّوَط فَضرب به ضَرعها فصاحت يا أبتاه فأخَذ علّيٌ بتلابيب عُمر و هَزَّه و وَجاء أنفَه و رقبته انتهىٰ

١- ص ١٢٤

٢- آل عمران = ٢٨

و هذا الذّي ذكره الألوسي لا يختّص به بل نقله غير واحدٍ من العامّة مع تفاوتٍ في الألفاظ و اذا كان كذلك فما العذر عند الألوسي و غيره غداً يوم القيامة اذا سُئل عنهم كيف أخذتم هؤلاء أولياء بعد نبّيكم و قد علمتم منهم ما علمتم، اللّهم لا تكلنا الىٰ أنفسنا طرفة عينٍ أبداً، **هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ** هنالك ظرف يستعمل للزّمان والمكان و أصله للمكان و قيل هنالك في الزّمان، و هناك للمكان و قد يجعل هذا مكان هذا و كيف كان فالمعنىٰ عند ذلك الذّي رأىٰ من فاكهة الشّتاء في الصّيف والصّيف في الشّتاء عند مَريم بنت عمران على خلاف ما جرت به العادة علم أنّ اللّه يقدر علىٰ كلّ شئٍ وأن كان خارجاً عن عالم الأسباب فطمع في الولد من العاقر علىٰ خلاف مجرىٰ العادة و سأل اللّه ذلك بقوله:

قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ أي أعطني من عندك نسلاً صالحاً أنّك سميع الدُّعاء، أي سامِع و قابل، و أنّما سأل **ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً** لأنّ الذرّية أعني بها النّسل اذا لَم تكن طيّبة أي صالحة لا فائدة فيها.

أقول قد فسَّروا قوله: **ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً** بالصّالحة أي نسلاً صالحاً أو مُباركاً و امثال ذلك من الألفاظ، ولقائلٍ أن يقول، لِمَ لم يقل ذرّيةً صالحةً أو مباركةً و قال طيّبةً وليست كلمة، طَيبّة أفصح من كلمة، صالحة و أمثالها فما وجه العدول عنها بها ولم أجد في التفاسّير ما يرفع الإبهام عن ذلك بل لم يتعرّضوا في تفاسيرهم ما تعرّضنا له و كأنّهم غفلوا عنه أو لَم يتفطّنوا لذلك، والّذي يختلج بالبال في حلّ الإشكال هو أنّ وجه العدول أنّما هو لنكتةٍ خفيت على أكثر العقول وهي أنّ الصّلاح غير الطَيّب و بعبارةٍ أخرىٰ بين الذّرية الطّيبة والذّرية الصّالحة فرق عند الدّقة و التّأمل و توضيحه أنّ الصّلاح ضدّ الفساد والطيّب ضدّ الخبيث و الأُو لان أعني بهما الصّلاح والفساد كثيراً ما يستعملان في الأعمال الصّادرة من الإنسان:

قال اللّه تعالىٰ: **خَلَطُوا عَمَلًا صٰالِحًا وَ آخَرَ سَيِّئًا**[١].

قال اللّه تعالىٰ: **وَ اَلَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا اَلصّٰالِحٰاتِ**[٢].

قال اللّه تعالىٰ: **إِنَّ اَللّٰهَ لاٰ يُصْلِحُ عَمَلَ اَلْمُفْسِدِينَ**[٣].

و أمثال ذلك من الأيات و امّا الطّيب والخَبيث فلا يستَعملان في الأعمال فلا يقال هذا عملٌ طيّب أو خبيث إلاّ علىٰ سبيل التّجوز بل يقال هذا رجل طيّب أو رجل خبيث فهما أي الطّيب و الخبيث أكثر استعمالاً في الذّوات كما أنّ الصّلاح و الفساد أكثر إستعمالاً في الأعمال بل قيل بإختصاص الطّيب و الخَبيث بالذّوات و أنّما يطلقان علىٰ غير الذّات مجازاً و هكذا الكلام في الصّلاح و الفساد إذا عرفت الفَرق فنقول في قوله تعالىٰ: **ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً** إشارة الى طيب المولِد بأن لا يشرك الشيطّان في النُطّفة و انعقادها و من كان كذلك فهو يعمل عملاٍ صالحاً و يختم أمره بخيرٍ وصلاح وهذا بخلاف ما إذا قيل ذرّية صالحة لأنّ معناه أن يَعمل عملاً صالحاً في ظاهر الأمر و هو لا يُنافي أن لا يكون مولده طيّباً خالصاً إذ ولد الزّنا أيضاً قد يعمل صالحاً فضلاً عن المشتبه إذ لا نعني بالعمل الصّالح إلاّ ما كان موافقاً لظاهر الشّرع مثل الصّوم والصّلاة و الحجّ و في الأقوال مثل الصّدق والأمر بالعَدل و السّخاء و أمثالها من المواعظ الحسنة فكلّ ذلك يُعدّ عملاً صالحاً و قد يوجد هذه الأعمال في الذّوات الخبيثة أيضاً حتّىٰ أنّ الكافر قد يعمل عملاً صالحاً قولاً و فعلاً و هذا ممّا لا ينكر و أمّا الّذي سَأل زكرّيا ربّه هو أن يَهب له ذرّيةً طَيّبةً، أي طَيّبة الذّوات بحسب النّطفة والمولد بحيث يصلح للنبوّة ولازم ذلك أن تكون الأرحام و الأصلاب منها لا خبيثة فهو من أحسن الدُّعاء والدّليل علىٰ ما ذكرناه هو أنّ اللّه تعالىٰ أعطاه يحيىٰ النّبي و هو هو و قد ورد في زيارة الحسين عليه السلام أشهد

١- التوبة= ١٠٢
٢- البقرة= ٨٢
٣- يونس = ٨١

أنّك كنت نوراً في الأصلاب الشّامخة والأرحام المُطّهرة الخ ...

و ذلك لأنّ الأنبياء و الأوصياء لكونهم معصومين غير سائر النّاس من حيث الآباء والأمهات وكيّفية الولادة و سيأتي البحث فيه في موضعه والىٰ هذه الدّقيقة أشار بعض المحققين حيث قال، الطّيب من الإنسان، من تعرّىٰ من نجاسة الجهل والفسق و قبائح الأعمال والإيمان ومحاسن الأعمال واليهم:

قال اللّه تعالىٰ: **اَلَّذينَ تَتَوَفّيٰهُمُ اَلْمَلآئِكَةُ طَيّبينَ**[1].

قال اللّه تعالىٰ: **طِبْتُمْ فَادْخُلُوها خٰالِدينَ**[2].

قال اللّه تعالىٰ: **هَبْ لي مِنْ لَدُنْكَ ذُرّيَّةً طَيِّبَةً**[3].

و غير ذلك من الأيات.

■

١- النحل = ٣٢
٢- الزمر = ٧٣
٣-آل عمران = ٣٨

فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَآئِكَةُ وَ هُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ ٱللَّهِ وَ سَيِّدًا وَ حَصُورًا وَ نَبِيًّا مِنَ ٱلصَّالِحِينَ ﴿٣٩﴾

◁ اللّغة

فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَآئِكَةُ: النّداء رفع الصّوت وظهوره، والملائكة جمع مَلَك وأصله ملأك فزيدت التّاء للمبالغة أو لتأنيث الجمع وعن أبي عبيدة أنّ مَلأك من لأكَ إذا أرسل و قد مرّ الكلام فيه غير مرّةٍ.

يُبَشِّرُكَ: البشارة والبُشرىٰ الخبر السّار.

سَيِّدًا وَ حَصُورًا وَ نَبِيًّا: السيّد الزّعيم المطاع في قومه والحَصُور الّذي لا يأتي النسّاء إمّا من العُنّة و امّا من العِفّة والإجتهاد في إزالة الشّهوة و النبيّ مأخوذ من النبّاء وهو الخَبر.

◁ الإعراب

فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَآئِكَةُ فعل وفاعل و مفعول إلاّ أنّ المفعول و هو الهاء قدّم على الفاعل و هو الملائكة لكونه ضميراً متّصلاً هُوَ قَآئِمٌ حال من الهاء في نادته، يُصَلِّى حال من الضّمير في قائم و يجوز أن يكون في موضع رفع صفة لقائم يَحْيَىٰ إسم أعجمي مصّدقاً حال منه و سيّداً و حصوراً و نبيّاً كذلك.

◁ التّفسير

فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَآئِكَةُ وَ هُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ.

الفاء للتّفريغ وتأنيث الفعل بإعتبار لفظ الملائكة وأن كانت التّاء فيهما للمبالغة لا للتأنيث و قد زعمت الجاهليّة أنّ الملائكة أُناث قال بعض الأُدباء أنّ الملائكة مِمّن يعقل في التّكسير فجرى في التأنيث مجرىٰ ما لا يعقل تقول هي الرّجال و هي الجذوع وهي الجمال و قالت الأعراب، أقول و قد ذكر في موضع آخر بالتذّكير:

قال اللّه تعالىٰ:**وَ ٱلْمَلَآئِكَةُ بَاسِطُوٓا أَيْدِيهِمْ**[1].

قال اللّه تعالىٰ:**وَ ٱلْمَلَآئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ**[2].

و هكذا و عليه فتأنيث هذا الجمع وتذكيره حَسَنات ، والمعنىٰ لمّا دعا زكريّا ربّه و قال ربِّ هَب لي من لدُنك الخ.

أجاب اللّه دعوته فنادته الملائكة، بأمر من اللّه تعالىٰ **وَ هُوَ** أي زكريّا **قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ** أي كان في محراب عبادته لإقامة الصّلاة **أَنَّ ٱللَّـهَ يُبَشِّرُكَ** أي بشّروه من قبل اللّه تعالىٰ **بِيَحْيَى مُصَدِّقًا** حال لكونه مُصدِّقاً **بِكَلِمَةٍ مِنَ ٱللَّهِ** يعني عيسى إبن مريم لأنّه روح اللّه وكلمته و المراد التصدّيق برسالته **وَ سَيِّدًا** الّذي يسود قومه **وَ حَصُورًا** لا يأتي النسّاء إجتهاداً **وَ نَبِيًّا** يخبر عن اللّه تعالىٰ **مِنَ ٱلصَّالِحِينَ** كلمة، من، بيّانية لأنّ النّبي لا يكون إلاّ صالحاً فهذا تفسير ألفاظ الآية و منهما مسائل ينبغي البحث عنها.

الأوّلى في ولادة يحيىٰ و أوصافه، والثّانية، في كونه مصدّقاً بكلمةٍ من اللّه، الثّالثة، في معنىٰ سيادته، الرّابعة فى معنىٰ كونه حَصُوراً.

الخامسة، فيّ نبوّته.

أمّا الأوّلىٰ: فقد روى أهل السَّير أنّ زكرّيا لمّا ما رأىٰ عند مريم من فاكهة الشّتاء في الصّيف و فاكهة الصّيف في الشّتاء فقال أنّ الّذي فعل هذا بمريم قادر على أنّ يصلح زوجتي حتّىٰ تلد فقال:**رب هَبْ لي مِنْ لَدُنْكَ** ذرّية طيّبة أنّك

١- الانعام = ٩٣ ٢- الرعد= ٢٣

سميع الدُّعاء فبيّنما هو يصلّي في المحراب فإذا هو برجلٍ شابٌ هو جبرائيل ففزع زكرّيا منه فقال له:

أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ ٱللَّهِ

يعني عيسىٰ بن مريم عليه السلام و يحيى أوّل من آمن بعيسىٰ وصَدّقه و ذلك أنّ أمّه كانت حاملاً به فإستّقبلت مريم وهي حامل بعيسىٰ فقالت لها يا مريم أحاملٌ أنتِ فقالت لماذا تسأليني قالت لِما أنّي أرىٰ ما في بطني يسجد لما في بطنك فذلك تصديقه و قيل صدّق المسيح و له ثلاث سنين و سمّاه اللّه تعالىٰ يحيى و لم يكن قبله من تسّمىٰ هذا الإسم و أنّما ولد يحيى قبل المسيح بثلاث سنين و قيل بسّتة أشهر وكان لا يأتي النّساء و لا يلعب مع الصّبيان و كان عمر زكرّيا حين ولد يحيى إثنين و تسعين و قيل مِائة و عشرين سنة وكانت امرأته إبنة ثمان وتسعين سنة فقيل له كذلك يفعل اللّه ما يشاء فلمّا وُلد يحيىٰ رآه أبوه حسن الصّورة قليل الشّعر قصير الأصابع مقرون الحاجبين دقيق الصّوت قوّياً في طاعة اللّه مذ كان صبّياً قال اللّه تعالىٰ: **وَ آتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا**(١) قيل أنّه قال له الصّبيان يوماً من الأيام يا يحيىٰ إذهب بنا نَلعب فقال ما لِلَّعب خلقت وكان يأكل العشب وأوراق الشّجر و قيل كان يأخذ خبز الشّعير و مرَّ به إبليس و معه رغيف شعير فقال أنت تزعم أنّك زاهد و قد أدخرت رغيف شعيرٍ فقال يحيىٰ يا ملعون هو القوت، فقال إبليس أنّ الأقل من القوت يكفي لمن يموت فأوحىٰ اللّه له اليه أعقل ما يقول لك و نبّيً صغيراً فكان يدعُو النّاس الىٰ عبادة اللّه ولبس الشَّعر فلم يَكن له دينار و لا درهم و لا مسكن يسكن اليه أينما جنّه اللّيل أقام و لم يكن له عبد و لا أمة و إجتهد في العبادة فنظر يوماً الىٰ بدنه و قد نَحل فبكىٰ فأوحىٰ اللّه اليه يا يحيىٰ أتبكي لما نحل

١- مريم = ١٢

من جسمك و عزّتي وجلالي لو اطلّعت في النّار إطّلاعة لتدّرعت الحديد عوض الشّعر فبكى حتّى أكلَت الدّموع لحم خدّيه و بدت أضراسه للنّاظرين فبلغ ذلك أمّه فدخلت عليه و أقبل زكرّيا و معه الأحبار فقال يا نبي مايدعوك الىٰ هذا قال أنت أمرتني بذلك حين قلت أنّ بين الجنّة والنّار عقبة لا يجوزها إلاّ البّكاؤن من خشية اللّه فقال فأبِك و إجتهد إذاً فضعت أمّه قطعتي لبدٍ علىٰ خدّيه تواري أضراسّه فكان يبكي حتّىٰ يبلّهما و كان زكرّيا إذا أراد أن يعظ النّاس نظر فأن كان يحيىٰ حاضراً لم يذكر جنّة و لا نار قالوا وكان سبب قتله أنّ اللّه تعالىٰ لمّا بعث عيسىٰ رسولاً فَنسخ بعض أحكام التّوراة فكان ممّا نسخ نكاح بنت الأخ وكان لملكهم و إسمه هيرُودس بنت أخ تعجبه يريد أن يتزّوجها فنهاه يحيىٰ عنها وكان لها كلّ يومٍ حاجة لتفيها لها فلمّا بلغ ذلك أُمّها قالت لها إذا سألك الملك ما حاجتك فقولي أن تذبح يحيىٰ بن زكرّيا فلمّا دخلت عليه وسألها ما حاجتك قالت أريد أن تذبح يحيى بن زكرّيا فقال الملك سلي غير هذا قالت ما أسألك غيره فلمّا أبت دعىٰ بيحيى و دعاها بطشتٍ فذبحه فلمّا رأت الرأس قالت اليوم قرّت عيني فصعدت الىٰ سطح قصرها فسقطت منه الىٰ الأرض ولها كلاب ضّارة تحته فوثبت الكلاب عليها فأكلتها و هي تنظر وكان آخر ما أكل منها عيناها لتعتبر فلّما قتل يحيىٰ بدرت قطرة من دمه علىٰ الأرض فلم تزّل تغلي حتّىٰ بَعث اللّه بخت نصر عليهم فجائته إمرأة فدّلته علىٰ ذلك الدّم فألقىٰ اللّه في قلبه أن يقتل منهم سبعين ألفاً حتّىٰ سكن الدّم إنتهىٰ ما ذكره إبن الأثير في تاريخه و امّا زكرّيا.

فذكر أنّه لمّا قتل يحيى و سمع أبوه بقتله فرّ هارباً فدخل بستاناً عند بيت المقدس فيه أشجار فأرسل الملك في طلبه فمرّ زكرّيا بالشّجرة فنادته هلّم إليّ يا نبّي اللّه فلّما أتاها إنشّقت فدخلها فأنطبقت عليه و بقىٰ في وسطها فأتىٰ عدّو اللّه إبليس فأخذ هَدب رداءه فأخرجه من الشّجرة ليصدّقوه إذا أخبرهم

ثمّ لقى الطلب فأخبرهم فقال لهم ما تريدون فقالوا نلتمس زكرّيا فقال أنّه سحر هذه الشّجرة فأنّشقت له فدخلها قالوا لا نُصّدق قال فأنّ لي علامة تصدّقوني بها فأراهم طرف رداءه فأخذوا الفؤوس و قطّعوا الشّجرة بأثـنتين و شقّوها بالمنشار فمات زكرّيا فسلّط اللّه عليهم أخبث أهل الأرض فأنتقم به منهم و قيل أنّ السّبب في قتله أنّ إبليس جاء الىٰ مجالس بني إسرائيل فقذف زكرّيا بمريم و قال لهم ما أحبلها غيره و هو الّذي كان يدخل عليها فطلبوه فَهرب و ذكر من دخوله الشّجرة نحو ما تقّدم.

المسئلة الثّانية: كونه **مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ ٱللَّهِ** فنقول المراد بـالكلمة هـنا عيسىٰ إبن مريم:

قال اللّه تعالىٰ:**إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ**[١].

قال اللّه تعالىٰ:**إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَ كَلِمَتُهُ**[٢].

و سنتكلّم في معنى الكلمة هناك وفي كونه مُصَّدقاً، إشارة بل صراحة علىٰ أنّ يحيىٰ كان تابعاً لِعيسىٰ و مصدّقاً برسالته و قد مرّ الكلام في المسئلة الأولىٰ فيه و قلنا أنّه كان أوّل من صدّق عيسىٰ صدّقه وله ثلاث سنين وقلنا أنّه كان أكبر من عيسىٰ بِثلاث سنين و قيل بستّة أشهر و في قوله: **مُصَدِّقًا** إشارةٌ الى أنّ إيمانه بعيسى كان بقلبه و لِسانه فأنّ التصدّيق أمرٌ قلّبي و هو لا يوجد إلاّ بعد تصوّر الموضوع و المحمول والنّسبة الحكميّة فبعد تصّور هذه الثّلاثة يحصل التصدّيق بالنّسبة بين الموضوع والمحمول فالتّصديق بالنّسبة والحكم بها لا يعقل إلاّ بعد معرفة عيسى و الرّسالة و بعبارة أخرىٰ التـصدّيق بأنّ عـيسىٰ رسول موقوف علىٰ تصّور الموضوع و هو عيسى، والمحمول و هو، رسولٌ و النّسبة الحكميّة و هي نسبة الرّسالة إليه و معنّي تصوّرها معرفتها فمن لم يعرف

١- آل عُمران=٤٥

٢- النّساء=١٧١

عيسى ولم يعرف الرّسول فكيف يصدّق بأنّ عيسى رسول و لأجل ذلك قال تعالىٰ: **مُصَدِّقًا** و لم يقل مقراً أو معترفاً بكلمةٍ من اللّه مثلاً لأنّ الإقرار بسبب اللّسان و هو قد يكون بدون التّصور بل بدون الإعتقاد حتّىٰ مع الإعتقاد بخلافه و هو واضح ألا ترىٰ أنّ المُنافق يقول بِلسانه و ينكر بقلبه.

المسئلة الثّالثة: في معنىٰ السيد في قوله: **و سَّيداً**، قالوا السّيد الّذي يسود قومه و منتهى الىٰ قوله و أصله، **سَيْوِد** و يقال فلان **أسوَد** من فلان أفعل، من السّيادة ففيه دلالة علىٰ جواز تَسمية الإنسان سيّداً كما يجوز أن يسمّى عزيزاً أو كريماً وكذلك روي عن النّبي أنّه قال لِبَني قريضة قوموا الى سيّدكُم رسول اللّه في الحَسن بن علّي عليه السلام أنّ ابني هذا سيّد و لعّل اللّه يصلح به بين فئتين عظيمتين من المُسلمين قال القُرطبي بعد نقله ما نقلناه، ولا أسود ممّن سوَّده اللّه تعالىٰ و رسوله، ثمّ نقل عن قتادة في قوله تعالىٰ: **و سَّيداً** قال في العلم و العبادة و قال غيره في العلم والتّقىٰ وعن مجاهد، السِّيد، الكريم، وعن إبن زيد الّذي لا يغلبه الغِّضب و قال الزّجاج السّيد، الّذي يفوق أقرانه في كلّ شئ من الخير و امثال ذلك من الأقوال الّتي ترجع الىٰ قولٍ واحد و هو الّذي يَسّود قومه و ينتهي الىٰ قوله قال رسول اللّه صلى الله عليه وآله **أنا سَيّد وُلد آدم ولا فَخر**. ولذلك يقال له سيّد الأنبياء و لعلّيٍ سيّد الأوصياء ولِلحَسن والحُسين سيّدا الأسباط و لفاطمة عليها السلام سيّدة نِساء العالمين و هكذا.

المسئلة الرّابعة: في تفسير قوله: **وَ حَصُورًا الحَصُور** فعولٌ من **الحَصر** و هو فى الأصل الحبس و لذلك يقال لِلّذي لا يأتي النّساء أنّه حصور كأنّه محجمٌ عنهّن و إنّما قال اللّه تعالىٰ في يحيىٰ،(**وَ حَصُورًا**) أي محصوراً لأنّه كان لا يأتي النّساء فكأنّه كان ممنُوعاً ممّا يكون في الرّجال ثمّ أنّ الحَصُور و هو الّذي لا يأتي النِّساء علىٰ قسمين.

الأوّل: أن يكون مَنشأ الحصر فيه العُنّة ففي هذه لا يقدر علىٰ الجّماع.

الثّاني: أن يكون المَنشأ فيه العِفّة والإجتهاد في ازالة الشّهوة فهو في هذه الصّورة يقدر علىٰ الجّماع بحسب الطّبع بل مايل إليه أيضاً و لكّنه تركه إجتهاداً في إزالة الشّهوة عن نفسه لعلمه بأنّها منشأ الآفات والخطرات و يحيىٰ عليه‌السلام كان من هذا القسم و لذلك مدحه اللّه تعالىٰ و قال في حقّه سيّداً و حَصُوراً و من المعلوم أنّ المدح والثّناء إنّما يكون عن الفِعل المكتسب دون الجّبلة في الغالب فالمعنىٰ أنّه كان يَحصر لِنَفسه عن الشّهوات.

أن قلت يظهر من الآية مدح هذه الصّفة أعني بها كون الإنسان حَصُوراً كما مَدح اللّه بها يحيىٰ، قلتُ لعّل هذا كان في شرع عيسىٰ ممدوحاً و لذلك كان عيسىٰ عليه‌السلام أيضاً كذلك و امّا في شَرعنا فليس كذلك بل هو مَذموم فيه و لذلك قال رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله **(النّكاح سُنّتي فَمن رَغِبَ عن سُنّتي فَلَيس منّي)** تناكحوا تناسلوا فأنّي أباهي بكم الأُمم يوم القيامة والأخبار به كثيرة والأصل فيها قوله تعالىٰ: **وَ أَنْكِحُوا ٱلْأَيامىٰ مِنْكُمْ وَ ٱلصّالِحِينَ مِنْ عِبادِكُمْ وَ إِمائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَرآءَ يُغْنِهِمُ ٱللّٰهُ مِنْ فَضْلِهِ وَ ٱللّٰهُ واسِعٌ عَلِيمٌ**(١) وتفصيل الكلام في هذا الباب في محّله.

الخامسة: قوله **وَ نَبِيًّا مِنَ ٱلصّٰالِحِينَ** والدّليل علىٰ كونه نبّياً مُضافاً الىٰ هذه الآية قوله تعالىٰ: **يا يَحْيىٰ خُذِ ٱلْكِتابَ بِقُوَّةٍ وَ اٰتَيْناهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا**(٢) و امّا كونه من الصّالحين فمعلومٌ لأنّ النّبي لا يكون إلاّ صالِحاً و عليه فَمِن في قوله من الصّالحين بيانّية.

■

١- النّور=٣٢ ٢- مَريم=١٢

قٰالَ رَبِّ أَنّٰى يَكُونُ لِي غُلاٰمٌ وَ قَدْ بَلَغَنِيَ ٱلْكِبَرُ وَ ٱمْرَأَتِي عٰاقِرٌ قٰالَ كَذٰلِكَ ٱللّٰهُ يَفْعَلُ مٰا يَشٰاءُ ﴿٤٠﴾ قٰالَ رَبِّ ٱجْعَلْ لِيَ آيَةً قٰالَ آيَتُكَ أَلاّٰ تُكَلِّمَ ٱلنّٰاسَ ثَلاٰثَةَ أَيّٰامٍ إِلاّٰ رَمْزًا وَ ٱذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا وَ سَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَ ٱلْإِبْكٰارِ ﴿٤١﴾

◁ اللغة

أَنّٰى: بمعنىٰ كيف.

غُلاٰمٌ: الغُلام بضّم الغين قيل هو مشتق من الغُلمة و هو شّدة طِلب النّكاح يقال أغتلَم الفَحل غَلَمة هاجَ من شَهوة الضّراب، قالت ليلىٰ الأخيّلية: شفاها من الدّاء.

العضال الّذي بها غلامٌ إذا هَزّ القناة سقاها

والغلام الطّار الشّارب و هو بَيِّن الغُلومة والغُلُوميّة والجمع الِغلمة و الِغلمان.

عٰاقِرٌ أي عقيم لا تلِد يقال رجل عاقر وإمرأة عاقِر بَيّنة العَقر ومعنىٰ العاقِر، أي ذات عُقر علىٰ النّسب فهو في المعنىٰ مَفعول أي معقُورة و لذلك لم يلحقه تاء التّأنيث و ليس العاقِر إسم فاعل كما توهّمه بعض و ذلك لأنّ الفعل منه، عَقُر، بضمّ القاف و إسم الفاعل من فعل، فعيلة يقال عظمت فهو عظيمة و ظرفت فهي ظريفة فالفاعل منه عقيرة يقال عَقُرت فهي عَقيرة كأنّ بها عَقراً أي كَبراً من السّن يمنعها من الوَلَد و العاقِر العظيم من الرمل لا ينبت شيئاً، والعقر أيضاً مهر المرأة إذا وطئت علىٰ شُبهة.

آيَةً، الآية العلامة.

رَمْزًا: الرَمزّ في اللّغة الايماء بالشّفتين و قد يستعمل في الايماء بالحاجبين و العينين و اليدين و أصله الحركة.

◁ الإعراب

غُلٰامٌ إسم يكون و، لي، خبره و يجوز أن يكون فاعلٌ يكون، علىٰ أنّها تامّة، فيكون، لي مُتعّلقاً بها أو حالاً، من غلام أي أنّىٰ يحدُث غُلام لي أَنَّى بمعنىٰ كيف أو المعنىٰ من أينَ، عٰاقِرٌ أي ذات عُقر فهو علىٰ النّسب كَذٰلِكَ في موضع نصب أي يفعل ما يشاء فِعلاً كذلك ٱجْعَلْ لِيَ آيَةً، آية، مفعول أوّل و،لي، مفعول ثان آيَتُكَ مبتدأ أَلَّا تُكَلِّمَ خبره إِلَّا رَمْزًا استثناء منقطع لأنّ الإشارة ليست كلاماً كَثِيرًا أي ذكراً كثيراً بِالْعَشِيِّ مفرد و قيل جمع عشّية وَ ٱلْإِبْكٰارِ مصدر والتقدّير و وقت الإبكار يقال أبكر، إذا دخل في البكرة.

◁ التّفسير

لمّا بشّر زكّريا بِيحيىٰ قٰالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلٰامٌ أي قال زكّريا يا سيّدي أنّى يكون لي غُلام قال الكلبي الرَّب هنا جَبرئيل أي أنّه قال لجبرئيل يا ربّ أي يا سيّدي و قال بعضهم، هو اللّه تعالىٰ في المقام وكلمة، أنّى بمعنى كيف و هو في موضع نَصب علىٰ الظّرف و في معنىٰ هذا الإستفهام وجهان، أحدهما أنّه سَأل هل يكون له الوَلد و هو و إمرأته علىٰ حالَيهما أو يرّدان الىٰ حال من يلِد

الثّاني: سأل هل يرزق الولد من إمرأته العاقِر أو من غيرها و قيل المعنىٰ بأيّ منزلةٍ استوجب هذا و أنا و إمرأتي على هذه الحال، على وجه التّواضع، أنّه كان بين دعائه والوقت الّذي بشّر فيه أربعون سنة وأختلفوا في يوم البّشارة فقيل كان إبن تسعين سنة و امرأته قريبة السِّن منه و عن إبن عبّاس والضّحاك أنّه كان يوم بشِّر إبن عشرين و مائة سنة و إمرأته بنت ثمان وتسعين سنة وَ قَدْ بَلَغَنِيَ ٱلْكِبَرُ أي بلغ سنّي بحيث لا يترقّب منه الوَلد عادة وَ ٱمْرَأَتِي عٰاقِرٌ أي أنّها أيضاً كذلك لأنّها عقيم لا تَلد قٰالَ كَذٰلِكَ ٱللّٰهُ يَفْعَلُ مٰا يَشٰاءُ أي قال

جَبرئيل علىٰ قول الكلبي أو قال اللّه تعالىٰ علىٰ قول غيره والمعنىٰ أنّ اللّـه تعالىٰ قادرٌ علىٰ كلّ شيءٍ يفعل ما يشاء ويحكم ما يُريد و هو لا يسأل عمّا يفعل و هُم يسئلون.

قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً

لمّا أعلمه اللّه تعالىٰ أنّه يفعل ما يشاء علم زكّريا أنّ الأمر سيقع لا مُحالة طلب منه تعالىٰ آية و علامة تدّل علىٰ وقوع الأمر و لذلك قال ربّ اجعل لي آية قال، أي قال اللّه تعالىٰ: **ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا** قيل، جعل، في قوله ربّ إجعل، بمعنىٰ، صيرّ، لِتعدّيه الى مفعولين، قالوا لمّا بُشّر بالوَلد ولم يبعد عنده هذا في قدرة اللّه طلب آية علامة يعرف بها صحّة هذا الأمر وكونه من عند اللّه فَعاقَبه اللّه بأن أصابه السّكوت عن كلام النّاس لسؤاله الآية بعد مشافهة الكلام إيّاه قاله أكثر المفسّرين و نقل عن إبن زيد أنّ زكّريا لمّا حملت زوجه منه يَحيىٰ أصبح لا يستطيع أن يكّلم أحداً و هو مع ذلك يقرأ التّوراة و يذكر اللّه تعالىٰ فإذا أراد مقاولة أحد لم يَطقه **وَ ٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَ سَبِّحْ بِٱلْعَشِيِّ وَ ٱلْإِبْكَٰرِ** أي و أذكر ربّك على هذه النِّعمة كثيراً و سبّحه أي نَزّهه بالعشّي و الإبكار إداءاً لبعض حقوق اللّه عليك و المرا بالذّكر في المقام مع إعتقال لسانه هو الذِّكر القَلبّي و المراد الإبكار من طلوع الفجر الىٰ وقت الضُّحى و بالعشّي من حين تزّول الشّمس الىٰ أن تغيب.

قال بعض المفسّرين كأنّه لّما طلب الآية من أجل الشّكر قال اللّه له، آيتُك أن يحبس لِسانك إلاّ عن الشُّكر و أحسن الجواب و أوقعه ما كان مشتّقاً من السؤال و منتزعاً منه وكأنّ الإعجاز في هذه الآية من جهة قدرته على ذكر اللّه و عجزه عن تكليم النّاس مع سلامة البنية و إعتدال المزاج و من جهة وقوع العلوق و حصوله على وفق الأخبار، و قيل أُمِر أن يَصُوم ثلاثة أيّام و كانوا لا يتكلّمون في صومهم، و قال أبو مسلم يحتمل أن يكون معناه آيتك أن تَصير

مأموراً بأن لا يتكلّم الخلق و أن تشتغل بالذّكر شُكراً علىٰ إعطاء هذه الموهبة و قيل سأل اللّه أن يفرض عليه فرضاً يجعله شكراً لذلك والّذي يدّل عليه ظاهر الأية أنّه سأل آية تدّل على أنّه يولد له فأجابه بأنّ آيته إنتفاء الكلام منه مع النّاس ثلاثة أيّام إلاّ رمزاً و أمر بالذّكر والتّسبيح، ثمّ إنتفاء الكلام قد يكون تكلّف به أو بملزومه في شريعتهم و هو الصّوم و قد يكون لِمَنع قهّري مدّة معيّنة لآفةٍ تعرض في الجارحة أو لغير آفةٍ مع قُدرته علىٰ الكلام بِذكر اللّه قال الزّمخشري و لذلك قال: **وَ ٱذْكُرْ رَبَّكَ** إلىٰ آخره يعني في أيّام عجزك عن تكلّم النّاس و هي من الآيات الباهرة إنتهىٰ.

و أمّا الإستثناء في قوله: **إِلَّا رَمْزًا** فقيل هو إستثناء منقطع إذ الرَّمز لا يدخل تحت التكلّيم و امّا من أطلق الكلام في اللّغة علىٰ الإشارة و الدّلالة على ما في نفس المُشير فلا يبعد أن يكون الإستثناء عنده مُتّصلاً كما قيل.

أرادت كلاماً فإتّقت من رقيبها ‌ ‌ ‌ فلم يك إلاّ ومؤها بالحواجب

و قال الأخر:

اذا كلّمتني بالعيون الفواتر ‌ ‌ ‌ رددت عليها بالدّموع البوادر

ولأخر:

كلّمته بجنُونٍ غير ناطقةٍ ‌ ‌ ‌ فكأنّ من ردّه ما قال حاجبه

وكونه إستثناءً متّصلاً بداء به الزّمخشري قال لمّا أدّىٰ مؤدّي الكلام و فهم منه ما يفهم منه سُمّي كلاماً، و امّا ابن عطّية فأختار أن يكون منقطعاً قال والكلام والمراد به في الآية أنّما هو النّطق باللّسان لا الأعلام بما في النّفس فحقيقة هذا الإستثناء أنّه مُنقطع ويَدأ به أوّلاً فقال إستثناء الرّمز و هو إستثناء منقطع ثمّ قال وذهب الفقهاء في الإشارة ونحوها الىٰ أنّها في حكم الكلام في الإيمان و نحوها وعلىٰ هذا يجئ الإستثناء متّصلاً.

و أمّا **الرّمز** هنا، فقيل المراد به تحريك الشّفتين، و قيل إشارة باليَد و الرأس، و قيل باليد خاصّة و بالإيماء و روي عن قتادة أنّه إشارة باليَد أو بالعين، رمزه

الكتابة علىٰ الأرض و قيل بالإصبع السّبحة و قيل باللّسان ومنه قول الشّاعر:

ظـلّ أيّـاماً له مـن دهـره يرمز الأقوال من غير خرسٍ

و قيل الرِّمز الصّوت الخفّي، و قرأ علقمة من قيس و يحيى بن وثاب، رمزاً، بضّم الرّاء و الميم علىٰ أنّه جمع رموز كرسل و رسول و على أنّه مصدرٌ، كرمز، جاء علىٰ فعل و اتبعت العين الفاء كاليَسر و اليُسر.

و قرأ الأعمش رَمَزاً بفتح الرّاء و الميم علىٰ أنّه جمع، رامز كخادم و خدم و إنتصابه اذا كان جمعاً علىٰ الحال من الفاعل و هو الضّمير فـي تكـلّم و مـن المفعول و هو النّاس كما قال الشّاعر:

فلئن لقيتك خاليين لتعلمن أبّي وأبّك فارس الأحزاب

أي إلاّ مُترامزين بن كما يكّلم الأخرس النّاس و يكلّمونه و في قوله: **رَمْزًا** دلالة علىٰ أنّ الإشارة تتنزّل منزلة الكلام و ذلك موجود في كثير مـن السّـنة انتهىٰ.

أقول هذه كلمات القوم حوَل الآية.

في تفسير العيّاشي عن أبي بصير عن أبي عبد اللّـه عليه السلام قـال: أنّ زكّريا لمّا دعا ربّه أن يهب له فَنادته الملائكة بما نادته به أحَبَّ أن يعلم أنّ ذلك الصّوت من اللّه تعالىٰ أوحى اليه أنّ أية ذلك أن يمسك لسانه عن الكلام ثلاثة أيّام قال عليه السلام: فلمّا أمَسَك لسانه ولم يتّكلم علم أنّه لا يقدر علىٰ ذلك إلاّ اللّه و ذلك قول اللّه: رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا

و أيضاً عنه عليه السلام: قال لمّا سأل ربّه أن يهب له ذكراً فوَهب اللّـه له يَحيىٰ فدخله من ذلك، فقال: رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا كان يومئ برأسه و هو الرَّمـز انـتهىٰ وأهل البيت أدرى بما في البَيت.

■

وَ إِذْ قالَتِ ٱلْمَلآئِكَةُ يا مَرْيَمُ إِنَّ ٱللّٰهَ ٱصْطَفٰيكِ وَ طَهَّرَكِ وَ ٱصْطَفٰيكِ عَلٰى نِسآءِ ٱلْعالَمِينَ ﴿٤٢﴾ يا مَرْيَمُ ٱقْنُتي لِرَبِّكِ وَ ٱسْجُدي وَ ٱرْكَعي مَعَ ٱلرّاكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ذٰلِكَ مِنْ أَنْبآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَ ما كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَ ما كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾ إِذْ قالَتِ ٱلْمَلآئِكَةُ يا مَرْيَمُ إِنَّ ٱللّٰهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي ٱلدُّنْيا وَ ٱلْآخِرَةِ وَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَ يُكَلِّمُ ٱلنّاسَ فِي ٱلْمَهْدِ وَ كَهْلاً وَ مِنَ ٱلصّالِحِينَ ﴿٤٦﴾

◁ اللّغة

قد مرّ الكلام في معنىٰ الملائكة.

يٰا مَرْيَمُ: يعني خادم الرّب في لغتهم.

ٱصْطَفٰيكِ: أي إختارك فأنّ الإصطفاء الإختيار.

أَنْبٰآءِ ٱلْغَيْبِ: أنباء جمع نَبَأ و هو الخبر و منه النبّي لأنّه يخبر عن اللّه.

نُوحِيهِ: من أوحىٰ يُوحىٰ و أصل الوَحي الإشارة السّريعة.

أَقْلامَهُمْ: الأقلام جمع قَلَم و هو في الأصل القصّ من الشئ الصّلب كالظّفر و كعب الرّمح والقصب و لكنّه خُصّ بما يكتب به و بالقدح الّذي يضرب به و جمعه أقلام.

يَكْفُلُ: الكفالة الضّمان.

ٱلْمَسِيحُ: أصل المَسح إمرار اليَد علىٰ الشئ و إزالة الأثر عنه و قيل سُمي عيسى عليه‌السلام مسيحاً لكونه ماسحاً في الأرض أي ذاهباً فيها.

عِيسَى: إسمٌ علم و اذا جُعل عرّبياً أمكن أن يكون من قولهم بعير أعيَس و ناقة عَيساء و جمعها عِيس و هي إبلٌ بيض يعتري باضها ظلمة أو من العيس و هو ماء الفَحل يقال عاسها ميسها.

وَجِيهًا: يقال فلان وَجيه أي ذُو جاه.

وَ كَهْلاً: الكَهل بفتح الكاف و سكون الهاء من و خطّه الشّيب والباقي واضح.

◁ الإعراب

وَ إِذْ قَالَتِ أي و أذكر يا مُحمّد إذ قالت و يجوز أن يكون معطوفاً علىٰ (إذ قالت امرأة عمران)، ٱصْطَفَىٰكِ والأصل في إصطفىٰ إصتفىٰ بالتّاء ثمّ أُبدلت التّاء طاء لتوافق الصّاد في الإطباق و تكرار للتأكيد ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ يجوز أن يكون التقدّير الأمر ذلك و عليه مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ حال من، ذا و يجوز أن يكون ذلك مبتدأ و من أنباء، خبره و يجوز أن يكون نُوحِيهِ خبر ذلك و مِن أنباء حالاً من الهاء في نُوحيه و يجوز أن يكون متعلّقاً، بنوحيه، أي الإيحاء مبدّوٌ به من أنباء الغيب إِذْ يُلْقُونَ ظرف لكان أو للإستقرار الّذي تعلّق به لديهم أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ مبتدأ و خبر في موضع نصب أي يقترعون أيّهم فالعامل فيه ما دّل عليه، يُلقُون إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُإذ بدل، من إذا، الّتي قبلها و يجوز أن يكون ظرفاً ليختصمون والتقدّير، إذكر مِنْهُفي موضع جرّ صفة لكلمة و من، هنا لإبتداء الغاية ٱسْمُهُ مبتدأٱلْمَسِيحُ خَبره وعِيسَىبدلٌ منه أو عَطف بيانٍٱبْنُ مَرْيَمَخبر مُبتدأ محذوف، أي هو، وَجِيهًا ومن المُقرّبين، و يكلّم، أحوال مقدّرة و صاحبها معنىٰ الكلمة و هو، مكوّن أو مخلوق فِى ٱلْمَهْدِ حال من الضّمير في يكلّم أي يكلّمهم صغيراً و يجوز أن يكون ظرفاً وكَهْلاً يجوز أن يكون حالاً معطوفة على، وجيهاً، وأن يكون معطوفاً علىٰ موضع، في المهد، إذا جعلته حالاً مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ حال معطوفة علىٰ، وجيهاً.

◁ التّفسير

وَ إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أي و أذكر يا محمّد إذ قالت الملائكة و يمكن أن تكون الواو للعطف على قوله وإذ قالت إمرأة عمران، **يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ** أي أنّ اللّه إختارَكِ **وَ طَهَّرَكِ** أي من الكفر أو من مطلق الأرجاس و الأدناس كالحيض و النّفاس و غيرهما و الحقّ أنّها كانت مطهّرة مطلقاً ظاهراً و باطناً لمكان عصمتها **وَ ٱصْطَفَىٰكِ** لولادة عيسىٰ **عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ** قال الحَسَن و إبن جريح يعني عالمي زمانها و قال بعضهم علىٰ نساء العالمين، أجمع الى يوم الصُّور و هو قول الزّجاج قال القُرطبي بعد نقله الأقوال و هو الصّحيح أي قول الأخير، قالوا وكرّر الإصطفاء لأنّ معنىٰ الأوّل الإصطفاء لعبادته و معنى الثّاني لولادة عيسىٰ ،و قيل كرّر علىٰ وجه التّوكيد والمبالغة، و قيل لمّا أطلَق الإصطفاء الأوّل بيّن بالثّاني أنّها مصطفاة على النّساء، و قال الزّمخشري في الكشّاف، إصطفاك، أوّلاً حين تقبلك من أُمّك و ربّاك و اختّصك بالكرامة السِّنة **وَ طَهَّرَكِ** ممّا يستقذر من الأفعال و ممّا قذفك به اليهود **وَ ٱصْطَفَىٰكِ** آخراً علىٰ نساء العالمين بأن وهب لك عيسى من غير أبٍ ولم يكن ذلك لأحدٍ من النّساء، و قيل هو خدمة البيت، و قيل التّحرير و لم تحرّر أنثى غير مريم، و قيل سلامتها من نخس الشّيطان، و قيل نبوّتها فأنّه قيل أنّها نبّئت وكانت الملائكة تظهر لها و تخاطبها برسالة اللّه لها وكان زكرّيا يَسمع ذلك فيقول أنّ لمريم شأناً و الأقوال كثيرة و هذه الأقوال كلّها من العامّة في تفاسيرهم، و قال الشّيخ في التّبيان و أنّما كرّر لفظ اصطفاك لأنّ معنى الأوّل إصطفاك بالتّفريغ لعبادته بما لطف لك حتّى انقطعت الىٰ طاعته و صرت متوّفرة علىٰ إتّباع مرضاته، و معنىٰ الثّاني إصطفاكِ بالإختيار لولادة نبّيه عيسىٰ علىٰ قول الجبائى.

ثمّ قال: و قال أبو جعفر عليه السلام**: إصطفاها أوّلاً من ذّر يـة الأنـبياء و**

طَّهَرها من السّفاح والثّاني إصطفاها لولادة عيسىٰ عليه السلام من غير فحلٍ انتهىٰ.

أقول عن الحَكَن بن عُتيبة قال سألتُ أبا جعفر عليه السلام عن قول اللّه في الكتاب،وَ إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَآئِكَةُ يٰا مَرْيَمُ إِنَّ ٱللّٰهَ ٱصْطَفٰيكِ إصطفاها مرّتين والإصطفاء مرّة واحدة قال فقال عليه السلام لي يا حكيم أنّ لهـذا تأويلاً و تفسيراً فقلتُ له فَفسّره لنا أبقاك اللّه فقال يعني اصطفاها أوّلاً مِن ذرّية الأنبياء المصطفين المرسلين وطّهرها من أن يكون في ولادتها من آباءها وأُمهاتها سفاحاًوإصطفاها بهذا في القرآن يٰا مَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وفي تفسير علّي بن إبراهيم قوله وَ إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَآئِكَةُ يٰا مَرْيَمُ إِنَّ ٱللّٰهَ ٱصْطَفٰيكِ

قال إصطفاها مرّتين أمّا الأوّل فإصطفاها أي إختارها والثّانية فأنّها حملت من غير فحلٍ فإصطفاها بذلك علىٰ نساء العالمين.

و عن أبي جعفر عليه السلام: معنىٰ الآية إصطفاكِ من ذّرية الأنبياء و طّهرك من السّفاح ، وإصطفاكِ لولادة عيسىٰ مِن غير فحلٍ و زوج[1] و أختلفوا في المراد من قوله تعالىٰ:ٱصْطَفٰيكِ عَلٰى نِسٰآءِ الْعٰالَمِينَ فقال: أكثر المفسّرين من العّامة أنّ اللّه إصطفاها علىٰ نساء العلمين من الأوّلين والآخرين بعضهم المراد بالعالمين عالِمي زمانها.

و أمّا الشّيعة فإتّفقت على أفضلّية فاطمة عنها و أنّها أي مريم كانت سيّدة نساء زمانها و عليه فالأقوال الثّلاثة ترجع الىٰ قولين.

أحدهما: أنّها كانت أفضل النّساء الىٰ يوم الصُّور.

ثانيهما: كانت أفضل نساء زمانها و عالمها و نحن نشير الى القولين و دلائلهما ثمّ نقول ما هو الحقّ عندنا.

١- تفسير نور الثّقلين ج ١ ص ٣٣٦

أمّا القول الأوّل أعني به القائلين بأفَضلية مريم علىٰ جميع النّساء الىٰ يوم الصُّور.

فمنهم القُرطبي في تفسيره لهذه الآية وإستّدل علىٰ مُدّعاه بالأخبار الواردة عن رسول اللّه.

ما رواه عن مُسلم عن أبي موسىٰ قال :قال رسول اللّه ﷺ كُمل من الرّجال كثير ولم يُكمل من النّساء غير مريم بنت عمران و آسية إمرأة فرعون وأنّ فضل عائشة علىٰ النّساء كفضل الثّريد علىٰ سائر الطّعام، ثمّ قال قال علماؤنا الكمال هو التّناهي و التّمام و يقال في ماضيه، كمَل بفتح الميم و ضمّها و يكمل في مضارعه بالضمّ و كمال كلّ شئٍ بحسَبه و الكمال المطلق أنّما هو لِلّه تعالىٰ خاصّة و لا شكّ أنّ أكملَ نوع الإنسان الأنبياء ثمّ يليهم الأولياء من الصّديقين و الشّهداء و الصّالحين و اذا تقّرر هذافقد قيل أنّ الكمال في الحديث يعني به النّبوة فيلزم عليه أن تكون مَريم عليها السّلام وآسية نَبّيتين و قد قيل بذلك والصّحيح أنّ مريم نبّية لأنّ اللّه تعالىٰ أوَحىٰ اليها بواسطة الملك كما أوجى الى سائر النّبيين حسب ما تقّدم و يأتي بيانه أيضاً في مَريم و امّا آسية فلم يرد ما يدّل علىٰ نبّوتها دلالة واضحة بل علىٰ صدّيقيتها و فضلها علىٰ ما يأتي بيانه في التّحريم وروي من طرق صحيحة أنّه عليه السلام قال فيما رواه عنه أبو هريرة خير نساء العالمين أربع مَريم بنت عمران، وآسية بنت مزاحم إمرأة فرعون و خديجة بنت خويلد و فاطمة بنت محمّد و من حديث ابن عبّاس عن النّبي ﷺ أفضل نساء أهل الجنّة خديجة بنت خويلد و فاطمة بنت محمّد و مَريم بنت عمران و آسية بنت مزاحم إمرأة فرعون.

و في طريق أخر عنه ﷺ سيّدة نساء أهل الجنّة بعد مَريم فاطمة و خديجة.

فظاهر القرأن والأحاديث يقتضي أنّ مَريم أفضل من جميع نساء العالم من حوّاء الىٰ أخر إمرأةٍ تقوم عليها السّاعة فأنّ الملائكة قد بلغتها الوحي عن اللّه عزّ وجلّ بالتكلّيف والأخبار والبشارة كما بلَّغت سائر الأنبياء فهي اذاً نبيّة و النّبي أفضل من الوّلي فهي أفضل من كلّ النّساء الأوّلين و الأخرين مطلقاً ثمّ بعدها في الفضيلة فاطمة ثمّ خديجة ثمّ آسية وكذلك رواه موسى بن عقبة عن كريب عن ابن عبّاس قال قال رسول اللّه سيّدة نساء العالمين مَريم ثمّ فاطمة ثمّ خَديجة ثمّ آسية، وهذا حديث حَسن يرفع الإشكال و قد خصّ اللّه مَريم بما لم يؤته أحداً من النّساء و ذلك أنّ روح القدس كلّمها و ظهر لها ونَفَخ في دِرعها ودنا منها للنّفخة فليس هذا لأحَدٍ من النّساء و صدّقت بكلمات ربّها ولم تسأل أية عند ما بُشرّت كما سأل زَكّريا و لذلك سمّاه اللّه في تنزيله صدّيقة وساق الكلام بتكرار ألفاظه مرّةً بعد أُخرىٰ الىٰ أن قال و كذلك شأن مريم لم تنل شهادة اللّه في التنزّيل بالصدّيقة والتصدّيق بالكلمات إلاّ لمرتبةٍ قريبة دانية و من قال لم تكن نبّية قال أنّ رؤيتها للملك كما رؤِي جبرئيل في صفة دحية الكلبي حين سؤاله عن الإسلام والإيمان ولم تكن الصّحابة بذلك أنبياء والأوّل أظهر و عليه الأكثر واللّه أعَلم انتهىٰ كلام القُرطبي و أنّما نقلنا عين عباراته و ألفاظه أمّا أوّلاً فلأجل حفظ الأمانة في نقل كلام الغير و ثانياً لأنّه لا يظُنّ ظانّ أنّا نسبنا اليه غير ما قال و بهذه المقالة قال الطّبري أيضاً و ذكر في تفسيره أخباراً من طرقهم من شاء الإطّلاع عليها فعليه بكتابه و مثله السّيوطي في الدّر المنثور فأنّه روي عن عبد الرّحمٰن بن أبي ليلىٰ قال: **وَ إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَآئِكَةُ يا مَرْيَمُ إِنَّ ٱللّٰهَ ٱصْطَفٰيكِ وَ طَهَّرَكِ**[1].

۱- آل عمران = ۴۲

قال رسول اللّه ﷺ: فاطمة سيّدة نساء العالمين بعد مَريم ابنة عمران وآسية إمرأة فرعون وخديجة بنت خويلد.

و به قال الفَخر الرّازي في تفسيره و هكذا قال كثير من مفسّري العامّة ومنهم من سكت عن البحث في هذا الموضُوع كالزّمخشري في الكشّاف والقاضي البيضاوي في تفسيره و الحقّي في رُوح البيان والرّشيد رضا في تفسير المنار و امثالهم ومنهم من تردّد في المقام ولم يرجّح من الأربعة واحدة منهنّ و قال هو طريق الإحتياط والذّي عليه أكثر المفسّرين من العامّة أفضّلية مَريم علىٰ سائر النّساء الىٰ أخر الدّنيا بقولٍ مطلق

و أمّا الشّيعة فلا خلاف عندها أنّ فاطمة بنت رسول اللّه أفضل النسّاء في الدّنيا والأخرة ولا يقاس بها أحد وحيث إنّجر الكلام الىٰ هذا المقام فلا بأس بالإشارة الىٰ بعض ما وَرد في فَضلها سلام اللّه عليها وعلىٰ أبيها وبعلها و بَنيها و قبل الحوض في أصل الموضوع لابدّ لنا من الجواب عمّا قاله القُرطبي و أمثاله في إثبات أفضّلية مَريم.

فنقول أمّا الحديث الأوّل و هو ما رواه عن أبي موسىٰ قال رسول اللّه ﷺ كمُل من الرّجال كثير ولم يكمل من النسّاء غير مريم بنت عمران و آسية إمرأة فرعون وأنّ فضل عائشة علىٰ النّساء كفضل الثّريد علىٰ سائر الطّعام.

ففيه، أنّ هذا الحديث ينادي بأ علىٰ صوته أنّه مجعول اذ لا يُؤيده العقل و لا النّقل.

أمّا العقل:

فلأنّه لم يدّل دليلٌ منه علىٰ فضل الثّريد بقولٍ مطلق اذ كثيراً ما يكون غير الثّريد من الطّعام أفضل منه و هو واضح.

ثانياً: أنّ الكمال في الإنسان لا يحصل إلاّ بالعصمة فمن لا يكون معصوماً

لا يكون كاملاً في الحقيقة و لازم الحديث هو أنّ آسية كانت معصُومة ولم يقل به أحَد.

ثالثاً: يلزم منه أن تكون عائشة فوق الكمال و أن شئت قلت فوق العصمة و لم يقل أحد بعصمتها فضلاً عن كونها فوق مقام العِصمة بل هي أيضاً لا ترضىٰ بهذا القول.

أمّا النّقل.

فلأنّ إجماع الأُمّة وإتّفاقهم علىٰ عدم إنحصار الكمال فيها مضافاً الىٰ الأخبار الواردة فيه من الطّرفين و قد نقل القُرطبي و غيره كثيراً من الأخبار عن رسول اللّه أنّه قال خير نساء العالمين أرَبع فهذا الخبر مطروحٌ لا يعوّل عليه و بما ذكرناه يندفع كلّ ما فرّعَه علىٰ الحديث من أنّ الكمال يعني به النبوّة فيلزم أن يكون مريم و آسية نبيّتين و قد قيل بذلك اذ يقال له و من قال بذلك من المسلمين في حقّهما نعم قال بعض العامّة أنّ مريم كانت نبّية والقُرطبي أيضاً منهم و امّا آسية فلم يقل بنبّوتها أحدٌ فيما نَعلم فهذا القول بالنّسبة الىٰ آسية لا قائل به و امّا مريم البتُول فهي أيضاً كذلك و القائل بنبوّتها مجنُون أو قريبٌ به لأنّ منصب النبوّة و الرّسالة و الوصاية و القضاوة و أمثالها مختصّ بالرّجال فاذا منع الشّارع من قضاوة المرأة فكيف يمكن القول بجواز نبُوتّها، و أوهَن من أصل المُدّعىٰ إستدلالة بأنّ اللّه أوَحىٰ اليها بواسطة الملك كما أوحى الىٰ سائر النّبيين، و ذلك لأنّه لو كان الوَحي الىٰ موجودٍ من الموجودات دليلاً على النبوّة لكان النّحل نبّياً لقوله تعالىٰ: **وَ أَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِي مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا**[١] بل يلزم كون نبوّة النّحل أقوى و أفضل من نبّوة مَريم و ذلك لأنّ الوَحي بالنّسبة الى مَريم كان بسبب الملائكة لقوله: **وَ إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَآئِكَةُ يَا مَرْيَمُ** بالنّسبة الى النّحل كان بغير واسطة الملك بل اللّه تعالىٰ هو الّذي أوَحىٰ

١- النّحل=٦٨

اليه لقوله و أوحى ربّك الىٰ النّحل الآية فيلزم أن يكون من أفضل الأنبياء علىٰ مذهب القُرطبي و منه غير بعيد، ثمّ أنّ القُرطبي كيف قال ما قال وكتاب اللّه بين يديه يكذّب دعواه:

قال اللّه تعالىٰ: **وَ مٰا أَرْسَلْنٰا مِنْ قَبْلِكَ إِلاّٰ رِجٰالاً نُوحيٖ إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ اَلْقُرىٰ**(١).

قال اللّه تعالىٰ: **وَ مٰا أَرْسَلْنٰا قَبْلَكَ إِلاّٰ رِجٰالاً نُوحيٖ إِلَيْهِمْ فَاسْئَلُوا أَهْلَ اَلذِّكْرِ**(٢).

فهذه الأيات تُصّرح بأن يكون الرّسول إلاّ من الرّجال هذا مضافاً الىٰ إتّفاق الأمّة علىٰ عدم صلاحيّة المرأة كائنة ماكانت للنّبوة فالقول بأنّها نَبِّية عاطلٌ باطلٌ.

و أمّا مارواه عن أبي هُـريرة قـال رسـول اللّـه صلى الله عليه وآله: خـير نسـاء العالمين أربع.

و ما رواه عن ابن عبّاس عنه صلى الله عليه وآله أفضل نساء أهل الجنّة خديجة بنت خويلد.

الحديث ففي هذين الحديثين ليس ما يدّل علىٰ أفضّلية مريم لأنّ الرّسول قال فيهما أنّ هذه الأربعة خير نساء العالمين أو خير نساء أهل الجـنّة و هـو مُسلم لا كلام فيه و أنّما الكلام في الأفضّلية فلو كان الأمر كما ذَكره القُرطبي لقال رسول اللّه و مَريم أفضّلهن في الدّنيا أو في الأخرة و لم يقل دليل على العدم، و امّا حديثه الأخر:

سيّدة نساء أهل الجنّة بعد مَريم فاطمة وخديجة، فهو على فرض صحتّه لا يثبت مدّعاه لأنّه خبر واحد تفرّد بنقله القُرطبي و لذلك لا يصلح للإستدلال به و لم ينقله الطّبري و السّيوطي و أمثالهما مع أنّ تـفسير الطّـبري والسّـيوطي أساسهما علىٰ ذكر الأخبار فلو كان الخبر صحيحاً لذكراه.

١- يوسف=١٠٩

٢- الأنبياء=٧ والنّحل=٤٣

و ثانياً علىٰ فرض صحّة الحديث فهو خارج عن البحث و ذلك لأنّ البحث في قوله تعالىٰ: **ٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ** وكون مريم سيّدة نساء أهل الجنّة أوّلاً لا بحث لنا فيه فعلاً.

و أمّا قوله فظاهر القرأن والأحاديث يقتضي أنّ مريم أفضل من جميع نساء العالم من حواء الى أخر امرأةٍ تقوم عليها السّاعة، فهو المُدّعىٰ فأيَن الدّليل و إستناده الىٰ ظاهر القرأن و الأحاديث فقد عرفت الكلام فيه، وقوله بعد ذلك فأنّ الملائكة قد بلّغتها الوحي عن اللّه، فهو تكرار لما سبق و قد مرّ الجواب عنه، وقوله فهي إذاً نَبّية و النبّي أفضل من كلّ النسّاء من والأولين والآخرين مطلقاً، ففيه أنّ ما ذَكره فرغ على نبوّتها و قد تكلّمنا فيها فقوله فهي إذاً نبيَّة الخ

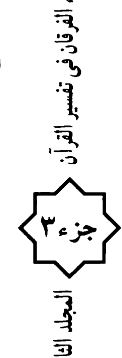
أشبه بكلام الجاهل بمقام النبوّة بل هو من سنخ كلام المَجانين الّذي لا ينبغي التوجّه اليه فضلاً عن ردّه.

و قوله و قد خصَّ اللّه مريم بما لم يؤته أحَداً من النّساء الخ..

فقد ظَهر جوابه عمّا سبق القول به ولا حاجة الىٰ إطالة الكلام في الباب إذ ليس له دليل من العقل والنّقل علىٰ إثبات مدّعاه سوىٰ الأحاديث المجعولة والتأويلات المُنكرة الموهوبة الّتي لا تليق بالبَحث والتّحقيق والعجب من الرّازي حيث قال.

الخامسة رُوي أنّه عليه الصّلوة والسّلام قال: حسبك من نساء العالمين أربع، مريَم وآسية إمرأة فرعون، وخديجة و فاطمة فقيل أنّ هذا الحديث دلّ علىٰ أنّ هؤلاء الأربع أفضل من سائر النّساء وهذه الآية دلّت علىٰ أنّ مريم أفضل الكلّ وقول من قال المراد أنّها مصطفاه علىٰ عالمي زمانها فهذا ترك الظّاهر انتهىٰ.

أمّا قوله أنّ هذا الحديث دلّ علىٰ أنّ هؤلاء الأربع أفضل من سائر النّساء كلام معين و امّا قوله وهذا الآية دلّت علىٰ أنّ مريَم أفضل الكلّ فهو إستنباط



من نفسه و مع ذلك يُعدّ من تفسير القرآن بالرأي و ذلك لعدم صراحة الآية فيما قال و أنّما دلّت علىٰ كونها أفضل نساء العالمين في زمانها هذا هو الظّاهر من الأية و دُونه خرط القتاد هذا أوّلاً و امّا ثانياً أنّ أقصىٰ ما يمكن أن يُدّعىٰ في قوله: سيّدة نساء العالمين، أنّه أعمّ من عالمي زمانها و عليه فتفسير الآية من المتشابهات الّتي يرجع فيها الىٰ الرّاسخين في العلم وفي رأسهم رسول اللّه صلى الله عليه وآله و سنبيّن لك أنّه صلى الله عليه وآله فَسّر الآية علىٰ خلاف الرّازي و أمثاله، و امّا في مسألة النبوّة فقد صرّح الرّازي بأنّها ما كانت من الأنبياء و هو كذلك إذا عرفت هذا فأعلم أنّ فاطمة عليها السلام سيّدة نساء العالمين من الأولين والآخرين و وافقنا على ذلك كثير من فُحول علماء العّامة الّذين أخَرجُوا نفوسهم عن قيّد التعصّب و العناد و قالوا الحقّ و أن كان علىٰ خلاف أميالهم خوفاً من المعاد و نحن نُشير أوّلاً الىٰ شطرٍ ممّا روته العّامة ثمّ نُردفه بما قالته الخاصّة فنقول روي في فضائل الخمسة من الصّحاح الستّة عن كتاب ذخائر العقبىٰ[1].

قال روي الملا في سيرته أنّ النبّي صلى الله عليه وآله قال: أتاني جبرائيل بتفاحةٍ من الجنّة فأكلتها و واقعت خديجة فحملت بفاطمة فقالت أنّي حملت حملاً خفيفاً فإذا خرجت حدّثني الّذي في بطني فلمّا أرادت أن تضع بعثت الىٰ نساء قريش لتأتّينها فَيلين منها ما تلي النّساء ممّن تَلد فَلم يفعلن و قلن لا نأتيك و قد صِرت زوجة محمّد فبينما هي كذلك إد دخل عليهما أربع نسوة عليّهن من الجمال و النّور ما لا يوصف فقالت لها إحدايّهن، أنا أمّك حوّاء وقالت الآخرىٰ أنا آسية بنت مزاحم وقالت الأخرى أنا كلثوم أُخت مُوسىٰ وقالت الأخرىٰ أنا مريم بنت عُمران أمّ عيسىٰ جئنا لنلي من أمرِك ما تلي النّساء قالت

١- ذخائر العقبىٰ ص ٤٤

فوُلدت فاطمة سلام اللّه عليها فوقَعت حين وقعت علىٰ الأرض ساجدة رافعة إصبعها انتهىٰ[۱].

أقول إذا تأملّت في هذا الحديث لا تشكّ في أفضليّة فاطمة علىٰ مريم و غيرها و ذلك لأنّ مريم و آسية و حَوّاء وكُلثُوم جعلن كالقوابل لفاطمة و من قال أنّ القابلة الخادمة أفضل من مَخدومتها فهو مجنون بلاكلام بل يظهر من الحديث أفضليّة خديجة أيضاً، اللّهم إلاّ أن يقال أنّ أفضلية خديجة لأجل حملها بفاطمة وكيف كان فالأفضلّية ثابتة لفاطمة.

و روي الخوارزمي و هو من أعيان العّامة في فضل الحسين، باب فضائل فاطمة، عن أبي هريرة أنّ النّبي صلى الله عليه وآله قال: أوّل شخصٍ يدخل عَلّى الجنّة فاطمة، مثلها في هذه الأمّة كمَثَل مريَم بنت عمران في بني إسرائيل انتهىٰ.

أقول معنىٰ الحديث أنّ فاطمة أفضل نساء هذه الأُمّة كما أنّ مريم كانت أفضل نساء بني إسرائيل و لا شكّ أنّ هذه الأمّة أفضَل من بني إسرائيل فَمن كان أفضل نساء هذه الأُمّة فهو أفضل من نساء بني إسرائيل بطريقٍ أولَىٰ المطلوب[۲].

و روي في المناقب عن كتاب حلية الأولياء وكتاب الشيرازي روي عمران بن حصين وجابر بن سمرة أنّ النّبي دَخل علىٰ فاطمة فقال كيف تَجدينك يا بنيّة قالت أنّي لوجعة وأنّه ليزيدني أنّه مالي طعام آكله، قال صلى الله عليه وآله يا بُنّيَ أما تَرضين أنكِ سيّدة نساء العالمين قالت يا أبة فأينَ مَريم بنت عمران قال صلى الله عليه وآله تِلك سيّدة نساء عالمها وأنتِ سيّدة نساء عالمكِ أمَ واللّه زوجتكِ سيّداً في الدّنيا والأخرة انتهىٰ[۳].

۱- فضائل الخمسة ج ۳ص ۱۲۵ ۲- مقاتل الخوارزمي ج ۱ص ۷۶
۳- المناقب لأبن شهر آشوب ج ۳ص ۳۶۳

وجه الدّلالة في الحديث ظاهر و ذلك لأنّ سيّدة نساء المسلمين أفضل من سيّدة نساء بني إسرائيل.

و روي الخطيب في تاريخ بغداد[١] بأسناده عن إبن عبّاس قال: قال رسول اللّه ﷺ ليلة عُرج بي الىٰ السّماء رأيتُ علىٰ باب الجنّة مكتوباً لا إله إلاّ اللّه محمّداً رسول اللّه، علّيُ حِبّ اللّه والحَسَن والحُسين صفوة اللّه وفاطمة خيرة اللّه علىٰ باغضهم لعنة اللّه انتهىٰ وجه الدّلالة فيه أنّ المراد بقوله فاطمة خيرة اللّه، أي خيرة اللّه من خلقه من النسّاء وإلاّ فرسول اللّه وأمير المؤمنين كانا أفضل منها.

و أمّا من طريق الخاصة فالأخبار في ذلك أكثر من أَن تحصى و مع ذلك نذكر بعضها تيمّ +ناً و تبرّكاً.

ما رواه في البحار بأسناده عن المفّضل قال: قلتُ لأبي عبد اللّه عليه السلام أخبرني عن قول رسول اللّه ﷺ في فاطمة أنّها سيّدة نساء العالمين أهى سيّدة نساء عالمها فقال عليه السلام ذاك لمريم كانت سيّدة نساء عالمها و فاطمة سيّدة نساء العالمين من الأوّلين والأخرين انتهىٰ[٢].

ماروه في طوالع الأنوار عن أبي عبد اللّه عليه السلام: عن قول رسول اللّه في فاطمة أنّها سيّدة نساء العالمين و هِيَ سيّدة نساء عالمها فقال ذاك لمريم كانت سيّدة نساء عالمها وفاطمة سيّدة نساء العالمين من الأوّلين والأخرين انتهىٰ

و عن مناقب محمّد بن شاذان قال: رسول اللّه ﷺ لو كان الحَسن شخصاً لكان فاطمة.بل هي أعظم الحديث.

١- تاريخ بغداد ج ١ ص ٢٥٩

٢- بحار الأنوار ج ١٠ ط كمباني ص ٩

ما رواه عن أبي عبد الله لِمَ سُمّيت الزّهراء فقال عليه السلام: لأنّها كانت اذا قامت في محرابها زَهَر نورها لأهل السّماء كما يظهر نور الكواكب لأهل الأرض و قد روُيت أنّها سُمّيت الزّهراء لأنّ اللّه خلقها من نور عَظمته.

أقول و لولا مخافة الإطناب لنقلنا كثيراً من الأخبار في المقام و لكن كتابنا هذا ليس موضوعاً لهذه الأبحاث والأمر أوضح من أن يخفىٰ علىٰ أحدٍ ممّن مارس خلال هذه الدّيار وكان من ذوي الإنصاف و العقل أيضاً حاكم بأفضّلية فاطمة علىٰ مَريم فضلاً عن غير مَريم كيف، و مَريم بنت عمران، وفاطمة بنت محمّد سيّد الأوّلين والأخرين و أُمّ مَريم، حنة بنت فاقوذ وأُمّ فاطمة خديجة بنت خويلد أوّل من آمَن بالرّسول من النّساء و لا يقاس محمّد صلى الله عليه وآله بعمران و لا خديجة بحنَّة، و مَريم نفخ فيها رُوح القُدس و هو جبرئيل فحملت بعيسىٰ، و فاطمة قاربها أمير المؤمنين علّي بن أبي طالب و علّي أفضل من جبرئيل مُقَّربٍ عند اللّه من الملائكة والأنبياء غير ابن عمّه رسول اللّه صلى الله عليه وآله، و مريم أُمّ عيسىٰ و فاطمة أُمّ الحَسن و الحسين و الأئمّة من بعدهما ولا شكّ في أفضّلية الأئمّة و لا سيّما الحَسن والحسين علىٰ عيسىٰ و جميع الأنبياء والمُرسلين قبل رسول اللّه صلى الله عليه وآله

و مَريم كانت لا تحيض و لا ترى دم و فاطمة أيضاً كانت كذلك و مَريم كانت بضعة عمران و فاطمة كانت بضعة الرّسول و الفرق واضح هذا كلّه مضافاً الىٰ ما وَرَد في فاطمة، من قوله صلى الله عليه وآله: **من أذاها فقد أذاني ومن أذاني فقد أذاىٰ اللّه**

و قوله: **أنّ اللّه ليغضب لغضب فاطمة ويَرضىٰ لِرضاها**، وقوله **أنّها ثَمرة فؤادي وبَهجة قلبي و روحي التّي بين جَنبَي** و امثال ذلك ممّا قاله الرّسول في حقّها و عليه فقياس كلّ مرأةٍ في عالم الوجود الىٰ يوم القيامة

فاطمة الزّهراء قياس مع الفارق بل هو من الظّلم والذّنب لأنّه إنكارٌ لحقّها بل إخفاءٌ لفضيلتّها التّي فضَّلها اللّه تعالىٰ بها علىٰ جميع النّساء و أنّي لا أظنّ أنّ هذه الأخبار الواردة في فضائلها من العامّة والخاصّة خفيّت علىٰ القُرطبي و الرّازي و أمثالهما من منكري أفضلّيتها على مريم و غيرها من نساء العالم و لكنّهم أخفوا فضائلها كما أخفوا فضائل بَعلها و بنيها لمصلحةٍ إقتضاها التكلّيف في دار الدّنيا فأنّ حبّ الدّنيا رأس كلّ خطيئة وحُبّ أهل البيت و الإقرار بفضائلهم لا يجتمع مع حُبّ من أضرم النّار علىٰ بابها فمن تابع الظّالمين علىٰ آل محمّدٍ الغاصبين لحقوقهم في باب الولاية بعد النّبي كيف يقول الحقّ فيهم أعاذنا اللّه منه.

و امّا قوله تعالىٰ: **يٰا مَرْيَمُ اُقْنُتي لِرَبِّكِ وَ اُسْجُدي وَ اُرْكَعي مَعَ الرّٰاكِعينَ** أمرها اللّه تعالىٰ بالقنُوت و هو لزوم الطّاعة مع الخضوع، والسّجود و هو في الأصل التّطامن والتذلّل للّه تعالىٰ، والرّكوع و هو الإنحناء في الأصل يستعمل في الهَيئة المخصوصة في الصّلاة و قد يستعمل في التّواضع والتذلّل إمّا في العبادة و امّا في غيرها فالمأمُور به في الأية، القنُوت، والسّجود، و الرّكوع.

فقوله تعالىٰ: **اُقْنُتي** معناه أخلصّي لربّك العبادة و قيل معناه، أديمي الطّاعة، و قيل أطلبي القيام في الصّلاة لأنّ أصل القنُوت لزوم الطّاعة علىٰ الدّوام.

و قوله: **وَ اُسْجُدي** أي أخضعي و قيل أصل السّجُود الإنخفاض الشّدّيد للخضوع ومنه قول الشّاعر:

فكلتاهما خَرّت وأسجد رأسها   كما سَجَدت نصرانة لم تُحَنَّف

وكذلك القول في الرّكوع إلاّ أنّ السّجود أشّد إنخفاضاً قال بعض المحققين:

قال اللّه تعالىٰ: **كُلٌّ لَهُ قٰانِتُونَ**.

قال اللّه تعالىٰ: **وَ قُومُوا لِلّٰهِ قٰانِتينَ**.

قيل خاضعون و قيل طائعون و قيل ساكتون ولم يعن به كلّ السّكوت و أنّما عني به ما قال صلّى الله عليه وآله أنّ هذه الصّلاة لا يصّح فيها شئ من كلام الأدميّين أنّما هي قرأنٌ و تسبيحٌ و على هذا قيل أيّ الصّلاة أفضل فقال طول القنُوت أي الإشتغال بالعبادة و رفض كلّ ما سواه:

قال اللّه تعالىٰ: **إِنَّ إِبْرٰاهِيمَ كٰانَ أُمَّةً قٰانِتًا**[۱].

قال اللّه تعالىٰ: **أَمَّنْ هُوَ قٰانِتٌ اٰنٰآءَ ٱللَّيْلِ**[۲].

قال اللّه تعالىٰ: **وَ ٱلْقٰانِتِينَ وَ ٱلْقٰانِتٰاتِ**[۳] انتهىٰ.

و أمّا قوله: **مَعَ ٱلرّٰاكِعِينَ** فقيل فيه إشارة الىٰ صلاة الجماعة أي لا تصلّي وحدة حتّىٰ الإمكان لأنّ مع الجماعة أكثر ثواباً منها بدونها أقول هذا يصّح بناءً على أن يكون المراد بالرّكوع الهَيئة المخصوصة في الصّلاة كما هو أحد الإحتمالين وأمّا أن أُريد به التّواضع والتّذَلُل في غير العبادة فالمعنىٰ أخضعي و تذللي لِلّه تعالىٰ مع الخاضعين المتذلّلين، ثمّ أنّ الآية الشّريفة بعد قوله تعالىٰ **وَ إِذْ قٰالَتِ ٱلْمَلاۤئِكَةُ يٰا مَرْيَمُ إِنَّ ٱللّٰهَ ٱصْطَفٰيكِ** تشعر بأنّ الشّكر علىٰ النّعمة ممدوحٌ مأمُورٌ به و لذلك أمرت مريم بالقنوت والسّجود و الرّكوع عقيب الإصطفاء و التّطهير فكأنّه علَّمها اللّه تعالىٰ كيفيّة الشّكر علىٰ النّعمة التّي أنعمها بها كما أمَرَ رسوله بذلك في قوله: **إِنّٰآ أَعْطَيْنٰاكَ ٱلْكَوْثَرَ، فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَ ٱنْحَرْ**[۴] و سيأتي الكلام في هذا المعنىٰ عند تفسيرها إن شاء اللّه تعالىٰ.

و قوله تعالىٰ: **ذٰلِكَ مِنْ أَنْبآءِ ٱلْغَيْبِ** أي ذلك الذّي ذَكرناه لك من حديث زَكّريا و يحيىٰ و مَريم من أخبار الغَيب **نُوحِيهِ إِلَيْكَ** أي نُلقيه اليك علىٰ سبيل الوحي و هو أي الوَحي في الأصل الإشارة السّريعة و لتضمّن السّرعة قيل أمرٌ

۱- النحل = ۱۲۰
۲- ازمر = ۹
۳- الاحزاب = ۳۵
۴- الكوثر= ۱/۲

وحي وذلك يكون بالكلام على سبيل الرّمز و التّعريض و قد يكون بصوتٍ مجّرد عن التركّيب وبإشارةٍ ببعض الجَوارح وبالكتابة و لذلك جاء في الكتاب علىٰ أقسام:

أحدها: التكلّم بالسرّ و منه قوله تعالىٰ: **فَأَوْحىٰ إِلىٰ عَبْدِهِ مٰآ أَوْحىٰ**[١].

ثانيها: الإنزال ومنه قوله تعالىٰ: **وَ أُوحِيَ إِلَيَّ هٰذَا ٱلْقُرْاٰنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ**[٢] يعني أنزل علّي هذا القرأن

ثالثها: بمعنى الكتاب ومنه قوله:**قُلْ إِنَّمآ أُنْذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ**[٣] أي بالكتاب

رابعها: بمعنىٰ الرّسالة ومنه قوله: **وَ أَوْحَيْنآ إِلىٰ مُوسىٰ إِذِ ٱسْتَسْقيٰهُ قَوْمُهُ**[٤] أي أوحينا اليه برسالة جبرئيل.

خامسها: الإشارة و منه قوله تعالىٰ:**فَخَرَجَ عَلىٰ قَوْمِهِ مِنَ ٱلْمِحْرٰابِ فَأَوْحىٰ إِلَيْهِمْ**[٥] يعني أشار اليهم.

سادسها: الإعلام ومنه قوله: **وَ مٰا كٰانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ ٱللّٰهُ إِلّٰا وَحْيًا**[٦] أي إعلاماً

سابعها: بمعنىٰ الإلهام ومنه قوله:**وَ إِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوٰارِيِّنَ أَنْ اٰمِنُوا بي وَ بِرَسُولِي**[٧].

قال اللّه تعالىٰ: **وَ أَوْحَيْنآ إِلىٰ أُمِّ مُوسىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ**[٨] أي ألهمناها

ثامنها: التّسخير كقوله تعالىٰ: **وَ أَوْحىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِي مِنَ ٱلْجِبٰالِ بُيُوتًا**[٩] يعني سخّرها لإتّخاذ العَسَل.

تاسعها: بمعنىٰ الأمر كقوله تعالىٰ: **يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبٰارَهٰا، بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحىٰ لَهٰا**[١٠] يعني أمرها.

١- النّجم=١٠
٢- الأنعام=١٩
٣- الأنبياء=٤٥
٤- الأعراف=١٦٠
٥- مريم=١١
٦- الشورى = ٥١
٧- المائدة=١١١
٨- القصص=٧
٩- النّحل=٦٨
١٠- الزّلزال=٤/٥

عاشرها: الوسوسة و منه قوله: **وَ إِنَّ ٱلشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَآئِهِمْ**[١] يعني ليوسوسون في صدورهم.

اذا عرفت معنى الوحي و أقسامه فأعلم أنّ قوله نوحيه اليك الوحي هنا بالمعنى الأوّل و هو التكلّم بالسرّ و يمكن أن يكون بمعنى رسالة جبرئيل أي نوحيه اليك برسالته والأوّل أولى.

وَ مَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلاَمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ

أي وما كنت يا محمّد عند الّذين إختلفوا وتنازعوا في تربية مَريم اذ يلقون أي يطرحون أقلامهم الّتي كانوا يكتبون بها التّوراة إختاروها للقِرعة تبركاً بها، أيّهم يَكفل مَريم، أي ليَعلموا أيّهم يكفل مَريم **وَ مَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ** يامحمّد **إِذْ يَخْتَصِمُونَ** في شأنها تنافساً في كفالتها حتّىٰ كفَّلها زَكّريا علىٰ ما تقدّم الكلام فيه.

إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلاَئِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ ٱللّٰهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ

أي و أذكر يا محمّد اذ قالت الملائكة يا مَريم أنّ اللّه يبَّشرك أي يخبرك بخبرٍ سارّ فأنّ البَشارة الخَبر السّار يقال أبشرتُ الرّجل و بشَّرته و بشرته أخبرتُه بسارٍ بسط بَشرة وجهه و ذلك أنّ النّفس اذا سُرّت إنتَشر الدَّم فيها إنتشار الماء في الشّجر:

قال اللّه تعالىٰ:**لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَ فِى ٱلْآخِرَةِ**[٢].

قال اللّه تعالىٰ:**وَ هُوَ ٱلَّذِي يُرْسِلُ ٱلرِّيَاحَ بُشْرًا**[٣].

أي تبشّر بالمَطر و قال الفّراء اذا ثقّل الفعل فمِن البُشرىٰ و اذا خفّف فمن السرور **بِكَلِمَةٍ مِنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ** لم يقل إسمها لأنّ

١- الأنعام=١٢١
٢- يونس=٦٣
٣- الاعراف=٥٦

المقصود من الكلمة هنا الوَلد و هو عيسىٰ فالضّمير في إسمه الىٰ معنىٰ الكلمة لا لفظها، ثمّ أنّهم إختلفوا في قوله بكلمةٍ منه، لا في معناها لأنّ المقصود بها الولد عيسىٰ بل في التّعبير عنه بكلمةٍ و بعبارةٍ أخرىٰ لم سُمّي عيسىٰ، كلمة، مع إمكان أن يقال بمولُودٍ إسمه المَسيح مثلاً أو بوَلدٍ و هكذا و قد قالوا في وجه تسمّيته بها وجوهاٍ:

أحدها: ما ذكره الفَخر الرّازي في المقام، قال أنّ كلّ علوقٍ وأن كان مخلوقاً بواسطة الكلمة و هي قوله، كن، الاّ أنّ ما هو السّبب المتعارف كان مفقوداً في حقّ عيسىٰ و هو الأب فلا جرم كان إضافة حدوثه الىٰ الكلمة أكمل و أتمّ فجعل بهذا التّأويل كأنّه نفس الكلمة كما أنّ من غلب عليه الجُود والكَرم و الإقبال يقال فيه علىٰ سبيل المبالغة أنّه نفس الجُود و محض الكرم وصريح الإقبال فكذا هاهنا.

ثانيها: ما ذكره أيضاً، قال الوجه الثّاني أنّ السّلطان العدل قد يُوصف بأنّه ظل اللّه في أرضه و بأنّه نور اللّه لما أنّه سببٌ لظهور ظلّ العدل ونور الإحسان فكذلك كان عيسىٰ عليه السلام سبباً لظهور كلام اللّه بسبب كثرة بياناته و إزالة الشّبهات فلا يبعد أن يسمّىٰ بكلمة اللّه على هذا التّأويل انتهىٰ كلامه.

ثالثها: أنّ المراد بالكلمة كلمة البشارة لأمّه فقوله بكلمةٍ منه، معناه بخبرٍ من عنده أو بشارةٍ و هو قول القائل ألقي إلي فلان كلمةٍ سرّني بها بمعنىٰ أخبَرني خبراً فَرحتُ به قاله ابن جرير و استشهد له بقوله، وكلمة ألقاها الىٰ مَريم، يعني بشرىٰ اللّه مريم ألقاها اليها.

رابعها: أنّ اللّه سبحانه قد كان كرَّر ذكر المَسيح في الكُتب المتقدّمة لميلاده و وعَد بمبعثه و بشَّر بنبوّته فلمّا خَلَقه و بعثه قال هذا كلمتي أي هذا ما كنت أخبر به و أكّرر ذكر مورده و ذلك كقول القائل اذا كان قد تقدّم أخباره بأمرٍ متوقّع و إنذاره بحادثٍ منتظر ثمّ وقع المتّوقع و ورد المنتظر قد جاءكم قولي و قد رأيتم كلامي و يقال له أيضاً هذا قولك أو هذا كلامك أي ما كنت تعد به و تخوّف منه.

خامسها: أن يكون معنىٰ ذلك أنّ اللّه سبحانه قال نُبّشرك بكلمةٍ يعني بوَلَدٍ ذكرٍ يكون نبّياً يهتدى به كما يُهتدىٰ بكلمات اللّه سبحانه فلذلك سمّاه كلمة علىٰ التّشبيه بالكلمة الموضوعة للبيان والدّلالة لأنّ الكلمة في الحقيقة عين الكلام و عيسىٰ عليه السلام ليس بكلامٍ ولا من جنس الكلام ولمثل هذا أيضاً سمّاه اللّه روحاً لأنّ العباد يَحيون به في أديانهم كما يَحيون بالأرواح في أبدانهم.

سادسها: أن تكون الكلمة هي الوَعد فكأنّه تعالىٰ قال، يُبشّرك بوَعد اللّه الّذي سبق و مثل ذلك في القرآن كثير **لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ ٱللّٰهِ**(١).

أي لما وعد اللّه به و قال تعالىٰ:**وَ لٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَافِرِينَ**(٢)

قال اللّه تعالىٰ: **حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ**(٣). والقول والكلمة بمعنىٰ واحد وهذا قول أبي مسلم بن بحرٍ انتهىٰ.

و عليه فالعبارة بها عن المسيح مجاز لأنّه لا يجوز أن نقول أنّ المسيح وعد اللّه إلاّ و نحن نريد أنّه موعود اللّه كما قال الشّاعر :

و أنّـي لأرجـوكم عـلىٰ بُـطوء سَعيكم ... كما في بطون الحاملات رجاء أي مَرجّو

سابعها: قيل أنّما وصف بأنّه كلمة من حيث كانت البشارة الّتي هي كلمة إبتداء معرفته و المطرّقة بين يَدي مورده، و قد إعترض على هذا القول بأنّه لو جاز هذا لجاز أن يُوصف الإنسان بأنّه نطفة بعد تسوية خلقه و تكامل أجزاء جسمه لأنّه إبتداء خلقه من نطفة و هذا ممتنع.

ثامنها: ما حكي عن النظّام و هو أنّه وُصف بذلك علىٰ طريق اللّعب إذ لا معنى يشار اليه يمكن أن يقال لأجله وصف بذلك كما يمكن أن يذكر في وصفه بأنّه المسيح على إختلاف الناس في هذه اللّفظة وأنه روح اللّه وما يجري هذا المجرى فأنّ ما تحت ذلك أجمع من المعاني معقول فجرى وصفه بأنّه كلمة مجرى وصف أبي إبراهيم بأنّه آزر انتهىٰ.

١- يونس = ٦٤
٢- زمر = ٧١
٣- القصص = ٦٣

و هذا القول كما ترىٰ لا يغني من الحقّ شيئاً وهذه الأقوال لا بأس بها إذ لكلّ واحدٍ منها وَجه و لكن أحسَن الأقوال علىٰ ما قال بعض المحققين هو أن يقال أنّ الكلمة بمعنىٰ الوَعد وإستدّل عليه بقوله تعالىٰ:

وَ جَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا ٱلسُّفْلىٰ وَ كَلِمَةُ ٱللّٰهِ هِيَ ٱلْعُلْيا(١).

فأنّ المراد بقوله، كلمة الّذين كفروا، في الآية ما سبق مِن وعدهم بإطفاء نُور رسول اللّه، وكلمة اللّه هي العلياء، ما سَبق من وعده تعالى بإعلاء بنيانه و رفع أعلامه و إبعاد صيته و تشريف بيته و كفاية أمر أعداءه، أقول و قد تجيئ الكلمة بمعنىٰ الشّريعة و الأوامر المفترضة كقوله:

وَ صَدَّقَتْ بِكَلِماٰتِ رَبِّهاٰ وَ كُتُبِهِ وَ كاٰنَتْ مِنَ ٱلْقاٰنِتِينَ(٢).

أي بشرائعه و أوامره ومثل ذلك قوله سبحانه:

يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلاٰمَ ٱللّٰهِ(٣).

أي أوامر اللّه و فرائضه وأنا أقول إذا عرفت أقوالهم في معنى الكلمة فأعلم أنّ الكلمة تطلق علىٰ مَعنيين، التّكوينية، والتشرّيعية، و امّا الكلمات التشرّيعية فهي عبارة عمّا بين الدَّفتين من القرآن و التّوراة والإنجيل و غيرهما من الكتب السّماوية المتضمّنة للأوامر و النّواهي و جميع الأحكام الدّينية و أنّما عبّرنا عنها أي عن الكتب السّماوية بالكلمات التشّريعية لأنّ الأديان شرّعت بها فقوله تعالىٰ: **وَ أَقِيمُوا ٱلصَّلٰوةَ وَ اٰتُوا ٱلزَّكٰوةَ**(٤) و هكذا و امّا الكلمات التّكوينية فهي عبارة عن كلّ الموجودات الّتي أبدَعها اللّه تعالى بكلمة، كُن، المشار اليها:

قال اللّه تعالىٰ: **إِنَّما قَوْلُناٰ لِشَيْءٍ إِذآ أَرَدْناٰهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ**(٥).

قال اللّه تعالىٰ: **سُبْحاٰنَهُ إِذاٰ قَضىٰ أَمْرًا فَإِنَّماٰ يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ**(٦).

١- التوبة = ٤٠
٢- التّحريم = ١٢
٣- الفتح = ١٥
٤- البقرة= ٤٣
٥- النّحل = ٤٠
٦- مريم = ٣٥

قال اللّه تعالىٰ: **إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ**[١].

و قد يعبر عن هذه الكلمة بالكلمة الوجودية، وعن قوله، كُن، كُن، الوجودي لا بمعنىٰ أنّ هناك لفظ مرّكب من الكاف و النّون فأنّ اللّه تعالىٰ منزّه عن التكلّم بسبب الحروف بل معنىٰ التكلّم فيه إيجاد الكلام كما أنّ الكلمات التشرّيعية أيضاً كذلك وسيأتي البحث فيه إن شاء اللّه تعالىٰ ثمّ أنّ هذه الكلمة التّكوينية الّتي هي عين إرادته تعالىٰ بالإيجاد وأن كانت في عالم الأسباب سَبباً لوجود الأشياء و الموجودات في الخارج بمعنىٰ أنّ الموجودات مُسبّبة عنها في وجودها إلاّ أنّ صدق الكلمة عليها علىٰ وجه التشكيك لا علىٰ وجه التّواطئ وأن شئت قلت مفهوم الكلمة لا يمتنع فرض صدقها علىٰ كثيرين فهي بحسب المفهوم كُلّي تصدّق علىٰ كلّ الموجودات إلاّ أنّ صدقها عليها يتفاوت بالشدّة والضّعف والكمال والنّقص والأولّية والأخرّوية والأولوية وعدمها، فأنّ صدق الكلمة مثلاً علىٰ العقل الّذي هو الصّادر الأوّل **لقوله** ﷺ **أوّل ما خَلق اللّه العَقل، أو أوّل ما خلق اللّه من الرّوحانيين العَقل** مقدّم علىٰ صدقها علىٰ النّفس و صدقها عليها مقدّم على صدقها على الجسم و ذلك لسبق وجود العقل علىٰ النّفس و سبق وجود النّفس علىٰ الجسم و الهيولي و هكذا صدقها علىٰ العقل أولىٰ من صدقها علىٰ النّفس، او صدقها على العقل عليه أكمل و أشّد و أقوى من صدقها علىٰ النّفس وهكذا الأمر في سلسلة الموجودات علىٰ حسب تفاوتها و مراتبها وهذا هو المراد بقولنا أنّ مفهوم الكلمة كلّي فشكلك فعلي هذا صدق الكلمة علىٰ الإنسان أولى من صدقها علىٰ الحيوان فضلاً عن النّبات و الجماد لكون الإنسان أشرف وأقَرَب الىٰ الخالق من الحيوان لوجود العقل والنّفس النّاطقة في الإنسان و هو واضح ثمّ أنّ أفراد الإنسان أيضاً متفاوتة محتلفة في الكمال والنّقص لتفاوت عقولهم و استعداداتهم فبعض

١- يٰس = ٨٢

الأفراد من مصاديق الكلمات التّامات لِلّه تعالىٰ وبعضهم ليس كذلك و الى هذا المعنىٰ **أشار الصّادق، بقوله نحن الكلِمات التّامات**، و مفهوم هذا الكلام أنّ غيرنا كائناً من كان وأن كان من الكلمات الوّجودية له تعالىٰ لكونه مخلوقاً له إلاّ أنّه ناقص وليس بتّامٍ ولهذا يحتاج في سلوكه الىٰ اللّـه وبلوغه الىٰ كماله المترقّب الىٰ الهادي و هو الرّسول والوّصي والعلماء الذّين هم ورثة الأنبياء و لذلك قسّموا الكلمة التكوّينية الىٰ التّامة والنّاقصة فتّحصل ممّا ذكرناه أنّ الكلمات التّامات في عالم الوجود من حيث التّكوين الأنبياء ثمّ الأوصياء ثمّ العلماء ثمّ الأمثَل فالأمَثل.

إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ إشارة الى أنّ هذا الموجود كلمة من كلماته وإسِمه في عالم الكثرات والأسماء المسيح عيسىٰ بن مَريم، ولأجل هذه الدّقيقة قال،**بِكَلِمَةٍ مِنْهُ** حيثَ نكّر الكلمة، والتّنكير يفيد النّوعية أي أنّه نوعٌ خاصّ من كلمات اللّه لأنّ سائر الكلمات من أفراد الإنسان لهم أب و أُمّ في عالم الأسباب لقوله تعالىٰ :**إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَ أُنْثَىٰ** و امّا هذه الكلمة فلا سبب لها في عالم المادّة و هو نطفة الأب مثلاً بل وجدت بدون الأب لتدلّ على قدرته تعالىٰ و أنّه علىٰ كلّ شئٍ قدير، ولأجل هذا فهو أي عيسىٰ ابن مَريم كلمة خاصّة أو نوع خاصّ منها لاّ نظير له ولعلّ هذا هو السِّر في تنكير الكلمة حيث لم يقل **إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ** بل قال **بِكَلِمَةٍ** وفي قوله: **مِنْهُ** إشارة الىٰ دقيقةٍ أُخرىٰ وهي أنّ هذه الكلمة من اللّه تعالىٰ بمعنىٰ أنّ تعالىٰ قادر علىٰ إيجاد هذا النّوع من الكلمة لا غيره هذا ما فَهمناه من الآية مُضافاً الىٰ ما ذَكره القوم واللّه تعالىٰ أعلم بمراده فأفهم وتأمّل في المقام فأنّه دقيق، و امّا قوله:**ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ** فقيل سُمّي بالمَسيح لأنّه مَسَح الأرض أي ذَهب فيها و قيل سُمّي بذلك لأنّه مسح بالطّهر من الذّنوب و قيل سُمّي به لحسنه يقال مَسَحه اللّه أي خَلَقه خلقاً حسناً مباركاً

و قيل غير ذلك فأن هذه الوجوه استحسانية لا دليل علىٰ صحتّها أو ترجيح بعضها علىٰ بعضٍ أخر إلاّ العَقل والنّظر **وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَ ٱلْأٰخِرَةِ وَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ** أي عَزيزاً شريفاً مُوَجهاً عند الخالق والخلق في الدّنيا والأخرة ومن المقرّبين عند اللّه تعالىٰ:

وَ وَ يُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَ كَهْلاً وَ مِنَ ٱلصَّالِحِينَ

أثبت اللّه تعالىٰ له أوَصافاً ستّة و شهد بها وكَفىٰ به شهيداً.

الأوّل: أنّه وجيهٌ في الدّنيا.

الثّانى: أنّه وجيهٌ في الأخرة.

الثّالث: أنّه من المقرّبين.

الرّابع: أنّه كلّم في المَهد.

الخامس: أنّه كان كهلاً.

السّادس: أنّه كان من الصّالحين ومن المعلوم أنّ هذه الخصال لا تجمع إلاّ في الإنسان الكامل المُؤيّد من عند اللّه المشمول لعناياته الخاصّة المستّعد ذاتاً لقُبولها و توضيح ذلك إجمالاً هو أنّه يقال فلان وجَه القوم كقولهم عَينهم و رأسهم فالوجيه بمعنى الرّئيس والمُطاع والمحبوب و امثال ذلك ثمّ أنّه قد يتّحقق للإنسان في الدّنيا عند أهل الدّنيا كما اذا كان صاحب مالٍ أو جاهٍ أو علمٍ أو عدالةٍ و امثال ذلك من الأوصاف الحسَنة في نظر أهل الدّنيا وأن لم يقصد صاحبها بها اللّه تعالىٰ و بعبارةٍ أخرىٰ و أن لم يصرفها في طريق الشّرع و رضى الرّب فهو محبوب موّجه في الدّنيا دون الأخرة، و قد يكون الأمر بالعكس بمعنىٰ أنّ الإنسان بسبب عبادته و طاعته صار موّجهاً عند اللّه في الأخرة و امّا في الدّنيا فلاكما نرىٰ و نشاهد ذلك بالحّس بل ربما يكون الإنسان بسبب مخالفته لأهواء النّاس و أميالهم مَبغُوضاً عندهم و هو عند اللّه من المقّربين، و قد يكون فاقداً لكِلتا المَرتَبتين أي لا يكون وجيهاً في الدّنيا عند

أهلها و لا في الأخرة عند ربّه و هذا من أشقى النّاس، و قد يكون جامعاً لهما أي أنّه محبوب موّجه عند الخلق في الدّنيا و مُوّجه عند الرّب في الأخرة وهذا من أسعد النّاس و قلّما يتّفق جمَع المرتبتين في الإنسان الاّ بتوفيقٍ منه تعالىٰ و الأنبياء و الأوصياء كانوا كذلك لأنّهم كانوا يهدون الخلق الىٰ ربّهم و يُجنّبونهم عن الشّيطان ومن كان كذلك فهو موجّهٌ في الدّنيا عند من يعرفه و حيث أنّهم لم يقصدوا بما قالوا أو عملوا إلاّ اللّه تعالىٰ فهُم كانُوا موجّهين عنده أيضاً فقوله تعالىٰ في عيسىٰ عليه السلام أنّه وجيه في الدّنيا والأخرة، لا يفيد الحصر لأنّ إثبات شئٍ لشئٍ لا ينفي الشّئ عمّا عداه فاذا قلنا زيد عالمٌ عادلٌ مثلاً ليس معناه أنّ عمرواً ليس كذلك ولو أردنا الحَصر فحقّ العبارة أن يقال العالم زيد أو أنما العالم زيد بتقديم الخَبر مع أداة الحصر و هكذا المقام فيقال انّما الوجيه في الدّنيا و الأخرة هو عيسى حتّىٰ لا يصدق علىٰ غيره و لم يقل ذالک بل قال وجيهاً في الدّنيا والأخرة بمعنىٰ أنّ هذا الحكم ثابت له ويمكن أن يكون ثابتاً لغيره أيضاً اذ لا يستفاد من كلامه تعالىٰ الحَصر و اذا ثبت هذا في المعطوف عليه ثبت في المعطوف أيضاً لأنّه من حيث الحكم تابع للمعطوف عليه فهذه الأوصاف ثابتة لعيسىٰ عليه السلام و لأمثاله من الأنبياء و المُرسلين و أوصيائهم المعصُومين سلام الّه عليهم أجمعين، و امّا كونه عليه السلام من المقرّبين فمعناه أنّه مقرّبٌ عند اللّه لكونه واجداً لمقام العبّودية و من كان عبداً للّه حقّاً فلا محالة مقرّبٌ عنده.

و أمّا: **وَ يُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ** فهو إشارة الىٰ قوله تعالىٰ حكايةً عنه، قال:**قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَ جَعَلَنِى نَبِيًّا**[1] و سيأتي الكلام فيه في موضعه، و قوله:**وَ كَهْلاً** أي وخَطَه الشّيب و لذلك قيل، الكَهل بين حال الغلومة وحال الشّيخوخة فالمعنىٰ أنه كان يكلّم النّاس في المَهد، أيةً، و

١- مريم = ٣٠

يكلّمهم كهلاً، بالوَحي والرّسالة و بعبارةٍ أخرى أنّه كان يدعوهم الى اللّه في الصِّغر والكَبر لو كانوا يعقلون ُ و هو من الصّالحين قولاً و فعلاً ثمّ أنّ في قوله تعالىٰ في الآية الأولىٰ و من المقرّبين وفي الثّانية ومن الصّالحين، إشارة الىٰ أنّ عيسىٰ ابن مريم كان جامعاً بين التّقرب والصّلاح وأنّما قال تعالىٰ في الأولىٰ من المقرّبين وفي الثّانية من الصّالحين لأنّ من كان وجيهاً في الدّنيا والأخرة فهو مقّرب عند اللّه لا محالة و هو معلوم و امّا في الآية الثّانية فحيث أشار الىٰ تكلّمه في المَهد و كَهلاً قال و من الصّالحين أي أنّ عيسىٰ كان صالحاً لا ٔن يتّكلم في المَهد وكَهلاً اذ لو لم يصلح له لم يكن رسولاً و هذه الصّلاحية مُختّصة بالمُرسلين، فالملائكة مثلاً من المقّربين حَسَب مراتبهم و ليسوا من الصّالحين للرّسالة و النبوّة و في الإتيان بكلمة مِن، في الأيتين و هي للتّبعيض في المقام إشارة الىٰ أنّ التّقرب عند اللّه وكونه صالحاً للرّسالة أو العَمل الصّالح لا يختّصان به بل هما لغيره أيضاً ثابتان أي أنّه منهُم و إلاّ فجميع الأنبياء والمرسلين وأوصيائهم من المقّربين ومن الصّالحين حَسب مَراتبهم و قابلّياتهم، تلك الرّسل فضّلنا بعضهم علىٰ بعضٍ الأية.

■

قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَٰلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾

◁ اللّغة

وَ لَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ : المَسّ يقال فيما يكون معه إدراك بحاسّة اللّمَس وكُنّىٰ به عن النّكاح فقيل مَسَّها وماسّها، والبَشَر، الإنسان و هو مأخوذ من البَشَرة و هي ظاهر الجلد سُمّي الإنسان بالبَشَر إعتباراً بظهور جلده من الشّعر بخلاف الحيوانات التّي عليها الصُّوف أو الشَّعر أو الوبر و استوى في لفظ البَشَر الواحد والجمع.

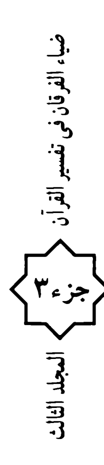
إِذَا قَضَىٰ: (اذا قضىٰ) أي اذا أمَر.

◁ الإعراب

كُنْ فَيَكُونُ موضع يكون الرّفع علىٰ الأخبار بأنّه سيقُوم و يجوز في قوله، أن يقول له كُن فيَكون، النّصب عطفاً علىٰ يقول.

◁ التّفسير

لمّا **قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَالَتْ** أي مريم **رَبِّ أَنَّىٰ** أي كيف **يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَ لَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ** قالوا أنّما قالت ذلك إستفهاماً و إستعظاماً لقدرة اللّه لا إستبعاداً وإستنكاراً فكأنّه تعجّبت من ذلك لأنّ في طبع البشر التعجّب ممّا خرج عن المعتاد و قيل أنّما قالت ذلك لتعلم أنّ اللّه تعالىٰ يرزقها الولد و هي علىٰ حالتها أو يقّدر لها زوجاً ثمّ يرزقها الوَلَد علىٰ مجرىٰ العادة **قَالَ كَذَٰلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ** أي



قال جبرئيل كذلك اللّه يخلق ما يشاء أي أنّه تعالىٰ قادر علىٰ أن يخلق بَشراً من غير أبٍ بل من غير أبٍ ولا أُمّ مثل آدم أبو البَشَر و حوّاء **إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ** أي اذا أراد اللّه تعالىٰ إيجاد موجودٍ من المـوجودات يقول له كُن فَيكون، ليس معناه أنّ اللّه يقول كُن، واقعاً أي أنّه يتلفّظ بالكاف و النّون لتنزّهه تعالىٰ عن التلفّظ بهذه الحروف و غيرها بل إرادته و قضاءه فعله و قد تكلّمنا في معنىٰ القضاء وأقسامه في سورة البقرة و سيأتي تفصيل الكلام في قصّة مريم وعيسىٰ إن شاء اللّه تعالىٰ.

■

وَ يُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَابَ وَ ٱلْحِكْمَةَ وَ ٱلتَّوْرٰيةَ وَ ٱلْاِنْجيلَ ﴿٤٨﴾ وَ رَسُولاً إِلٰى بَنِىٓ إِسْرآئيلَ أَنّى قَدْ جِئْتُكُمْ بِاٰيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنّىٓ أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ ٱلطّينِ كَهَيْئَةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ ٱللّٰهِ وَ أُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَ ٱلْأَبْرَصَ وَ أُحْيِ ٱلْمَوْتٰى بِإِذْنِ ٱللّٰهِ وَ أُنَبِّئُكُمْ بِمٰا تَأْكُلُونَ وَ مٰا تَدَّخِرُونَ فى بُيُوتِكُمْ إِنَّ فى ذٰلِكَ لَاٰيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنينَ ﴿٤٩﴾ وَ مُصَدِّقًا لِمٰا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرٰيةِ وَ لِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ ٱلَّذى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَ جِئْتُكُمْ بِاٰيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَاتَّقُوا ٱللّٰهَ وَ أَطيعُونِ ﴿٥٠﴾ إِنَّ ٱللّٰهَ رَبّى وَ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هٰذا صِراطٌ مُسْتَقيمٌ ﴿٥١﴾

◁ اللّغة

قد مرّ الكلام في معنىٰ التّوراة والإنجيل أَخْلُقُ، الخَلق أصله التقدّير المستقيم و يستعمل في إبداع الشّئ من غير أصل كما يستعمل في ايجاد الشّئ من الشّئ وهو المراد هنا.

مِنَ ٱلطِّينِ: الطِّين، التّراب والماء المُختلط و قد يُسمّىٰ بذلك وأن زال عنه قوّة الماء.

فَأَنْفُخُ: النّفخ نفخ الرّيح في الشّئ قال تعالىٰ: **يَوْمَ يُنْفَخُ فِى ٱلصُّورِ**[1]

وَ أُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَ ٱلْأَبْرَصَ: الإبراء مأخوذ من البُرء والبَراء والتّبَري، و

١- الانعام = ٧٣

معناه التّفصي ممّا يكره مجاورته و لذلك قيل بَرأتُ من المَرَض و أبرَأتُ زيداً من دينه، و**الأكمه** الذّي يولد أعمىٰ و قال مجاهد هو الّذي يبصر بالنّهار ولا يُبصر باللّيل، و قال عَكرمة هو الأعمَش و**الأبرَص**، **البَرَص** معروف و هو بياض يعتري الجلد **أُنَبِّئُكُمْ** من النَّبأ و هو الخَبر أي أخبركم و الباقي واضح.

◁ الإعراب

وَ يُعَلِّمُهُ في موضع الحال معطوفة علىٰ، وَجيهاً **رَسُولاً** فيه وجهان.

أحدهما: هو صفةٍ مثل صبور وشكور فيكون حالاً أو مفعولاً به علىٰ تقدير و يجعله رسولاً و فعول هنا مفعل أي مرسلاً.

ثانيهما: أن يكون مصدراً و عليه فَيجوز أن يكون في موضع الحال و أن يكون مفعولاً معطوفاً علىٰ الكتاب أي و نُعلّمه رسالة.

أَنِّيٓ في موضع الجملة و فيه ثلاثة أوجه:

أحدها: جرّ أي بأنّي، و ذلك مذهب الخليل.

الثّاني: نصب على الموضع و هو مذهب سيبويه.

الثّالث: رفع أي هو أنيّ قد جئتكم بأيةٍ، في موضع الحال أي محتجّاً بأية.

مِنْ رَبِّكُمْ يجوز أن يكون صفة لأية و أن يكون متعلّقاً بجئت **أَنِّيٓ أَخْلُقُ** في موضعه ثلاثة أوجه.

أحدها: جرّ بدلاً من أيةٍ ، والثّاني، رفع أي هي أنّى.

الثّالث: أن يكون بدلاً من أنّي الأولىٰ.

كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ الكاف في موضع نصب نعتاً لمفعولٍ محذوف أي هيئة كَهيئة الطّير (فيه) الهاء تعود على معنىٰ الهيئة و يجوز أن تعود على الكاف لأنّها إسم بمعنىٰ، مثل ُ وأن تعود علىٰ المفعول المحذوف **فَيَكُونُ** أي فيصير فيجوز أن تكون، كان، هنا تامّة و أن تكون ناقصة **طَيْرًۢا** علىٰ الأوّل حال و على الثّاني خبر **بِإِذْنِ ٱللَّهِ** يتعلّق بيكون **تَدَّخِرُونَ** والأصل فيه تذتخرون إلاّ أنّ الذّال مجهُورة و

التّاء مهموسة فَلم يجتمعا فأبدلت التّاء دالاً لأنّها من مخرجها لتقرب من الذّال ثمّ أبدلت الذّال دالاً و أدغمت مُصَدِّقًا حال معطوفة على قوله بآية أي جئتكم بآيةٍ و مصدّقاً مِنَ ٱلتَّوْرِيٰةِ في موضع نصب على الحال من الضّمير المستتر في الظّرف و هو، بين، و يجوز أن يكون حالاً من، ما، فيكون العامل فيها مصدّقاً وَ لِأُحِلَّ هو معطوف علىٰ محذوف تقدّيره لإخفّف عنكم وَ جِئْتُكُمْ بِاٰيَةٍ تكرير للتّوكيد.

◁ التّفسير

لما أشار اللّه تعالىٰ الىٰ خَلقه وأنّه نوع خاصّ منه لأنّه وجد من غير أَبٍ دليل على كونه آية من آيات اللّه و مظهراً لقُدرته أشار في هذه الأيات الى ما أعطاه بعد إيجاده من النِّعم و لمّا كان العلم من أشرَفها و أجلّها و لا فضيلة للموجود أحسَن منه بَدء به في كلامه فقال:

وَ يُعَلِّمُهُ ٱلْكِتٰابَ وَ ٱلْحِكْمَةَ وَ ٱلتَّوْرِيٰةَ وَ ٱلْاِنْجِيلَ.

قال المفسّرون المراد بالكتاب الكتابة والخطّ، و قيل هو كتاب غير التّوراة و الإنجيل مثل الزّبور و صحف إبراهيم وأمثالهما من الكتب السّماوية، و المراد بالحكمة قال بعض المُفسّرين علم الفقه وعلم الحلال و الحرام و قيل الفقه بالمعنى الأعّم ليشمل علم الأصول في الإعتقادات و امّا علم التّوراة و الإنجيل فمعلومٌ لأنّ العلم بما فيهما من الأحكام هكذا قالوا في تفسير الآية و الحقّ أنّ فهم الآية يحتاج الىٰ تأملٍ و دقّةٍ فنقول لا شّك أنّ العلم عبارة عن إدراك الشّئ بحقيقته و الإدراك تارةً يتعلّق بذات الشّئ بمعنىٰ أنّ العالم عالمٌ بذات المعلوم و حقيقته و أُخرىٰ يتعلّق بوجود الشّئ بمعنىٰ أنه موجود وليس بمعدومٍ و بعبارةٍ أخرىٰ العِلم تارةً يتَّعَلق بماهيّة الشّئ و أُخرىٰ بوجوده مثلاً اذا قيل زيد عالم بالإنسان معناه أنّه عالمٌ بحقيقة الإنسان و أنه حيوان ناطق ماذا

سأل عنه ما الإنسان يقول في الجواب الإنسان حيوان ناطق و هذا هو العلم بماهيّة الشّئ و امّا اذا قيل زيد عالم بعقله ونفسه أي أنّه يعلم وجودهما فيه لا أنّه يعلم ماهيّة العقل و النّفس و لذلك اذا سُأل عنهما بما الحقيقة كقولهم ما العَقل وما النّفس لم يقدر علىٰ بيان ماهيّتهما كما كان قادراً علىٰ بيان ماهيّة الإنسان و ذلك لخفاء ما هيّتها عَليه وهذا واضح ثمّ أنّ العلم بذات الشّئ يتّعدىٰ الىٰ مفعولٍ واحد:

قال اللّه تعالىٰ: **لا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللّٰهُ يَعْلَمُهُمْ**(١).

قال اللّه تعالىٰ: **وَ لَوْ عَلِمَ ٱللّٰهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ**(٢).

قال اللّه تعالىٰ: **كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاٰتَهُ وَ تَسْبِيحَهُ**(٣).

قال اللّه تعالىٰ: **وَ لَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولىٰ**(٤).

و امّا العلم بوجود الشيّى فَهُو يتعدّى الى مفعولين كقوله تعالى: **وَ إِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتٰابَ وَ ٱلْحِكْمَةَ وَ ٱلتَّوْرٰيٰةَ وَ ٱلْإِنْجِيلَ ... وَ عَلَّمْنٰاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ ... وَ مٰا عَلَّمْنٰاهُ ٱلشِّعْرَ وَ مٰا يَنْبَغِي لَهُ**.

والأيات كثيرة جداً فعلى هذا، قوله تعالىٰ: **وَ يُعَلِّمُهُ ٱلْكِتٰابَ وَ ٱلْحِكْمَةَ وَ ٱلتَّوْرٰيٰةَ وَ ٱلْإِنْجِيلَ** معناه و يعلّمه الحكمة و يعلّمه التّوراة و يعلّمه الإنجيل بحكم العطف أي و يعلّمه اللّه تعالىٰ العلم بوجود هذه الأشياء لا بحَقيقتها وأن شئت قلت بظواهرها لا بما هيّأتها وحقائقها و ذلك لأنّ التّوراة و الإنجيل والقرأن و بالجملة جيمع الكُتب السّماوية الإلٰهية كلام اللّه تعالىٰ و حقيقة كلامه تعالىٰ مجهولة علىٰ الخلق كما أنّ حقيقة ذاته مجهولة علىٰ ماسواه لأنّ صفاته عين ذاته والكلام و التكلّم من صفاته فاذا قلنا أنّه تعالى متكلّم ليس معناه أنّ هناك موجوداً أو ذاتٌ عرض له التكلّم كما هو كذلك في الخلق بل

١- الأنفال=٦٠
٢- الأنفال=٢٣
٣- النّور=٤١
٤- الواقعة=٦٢

معناه أنّ التكلّم مثل العلم والقدرة، و غيرها من الصّفات عين ذاته و اذا كانت الصّفات عين ذاته و قد ثبت عقلاً ونقلاً أنّه لا يمكن لأحدٍ من خلقه كائناً من كان أن يصل الىٰ كنه ذاته فكيف يصل الى كنه صفاته مع فرض العَيّنية فثبت و تحقّق أنّ العلم بكلامه اللّه معناه العلم بظاهر كلامه و امّا العلم بحقيقة كلامه فهو محال لما ذكرناه و هذا الّذي ذكرناه حكمٌ كلّيٌ لا يستثنى منه أحد من المخلوق ولأجل هذه الدّقيقة قال و يعلّمه الكتاب الخ ولم يقل و يعلم الكتاب و الحكمة الخ.

أن قلتُ هذا الذّي ذكرت يتّم في الكتاب اعنى به التّوراة والإنجيل لأنّهما منه و معلوم أنّ الكتاب كلام اللّه والفرق بينهما أي بين الكلام والكتاب هُنا بالإعتبار كما حقّق في محلّه فكلامه كتابه و كتابه كلامه و حيث أنّ التكلّم عين ذاته و قد ثبت أنّ العلم بذاته محال فالعلم بحقيقة كلامه محال فتحصّل ممّا ذكرناه أنّ قوله تعالىٰ ويُعلّمه إشارة الىٰ أنّ هذا العلم الّذي علّمه اللّه تعالىٰ عيسى و غيره من الأنبياء فضلاً عن سائر النّاس هو العلم بوجود الكتاب و أنّه من اللّه تعالىٰ أنزّله على عَبده لإرشاد خلقه و امّا حقيقة الكتاب و الكلام فقد خفيت علىٰ كلّ ما سواه و لذا قال و يعلّمه ولم يقل ويعلم الكتاب و الحكمة الأية، ثمّ هاهنا بحث و هو أنّه ما وَجه هذا التّفصيل في الآية حيث أفَرد كلّ واحدٍ من الكتاب والحكمة والتّوراة والإنجيل بالذّكر و ذلك لأنّ التّوراة و الإنجيل داخلين في مفهوم الكتاب بمعنىٰ أنّه يشملها و غيرهما من مصاديق الكتاب أن كانت اللاّم في الكتاب للجنس كما هو الحقّ و عليه فذكره في مُغنٍ عن ذكر التّوراة والإنجيل بل و عن الحكمة أيضاً لأنّها علىٰ ما فسرّها المفسّرون الفقه، أو علم الحلال والحرام و هو داخل في الكتاب الإلٰهي و على ما فسرّها بعض آخر فهي جميع ما علّمه من أصول الّدين كما ذكره الطّبرسي ﵀ و هو أيضاً يستفاد من الكتاب فذكر الكتاب يُغني عن الثّلاثة، وأن قلنا أنّ الحكمة

تشمل الكتاب بمعنى أنّها أعمّ منه كما هو ظاهر كلام بعضهم فذكرُ الحكمة يغني عن ذكر غيرها وعلىٰ أيّ تقدير لا وجه لهذا التّفصيل ظاهراً، قال الطّبرسي قدّس سرّه ما هذا لفظه، أن قيل لِمَ أفردهما بالذّكر مع.

دخولهما في الحكمة (أي دخول التّوراة والإنجيل) قيل تنبيهاً عن جلالة موقعهما كقوله و ملائكته ورُسله وجبريل وميكال انتهىٰ كلامه أقول يظهر من كلامه قدّس سرّه أنّ التّوراة والإنجيل كانا داخلين في الحكمة لأنّه قال مع دخولهما في الحكمة، ثمّ أجاب عنه بما أجاب ولقائل أن يقول، الحكمة أيضاً داخلة في الكتاب بناء علىٰ ما فسَّرتموها من أنّها علم الحلال والحرام لأنّ الكتاب فيه الحلال والحرام و غيرهما من المعاد والأخلاق والحقوق وغيرها من المسائل، فعلىٰ هذا ما أجاب به في المقام يلزم أن يكون ذكرها أيضاً للتنّبيه عن جلالة موقعهما كالتّوراة والإنجيل، و هو بعيدٌ و ممّن تصدّى لهذا البحث والجواب عنه، هو الفخر الرّازي في تفسيره لهذه الأية.

قال المسألة الثّانية في هذه الآية أمور أربعة معطوف بعضها علىٰ بعض بواو العطف والأقرب عندي أن يقال المراد من الكتاب تعليم الخطّ والكتابة ثمّ المراد بالحكمة تعليم العلوم وتهذيب الأخلاق لأنّ كمال الإنسان في أن يعرف الحقّ لذاته والخير لأجل العَمل به ومجموعهما هو المُسمّىٰ بالحكمة ثمّ بعد أن صار عالماً بالخطّ والكتابة ومحيطاً بالعلوم العقّلية والشّرعية يعلّمه التّوراة وأنّما أخّر تعليم التّوراة عن تعليم الخطّ والحكمة لأنّ التّوراة كتاب إلٰهيّ و فيه أسرار عظيمة والإنسان ما لم يتّعلم العلوم الكثيرة لا يمكنه أن يخوض في البحث على أسرار الكتب الإلٰهية ثمّ قال في المرتبة الرّابعة والإنجيل و أنّما أخرّ ذكر الإنجيل عن ذكر التّوراة لأنّ من تعلّم الخطّ ثمّ تعلّم علوم الحقّ ثمّ أحاط بأسرار الكتاب الّذي أنزَله اللّه تعالىٰ على من قبله من الأنبياء فقد عظمت درجته في العلم فإذا أنزَل اللّه تعالىٰ عليه بعد ذلك كتاباً آخر و أوقفه

على أسراره فذلك هو الغاية القصوىٰ والمرتبة العُليا في العلم والفهم و الإحاطة بالأسرار العقلّية و الشّرعية و الإطّلاع على الحكم العلوّية والسفّلية فهذا ما عندي في ترتيب هذه الألفاظ الأربعة انتهىٰ كلامه بألفاظه و عباراته.

وأنا أقول ما ذكره الرّازي مِن التّرتيب في أخذ العلوم وكسبها أنّما هو يجري في علوم غير الأنبياء و امّا في حقّهم فلا و ذلك لأنّ العلم على قسمين، حضّوري وكَسّبي، ونعني بالحضوري حُضور المدَرك بفتح الدّال لدى المدرك بكسرها من غير تحصيل وكسب بل بأفاضةٍ من مبدأ الفيّاض علىٰ ذات العاقل، الكسّبي فهو الّذي يحصل بالتّحصيل و الإكتساب ولذلك قد يُعبّر عنه بالعلم الحُصولي و الكسّبي و الإكتسابي فالأوّل أعني العلم الحضوري فمِثل علم النّفس بذاتها بل وعلم كلّ إنسانٍ بوجوده فأنّه لا يحتاج الىٰ تحصيل و كسب لأنّ ثبوت الشئ لنفسه ضروري.

و من هذا العلم علم الأنبياء و الأوصياء والأصل في الكلّ علم اللّه تعالى بما سواه فأنّه حُضوّري لا حُصولي إذ معنىٰ الحصول الوجود بعد العدم أي لم يكن فكان أو لم يكن حاصلاً فَحَصل و هو يستلزم الحدوث لأنّ العلم مسبوق بالعدم وكلّ حادث ممكن فيلزم أن يكون اللّه تعالىٰ ممكنا لحدُوث علمه و المفروض أنّه واجب فثبت و تحّقق أنّ علمه بالأشياء حُضورّي و هكذا علم الأنبياء و الأوصياء و الملائكة فأنّه حضوّري في الكلّ علىٰ ما هو الحقّ عندنا لأنّه فيهم لم يوجد إلاّ بالإضافة الإشّراقية لا بالكَسب و التّحصيل كما هو فينا كذلك إلاّ أنّه في كلّ نبيٍ أو وصّيٍ بحسب إستعداده، و أنزلنا من السّماء ماءً فسالت أوديةٌ بقدرها، إذا عرفت هذا فنقول ما ذكره الرّازي من الترتّيب لا يتأتّىٰ إلاّ في العلم الحصولي فأنّ قوله ثمّ وثمّ وثُمّ، ليس في العلم الحُضوري و نحن نسأل عنه ونقول أيّها الرّازي، من أيّ شخصٍ تعلّم الخطّ عيسىٰ عليه السلام و الكتابة و غيرها حتّىٰ أمكن له أن يَخُوض في البحث علىٰ أسرار الكتب الإلٰهية

و هكذا فأن كان المُعلّم لعيسىٰ هو اللّه تعالىٰ كما هو كذلك فما الدّليل علىٰ هذا الترتّيب نعم هو فينا كذلك فإنّا نتعلّم الكتابة و الخطّ أوّلاً ثمّ علم الصّرف ثانياً ثمّ علم النحو و هكذا الىٰ أن نَصِل الىٰ مقامٍ نقدرُ علىٰ الخوض في غوامض العلوم و هل كان عيسىٰ عليه‌السلام كذلك فأن كان كذلك فما الفرق بينه و بيننا في العلم وكيّفيته وليت شعري ألم تقرأالرّازي قوله تعالىٰ حكايةً عنه عليه‌السلام حيث **قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَ جَعَلَنِى نَبِيًّا**[1] و هو في المَهد أليسَ قوله هذا دليلاً علىٰ أنّه عليه‌السلام كان عالماً بالكتاب وما فيه في طُفوليّته فضلاً عن كبره والحاصل أنّ هذه التّوجيهات الواهية المُبتّنية علىٰ الأوهام الفاسَدة لا تصلح لتفسّير كلام اللّه تعالىٰ، والّذي حَصَل لنا في المقام في ترتيب هذه الألفاظ الأربعة هو أنّ الكتاب أن أُريدَ به الكتابة والخطّ كما ذهب اليه المُفسّرون فذكرُ التّوراة والإنجيل في محلّه وأن أُريد به الجنس أي جنس الكتاب كما قويّناه في صدر البحث فذكر التّوراة و الإنجيل من قبيل ذكر الخّاص بعد العام أو هو تفصيل بعد الإجمال وهذا ممّا لا إشكال فيه أو يقال أنّ إفرادهما بالذّكر من بين الكُتب من جهة التّنبيه على جلالتهما و عظم شأنهما كما نقلناه عن الطّبرسي، و امّا الحكمة فهي العلم بأحوال الموجودات الخارّجية علىٰ ما هي عليه بقدر الطّاقة البشّرية و قيل هي العلم بالحقائق الخّارجية بقدر الطّاقة و قيل هي معرفة الموجودات و فعل الخيرات و هذا المعنى هو الّذي أشار اليه تعالىٰ:

قال اللّه تعالى: **وَ لَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ**[2].

قال اللّه تعالى: **وَ مَنْ يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا**[3].

إذا علمت هذا فأعلم أنّ العلم بالكتاب وما فيه من الأحكام لا يلزم منه

١- مريم = ٣٠

٢- لقمان = ١٢٠

٣- البقرة = ٢٦٩

العلم بالأعيان و الموجودات الخّارجية فأنّ العلم بالكتاب التدّويني غير العلم بالكتاب التّكويني و بالعكس ولا يمكن لأحدٍ الجمع بين العلمين بسبب التّحصيل و الكسب و الجامع بينهما هو النّبي والوّصي بافاضة الرّب فقوله تعالىٰ: **وَ يُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَابَ** إشارة الىٰ أنّ عيسىٰ عليه السلام عَلَّمه اللّه بالكتاب وما فيه من الأحكام و قوله: **وَ ٱلْحِكْمَةَ** إشارة الىٰ أنّ اللّه تعالىٰ علّمه العلم بحقائق الموجودات الخّارجية ويذلك جَمع بين هاتين المَرتبتين من العِلم فهو عليه السلام كان عالماً بالكتاب التّدويني والكتاب التّكويني معاً، و لذلك عطف **بالواو** المفيد للجمع ولو كان الأمر كما ذكره الرّازي فكان حقّ العبارة العَطف بثمّ، المُفيد لِلتّرتيب الإنفصالي واللّه أعلم.

وَ رَسُولاً إِلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ

قيل أي و نجعله رسولاً، أو يكلّمهم رسولاً و قيل هو معطوف علىٰ قوله: **وَجِيهاً** أي وجيهاً في الدّنيا والأخرة ورسولاً الىٰ بني إسرائيل بعض المُفسّرين هو وصف بمعنى المرسل أي مُرسلاً الى بني إسرائيل أنَ الرّسول بمعنى الرّسالة و هو معطوف على الكتاب أي ويُعلّمه رسالة الىٰ بني إسرائيل فتكون الرّسالة داخلة في ما يُعلّمه اللّه عيسىٰ قيل و أحسن الوجوه الأوّل أي و يجعله رسُولاً **أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِاٰيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ** فقوله: **أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ** معمولٌ لرسول أي ناطق بأنّي قد جئتكم علىٰ قراءة الجمهُور و امّا علىٰ قراءة من كسر الهَمزة و هي قراءة شاذّة فهو معمول لقولٍ محذوف أي قائلاً أنّي قد جئتكم و يحتمل أن يكون محكّياً بقوله: **وَ رَسُولاً** لأنّه في معنى القول و ذلك على مذهب الكوفّيين، و الأية في الأصل العلامة و المراد بها في المقام آية الرّسالة و علامتها و في قوله: **مِنْ رَبِّكُمْ** إشارة الىٰ أنّ هذه العلامة من جانب الرّب كما أنّ الرّسالة منه و رَدٌ علىٰ من زعم أنّ عيسىٰ هو الّرب أو أبنه إذ لو كان الأمر كما زعموه كان قادراً على كلّ شيٍ و حيث لم يقدر فهو مخلوق محتاج و أنّما قال

ربّكم ولم يقل من ربّي، لأنّهم أي بني إسرائيل كانوا يعتقدون بأنّ موسىٰ كان رسولاً من جانب اللّه الىٰ الخلق، فكأنّه قال عيسىٰ لهم، إنّ الرّب الّذي تعتقدونه بزعمكم هو الّذي أرسَلَني اليكم و أقدَرني علىٰ ما أعمل من المعجزات و الكرامات ثمّ أوضح الآية المشار اليها و بيَّنَها لهم فقال عليه‌السلام.

أَنِّيٓ أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْئَةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ ٱللَّهِ.

الخَلق بفتح الخاء مصدر وأصله التّقدير المستقيم ويُستعمل في إبداع الشّئ من غير أصلٍ ولا إحتذاءٍ ومنه قوله تعالىٰ:**خَلَقَ السَّمٰوٰاتِ وَ الْأرْضِ** أي أبدَعَهما بدلالة قوله: **بَدِيعُ ٱلسَّمٰوٰتِ وَ ٱلْأَرْضِ** و قد يُستعمل في إيجاد الشّئ من الشّئ و منه:

قال اللّه تعالىٰ: **خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وٰاحِدَةٍ**.

قال اللّه تعالىٰ: **خَلَقَ ٱلْإِنْسٰانَ مِنْ نُطْفَةٍ**.

قال اللّه تعالىٰ: **خَلَقْنَا ٱلْإِنْسٰانَ مِنْ سُلٰالَةٍ**.

قال اللّه تعالىٰ: **وَ خَلَقَ ٱلْجٰآنَّ مِنْ مٰارِجٍ**.

و غيرهما من الآيات إذا ظهر لك هذا فأعلم أنّ الخلق الّذي بمعنىٰ الإبداع ليس إلاّ لِلّه تعالىٰ و لهذا قال في الفصل بينه تعالىٰ و بين غيره **أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلٰا تَذَكَّرُونَ**(١).

و امّا الّذي يكون بالإستحالة أي إيجاد الشّئ من شئ فقد جعله اللّه تعالىٰ لغيره في بعض الأحوال والمقام من هذا القبيل قال اللّه تعالىٰ:**وَ إِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْئَةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِي**(٢).

ثمّ أنّ الخَلق لا يستعمل في كافّة النّاس علىٰ وجهين.

أحدهما: في معنىٰ التّقدير.

١- النحل= ١٧ ٢- المائدة= ١١٠

الثّاني: في الكذب كقوله تعالىٰ: **وَ تَخْلُقُونَ إِفْكًا**[١] أي كذباً، وهذه الكلمة أي الخَلق جاء في الكتاب العزيز علىٰ معانٍ، الأوّل بمعنىٰ الّذين ومنه قوله تعالىٰ: **وَ لَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ**[٢].

يعني فَليُغيرن دين اللّه:

قال اللّه تعالى: **فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ**[٣] يعني لا تبديل لِدين اللّه.

الثّاني: بمعنىٰ الإيجاد عن مادّةٍ و هو إيجاد الشّيء من الشّيء:

قال اللّه تعالى: **وَ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ**[٤].

قال اللّه تعالى: **خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ**[٥]. يعني من صُلب آدم والأيات كثيرة.

الثّالث: بمعنىٰ الجعَل ومنه:

قال اللّه تعالى: **وَ تَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ**[٦] أي تَذرون ما جعل لكم ربّكم من فروج نسائكم.

الرّابع : بمعنى التّقدّير.

قال اللّه تعالى: **ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَالِقِينَ**[٧] يعني أحسن المقدّرين.

الخامس: بمعنىٰ التّصوير ومنه:

قال اللّه تعالى: **وَ إِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْئَةِ ٱلطَّيْرِ**[٨].

قال اللّه تعالى: **وَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَ هُمْ يُخْلَقُونَ**[٩] يعني لا يصوّرون شيئاً من عند أنفسهم.

١- العنكبوت = ١٧
٢- النسّاء = ١١٩
٣- الرّوم=٣٠
٤- المؤمنون=١٢
٥- الزّمر=٦
٦- الشّعراء=١٦٦
٧- المؤمنون=١٤
٨- المائدة=١١٠
٩- النحل = ٢٠

السّادس: بمعنىٰ النُطّق ومنه:

قال اللّه تعالى: **قَالُوٓا أَنْطَقَنَا ٱللّٰهُ ٱلَّذِيٓ أَنْطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَ هُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ**[١] يعني و هو أنطقكم أوّل مرّةٍ في الدّنيا.

السّابع: بمعنىٰ الكذب و منه:

قوله تعالىٰ: **وَ تَخْلُقُونَ إِفْكًا**[٢] أي كَذِباً.

الثّامن: بمعنى البعث و منه:

قوله: **أَوَ لَيْسَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمٰوٰاتِ وَ ٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ**[٣].

يعني علىٰ أن يبعث مثلهم في الآخرة إذا عرفت الخَلق و معانيه في الكتاب فلنَرجع الىٰ تفسير الآية ونقول الخلق في هذه الآية بمعنى التَصّوير و هو الخامس من الوجوه فقوله: **أَنِّيٓ أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْئَةِ ٱلطَّيْرِ** معناه إنّي أُصَّور لكم من الطّين و هو الماء المُختلط بالتّراب كهيئة الطّير أي كَصُورة الطّير أوكشكله، فأنفخ فيه، أي فأنفُخ في الشّكل والصُّورة، فالضّمير في قوله (فيه) الىٰ الكاف أي أنفخ في ذلك الشّئ المُماثل شكلاً وصُورةً، فيكون طيراً بإذن اللّه، بعد النّفخ وفي قوله بإذن اللّه إشارة في الحقيقة الىٰ أنّه ليس معلولاً لِلنّفخ بما هو نفخ بل هو معلولٍ لإرادة الحقّ وموجود بأذنه و لذلك قال بإذن اللّه ولم يقل بإذني إذ لو قال بإذني لم يوجد الطّير، ثمّ أنّهم إختلفوا في هذا الطَّير و المشهور عندهم أنّ الطَّير الخّفاش و قيل كان ذلك بإقتراح منهم لأنّهم طلبوا من عيسىٰ عليه السلام أن يَخلق لهم خفّاشاً على سبيل التعّنت جرياً على عاداتهم مع أنبيائهم و خصّوا الخّفاش لأنّه عجيب الخَلق و هو أكمل الطّير خلقاً له ثَدي وأسنان و آذان و ضرع يخرج منه اللّبَن و لا يبصر في ضوء النّهار و

١- الفصلت = ٢١

٢- العنكبوت=١٧

٣- يٰس=٨١

لا في ظلمة الّليل إنّما يرى في ساعتين بعد غروب الشّمس ساعة و بعد طلوع الفجر ساعة قبل أن يسفر جدّاً و يضحك كما يضحك الإنسان و يطير بغير ريشٍ و تحيض أُنثاه و تلد روي عن أبي سعيد الخدري أنّه قال لهم عيسىٰ عليه السلام ماذا تريدون قالوا الخّفاش فسألوه أشّد الطّير خلقاً لأنّه يطير بغير ريشٍ و يُقال ما صنع غير الخّفاش قال المفّسرون أنّ الطّائر الّذي خلقه عيسىٰ كان يَطير ما دام النّاس ينظرون اليه فإذا غاب عن أعيُنهم سَقط مَيتاً ليتمّيز فعل المخلوق من فعل الخالق وكان بنو إسرائيل مع معاينتهم لذلك الطّائر يطير، يقولون في عيسىٰ هذا ساحرٌ.

وَ أُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَ ٱلْأَبْرَصَ وَ أُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ

إختلفوا في الأكمه، فقال مجاهد هو الأعشىٰ، و قال عكرمة هو الأعمش الزّمخشري هو الّذي وُلد أعمى و قيل هو الممنوع العَين قالوا ولم يكن في هذه الآية أكمه، غير قتادة بن دعامة السّدوسي صاحب التفسّير، و قال إبن عبّاس والحَسن و السّدي هو الأعمىٰ علىٰ الإطلاق، وحَكى عن النّقاش أنّه قال: **ٱلْأَكْمَهَ** هو الأبكم الّذي لا يفهم ولا يُفهم، الميّت الفؤاد، قيل و قد كان عيسى يبرء بدعائه والمسح بيده كلّ علّةٍ و لكن لا يقوم الحجّة علىٰ بني إسرائيل في معنىٰ النّبوة إلاّ بالإبراء من العِلل الّتي يعجز عن إبرائها الأطّباء حتّى يكون فعله ذلك خارقاً للعادات والإبراء من العَشي والعمش والقمش ليس بِخارقٍ و امّا العمي فالأبلغ الإبراء من عمي الممسوح العَين قالوا أنّه ربّما إجتمع عليه خمسون ألفاً من المرضى من أطاق منهم أتاه و من لم يطق أتاه عيسى و ما كانت مداواته إلاّ بالدّعاء وحده وخصّ بالذّكر الأكمه والأبرَص لأنّهما داءان مُعضلان لا يقدر علىٰ الإبراء منهما إلاّ اللّه تعالىٰ و كان الغالب على زمان عيسىٰ الطّب فأراهم اللّه المُعجِزة من جنس علمهم كما أرىٰ قوم موسىٰ إذ كان الغالب عليهم السِّحر المُعجزة بالعَصا واليَد البيضاء وكما أَرىٰ العرب إذ كان الغالب عليهم البلاغة المعجزة بالقرآن، رُوي أنّ جالينوس كان

في زمان عيسىٰ وأنّه رحل اليه من رومية الىٰ الشّام ليلقاه فمات في طريقه و امّا الأبرَص فهو الّذي به برص وهو بياض في الجِلد يتَطير به و اذا إستحكم فلا بُرء له و لا يزول بالعلاج ولم تكن العرب تَنفّر من شئ نِفرتها منه ونقلوا عن جالينوس أنّه قال إذا ولد أعمى لا يبرء بالعلاج وكذٰا الأبرص إذا كان بحال و غَرزت الأبرة فيه لا يخرج منها الدّم لا يقبل العلاج فرجع الىٰ عيسىٰ وجاؤوا بالأكمه والأبَرص فمسح يَده بعد الدّعاء عليهما فأبصر الأعمىٰ وبَرَء الأبرَص فآمن به البعض و جحد البعض وقالوا هذا سِحرٌ.

و قوله: **وَ أُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ** قيل سأل جالينوس عنه فقال الميّت لا يُحييٰ بالعلاج فأن كان هو يحي الموتىٰ فهو نبّي و ليس بطبيبِ فَطلبوا أن يحي الموتى فأحيى أربعة أنفس أحيى العاذر وكان صديقاً له فأرسل أُخته الىٰ عيسىٰ أنّ أخاك العاذر يموت فأتته وكان بينه و بينه مسيرة ثلاثة أيّام فأتاه هو أصحابه فوجدوه قد مات منذ ثلاثة أيّام فقال لأخته أنطلقي بنا الىٰ قبره فإنطلقت معهم الى قبره و هو في صخرةٍ مطبقة فقال عيسىٰ اللّهم ربّ السّموات السّبع و الأرضيين السّبع أنّك أرسلتني الىٰ بني إسرائيل أدعوهم الىٰ دينك وأُخبرهم أنيّ أُحي الموتىٰ فأَحي العاذر فقام العاذر و خرج من قبره و بقى و ولد له و أحيى ابن عجوز قربه ميتاً على عيسى على سريرٍ يحمل فدعا اللّه عيسى فجلس علىٰ سريره و نزّل عن أعناق الرّجال ولبس ثيابه وحمل السّرير على عنقه و رجع الى أهله فَبقىٰ و وُلد له و أحيىٰ إبنتة العاشر الذّي يأخذ العشور قيل له أحيها و قد ماتت فَدعا اللّه تعالىٰ فعاشت و بقيت و ولد لها، فقالوا يُحي من كان قريب العهد بالموت فلعلّهم لم يموتوا بل أصابتهم سكتة فأحيى لنا سام بن نوح فقال عيسى دلّوني علىٰ قبره فخرج و القوم مَعه حتّىٰ انتهىٰ الىٰ قَبره فدعا اللّه تعالىٰ بالإسم الأعظم فَخرج من قَبره و قد شاب رأسه فقال عيسىٰ كيف شاب رأسك ولم يكن في زمانك شيب قال يا روح اللّه لما دعوتني سمعتُ صوتاً يقول أجب روح اللّه فظننتُ أنّ القيامة قد قامت

فَمِن هَول ذلك شاب رأسي فسأله عن النّزع فقال يا روح اللّه مرارته لَم تَذهب مِن حنجرتي و قد كان من وقت موته أكثر من أربعة ألاف سَنة فقال للقوم صدّقوه فأنّه نبّي فأمَن به بعضهم و كذّب به أخرون ثمّ قال له مت بشرط أن يُعيذني اللّه من سكرات لامَوت فدَعا اللّه فَفَعل ثّم طَلبوا منه أيةً أخرىٰ دالّة علىٰ صدقه فقال:

وَ أُنَبِّئُكُمْ بِمٰا تَأْكُلُونَ من أنواع المأكل **وَ مٰا تَدَّخِرُونَ** أي وما تَخبئون لِلغد **فِي بُيُوتِكُمْ** فكان يخبر الرّجل بما أكل قبل وبما يأكل بعد قالوا وكان يُخبر الصّبيان بما يصنع أهلهم و بما يأكلون و يخباؤن لهم وكان الصّبي ينطلق الىٰ أهله و يبكي عليهم حتّىٰ يعطوه ما خبأوا له ثمّ قالوا لصبيانهم لا تلعبُوا مَع هذا السّاحر و جمعوهم في بيتٍ فجاء عيسى يطلبهم فقالوا ليسوا في هذا البيت فقال عيسىٰ فَمن في هذا البيت قالوا خنازير فقال عليه السلام كذلك يكونون فاذا هم خنازير **إِنَّ فِي ذٰلِكَ** أي ما ذكر من الخوارق والأُمور العظام من خلق الطّير و إبراء الأكمه و الأبَرص وإحياء الموتىٰ و الأخبار بما كانوا يأكلون و يدخّرون **لَآيَةً** عظيمة **لَكُمْ** يا بني إسرائيل على صحّة رسالتي **إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ** بما تأكلونه و تدخّرونه و ذلك أنّهم لمّا أحيى لهم الموتىٰ طلبوا منه أية أُخرىٰ وقالوا اخبِرنا بما نأكل في بيُوتنا وما ندَّخر للغد، فأخبرهم فقال يا فلان أنت أكلت كذا وكذا وإدخّرت كذا وكذا و قيل المعنىٰ أن كنتم مؤمنين باللّه اذ كان لا يصّح العلم بمدلول المعجزة إلاّ لمن آمَن باللّه لأنّ العلم بالمُرسل لابدّ أن يكون قبل العلم بالرّسول قالوا وفي الآية دلالة علىٰ أنّ عيسىٰ كان مبعُوثاً الىٰ جميع بني إسرائيل والحقّ أنّه كان مبعُوثاً الىٰ كافّة الخلق لأنّه كان من أولي العزم كموسىٰ عليه السلام ثمّ أنّه يستفاد من الآية نّ العبد يمكن له صدور هذه الأيات منه كما صدرت من عيسىٰ إلاّ أنّه بأذن اللّه تعالىٰ من غير أن يستّقل العبد بشيءٍ من ذلك وحكم الأمثال واحد والعجب كلّ العجب من العامّة فأنّهم يقرأون هذه الأيات في الكتاب و يثبتونها في عيسىٰ أو موسىٰ أو

غيرهما لا محالة، و ينكرون ذهه الأمور من غير من نصّ عليه القرأن أولم يكن من الأنبياء و الرسل كالأئمّة المعصومين عليهم السّلام ولم يعلموا أنّ الأمر اذا أمكن صدوره من العبد بأذن اللّه فهو لا يختّص بشخصٍ دون شخصٍ وأنّما الملاك العبُودّية وإمكان الصّدور في حدّ نفسه فمتىٰ وجدت العبودّية الكاملة وشاء اللّه فقد تمّ السّبب و لا مدخلّية للشّخص فيه فاذا قيل لهم أنّ عيسى تكلّم في المهد كما نَطق به الكتاب، يقولون لا إشكال فيه لأنّ اللّه تعالىٰ قادر علىٰ كلّ شئٍ و هو الّذي أقدر عيسىٰ على التكلّم في المَهد في إبراء الأكمه والأبَرص و إحياء المَوتىٰ و خلقه الطّير و الأخبار ممّا كانوا يأكلون أو يدخّرون و هكذا في موسىٰ و غيرهما و امّا اذا قيل لهم أنّ علّي بن أبي طالب تكلّم حين الولادة و هكذا غيره من الأئمة و أنّهم كانوا قادرين على ما كان عيسىٰ و موسى و غيرهما من الأنبياء قادرين عليه يقولون هذا قول من أشرك في دينه و جعل للحقّ شريكاً في ملكه و امثال ذلك من الكلمات ولم يعلموا أنّ اللّه الّذي أقَدر عيسى على التكلّم في المهد مثلاً هو الذّي أقدر علّياً و غيره من الأئّمة عليه فأيَن الشِّرك و للبحث فيه مقام أخر وسيجئ إن شاء اللّه تعالىٰ:

وَ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرٰيٰةِ.

قوله: **مُصَدِّقًا** عطف علىٰ قوله: **و رسُولاً**، و قيل المعنىٰ وجئتكم مصّدقاً لما بين يدّي ُ أي لما قبلي **مِنَ ٱلتَّوْرٰيٰةِ** و هو كتاب مُوسىٰ وفيه دلالة علىٰ أنّ كلّ نبّي كان صاحب كتاب و شريعة كان مُصدّقاً لمن كان قبله بالنبوّة والمُصدّق بالنبوّة مصدّقٌ لكتابه أيضاً و أن كانت شريعته ناسخة لشريعة النّبي المتقدّم لأنّ النّسخ ليس معناه إبطال الدّين السّابق بالكلّية نعم هو يوجب تبديل بعض الأحكام ببعض و تغيير بعضها عمّا كان عليه و امّا الأصل فهو محفوظٌ والىٰ هذا المعنىٰ أشار بقوله: **وَ لِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ** أي أُبدّل لكم الحرام بالحَلال أو أغيّر الحكم من الحرام الى الحَلال **وَ جِئْتُكُم بِـاٰيَةٍ مِـنْ**

رَبِّكُمْ فَاتَّقُوا ٱللَّهَ وَ أَطِيعُونِ قيل ظاهر اللّفظ يقتضي أن يكون قوله: **وَ جِئْتُكُمْ بِاٰيَةٍ** من ربّكم، للتّأسيس لا للتّوكيد لقوله قد جئتكم بأيةٍ من ربّكم الآية الأولىٰ هي المُعجزة أعني بها خلق الطّير وقوله: و قد جِئْتُكُمْ بِاٰيَةٍ في مقام البحث المراد بها الإنجيل فإختلف متّعلق المجيِ و يحتمل أن يكون التّكرار للتّأكيد أي جئتكم بأيةٍ بعد أُخرىٰ ممّا ذكرتُ لكم من خلق الطّير و الإبراء والإحياء و الإنباء بالخفّيات و ولادتي من غير أبٍ وكلامي في المَهد و سائر الأيات وفي قوله **فَاتَّقُوا ٱللَّهَ وَ أَطِيعُونِ** أي أطيعُوني، و المعنى أنّ بعد مشاهدة الأيات والمُعجزات التّي لا يقدر عليها أحد إلاّ من كان مؤيّداً من عند اللّه مأذوناً من قبله ينبغي لكم أن تتّقوه و تطيعوني فيما يأمركم به و أنهاكم عنه و فيه إشارة الىٰ أنّ إطاعة الرّسول إطاعة اللّه كما أنّ معصيته معصية اللّه و لذلك قال أطيعون ولم يقل أطيعُوه كما قال اللّه تعالىٰ: **قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ ٱللّٰهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللّٰهُ**[١].

إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هٰذا صِراطٌ مُسْتَقِيمٌ.

من كسران فعلى الإستئناف ومن فتح فقيل، التّقدير لأنّ اللّه ربّي وربّكم فأعبدُوه فيكون متعلّقاً بقوله فأعبدُوه و قوله: **هٰذا صِراطٌ مُسْتَقِيمٌ** أي طريق واضح لمن يسلكه لا إعوجاج فيه والمشار اليه بقوله، هذا، قوله: **إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ** والأحسن أن يكون المشار اليه قوله: **فَاتَّقُوا ٱللَّهَ وَ أَطِيعُونِ** لأنّ الصّراط المستقيم في إطاعة الرّسول وأن شئت قلت مجموع التّقوىٰ و إطاعة الرّسول والعبودّية لِلّه تعالىٰ هو الصّراط المُستقيم الّذي لا إعوجاج فيه كما نقول في كلّ صلاةٍ أهدنا الصّراط المستقيم.

■

١- آل عمران = ٣١

فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَ ٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾ رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنْزَلْتَ وَ ٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّاهِدِينَ ﴿٥٣﴾ وَ مَكَرُوا وَ مَكَرَ ٱللَّهُ وَ ٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَاكِرِينَ ﴿٥٤﴾

◁ اللّغة

فَلَمَّآ أَحَسَّ: الحاسّة القوّة الّتي بها تدرك الأعراض الحسّية و حقيقة الأحساس الإدراك بالحاسّة والمقصود منه هنا أنّه قد ظَهَر منهم الكفر ظهُوراً بأن لِلحسّ فضلاً عن الفهم.

قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ: جمع حَوارّي قيل أنّما سمّوا به لأنّهم كانوا يطهّرون نفوس النّاس بإفادتهم الدّين والعِلم و هو مأخوذ من الحَور بفتح الحاء بمعنىٰ التردّد يقال نعوذ باللّه من الحور بعد الكور أي من التردّد في الأمر بعد المضّي فيه.

وَ مَكَرُوا: المَكر صرف الغير عمّا يقصده بحيلةٍ.

◁ الإعراب

مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ يجوز أن يتعلّق، مِن، بأحسَّ، و يجوز أن يكون حالاً من الكُفر هو جمع أَنْصَارِىٓ نصير كأشراف جمع شريف و قال قوم هو جمع نصر و هو ضعيف والىٰ، في موضع الحال متعلّقة بمحذوفٍ و تقديره من أنصاري مضافاً الىٰ اللّه أو الىٰ أنصار اللّه ٱلْحَوَارِيُّونَ الجمهور على تشدّيد الياء و هو الأصل لأنّها ياء النسّبة و يقرأ بتخفيفها فراراً من تضعيف الياء.

◁ التّفسير

فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قيل معنىٰ أحسَّ علم و وجد و قيل معناه، عرف، و قيل معناه ظهر، أي لمّا ظَهَر لعيسىٰ منهم الكُفر باللّه، قيل سمع منهم كلمة الكُفر و قال الفرّاء أرادوا قتله وكيف كان فقد علم عيسىٰ ذلك منهم (قال من أنصاري الىٰ اللّه) أي مع اللّه و قال الحسن المعنىٰ مَن أنصاري في السّبيل الىٰ اللّه، و قيل المعنىٰ من يضمّ نُصرته الىٰ نُصرة اللّه عزّ وجلَ **قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ ٱللَّهِ** وكانوا أثني عشر رجلاً على ما قيل وإختلف في تسمّيتهم بذلك فقال ابن عبّاس سمّوا بذلك لبياض ثيابهم وكانوا صيّادين و قيل كانوا قصّارين فسمّوا بذلك لتبيضهم الثّياب و قيل سمّوا بذلك لأنّهم كانوا خاصّة عيسى و حواري كلّ نبّي خاصّته و ذكر بعض المحقّقين أنّ إشتقاقه من حار يحور اذا رجع فكأنّهم الرّاجعُون الىٰ اللّه و قيل هو مشتّق من نقاء القلب و خلوصه و صدقه.

رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنْزَلْتَ

أي يقولون ربّنا آمنّا بما أنزلت، علىٰ عيسىٰ في كتابك **وَ ٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ** يعني عيسىٰ **فَاكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّاهِدِينَ** أي فأكتبنا مع الذّين شهدوا لأنبياءك بالصدّق **وَ مَكَرُوا وَ** يعني كفّار بني إسرائيل الّذين أحسَّ عيسىٰ منهم الكُفر و ذلك أنّ عيسىٰ عليه السلام لمّا أخَرجه قَومه و أُمّه من بين أظهرهم عادَ اليهم مع الحواريّين و صاح فيهم بالدّعوة فهَّموا بقتله و تواطؤوا علىٰ الفتك به فذلك مكرهم (و مكَر اللّه) مَكر اللّه إستدراجه لعباده من حيث لا يعلمون و قال الزّجاج مكر اللّه مجازاتهم على مكرهم فسمّي الجزاء بإسم الإبتداء كقوله اللّه سيهزؤا بهم و هو خادعهم، و قد تقدّم في البقرة.

قال الرّاغب في المفردات بعد ما عرَّفه بصرف الغير عمّا يقصده بحيلة،



ضربان مكرٌ محمودٌ و ذلك أن يتحرّى بذلك فعلٌ جميل و على ذلك قوله تعالىٰ: **وَ ٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمٰاكِرِينَ** ، و مكر مذمومٌ و هو أن يتحرّى به فعلٌ قبيح قال تعالىٰ: **فَانْظُرْ كَيْفَ كٰانَ عٰاقِبَةُ مَكْرِهِمْ**[1] و قال في الأمرين، و مكروا مكراً و مكرنا مكراً، و قال بعضهم من مكر اللّه إمهال العبد و تمكينه من أعراض الدّنيا كما **قال أمير المؤمنين** عليه السلام: **مَن وَسَّع عليه دنياه ولم يَعلم أنّه مُكر به فهو مَخدوعٌ عن عقله.**

و المقصود من هذه الآية أنّ بني إسرائيل قد مكروا أي كذبوا في قولهم لعيسى إنّا أمنّا بك لأنّهم قد همّوا بقتله بعد ذلك و لا معنى للمكر إلاّ هذا و حيث كانوا كذلك فلا جرم يجزون جزاء الماكرين و ليس هذا من الظّلم عليهم بل كانوا أنفسهم يظلمون فأنّ كلّ نفسٍ بما كسبت رهينة وما ربّك بظلّامٍ للعبيد.

■

۱- النمل ۵۰=

إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَا عِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَ رَافِعُكَ إِلَيَّ وَ مُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَ جَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِى ٱلدُّنْيَا وَ ٱلْاٰخِرَةِ وَ مَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴿٥٦﴾ وَ أَمَّا ٱلَّذِينَ اٰمَنُوا وَ عَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَ ٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّالِمِينَ ﴿٥٧﴾ ذٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْاٰيَاتِ وَ ٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٥٨﴾

◁ اللّغة

مُتَوَفِّيكَ: المُتَوَّفى إسم فاعل من توّفىٰ، و مصدره التَّوفي قيل معناه القبض من توَّفيت مالي، قبضته، و قيل معناه النّوم.

وَ رَافِعُكَ: الرَّفع خلاف الوضع و هو في الأجسام حقيقة في الحركة و في المعاني محمول على ما يقتضيه المقام.

وَ رَافِعُكَ: هو إسمٌ فاعل من طهَّر و مصدره التطهّير و هو في الأجسام إزالة النّجس والقذر و في القلب إزالة الرّجس و في كلّ شيءٍ بحسبه.

◁ الإعراب

فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا يجوز أن يكون الذّي مبتدأ فَأُعَذِّبُهُمْ خبره و يجوز أن يكون، الذّي، في موضع نصب بفعل محذوف يفسّره، فأعذّبهم ذٰلِكَ نَتْلُوهُ فيه ثلاثة أوجه:

أحدهما: ذلك مبتدأ و نتلوه خبره.

الثّاني: المبتدأ محذوف و ذلك خبره أي الأمر ذلك و نتلوه في موضع الحال و من الأيات حال من الهاء.

الثّالث: ذلك مبتدأ و من الأيات خبره و نتلوه حال والعامل فيه معنى الإشارة.

◁ التّفسير

إِذْ قٰالَ ٱللّٰهُ يٰا عِيسىٰ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَ رٰافِعُكَ إِلَيَّ وَ مُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا هنا ثلاث مسائل:

المسألة الأولىٰ: في قوله: **إِنِّي مُتَوَفِّيكَ.**

المسألة الثّانية: في قوله: **وَ رٰافِعُكَ إِلَيَّ.**

المسألة الثّالثة: في قوله: **وَ مُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا.**

أمّا الأُولىٰ: أعني بها قوله: **إِذْ قٰالَ ٱللّٰهُ يٰا عِيسىٰ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ** فقيل في معناه إنّي مستوفٍ أجلك و قيل معناه إنّي قابضك من الأرض من توفَّيتُ ما لي قبضتُه، و قيل المراد بالتوفّي هنا النّوم لما روي أنّه رُفع قائماً قال الرّاغب في المفردات و توفّية الشّئ بذله وافياً أي كاملاً تامّاً و استيفاؤه تناوله وافياً و هذه الكلمة قد كثر إستعمالها في القرأن:

قال اللّه تعالىٰ: **إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفّٰيهُمُ ٱلْمَلاٰئِكَةُ**[١].

قال اللّه تعالىٰ: **حَتّٰىٓ إِذٰا جٰآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنٰا**[٢].

قال اللّه تعالىٰ: **فَلَمّٰا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ**[٣].

قال اللّه تعالىٰ: **اَللّٰهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهٰا**[٤].

١- سورجة النّساء=٩٧ ٢- الأنعام=٦١
٣- المائدة=١١٧ ٤- الزّمر=٤٢

و غيرها من الأيات و قد ذكروا في معنىٰ قوله:**إِنِّى مُتَوَفِّيكَ** وجوهاً:

الأوّل: أنّ معناه أنّي متمم عمرك فحينئذٍ أتوفّاك فلا أتركهم حتّى يقتلوك بل أنا رافعك الى سمائي و مقرّبك بملائكتي و أصونك عن أن يتمكّنُوا من قتلك.

الثانى: **إِنِّى مُتَوَفِّيكَ** أي أنّي مميتك و هو مرّوي عن ابن عبّاس قال و المقصود أن لا يصل أعداءُه من اليهود الىٰ قتله.

الثّالث: ما نقل عن أبي بكر الواسطي و هو أنّ المراد **إِنِّى مُتَوَفِّيكَ** عن شهواتك و حُظوظ نفسك و ذلك لأنّ من لم يصر فانياً عمّا سوىٰ اللّه لا يكون له وصول الىٰ مقام معرفة اللّه و أيضاً فعيسى لما رفِع الى السّماء صار حاله كحال الملائكة في زوال الشّهوة و الغضب و الأخلاق الذّميمة.

الرّابع: أنّ التوفّي أخذ الشّئ وافياً أي بتمامه فقوله: **إِنِّى مُتَوَفِّيكَ**بروحك و جسدك أي أنّي رافِع الى السّماء بهما معاً.

الخامس: **إِنِّى مُتَوَفِّيكَ** أي أجَعلك كالمُتَوفّي لأنّه اذا رُفع الىٰ السّماء و انقطع خبره و أثره عن الأرض كان كالمتوفّي و إطلاق إسم الشّئ على ما يشابهه في أكثر خواصه، حسن شائعٌ.

أمّا الثّانية: في تفسير قوله: **وَ رافِعُكَ إِلَيَّ** وفيه أيضاً وجوه:

أحدها: أنّ المعنىٰ رافع عملك إلَّي كقوله تعالىٰ: **إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ** (١) و عليه فكأنّه تعالى بشرّه بقبول طاعته و أعماله و عرّفه أنّ ما يصل اليه من المصائب والمشاق من الأعداء في طريق رسالته فهو لا يضيع أجرَه ولا يُهدم ثوابه.

ثانيها: أنّ الواو في قوله: **وَ رافِعُكَ** لا يفيد التّرتيب فالأية تدّل علىٰ أنّه تعالىٰ يفعل به هذه الأفعال و امّا كيف يفعل ومتىٰ يفعل فالأمر فيه موقوف علىٰ الدّليل.

١- الفاطر= ١٠

ثالثها: ما ذكره صاحب الكشاف و هو أن معنىٰ **رافِعُكَ إِلَيَّ** أي رافِعك الىٰ سمائي و مقر ملائكتي كما هو ظاهر الآية.

رابعها: أنّ معنى متوفّيك **وَ رافِعُكَ إِلَيَّ** واحد ذكره الطّبري في تفسيره.

أمّا الثّالثة: في تفسيره قوله: **وَ مُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا** و فيه أيضاً أقوال:

أحدها: أنّه تعالىٰ جعل الّذين كفرُوا دنساً و نجساً فطهّره منهم لأنّ صحبة الأشرار و خلطة الفجّار تتنزّل منزلة الدّنس في الثّوب و عليه فالمعنىٰ أنّه تعالىٰ يخلّصه منهم فكنّىٰ عن إخراجه منهم و تخليصه بالتّطهير و أتى بلفظ الظّاهر لا بالضّمير فقال من الّذين كفروا، إشارة الىٰ علّة الدّنس و النّجس و هو الكُفر كما قال أنّما المشركون نَجس الأية، وكما في الحديث المؤمن لا ينجس فجعل علّة تطهيره الإيمان.

ثانيها: معناه و مطهّرك من أذى الكفرة.

ثالثها: معناه ومطهّرك من الكفر والفواحش.

رابعها: و مطهّرك ممّا قالوا فيك و في أُمّك.

خامسها: أنّ معناه تخليصه من قتلهم لأنّ ذلك نجس طهّره اللّه منه و قال أبو مسلم التّخليص والتّطهير واحد إلاّ أنّ لفظ التّطهير فيه رفقة للمخاطب كما أنّ الشّهود والحضور واحد وفي الشّهود رفقة ولهذا ذكره اللّه في المؤمنين و ذكر الحضور و الأحضار في الكافرين.

أقول و سيأتي البحث في المراد بالتطهّير في تفسير أية التطهّير إن شاء اللّه كيفيّة القِّصة علىٰ ما نقل عن بعض أربا السِّير هو أنّه لما أرادوا قتل عيسى إجتمع الحواريّون في غرفة و هم أثني عشر رجلاً فدخل عليهم المسيح من شكاة الغرفة فأخبر إبليس جمع اليهود فركب منهم أربعة ألاف رجل فأخذوا باب الغرفة فقال المسيح للحواريين أيّكم يخرج و يقتل و يكون معي في الجنّة فقال رجل أنا يانبّي اللّه فألقىٰ اليه مِدرعة من صوف و عمامة من صوف و

ناوله عكازه و ألقى عليه شبه عيسى فخرج على اليهود فقتلوه و صلبوه و امّا المسيح فكساه اللّه الرّيش و ألبسه النّور و قَطع عنه لذّة المطعم و المشرب فطار مع الملائكة.

ذكره القُرطبي في تفسيره ونقل القصّة بعض أخر بطريق أخر أبسط و أفيد ممّا ذكر و هو أنّ عيسى إستقبله ناس من اليهود فلمّا رأوه قالوا قد جاء السّاحر ابن السّاحرة الفاعل ابن الفاعلة و قذفوه و أُمّه فسمع ذلك و دعا عليهم فإستجاب اللّه دعاءه و مسخهم خنازير فلمّا رأىٰ ذلك رأس بني إسرائيل فزع و خاف و جمع كلمة اليهود علىٰ قتله فإجتمعوا عليه فسألوه فقال يا معشر اليهود أنّ اللّه يبغضكم فغضبوا من مقالته و صاروا اليه ليقتلوه فبعث اللّه اليه جبرئيل فأدخله في خوخة الىٰ بيت فيها روزنة في سقفها فرفعه الى السّماء من تلك الرَّوزنة فأمر رأس اليهود رجلاً من أصحابه إسمه نطليا نوس أن يدخل عليه فيقتله فدخل عليه فلم ير أحد و ألقىٰ اللّه عليه شبه المسيح فخَرج اليهم فَظَنّوه عيسى فقتلوه و صلبوه، و قيل أنّ عيسى قال لأصحابه أيّكم يحبّ أن يلقى عليه شبهي و هو مقتول وساق الحديث كما ذكره القُرطبي و قيل غير ذلك و الإنصاف أنّ التّواريخ و كتب السِّير في أمثال هذه القضايا لا يمكن الإعتماد عليها إلاّ أن يكون المذكور فيها مستنداً الىٰ النّبي أو الوصّي فأن وجدنا في أمثال هذه الأمور رواية صحيحة أخذنا بها و إلاّ فلا نتجاوز عن ظواهر الكتاب و أنت خبير بأنّ القرأن يُصرح بأنّهم ما قَتلوه وما صَلَبوه و لكن شُبّه لهم الآية كما سيأتي و امّا كيفيّة القصّة فالكتاب ساكت عنها.

وَ جَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيٰمَةِ.

إختلفوا في المخاطب بالكاف مَن هو، فقال القُرطبي المخاطب بها محّمد ﷺ ثمّ نقل عن الضّحاك و محّمد إبن أبان، أنّهما قالا المراد بهم الحوارّيُون و به قال غيره من مفسري العامّة والخاصّة قال الطّبرسي ﵀ معناه

جاعل الّذين آمنوا بك فوق الّذين كذبوا عليك و كذّبوك في العزّ والغلبة والظّفر و النّصرة و قيل في البرهان و الحجة والمعنّي به النّصارى و ساق الكلام الىٰ أن قال و قيل المعنّي به أمّة محمّد صلى الله عليه وآله و أنّما سمّاهم تبعاً وأن كانت لهم شريعة علحيدة لأنّه وجد فيهم التّبعية صورة و معنىٰ أمّا صورة فأنّه يقال فلان يتبع فلاناً إذا جاء بعده و امّا معنىً فلأنّ نبّينا كان مقدّماً بعيسىٰ و بكتابه و يقال لمن يصدّق غيره أنّه يتبعه علىٰ أنّ شريعة نبّينا وسائر الأنبياء متّحدة في أبواب التوحيد فعلىٰ هذا هو متّبع له إذا كان مُعتّقداً إعتقاده وقائلاً بقوله وهذا القول أوجه لأنّ فيه ترغيباً في الإسلام ودلالة علىٰ أنّ أُمّة محمّد يكونون ظاهرين الىٰ يوم القيامة و لأنّ من دعاه إلٰهاً لا يكون في الحقيقة تابعاً له انتهىٰ كلامه.

أقول أمّا أنّ الكلام ذو إحتمالين بحسب الظّاهر فلا بحث فيه و لذلك لا نلوم من حمل اللّفظ علىٰ أنّ المراد به أُمّة محمّد إلاّ أنّ ما ذهب اليه الطّبرسي قدس سره من أنّ محمّداً صلى الله عليه وآله كان تابعاً لعيسىٰ صورةً و معنىً أما صورةً فلأنّه جاء بعده معنىٰ فلأنّه كان مُصدّقاً بعيسى ويكتابه فهو محلّ نظرٍ بل منع و ذلك لأنّ رسول اللّه صلى الله عليه وآله قال لو أدركني أخي موسىٰ ما وَسعه إلاّ إتّباعي و اذا كان موسىٰ كذلك فعيسىٰ مثله لأنّ حكم الأمثال واحد، هذا أوّلاً و امّا ثانياً نقول لا نسلّم أنّ مجيئ محمّد صلى الله عليه وآله بعد عيسىٰ و تصديقه أيّاه دليل علىٰ أنّه كان تابعاً له صورةً و معنىً وأيّ دليلٍ من العقل والنّقل واللّغة دلّ علىٰ أنّ المتأخر زماناً يكون تابعاً للمتقدّم و ما الدّليل على أنّ التصدّيق بعيسى وكتابه معناه المتابعة و امّا قوله أنّ شريعة نبّينا و سائر الأنبياء متّحدة في أبواب التّوحيد فعلىٰ هذا هو متّبع له فطريف جدّاً و ذلك أنّ إتّحاد الشّرائع في أبواب التّوحيد يدّل علىٰ أنّ الأنبياء كانوا مُشتركين في الدّعوة الىٰ التّوحيد لأنّه أساس الأديان والعّلة الغائية لجعلها و عليه فكلّهم كانوا تابعين لهذا الأصل و هو التّوحيد و بعبارةٍ أخرى كلامه هذا يدّل علىٰ أنّ الأنبياء من أوّلهم الىٰ آخرهم كانوا يدعون النّاس الى التّوحيد و هذا ممّا لا كلام فيه لكنّه ليس دليلاً علىٰ المتابعة كما هو

المدّعى و إلاّ يلزم أن يكون عيسىٰ تابعاً لإدريس النّبي أو هود و صالح و امثالهم و اذا كان كذلك فأينَ معنىٰ أُولىٰ العَزم من الرّسل و قوله تعالىٰ: **تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ**[1] و من الواضح أنّ كلّ متبوعٍ أفضل من التّابع لأنّه إمام و هذا مأموم والإمام أفضل من المأموم وأعجب من ذلك كلّه قوله يقال لمن يصدّق غيره أنّه يتبعه و لم يُبيّن أنّ الّذي يقول هذا من هو و لعلّه ﷺ أراد به نفسه ضرورة وجود الفرق من حيث المعنىٰ بين المصدّق و التّابع ألا ترىٰ إنّا نصدّق جميع الأنبياء قبل محمّد ﷺ و لا يجوز لنا متابعتهم في شرائعهم و سنتهم فمعنى التصدّيق الإعتقاد بكون عيسىٰ أو موسىٰ أو غيرهما من الأنبياء مبعوثين الىٰ الخلق من قبل اللّه تعالىٰ في زمانهم و معنى المتابعة تبعيّته أديانهم وشرائعهم لنا في هذا العَصر فإذا قيل فلان تابع لفلان معناه تابع له في قوله و فعله أي يعَمل بما أمرَه و ينتهي عمّا ينهي عنه نعم ما ذكره حقّ في حقّ الأنبياء بالنسّبة الىٰ المرسلين الّذين كانوا صاحب شريعةٍ و دينٍ مستّقلٍ كأنبياء بني إسرائيل الّذين كانوا تابعين لموسىٰ و هكذا و امّا أُولوا العزم من الرّسل فليسُوا كذلك، ثمّ أنّ ما ذكره الطّبرسي ﷺ يغاير ما ذكره القرطبي و أمثاله من العّامة و ذلك لأنّ الخطاب في قوله وجاعل الّذين إتّبعوك، علىٰ قول الطّبرسي الىٰ عيسىٰ علىٰ قول القُرطبي و غيره الىٰ النّبي، فعلىٰ الأوّل معنىٰ العبارة وأنّي جاعل الّذين أُتبعوك يا عيسىٰ، لأنّ المخاطب بالكاف هو عيسىٰ في قوله متوفّيك، و رافعك، و مطهّرك و هكذا في المقام بحكم العطف والمراد بمن أتّبعه أُمّة محمّد الىٰ يوم القيامة، و امّا علىٰ الثاني و هو قول القرطبي و غيره فالمعنىٰ أنّي جاعل الّذين اتبعوك يا محمّد فوق الّذين كفروا بك الىٰ يوم القيامة، بالكاف هو محمّد ﷺ لا عيسىٰ و لازم ذلك أنّ اللّه تعالى عدل عن الخطاب بعيسىٰ الى الخطاب بالرّسول و بشّره بأنّ الّذين إتّبعوك يا محمّد من المسلمين فوق الّذين كفروا بك، والّذي ظهر لنا في المقام

١- البقرة= ٢٦

هو أنّ الخطابات جميعها الى عيسىٰ كما هو الظّاهر من الآيـة والعـدول مـن خطابٍ الىٰ خطاب يحتاج الىٰ دليل وإذ ليس فليس فقول القرطبي و أمثاله من العامّة والخاصّة من أنّ المخاطب بها الرّسول لا عيسىٰ لا نفهم معناه و لا نعلم من أين جاء هذا الإحتمال فأنّ اللّه تعالىٰ يُبيّن في هذه الأيات كيّفية و لادة عيسىٰ و بعثه و رفعه الىٰ السّماء و هذه الآية الّتي نبحثُ فيها نزلت في الرّفع ألا ترىٰ أنّ اللّه يقول فيها أنّي متوفّيك و رافعك و مطهّرك فهكذا قوله: **ٱتَّبَعُوكَ**.

و امّا قول الطّبرسي ومن تابعه وأن كان مـوافـقاً لظـاهر الآيـة مـن حـيث الخطابات حيث أنّه جعل المخاطب بقوله وإتّبعوك عيسىٰ إلاّ أنّه فَسّرا مُتابعيه بمحمّدٍ صلى الله عليه وآله و أمّته لا بالنصارىٰ و هو ممّا لا دليل عليه من العقل والنقل وما ذكره من الدليل لا يصّلح لأنّه مجرّد إستنباطٍ و حدسٍ كما أوضحناه، اذا عرفت هذا فنقول معنىٰ الآية واللّه أعلم هو أنّي متوفّيك و رافعك الّي و مطهّرك من الكفّار و جاعل الذّين الخ أي وأنّي جاعل الذّين إتّبعوك من النّصارىٰ حقّاً لا كذباً و نفاقاً فوق الذّين كفروا بك بأن أنكروك أو خدعوك من اليهود و غيرهم الىٰ يوم القيامة فكأنّ قوله: **وَ جَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ**الخ بشارة منه تعالىٰ الىٰ عيسىٰ وإيماء الىٰ أنّ الحقّ يدوم والباطل لا يدوم لأنّ للحقّ دولة وللباطل.

قال اللّه تعالى: **قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَ زَهَقَ ٱلْبَاطِلُ إِنَّ ٱلْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا**(١).

و لعلّ المراد بالفوقية في الآية الفوقية الحسّية الدّنيوية فأنا نرى و نشاهد في زماننا هذا ذلّة اليهود و عزّة النّصارىٰ بالنسّبة الىٰ اليهود و هكذا كان الأمر في طول الزّمان بشهادة التّاريخ و ذلك لأنّ اللّه تعالىٰ قال في اليهود.

قال اللّه تعالى: **وَ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَ ٱلْمَسْكَنَةُ وَ بَآءُو بِغَضَبٍ مِنَ ٱللَّهِ**(٢).

و هذا ظاهر بحسب الرّئاسة والمُلك في الدّنيا و عليه تحمل الفَوقية و امّا بحسب الأخرة فلا هذا و لا هذا لأنّ الدّين عند اللّه الإسلام و من يبتغ غـير

١- الاسراء= ٨١ ٢- البقرة= ٦١

الإسلام ديناً فلن يقبل منه فى الأخرة من الخاسرين و إن حملت قوله: **ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ** على من اتّبعه في الحقّ لأنّ عيسىٰ عليه السلام كان علىٰ الحقّ، ليشمل كلّ من تابع الحقّ بعده الىٰ يوم القيامة لا بأس به و من المعلوم أنّ المسلمين علىٰ الحقّ فالأية تشملهم هذا ما فهمناه من الآية واللّه أعلم.

ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ أشار في هذا الكلام الىٰ أمرين لا مرَّد لهما:

الأوّل: أنّ مرجع النّاس بل كلّ المخلوق الىٰ اللّه تعالىٰ غداً يوم القيامة.

الثّانى: أنّ الحكم في ذلك اليوم هو اللّه تعالى لا غيره.

أمّا الأوّل: فهو مُؤيّدٌ بالعقل والنّقل،أمّا العقل فلانّه قد دلّ على رجوع كلّ شيءٍ الىٰ أصله و حيث أنّ الأصل في جميع الخلق هو الخالق المُوجد إيّاهم من العَدم الى الوجود فلا جرم رجوع كلّ مخلوقٍ اليه والىٰ هذا المعنىٰ أشار الشّاعر العارف حيث قال:

لقد سألوا وقالوا ما النّهاية ⁂ فقلتُ هي الرّجوع الىٰ البداية

ألا ترى أنّ إبتداء الدّائرة من النّقطة و إنتهائها أيضاً اليها ففي دائرة الوجود أيضاً كذلك لأنّ إبتداء وجود المخلوق من الخالق و إنتهاء مراتب سيره أيضاً ينتهي به والسّر فيه هو أنّ المخلوق حادث و علّة حدوثه تغيّره كمّاً وكيفاً فكلّ مخلوق في عالم الوجود مصيره الىٰ الفناء ولذلك كلّ مخلوق ينتهي اليه وأنّما قلنا كلّ مخلوق ولم نقل كلّ موجود لأنّ واجب الوجود موجود وليس مصيره الى الفناء لعدم تغيّره وحدُوثه و امّا المخلوق فلابدّ له من الإنتهاء الى العدم و لذلك قال اللّه تعالىٰ: **كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ، وَ يَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَالِ وَ ٱلْإِكْرَامِ**(١) و عليه فوجوده ينتهي الىٰ الفناء الذّي كان متّصفاً به قبل الوجود و أن شئت قلت المخلوق كان فانياً قبل وجوده و صار فانياً بعده.

١- الرحمن = ٢٧/٢٦

وأمّا النّقل

قال اللّه تعالىٰ: **إِنّٰا لِلّٰهِ وَ إِنّٰآ إِلَيْهِ رٰاجِعُونَ**(١).

قال اللّه تعالىٰ: **ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ**(٢).

قال اللّه تعالىٰ: **وَ ٱتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللّٰهِ**(٣).

قال اللّه تعالىٰ: **إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ ٱللّٰهِ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَؤُا ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ**(٤).

قال اللّه تعالىٰ: **ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمٰا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ**(٥) و أمثالها من الأيات.

الثّانى: أعني قوله تعالىٰ: **فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ** وأنّ الحكم يوم القيامة مُختصّ به فلِلأيات النّاصة عليه:

قال اللّه تعالىٰ: **فَاللّٰهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيٰمَةِ فِي مٰا كٰانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ**(٦).

قال اللّه تعالىٰ: **فَاللّٰهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيٰمَةِ**(٧).

قال اللّه تعالىٰ: **وَ إِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيٰمَةِ فِيمٰا كٰانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ**(٨).

والأيات كثيرة و يمكن الإستدلال عليه من العقل أيضاً بأنّ اللّه تعالىٰ هو مالك يوم الدّين فهو الحاكم فيه.

فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا فَأُعَذِّبُهُمْ عَذٰابًا شَدِيدًا فِي ٱلدُّنْيٰا وَ ٱلْآخِرَةِ وَ مٰا لَهُمْ مِنْ نٰاصِرِينَ

١- البقرة=١٥٦
٢- البقرة=٢٨
٣- البقرة=٢٨١
٤- يونس=٤
٥- لقمان=١٥
٦- البقرة=١١٣
٧- النّساء=١٤١
٨- النّحل=١٢٤

قيل أنّ المراد بعذابهم في الدّنيا قتلهم و صلبهم و سبيهم والجزية عليهم وفي الأخرة بالنّار هكذا قالوا في معنىٰ الآية ولم أر في تفاسير الموجودة عندنا من العامّة والخاصّة من فسرّه بغير ذلك مع أنّ الحسّ و المشاهدة يكذّب هذا التّفسير فأنا نرىٰ الكفّار في زماننا هذا علىٰ خلاف ذلك في الدّنيا فأيَن عذابهم فيها ثمّ أين قتلهم و أسرهم و صلبهم والجِزية عليهم فأنّ هذه الشّدائد في المسلمين أكثر من الكفّار هذا اذا قلنا بأنّ المراد بقوله أنّ الذّين كفروا، أي كفروا باللّه تعالىٰ وهذا هو الّذي فَهموه من ظاهر الآية فأن كان الأمر علىٰ هذا المنوال فقولهم في معنىٰ الكلام لا يستقيم لأنّ العِزّة والرّئاسة و الحكومة اليوم في الدّنيا بيد الكفّار وليس للمسلمين في هذه الأمور حظٌّ ولا نصيبٌ فالعذاب في الدّنيا للمؤمنين والمُسلمين لا الكفّار فما معنىٰ الآية ولعلّ الأمر كان في زمانهم بالعكس و لذلك فسَّروا الآية بما ذُكر والّذي يختلج بالبال في حلّ الإشكال أمران:

أحدهما: أن يكون المراد بقوله: **فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا** بنبوّة عيسىٰ و همّوا بقتله وهم اليهود و عليه فَتقدير الكلام أنّ الّذين كفروا بك فأعذّبهم عذاباً شديداً في الدّنيا بتسليط بخت النّصر و أمثاله من الظّالمين عليهم و قد روي أنّه قتل من بني إسرائيل سبعين ألفاً في الموضع الذّي قتلوا يحيى فيه حتّى سكن الدَّم و يحيى كان نبّياً داعياً الى شريعة عيسى كما مرَّ هذا مضافاً الى تشريد اليهود في البلاد مع الذّلة والمسكنة حتّىٰ في زماننا هذا و على هذا فالمراد بالكفّار في الآية اليهود لا مطلق الكافر لأنّهم كفروا بعيسى و اتّهموه و رموه بالكفر والإلحاد و غير ذلك فعذَّبهم اللّه في الدّنيا بالقتل بأيدي الظَّلَمة و الأشرار والذّلة و الحقارة بما لا مزيد عليه و ظاهر الآية يؤيد ما ذكرناه لأنّ اللّه تعالى في هذه الآية بصدد بيان ما فعل الكفّار بعيسى ثمّ تبشيره بعذاب الكفّار في الدّنيا و الأخرة و عليه فالكفّار منصرفٌ الى اليهود.

ثانيهما: أن يكون المراد بهم مطلق الكفّار كما قاله المفسرون و عليه فيمكن أن يكون المراد من عذابهم بعد ظهور دَولة الحقّة في أخر الزّمان حيث يملأ اللّه الأرض بصاحبها قسطاً وعَدلاً بعد ما مُلأت ظلماً وجُوراً و هنا إحتمال ثالث و هو أن يكون المراد بعذابهم في الدّنيا عذابهم حين مَوتهم علىٰ ما وردت به الأخبار في كيفيّة قبض أرواحهم الخبيثة و قوله: **وَ ما لَهُمْ مِنْ ناصِرِينَ** معناه واضح.

وَ أَمَّا ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا ٱلصّالِحاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَ ٱللّٰهُ لا يُحِبُّ ٱلظّالِمِينَ ففيه نصّ علىٰ أنّ اللّه تعالىٰ يوّفيهم أجورهم بالتّمام والكمال لأنّ التّوفية بذل الشّئ كذلك قال الرّاغب و توفية الشّئ بذله وافياً وإستيفاءه تناوله وافياً:

قال اللّه تعالىٰ: **وَ وُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ ما كَسَبَتْ**[١].

قال اللّه تعالىٰ: **وَ إِنَّما تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ**[٢].

قال اللّه تعالىٰ: **إِنَّما يُوَفَّى ٱلصّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسابٍ**[٣].

أمّا قوله: **وَ ٱللّٰهُ لا يُحِبُّ ٱلظّالِمِينَ** فالوجه فيه هو أنّ محبّة اللّه للعبد أنعامه عليه كما أنّ محبّة العبد له طلب الزّلفي لَدَيه فلو كان اللّه تعالىٰ مُحبّاً للظّالم معناه أنّه تعالىٰ أنعَم عليه والأنعام علىٰ الظّالم ظُلم لأنّه إعانة عليه و المعين علىٰ الظّالم ظالم فيلزم أن يكون اللّه ظالماً و هو كما ترىٰ.

ذٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلآياتِ وَ ٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ قوله: **ذٰلِكَ** إشارة الىٰ الأخبار عن عيسى و زكّريا ويحيىٰ **نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلآياتِ** أي ما نتلوه عليك من الأخبار فهو في الحقيقة من الأيات والعلامات الدّالة علىٰ نبوّتك

١- آل عمران = ٢٥
٢- آل عمران = ١٨٥
٣-الزمر= ١٠

أيضاً و ذلك لأنّ هذه الأخبار و القِصص لا يعلمها إلاّ قـارئ كـتاب أو مـعلم ولست بواحدٍ منها فلم يَبَق إلاّ أنّك عرفته من طريق الوَحي هكذا قالوا و هو كذلك.

■

إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾

◁ اللّغة

مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ: الإمتراء والمُماراة، المحاجّة فيما فيه مِريةٌ وتَردُّدٌ و المِرية بكسر الميم أخصّ من الشّك ولا عكس.

◁ الإعراب

خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ هذه الجملة تفسير للمَثَل فلا موضع لها و قيل مَوضعها حال من آدم، و قد، مَعه، مقدرةٌ والعامل فيها معنىٰ التّشبيه والهاء لآدم و من، متعلّقة بخلق ثمّ **ثُمَّ قَالَ لَهُۥ** هاهنا لترتيب الخبر لا لترتيب المخبر عنه لأنّ قوله كُن، لم يتأخّر عن خلقه و أنّما هو في المعنىٰ تفسير لمعنىٰ الخلق و قد جاءت، ثمّ، غير مقيّدة بترتيب المخبر عنه كقوله: **فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ**[1].

◁ التّفسير

قد مرّ الكلام في سورة البَقَرة في آدم وقلنا أنّه سُمّي به لكون جَسَده من أديم الأرض و قيل لسُمرةٍ في لونه و غير ذلك ممّا قيل فيه. **إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ** شبّه اللّه تعالىٰ خلقة عيسىٰ بخلقة آدم قيل التّشبيه واقع علىٰ أنّ عيسى خُلق من غير أبٍ كآدم لا علىٰ أنّه خُلق من تراب لأنّ عيسىٰ لم يُخلق من تُراب و الشّئ قد يشبه بالشّئ وأن كان بينهما فرق كبير بعد أن يجتمعا في وصفٍ واحدٍ فأنّ آدم خُلق من تُراب وعيسىٰ لم يُخلق منه فكان

١- يونس ٤٦=

بينهما فرق من هذه الجهة و لكن شبّه ما بينهما أنّهما خلقهما من غير أبٍ و لأنّ أصل خلقتهما كان من تراب لأنّ آدم لم يُخلق من نفس التّراب ولكنّه جعل التّراب طيناً ثمّ جعله صلصالاً ثمّ خلقه منه فكذلك عيسى حوَّله من حالٍ الىٰ حالٍ ثمّ جعله بشراً من غير أبٍ انتهىٰ ذكره القُرطبي في تفسيره و قال البيضاوي أي أنّ شأنه الغريب كشأن آدم خلقه من ترابٍ، جملة مفسّرة للتّمثيل مبيّنة لما له الشّبه و هو أنّه خلقه بلا أب كما خلق آدم من التّراب بلا أبٍ و أُمّ شبَّه حاله بما هو أغرب إفحاماً للخصم وقطعاً لموّاد الشّبه و المعنىٰ خلق قالبه من التّراب انتهىٰ.

و بهذه المقالة قال الرّازي والطّبري والألوسي وغيرهم من العامّة و قال الطّبرسي مناً. **إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ** أي مثل عيسىٰ في خلق اللّه ايّاه من غير أبٍ كمَثَل آدم في خلق اللّه إيّاه من غير أبٍ و لا أُمّ فَليس هو بأبدع ولا أعجب من ذلك فكيف أنكروا هذا و أقرّوا بذلك انتهىٰ.

أقول فكأنّهم إتّفقوا على هذا التّفسير و ذلك لأنّهم قالوا نزلت الأيات في وفد نجران، العاقب والسّيد و من معهما قالوا لرسول اللّه هل رأيت ولداً من غير ذكر فنزّل أنّ مثل عيسى عند اللّه كمثل آدم فشّبه الغريب و هو الّذي ليس له أب، بالأغرب و هو الّذي ليس له أب و لا أمّ و هو آدم، ليكون أقطع للخصم و أحسم لمادّة شُبهته و عليه فيكون وجه الشّبه في المشبه به و هو آدم أقوىٰ منه في المشّبه و هو عيسىٰ لأنّ الخلقة من غير أبٍ ولا أُمّ أغرب من الخلقة من غير أبٍ فقط فالتّشبيه وقع صحيحاً و لا إشكال فيه ولنرجع الىٰ تفسير ألفاظ الأية فنقول لا شكّ أنّ آدم خلقه اللّه من تراب و قد مرّ الكلام فيه في سورة البقرة عند قوله تعالىٰ: **فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَ نَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي**[1] و امّا قوله **ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ** قال بعضهم في الآية إشكالان:

١- الحجر= ٢٩

أحَدهما: أنّ تعالىٰ قال: **خَلَقَهُ مِنْ تُرٰابٍ ثُمَّ قٰالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ** فهذا يقتضي أن يكون خلق آدم متقدّماً علىٰ قول اللّه: **لَهُ كُنْ فَيَكُونُ** أنّما قال ذلك لأنّ ثمّ يفيد التّراخي فاذا قلنا جاء زيد ثمّ عمرو معناه التأخّير في مجيئ عمر اذ لو كان مجيئه متّصلاً بمجيئ زيد لقال جاء زيد فعمرو قال ابن مالك في الألفيّة:

والفاء للتّرتيب بإتّصالٍ و ثمّ للتّرتيب بإنفصالٍ

ثانيهما: أنّه كان ينبغي ن يقال، ثمّ قال له كُن فكان، فَلِمَ لم يقل كذلك بل قال كُن فيكُون.

والجواب عن الأوّل: ما نقله الرّازي عن أبي مُسلم و حاصله أنّ الخلق بمعنى التقدّير والتسويّة ويرجع معناه الىٰ علم اللّه تعالىٰ بكيفيّة وقوعه و ارادته لإيقاعه علىٰ الوجه المخصوص وكلّ ذلك متقدّمٌ علىٰ وجود آدم عليه السلام تقديماً من الأزل الىٰ الأبد و امّا قوله: **كُنْ** فهو عبارة عن إدخاله في الوجود فثبت أنّ خلق آدم متقدّم علىٰ قوله: **كُنْ**.

والجواب الثّانى: ما نقل عن القاضي و هو أنّه تعالىٰ خلق آدم من الطّين ثمّ قال له كُن أي أحياه كما قال ثمّ أنشأناه خلقاً أخر فأن قيل الضّمير في قوله: **خَلَقَهُ** راجع الىٰ آدم و حين كان تراباً لم يكن ادم عليه السلام موجوداً، أجاب عنه و قال بل كان موجوداً و أنّما وجد بعد حياته و ليست الحياة نفس آدم قال الرّازي بعد نقله ما نقلناه و هذا ضعيف لأنّ آدم ليس عبارة عن مجرّد الأجسام المتشكّلة بالشكّل المخصوص بل هو عبارة عن هويّة أخرىٰ مخصوصة و هي أمّا المزاج المعتدل أو النّفس ثمّ قال والجواب الصّحيح أن يقال لمّا كان ذلك الهيكل بحيث سيصير آدم عن قريب سمّاه آدم قبل ذلك تسميته لما سيقع بالواقع.

والجواب الثّالث: ما ذكره أيضاً و هو أنّ قوله: **ثُمَّ قٰالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ** يفيد تراخي هذا الخبر عن ذلك الخبر فكذا قوله خلقه من تراب أي صيّره خلقاً سوّياً ثمّ أنّه يخبركم أنّي أنّما خلقته بأن قلت له كُن.

و أجاب عن الإشكال الثّاني بأن تأويل الكلام ثمّ قال له كُن فيكون، فكان و أعلم يا محمّد أنّ ما قال له ربّك كُن، فأنّه يكون لا محالة انتهىٰ كلامه

وأنا أقول أمّا الجواب عن الإشكال الأوّل فما نقله الرّازي عن أبي مُسلم من أنّ الخلق هنا بمعنى التقدّير والتسويّة و امّا قوله: **كُنْ فَيَكُونُ** فهو إشارة أو عبارة عن إدخاله في الوجود فهو صحيح بالنّسبة الىٰ معنىٰ الخلق لأنّه بمعنىٰ التقدّير والتسّوية و هذا ممّا لا كلام فيه و امّا قوله: **كُنْ فَيَكُونُ** فهو عبارة عن إدخاله في الوجود، ففيه، أنّ آدم لو كان هو الجَسَد فهو كان موجوداً قبل قوله **كُنْ** و أن كان الرّوح فقط أو الجسد مع الرّوح فالحقّ أن يقال أنّ قوله: **كُنْ فَيَكُونُ** عبارة عن نفخ الرّوح فيه و هو حياته و وجوده اذ المفروض أنّه قبل تعلّق الرّوح بالجسد لم يكن موجوداً ثمّ به صار موجُوداً و هذا الذّي ذكرناه يستفاد من الآية الشّريفة:

قال اللّه تعالى :**وَ إِذْ قالَ رَبُّكَ لِلْمَلآئِكَةِ إِنّى خالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصالٍ مِنْ حَمَاءٍ مَسْنُونٍ، فَإِذا سَوَّيْتُهُ وَ نَفَخْتُ فيهِ مِنْ رُوحي فَقَعُوا لَهُ ساجِدينَ**[1].

و قال تعالىٰ في موضع أخر:**إِذْ قالَ رَبُّكَ لِلْمَلآئِكَةِ إِنّى خالِقٌ بَشَرًا مِنْ طينٍ، فَإِذا سَوَّيْتُهُ وَ نَفَخْتُ فيهِ مِنْ رُوحي فَقَعُوا لَهُ ساجِدينَ**[2].

و يظهر من هذه الأيات أن خلقه آدم وتسوية جَسده قبل نفخ الرّوح فيه و يستفاد أيضاً أنّ هوّية آدم بروحه لا بجسده و بعبارة اخرى قبل تعلّق الرّوح كان جسداً و جسماً لا إسم له و بعد تعلّق الرّوح به سمّاه آدم و لذلك أمر الملائكة بالسّجدة له أي لآدم لا للجسد كما قال:**وَ إِذْ قُلْنا لِلْمَلآئِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ**[3] و هذا بعد تعلّق الرّوح بالجَسَد فآدم آدم بروحه لا بجسده ألا ترى أنّه تعالى قبل تعلّق

١- الحجرآية ٢٨ و ٢٩
٢- ص=- ٧١ ٧٢
٣- البقرة= ٣٤

الرّوح بالجسد عبَّر عنه بالبشر فقال أنّي خالق بشراً من طين و لم يقل أنّي خالق آدم من الطّين و ممّا ذكرناه قد ظهر لك أنّ تسوية الجسد كانت متقدّمة علىٰ تعلّق الرّوح به والأخبار به مصرّحة ولا خلاف فيه ظاهراً بين المسلمين والأيات من أقوىٰ الشّواهد عليه و هو ظاهر و عليه فالتّعبير بكملة، ثمّ، المفيد للتّراخي و التّرتيب الإنفصالي ممّا لا إشكال فيه بوجود التّأخير والتّرتيب الإنفصالي في المقام كما عرفت و امّا الإشكال الثّاني و هو أنّه ينبغي أن يقال له كُن فكان، فَلِم لم يقل كذلك بل قال: **كُنْ فَيَكُونُ**.

فالجواب عنه، أنّ، قوله أي قول المستشكل كُن، فكان، غلطٌ بيّن و حقّ الكلام كُن فيكونُ و ذلك لأنّ الموجود وجُد بقوله: **كُن** و امّا قبله فلم يكن و هو واضح فاذا قال: **كُن**، فهو يكون أي يوجد لا أنّه كان اذ لو كان فلِمَ قال كُن فما قاله الرّازي في الجواب من أنه يكون لا محالة لا نفهم معناه هذا.

قال أمير المؤمنين عليه السلام في الخطبة التّوحيدية:

يَقُولُ لِمَا اَرَادَ كَوْنَهُ كُنْ فَيَكُونُ لاَ بِصَوْتٍ يَقْرَعُ وَلاَ بِنِدَاءٍ يُسْمَعُ وَاِنَّمَا كَلاَمُهُ سُبْحَانَهُ فِعْلٌ مِنْهُ اَنْشَاهُ وَمَثَّلَهُ لَمْ يَكُنْ مِنْ قَبْلِ ذٰلِكَ كَائِناً وَلَوْ كَانَ قَدِيماً لَكَانَ اِلٰهاً ثَانِياً الخ[1].

أقول هذا الكلام منه عليه السلام يدّل علىٰ أنّه لا يكون هناك لفظ و لا نداء و لذلك قال عليه السلام و أنّما كلامه سبحانه فِعلٌ والمقصود أنّه ليس هناك كلام مرّكب من الحروف أعني الكاف والنّون وأنّما عُبّر عن كلام الحقّ الّذي هو فعلٌ بهذه الحروف في عالم الألفاظ فقال كُن فيكون، صدق ولي اللّه باب مدينة العلم فأنّ هذه الرمّوز و الدّقائق بل الأسرار الخفيّة تحت الحروف لا يقدر على كشفها و إستخراجها إلاّ من قال: سَلُونِى قَبْلَ اَنْ تَفْقِدُونِى فأنّ هذا الّذي ذكره في

١- خطبة ١٨٦ نهج البلاغة

الباب هو الأصل المعتمد عند العرفاء الشّامخين المقتبسين من أنوار ولايته والذّي يظهر لنا من هذا الكلام هو إسقاط الحروف بالكلّية وحذفها في مقام الإيجاد فالبحث في التّقديم والتّأخير وأنّه يلزم أن يكون الخلق قبل قوله كن فيكون فيلزم تقدّم الشّئ علىٰ نفسه و امثال هذه المسائل حَول الآية أنّما هو بحسب ألفاظ الآية لابحسب الواقع كما عرفت من كلام أمير المؤمنين عليه السلام و قد فصّلنا البحث في شرح هذه الخطبة الشّريفة المسّماة بالخطبة التّوحيدية و هكذا سائر الخُطب في شرحنا الكبير علىٰ نهج البلاغة بما لا مزيد عليه أن شئت الإطّلاع عليه فعليك بمراجعته.

ٱلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلاَ تَكُنْ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ

قال بعض المُفسّرين الخطاب للنّبي صلى الله عليه وآله والمراد أُمّته لأنه صلى الله عليه وآله لم يكن شّاكاً في أمر عيسىٰ عليه السلام ، و قال صاحب الكشّاف، الحقّ من ربّك، خبر مبتدأ محذوف تقديره هو الحقّ ونَهيه عن الإمتراء وجلّ رسول اللّه صلى الله عليه وآله أن يكون ممترياً، من باب التَّهيج لزيادة الثّبات والطمّأنينة و أن يكون لطفاً لغيره انتهىٰ.

و تبعه البيضاوي ولآلوسي و غيرهما من مُفسّري العـاّمة إلاّ أنّـهم غـيّروا ألفاظ صاحب الكشّاف لئلا يظّن ظّان أنّهم أخذوه عنه، و امّا الطّبري و هـو إمامهم في التّفسير فقد أخذ بظاهر الآية و قال، أي فلا تكن من الشّاكين في أنّ ذلك كذلك ثمّ نقل عن قتادة أنّه قال يعني فلا تكن في شّكٍ من عيسىٰ أنّـه كمِثل آدم عبد اللّه و رسوله وكلمة اللّه و رُوحه و أيضاً بأسناده عن الرّبيع قوله: **ٱلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلاَ تَكُنْ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ** يقول فلا تكن في شّكٍ ممّا قصصنا عليك أنّ عيسى عبد اللّه ورسوله وكلمة منه ورُوح وأنّ مثَلَه عند اللّه كمثل آدم خلقه من تُرابٍ ثمّ قال له كُن فيكون و قال الطّبرسي رحمه الله معناه، فلا تكن، أيّها السّامع، من المُمترين و عليه فالخطاب للسّامع أيّ شخصٍ كان.

أقول أمّا قوله **ٱلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ** فهو أشارة الىٰ إنحصار الحقّ فيه تعالىٰ وأنّ ما سواه باطل و ذلك لأنّ الحقّ عبارة عن الدّائم الثّابت الّذي لا يتّغير ولا يَتّبَدل قولاًكان أو فعلاً خلافاً لمن زعم أنّ الحقّ في الفعل فقط، ومن المعلوم أنّ الحقّ بهذا المعنىٰ منحصر باللّه تعالىٰ فهو حقّ لأنّه ثابت غير متغيّر و من كان كذلك في ذاته فكذلك في صفاته فهو الحقّ ذاتاً و صفةً وإن قلنا أنّ الحقّ هو الّذي لا سبيل للبطلان اليه كما فسّره بذلك كثير من المحققين فهو تعالىٰ أيضاً كذلك لأنّ اللّه تعالىٰ لا سبيل للبطلان اليه فهو الحقّ وما سواه باطل وكيف كان فصّح القول بأنّ الحقّ من ربّك و هو المطلوب و امّا قوله **فَلَا تَكُنْ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ** فالإمتراء ليس بمعنىٰ الشّك بل هو أخصّ منه ومعناه التردّد في الأمرالشّك فهو إعتدال النّقيضين عند الإنسان وتساويهما و ذلك قد يكون لوجود إمارتين متساويتين عند النّقيضين أو لعدم الإمارة فيهما و لذلك قد يكون الشّك في أصل الوجود بمعنى أنّ الشّيء موجود أم لا وربما يكون في جنس الشّيء وربما يكون في بعض صفاته و امّا الإمتراء فَليس كذلك لأنّ التَرّدُد بعد الوجود إذا عرفت هذا فنقول قوله تعالىٰ: **فَلَا تَكُنْ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ** معناه لا تكن من المردّدين و هو لا يُنافي العِصمة حتّىٰ نحتاج الىٰ التّأويل في الآية و يقال هو صلّى الله عليه وآله أجلّ من أن يكون ممترياً كما قال الزّمخشري أو يقال أنّ الخطاب للنّبي و المراد أمتّه كما قاله القُرطبى:

قال اللّه تعالىٰ: **يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ**[١].

قال اللّه تعالىٰ: **لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ**[٢].

قال اللّه تعالىٰ: **فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِمَّا يَعْبُدُ هَٰؤُلَآءِ**[٣].

١- الأنعام = ١١٤
٢- يونس = ٩٤
٣- هود = ١٠٩

قال اللّه تعالىٰ: **فَلاٰ تَكُ في مِرْيَةٍ مِنْهُ إِنَّهُ اَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ**(١).

و امثال ذلك من الأيات والمعنىٰ في الكلّ، لا تكُن مُردّداً فيه هذا أوّلاً و امّا ثانياً علىٰ فرض كونه أي الإمتراء مُضّراً بالعِصمة وأنّ النّبي لا يكون مُمتّرياً، فوجوده مُضّرٌ بالعِصمة ولَم يَثبت في الآية شيئ من الإمتراء بل نَهاه اللّه عنه فهذا مثل قولك لزيد لا تكُن بخيلاً ليس معناه أنّه بخيل ثمّ نَهيته عنه بل النّهي عن الإتّصاف به وهكذا في الآية و أمثالها.

قال اللّه تعالىٰ: **وَ لاٰ تَكُونَنَّ مِنَ اَلْمُشْرِكِينَ**(٢).

قال اللّه تعالىٰ: **وَ أَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَ لاٰ تَكُونَنَّ مِنَ اَلْمُشْرِكِينَ**(٣).

قال اللّه تعالىٰ: **لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَ لَتَكُونَنَّ مِنَ اَلْخٰاسِرِينَ**(٤).

و لا شكّ أنّ الشّرك أقبح من الإمتراء وسنتكلم فيها في مواضعها نعم وجود الشّك والإمتراء والظّن فضلاً عن الشّرك يُنافي العِصمة و امّا عدمها أو النّهي عن الإتّصاف بها فأيّ إشكالٍ فيه وما نحن فيه من هذا القبيل فالأية علىٰ ظاهرها ولا نحتاج فيها و أمثالها الىٰ التّأويل.

■

١- هود = ١٧
٢- الأنعام = ١٤
٣- يونس = ١٠٥
٤- الزّمر = ٦٥

فَمَنْ حٰآجَّكَ فيهِ مِنْ بَعْدِ مٰا جٰآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعٰالَوْا نَدْعُ أَبْنٰآءَنٰا وَ أَبْنٰآءَكُمْ وَ نِسٰآءَنٰا وَ نِسٰآءَكُمْ وَ أَنْفُسَنٰا وَ أَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ ٱللّٰهِ عَلَى ٱلْكٰاذِبينَ ﴿٦١﴾ إِنَّ هٰذٰا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ وَ مٰا مِنْ إِلٰهٍ إِلَّا ٱللّٰهُ وَ إِنَّ ٱللّٰهَ لَهُوَ ٱلْعَزيزُ ٱلْحَكيمُ ﴿٦٢﴾ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ ٱللّٰهَ عَليمٌ بِالْمُفْسِدينَ ﴿٦٣﴾

◁ اللّغة

فَمَنْ حٰآجَّكَ: المُحاجّة أن يطلب كلّ واحدٍ أن يَرّد الأخر عن حجّته ومحجّته.

ثُمَّ نَبْتَهِلْ: مضارع إبتَهَل ومصدره الإبتهال و هو مأخوذ من البَهَل و البَهَل كون الشّئ غير مراعي والباهِل البعير المخلّى من قيّده أو من سمةٍ أو المُخلّي ضَرعها من صرارٍ يقال أبهَلتُ فلاناً أي خلّيته وأرادته تشبيهاً بالبعير الباهِل والبَهَل والإبتَهال في الدّعاء الإسترسال فيه والتّضرُع و مَن فسَّر الإبتهال باللّعن فلأنّ الإسترسال في هذا المكان لأجل اللّعن قال الشّاعر:

نظر الدّهر اليهم فإبتَهل   أي إسترسَلَ فيهم فأفناهم

فَإِنْ تَوَلَّوْا: التَوّلي الإعراض أي فأن أعرضوا.

◁ الإعراب

فَمَنْ حٰآجَّكَ الهاء ضمير عيسىٰ، و من شرطّية، والماضي بمعنىٰ المستقبل مٰا جٰآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ما بمعنىٰ الّذي و من العِلم حال من ضمير الفاعل و لا يجوز أن تكون، ما، مصدّرية علىٰ قول سيبَويه والجمهور لأنّ ما

المصدرّية لا يعود اليها ضمير تَعَالَوْا الأصل فيه، تعاليُو ، لأنّ الأصل في الماضي، تعالىٰ والياء منقلبة عن واوٍ لأنّه من العلو فأبدلت الواو ياءً لوقوعها رابعة ثمّ أبدلت ألفاً فإذا جاءت واو الجمع حذفت الياء للإلتقاء السّاكنين ويقيت الفَتحة تدّل عليها نَدْعُ جواب لشرطٍ محذوف، نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ معطوفان عليه ونجعل المتعدّية الى مفعولين أي نصيّر، و المفعول الثّاني ، علىٰ الكاذبين ، لَهُوَ ٱلْقَصَصُ مبتدأ و خبر في موضع خبر، أنّ، إِلَّا ٱللَّهُ خبر من إله تقديره و ما إلهٌ إلاّ اللّه فَإِنْ تَوَلَّوْا يجوز أن يكون اللّفظ ماضياً و أن يكون مستقبلاً تقديره، يتولّوا هكذا قال النّحاس ضعيف لأنّ صَرف المضارعة لا يحذف.

◁ التّفسير

فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ أي فمن جادلك و خاصمك يا محمّد في أمر عيسىٰ **مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ** بأنّه عبد اللّه و رسوله **فَقُلْ** أي فقل لهم **تَعَالَوْا** أي إقبلُوا **نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَ أَبْنَاءَكُمْ وَ نِسَاءَنَا وَ نِسَاءَكُمْ وَ أَنْفُسَنَا وَ أَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ** أي نتضرّع في الدّعاء و قيل نلتعن **فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَاذِبِينَ** منا **إِنَّ هٰذَا** أي أنّ هذا الّذي أوحَينا اليك في أمر عيسىٰ و غيره.

لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ أيلهو الحديث الصدّق فمن خالفك فيه مع وضوح االٔمر فهو مُعانِد **وَ مَا مِنْ إِلٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ** فلا يطلق اسم الإلٰه علىٰ غيره وأنّ عيسىٰ ليس بالٰهٍ كما زعموه و أنّه عبد اللّه و رسوله **وَ إِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ** أي أنّه القادر علىٰ الكمال، والحكيم في الأقوال والأفعال والتقدّير والتدبير، **فَإِنْ تَوَلَّوْا** وأعرضوا عن الحقّ.

فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ فيجازيهم علىٰ إفسادهم وأنّما ذكر ذلك علىٰ

جهة الوعيد فهذا تفسير ألفاظ الأيات إعلم أنّ قوله: **فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ** يسّمىٰ بالمباهلة و لذلك سُميّت و اشتهرت الآية بها فيقال آية المباهلة و نحن نذكر أصل القصّة ثمّ نتكلّم في الآية فنقول قال إبن كثير الدمشقي في تفسيره لهذه الآية ما هذا لفظه وكان سبب نزول المباهلة وما قبلها من أوّل السّورة الى هنا في وَفد نجران.

و هو أنّ النّصارىٰ لما قدموا فجعلوا يحاجّون في عيسى و يزعمون فيه ما يزعمون من النبوّة، و الإلٰهية فأنزل اللّه صدر هذه السّورة ردّاً عليهم كما ذكر محمّد بن اسحاق بن يسار و غيره قال إبن إسحاق في سيرته المشهورة و غيره و قدم علىٰ رسول اللّه وفد نصارىٰ نجران ستّون راكباً فيهم أربعة عشر رجلاً من أشرافهم يؤول أمرهم اليهم وهُم العاقب وإسمه عبد المسيح والسيّدالأيهم، و أبو حارثة بن علقمة أخو بكربن وائل، وأُويس بن الحارث و زيد و قيس و يزيد و إبنيه و خويلد و عمرو و خالد و عبد اللّه و مُحسن و أمَر هؤلاء يؤول الىٰ ثلاثة منهم و هم العاقب وكان أمير القوم و اذا رأيهم و صاحب مشورتهم والّذي لا يصدّون إلاّ عن رأيه والسيّد وكان عالمهم و صاحب رحلهم و مجتمعهم و أبو حارثة بن عَلقمة وكان إسقفهم صاحب مدارستهم وكان رجلاً من العرب من بني بكر بن وائل ولكنّه تنصَّر فعظَّمته الرّوم و ملوكها و شرّفوه و بنوا له الكنائس و أخدموه لما يعلمونه من صلابته في دينه و قد كان يعرف أمررسول اللّه صلى الله عليه وآله و صفته و شأنه ممّا عَلِمه من الكُتب المتقدّمة حمله ذلك على الإستمرار في النصّرانية لما يرىٰ من تَعظيمه فيها و جاهه عند أهلها قال إبن إسحاق و حدّثني محمّد بن جعفر بن الزّبير قال قد قدموا علىٰ رسول اللّه صلى الله عليه وآله المدينة فدخلوا عليه مسجده حين صلّىٰ العَصر و عليهم ثياب الحبرات جباب وأردية من جمال رجال بني الحارث بن كَعب قال، يقول من رآهم من أصحاب النّبي صلى الله عليه وآله ما رأينا بعدهم وفدٌ مثلهم و قد حانت صلاتهم

فقاموا في مسجد رسول اللّه صلى الله عليه وآله فقال رسول اللّه صلى الله عليه وآله دَعُوهم، فصلّوا الى المشرق قال فكلّم رسول اللّه منهم أبو حارثة بن عَلقمة والعاقب عبد المسيح و السيّد الأيهم وهم من النّصرانية علىٰ دين الملك مع إختلاف أمرهم يقولون هو اللّه، و يقولون هو ولد اللّه ويقولون هو ثالث ثلاثة تعالىٰ اللّه من قولهم علواً كبيراً وكذلك النّصرانية فهم يحتجّون في قولهم هو اللّه بأنّه كان يُحيي الموتى و يبرئ الأكمه والأبرص والأسقام و يخبر بالغُيوب و يخلق من الطّين كهيئة الطّير فينفخ فيه فيكون طَيّراً و ذلك كلّه بأمر اللّه و ليَجعله اللّه آيةً للـنّاس و يحتجّون علىٰ قولهم بأنّه ثالث ثلاثة بقول اللّه تعالىٰ فعلنا و أمرنا و خلقنا و قضينا فيقولون لو كان واحداً ما قال إلاّ فعلتُ و أمرتُ و قضيتُ و خلقت و لكنّه هو و عيسىٰ و مريم، تعالىٰ اللّه وتقدّس عمّا يقول الظّالمون.

و يحتجّون في قولهم بأنّه إبن اللّه يقولون، لم يكن له أبٌ يعلم و قد تكلّم في المهد بشيءٍ لم يصنعه أحد من بني آدم قبله وفي كلّ ذلك من قولهم نزّل القرآن فلّما كلّمه الجران قال لهما رسول اللّه أسلما، قالا قد أسلمنا، قال أنكما لم تسلما فأسلِما قالا بلىٰ قد أسلمنا قبلك قال صلى الله عليه وآله كذبتما يمنعكما من الإسلام إدّعائكما لِلّه ولَداً و عبادتكما الصّليب و أكلكما الخنزير.

قالا فمن أبوه يا محمّد، فَصمت رسول اللّه صلى الله عليه وآله عنهما فلم يجيبهما فأنزل اللّه في ذلك من قولهم وإختلاف أمرهم صدر سورة آل عمران الىٰ بضع و ثمانين أية منها ثمّ تكلّم ابن إسحاق علىٰ تفسيرها الىٰ أن قال فلمّا أتىٰ رسول اللّه الخَبر من اللّه والفصل من القضاء بينه و بينهم و أمر بما أُمر به من ملاعنتهم أن ردّوا ذلك عليه دعاهم الىٰ ذلك فقالوا يا أبا القاسم دَعنا ننظُر في أمرنا ثمّ نأتيك بما نريد أن نفعل فيما دعوتنا اليه ثمّ إنصرفوا عنه ثمّ خلّوا بالعاقب وكان ذا رأيهم فقالوا يا عبد المسيح ماذا ترىٰ فقال واللّه يا معشر النّصارىٰ لقد عرفتم أنّ محمّداً لنَّبيّ مرسل و لقد جاءكم بالفصل من خبر صاحبكم ولقد علمتم

أنّه، ما لا عن، قوم نبّياً قطّ فبقي كبيرهم ولا بنت صغيرهم و أنّه الاستئصال منكم أن فعلتم فأن كنتم أبيتم إلاّ ألف دينكم و الإقامة علىٰ ما أنتم عليه من القول في صاحبكم فوادعوا الرّجل وإنصرفوا الى بلادكم، فأتوا النّبي فقالوا يا أبا القاسم قد رأينا أن لا فلا عنك ونتركك علىٰ دينك ونرجع علىٰ ديننا و لكن أبعث معنا رجلاً من أصحابك ترضاه لنا يحكم بيننا في أشياء إختلفنا فيها في أموالنا فأنكم عندنا رضي فقال رسول اللّه أئتوا في العشّية أبعث معكم القوّي الأمين فكان عمر بن الخطاب يقول ما أحببت الإمارة قطّ يومئذٍ رجاء أن أكون صاحبها فرحت الى الظّهر مهجراً فلمّا صلّىٰ رسول اللّه صلّى الله عليه وآله ثمّ نَظر عن يمينه و شماله فَجعلت أتطاول له ليراني فلم يزل يلتمس ببصره حتّىٰ رأىٰ أبا عبيدة بن الجرّاح فدعاه فقال أخرج معهم فأقض بينهم بالحقّ فيما إختلفوا فيه قال عُمر فَذهب بها أبو عبيدة انتهىٰ ما ذَكره ابن كثير في هذا النّقل ثمّ روي رواية أخرى عن البخاري أثبت فيها أنّ أبا عبيدة صار أمين هذه الأُمّة من ذلك اليوم ونقل عن البيهقي القصّة بوجه أبسط لا حاجة لنا الىٰ ذكرها والّذي يحصل من مجموع كلماتهم أنّهم على صنفين، صنفٌ منهم أنكر خروج رسول اللّه لها كما عرفت ممّا نقلناه عن ابن كثير و غيره كالبخاري و التّرمذي و أحمد و غيرهم علىٰ ما نقل عنهم ابن كثير و قال صالحوه علىٰ الجزية، وصنف منهم أثبت ذلك و قال خرج رسول اللّه صلّى الله عليه وآله لها إلاّ أنّها لم تَقع لخوف النّصارىٰ علىٰ أنفسهم فصالحوه على الجزية و امّا الشّيعة فقد إتَّفقت علىٰ خروج رسول اللّه صلّى الله عليه وآله في الغد للمباهلة، ولكنّها لم تقع لخوف النّصارىٰ و نحن نذكر القِصّة من طريق الشّيعة أيضاً فنقول:

في تفسير علّي ابن إبراهيم بأسناده عن أبي عبد اللّه عليه السلام أنّه قال: أنّ نصارىٰ نجران لمّا و فدوا علىٰ رسول اللّه وكان سيّدهم الأهتم (الأيهم) والعاقب والسّيد و حضرت صلاتهم فأقبلوا يضربون

بالنّاقوس وصَلّوا فقال أصحاب رسول اللّه يا رسول اللّه هذا في مسجدك فقال دَعُوهم فلمّا فرغوا دَنوا من رسول اللّه فقالوا الىٰ ماتدعونا فقال صلى الله عليه وآله الىٰ شهادة أن لا إلٰه إلاّ اللّه وأنّي رسول اللّه وعيسى عبدٌ مخلوق يأكل ويشرب ويحدث قالوا فَمن أبوه فنزل الوَحي علىٰ رسول اللّه صلى الله عليه وآله فقال قل لهم ما تقولون في آدم أكان عبداً مخلوقاً يأكل ويشرب ويحدث وينكح فسألهم النّبي فقالوا نعم قال صلى الله عليه وآله فمن أبوه فبهتوا فأنزل اللّه أنّ مَثَل عيسىٰ عند اللّه كمثل آدم خَلَقه من تراب الآية و امّا قوله فَمن حاجّك فيه من بعد ما جاءك من العلم الىٰ قوله فنجعل لعنة اللّه علىٰ الكاذبين فقال رسول اللّه صلى الله عليه وآله فباهلوني فأن كنتُ صادقاً أنزلت اللّعنة عليكم و أن كنتُ كاذباً أنزلت عَلّي فقالوا أنصفت فتواعدوا للمباهلة فلمّا رجعوا الىٰ منازلهم قال رؤوساءهم السّيد والعاقب والأهتم (والأيهم) أن باهلنا بقَومه باهَلناه فأنّه ليس بنّبي وأن باهلنا بأهل بيته خاصّة فلا نباهله فأنّه لا يقدم علىٰ أهل بيته إلاّصادق فلمّا أصبحوا جاءوا الىٰ رسول اللّه صلى الله عليه وآله و معه أمير المؤمنين و فاطمة والحسن والحسين صلوات اللّه عليهم فقالت النّصارىٰ من هؤلاء فقيل لهم أنّ هذا ابن عمّه ووصّيه وختنه علّي ابن أبي طالب وهذه إبنته فاطمة وهذان إبناه الحَسن والحسين ففرّقوا وقالوا لرسول اللّه نعطيك الرّضا فأعفنا عن المباهلة فصالحهم رسول اللّه علىٰ الجَزية وإنصرفوا انتهىٰ

و في تفسير العيّاشي عن حريز عن أبي عبد اللّه عليه السلام قال: أنّ أمير المؤمنين سُأل عن فضائله فذكر بعضها ثمّ قالوا له زدنا فقال عليه السلام: أنّ رسول اللّه أتاه حبران من أحبار اليهود من أهل نجران فتكلّما

في أمر عيسىٰ عليه‌السلام فأنزل اللّه هذه الآية أنّ مثل عيسىٰ عند اللّه كمثل آدم الىٰ أخر الآية فَدَخل رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله فأخذ بيد علّيٍ والحسن و الحسين و فاطمة ثمّ خرج و رفع كفّه الىٰ السّماء و فرّج بين أصابعه ودعاهم الىٰ المباهلة قال و قال أبو جعفر عليه‌السلام وكذلك المباهلة يشبك يَده في يَده ثمّ يَرفعها الىٰ السّماء فلمّا رأه الحبران قال أحدهما لصاحبه واللّه أن كان نبّياً لتهلكنّ وأن كان غير نبّيٍ كفانا قومه فكّفا و أنصرفا انتهىٰ.

أقول فهذه رواية الشّيعة وجمهور العامّة وافقُونا عليه أي علىٰ أنّ رسول اللّه أخَذَ بيد علّي وفاطمة والحَسن والحسين إلاّ أنّ المباهلة لم تَقع لخوف النّصارىٰ و لذلك صالحوا رسول اللّه علىٰ الجَزية فأنّ الآية الشّريفة تدّل علىٰ أنّ أمير المؤمنين كنفس النّبي بدليل قوله و أنفُسنا كما يأتي تفصيل الكلام فيه وجمهور المفسّرين من العامّة نقلوا في تفاسيرهم ما نقلناه عن الصّادق عليه‌السلام في المقام بطرق مختلفة مع تفاوتٍ يسير في ألفاظ الحديث وعباراته كمّا وكيّفاً و أمّا ابن كثير الدّمشقي فهو لعناده و تعصّبه لم ينقل هذا و قال صالحوه علىٰ الجزية و طلبوا منه رجلاً يحكم بينهم الىٰ أخر ما قال حتّىٰ أثبت لأبي عبيدة أنّه أمير هذه الأُمّة و أظنّ ظنّاً قوياً قريباً من القطع أنّه أسقط من الرّواية ما هو الأصل فيها لبغضه و عداوته لأهل البيت وكونه من أشياع معاوية كأكثر أهل الشّام وكيف كان فلا يضّرنا مخالفته مع تصريح أعلام العامّة بخلافه ولا سيّما المُفسّرين منهم بل لا أعرف منهم من وافقه فيما بأيدينا من التّفاسير نشير الىٰ أقوالهم فيها ثمّ نَردفه بما ذكره أصحابنا في تفسير الآية فنقول:

روي الطّبري في تفسيره لهذه الآية بأسناده عن زيد بن علّي في قوله تعالىٰ: نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَ أَبْنَآءَكُمْ قال: كان النّبي صلى‌الله‌عليه‌وآله و علّي و فاطمة و الحَسَن و الحسين.

و بأسناده عن السّدي،فَمَنْ حٰآجَّكَ فيهِ مِنْ بَعْدِ مٰا جٰآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فأخَذ يعني النّبي ﷺ بيد الحَسَن و الحسين و فاطمة و قال: لعلّيٍ أتبعنا فَخرج معهم و لم يخرج يومئذٍ النّصارىٰ و قالوا أنّا نخاف أن يكون هذا هو النّبي ﷺ و ليس دعوة النّبي كغيرها فتخّلفوا عنه يومئذٍ فقال النّبي ﷺ لو خَرجوا لإحترقوا فصالحوه علىٰ صلح علىٰ أنّ له عليهم ثمانين ألفاً فما عجزت الدّراهم ففي العروض الحلّة بأربعين وعلىٰ أنّ له عليهم ثلاثاً و ثلاثين درعاً و ثلاثاً و ثلاثين بعير أو أربعة وثلاثين فرساً غازية كلّ سنة و أنّ رسول اللّه ضامن لها حتّىٰ نؤدّيها اليهم.

و بأسناده عن علباء بن أعمر اليشكري قال: لمّا نزلت الآية فقل: تَعٰالَوْا نَدْعُ أَبْنٰآءَنٰا وَ أَبْنٰآءَكُمْ وَ نِسٰآءَنٰا وَ نِسٰآءَكُمْ أرسَلَ رسول اللّه ﷺ الىٰ علّيٍ و فاطمة و إبنيهما الحَسَن و الحسين و دعىٰ اليهود ليلاً عنهمً فقال شابٌ من اليهود وَيحَكم ألَيس عهدكم بالأمس أخوانكم الّذين مُسخوا قِردة وخنازير لا تلاعنوا فأنتهوا.

و قال الزّمخشري في الكشّاف و رُوى أنّهم لمّا دعاهم الىٰ المباهلة قالوا حتّىٰ نرجع و ننظر فلمّا تخالوا قالوا للعاقب وكان ذارأيهم يا عبد المسيح ما ترىٰ فقال واللّه لقد عرفتم يا معشر النّصارىٰ أنّ محمّداً نبيٌ مُرسَل ولقد جاءكم بالفصل من أمر صاحبكم واللّه ما بأهَل قومٌ نبياً قطّ فعاش كبيرهم و لا نَبت صغيرهم و لأن فعلتم لتهلكّن فأن أبيتم إلاّ ألف دينكم والإقامة علىٰ ما أنتم عليه فوادعوا الرّجل و انصرفوا الى بلادكم فأتَوا رسول اللّه و قد غدا محتضناً الحسين آخذاً بيد الحسن و فاطمة تمشي خلفه وعلّيٌ خَلفها و هو يقول إذ أنا دعوتُ فامّنوا فقال أسقَف نجران يا معشر النّصارىٰ إنّي لا أرىٰ وجوهاً لو شاء اللّه أن يزيل جبلاً من مكانه لأزالَه بها فلا تباهلوا فتهلكوا و لا يبقى علىٰ وجه

الأرض نصراني الىٰ يوم القيامة فقالوا ياأبا القاسم رأينا أن لا نباهلك و أن نقرّك علىٰ دينك و نثبت علىٰ ديننا قال ﷺ فإذا أبيتم المباهلة فأسلموا يكن لكم ما للمسلمين و عليكم ما عليهم فأبوا، قال فأنى، أُناجزكم فقالوا مالنا بحرب العرب طاقة و لكن نصالحك علىٰ أن لا تغزونا و لا تخيفنا و لا تردّنا عن ديننا على أن نؤدّي اليك كلّ عام ألفي حلّة، ألف في صفر و ألف في رجب و ثلاثين درعاً عادية من حديدٍ فصالحهم علىٰ ذلك و قال ﷺ والّذي نفسي بيده أنّ الهلاك قد تدلىٰ علىٰ أهل نجران ولو لاعنوا لمَسخُوا قِردة و خنازير و لإضطرم عليهم الوادي ناراً و لإستأصل اللّه نجران و أهله حتّىٰ الطّير علىٰ رؤوس الشّجر و لما حال الحَول على النّصارىٰ كلّهم حتّىٰ يهلكوا ثمّ قالوا و عن عائشة أنّ رسول اللّه ﷺ خرج و عليه مرط مرجل من شعرٍ أسود فجاء الحسن فأدخله ثمّ جاء الحسين فأدخلَه ثمّ فاطمة ثمّ علّي ثمّ قال: **إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ** ثمّ قال.

فأن قلت ما كان دعاءُه الىٰ المباهلة إلاّ ليبيّن الكاذب منه و من خصمه و ذلك أمرٌ يختصّ به وبمن يكاذبه فما معنىٰ ضمّ الأبناء والنّساء.

قلتُ ذلك أكَد في الدّلالة على ثقته بحاله وإستيقانه بصدقه حيث إستَجرأ على تعريض أعزّته وأفلاذ كَبده وأحبّ النّاس اليـه لذلك ولم يـقتصر عـلى تعريض نفسه له و على ثقته بكذب خَصمه حتّىٰ هلك خصمه مع أحبّته و أعزّته هلاك الإستئصال أن تمّت المباهلة و خصّ الأبناء والنسّاء لأنّهم أعزّ الأهل و ألصقهم بالقلوب و ربما فداهم الرّجل بنفسه و حارب دُونهم حتّىٰ يُقتل و من ثمّة كانوا يسوقون مع أنفسهم الظّعائن في الحروب لتمنعهم مـن الهَرب و يسمون الذّادة عنهم بأرواحهم حماة الحقائق و قَدّمهم في الذّكر على الأنفس أي قال تعالىٰ:

أَبْنَآءَنَا وَ أَبْنَآءَكُمْ وَ نِسَآءَنَا وَ نِسَآءَكُمْ ثمّ قال تعالىٰ: **وَ أَنْفُسَنَا وَ أَنْفُسَكُمْ**

لينّبه علىٰ لُطف مكانهم وقرب منزلتهم وليُؤذن بأنّهم مقدّمون على الأنفس مفدون بها وفيه دليل لا شئ أقوى منه علىٰ فضل أصحاب الكساء عليهم السّلام وفيه برهانٌ واضح علىٰ صحّة نبوة النّبي صلى الله عليه وآله لأنّه لَم يروا أحَد من موافقٍ و لا مخالف أنّهم أجابوا الى ذلك انتهىٰ كلامه و أنا أقول لقد أجاد صاحب الكشّاف في المقام فليس كلام لنا فوق كلامه و أنّما نقلنا كلامه بطوله لما فيه من الحقّ ما ليس في كلام غيره من العامّة.

و قال السّيوطي في الدّر المنثُور في التفسّير بالمأثور بأسناده الىٰ الشّعبي قال كان أهل نجران أعظم قوم من النّصارىٰ قولاً في عيسىٰ بن مَريم فكانوا يجادلون النّبي صلى الله عليه وآله فيه فأنزّل اللّه هذه الأيات في سورة آل عمران **إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ** الىٰ قوله: **فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ**فأمر بملاعنتهم فواعدوه لغد فغد النّبي و معه الحَسن و الحسين و فاطمة فأبوا أن يلاعنوه و صالحوه علىٰ الجزية فقال النّبي لقد أتاني البشير بهلكة أهل نجران حتّىٰ الطّير علىٰ الشّجر لو تّموا علىٰ الملاعنة انتهىٰ.

و بأسناده عن سعد بن أبي وقّاص قال: لمّا نزلت هذه الآية فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَآءَنَا دعا رسول اللّه صلى الله عليه وآله علّياً وفاطمة وحسناً وحسيناً فقال اللّهم هؤلاء أهلي انتهىٰ.

و بأسناده عن علباء بن أحمر اليشكري قال: لمّا نزلت هذه الأية: فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَآءَنَا أرسل رسول اللّه الىٰ علّي وفاطمة وإبنيهما الحَسَن والحسين و دعا اليَهُود ليلا عنهم فقال شّابٌ من اليَهُود ويحكم أليس عَهدكم بالأمس أخوانكم الذّين مسخوا قِردة و خنازير لا تلاعنوا فأنتهوا انتهىٰ.

و من أعَجب ما ذكره السّيوطي في هذا الكتاب ما رواه عن أبي عساكر عن جعفر بن محمّد عن أبيه في هذه الآية **فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَآءَنَا** قال فَجاء بأبي بكر وولده و بعُمر و ولده و بعثمان و ولُده و بعلّيٍ و وُلده انتهىٰ ماذكره.

أقول لو كان واضع هذا الحديث عاقلاً لما أسنده الى جعفر بن محمّد لأنّ ابن عساكر الدّمشقي حاله معلوم و عداوته و عناده بل ونصبه لأهل البيت لا يخفى على أحدٍ و امّا جعفر بن محمّد عليه‌السلام فهو من أهل البيت الذّين طَهَّرَهم اللّه تطهيراً هذا أوّلاً

أمّا ثانياً: فيكف نقل الحديث عن جعفر بن محمّد ولم يكن في زمانه و لا قريباً منه.

ثالثاً: إجماع أهل البيت علىٰ أنّ المراد من أبناءنا الحسن و الحسين و من نساءنا فاطمة و من أنفسنا أمير المؤمنين و أين هذا من أبي بكر و عمر و عثمان و أولادهم أكان أولادهم أولاد الرّسول و أنفسهم نفسه ولم يذكر في الحديث من النّساء شيئاً و ذلك لأنّ الوُلد غير النّساء فلو كان المراد بأبناءنا أولاد أبى بكر و أولاد عثمان و أولاد عُمر فما المراد بالنّساء في قوله: **وَ نِسَآءَنَا وَ نِسَآءَكُمْ** كأنّه نسي الواضع عن قوله **وَ نِسَآءَنَا وَ نِسَآءَكُمْ** و هكذا يكون شأن الكذّابين.

قال الفخر الرّازي في تفسيره لهذه الأية:

المسألة الرّابعة: هذه الآية دالّة علىٰ أنّ الحسن والحسين عليهما السّلام كانا ابني رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله وعَد أن يدعو أبناءه فدَعا الحسن و الحسين فوجب أن يكون إبنيه وممّا يؤكّد هذا قوله تعالىٰ في سورة الأنعام: **و من ذرّيته داود وسليمان** الىٰ قوله: **وزكّريا ويحيىٰ وعيسىٰ** و معلوم أنّ عيسىٰ أنّما إنتسب الى إبراهيم بالأُمّ لا بالأب فثبت أنّ ابن البنت قد يسمّىٰ إبناً واللّه أعلم

قال و روى أنّه صلى‌الله‌عليه‌وآله لمّا خَرج في المرط الأسود فجاء الحَسن فأدخله ثمّ جاء الحسين فأدخله ثمّ فاطمة ثمّ علّي رضي اللّه عنها ثمّ قال:: **إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَ يُطَهِّرَكُم تطهيراً** ثمّ قال الرّازي وأعلم أنّ هذه الرّواية كالمتّفق علىٰ صحّتها بين أهل التفسّير و الحديث انتهىٰ كلامه و هو متين جدّاً وقال في موضع أخر بقي في الأيات سؤالات أربع:

السّؤال الأوّل: الأولاد اذاكانوا صغاراً لم يجز نزول العذاب بهم و قد وَرد في الخبر أنّه صلوات اللّه عليه أدخل في المباهلة الحَسن والحسين فما الفائدة فيه.

والجواب أنّ عادة اللّه جارية بأنّ عقوبة الإستئصال اذا نزلت بقوم هلكت معهم الأولاد و النّساء فيكون ذلك في حقّ البالغين عقاباً و في حقّ الصّبيان لا يكون عقاباً بل يكون جارياً مجرى إماتتهم وإيصال الألام والأسقام اليهم و معلوم أنّ شفقة الإنسان علىٰ أولاده و أهله شديد جدّاً فربّما جعل الإنسان نفسه فداءً لهم و جُنّةً لهم و اذا كان كذلك فهو عليه السلام أحضر صبيانه و نساءه مع نفسه و أمرهم بأن يفعلوا مثل ذلك ليكون ذلك أبلَغ في الزّجر و أقوى في تخويف الخصم و أدّل علىٰ وثوقه صلوات اللّه عليه و على أله بأنّ الحقّ معه انتهى كلامه و هو أيضاً متينٌ و قد ذكر الألُوسي في تفسيره بعد ما نقله معنى الإبتهال عن الرّاغب في المفردات عن البخاري و مسلم قصّة نصارى نجران طبقاً لما نقله ابن كثير في تفسيره و قد مرّ ذكره ثمّ نقل عن الدّلائل من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عبّاس أنّ وفد نجران قدموا على رسول اللّه صلى الله عليه وآله و ساق الحديث الىٰ أن قال وكان رسول اللّه خرج و مَعه علّي و الحَسن و الحسين و فاطمة فقال رسول اللّه أنا دعوت فأمنوا أنتم فأبوا أن يلاعنوه و صالحوه على الجزية انتهىٰ.

و روي عن الشّعبي أيضاً مثل ذلك مع تفاوتٍ في ألفاظ الحديث ثمّ قال بعد نقله الأحاديث و في هذه القصّة أوضح دليلٍ علىٰ نبوّته صلى الله عليه وآله و إلاّ لما إمتنعوا عن مباهلته و دلالتها علىٰ فضل آل اللّه و رسوله صلى الله عليه وآله ممّا لا يمتري فيها مؤمن والنّصب جازم الإيمان انتهىٰ.

ثمّ أنّ غير هؤلاء مِمَن نقلنا أقوالهم من تفاسيرهم أيضاً سلكوا هذا المسلك و قالوا بمقالتهم و هو أنّ رسول اللّه صلى الله عليه وآله أخَذَ بيد الحَسن و الحسين و فاطمة و

أمير المؤمنين ليباهلهم فأبوا عنها وصالحوه علىٰ الجزية.

و به قال البيضاوي و أبوحيان في تفسيره و صاحب روح البيان و من المتّأخرين صاحب تفسير الجواهر و امثالهم ممن أعرضنا عن نقل كلامهم حذراً من التّطويل ثمّ أنّ هذا الّذي نقلناه عنهم مختّص بمفسّريهم و امّا غيرهم من أرباب الحَديث فذكروا في كُتبهم أضعاف ما ذكره أهل التفسّير و امّا مفسّري الشّيعة و محدّيثيهم فلم يختلف فيه أحَد و أجمعوا علىٰ أنّ الآية نزّلت في فضيلة أصحاب الكساء والمراد بقوله: **أَبْنَآءَنَا** الحَسن والحسين، و بقوله نساءنا، فاطمة و بقوله أنفسنا، أمير المؤمنين علّي بن أبي طالب ولا نرىٰ في إثبات ذلك الىٰ نقل الكلمات والأحاديث من طريق الشّيعة لعدم وجود المخالف فيهم بل إستدّلوا بهذه الآية علىٰ أنّ علّياً عليه السلام كان أقرب النّاس الىٰ النّبي فهو أحقّ بالخلافة من غيره اذ لم يُوجد في النّاس من عدّ نفسه صلى الله عليه وآله إلاّ أمير المؤمنين و الأية أصدق شاهدٍ عليه فهو أولىٰ به من غيره.

قال الألُوسي في تفسيره لهذه الآية بعد نقله ما نقلناه عنه ما هذا لفظه:

و إستّدل الشّيعة بها علىٰ أولّوية علّي كرّم اللّه وجهه بالخلافة بعد رسول اللّه بناءً على رواية مجيئ علّي مع رسول اللّه و وجّه أنّ المراد حينئذٍ بأبناءنا الحسن والحسين و بنساءنا فاطمة وبأنفسنا الأمير و اذا صار نفس الرّسول و ظاهرٌ أنّ المعنىٰ الحقيقي مستحيلٌ تعيّن أن يكون المراد المساواة و من كان مساوياً للنبي صلى الله عليه وآله فهو أفَضل وأوَلىٰ بالتَّصَرف من غيره ولا معنىٰ للخليفة إلاّ ذلك.

و أجيب عن ذلك أمّا أوّلاً فبأنّا لا نُسلم أنّ المراد بأنفسنا الأمير بل المراد نفسه الشّريفة و يجعل الأمير داخلاً في الأبناء و في العرف يعّد الختن ابناً من غير ريبةٍ ويلتزم عموم المجاز أن قلنا أنّ إطلاق الإبن على ابن البنت حقيقة و أن قلنا أنّ مجاز لم يحتجّ الى القول بعمومه وكان إطلاقه علىٰ الأميروإبنيه علىٰ

حدٍّ سواء في المجازيّة ثمّ قال و قول الطّبرسي و غيره من علماءهم أنّ أراد نفسه الشّريفة من أنَفسنا لا تجوّز لوجود (نـدعُ) و الشّـخص لا يـدعو نـفسه هذيانٌ من القول اذ قد شاع و ذاع في القديم و الحديث دعته نفسه الىٰ كذا و دعوتُ نفسي الىٰ كذا و طوعت له نفسه وأمرتُ نفسي و شاورتها الىٰ غير ذلك من الإستعمالات الصّحيحة الواقعة في كلام البُلغاء فيكون حاصل **نَـدْعُ أَبْنَآءَنَا** نحضر أنفسنا وأي محذورٍ في ذلك الىٰ أن قال **وأمّا ثانياً**: فبأنّا لو سلّمنا أنّ المراد بأنفسنا نفس الأمير لكن لا نسلّم أنّ المراد من النّفس ذات الشّخص اذ جاء لفظ النّفس بمعنى القريب والشّريك في الدّين والملّة الىٰ أن قال فلعلّه كان للأمير إتّصال للنّبي في النَّسب والمصاهرة و اتّحاد في الدّين عبّر عنه بالنّفس و لا تلزم المساواة التّي هي عماد استدلالهم علىٰ أنه لو كان المراد مساواته في جميع الصّفات يلزم الإشتراك في النّبوة والخاتّمية والبعثة الىٰ كافّة الخلق و نحو ذلك و هو باطل بالإجماع وأطال الكلام بما لا فائدة في نقله إلاّ تسويد الأوراق الىٰ أن قال ولضعف الإستدلال به في هذا المطلب بل عدم صحتّه كالإستدلال به علىٰ أفضلية الأمير علىٰ الأنبياء والمُرسلين لِزعم ثبوت مساواته للأفضل منهم فيه لم يقمه مُحقّق الشّيعة علىٰ أكثر من دعوىٰ كون الأمير والبتول والحسنين أعزّة على رسول اللّه كما صَنع عبد اللّه المشهدي في كتابه إظهار الحقّ انتهىٰ.

فنقول أمّا قوله لا نسلّم أنّ المراد بأنفسنا الأمير بل المراد نفسه الشّريفة، ففيه.

أمّا أوّلاً: أنّ أنفسنا صيغة الجمع و إتّفق أهل الأدب علىٰ أنّ أقلّ الجَمع أثنان

ثانياً: فلو قلنا أنّ المراد بأنفسنا نفسه الشّريفة يلزم إطلاق الجمع علىٰ الواحد و هو ممّا لم يقل به أحَد فيما نعلم غير الألُوسي وأن قلنا بأنّ المراد به نفس أخر غير نفسه الشّريفة كما هو الحقّ فهو نفس الأمير قطعاً اذ لم يكن مع

رسول اللّه في المباهلة غير علّي و فاطمة و الحسنين أمّا فاطمة فهي المراد من قوله و نساءنا، و امّا الحسنين فهما المرادان من قوله:**أَبْنَآءَنَا** ولم يبق في المقام إلاّ علّي عليه السلام فلا جرم هو المراد بقوله و أنفسنا، ولو لم يكن فمن المراد منه و أعجب منه قوله ويجعل الأمير داخلاً في الأبناء وفي العُرف يعدّ الختن إبناً، و ذلك لأنّ الإبن لا يطلق علىٰ الخَتن أصلاً إلاّ في عُرف العوام وعلىٰ فرض إطلاقه عليه لا كلام لنا فيه وأنّما البحث في أنفسنا مضافاً الىٰ أنّه لو كان كما زعمه فمن المراد بأنفسنا هذا مع إتّفاق أهل العلم علىٰ عدم دخول علّي في الأبناء و أنّ هذا الإطلاق باطلٌ من أصله و ليس هذا من قبيل إطلاق الإبن على إبن البنت و ذلك لأنّ إبن البنت ابنٌ حقيقة و كلام رسول اللّه صلى الله عليه وآله فيه حجّة حيث قال أنّ إبني هذا سيّد ولعلّ اللّه يصلح به بين فئتين مسلمتين كما يأتي الكلام فيه فالقياس مع الفارق و امّا ما نقله عن الطّبرسي قدس سره و هو من أكابر العلماء وأعاظم المفسّرين عند الموافق والمخالف، أنّه قال لا تجوز أراد نفسه الشّريفة من قوله أنفسنا لوجود **نَدْعُ** والشّخص لا يدعو نفسه فهو كلام متينٌ لا غبار عليه و نسبة الهذيان الىٰ كلامه هذيان كما أنّ نسبة الهذيان الىٰ رسول اللّه صلى الله عليه وآله هذيان في قول القائل دعوه أنّ الرّجل ليهجُر و اذا نسب رسول اللّه صلى الله عليه وآله في كلامه الىٰ الهذيان فحال الطّبرسي و أمثاله معلوم، و قوله اذ قد شاع و ذاع في القديم والحديث دَعته نفسه الىٰ كذا الىٰ أخر الأمثلة ففيه:

أمّا أوّلاً: أنّ هذا الإستعمال مجاز لأنّ الإنسان في الحقيقة ليس إلاّ نفسه الجسد فهو خارج عن حقيقة الإنسان كما ثبت في محلّه .

ثانياً: فرقٌ واضح بين قولنا دعوتُ نفسي، ودَعَتني نفسي.

ثالثاً: لو صحّ القول بهذا الإستعمال ولو علىٰ سبيل المجاز لا بحث لنا فيه و أنّما البحث في (ندعُ أنفسنا) بحكم العطف و الأنفس صيغة الجمع وكذلك، ندعُ. مفيد للجمع لإضمار، نحن، فيه والذّي يستفاد من الآية هو دعوة الرّسول

إيّاهم بالمباهلة ولم يكن الدّاعي هو الرّسول وحَده، بدليل قوله: **نَدْعُ** ولو كان وحدة لقال، أدعُ نفسي وحيث قال أنفسنا فلا محالة يكون الدّاعي هو صلى الله عليه وآله و غيره، وأمّا قوله ذلك من الإستعمالات الصّحيحة الواقعة في كلام البلغاء، فيقال له وأينَ يُوجد هذا في كلام البُلغاء و أيّ بليغ يقول بصّحة إستعمال الدّعوة في معنىٰ الحضوري حتّى يكون معنىٰ قولنا (فدعُ أنفسنا) أي نحضر أنفسنا، و هل استعملت الدّعوة في الحضور فالأية علىٰ.

ما قاله الألوسي دلّت علىٰ المحاضرة لا علىٰ المباهلة، إذ الدّعوة بمعنىٰ الحضور علىٰ ما قال و هذا معنىٰ قول الطّبرسي قدس سره و الشخّص لا يدعو نفسه لا ما فهمه من كلامه لقلّة فهمه و دركَه.

و أمّا قوله لو سلمّنا أنّ المراد **بأَنْفُسَنا** نفس الأمير لكن لا نسّلم أنّ المراد من النّفس ذات الشّخص إذ قد جاء لفظ النّفس بمعنى القريب والشّريك في الدّين و الملّة، فلعلّه لمّا كان للأمير إتّصال للنّبي في النَّسَب و المصاهرة وإتّحاد في الدّين عبّر عنه بالنّفس ، فالجواب عنه أنّ النّفس لا تطلق على ما ذكره إلاّ بضربٍ من المجاز و هذا صحيح لا خلاف فيه إلاّ أنّه لم يفهم ما قال وكأنّه نقَله من غيره و ذلك لأنّ إطلاق النّفس علىٰ ما ذكره ليس معناه أنّ القريب و الشّريك في الدّين و الملّة من معاني النّفس بل النّفس في هذه الموارد أطلقت على ذات الشّخص إلاّ أنّ الإطلاق بإعتبار قربه وشركته في الدّين مثلاً فقوله إذ قد جاء لفظ النّفس بمعنىٰ القريب كلام لا محصّل له و إذا كان كذلك فالمراد بقوله و أنفسنا، نفىٰ الأمير شخصاً و ذاتاً إلاّ أنّ هذا الإطلاق بإعتبار قربه بالرّسول أوكونه شريكاً له في الدّين أو لأجل المصاهرة و إتّصاله للنّبي أو ما شئت فسمّه فهو ممّا لا يضر بالإستدّلال إذ لم يقل أحد بأنّ عليّاً كان نفس الرّسول حقيقةً ضرورة أنّ نفسه صلى الله عليه وآله غير نفسه عليه السلام فالمقصود من الوَحدة و الإتّحاد هو القُرب المعنوي بالرّسول و هذا ممّا لا إشكال فيه، فقوله مخ لا تلزم

المساواة الّتي هي عماد إستدلالهم فرع علىٰ الأصل الّذي ذكره و حيث بطل الأصل بطل الفرع قهراً فتلزم المساواة قطعاً لأنّ المراد من النّفس ذات الشّخص كما مرّ و أمّا قوله لو كان المراد مساواته في جميع الصّفات يلزم الإشتراكات في النُبّوة والخّاتمية والبعثة الىٰ كافّة الخلق و هو باطل بالإجماع، فالجواب أنّ كلامنا ليس في إثبات المساواة للنّبي و عدمها بل الكلام في أنّه عليه السلام نفس النّبي صلى الله عليه وآله ولو فهم منه المساواة فلا إشكال فيه و نقول أنّ فيه عليه السلام جميع صفات النّبي من العلم و القدرة و العدالة و غيرهما و امّا النبوّة و الخاتميّة و البعثة فهي خارجة عن البحث أمّا أوّلاً فلأنّه صلى الله عليه وآله قال: **له يا علّي أنتَ منّي بمنزلة هارون من موسىٰ إلاّ أنّه لا نبّي بعدي** و هو حديث مشهور متّفق عليه بين المسلمين فأثبت الرّسول فيه جميع صفاته لعلّي غير النبوّة و ثانياً أنّ اللّه تعالىٰ نصّ علىٰ خاتميّته في كتابه العزيز حيث قال: **مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَ لٰكِنْ رَسُولَ ٱللّٰهِ وَ خَاتَمَ ٱلنَّبِيّيِنَ**(۱).

و اذا كان الرّسول خاتم الأنبياء بنّص الكتاب وبقوله صلى الله عليه وآله إلاّ أنّه لا نبّي بعدي فإثبات المساواة للنّبي صلى الله عليه وآله لا يشمل النبّوة فهو عليه السلام مساوٍله في غيرها من الصّفات و نحن نقول به و امّا الإجماع فهو قائم علىٰ أنّه لا نبّي بعده ونحن نقول به و لا نحتاج فيه الىٰ الإجماع بعد الآية والأخبار إذ هو أمرٌ مسلمٌ و أمّا الإجماع علىٰ أنّ علّياً لا يساوي النّبي في سائر الصّفات فهو منتفٍ قطعاً لأنّ قوله: **و أَنْفُسَنٰا** يدّل علىٰ المساواة.

و أمّا قوله في آخر كلامه ولضعف الإستدلال به في هذا المطلب بل عدم صحتّه كالإستدلال به على أفضلية الأمير علىٰ الأنبياء و المرسلين لزعم ثبوت مساواته للأفضل منهم فيه لم يقمه محقّق الشّيعة على أكثر من كون الأمير و البتول و الحسنيين أعزّة على رسول اللّه صلى الله عليه وآله فنقول له لا شّك للشّيعة في كون

۱- الاحزاب = ۴۰

الأمير و أولاده المعصومين أفضل من جميع الأنبياء والمرسلين من آدم الى خاتم المرسلين و امّا جدّهم رسول اللّه صلى الله عليه وآله فهو أفضل منهم ومن غيرهم من الأنبياء و لم يخالف فيه أحد من علماء الشّيعة و هذه كتبهم مشحونة بالإستدلال عليه من الأيات والأخبار والأدلّة العقلية فقوله لم يقمه محقّقوا الشّيعة علىٰ أكثر من كونهم أعزّة علىٰ رسول اللّه دليل علىٰ عدم إطّلاعه علىٰ كتبهم وتحقيقاتهم أو تجاهله فيه لَمصلَحةٍ رآها، و امّا قوله كما صَنع عبد اللّه المشهدي في كتابه إظهار الحقّ فنحن لا نعرف من علماء الشّيعة عبد اللّه المشهدي بل ما سمعنا بإسمه و إسم كتابه إلاّ من الآلوسي و لذلك لا نعلم ما صنع عبد اللّه المشهدي و من هو وأين هو و في أيّ زمانٍ كان و ما حسبه و نسبه بل نسأل عن الآلوسي ونقول من أين وجدت هذا الشّخص الّذي لا يعرفه أحدٌ من علماء الشّيعة ثمّ أخذت عقيدة الشّيعة من كتابه، و نسيت أو تركت المفيد والسيّد المرتضىٰ والشّيخ الطّوسي والعلاّمة الحلّي والمحقّق الطّوسي و أمثالهم من الفحول و أخذت من كتاب إظهار الحقّ وما اخذتَ من الشّافي للمرتضىٰ و تلخيصه للشيخ الطّوسي ومنها الكرامة للعلامة الحلّي و أمثالها من الكُتب الموجودة المنتشرة في البلدان و لعمري هذا من قلّة الإنصاف لو لم يكن من العناد و اطفاء نور الحقّ واللّه متّم نوره ولو كره الكافرون: **وَ سَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا أَىَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ**[1] و نعم الحكم اللّه يوم القيامة وحيث إنجّر الكلام الى هنا فلا بأس بالإشارة الىٰ ما ذكره بعض المعاصرين في الدّيار المصّرية في تفسيره لهذه الآية والجواب عنه علىٰ سبيل الإجمال فنقول قال صاحب تفسير المنار في المقام ما لفظه.

قال الأستاذ الإمام ، الرّوايات متّفقة علىٰ أنّ النّبي صلى الله عليه وآله إختار للمباهلة عليّاً و فاطمة و ولديهما، و يحملون كلمة **نساءنا** علىٰ فاطمة وكلمة **أنفسنا** علىٰ

١- الشعراء = ٢٧٧

علّي فقط و مصادر هذه الرّوايات الشّيعة و مقصدهم منها معروف و قد إجتهدوا في ترويجها ما إستطاعوا حتّىٰ راجت على كثيرٍ من أهل السّنة و لكن واضعيها لم يحسنوا تطبيقها علىٰ الآية فأنّ كلمة **نساءنا** لا يقولها العَربي و يريد بها بنته لا سيّما إذا كان له أزواج ولا يفهم هذا من لُغتهم و أبعد من ذلك أن يراد بأنفسنا علّيٌ ثمّ أطال الكلام بما حاصله أنّ النّبي كان مأموراً من اللّه تعالىٰ أن يدعو المحاجّين والمجادلين في عيسىٰ من أهل الكتاب الىٰ الإجتماع رجالاً ونساءً و أطفالاً و يجمع هو، المؤمنين رجالاً و نساءً و أطفالاً و يبتهلون الى اللّه الى أن قال ولا إشكال في دعوة الأنفس وأنّما الإشكال فيه على قول الشّيعة ومن شايعهم علىٰ التّخصيص انتهىٰ[١].

أقول مراده بالأستاذ الإمام، هو الشّيخ محمّد عبدُه.

و الّذي نفهم من مجموع كلامه هو أنّ الآية لا إختصاص لها بهؤلاء الخمسة بل أمر النّبي بالمباهلة بجمعه الرّجال والأطفال، وأنت ترىٰ أنّ هذا القول مخالف لإجماع الأُمّة كما عرفت من الأحاديث و امّا قوله أنّ مصادر هذه الرّوايات الشّيعة و مقصدهم منها معروف، فنقول في جوابه أنّ الرّاويات الواردة في الباب من طريق أهل السّنة إضعاف ما ورد من طريق الشّيعة فكيف يكون مصادر هذه الرّوايات الشّيعة و على فرض التّسليم كيف قبلتم منّا هذه الرّوايات إذا علمتم أنّها مجعولة موضوعة و أعجب من هذا قوله واضعيها لم يحسنوا تطبيقها علىٰ الآية فأنّ كلمة **نساءنا** لا يقولها العربي و يريد بها بنته لا سيّما إذا كان له أزواج و لا يفهم هذا من لغتهم، و ذلك لأنّهم أي الشّيعة لم يحملوا **نساءنا** على فاطمة و أبناءنا على الحسنين، و أنفسنا علىٰ علّي عليه السلام من عند أنفسهم بل حملوا هذه الألفاظ علىٰ المعاني المعلومة بالأحاديث الواردة من الطّرفين فأنّ الشّيعة لا يفسّر القرآن برأيه و امّا قوله لا يقُولها العَربي الخ.

١- تفسير المنار ج ٣ص ٣٢٢

فالجواب عنه أنّ رسول اللّه ﷺ لم يتّعلم العرّبية من علماء مصر في الجامع الأزهر ولذلك قال هذه الكلمة وأراد منها بنته فأن كان هذا صحيحاً فهو و أن كان غير صحيح فما ذَنب الشّيعة و امّا قوله و لكن واضعيها لم يحسنوا تطبيقها علىٰ الأية، فجوابه أنّ الأحاديث الواردة في تفسير الآية من العامّة و الخاصّة أكثر من أن تعدّ و تحصىٰ ثمّ أنّ هذه الرّوايات تختلف ألفاظها و تتفاوت أسنادها فكيف يعقل أن تكون موضوعة والحديث الموضوع لا يكون كذلك ألا ترىٰ أنّ حديث نحن معاشر الأنبياء لا نوّرث ما تركناه صدقة، لم تختلف ألفاظه في طول التّاريخ و لم ينقل إلاّ من طريقٍ واحدٍ بسندٍ واحدٍ و شاهدٍ واحد و هو أبو بكر و امّا ما نحن فيه فليس من هذا القبيل لإختلاف ألفاظ الأحاديث و تفاوت أسنادها و هو ظاهر و امّا قوله في آخر كلامه و أنّما الإشكال فيه على قول الشّيعة ومن شايعهم علىٰ القول بالتّخصيص، فحاصل كلامه أنّ الإشكال فيه علىٰ كلّ المسلمين علىٰ قولهم بالتّخصيص و أنّما قلنا ذلك لأنّ القول بالتّخصيص ورد في روايات العّامة أكثر منه في روايات الخّاصة كما لا يخفىٰ علىٰ المتّتبع في الأخبار.

قال الحافظ الحَسكاني و هو من أعيان علماء العّامة و مشاهيرهم في كتابه المُسمّىٰ بشواهد التنزيل لقواعد التفضيل في هذه بأسناده عن عمرو بن سعيد بن معاذ أنّه قال قدم وَفد نجران العاقب والسيّد فقالا يا محمّد أنك تذكر صاحبنا فقال النّبي ﷺ هو عبد اللّه ونبّيه و رسوله، قالا فأرنا فيمن خَلق اللّه مثله وفيما رأيت و فيما سمعت فأعرض النّبي عنهما يومئذٍ ونزَل عليه جبرئيل بقوله أنّ مثل عيسىٰ عند اللّه كَمَثل آدم خَلقه من تراب فعادا وقالا يا محمّد هل سمعت بمثل صاحبنا قطّ قال نعم قالا مَن هو قال ﷺ آدم ثمّ قرأ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ قالا فأنّه ليس كما تقول فقال لهم رسول اللّه تعالو ندعُ أبناءنا و أبناءكم الآية فأخذ رسول

اللّه بيد علّي ومعه فاطمة وحَسن وحُسين و قال هـؤلاء أبـناءنا و نساءنا و أنفسنا، فهّما أن يفعلا ثمّ أنّ السيّد قال للعاقب ما تصنع بملاعنة الحديث شواهد التّنزيل[۱].

و أيضاً بأسناده عن إبن عبّاس الىٰ أن قال: فخرج رسول اللّه و أخذ بيد علّي و مَعه فاطمة و حَسن و حسـين فـقال هـؤلاء أبـناؤنا و نساءنا و أنفسنا الحديث[۲].

و أيضاً بأسناده عن جابر بن عبد اللّه قال: قَدِم وَفد أهل نجران علىٰ النّبي و ساق الحديث الىٰ أن قال جابر، أبناءنا الحسـن والحسـين ونساءنا فاطمة و أنفسنا علّي بن أبي طالب الخ.

و أيضاً عن عامر بن سعيد عن أبيه قال: ولمّا نزلت هذه الآية دعا رسول اللّه علّياً وفاطمة وحسناً وحسيناً فقال اللّهم هـؤلاء أهـلي انتهىٰ[۳].

و رواه الحاكم في المستدرك أيضاً[۴].

الى غير ذلك ممّا رواه الحَسكاني و غيره من علماء الحديث بل روي الحسكاني عن أبي البختري أنّ رسول اللّه أراد أن يلاعن أهل نجران بالحَسَن و الحسين و فاطمة، و لنختم البحث بذكر ما قاله الرّازي في تفسيره لهذه إتماماً للحجّة.

المسألة الخامسة: كان في الرّي رجل يقال له محمود بن الحَسن الحُمَصي و كان معلّم الأثني عشرية وكان يزعم أنّ علّياً عليه السلام أفضل من جميع الأنبياء سوىٰ محمّد صلى الله عليه وآله قال والّذي يدّل عليه قوله تعالىٰ وأنفسنا وأنفسكم وليس المراد بقوله و أنفسنا نفس مُحمّد صلى الله عليه وآله لأنّ الإنسان لا يدعو نفسه بل المراد به غيره و أجمعوا علىٰ أنّ ذلك الغير كان علّي بن أبي طالب فدّلت الآية علىٰ أنّ نفس علّي نفس محمّدٍ.

۱- ج ۱ ص ۱۲۱
۲- ص ۱۲۲
۳- ص ۱۲۴
۴- ج ۳ ص ۱۵۰

و لا يمكن أن يكون المراد منه أنّ هذه النّفس هي عين تَلك النّفس فالمراد أنّ هذه النّفس مثل تِلك النّفس و ذلك يقتضي الإستواء من جميع الوجوه ترك العمل بهذا العموم في حقّ النّبوة وفي حقّ الفضل لقيام الدّلائل علىٰ أنّ محمّداً صلى الله عليه وآله كان نبيّاً و ما كان عليّ كذلك و لإنعقاد الإجماع علىٰ أنّ محمّداً صلى الله عليه وآله كان أفضل من علّي و من سائر الأنبياء فيبقىٰ فيما وراءه معمولاً به ثمّ الإجماع علىٰ أنّ محمّداً كانّ أفضل من سائر الأنبياء فيلزم أن يكون عليّ أفضل من سائر الأنبياء فهذا وجه الإستدلال بظاهر الآية ثمّ قال ويُؤيّد الإستدلال بهذه الأية، الحديث المقبول عند الموافق والمخالف و هو قوله عليه السلام من أراد أن يرى آدم في عِلمه ونوحاً في طاعته وإبراهيم في خلّته و موسى في هيبته و عيسىٰ في صفوته فلينظر الىٰ علّي بن أبي طالب فالحديث دّل علىٰ أنّه إجتمع فيه ما كان متّفرقاً فيهم و ذلك يدّل علىٰ أنّ علّياً أفضل من جميع الأنبياء سوىٰ محمّدٍ.

و أمّا سائر الشّيعة فقد كانوا قديماً وحديثاً يستدّلون بهذه الآية علىٰ أنّ عَلّياً أفضل من سائر الصّحابة و ذلك لأنّ الآية لمّا دَلَّت علىٰ أنّ نفس علّي مثل نَفس مُحمّدٍ إلاّ فيما خَصّه الدّليل وكان نَفس مُحمّدٍ أفضل من الصّحابة فوجب أن يكون نفس علّيٍ أفضل أيضاً من سائر الصّحابة هذا تقرير كلام الشّيعة انتهىٰ ما نقله الرّازي.

و هو من أحسن الدّلائل ومَعَ ذلك أبلغ تقريرٍ في المقام والىٰ هذا المعنىٰ أشار إبن حماد حيث يقول:

وسمّاه ربّ العرش في الذّكر نفسه ... فحسبك هذا القَوم أن كنت ذا خُبرٍ
وقال لهم هذا وصيّي و وارثي ... ومن شدّ ربّ العالمين به أزري
علّيُ كرزّي من قميص إشارةُ ... بأن ليس يستغني القميص عم الزّر

و قال الجماني:

وأنزله منه النّبي كنفسه ... روايــة أبــرارٍ تأدّت الىٰ بــرٍّ

فـمن نـفسه فـيكم كـنفس مـحمّدٍ ألا بأبـيـنفس المُـطّهر والطُـهر

و قال العَوني:

وألحـــقه يـــوم البــهال بـنفسه بأمـرٍ أتـى مـن رافـع السّـمٰوات

فـمن نـفسه مـنكم كـنفس مـحمّدٍ بـــنى الأفك والبـهتان والفـجرات

و قال الآخر:

اللّه سمّاه نفس أحمد في القرآن يوم البهال إذ نَدبا

فكـــيف شـــبّهه بـطائفةٍ ذو المـعارج الخَشَـبا

و لأخر:

مـــن نـفسه مـن نـفسه وجـنسه مـن جـنسه

وعـــرسه مـــن عـــرسه فـــهل له مـــعادلُ

مـن هـذه الأشـعار يُـعرف أنّ عـليّاً عليه السلام كـان مشـهوراً بأنّـه نـفس النـبّي في الشّريفة و الحمد للّه علىٰ ما هدانا.

إِنَّ هٰذاٰ لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ وَ مٰا مِنْ إِلٰهٍ إِلَّا ٱللّٰهُ وَ إِنَّ ٱللّٰهَ لَهُوَ ٱلْـعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ

أي أنّ هذا الّذي ذكرناه لك من قصّة زكريا و يحيىٰ و عيسىٰ و مريم لهو القصص الحقّ ويمكن أن يكون **هٰذاٰ** إشارة الىٰ القرآن لإشتماله علىٰ القصص، و ما مِن إلٰهٍ، كلمة، ما، للنّفي أي ليس من إلٰهٍ إلاّ اللّه و قيل ، من، زائدة أي ليس إلٰه إلاّ اللّه، وأنّ اللّه لَهُو العزيز الحكيم، أي أنّ اللّه هو القاهر فوق كلّ شيء حكيمٌ في أفعاله **فأن تَولّوا** أي فأن أعرَضوا عن الحقّ وأقبلوا الىٰ الباطل فأنَّ اللّه عليمٌ المفسدين أي من كان كذلك فهو مُفسدٌ.

■

قُلْ يَا أَهْلَ ٱلْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَ بَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَ لَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَ لَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ ٱللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا ٱشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿۶۴﴾

◁ اللّغة

تَعَالَوْا: جمع تَعال، قال بعضهم أصله من العُلّو وهو إرتفاع المنزلة فكأنّه دعیٰ الیٰ ما فيه رفعة و قيل أصله أن يدعی الإنسان الیٰ مكانٍ مرتفع ثمّ جعل للدّعاء الیٰ كلّ مكان.

أَرْبَابًا: جمع رَبّ و هو في الأصل التّربية.

◁ الإعراب

سَوَاءٍ: الجمهور علیٰ الجرّ صفة للكلمة و يقرأ بالنّصب علیٰ المصدر بَيْنَنَا وَ بَيْنَكُمْ ظرف لسواء أي لتستوي الكلمة بننا أَلَّا نَعْبُدَ في موضعه وجهان.

أحدهما:جرّ بدلاً من سواء أو من كلمة تقديره تعالوا الیٰ ترك عبادة غير اللّه.

الثّانی: هو رفع تقديره هي أن لا نعبُد إلاّ اللّه، و ان مصدّرية.



◁ التّفسير

لمّا بيّن اللّه تعالیٰ القصص الحقّ في زكرّيا و يحيی و عيسیٰ و بيّن أيضاً إختلافهم في عيسیٰ و أقام الحجّة علیٰ بطلان دعاويهم الفاسدة في عيسیٰ بجعله ربّاً و الٰهاً أو إبناً له أو ثالث ثلاثة و امثال ذلك من الأقاويل الباطلة والإعتقادات الفاسدة حتّیٰ انتهیٰ.

الأمر الىٰ المباهلة، أمر نَبّيه بأن يدعوهم الىٰ الحقّ فقال: **قُلْ** يا محمّد **يَآ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ** من اليهود والنّصارىٰ و غيرهم **تَعَالَوْا** أي أقبلوا اليناإ**لَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَ بَيْنَكُمْ** و هي كلمة التّوحيد الّتي هي سواء بين الفريقين أي عدل و وسط لا يرجّح فيه طرف علىٰ آخر هكذا قيل و يمكن أن يكون المراد أنّ جميع الملل يقولون بوجود الإله إذ الخطاب لأهل الكتاب فالكلّ مساوٍ من هذه الجهة وأن إختلّفوا في سائر الجهات **أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ** الواجب الوجود المستَجمع لجميع الصّفات **وَ لَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا** لأنّه متّفرد بذاته **وَ لَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ ٱللَّهِ** أي لا نَتّبعه في تحليل شئ أو تحريمه إلاّ فيما حَلَّله اللّه أو حرَّمه و هو نظير قوله تعالىٰ: **اِتَّخَذُوٓا أَحْبَارَهُمْ وَ رُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ ٱللَّهِ**(١) **فَإِنْ تَوَلَّوْا** أي أعرضوا عمّا دُعوا اليـه **فَقُولُوا ٱشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ** أي فقولوا للمعرضين أشهدوا بإنّا مسلمون، أي مطيعون منقادون لأحكام اللّه و لا نَتّخذ ربّاً غيره للعبادة والإطاعة.

و في هذه الآية أبحاث:

الأوّل: في قوله تعالىٰ: **قُلْ يَآ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ** الىٰ قوله :**بَيْنَنَا وَ بَيْنَكُمْ**.

و فيه إشارة الىٰ وحدة الكلمة في التّوحيد و أنّ سعادة الدّارين في التّوحيد كما أنّ الشّقاوة والضّلالة في الشّرك و السّر فيه أنّ التّوحيد يوجب الإتّحاد و الإتّفاق كما أنّ الشّرك يوجب النّفاق و التّشَتت و الإفتراق و ذلك لأنّ المُوحّد الحقيقي لا يقول و لا يعمل علىٰ أساس الميل و الهوى بل قوله و فعله منطبقٌ على ما أمره اللّه به و معلوم أنّ اللّه تعالىٰ يأمر بالعدل و الإحسان و ينهي عن البغي و الفساد و هذا بخلاف المشرك الكافر باللّه فأنّه يقول و يعمل بما فيه ميله و هواه و إن كان مضّراً بغيره فهو أي المُشرك مفسدٌ وذاك أي المُـوحّد مُصلحٌ و لأجل هذا بنيت الأديان علىٰ التَّوحيد فقوله تعالىٰ **قُـلْ يَـآ أَهْـلَ**

١- التوبة= ٣١

اَلْكِتابِ تَعالَوْا إِلىٰ كَلِمَةٍ سَوٰآءٍ بَيْنَنا وَ بَيْنَكُمْ في الحقيقة دعوة عامّة و تخصيص أهل الكتاب بالذّكر لأنّهم أقرب الىٰ قبول هذه الدّعوة لكونهم مُوّحدين ظاهراً.

الثاني: قوله **أَلّا نَعْبُدَ إِلَّا اَللّٰهَ وَ لا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا**.

أنّ هذا الكلام في الحقيقة تفسير وتوضيح لقوله: **إِلىٰ كَلِمَةٍ سَوٰآءٍ** كأنّه قيل وما هذه الكلمة التّي تدعونا اليها، فقال هي أن لا نعبد إلاّ اللّه ولا نشرك به شيئاً، كما قال لقمان لإبنه: **يا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بِاللّٰهِ إِنَّ اَلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ**[1] والمراد بالشّرك معناه العام الشّامل للجلّي والخفّي فقوله، **أَلّا نَعْبُدَ إِلَّا اَللّٰهَ** يثبت التّوحيد وقوله لا نُشرك به شيئاً ينفي عنه الشّرك و فيه إشارة الىٰ أنّ التّوحيد الحقيقي لا يحصل للعبد إلاّ بنفي الشّريك عنه، قال النّبي صلّى اللّه عليه وآله لمعاذ بن جبل يا معاذ هل تدري ما حقّ اللّه عزّ وجلّ علىٰ العباد يقولها ثلاثاً قال قلت اللّه و رسوله أعلم فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله حقّ اللّه عزّ وجلّ علىٰ العباد أن لا يشركوا به شيئاً ثمّ قال عليه السلام هل تدري ما حقّ العباد علىٰ اللّه عزّ وجلّ اذا فعلوا ذلك قال قلت اللّه ورسوله أعلم قال أنّ لا يعذّبهم أو قال أن لا يدخلهم النّار انتهىٰ.

الثالث: قوله **لا يَتَّخِذَ بَعْضُنا بَعْضًا أَرْبابًا مِنْ دُونِ اَللّٰهِ**.

أي لا نتّبع بعضنا بعضاً في تحليل شيء أو تحريمه من غير دليل و ذلك لأنّه روي عن الصّادق عليه السلام في قوله تعالىٰ: **اِتَّخَذُوا أَحْبارَهُمْ وَ رُهْبانَهُمْ أَرْبابًا مِنْ دُونِ اَللّٰهِ** أنّ قال أما واللّه ما دعوهم الىٰ عبادة أنفسهم ولو دَعوهم الىٰ عبادة أنفسهم ما أجابوهم أحلّوا لهم حراماً و حرّموا عليهم حلالاً فعبدوهم من حيث لا يشعرون.

١- القمان = ١٣

قال القُرطبي في تفسيره عند قوله: **و لا يَتَّخِذَ بَعْضُنا بَعْضًا أَرْبابًا مِنْ دُونِ اللّٰهِ** معناه أنّهم أنزلوهم منزلة ربّهم في قبول تحريمهم وتحليلهم لما لَم يحرّمه اللّه و لم يحلّه اللّه و هذا يدّل علىٰ بطلان القول بالإستحسان المجّرد الذّي لا يستند الىٰ دليل شرّعي قال الطّبري مثل إستحسانات أبي حنيفة في التّقديرات التّي قدّرها دون مستندات بيّنة قال و فيه ردٌّ علىٰ الرّوافض الّذين يقولون يجب قبول قول الإمام دون إبانة مستند شرّعي و أنّهٔ يحلّ ما حرّمه اللّه من غير أن يبّين مستنداً من الشّريعة انتهىٰ.

أقول مراده بالرّوافض الشّيعة و أنّما يسمّونهم بالرّوافض لأنّهم تركوا عمر و أبابكر و عثمان و غيرهم من الخلفاء وإتّبعُوا أهل بيت نبيّهم و لذلك قال:

الّذين يقولون يجب قبول قول الإمام الخ وغرضه من هذا الكلام أنّ الشّيعة إتّخذوا أئمّتهم أرباباً من دون اللّه لأنّهم يقولون يجب قبول قول الإمام الخ ولم يعلم القُرطبي أو علم وتجاهل أنّ الشّيعة تقول بعصمة الأئمّة كما تقول بعصمة الرّسول ولا فرق بين الرّسول والوَصّي من هذه الجهة فكما يقبل قول الرّسول من دون إبانة مستند شرعي لعلمه بأنّه لا ينطق عن الهَوىٰ إن هو إلاّ وَحيٌ يُوحىٰ كذلك يقبل قول الوصّي لانّه أيضاً معصوم لا يقول إلاّ من اللّه تعالىٰ و الأصل فيه قوله صلى الله عليه وآله **أنّي تارك فيكم الثّقلين كتاب اللّه وعترتي أهل بيتي ما أن تمّسكتم بهما لن تضّلوا أبداً لن يفترقا حتّىٰ يردا علّي الحَوض**، فالشّيعة عارفٌ باللّه الذّي ليس إلاّ هو و لذلك مطيع لأمره ونهيه بلسان رسوله الأمين فاذا قال الرّسول **من كنت مَولاه فهذا علّيٌ مولاه أو علّي مع الحقّ والحقّ مع علّي، أو مَثَل أهل بيتي كمثل سفينة نوح من ركبها نجىٰ ومن تَخَلّف عنها هلكٌ** و امثال ذلك من الأخبار المتواترة عند الفريقين الحاثّة علىٰ وجوب متابعة أهل البيت بعد الرّسول فلو أخذ الشّيعة بها و عمل بها لقوله تعالىٰ: **وَ مآ اٰتيٰكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَ ما نَهيٰكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا**[1] فما ذنب الشّيعة و بقولك

١- الحشر = ٧

الرّوافض، أيّها القُرطبي بل نقول أن كان طريقة الشّيعة في متابعتهم لعلّي وأولاده حقّاً فما تقول وأن كان باطلاً وضلالة كما زعمت فالذّنب علىٰ الرّسول لا على الشّيعة لأنّه ﷺ حَرَّصهم و رغَّبهم بل أمَرَهم بمتابعة أهل بيته لا الشّيعة فقط بل كلّ المسلمين إلاّ أنّ الشّيعة أطاع الرّسول وأنتم عصيتموه و أمّا قوله دون إبانة مستند شرّعي، فيقال له عصمة الإمام مانعة عن الخَطأ و النّسيان والسّهو في جميع الأُمور فضلاً عن تحليل الحرام وتحريم الحلال الّذي هو من البدعة المحرّمة فكلّ ما قاله المعصوم مستند بالشّريعة قطعاً و لذلك لا يُطلب منه الدّليل علىٰ الحكم و أيّ إمام من أئمة الشّيعة حلَّل حراماً أو بالعكس فالشّيعة لم يتَّخذ أرَباباً من دون اللّه و أنّما إتَّخذ ربّاً أو أرباباً من دون اللّه من إتَّبع قول القائل متعتان مُحلّلتان في زمن النّبي أنا أُحرّمُهما و أعاقب عَليهما.

هذا صريحٌ في تحريم الحَلال وهكذا قوله الصّلاة خير من النّوم، وقوله في صلاة التّراويح هذه بدعة و نعم البَدعة و قول صديقه نحن معاشر الأنبياء لا نوّرث ما تركناه صَدقة رَدّاً علىٰ كتاب اللّه كما يأتي البحث فيه و هكذا الفتاوي الّتي صدرت من مالك والشّافعي و ابن حنبل و أبى حَنيفة ممّا يستقبح ذكره فمن تبعهم علىٰ هذه البدع فهو ممّن إتَّخَذ بعض النّاس ربّاً من دون اللّه غير الشّيعة فأقول:

ولمّا رأيتُ النّاس قد ذَهبت بهم	مذاهبهم في أبحر الغَي والجهل
ركبت علىٰ إسم اللّه في سُفن النّجاة	وهم أهل بيت المصطفىٰ خاتم الرّسل
وأمسكتُ حبل اللّه و هو ولائهم	كما قد أمرنا بالتمسّك بالحبل
اذا إفترقت في الدّين سَبعُون فرقةً	ونيّف كما قد جاء في محكم النّقل
ولم يك ناجٍ منهم غير فرقةٍ	فقُل لي بها ياذا التّفكر والعقل
أفي الفرقة الهُلاّك آل محمّدٍ	أَم الفِرق اللاّئي نجت منهم قُل لي
فأن قلت في النّاجين فالقول راشدُ	وأن قلت في الهُلاّك بُعدُ عن العدِل
اذا كان قولي القَوم منهم فأنّني	رضيتُ بهم لا زال في ظِلّهم ظِلّي

فـــخَلوا عـــلّياً لي ولّـــياً ونســـله وأنـــتم مـــن الباقين فـي أوسَع الحِلّ

و لنعم ما قيل أيضاً:

اذا شـئتَ أن تـبغي لنـفسك مـذهباً يـنّجيك يـوم البـعث مـن لَـهب النّـار

فـدع عـنك قـول الشّـافعي ومـالكاً وأحـمد والمـرّوي عـن كـعب الإحـبار

وال أنــــاساً قـــولهم وحَـــديثهم روي جـدّنا عـن جـبرئيل عـن البـاري

الرّابع: قوله **فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا ٱشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ.**

أي فأن أعرضوا عمّا دُعوا اليه فقولوا لهم أشهدوا بأنّا مسلمون وفيه إشارة الىٰ أنّه لا إكراه في الدّين وما علىٰ الرّسول إلاّ البلاغ و قال اللّه تعالىٰ: **إِنَّا هَدَيْنَاهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَ إِمَّا كَفُورًا**[1] لِيَهلِك من هَلَك عَن بَيّنةٍ ويَحيىٰ مَن حَيّ عنها.

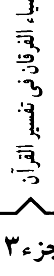
و لنذكر في المقام رواية رواها المجلسي قدّس سرّه في المجلد الثّاني من كتاب بحار الأنوار عن الرّضا عليه السلام تناسب المقام - في علل الفضل عن الرّضا عليه السلام فأن قال: قائل لِمَ أمَرَ اللّه الخلق بالإقرار باللّه و برسله و بحججه وبما جاء من عند اللّه عزّ وجلّ، قيل لعللٍ كثيرة أنّ مَن لَم يقّر باللّه عزّ وجلّ لَم يجتنبه معاصيه ولَم ينته عن إرتكاب الكبائر ولَم يراقب أحداً فيما يشتهي ويستلّذ من الفساد والظّلم فإذا فعل النّاس هذه الأشياء و ارتكب كلّ إنسانٍ ما يشتهي ويهواه من غير مراقبةٍ لأحدٍ كان في ذلك فساد الخلق أجمعين و وثوب بعضهم على بعضٍ فغصبوا الفروج والأموال و أباحوا الدّماء و النّساء و قتل بعضهم بعضاً من غير حقٍّ و لا جرم فيكون في ذلك خراب الدّنيا و هلاك الخلق وفساد الحرث والنّسل الىٰ أن قال عليه السلام فأن قال فَلِم وجب عليهم الإقرار والمعرفة بأنّ اللّه تعالىٰ واحد أحَد قيل لعللٍ.

١- الانسان= ٣

أنّه لو لم يجب الإقرار والمعرفة لجاز أن يتّوهموا مُدبَّرين أو أكثر من ذلك و اذا جاز ذلك لم يهتدوا الىٰ الصّانع لهم من غيره لأنّ كلّ إنسانٍ منهم لا يدري لعلّه أنّما يعبد غير الّذي خلقه ويطيع غير الّذي أمره فلا يكونون علىٰ حقيقة من صانعهم و خالقهم ولا يثبت عندهم أمر آمرٍ ولا نَهىٰ ناهٍ إذ لا يعرف الأمر بعينه و لا النّاهي من غيره و منها أنّه لو جاز أن يكون إثنين لم يكن أحَد الشّريكين أولَىٰ بأن يعبد و يطاع من الأخر و في إجازة أن يطاع ذلك الشّريك، إجازة أن لا يطاع اللّه و في أن لا يطاع اللّه الكفر باللّه و بجميع كتبه ورُسله وإثبات كلّ باطل و ترك كلّ حقٍّ و تحليل كلّ حرامٍ و تحريم كلّ حلال والدّخول في كلّ معصية والخروج من كلّ طاعةٍ وإباحة كلّ فسادٍ وإبطالِ كلّ حقٍّ.

أنّه لو جاز أن يكون أكثر من واحدٍ لجاز لأبليس أن يدّعي أنّ ذلك الاخر حتّى يضاد اللّه تعالىٰ في جميع حكمه ويصرف العباد الىٰ نفسه فيكون في ذلك أعظم الكفر و أشّد النّفاق الىٰ أخر الحديث[1].

■



يٰٓا أَهْلَ ٱلْكِتٰابِ لِمَ تُحٰآجُّونَ فِى إِبْرٰاهِيمَ وَ مٰآ أُنْزِلَتِ ٱلتَّوْرٰيةُ وَ ٱلْاِنْجِيلُ إِلاّٰ مِنْ بَعْدِهِۦٓ أَفَلاٰ تَعْقِلُونَ ﴿٦٥﴾ هٰآ أَنْتُمْ هٰٓؤُلآٰءِ حٰاجَجْتُمْ فِيمٰا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحٰآجُّونَ فِيمٰا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَ ٱللّٰهُ يَعْلَمُ وَ أَنْتُمْ لاٰ تَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ مٰا كٰانَ إِبْرٰاهِيمُ يَهُودِيًّا وَ لاٰ نَصْرٰانِيًّا وَ لٰكِنْ كٰانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَ مٰا كٰانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾ إِنَّ أَوْلَى ٱلنّٰاسِ بِإِبْرٰاهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَ هٰذَا ٱلنَّبِىُّ وَ ٱلَّذِينَ اٰمَنُوا وَ ٱللّٰهُ وَلِىُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾

◁ اللّغة

تُحٰآجُّونَ: قد مرّ فيما مضى معنىٰ المحاجّة و قلنا المُحاجّة أن يطلب كلّ واحدٍ أن يَردّ الأخر عن حجّته و محجّته.

حَنِيفًا: الحَنف هو ميل عن الضّلال الىٰ الإستقامة والجنف بعكسه يقال تَحَنَّفَ فلان أي تحرّي طريق الإستقامة.

◁ الأعراب

لِمَ تُحٰآجُّونَ الأصل لِما فحُذفت الألف إِلاّٰ مِنْ بَعْدِهِۦٓ من يتعلّق بأنزلت هٰآ أَنْتُمْ ها، للتّنبيه و قيل هي بدل من همزة الإستفهام فِيمٰا هي بمعنى الّذي أو نكرة موصوفة و عِلْمٌ مبتدأ ولكم، خبره و به، في موضع نصب علىٰ الحال لأنّه صفة، العلم، في الأصل قدّمت عليه بِإِبْرٰاهِيمَ الباء تتّعلق باولىٰ و خبر، أنّ لَلَّذِينَ إتّبعوه و أولى أفعل مَن وَلي يَلي وَ هٰذَاٱلنَّبِىُّ معطوف علىٰ خبر أنّ،

◁ التّفسير

يٰٓأَهْلَ ٱلْكِتٰابِ لِمَ تُحٰآجُّونَ فِى إِبْراٰهِيمَ وَ مٰآ أُنْزِلَتِ ٱلتَّوْريٰةُ وَ ٱلْاِنْجِيلُ إِلّٰا مِنْ بَعْدِهِۦٓ أَفَلاٰ تَعْقِلُونَ.

قلنا أنّ الأصل في، لِمَ، لِما فحُذفت الألف فَرقاً بين الإستفهام والخبر قيل هذه الآية نزلت بسبب دعوى كلّ فريقٍ من اليهود و النّصارىٰ أنّ إبراهيم كان علىٰ دينه فأكذبهم اللّه تعالىٰ بأنّ اليهوديّة و النصرانيّة أنّما كانتا من بعده فذلك قوله تعالىٰ: **وَ مٰآ أُنْزِلَتِ ٱلتَّوْريٰةُ وَ ٱلْاِنْجِيلُ إِلّٰا مِنْ بَعْدِهِۦٓ** كلمة، **ما**، في قوله **وَ مٰآ أُنْزِلَتِ** نافية، أي لم تكن التّوراة و لا الإنجيل في زمان إبراهيم و أنّما كانتا من بعده قال الزّجاج هذه الآية أبيَن حُجّةٍ علىٰ اليهود والنّصارىٰ إذ التّوراة و الإنجيل أُنزلا من بعده وليس فيهما إسم لواحدٍ من الأديان و إسم الإسلام في كلّ كتاب و يقال كان بين إبراهيم و موسىٰ ألف سنة و بين موسىٰ و عيسىٰ أيضاً ألف سَنة قاله القُرطبي في تفسيره و قيل نزلت الآية في إختصاص اليُهود والنّصارىٰ في إبراهيم و إدّعاء كلّ فريقٍ منهم أنّه كان منهم فقد نقل الطّبري عن محمّد بن إسحاق بأسناده عن إبن عبّاس أنّه قال إجتمعت نصارىٰ نجران و أحبار يهود عند رسول اللّه ﷺ فتنازعوا عنده فقالت الأحبار ما كان إبراهيم إلاّ يهوديّاً و قالت النّصارىٰ ما كان إبراهيم إلاّ نصرانياً فأنزل اللّه فيهم: **يٰٓأَهْلَ ٱلْكِتٰابِ لِمَ تُحٰآجُّونَ فِى إِبْراٰهِيمَ** أي إنّ اليهودية و النّصرانية كانتا من بعده أنّ إبراهيم سأل اللّه أن يجعل له لسان صدقٍ في الآخرين فأستجاب اللّه دعاءه حتّىٰ أدَّعته كلّ فرقةٍ قالوا و معنى، في، في إبراهيم في شرعه و دينه قوله أفلا تعقلون أي هذا كلام من لا يعقل إذ كيف يعقل إنتساب المتقدّم الىٰ المتأخر في شرّعه و دِينه، ثمّ الدّليل علىٰ أنّ إبراهيم ما كان منهما هو أنّ المتابعة أمّا في العقائد و امّا في الأحكام أمّا أنّه لم يكن منهما في العقائد فلأنّ النّصارىٰ عبدوا عيسىٰ و قالوا بألوهيّته و أنّه اللّه أو قالوا أنّه إبن اللّه أو ثالث

ثلاثة و امّا اليهود فأنّهم قالوا أنّ عزيراً إبن اللّه ومن المعلوم أنّ إبراهيم كان بريئاً من هذه العقائد الباطلة و الأوهام الكاسدة الفاسدة هذا من حيث العقائدمن حيث الأحكام فلأنّ التّوراة والإنجيل فيهما أحكام مخالف للأحكام الّتي كانت عليها شريعة إبراهيم و من ذلك:

قال اللّه تعالى: **فَبِظُلْمٍ مِنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَـيِّبَاتٍ أُحِـلَّتْ لَهُمْ**[١].

قال اللّه تعالى: **إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا فِيهِ**[٢].

و غير ذلك فلا يمكن أن يكون إبراهيم علىٰ دين حدث بعده بأزمنة متطاولة و ذكر بعض المؤرّخين أنّ بين إبراهيم و موسىٰ ألف سنة و بينه و بين عيسىٰ ألفان و قيل كان بين إبراهيم و موسىٰ خمس مِائة سنة و خَمس و سبعون سنة و بين موسىٰ و عيسىٰ ألف سنة وست مائة وإثنان و ثلاثون سنة و قيل غير ذلك.

أن قلت يلزم علىٰ هذا أن لا يكون إبراهيم مسلماً أيضاً بالدّليل المتقدّم و هو أنّه كيف يعقل أن ينسب المتقدّم الىٰ المتأخّر، ومن المعلوم تقدّم إبراهيم و شريعته علىٰ محمّدٍ ﷺ وشريعته بزمانٍ أكثر و اذاكان كذلك فكيف قال اللّه تعالىٰ: **وَ لٰكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا** كما سيأتي، قلت سيأتي الجواب عنه إن شاء اللّه فثبت وتحقّق أنّ إبراهيم عليه السلام ما كان منهما و شريعته كانت غير شريعتهما و هو المطلوب ثمّ أن هيهنا كلام مع اليَهُود و إدّعائهم أنّهم علىٰ ملّة إبراهيم و قولهم بأنّ إبراهيم ما كان إلاّ يَهوّدياً مع إنكارهم النّسخ في الشّرع، فيقال لهم أن كان النَّسخ في الشّريعة غير جائز فكان موسىٰ نبّياً تابعاً لإبراهيم في شريعته و مُرّوجاً لها ولم يكن صاحب شريعةٍ مُستّقلةٍ و أنتم لا تقولون به وأن كان صاحب شريعةٍ ودينٍ مُستّقل كما تقولون فكيف تنكرون النّسخ

١- النساء= ١۶٠
٢- النحل = ١٢۴

ضرورة أنّ النَّسخ هو الّذي يُثبت الشّريعة المُستقّلة و اذا قلتم بجواز النّسخ بل وقوعه في دينكم فَلِمَ لا تقولون به في دين الإسلام و تقولون بإستحالة النّسخ و بعبارةٍ أخرى معنى قولكم أنّ إبراهيم كان يهوّدياً هو أنّ دينكم دينه و عليه فَدين إبراهيم لم ينسخ و اذا كان كذلك فموسىٰ تابع له في دينه فليس بنبّي مُرسلٍ و لا صاحب شريعة وليس لليهود جواب عن هذا الإشكال إلاّ علىٰ القول بجواز النّسخ و وقوعه و اذا جاز و وقع لموسىٰ فقد وقع لمحمّدٍ صلى الله عليه وآله أيضاً بعد موسىٰ وعيسىٰ وثبت المطلوب.

هٰٓأَنْتُمْ هٰٓؤُلَآءِ حٰاجَجْتُمْ فِيمٰا لَكُمْ بِهِۦ عِلْمٌ فَلِمَ تُحٰآجُّونَ فِيمٰا لَيْسَ لَكُمْ بِهِۦ عِلْمٌ وَ ٱللَّهُ يَعْلَمُ وَ أَنْتُمْ لاٰ تَعْلَمُونَ.

ها للتنّبيه و **أنتم**، مبتدأ وهؤلاء خبره وحاججتم جملة مستأنفة يعني أنتم هؤلاء الأشخاص الحمقىٰ وبيان حماقتكم وقلّة عقولكم أنّكم حاججتم فيما لكم به علم ممّا نَطق به التّوراة و الإنجيل فَلِمَ تحاجّون فيما ليس لكم به علم ولا ذكر له في كتابكم من دين إبراهيم و قيل، الذّي لهم به علم هو أمر محمّد صلى الله عليه وآله لأنّهم وجدوا نعته في كتبهم فجادلوا بالباطل و امّا الذّي ليس لهم به علم هو أمر إبراهيم.

و قل المعنىٰ أي زعمتم أنّ شريعة التّوراة والإنجيل مخالفة لشريعة القرأن فكيف تُحاجّون فيما ليس لكم به عِلمٍ و هو إدّعائهم أنّ شريعة إبراهيم مخالفة لشريعة مُحمّد صلى الله عليه وآله **وَ ٱللَّهُ يَعْلَمُ وَ أَنْتُمْ لاٰ تَعْلَمُونَ.**

أمّا قوله: **وَ ٱللَّهُ يَعْلَمُ** لأنّه عالم بكلّ شيئ ومع ذلك هُو الّذي خَلَق الأنبياء و غيرهم ثمّ بعثهم إلىٰ الخلق و هو الّذي جعل الأديان و الشّرائع.

و أمّا قوله: **وَ أَنْتُمْ لاٰ تَعْلَمُونَ** فهو واضح لقوله تعالىٰ: **وَ مٰآ أُوتِيتُمْ مِنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا**[1] ففي الآية دلالة على قبح الإحتجاج في صورة عدم العلم لأنّه دليل علىٰ الحَماقة والسّفه ولنعم ما قيل:

١- الاسراء = ٨٥

و في الجهل قبل المَوت موتُ لأهله — وأجســادهم قـبل القـبُور قـبورُ
و أنّ إمــرؤاً لم يُحيىٰ بـالعلم قلبه — فــليس له حـتّىٰ النّشـور نشُـورُ

مٰا كٰانَ إِبْرٰاهِيمُ يَهُودِيًّا وَ لاٰ نَصْرٰانِيًّا وَ لٰكِنْ كٰانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَ مٰا كٰانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ.

ما، للنّفي نفىٰ اللّه تعالىٰ عن إبراهيم اليّهودية والنّصرانية وأثبت له عليه السلام الميل الىٰ الإسلام خالصاً ثمّ نفى عنه الشّرك في الأية، ثلاث مسائل:

الأولىٰ: مٰا كٰانَ إِبْرٰاهِيمُ يَهُودِيًّا وَ لاٰ نَصْرٰانِيًّا.

الثّانية: وَ لٰكِنْ كٰانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا .

الثّالثة: وَ مٰا كٰانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ.

أمّا المسألة الأولىٰ: فأعلم أنّه لما عاتَب اللّه اليَهُود و النّصارى في محاجّتهم و قال: **يٰآ أَهْلَ ٱلْكِتٰابِ لِمَ تُحٰاجُّونَ فِى إِبْرٰاهِيمَ** ثـمّ أكـذبهم بـقوله: **وَ مٰآ أُنْزِلَتِ ٱلتَّوْرٰيةُ وَ ٱلاِنْجِيلُ إِلاّٰ مِنْ بَعْدِهِ** وعا تبهم ثانياً بقوله: **فَلِمَ تُحٰاجُّونَ فِيمٰا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ** يعني في أمر إبراهيم و قال: **وَ ٱللّٰهُ يَعْلَمُ وَ أَنْتُمْ لاٰ تَعْلَمُونَ** فكأنّه سائلاً يسأل ويقول فما كان شأن إبراهيم من حيث الدّين فقال اللّه تعالىٰ في الجواب **مٰا كٰانَ إِبْرٰاهِيمُ يَهُودِيًّا** ، خلافاً لليهود حيث زعموا أنّه منهم **وَ لاٰ نَصْرٰانِيًّا** خلافاً للنّصارىٰ حيث زَعموا أنّه منهم فأعلم اللّه تعالىٰ براءة إبراهيم من هذه الأديان وبَدأ بإنتفاء اليّهودية لأنّ شريعة اليَـهود كـانت أقدم من شريعة النّصارىٰ وكرَّر، لا، لتأكيد النّفي عن كلي واحدٍ من الدِّينَين أمّا أنّه لم يكن من اليهود لأنّ اليهُود جعل عُزيراً ابن اللّه و امّا أنّـه لم يكـن مـن النّصارىٰ لأنّ النّصارىٰ جعل عيسىٰ إلٰهاً و معبُوداً أو أنّه ابن اللّه والخليل كان منزّهاً عن هذه الخرافات.

المسألة الثّانية: وَ لٰكِنْ كٰانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا كأنّه قيل فعلى أيّ دينٍ كان فقال تعالىٰ و لكن كان حنيفاً أي مايلاً الىٰ الحقّ معرضاً عن البـاطل، مُسـلماً، أي مُطيعاً و مُنقاداً لِلّه تعالىٰ مُوَّحِداً إيّاه.

المسألة الثّالثة: وَ مَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ أي وما كان إبراهيم من المُشركين باللّه أصلاً يحتمل أن يكون المراد بالمشركين في المقام اليهُود و النّصارىٰ وذلك لأنّ اليهود زعمت أنّ عُزيراً ابن اللّه فهُم مُشركون و قالت النّصارىٰ بالوهّية عيسىٰ و قال بعضهم أنّ عيسىٰ ابن اللّه فهُم أيضاً مُشركون، و امّا الخليل فكان منزّهاً عن الشّرك به فكيف يقولون أنّ إبراهيم كان منهم، و يحتمل أن يكون المراد بالشّرك في الآية معناه العامّ الشّامل لليَهود والنّصارىٰ و غيرهم من الكفّار و عليه فالمعنىٰ أنّ إبراهيم كان مُعرضاً عن الشّرك مُطلقاً و كيف كان ففي الآية دلالة علىٰ أنّ إدّعائهم أنّ إبراهيم كان منهم باطلٌ بل هو إفتراء عليه و أيضاً فيها إشارة الىٰ أنّ الدّين الواقعي هو الإسلام والأنبياء كلّهم كانوا عليه إلاّ أنّ النّاس إختلفوا بعدهم وخَرجُوا عمّا كان نَبيهم عليه بعد موته فإبراهيم عليه السلام كان مسلماً و هكذا الأنبياء بعده إلاّ أنّ الأُمم غيّروا الأديان عمّا كانت عليه من التّوحيد والتّسليم و الإنقياد لِلّه تعالىٰ و بذلك خَرجُوا عن الإسلام و دخلوا في الكُفر و الشّرك من حيث لا يعلمون فأولى النّاس بإبراهيم من كان تابعا له في التّوحيد الحقيقي و هو رسول الإسلام ومن تابَعه من المؤمنين به والىٰ هذا أشار اللّه تعالىٰ بقوله:

إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ في توحيده وإنقياده لِلّه سواء كان من اليهود أم من النّصارىٰ **وَ هَٰذَا ٱلنَّبِيُّ** أي نبّي الإسلام **وَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا** به وُوالله **وَ ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ** كما قال تعالىٰ: **ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَاتِ إِلَى ٱلنُّورِ**[1] وسيأتي الكلام في إبراهيم وتوحيده مفّصلاً إن شاء اللّه تعالىٰ.

■

١- البقرة= ٢٥٧

وَدَّتْ طَآئِفَةٌ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَ مَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنْفُسَهُمْ وَ مَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٩﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَ أَنْتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٧٠﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَ تَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَ أَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٧١﴾

◁ اللّغة

وَدَّتْ: الوُّد بضمّ الواو محبّة الشّئ و تمنّي كونه و يستعمل في كلّ واحدٍ من المعَنَيين علىٰ أنّ التّمني يتضمّن معنى الوُّد لأنّ التّمني هو تشتهي حصول ما توَّده.

طَآئِفَةٌ: الطّائفة من النّاس جماعة منهم و من الشّئ القطعة منه.

تَلْبِسُونَ: لَبَس الثّوب، إستتربه و ألبَسه غيره، و اللّبس، ما يُلبس و منه اللّباس : و اللّبُوس.

تَكْتُمُونَ: الكتمان ضدّ الإظهار.

◁ الإعراب

لِمَ تَلْبِسُونَ لِمَ أصله، لِما، حُذفت الألف لإتّصالها بالحرف الجارّ مع وقوعها ظرفاً ولدلالة الفتحة عليها وكذلك بم و عَمَّ وَ أَنْتُمْ تَعْلَمُونَ في موضع الحال.

◁ التّفسير

وَدَّتْ طَآئِفَةٌ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أي تَمَنَّت جماعة منهم **لَوْ يُضِلُّونَكُمْ** عن دينكم **وَ مَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنْفُسَهُمْ** أي لا يَرجع وبال إضلالهم إلاّ علىٰ أنفسهم و لا يلحق ضرره إلاّ بهم **وَ مَا يَشْعُرُونَ** أي وما يعلمون عَود الوبال اليهم و قيل معناه و ما يعلمُون أنّ اللّه يدّل المؤمنين علىٰ ضلالهم و اضلالهم، و قيل معناه

وما يشعرون، أنّهم ضُلال لجهلم وحماقتهم عن أبي علّي الجبائي، قيل أنّها نزلت في معاذ و حذيفة و عمّار، دَعاهم يهود بني النّضير وقريظة وقينقاع الىٰ دينهم و قيل دعاهم جماعة من أهل نجران و من يهُود و قال ابن عبّاس هم اليهُود و قالوا لمعاذ و عمّار تركتما دينكما و اتَّبعتما دين محمّد ﷺ فنزّلت الأيةبعض المفسّرين عيَّرتهم اليهُود بوقعة أحد، قال أبو مُسلم، ودَّ بمعنى تمّنىٰ فتستعمل معها، لو، وأن، و ربما جمع بينهما فيقال وددتُ أن لو فعل و مصدره الودادة والإسم منه، ودّ، و قد يتداخلان في المصدر والإسم، و قال الرّاغب اذا كان وُدّ، بمعنىٰ أحبّ لا يجوز إدخال لو فيه أبداً، و قال عليّ بن عيسىٰ اذا كان، وَدّ، بمعنى تمّنىٰ صلح للماضي و الحال و الإستقبال و اذا كان بمعنىٰ المحبّة و الإرادة لم يصلح للماضي لأنّ الإرادة كإستدعاء الفعل و اذا كان للحال و المستقبل جاز أن. ولَو، و اذا كان للماضي لم يُجز، أن، لأنّ أن، للمستقبل، ثمّ أنّ مفعول، وُدّ، محذوف و جواب، لو محذوف، حُذف من كلٍّ من الجملتين ما يدّل عليه والتقدّير، يردُّوا إضلالكم لو يضلّونكم، لسَّروا بذلك، قال بعض المفسّرين في قوله: **وَ مَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنْفُسَهُمْ** أن كان معنىٰ الإضلال الإهلاك فالمعنىٰ أنّهم يُهلكون أنفسهم و أشياعهم لإستحقاقهم بإيثارهم إهلاك المؤمنين، سخط اللّه و غضبه.

و أن كان معناه الإخراج عن الدّين فذلك حاصل لهم بجحدهم نبوّة رسول اللّه و تغيير صفته فصاروا بذلك كفّاراً و خرجوا عن ملّة موسى و عيسىٰ.

و أن كان المعنىٰ الإيقاع في الضّلال فذلك أيضاً حاصل لهم لتمكّنهم من إتّباع الهدى بايضاح الحجج و انزال الكتب وإرسال الرُّسُل و قال في قوله: **وَ مَا يَشْعُرُونَ** أنّ ذلك الضّلال هو مختّص بهم أي لا يفطنون لذلك لما دقّ أمره و خفي عليهم لما إعتَرىٰ قلوبهم من القساوة فهم لا يعلمُون أنّهم يضلّون أنفسهم ودلّ ذلك علىٰ أنّ مَن أخطأ الحقّ جاهلاً، كان ضّالاً و قيل أي لا يصلون الىٰ إضلالكم، أو ما يشعرون أنّ اللّه يدّل المسلمين علىٰ حالهم و يطلّعهم علىٰ

مكرهم و ضلالتهم هذا ما قاله المفسّرون في الآية قُل: **يَآ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِاٰيَاتِ ٱللَّهِ** المراد بأهل الكتاب هو اليهود والنّصارىٰ وبالكتاب التّوراة والإنجيل أي قل لهم يا محمّد ﷺ، لم تكفرون بأيات اللّه، أي لِمَ تُحَرِّفُون الكتاب و تُغَيّرون أحكامه عمّا هي عليه من وصف النّبي أو مطلقاً بتحليل الحرام وتحريم الحرام و يحتمل أن يكون المراد من الكفر بأيات اللّه،الكفر بأيات اللّه في القرأن من جهة قولهم أنّما يعلمه بشر إن هذا إلاّ إفك أساطير الأوّلين، هذا إذا قلنا بأنّ المراد من الأيات الأيات الشّريفة في التّوراة والإنجيل والقرآن كما هو الظّاهر ولا يبعد أن يكون المراد بالأيات الأعمّ من التّكوينية و التّشريعية لتشتمل إنكارهم إنشّقاق القمر، وحنين الجذع و تسبيح الحصى في كفّه ﷺ و في رأسها النبوّة والرّسالة، و قيل المراد كفرهم بما كان يتلو عليهم الرّسول من أسرار كتبهم و غريب أخبارهم وفي قوله **وَ أَنْتُمْ تَشْهَدُونَ** أي والحال أنّكم تشهدون أنّها آيات اللّه، و قيل وأنتم تشهدون بما يدّل علىٰ صحتها من كتابكم الّذي في البشارة، أو أنتم تشهدون بمثلها من آيات الأنبياء الّتي تقرّون بها، و قيل تكفرون بها بألسنتكم و تشهدون بصحتّها بقلوبكم و عقوٰلكم و لذلك قال تعالىٰ:

يَآ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِالْبَٰطِلِ أي لِمَ تَستَرُون الحقّ بالباطل أو تخلطون الحقّ بالباطل **وَ تَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ** أي تسترونه **وَ أَنْتُمْ تَعْلَمُونَ** أي والحال أنتم تعلمون إخفاء الحقّ و إظهار الباطل ثمّ أنّهم إختلفوا في تفسيرمن جهة إختلافهم في تفسير الحقّ، فقال قوم المراد بالحقّ هو ماكانوا يجدونه في كتبهم من صفة الرّسول والمراد بالباطل هو الّذي يكتبونه بأيديهم و يحرّفونه:

قال اللّه تعالى: **يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِى ٱلتَّوْرٰيةِ وَ ٱلْإِنْجِيلِ**[١].

قال اللّه تعالى: **يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَ نَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ**[٢].

١- الاعراف = ١٥٧ ٢- المائدة = ١٣

قال اللّه تعالى: **يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ**[١].

و قيل المراد إظهار الإسلام و ابطال اليّهودية والنّصرانية قاله قتادة وإبن جرير والثعلبي و قيل الإيمان بموسىٰ و عيسىٰ و الكفر بالرّسول، و قال أبو علّي كانوا يتأولّون الأيات الّتي فيها الدّلالة علىٰ نبوّة محمّدٍ صلى الله عليه وآله على خلاف تأويلها ليظهر منها للعوام خلاف ماهي عليه، و أنتم تعلمون، بطلان ما تقولون، أقول يظهر من كلمات المفسّرين أنّ المنادىٰ في الأيتين الأخيرتين اليَهُود و النّصارى لأنّهم كفروا بآيات اللّه و لبسوا الحقّ بالباطل و كتموا الحقّ علىٰ مرّ بيانه، و لا دليل لهم على تخصيص الآيتين بهم و ذلك لانّ قوله تعالىٰ: **يٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ** يشمل كلّ من له كتاب فهو شامل للمسلمين أيضاً و التخصّيص بهما يحتاج الى دليلٍ متصّلٍ أو منفصلٍ و إذ ليس فليس فيؤخذ لعموم اللّفظ هذا بالنظّر الىٰ ظاهر اللّفظ و امّا بالنّظر الىٰ المعنىٰ فالشّمول أوضح لأنّ تلبيس الحقّ بالباطل وكتمان الحقّ مع العلم بكونه حقّاً ليس منحصراً بهم أي بغير المسلمين فانّهم أيضاً كفروا بأيات اللّه بعد الرّسول و لبسوا الحقّ بالباطل و كتموا الحقّ أشدّ و أكثر من اليهود والنّصارىٰ فالذّم شامل لهم أيضاً وأيّ حقٍّ كان أظهر و أبين و أجلى من حقّ أهل البيت ولا سيّما أمير المؤمنين عليه السلام الّذي قال رسول اللّه فيه من كنت مولاه فهذا علّيٌ مولاه الخ.. و أمثاله من النّصوص الجلّية الّتي لا خفاء بها أصلاً، ثمّ أيّ كتمانٍ للحقّ.

أفجع و أفظع من كتمان حقّه عليه السلام وحقّهم بعد الرّسول في جميع الأديان ولنعم ما قال الشّاعر:

فلم أر مثل داك اليوم يوماً ولم أر مثله حقّاً أضيغاً

وأمّا تحريفهم الكلم عن مواضعه فسيأتي بيانه في محلّه قال اللّه تعالىٰ: **أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِالْبِرِّ وَ تَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ**[٢]

■

١- المائدة = ٤١ ٢- البقرة= ٤٤

وَ قَالَتْ طَآئِفَةٌ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَابِ ءَامِنُوا بِالَّذِيٓ أُنْزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَ ٱكْفُرُوٓا ءَاخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿۷۲﴾ وَ لَا تُؤْمِنُوٓا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ أَنْ يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَآءُ وَ ٱللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿۷۳﴾ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَآءُ وَ ٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿۷۴﴾

◁ اللّغة

طَآئِفَة: الطائفة الجماعة.

وَجْهَ ٱلنَّهَارِ: أي أوّله سُمّي وجهاً لأنّه أحسَنه والباقي واضح.

◁ الإعراب

وَجْهَ ٱلنَّهَارِ الوَجه ظرف لآمنوا و يجوز أن يكون ظرفاً، لأنزِل إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ فيه وجهان.

أحدهما: أنّه إستثناء عما قبله والتقدّير ولا ولا تقرّوا إلاّ لمن تَبع فعلى هذا اللاّم غير زائدة و يجوز أن تون زائدة و أن تكوت محمولاً على المعنىٰ أي أجحدوا وكلّ أحَدٍ إلاّ من تبع.

الثّانى: أنّ النّية التّأخير و التقدّير و لا تصدّقوا أن يؤتي أحد مثل ما أوتيتم إلاّ من تبع دينكم فاللاّم على هذا زائدة و من، في موضع نصب علىٰ الإستثناء من، أحَد.

قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ معترضٌ بين الكلامين لأنّه مشدّد أَنْ يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ في موضعه ثلاثة أوجه:

أحدها: جرّ تقديره ولا تؤمنوا بأن يؤتى أحَد.

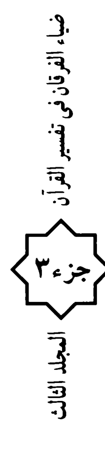
الثّاني: نصب على تقدير حذف حرف الجرّ.

الثّالث: أن يكون مفعولاً من أجله تقديره ولا تُؤمنوا إلاّ لمن تَبع دينكم مخافة أن يُؤتى أحد.

أَوْ يُحَآجُّوكُمْ معطوف عَلىٰ، يُؤتى، و جمع الضّمير لأحدٍ لأنّه في مذهب الجمع، و يقرأ أن يُؤتى علىٰ الإستئناف و موضعه رفع علىٰ أنّه مبتدأ تقديره إتيان أحد مثل ما أُوتيتم يُمكن أو يُصدق و يجوز أن يكون في موضع نصب تقديره أتصدّقون ن يُؤتى يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَآءُ يجوز فيه الإستئناف و يجوز أن يكون خبر مبتدأ محذوف أي هو يُؤتيه.

◁ التّفسير

وَ قَالَتْ طَآئِفَةٌ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَابِ قيل أنّ المراد بهم اليَهُود أي قال بعضهم لبعضٍ ءَامِنُوا بِالَّذِىٓ أُنْزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا أي قالوا لهم أمِنوا بالكتاب الذّي أنزل على من آمن به و هم المُسلمون و المراد بالكتاب القرأن و بعبارةٍ أُخرى قالوا لهم، أمِنُوا بالقرأن وبما جاء به محمّد ﷺ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ أي أوّل النّهار وَ ٱكْفُرُوٓا به وبما جاء به ءَاخِرَهُ أي أخر النّهار لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ عمّا كانوا عليه من الإسلام قيل نزلت الآية في كعب بن الأشرف و مالك بن الصّيف وذلك لأنّهم قالوا للسّفلة من قومهم، أمِنوا بالّذي أنزل على محمّدٍ أي أظهروا الإيمان بمحمّدٍ في أوّل النّهار ثمّ أكفروا به أخره فأنّكم اذا فعلتم ذلك ظهر لمن يتبعه إرتياب في دينه فيرجعون عن دينه الى دينكم و يقولون أنّ أهل الكتاب أعلم به مِنّا.



و قيل المعنىٰ أمنوا بصَلاته في أوّل النّهار الى بيت المقدّس فأنّه الحقّ و أكفروا بصلاته أخر النّهار الى الكعبة لعلّهم يرجعون الى قبلتكم، و قال مقاتل معناه أنّهم جاءوا محمّداً صلّى الله عليه و آله أوّل النّهار و رجعوا من عنده فقالوا للسَّفلة هو حقّ فإتَّبعوه ثمّ قالوا حتّى ننظر في التّوراة ثمّ رجعوا في أخر النّهار فقالوا قد نظرنا في التّوراة فليس هو به يقولون أنّه ليس بحقّ و أنّما أرادوا أن يلبسوا علىٰ السَّفلة و أن يشككوا فيه

و عن تفسير علّي بن إبراهيم في قوله: **وَ قَالَتْ طَآئِفَةٌ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَابِ** قال نزلت في قومٍ من اليهُود قالوا أمنّا بالذّي أنزل علىٰ محمّدٍ بالغداة و كفروا به بالعَشي.

و في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام في قوله: **وَ قَالَتْ طَآئِفَةٌ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَابِ** قال عليه السلام أنّ رسول اللّه صلّى الله عليه و آله لما قدِم المدينة و هو يصلّي نحو البيت المقدّس أعجب من ذلك اليهُود فلمّا صَرفه اللّه عن بيت المقدّس الى بيت اللّه الحرام وجدت اليهُود من ذلك و كان صرف القبلة صلاة الظّهر فقالوا صلّى محمّد الغداة و إستقبل قبلتنا فأمنوا بالّذي أنزل على محمّدٍ وجه النّهار و أكفروا أخره يعنون القبلة حين إستقبل رسول اللّه صلّى الله عليه و آله المسجد الحرام، لعلّهم يرجعون، الىٰ قبلتنا انتهىٰ.

وَ لَا تُؤْمِنُوٓا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ

الظّاهر أنّه من كلام طائفة اليهُود بحكم العطف أي أنّهم قالوا للسَّفَلة لا تؤمنوا إلاّ لمن تَبع دينكم و هو دين اليَهُود فيرجع معناه لا تُؤمنوا إلاّ باليهود و من تابع اليَهُود في دينهم **قُلْ إِنَّ ٱلْهُدٰى هُدَى ٱللَّهِ** أي قُل لهم يا محمّد أنّ الهدىٰ هدىٰ اللّه لا ما رُمتم من الخداع بتلك المقالة وذاك الفعل لمخافة **أَنْ يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ** يعني أنّما قلتم ذلك القول و دبَّرتم تلك المكيدة حسداً و خوفاً من أن تذهب رئاستكم و يشارككم

فيها أحد غيركم أو يحاجّوكم عند ربّكم أي يقيمون الحجّة عليكم عند اللّه اذ كتابكم و هو التّوراة أو الإنجيل طامحٌ بنبّوة رسول اللّه صلى الله عليه وآله مُلزمٌ لكم أن تؤمنوا به و تتبعوه و يؤيد هذا المعنىٰ قوله: **قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَآءُ وَ ٱللَّهُ وٰاسِعٌ** أي أنّه واسع الرّحمة **عَلِيمٌ** بكلّ شيءٍ.

إعلم أنّ هذه الآية أشكَل ما في السُورة بل وفيِ القرأن و لذلك نقل عن الواحدي أنّه قال أنّ هذه الآية من مشكلات القرأن و أصعبه تفسيراً و لذلك إختلفوا في تفسيرها.

فروي عن الحَسن و مجاهد أنّ معنىٰ الآية **وَ لَا تُؤْمِنُوٓا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ** و لا تؤمنوا أن يحاجّوكم عند ربّكم لأنّهم لا حجّة لهم فأنّكم أصَح منهم ديناً و أن يحاجّوكم، في موضع خفض أي بأن يحاجّوكم أي بإحتجاجهم، أي لا تصدّقوهم في ذلك فأنّهم لا حجّة لهم **أَنْ يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ** من التّوراة و المَّن والسَّلوى و فرق البحر و غيرها من الأيات و الفضائل فيكون **أَنْ يُؤْتَىٰٓ** مؤخراً بعد **أَوْ يُحٰاجُّوكُمْ** و قوله: **إِنَّ ٱلْهُدىٰ هُدَى ٱللَّهِ** إعتراض بين كلامين هذا و قال الأخفش المعنى و لا تؤمنوا إلاّ لمن تبع دينكم و لا تؤمنوا أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم و لا تصدّقوا أن يحاجّوكم، يذهب الىٰ أنّه معطوف و قيل المعنىٰ ولا تؤمنوا إلاّ لمن تبع دينكم أن يُؤتى أحد مثل ما أوتيتم فالمدّعى الإستفهام أيضاً تأكيداً للإنكار الذّي قالوه أنّه لا يُؤتى أحد مثل ما أوتوه لأنّ علماء اليَهُود قالت لهم، لا تؤمنوا إلاّ لمن تَبع دينكم أن يُؤتى أحد مثل ما أوتيتم أي لا يؤتىٰ أحَد مثل ما أوتيتم فالكلام علىٰ نسقه و، أن، في موضع رفع في قولك أزيد ضربته والخبر محذوف تقديره أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم تصدّقون أو تقرّون أي إيتاء موجود مصدّق أو مقرّ به أي لا تصدّقون بذلك، و في الآية أقوال مختلفة من أراد الإطّلاع عليها فليطلبها من مظّانها، و نقل الطّبرسي رحمه الله قولاً أخر و هو أن يكون الكلام من أوّل الآية الى أخرها لِلّه

تعالىٰ و تقديره و لا تؤمنوا أيّها المؤمنون إلاّ لمن تبع دينكم و هو دين الإسلام و لا تصدّقوا بأن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم من الدّين فلا نبي بعد نـبّيكم و لا شريعة بعد شريعتكم الىٰ يوم القيامة و لا تصدّقوا بأن يكون لأحدٍ حجّة عليكم عند ربّكم لأنّ دينكم خير الأديان و أنّ الهدىٰ هدى اللّه و أنّ الفضل بيد اللّه فتكون الأية كلّها خطاباً للمؤمنين من اللّه تعالىٰ عند تلبيس اليَهُود عليهم لئلاّ يزّلُوا و يدّل عليه ما قاله الضّحاك أنّ اليَهُود قالوا أنّا نحاجّ عند ربّنا من خالفنا في دِيننا فَبَيّن اللّه تعالىٰ أنّهم هم المدحضون المغلُوبون و أنّ المؤمنين هم الغالبُون انتهىٰ كلامه رُفع مقامه.

أقول ما ذكره قدس سره لا بأس به بل هو متينٌ جدّاً اذ لا دليل علىٰ أنّ الكلام كلام اليَهُود.

يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَآءُ وَ ٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ

فقيل المراد بالرّحمة هنا النّبوة أي يفرد بـنّبوته مـن يشـاء و قـيل المـراد بالرّحمة الإسلام والقرأن، والحقّ أنّ المراد بها معناها العـامّ الشّـامل لهـما و لغيرهما وأن كانت النُبّوة والإسلام من أكَمل مصاديقها و ذلك لأنّ الخير كلّه بيَده وما سواه محتاج اليه ثمّ أنّ هذه الأيات قد تضمّنت من البديع، التّجنيس المماثل، و التّكرار في أمنوا و أمنوا، و في الهُدىٰ، هُدىٰ اللّه، وفي يُـؤتى و أوتيتم، والتّكرار في إسم اللّه في أربعة مواضع، والطّباق في أمنوا، و أكفروا، و في وجه النّهار و في أخره والإختصاص في وجه النّهار لأنّه وقت إجتماعهم بالمؤمنين، و أخره لأنّه وقت خلوتهم بأمثالهم من الكفّار.

■

وَ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتٰابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطٰارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ وَ مِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينٰارٍ لٰا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلّٰا مٰا دُمْتَ عَلَيْهِ قٰآئِمًا ذٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قٰالُوا لَيْسَ عَلَيْنٰا فِى ٱلْأُمِّيِّنَ سَبِيلٌ وَ يَقُولُونَ عَلَى ٱللّٰهِ ٱلْكَذِبَ وَ هُمْ يَعْلَمُونَ ﴿۷۵﴾ بَلىٰ مَنْ أَوْفىٰ بِعَهْدِهِۦ وَ ٱتَّقىٰ فَإِنَّ ٱللّٰهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿۷۶﴾

◁ اللّغة

بِقِنْطٰارٍ: قال في المفردات القَنطرة من المال ما فيه عبور الحياة تَشبيهاً بالقَنطَرة وذلك غير محدود القدر في نفسه وأنّما هو بسبب الإضافة كالغَنّي ولما قلنا إختلفوا في حدّه فقيل أربعون أوقية و قال الحَسن ألَف ومائتا دينار، و قيل مِلّ مَسك ثور ذهباً الىٰ غير ذلك.

يُؤَدِّهِۦٓ: من أَدّىٰ يُؤدّي و مصدره التّأدية.

دُمْتَ: فعل أمرِ من دامَ يَدُوم والباقي واضح.

◁ الإعراب

مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ من، مبتدأ و مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتٰابِ خبره قدّم عليه والشّرط و جوابه صفة لِمَن، لأنّها نكرة وكما يقع الشّرط خبراً يقع صلةً وصفةً وحالاً بِقِنْطٰارٍ الباء بمعنىٰ، في، أي في حفظ قنطار و قيل الباء بمعنىٰ، علىٰ إِلّٰا مٰا دُمْتَ عَلَيْهِ ما، في موضع نصب علىٰ الظّرف أي إلاّ مدّة دوامك و يجوز أن يكون حالاً لأنّ، ما، مصدّرية و المصدر قد يقع حالاً والتّقدير إلاّ في حال ملازمتك وَ ذٰلِكَ بِأَنَّهُمْ أي ذلك مستحق فأنهم فِى ٱلْأُمِّيِّنَ صفة سَبِيلٌ قدّمت عليه فصارت حالاً وَ يَقُولُونَ عَلَى ٱللّٰهِ يجوز أن يتعلّق، علىٰ، بيقولُون لأنّه

بمعنى يفترون و يجوز أن يكون حالاً من الكِذب مُقدّماً عليه وَ **هُمْ يَعْلَمُونَ** جملة في موضع الحال.

◁ التّفسير

أخبر اللّه تعالىٰ أنّ في أهل الكتاب الخائن و الأمين و جمهور المفسّرين على أنّ المراد بأهل الكتاب اليَهُود والنّصارىٰ و قيل أهل الكتاب عني به القرأن قاله ابن جريح و قيل المراد اليَهُود لأنّ هذا القول: **لَيْسَ عَلَيْنا فِى ٱلْأُمِّيِّنَ سَبِيلٌ** لَم يقله و لَم يعتقده إلاّ اليَهُود، و قيل: **مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطارٍ** هم النّصارىٰ لغلبة الأمانة عليهم و **مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينارٍ** هم اليَهُود لغلبة الخيانة عليهم و قال ابن عبّاس **مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطارٍ** هو عبد اللّه بن سلام إستودعه رجل من قريش ألفاً ومائتي أوقية ذهباً فأدّاه اليه و **مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينارٍ لا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ** فخاص بن عازوراء استودعه رجل من قريش ديناراً فجحده و خانه.

وَ **مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتابِ** من للتّبعيض أي بعضهم كذلك **مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطارٍ** من المال **يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ** أي يُؤدّي المال اليك ومنهم، أي من أهل الكتاب **مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينارٍ لا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ** كما هو شأن الخائن **إِلّا ما دُمْتَ عَلَيْهِ قائِمًا** إختلفوا في تفسيره فقال قتادة و مجاهد والزّجاج و الفّراء و ابن قتيبة معناه، متقاضياً بأنواع التّقاضي من الخفر و المرافعة الى الحكّام فليس المراد هيئة القيام أنّما هو من قيام المرء على أشغاله أي إجتهاده فيها، و قال السّدي و غيره، قائماً برأسه و هي الهيئة المعروفة و ذلك نهاية الخفر لأنّ معنىٰ ذلك أنّه في صدد شغلٍ أخر يريد أن يستقبله وذهب الى هذا التّأويل جماعة من فقهاء العامّة و انتزعوا من الآية جواز السّجن لأنّ الّذي يقوم عليه غريمه هو يمنعه من تصّرفاته في غير القضاء و لا فرق بين المَنع من التّصرفات و بين السّجن،

معنىٰ الكلام أي قائماً بوجهك فيهابك و يستحي منك و امثال ذلك من الإحتمالات كثيرة والظّاهر من قوله: **إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا** أنّه كناية عن الملازمة والمواظبة علىٰ المديُون بحيث اذا تركته لا يُؤدّي المال اليك **ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي ٱلْأُمِّيِّنَ سَبِيلٌ** رُوي أنّ بني إسرائيل كانوا يعتقدون استحلال أموال العرب لكونهم أهل أوثان فلمّا جاء الإسلام و أسلم من العَرب بَقي اليَهُود فيهم على ذلك الإعتقاد فنزلت الآية مانعة من ذلك و قال رسول اللّه صلّى الله عليه وآله كلّ شيئ من أمر الجاهلية فهو قدمي إلاّ الأمانة فأنّها مؤدّاة الىٰ البّر والفاجر والإشارة بذلك الىٰ تَرك الأداء الّذي دلّ عليه لا يُؤدّي أي كونهم لا يُؤدّون الأمانة **وَ يَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَ هُمْ يَعْلَمُونَ** أي القول الكذب يفترونه علىٰ اللّه بإدّعائهم أنّ ذلك في كتابهم قال السّدي وابن جريح و غيرهما إدّعت طائفة من أهل الكتاب أنّ في التّوراة إحلالاً لهم أموال الأُمّيين كذباً منها و هي عالمة بكذبها (بلىٰ) جواب لقولهم **لَيْسَ عَلَيْنَا فِي ٱلْأُمِّيِّنَ سَبِيلٌ** وهذا متقض لدعواهم والمعنىٰ بلىٰ عليهم في الأمّيين سبيل.

مَنْ أَوْفىٰ بِعَهْدِهِ وَ ٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ.

يحتمل أن يكون الهاء فى، بعهده عائدة علىٰ، إسم اللّه في قوله **وَ يَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ** فيكون معناه من أوفى بعهد اللّه، وعهد اللّه الىٰ عباده أمره ونهيه، و يحتمل أن يكون عائدة الى من، أوفى و المعنى بعهد نفسه لأنّ العَهد يضاف تارةً الىٰ العاهِد وتارةً الىٰ المعهُود له **وإِتَّقَىٰ** أي وإتّقىٰ الخيانة ونقض العهد **فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ** قيل معناه فأنّ اللّه يُحبّه إلاّ أنّه عَدل الى ذكر المتّقين ليبيّن الصّفة الّتي يجب لها محبّة اللّه و هذه صفة المؤمن فكأنّه قال واللّه يحبّ المؤمنين و لا يحبّ اليَهُود قاله الطّبرسي في تفسيره، قال رسول اللّه صلّى الله عليه وآله أربعٌ من كنّ فيه كان منافقاً خالصاً و من كانت فيه خصلة منهنّ كانت فيه خصلة من النّفاق حتّىٰ يدعها، اذا إئتمن خان، و اذا أحَدث كذب، عاهد عذر، و اذا خاصم فجر.

قال بعض العرفاء دلّت الآية علىٰ تعظيم أمر العرفاء بالعَهد و ذلك لأنّ الطّاعات مقصورة علىٰ أمرين، التّعظيم لأمر اللّه، والشّفقة علىٰ خَلق اللّه والوفاء بالعَهد مشتمل عليهما معاً.

إذ ذلك سبب لِمنفعة الخَلق فهو مشفقة علىٰ خلق اللّه، ولّما أمر اللّه به كان الوفاء به تعظيماً لأمر اللّه.

■

إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَ أَيْمٰانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلاً أُولٰئِكَ لاٰ خَلاٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْاٰخِرَةِ وَ لاٰ يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَ لاٰ يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيٰمَةِ وَ لاٰ يُزَكِّيهِمْ وَ لَهُمْ عَذٰابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَ إِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتٰابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتٰابِ وَمٰا هُوَ مِنَ ٱلْكِتٰابِ وَ يَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ ٱللَّهِ وَ مٰا هُوَ مِنْ عِنْدِ ٱللَّهِ وَ يَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَ هُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾

◁ اللّغة

أَيْمٰانِهِمْ: بفتح الألف جمع يَمين واليَمين في الأصل الجارحة وإستعماله في الحَلِف مُستعارٌ من اليَد إعتباراً بما يفعله المعاهد والمُحالِف و غيره.

لاٰ خَلاٰقَ: الخلاق ما أكتسبه الإنسان من الفضيلة بخلقه قال اللّه تعالىٰ: **مٰا لَهُ فِى ٱلْاٰخِرَةِ مِنْ خَلاٰقٍ**[1] أي من فضيلة توجب الحظّ والنّصيب من حيث الأجر.

يَلْوُونَ والماضي منه، **لَوىٰ** يقال، **لَوىٰ يَلوي لَيّاً**، وأصل **يَلوُون** حُذفت **الياء** ويقال **لَوىٰ** لسانه بكذا إذا كذب في الحديث و قيل هو كناية عن الكَذِب و تخّرص الحديث.

◁ الإعراب

يَلْوُونَ في موضع نصب صفة لَفريق و جمع على المعنى و لو أُفرد جاز علىٰ اللّفظ و الجمهور علىٰ إسكان اللاّم و إثبات واوَين بعدها و يُقرأ بفتح اللاّم

١- البقرة= ١٠٢

و تشدّيد الواو و ضمّ الياء على التّكثير و يقرأ بضمّ اللاّم و واو واحدة ساكنة بِالْكِتَابِ في موضع الحال من الألسنة أي ملتبسة بالكتاب أو ناطقة به مِنَ الْكِتَابِ هو المفعول الثّاني، لحسب.

◁ التّفسير

إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ إختلفوا في سبب نزولها فقال مجاهدو عامر الشّعبي أنّها نُزلت في رجلٍ حَلف يميناً فاجرة في تنفيق سلعته و قال إبن جريح أنّها نزّلت في الأشعث بن قيس وخصم له في أرض قام ليحلف عند رسول اللّه و قصّته علىٰ ما قال القُرطبي أنّ الأشعث قال كان بيني و بين رجل من اليَهود أرض فجحدني فقدّمته الىٰ النّبي ﷺ فقال لي رسول اللّه ﷺ هل لَك بيّنة قلت، لا، قال لليَهودى.

إحلف، قلت إذاً يحلف فيذهب بمالي فأنزّل اللّه تعالىٰ **إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَ أَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلاً** قال القُرطبي و رُوى أيضاً عن أبي إمامة أنّ رسول اللّه ﷺ قال، من أقتطع حقّ إمرؤٍ مسلم بِيَمينه فقد أوجب اللّه له النّار و حَرّم عليه الجّنة فقال له رجل و أن كان شيئاً يَسيراً يا رسول اللّه قال ﷺ و أن كان قضيباً من أراك، إنتهىٰ ما قاله القُرطبي.

أقول و قد نقل الشّيخ قدّس سرّه قصّته الأشعث في التّبيان إجمالاً.

قال قدّس سرّه قال إبن جريح نزّلت في الأشعث بن قيس وخصم له في أرض، قام ليحلف عند رسول اللّه فنزّلت الآية فنكل الأشعث و أعترف بالحقّ وردّ الأرض.

أقول ما ذكره الشّيخ أَصح لأنّ الأشعث كان في رأس المنافقين في الإسلام.

و قال عَكرمة نَزلت في جماعة من اليَهُود حيّ إبن أخطب وكعب بن الأشرف و أبي رافع وكنانة بن أبى الحقيق، و قال الحَسن كتبوا كتاباً بأيديهم ثمّ حلفوا أنّه من عند اللّه فيما أدّعوا، من أنّه ليس علينا في الأُميّين سبيل، أقول

الذّم في الآية يتّوجه الىٰ كلّ النّاس وأن كان شأن نزولها مَورداً خاصّاً و ذلك لأنّ خصوص المورد من جهة النّزول لا ينافي عموم الآية من حيث الشّمول و لنَرجع الىٰ تفسير الآية فنقول **إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَ أَيْمَٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلاً** الإضافة في بعهد اللّه، إمّا للفاعل و امّا للمفعول أي بعهد اللّه إيّاه من الإيمان بالرّسول الّذي بُعِث مُصدّقاً لما مَعهم وبأيمانهم الّتي حلفوها لِنُؤمنّن به ولَننّصرنّه أو بعهد اللّه و الإشتراء هنا مجاز والثّمن القليل متاع الدّنيا من الرّشوة والرّئاسة ونحو ذلك و الظّاهر أنّها في أهل الكتاب من اليهود و النّصارىٰ بقرينة الأيات الّي قبلها وبعدها هكذا قالوا و امّا على المختار فهي شاملة للجميع وأنّما وصف ما إشتروه من عرض الدّنيا بأنّه ثَمن قليل مع ما قرن به الوعيد لأمرين.

أحدهما: أنّه قليل في جنب ما يُؤدّي اليه من العقاب والعذاب.

الثّانى: أنّه مع كونه قليلاً، الإقدام فيه علىٰ اليمين مع نقض العهد عظيم **أُولَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْأَخِرَةِ** معناه لا نصيب لهم **وَ لَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ** فيه قولان.

أحدهما: **لَا يُكَلِّمُهُمُ** بما يسَّرهم بل بما يسوءهم وقت الحساب لهم لأنّ الغرض أنّما هو الوعيد.

الثّانى: **لَا يُكَلِّمُهُمُ** أصلاً و تثبت المحاسبة بكلام الملائكة لهم بأمر اللّه أيّاهم فيكون علىٰ العادة في إحتقار إنسانٍ علىٰ أن يكلمّه الملك لنقصان المنزّلة، و ذكرهما الشّيخ في التّبيان أقول يحتمل أن يكون المراد عدم التّوجه اليهم و الإعراض عنهم علىٰ سبيل الكناية كما يقال أنّي لا أكلمك بعد اليوم وهكذا قوله: **وَ لَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ** أي لا يرحمهم أو لا ينظر اليهم بنظر الرّحمة و في ذلك دلالة على أنّ النظّر مع تعديته بحرف، الىٰ، لا يفيد الرؤّية لأنّه لا يجوز حملها في الآية علىٰ أنه لا يراهم بلا خلاف ومن المعلوم أنّ التكلّم بالجارحة وهكذا النظّر في حقّه تعالى محال **يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ** عند الحساب **وَ لَا يُزَكِّيهِمْ**

قالوا معناه لا يحكم بزكاتهم دون أن يكون معناه لايفعل الإيمان الّذي هو الزّكاة لهم لأنّهم في ذلك و المؤمنين سواء و قيل معناه، ولا يُثني عليهم أو لا يُنمي أعمالهم أو لا يطهّرهم من الذّنوب **وَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ** أي عذابٌ موجع يوم القيامة أعاذنا اللّه منه.

وَ إِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتابِ

مِن، للتبعيض و الضمير في **مِنْهُمْ** يرجع الى أهل الكتاب أي بعضهم كذلك و المعنى أنّ جماعة منهم **يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتابِ** أي يحرّفونه بالتغيّير و التّبديل وأن شئت قلت ينسبون ما يتّلفظون به الىٰ الكتاب وليس منه نقل عن إبن عبّاس أنّه قال أنّ جماعةً من اليهود قدموا علىٰ كعب بن الأشرف غيّروا التّوراة وكتبوا كتاباً بدّلوا فيه صفة رسول اللّه ثمّ أخذت قريظة ماكتبوه فخلطوه بالكتاب الّذي عندهم، وقال الزّمخشري، **يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتابِ** لتحسبوه من الكتاب أي يفتلونها بقراءته عن الصّحيح الى المحرّف، و قال إبن عطية يحرّفون ويتحيّلون لتبديل المعاني من جهة إشتباه الألفاظ و إشتراكها و تشّعب التّأويلات فيها وليس التّبديل المَحض انتهىٰ.

و الحقّ أنّ التحريف والتبدّيل وقع في الألفاظ والمعاني تبعٌ للألفاظ ومن طالع التّوراة علم يقيناً أنّ التّبديل في الألفاظ والمعاني جميعاً لأنّها تضمّنت أشياء يجزم العاقل أنّها ليست من عند اللّه و لا أنّ ذلك يقع في كتاب إلٰهي من كثرة التّناقض في الأخبار والأعداد ونسبة أشياء الىٰ اللّه من الأكل والمصارعة و غير ذلك ونسبة أشياء الىٰ الأنبياء من الكذب و السّكر و الخمر و الزّنا و غير ذلك من القبائح الّتي ينزه العاقل نفسه عن أن يتّصف بشيءٍ منها فضلاً عن منصَب النّبوة هذا مع خلّوها من ذكر الأخرة والبعث والحشر والنّشر والعذاب و النّعيم الأخرويّين والتّبشير برسول اللّه و أين هذا:

قال اللّه تعالىٰ: **اَلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ اَلرَّسُولَ اَلنَّبِيَّ اَلْأُمِّيَّ اَلَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي اَلتَّوْرٰاةِ وَ اَلْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَ يَنْهٰاهُمْ عَنِ اَلْمُنْكَرِ وَ يُحِلُّ لَهُمُ اَلطَّيِّبٰاتِ وَ يُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ اَلْخَبٰائِثَ وَ يَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَ اَلْأَغْلاٰلَ اَلَّتِي كٰانَتْ عَلَيْهِمْ**[1].

و سيأتي الكلام فيها قال اللّه تعالىٰ: **قُلْ مَنْ أَنْزَلَ اَلْكِتٰابَ اَلَّذِي جٰاءَ بِهِ مُوسىٰ نُوراً وَ هُدىً لِلنّٰاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرٰاطِيسَ تُبْدُونَهٰا وَ تُخْفُونَ كَثِيراً**[2].

و الأيات الدّالة علىٰ المُدّعىٰ كثيرة و لذلك قال اللّه تعالىٰ: **وَ مٰا هُوَ مِنَ اَلْكِتٰابِ وَ يَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اَللّٰهِ وَ مٰا هُوَ مِنْ عِنْدِ اَللّٰهِ وَ يَقُولُونَ عَلَى اَللّٰهِ اَلْكَذِبَ وَ هُمْ يَعْلَمُونَ**.

أي و ما المُحرّف والمُبدّل الّذي لوّوه بألسنتهم من التّوراة ولا هو من عند اللّه، قال أبوبكر الرّازي في هذه الآية دلالة على أنّ المعاصي ليست من عند اللّه ولا من فعله لأنّها لو كانت من فعله كانت من عنده و قد نفىٰ اللّه تعالىٰ نفياً عّاماً لكون المعاصي من عنده، و قال إبن عطية و ما هو من عند اللّه نفي أن يكون منزّلاً كما إدّعوا و هو من عند اللّه بالخلق و الإختراع والإيجاد ومنهم بالتّكسُب ولم تعن الآية إلاّ معنىٰ التّنزيل فَبَطل تعلّق القدرية بظاهر قوله وما هو من عند اللّه انتهىٰ.

و أنا أقول ما ذكره الرّازي حقّ لا مرية فيه و امّا ما ذكره إبن عطّية فهو و هم خالص لا يساعده العقل فضلاً عن النّقل و ذلك لأنّ النّفي في قوله (ولا هو من عند اللّه) عامٌ شاملٌ للإيجاد والإنزال و ذلك لأنّ الإيجاد فعله كما أنّ الإنزال فعله والعِندّية ليست بمعناها اللّغوي العُرفي الّذي يلازم المكان والجَهة بل معناها في حقّه تعالىٰ النّسبة، والفعل فإذا قلنا، نزل القرآن من عنده معناه أنّه

١- الأعراف=١٥٧ ٢- الأنعام=٩١

كلامه و كلامه فعله إذ لا قديم سوىٰ اللّه تعالىٰ فلا فرق بين قولنا الكتاب من عنده و قولنا الموجودات من عنده و حيث أنّ اللّه تعالىٰ قال و لا هو من عند اللّه، بالنّفي العّام فتخصيص النّفي بالإنزال دُون الخلق والإيجاد تحكّمٌ محض لا دليل عليه و ذلك لأنّ المعاصي لو كانت من عنده فعلاً أو خلقاً لم يجز إطلاق النّفي بأنّها ليست من عند اللّه.

■

مٰا كٰانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ ٱللّٰهُ ٱلْكِتٰابَ وَ ٱلْحُكْمَ وَ ٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنّٰاسِ كُونُوا عِبٰادًا لي مِنْ دُونِ ٱللّٰهِ وَ لٰكِنْ كُونُوا رَبّٰانِيّينَ بِمٰا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتٰابَ وَ بِمٰا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾

◁ اللّغة

قد مرّ الكلام في البشر غير مرةٍ وقلنا أنّه يقال للواحد والجمع لأنّه بمنزلة المصدر رَبّٰانِيّنَ منسوب الىٰ الرّب والرّباني الّذي يُرَبّي النّاس بصغار العلم قبل كباره وكأنّه يقتدي بالرّب سبحانه في تيسير الأُمور و قيل المراد بهم العلماء يقال فلان ربّاني هذه الأُمّة و في دين اليَهُود كانوا يطلقون الرّباني علىٰ الحِبر وفي دين النّصارىٰ علىٰ القسّيس والرّهبان.

◁ الإعراب

ثُمَّ يَقُولَ هو معطوف على، يُؤتيه و يقرأ بالرّفع علىٰ الإستئناف بِمٰا كُنْتُمْ في موضع الصّفة لرّبانيين و يجوز أن تكون الباء بمعنى السّبب فتتّعلق بكان ،وما، مصدّرية أي يُعلّمكم الكتاب و يجوز أن تكون الباء متعلّقة بربانيّين تُعَلِّمُونَ بالتشدّيد أي تعلّمونه غيركم و بالتّخفيف أي تعرفون تَدْرُسُونَ بالتخفّيف أي تدرسون الكتاب فالمفعول محذوف و يقرأ بالتشدّيد و ضمّ التّاء أي تدرسون النّاس الكتاب.

◁ التّفسير

مٰا كٰانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ ٱللّٰهُ ٱلْكِتٰابَ وَ ٱلْحُكْمَ وَ ٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنّٰاسِ كُونُوا عِبٰادًا لي مِنْ دُونِ ٱللّٰهِ.

ما، نافية أي لا ينبغي أو ما ينبغي لبشرٍ، قيل المراد به عيسىٰ عليه السلام أن يؤتيه اللّه الكتاب و هو الإنجيل والحُكم والنّبوة لأنّه بعث الىٰ الخلق من عند اللّه، ثمّ يقول للنّاس كونوا عباداً لي، أي كان مدّعياً للإلّوهية، وفيها رَدٌّ على النّصارىٰ لأنّهم كانوا معتقدين بالوهّية عيسىٰ فقال اللّه تعالىٰ رَدّاً عليهم ما كان لبَشَرٍ أن يقول كذا و فيه إشارة الىٰ أمرين:

أحدهما: أنّ عيسىٰ كان بَشراً والبَشَر لا ينبغي له أن يقول كذا.

ثانيهما: أن ما نَسَبُوه الىٰ عيسىٰ عليه السلام من الإلُوّهية أو أنّه ابن اللّه كان إفتراءً عليه من عند أنفسهم و عيسىٰ عليه السلام لم يقل بهذه المقالة ولا كان راضياً بها.

أمّا الأمر الأوّل : أعني لا ينبغي للبشر أن يقول للنّاس كونوا عباداً لي من دُون اللّه فالوَجه فيه أنّ البَشر مخلوق مثل غيره من أحاد النّاس فأنّ هذا اللّفظ يطلق علىٰ كلّ إنسانٍ إعتباراً بظهور جلده من الشّعر ولا فرق بين أفراد الإنسان من هذه الجهة فقوله لغيره من أمثاله كونوا عباداً لي كذبٌ مَحضٌ وخروجٌ عن طور البَشّرية والعاقل لا يقول به والمجنون لا كلام لنا فيه كيف و قد ثبت أنّ حكم الأمثال واحد و اذا كان كذلك فكيف يُعقل أن يكون فرداً من أفراد البَشَر الهاً و سائر الأفراد من النّاس عبيده وأنّما قال تعالىٰ لبَشَرٍ ولم يقل لإنسانٍ للإشارة الىٰ جثّة الإنسان و ذلك لأنّ الفَرق بين الإنسان والبَشَر هو أنّ هذا الموجود يقال له الإنسان بإعتبار روحه ونفسه النّاطقة والبَشَر بإعتبار جُثّته و ظهور الشَّعر في جلده و لذلك قالوا أنّ النّاس يتَساوون في البَشَرية و أنّما يتفاضلون بما يَختَّصُون به من المعارف الجليلة والأعمال الجميلة:

قال اللّه تعالىٰ: **قُلْ إِنَّمَآ أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ**(١).

قال اللّه تعالىٰ: **مَآ أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنا**(٢).

و أمثالها إشارة الىٰ مقام البَشّرية الظّاهرة في الكلّ وقوله بعد ذلك (يُوحىٰ

١-الكهف= ١١٠ ٢- الشعراء= ١٥٤

إلّي) إشارة مقام الإنسّانية الكاملة و أن شئت قلت الىٰ مقام الفَضيلة ولا شكّ أنّ الانسان بهذا الإعتبار أعني جَسَده وجثّته من الموجودات المادّية المرّكبة من الأجزاء والأعضاء كما أنّه بإعتبار رُوحه من الموجودات المجّردة عن الأجزاء و الأعضاء اذا عرفت هذا فنقول أنّ الإنسان بإعتبار كونه بَشَراً له جَسد ولجَسده أعضاء و جوارح وكلّ عضوٍ من أعضاءه محتاج الىٰ عُضوه الأخر في حياته و بقاءه و الإحتياج مساوق للإمكان لأنّ كلّ محتاج ممكن و كلّ ممكنٍ محتاج مخلوق لإحتياجه في الخروج عن حدّ الإستواء و هو تساويه في مقام ذاته بين الوجود و العدم الىٰ غيره فهو مخلوق لغيره أي لغير المُمكن و غير المُمكن لا يكون إلاّ واجب الوجود مخلوق للواجب و هو المطلوب.

و من طريقٍ أخر الجَسد المادّي حادث لا محالة لكونه مسبوقاً بالعَدم مسبوقٍ بالعدم حادث فهو حادث ثمّ نقول كلّ حادثٍ في حدوثه محتاج الى غيره فأن كان غيره حادثاً أيضاً فالكلام فيه كالكلام فيه لأنّ حكم الأمثال واحد و أن كان غير حادثٍ فهو قديم لا محالة اذ لا واسطة بين الحدوث و القدم، و لا قديم سوى اللّه تعالىٰ و هو المطلوب، وهذا معنىٰ قوله تعالىٰ: **مٰا كٰانَ لِبَشَرٍ** الخ.

أن قلت هذا الّذي ذكرت في البَشَر ثابت بالنّسبة الى غير الأنبياء من سائر أفراد البَشَر و امّا في حقّ من أتاه اللّه الكتاب و الحكم و النبوّة مثل عيسىٰ عليه السلام من المرسلين فلا.

قلتُ أنّ النبوّة و الرّسالة و العلم و أمثالها من المواهب لا تحرج البَشر عن كونه بَشراً ولا عن كونه محتاجاً فقيراً و بعبارةٍ أخرىٰ هذه الفضائل و العطايا من الخالق مرتبطة بمقام الإنّسانية ولا ربط لها بمقام البَشرية و لذلك نقول أنّها لا تزيد علىٰ البشريّة ولا تنقص منها في صورة عدمها و أنّما تزيد في الإنسانيّة اذا وجدت و لا بحث لنا في الإنسان من جهة الإنسّانية و أنّما البحث فيه من جهة

كونه بَشراً و هو في الإنسان لا يزيد و لا ينقص و أن شئت قلت الإنسانيّة في الإنسان مقولة بالتّشكيك والبَشّرية فيه بالتّواطئ و عليه فالأنبياء والأوصياء من حيث كونهم من البَشر لا فرق بينهم وبين غيرهم من البَشَر و امّا من حيث الإنسّانية فالفرق من الثّري الىٰ الثُّريا وهذا كلّه يستفاد من قوله تعالىٰ: **قُلْ إِنَّمَآ أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَىَّ**[1] فقوله: **أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ** إشارة الىٰ عَدم الفرق بينهم وبين غيرهم من هذه الجهة و أنّ صدق البَشَر علىٰ جميع الأفراد علىٰ حدٍّ سواء بلا تفاوت في الصِّدق و قوله يوحى اليّ، إشارة الىٰ وجود الفرق في بعد الإنساني حيث أنّ بعض مصاديقه مِمّن يوحى اليه و بعضه ليس كذلك و من المعلوم أنّ الوحي و النبوّة و الرّسالة و الوصاية و الولاية و أمثالهما للإنسان الكامل النّاقص منه فلا و لذلك قلنا صدق الإنسان علىٰ مصاديقه علىٰ سبيل التّشكيك صدق البَشر على سبيل التّواطئ فأفهم وأغتنم ولأجل هذه الدّقيقة.

قال اللّه تعالىٰ: و **مَا كَانَ لِبَشَرٍ** أي بَشَرٍ كان، أن يُؤتيه اللّه الكتاب والحُكم والنّبوة ثمّ يقول للنّاس كونوا عباداً لي من دون اللّه، و حيث أنّ عيسى و هكذا غيره من الأنبياء كانوا بَشراً فلا يَصلح لهم التّقول بهذه المقالة اذ لو جاز لهم ذلك القول لجاز لغيرهم أيضاً اذ لا فرق فيهم من جهة البَّشرية كما مَرّ و امّا الفضائل النّفسانية و الكملات المعنّوية و أمثالها لا تُؤثّر في ذات البَشر بمعنى أنّها لا تخرج الذّات عمّا هي عليه من الإمكانّية والفقر وكونه مخلوقاً لغيره في مقام ذاته و صفاته فالقول بالُوّهية كلّ مخلوقٍ كائناً من كان عاطلٌ باطلٌ من رأسه **وَ لَٰكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَ بِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ** أي ينبغي لهم أن يقولوا للنّاس كونوا رَبّانيين قيل هذه الآية نزلت في نصارىٰ نجران وقال بعضهم أنّ السُّورة كلّها كذلك الىٰ قوله: **وَ إِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ**[2] و لكن فرّج معهم اليَهُود لأنّهم فعلوا من الجحد و العناد ما فعلوا و

١- فصّلت=٦ ٢- آل عمران = ١٢١

لأجل ذلك أي أنّها نزلت في نصارىٰ نجران، قالوا أنّ المراد بالبَشَر هنا عيسىٰ، ثمّ أنّ الرّبانيين، و احدهم الرّباني منسوب الى الرّب قيل لأنّه يرّبي النّاس و قال بعضهم كان في الأصل رَبّي فأدخلت الألف والنّون للمبالغة كما يقال للعظيم اللّحية، لَحيّاني ولعظيم الجُمّة جمّاني و لغليظ الرّقبة، رقباني، و قال المبّرد الرّبانيون أرباب العلم واحدهم، ربّان، من قولهم ربَّه يرَّبه فهو ربَّان اذا دبَّره و أصلحه فمعناه على هذا يدَّبرون أمور النّاس و يصلحونها والألف والنّون للمبالغة كما في رَيّان و عطشان ثمّ ضُمّت اليها ياء النّسبة كما قيل، لحيّاني و ربّاني وجمّاني قال الشّاعر:

لو كُنتُ مُرتَهِناً في الجَوّ أنـزَلَني منه الحديث وربّاني أحباري

فمعنىٰ الرّباني العالم بدين الرّب الذّي بعمل بعلمه و قال مجاهد الرّبانيون فوق الأحبار و قال النّحاس و هو قول حَسن لأنّ الأحبار هم العلماء والرّباني الذّي يجمع الىٰ العلم البصر بالسّياسة والأقوال فيه كثيرة فقوله: **وَ لٰكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّنَ بِمٰا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ اَلْكِتٰابَ وَ بِمٰا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ** إشارة الىٰ مقام التّعليل فكأنّه قيل لم كانوا كذلك فقال لتعليمهم الكتاب و تدريسه ويظهر منه أنّ الرّباني هو المعّلم والمدَّرس للكتاب الإلهي والفرق بين التّعليم والتّدريس هو أنّ التّعليم يطلق علىٰ تعليم ظاهر الكتاب وتعليم معانيه و امّا التّدريس فهو مختّص بالثّاني أي أنّكم تعلّمون النّاس ألفاظ الكتاب ومعانيها فالألفاظ للصّبيان والمعاني للكبار ومحصّل الكلام في الآية أنّ النّبي يقول للنّاس هكذا ولا يقول كونوا عباداً لي من دون اللّه فمن نسب الىٰ نبّي من الأنبياء سواء فيه عيسىٰ وغيره غير هذا فهو كاذبٌ في قوله ألا لعنة اللّه علىٰ الكاذبين.

■

وَ لَا يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَ النَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾

◁ اللّغة

اللّغات فيها واضحة و قد مرَّ بعضها.

◁ الإعراب

وَ لَا يَأْمُرَكُمْ يقرأ بالرّفع أي ولا يأمركم اللّه أو النّبي، وبالنّصب عطفاً على، يقول، فيكون الفاعل ضمير النّبي أو البشر، ويقرأ بإسكان الرّاء فراراً من توالي الحركات **إِذْ** في موضع جرّ بإضافة، بعد، اليها **أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ** في موضع جرّ بإضافة، اذ، اليها.

◁ التّفسير

وَ لَا يَأْمُرَكُمْ قرأ ابن عامر وعاصم وحمزة بالنّصب عطفاً علىٰ **أَنْ يُؤْتِيَهُ** أي **مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللّٰهُ الْكِتَابَ** وماكان لبشرٍ أن يأمركم وإستدلوا علىٰ صحّة هذه القراءة بأنّ اليهود قالت للنّبي صلّى الله عليه وآله، أتريد أن نتّخذك يامحمّد ربّاً، فقال اللّه تعالىٰ: **مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللّٰهُ الْكِتَابَ** الىٰ قوله: **وَ لَا يَأْمُرَكُمْ** وفيه ضمير البشر أي ولا يأمركم البشر يعني عيسىٰ وعزيراً.

و قرأ الباقون بالرّفع علىٰ الإستئناف والقطع من الكلام الأوّل وفيه ضمير إسم اللّه عزّ وجلّ أي و لا يأمركم اللّه أن تتّخذوا و قال ابن جريح وجماعةٍ، ولا يأمركم محمّد صلّى الله عليه وآله وهذا قراءة أبي عمرو والكسائي وأهل الحرمين **أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَ النَّبِيِّينَ أَرْبَابًا** قيل هذا موجود في النّصارى لأنّهم يعلّمون الأنبياء والملائكة حتّى يجعلوهم لهم أرباباً **أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ**

أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ الإستفهام للإنكار أو التّعجب فعلى **الأوّل**: المعنىٰ لا يأمركم و على الثّاني معناه التّعجب من هذا القول أي كيف يأمركم بالكفر و قد بعث لأن يأمركم بالتّوحيد و كيف كان فيرجع المعنىٰ أنّ النّبي لا يأمركم بالكفر بعد الإسلام أي بعد ما دعاكم الى الإسلام في أوّل الأمر لأنّ هذه الدّعوة مناقضة للدّعوة الأولىٰ وهي مستلزمة لتكذيب قوله أوّلاً، والعاقل لا يكذّب نفسه واضح.

و قال بعض المفسّرين الأمر بالكفر علىٰ كلّ حالٍ منكرٍ إلاّ أنّه بعد أمرهم بالإسلام أفحش وأقبح ومعناه أنّه لا يأمركم بالكفر لا بعد الإسلام ولا قبله سواء كان الآمر اللّه أم النّبي وفي هذه الآية دلالة علىٰ أنّ المخاطبين كانوا مسلمين وأيضاً دلالة علىٰ أنّ الكفر ملّة واحدة اذا الّذين إتّخذوا الملائكة أرباباً هم الصّائبة وعبدة الأوثان والذّين إتَّخذوا النّبيين أرباباً هم اليهود، والنّصارىٰ و المجوس ومع هذا الإختلاف سمّىٰ اللّه الجميع كفراً و قال البيضاوي هو دليل علىٰ أنّ الخطاب للمسلمين والأمر سهل بعد وضوح المعنىٰ في تفسير علّي بن إبراهيم قوله: **وَ لا يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا ٱلْمَلآئِكَةَ وَ ٱلنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا** قال كان قوم يعبدون الملائكة، وقوم من النّصارىٰ زعموا أنّ عيسىٰ رّب، واليهود قالوا عزيز ابن اللّه فقال: **لا يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا ٱلْمَلآئِكَةَ وَ ٱلنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا** انتهىٰ.

و في عيون الأخبار في باب ما جاء من الرّضا عليه السلام في وجه دلائل الأئمّة والرَّد على الغلاة والمفوّضة لعنهم اللّه حديث طويل وفيه، فقال المأمون يا أبا الحسن بلغني أنّ قوماً يغلون فيكم ويتجاوزون فيكم الحدّ فقال الرّضا عليه السلام حدّثني أبي موسىٰ بن جعفر عن أبيه جعفر بن محمّد عن أبيه محمّد بن علّي عن أبيه علّي بن الحسين عن أبيه الحسين بن علّي بن أبي طالب قال قال رسول اللّه صلى الله عليه وآله لا ترفعوني فوق حقىٰ فأنّ اللّه تعالىٰ إتّخذني عبداً قبل أن تتّخذني نبيّاً قال اللّه تعالىٰ: **مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ ٱللّٰهُ ٱلْكِتَابَ** الىٰ قوله **مُسْلِمُونَ**.

■

وَ إِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَاقَ ٱلنَّبِيِّنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَ حِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَ لَتَنصُرُنَّهُ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَ أَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوٓا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَ أَنَا مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّاهِدِينَ ﴿٨١﴾

◁ اللّغة

مِيثَاقَ ٱلنَّبِيِّنَ: الميثاق بكسر الميم عقدٌ مؤكّدٌ بيمينٍ وعهدٍ.

أَقْرَرْتُمْ: الإقرار مصّدر أقرّ يُقرّ إقراراً و هو ضدّ الإنكار.

إِصْرِي: الإصر عقد الشّيء وحبسُه يقال أصرته فهو مأصور والمأصر محبس السّفينة.

◁ الإعراب

لَمَآ ءَاتَيْتُكُمْ يقرأ بكسر اللاّم أيضاً، وما، بمعنىٰ الذّي أو نكرة موصوفة والعائد محذوف ومِنْ كِتَابٍ حال من المحذوف أو من، الذّي وفي تخفيف، ما، في، لما، وجهان: أحدهما، أنّ، ما، بمعنىٰ الّذي وموضعها رفع علىٰ الإبتداء و اللاّم لام الإبتداء دخلت لتوكيد معنىٰ القسم وفي الخبر وجهان:

أحدهما: من كتاب و حكمة.

الثّانى: الخبر لتؤمّنن به والهاء عائدة علىٰ المبتدأ واللاّم جواب القسم لأنّ أخذ الميثاق قسمٌ في المعنىٰ.

ثُمَّ جَآءَكُمْ معطوف علىٰ ما آتيتكم والعائد علىٰ، ما، من هذا المعطوف، فيه وجهان:

أحدهما: تقديره ثمّ جاءكم به.

الثّانى: أنّ قوله: لِمَا مَعَكُمْ في موضع الضّمير تقديره مصّدق له.

◁ التّفسير

وَ إِذْ أَخَذَ ٱللّٰهُ مِيثٰاقَ ٱلنَّبِيّٖنَ لَمٰآ اٰتَيْتُكُمْ مِنْ كِتٰابٍ وَ حِكْمَةٍ

أي أذكر يا محمّد اذ أخذ اللّه ميثاق النّبيين لأنّ، اذ، لما مضىٰ ومعنىٰ أخذ الميثاق من النّبيين بنصرة من لم يلقوه ولم يدركوا زمانه هو أنّهم ينصرونه بتصديقه عند قومهم ويأمرونهم بالإقرار به لما روي عن أمير المؤمنين وابن عبّاس وقتادة أنّ اللّه أخذ الميثاق علىٰ الأنبياء قبل نبّينا محمّد صلى الله عليه وآله أن يخبروا أُممهم بمبعثه ويبّشروهم به ويأمروهم بتصديقه، و قال طاووس أخذ اللّه ميثاق علىٰ الأنبياء علىٰ الأوّل والأخر فأخذ اللّه ميثاق الأوّل لتؤمنّن بما جاء به الأخر وعن الصّادق عليه السلام أنّه قال تقديره و اذا أخذ اللّه أمم النّبيين بتصديق نبّيها والعمل بما جاءهم له وأنّهم خالفوهم فما بعد وما وفوا به وتركوا كثيراً من شريعته و حرّفوا كثيراً منه و في قوله: **لَمٰآ اٰتَيْتُكُمْ مِنْ كِتٰابٍ وَ حِكْمَةٍ** وجهان:

أحدهما: أنّ ما، بمعنىٰ الّذي وتقدير الكلام الّذي آتيتكموه من كتابٍ و حكمةٍ لتفعّلن لأجله كذا.

الثّاني: أنّها بمعنىٰ الجزاء وتقديره لأن آتيتكم شيئاً من كتابٍ وحكمةٍ ثمّ جاءكم رسول لتُؤمنّن به لأجله وتقديره، أيّ شيٍ آتيتكم ومهما آتيتكم ويكفي جواب القسم من جواب الجزاء كقوله: **لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ**[1] وفي معنىٰ، مِن، قولان:

أحدهما: أنّها للتّبيين، لما، كقولك ما عندك من ورق و عين.

الثّاني: أن تكون زائدة وتقدير الكلام الّذي آتيتكم، كتابٌ و حكمة **ثُمَّ جٰآءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمٰا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَ لَتَنْصُرُنَّهُ** الرّسول هنا محمّد صلى الله عليه وآله واللّفظ وأن كان نكرة فالإشارة الىٰ معيّن كقوله تعالىٰ: **وَ ضَرَبَ ٱللّٰهُ**



١- الزّمر=٦٥

مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ اٰمِنَةً مُطْمَئِنَّةً الىٰ قوله: **وَ لَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ**[١]
فأخذ اللّه ميثاق النّبيين أجمعين أن يؤمنوا بمحمّدٍ صلى الله عليه وآله وينصروه ومعنىٰ النّصرة تصديقه عند قومهم وأمرهم إيّاهم بالإقرار به و قيل أنّ اللّه أمرهم أن يأخذوا بذلك الميثاق علىٰ أُممهم والّلام في قوله لتؤمنّن به، جواب القسم الّذي هو أخذ الميثاق اذ هو بمنزلة الإستحلاف وفصّل بين القسم وجوابه بحرف الجرّ الّذي هو، لما، في قراءة ابن كثير ومَن فتحها جعلها متلّقية للقسم الذّي هو أخذ الميثاق، و **اللاّم** في **لَتُؤْمِنُنَّ** علىٰ قراءة الفتح جواب قسم محذوف أي واللّه، لتؤمنّن به، قال بعض المفسّرين مناسبة هذه الآية لما قبلها أنّه تعالىٰ لمّا نفىٰ عن أهل الكتاب قبائح أقوالهم و أفعالهم وكان ممّا ذكر أخيراً اشتراءهم بأيات اللّه ثمناً قليلاً وما يؤل أمرهم اليه في الأخرة و أنّ منهم من بدّل في كتابه و غيّر وصف رسول اللّه ونزّه رسوله بأن يعبد هو أو غيره بل تفرد اللّه تعالىٰ بالعبادة أخذ تعالىٰ يقيم الحجّة علىٰ أهل الكتاب و غيرهم ممّن أنكر نبّوته ودينه فذكر أخذ الميثاق علىٰ أنبيائهم بالإيمان برسول اللّه صلى الله عليه وآله و التّصديق له والقيام بنصرته: **فَمَنْ تَوَلّٰى بَعْدَ ذٰلِكَ فَأُولٰئِكَ هُمُ الْفٰاسِقُونَ**[٢].

و إقرارهم بذلك وشهادتهم علىٰ أنفسهم وشهادته تعالىٰ عليهم بذلك وهذا العهد مذكور في كتبهم وشاهد بذلك أنبياءهم و قد روي عن ابن عبّاس أنّه قال أخذ اللّه ميثاق النّبيين وأممهم علىٰ الإيمان بمحمّدٍ صلى الله عليه وآله ونصره واجتزأ بذكر النّبيين من ذكر أُممها لأنّ الأمم أتباع للأنبياء.

أقول و يدّل عليه قول أمير المؤمنين عليه السلام في كتاب نهج البلاغة حيث قال عليه السلام:

وَاصْطَفٰى سُبْحٰانَهُ مِنْ وُلْدِهِ اَنبِيٰاءَ (أي من وُلد آدم) **اَخَذَ عَلَى الْوَحِي مِيثٰاقَهُمْ، وَ عَلٰى تَبْلِيغِ الرِّسٰالَةِ اَمٰانَتَهُمْ** و قال في موضع أخر **اِلىٰ اَن بَعَثَ اللهُ مُحَمَّدٍ صَلّى**

١- النحل = ١١٢/١١٣ ٢- آل عمران = ٨٢

اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمْ لِإِنْجازِ عِدَتِهِ، وَإِتْمامَ نُبُوَّتِهِ، مَأْخُوذاً عَلَى النَّـبِيّينَ مِـيثاقُهُ مَشْهُورَةً سِماتُهُ ،كَرِيماً مِيلادُهُ‌الىٰ أخر كلامه.

و قال عليه‌السلام: ما بعث اللّه نبيّاً إلاّ أخذ عليه العهد لمحمّدٍ صلى‌الله‌عليه‌وآله وأمره بأخذ العهد علىٰ قومه فيه بأن يؤمنوا به وينصروه أن أدركوا زمانه قال: **قٰالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَ أَخَذْتُمْ عَلٰى ذٰلِكُمْ إِصْرِي قٰالُوٓا أَقْرَرْنٰا قٰالَ فَاشْهَدُوا وَ أَنَا مَعَكُمْ مِنَ اَلشّٰاهِدِينَ.**

الظّاهر أنّ الضّمير في، قال، عائد علىٰ اللّه وفي أقررتم خوطب به الأنبياء المأخوذ عليهم الميثاق و عليه فـالمعنىٰ قـال اللّـه تـعالىٰ لأنـبياءه ءَأقـررتم وأخذتم علىٰ ذلك إصري أي عهدي الموثّق قالوا أي الأنبياء أقرنا، قال، أي قال اللّه فأشهدوا و، قيل أي أعلموا، و قيل بيّنوا و قيل معناه أشهدوا أنتم علىٰ أنفسكم وعلىٰ أتباعكم، وأنا معكم من الشّاهدين، عليكم وعليهم وكفىٰ باللّه شهيداً.

■



فَمَنْ تَوَلَّى بَعْدَ ذٰلِكَ فَأُولٰئِكَ هُمُ ٱلْفٰاسِقُونَ ﴿۸۲﴾ أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللّٰهِ يَبْغُونَ وَ لَهُۥٓ أَسْلَمَ مَنْ فِي ٱلسَّمٰوٰاتِ وَ ٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَ كَرْهًا وَ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿۸۳﴾ قُلْ اٰمَنّٰا بِاللّٰهِ وَ مٰآ أُنْزِلَ عَلَيْنٰا وَ مٰآ أُنْزِلَ عَلىٰٓ إِبْرٰاهِيمَ وَ إِسْمٰاعِيلَ وَ إِسْحٰاقَ وَ يَعْقُوبَ وَ ٱلْأَسْبٰاطِ وَ مٰآ أُوتِيَ مُوسىٰ وَ عِيسىٰ وَ ٱلنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لٰا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَ نَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿۸۴﴾

◁ اللّغة

تَوَلّٰى: أي أعرض.
يَبْغُونَ: البَغي الطّلب.
أَسْلَمَ: أي إستسلم وإنقاد.

◁ الإعراب

فَمَنْ تَوَلّٰى من، مبتدأ و يجوز أن تكون بمعنىٰ، الذّي، وأن تكون شرطاً **فَأُولٰئِكَ** مبتدأ ثان و **هُمُ ٱلْفٰاسِقُونَ** مبتدأ وخبره و يجوز أن يكون، هم، فصلاً **أَفَغَيْرَ** منصوب **يَبْغُونَ** وطوعاً وكرهاً، مصدران في موضع الحال ويجور أن يكونا مصدرين علىٰ غير الصّدر لأنّ، أسلم، بمعنىٰ أطاع وإنقاد.

◁ التّفسير

فَمَنْ تَوَلّٰى بَعْدَ ذٰلِكَ أي ومن أعرض عن الإيمان من أُمم الأنبياء بعد أخذ الميثاق **فَأُولٰئِكَ هُمُ ٱلْفٰاسِقُونَ** الخارجون عن الإيمان **أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللّٰهِ**

يَبْغُونَ الهَمزة في أفغير، للإنكار والتّنبيه علىٰ الخطأ في التّولي والإعراض وأضيف الدّين الىٰ اللّه لأنّه تعالىٰ هو الذّي شرعه وتعبّد به الخلق ومعنىٰ تبغون تطلبون و قيل معناه هنا، تدينون، لأنّهم متّلبسون بدين غير دين اللّه لا طالبوه وعبَّر بالطَّلب إشعاراً بأنّهم في كلّ وقت باحثون عنه ومستخرجوه ومبتغوه، رُوي عن ابن عبّاس أنّه قال إختصم أهل الكتاب فزعمت كلّ فرقةٍ أنّها أولىٰ بدين إبراهيم من الأخرىٰ فقال النّبي صلى الله عليه وآله كلا الفريقين بريءٌ من دين إبراهيم فغضبوا وقالوا واللّه ما نرضىٰ بقضاءك ولا نأخذ بدينك فنزلت هذه الأية قال الماتريدي، فأن قيل، كلّ عاقلٍ، يبتغي دين اللّه ويدّعي أنّ الذّي هو عليه دين اللّه، قيل الجواب من وجهين:

أحدهما: أنّه لما قصّر في الطّلب جعل في المعنىٰ كأنّه باغ غير دين اللّه اذ لو كان باغياً طالباً له لبالغ في الطَّلب من الوجه الذّي يوصل اليه فكأنّه ليس باغياً من حيث المعنىٰ ولكّنه باغ من حيث الصّورة.

الثّاني: أنّه قد ظهر للبعض في الإبتغاء وما هو الحقّ لظهور الحجج والأيات ولكّن، أبىٰ، من قبوله لأجل العناد فهو في الحقيقة باغ لغير دين اللّه فتكون الأية في المعاندين، قال البيضاوي قوله: **أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ** عطف علىٰ الجُملة المتّقدمة والهمزة متوسّطة بينهما للإنكار أو محذوف تقديره، أيتولّون فغير دين اللّه يبغون، وتقديم المفعول لأنّه المقصود بالإنكار، والفعل بلفظ الغيبة عند عمرو وعاصم في رواية حفص ويعقوب، و بالتّاء عند الباقين علىٰ تقدير و قل لهم إنتهىٰ.

وَ لَهُۥٓ أَسْلَمَ مَنْ فِى ٱلسَّمٰوٰتِ وَ ٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَ كَرْهًا وَ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ

فيه بحثان، **أحدهما**: في قوله: **وَ لَهُۥٓ أَسْلَمَ مَنْ فِى ٱلسَّمٰوٰتِ** الىٰ قوله: **وَ كَرْهًا**.

الثّانى: في قوله: **وَ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ**.

أمّا الأوّل: فنقول ، إختلفوا في المراد بقوله: **أَسْلَمَ** أي إسلامٍ هو علىٰ قولين فمنهم من ذهب الىٰ أنّ المراد به الدّين:

قال اللّه تعالى: **إِنَّ ٱلدِّينَ عِنْدَ ٱللّٰهِ ٱلْإِسْلاٰمُ**.

قال اللّه تعالى: **وَ مَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلاٰمِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَ هُوَ فِى ٱلْاٰخِرَةِ مِنَ ٱلْخٰاسِرِينَ**[1].

و قال الأخرون المراد به الطّاعة والإنقياد و بعبارةٍ أُخرىٰ الإسلام هنا بمعنىٰ الاستسلام و هو الإنقياد تكويناً لا تشريعاً و ذلك لأنّ الإنقياد تارةً يكون بحسب العقيدة و هو المعبّر عنه بالدّين وأُخرىٰ بحسب الخلقة والوجود و بهذا المعنىٰ جميع الموجودات منقادون مطيعون مستسلمون له تعالىٰ.

قال الزّمخشري في الكشّاف، طوعاً بالنّظر الىٰ الأدّلة والإنصاف من نفسه و كرهاً، بالسّيف أو بمعاينة ما يلجئ الىٰ الإسلام كنتق الجبل علىٰ بني اسرائيل و إدراك الغرق، فرعون، والإشفاء علىٰ الموت، فلمّا رأوا بأسنا قالوا امنّا باللّه وحده، قال وإنتصب طوعاً وكرهاً، علىٰ الحال بمعنىٰ طائعين ومكرهين انتهىٰ ما ذكره.

و أنت ترىٰ أنّ كلامه صريح في أنّ المراد بالإسلام هو الدّين طوعاً وكرهاً.

و قال البيضاوي و هو من أتباعه وأشياعه ، أي طائعين بالنّظر وإتّباع الحجّة وكارهين بالسّيف ومعاينة ما يلجئ الىٰ الإسلام كنَتق الجبل وإدراك الغرق و الإشراف علىٰ الموت أو مختارين كالملائكة والمؤمنين أو مسخّرين كالكفرة فأنّهم لا يقدرون أن يمتنعوا عمّا قضي عليهم انتهىٰ.

و قال الألوسي في روح المعاني في معنىٰ الآية أقوال:

الأوّل: أنّ المراد بالإسلام طوعاً، الإسلام النّاشئ عن العلم مطلقاً سواء كان

١- آل عمران=٨٥.

حاصلاً للإستدلال كما في الكثير منّا، أو بدون الإستدلال وإعمال فكرٍ كما فى الملائكة ومن الإسلام بالكره ما كان حاصلاً بالسّيف ومعاينة ما يلجئ الىٰ الإسلام.

الثّانى: أنّ المراد إنقادوا له تعالىٰ مختارين لأمره كالملائكة والمؤمنين، و مسخّرين لأرادته كالكفرة فأنّهم مسّخرون لإرادة كفرهم اذ لا يقع ما لا يريده تعالىٰ.

الثّالث: ما أشار اليه بعض ساداتنا الصّوفية و هو أنّ الإسلام طوعاً هو الإنقياد لما أمر اللّه تعالىٰ من غير معارضة ظلمةٍ نفسّانية وحيلولة حجب الأنّانية، والإسلام كرهاً، هو الإنقياد مع توّسط المعارضات والوساوس و حيلولة الحجب.

الأوّل: مثل إسلام الملائكة وبعض من في الأرض من المصطفين الأخيار.

الثّانى: مثل إسلام الكثير ممّن تقلّبه الشّكوك جنباً الىٰ جنب حتّىٰ غدا يقول:

لقد طفتُ في تلك المعاهد كلّها ... وسَرَّحتُ في بين تلك المعالم

فلَم أرَ إلاّ واضعاً كفّ حائرٍ ... علىٰ ذَقن أو قارِعاً سنّ نادمٍ

قال والكفّار من القسم الثّاني عند أهل اللّه لأنّهم أثبتوا صانعاً أيضاً إلاّ أنّ ظلمة أنفسهم حالت بينهم وبين الوقوف علىٰ الحقّ ثمّ نقل عن أبي العالية أنّه قال كلّ آدّمي أقّر علىٰ نفسه بأنّ اللّه تعالىٰ ربّي وأنا عبده فمن أشرك في عبادته فهذا الّذي أسلم كرهاً ومن أخلص للّه تعالىٰ العبودّية فهو الذّي أسلم طوعاً انتهىٰ.

و قال الطّبري أسلم للّه طائعاً من كان اسلامه منهم له طائعاً كالملائكة والأنبياء و المرسلين فأنّهم أسلموا للّه طائعين.

و كرهاً من كان منهم كارهاً ثمّ قال إختلف أهل التّأويل في معنىٰ إسلام

الكاره فقال بعضهم إسلامه إقراره بأنّ اللّه خلقه وأن أشرك معه في العبادة غيره ثمّ نقل بأسناده عن مجاهد عن قوله تعالىٰ: **وَ لَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَ ٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَ كَرْهًا** قال هو كقوله: **وَ لَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَ ٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ** (١) ثمّ نقل حديث أبي العالية الذّي نقله الألُوسي و قد نقلناه قال أخرون بل إسلام الكاره منهم كان حين أخذ منه الميثاق فأقّر به ونقل عن ابن عبّاس حديثاً فيه.

قال و قال أخرون عني بإسلام الكاره منهم سجود ظلّه ونقل بأسناده عن مجاهد أنّه قال في الأية، الطّائع، المؤمن، وكرهاً، ظلّ الكافر وفي حديث أخر عن مجاهد أنّه قال سجود المؤمن طائعاً وسجود ظلّ الكافر كرهاً وفي حديث أخر قال سجود وجهه وظلّه طائعاً وكارهاً الىٰ أخر ما قال بطوله وبه قال السّيوطي في الدّر المنثور ونقل من الأخبار ما نقله الطّبري إلاّ أنّه زاد في الطّنبور نغمةً أخرىٰ وهي أنّه روىٰ عن أنس عن رسول اللّه صلى الله عليه وآله أنّه قال في هذه الآية ولم أسلم من في السّموات والأرض طوعاً وكرهاً، قال عليه السلام الملائكة أطاعوه في السّماء والأنصار وعبد القيسي أطاعوه في الأرض وفي حديثٍ أخر عن مطر الوّراق في هذه الآية قال:

الملائكة طوعاً والأنصار طوعاً وبنو سليم وعبد القيسي طوعاً والنّاس كلّهم كرهاً انتهىٰ.

أقول و أنّما نقلنا أقوالهم في تفاسيرهم بعين عباراتها وألفاظها حفظاً للأمانة ولئلاّ يظنّ ظانّ أنا ننسب اليهم ما لم يقولوا به كما أنّهم ينسبون الينا ما لم نقله أصلاً فظهر ممّا ذكرناه أنّهم حملوا الإسلام في الآية علىٰ الدّين تارةً وعلىٰ معرفة اللّه تارةً أخرىٰ.

و أمّا الثّانى، و هو أن يكون المراد بالإسلام في الآية الإنقياد التّكويني لا

١- لقمان = ٢٥

التّشريعي فمنهم القرطبي و هو من أكابر مفسّري العامّة قال في قوله تعالىٰ: **وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ** أي إستسلم وإنقاد وخضع وذلّ وكلّ مخلوقٍ فهو منقاد مستسلم لأنّه مجبولٌ علىٰ ما لا يقدر أن يخرج عنه.

و قال في قوله: **طَوْعًا وَكَرْهًا** نقلاً عن قتادة، أسلم المؤمن طوعاً والكافر عند موته كرهاً ولا ينفعه ذلك ونقل عن مجاهد أنّه قال إسلام الكافر كرهاً بسجوده لغير اللّه وسجود ظلّه للّه، ونقل عن رسول اللّه صلى الله عليه وآله أنّه قال لا تسّبوا أصحابي فأنّ أصحابي أسلموا من خوف اللّه وأسلم النّاس من خوف السَّيف وأطال الكلام بذكر هذه الأقاويل التّي يستحي القلم عن نقلها.

فالقرطبي خالف القوم في المعنىٰ المراد بالإسلام و وافقهم في قوله تعالىٰ: **طَوْعًا وَكَرْهًا** فتّحصل ممّا ذكرناه أنّ جميع العامّة أو قاطبتهم إختاروا في تفسير الآية ما نقلناه عنهم.

و أمّا الشّيعة فأكثرهم نقلوا في تفاسيرهم بعض هذه الأقوال أو كلّها لم يأتوا في تفسير الآية بشئٍ غير ما ذكره أهل السنّة و هو عجيب وليت شعري كيف غفلوا عن انّ الآية غير مرتبطةٍ بالدّين أعني به الإسلام بحسب التّشريع بل المراد بها شئ أخر.

قال الرّاغب في المفردات السَّلم والسّلامة التّعري من الأفات الظّاهرة والباطنة، قال تعالىٰ: **بِقَلْبٍ سَلِيمٍ** أي متّعرٍ من الدَّغل فهذا في الباطن تعالىٰ: **مُسَلَّمَةٌ لَاشِيَةَ فِيهَا** فهذا في الظّاهر وأطال الكلام في هذه اللّغة الىٰ أن قال والسّلام والسَّلم الصلّح و قيل السّلم إسمٌ بأزاء حربٌ والإسلام الدّخول في السّلم والإسلام في الشّرع علىٰ ضربين أحدهما دون الإيمان الإعتراف باللّسان وبه يحقن الدّم حصل معه الإعتقاد أو لم يحصل.

الثّاني: فوق الإيمان و هو أن يكون مع الإعتراف إعتقادٌ بالقلب و وفاء بالفعل و استسلام للّه في جميع ما قضىٰ و قدّر و قوله: عليه السلام **تَوَّفني مُسلماً**،

أي أجعلني ممّن إستسلم لرضاك وقوله:**إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ**[١] أي منقادون للحقّ، وقوله:**يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا**[٢] أي الّذين إنقادوا من الأنبياء الّذي ليسوا من أولي العزم لأولي العزم انتهىٰ.

و قال في المنجد ، أسلم أي إنقاد، تدَّين بالإسلام و قال في مجمع البحرين في قوله تعالىٰ: **وَأَجْعَلْنَا مُسلِمِينَ لَكَ** أي منقادين لأوامرك ونواهيك و قال في قوله تعالىٰ فلمّا أسلما، أي إستسلما وسلَّما لأمر اللّه تعالىٰ وفي قوله: **وَ سَلِّمُوا تَسْلِيمًا** المراد به الإنقياد له اذا عرفت هذا فنقول يستفاد من كلمات أرباب اللّغة أنّ الإسلام في الأصل الإنقياد والطّاعة إلاّ أنّ هذا الإنقياد والطّاعة أن كان بحسب الإعتقاد والفعل في أوامر اللّه ونواهيه يعبّر عنه بالدّين والشّريعة وأن كان بحسب الإجبار والإكراه في أصل الوجود فليس من الدّين والشّرع بل يعبّر عنه بالإنقياد التّكويني و بعبارةٍ أُخرىٰ الإنقياد للمخلوق علىٰ قسمين تشّريعي وتكوّيني، و ذلك لأنّ الإنقياد والطّاعة تارةً يكون علىٰ وجه الإختيار وأُخرىٰ علىٰ وجه الإضطرار والإكراه، والأوّل يسمّىٰ بالدّين و قد يعبّر عنه بالطّاعة التّشريعية.

الثّاني: يعبّر عنه بالطّاعة التّكوينية ومنشأ هذا التّقسيم هو أنّ أمره تعالىٰ علىٰ قسمين: تشرّيعي، وتكوّيني.

فالأوّل: مثل أمره بالصّلاة والصّوم والزّكاة و غيرها.

الثّاني: هو قوله **كُن فيكون** ففي الأوّل قد يتّخلف المراد عن الإرادة وفي الثّاني لا يتّخلف وأن شئت قلت في الأوامر التّشريعية قد يتّحقق العصيان والمخالفة للأمر كما ترىٰ أنّ المكلّف بالصّلاة والصّوم لا يصّلي ولا يصوم مثلاً و امّا الأوامر التّكوينية فلا يمكن لأحدٍ المعصية والتّخلف عنها، لأنّ التّخلف يوجب عدم وجوده بعد إرادة الإيجاد و هو محال اذ كيف يعقل أن لا يوجد

١- الروم = ٥٣ ٢- المائدة = ٤٤

المخلوق بعد تعّلق أمر الإيجادي به و لكن يُعقل أن لا يُصّلي ولا يصوم بعد تعّلق أمر التّشريعي به اذا عرفت هذا فلنرجع الىٰ تفسير الآية ونقول.

قوله تعالىٰ: **وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا** معناه إنقاد وأطاع له بالإنقياد التّكويني من في السّموات والأرض من الموجودات، شاء أو لم يشاء رضىٰ لأنّه تعالىٰ اذا أراد شيئاً فيقول **له كُن فيكون**، ولا إختيار للمخلوق في هذا المقام حتّىٰ يعصي فلا عصيان أصلاً ولا يتّخلف المراد عن الإرادة أبداً اذ أساس هذا الأمر علىٰ الجبر المحض بخلاف الأمر التّشريعي حيث أنّ أساسه علىٰ الإختيار الّذى هو واسطة بين الإرادة والمراد لمّا كان الأمر علىٰ هذا المنوال فلا محالة أسلم له وأطاع الأمر تكويناً كلّ موجود في السّموات والأرض و امّا قوله: **طَوْعًا وَكَرْهًا** فليس معناه أن بعض المخلوق كان مطيعاً وبعضهم كان مكرهاً في إجابة الأمر والإنقياد له بل قوله هذا كناية عن سلب الإختيار عن الخلق في هذا المقام اذ لا يسأل عن المخلوق هل هو طائعٌ أو كاره و عليه فلا حكم للموجود من جهة كونه مطيعاً أو كارهاً بل هو في مقام الخلق عارٍ عن الطّاعة والكراهة لأنّ أمره بيد الغير و الطَّوع والكره لا يعقلان الىٰ في مقام الشّعور والإختيار وهما مفقودان هناك و أنّما قلنا كذلك لأنّ قوله طوعاً وكرهاً من أدّل الدّليل علىٰ أنّ المراد بالإسلام في الآية هو الإستسلام أعني به الإنقياد لا الدّين والشّريعة اذ لو كان المراد بقوله: **أَسْلَمَ**، أي تديّن وتشرّع كما فسرّوه فيكون قوله: **طَوْعًا وَكَرْهًا** بعد ذلك دليلاً علىٰ الجبر فأنّ المعنىٰ له أسلم أي تديّن بالشرّع من في السّموات و الأرض طوعاً أي إختياراً وكرهاً أي إضطراراً و هو كما ترىٰ صريحٌ في الجبر قال اللّه تعالىٰ: **لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّ**[1] فما ذهب اليه صاحب الكشّاف وتبعه غير واحدٍ من المفسّرين فيه حيث قال، طوعاً، بالنّظر الىٰ

١- البقرة= ٢٥٦

الأدلّة والإنصاف من نفسه، وكرهاً بالسّيف أو بمعاينة ما يلجئ الىٰ الإسلام يدّل علىٰ عدم تدبّره في الأية، أو قصور فهمه عن درك المراد منها و هكذا سائر المفسّرين ألم يعلم صاحب الكشّاف و غيره أنّ الإسلام لا يكون بالكره و الجَبر فأن علم ذلك فما معنىٰ قوله: **وَ كَرْهًا** بالسّيف أو بمعاينة ما يلجئ الىٰ الإسلام أليس قوله هذا مخالفاً لقوله تعالىٰ: **لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ**.

وأظنّ أنّ ما أوقعهم في هذه الورطة هو قوله تعالىٰ في صدر الأية، **أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ** ثمّ قال: **وَ لَهُۥٓ أَسْلَمَ مَنْ فِى ٱلسَّمٰوٰتِ**(۱) فحَمَلوا الإسلام أعني قوله: **أَسْلَمَ** علىٰ الدّين ولم يعلموا أنّ الدّين في الآية ليس بمعنىٰ الدّين المصطلح في عرف المتّشرعة أعني به الشّريعة بل المراد بالدّين هنا التّوحيد فالمعنىٰ يصير هكذا.

أفغير توحيد اللّه يطلبون وله أسلم أي إنقاد كلّ من في السّموات والأرض الأية والمراد بالإنقياد إنقياد المخلوق للخالق و هو لا يتّحقق بدون المعرفة و معرفة اللّه بأنّه الخالق لا غيره هو توحيده فالإنقياد ملازمٌ للتّوحيد:

قال اللّه تعالىٰ: **وَإِنْ مِنْ شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ**(۲).

قال اللّه تعالىٰ: **أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِى ٱلسَّمٰوٰتِ وَ ٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ**(۳).

و من المعلوم أن التّسبيح فرعٌ علىٰ المعرفة فمن لم يعرف اللّه كيف سبّحه و معرفته توحيده ومثل هذه الآية في كون الذّين بمعنىٰ التّوحيد قوله: **إِنَّ ٱلدِّينَ عِنْدَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ** يعني أنّ التّوحيد عند اللّه الإسلام و قوله: **فَإِذَا رَكِبُوا فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ**(۴) يعني له التّوحيد وقوله (فأعبد اللّه مخلصاً له الدّين) يعني له التّوحيد و هذا أي كون الدّين بمعنىٰ التّوحيد في الآية قرينة

۱- پ ج ۳
۲- الإسراء=۴۴
۳- النّور=۴۱
۴- العنكبوت= ۶۵

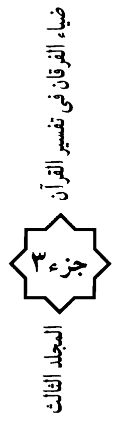
أُخرىٰ علىٰ أنّ المراد بقوله أسلم، ليس الإسلام المصطلح وملخّص الكلام أنّ الأية لابحث فيها من الدّين والشّريعة وأنّما هي حاثّة علىٰ التّوحيد وأنّ المخلوق علىٰ أيّ حالٍ مطيعٌ و منقادٌ لخالقه تكويناً و اذا كان منقاداً كذلك فلا محالة يعرفه ما بالخالقّية و ليس لم حالقاً آخر حتّىٰ يطلب ولأجل هذا صدّر الأية بالإستفهام الإنكاري و قال أفغير دين اللّه يبغون وله أسلم الآية أي كلّ من يطلبونه فهو أيضاً داخل في قوله: **وَ لَهُۥٓ أَسْلَمَ مَنْ فِى ٱلسَّمٰوٰتِ** و اذا كان كذلك فهو مخلوق مثلكم لا يكون خالقاً فالمطلوب واحد و هو اللّه تعالىٰ.

أمّا البحث الثّاني: و هو قوله: **وَ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ** فهو إشارة الىٰ أنّ الكلّ مخلوق له تعالىٰ إذ كلّ مخلوقٍ يرجع الىٰ خالقه بمعنىٰ أنّ سلسلة الموجودات تنتهي بالأخرة اليه تعالىٰ لأنّ كلّ ما وجد بالغير ينتهي الىٰ الموجود بالذّات وحيث أنّ ما سوىٰ اللّه موجود مخلوق له تعالىٰ فرجوعه اليه ممّا لا ينكر وليس المراد بالرّجوع في الآية الرّجوع اليه لأجل الحساب يوم القيامة فأنّ الرّجوع بهذا المعنىٰ يختّص بالمكّلفين والأية عامّة لأنّ قوله: **وَ لَهُۥٓ أَسْلَمَ مَنْ فِى ٱلسَّمٰوٰتِ والأرض**، يشمل كلّ المخلوق من الجماد والنبات والحيوان والملائكة والجنّ وبالجملة كلّ الموجودات كقولك رأيتُ من في الدّار، من النّاس والبهائم والطّيور وغيرها نعم كلمة، من، إذا أستعملت في غير مقام الجمع بين النّاطقين و غيرهم فهي مختّصة بالنّاطقين كما إذا أستعملت منفردةً و ما نحن فيه من مقام الجمع لقوله تعالىٰ: **طَوعاً وكَرهاً** لا من مقام الإنفراد و عليه فرجوع الجمادات والنباتّات اليه تعالىٰ للحساب لا معنىٰ له و اذا كان الأمر علىٰ هذا المنوال أي يرجع وجود الكلّ الىٰ وجوده تعالىٰ فهو الخالق المعبود وحده لا شريك له في ذاته وصفاته فمن طلب في عالم الوجود غيره كائناً من كان فقد أخطأ لأنّ غيره مخلوق مثله سواء كان المطلوب عيسىٰ أو عزيراً أو غيرهما من المخلوق وهذا السِّر في التّعبير بالإستفهام الإنكاري المفيد للتّعجب أيضاً هذا ما فهمنا من الآية.

قُلْ اٰمَنّٰا بِاللّٰهِ وَ مٰآ أُنْزِلَ عَلَيْنٰا وَ مٰآ أُنْزِلَ عَلىٰ إِبْرٰاهِيمَ.

الظّاهر أنّ المخاطب بقوله، **قُل**، هو رسول الإسلام ﷺ أي قل يا محمّد، آمنّا باللّه و ما أنزل علينا من الشّريعة المقدّسة والكتاب الإلٰهي أي آمنت أنا ومن إتّبعني من المؤمنين، بما أنزل علينا من التّوحيد والدّين، و يمكن أن يكون المراد من ضمير الجمع في قوله آمنّا وعلينا، أيضاً نفسه الشّريفة إذ يجوز أن يؤمر أن يتكلم عن نفسه كما يتّكلم الملوك إجلالاً من اللّه لقدر نبّيه و عليه فالمعنىٰ قل يا محمّد آمنت باللّه وما أنزل علّي من القرآن والدّين وما أنزل من اللّه تعالىٰ علىٰ إبراهيم من الصُحف وعلىٰ موسىٰ من التّوراة وعلىٰ عيسىٰ من الإنجيل وبالجملة آمنت بجميع ما أنزل علىٰ الأنبياء من ربّهم لا نفرّق بين أحدٍ منهم أي من الأنبياء من هذه الجهة و نحن له، أي له تعالىٰ، مسلمون، أي مستسلمون منقادون مطيعون للّه تعالىٰ وفي الآية دلالة علىٰ أنّ المؤمن الحقيقي مؤمن بجميع الأنبياء والكتب السّماوية الّتي أنزلت كما قال تعالىٰ: **وَ اَلَّذينَ يُؤْمِنُونَ بِمٰآ أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَ مٰآ أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَ بِالْاٰخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ**[1] والوجه فيه واضح فأنّ حكم الأمثال واحد والّذي حصل لنا من الأيتين هو التّوحيد والنبّوة.

■



١- البقرة= ٤

وَ مَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَ هُوَ فِي ٱلْآخِرَةِ مِنَ ٱلْخَاسِرِينَ ﴿۸۵﴾

◁ اللّغة

يَبْتَغِ: الإبتغاء الطّلب.

◁ الإعراب

دِينًا نصب علىٰ التّمييز و يجوز أن يكون مفعول، يبتغ **غَيْرَ** صفة قدّمت عليه فصارت حالاً.

◁ التّفسير

الظّاهر أنّ اللاّم في الإسلام للعهد أي ومن يطلب غير الإسلام المعهود الّذي لما قال اللّه لإبراهيم أسلم: **قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَالَمِينَ**[۱].

و قال اللّه: **وَ مَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلّٰهِ وَ هُوَ مُحْسِنٌ**[۲].

وهذا الإسلام هو الّذي أتىٰ به نبيّنا صلّى الله عليه وآله و قال بعثت الىٰ الحنَفية السَّهلة و يمكن أن يكون المراد به في الآية الإسلام المعروف بين النّاس بعد ظهوره و طلوعه بواسطة النّبي صلّى الله عليه وآله في أمّ القرىٰ فأنّ النّاس يفهمون من لفظ الإسلام هذا الدّين و كيف كان يقول اللّه تعالىٰ: **وَ مَنْ يَبْتَغِ** أي يطلب غيره فلن يقبل منه، أتىٰ بكلمة، لن، الّتي لنفي الأبد إشعاراً بأنّ هذا الدّين باق الىٰ يوم القيامة و أنّه غير قابل للنّسخ كما قال عليه السلام حلال محمّدٍ حلال الى يوم القيامة و حرامه حرامٌ الىٰ يوم القيامة وقوله: **وَ هُوَ فِي ٱلْآخِرَةِ مِنَ ٱلْخَاسِرِينَ** أي من يبتغ غيره فهو من الخاسرين يوم القيامة والخسران إنتقاص رأس المال ويُنسب ذلك الىٰ الإنسان فيقال خسر فلان والىٰ الفعل فيقال خسرت تجارته ثمّ أنّه

۱- البقرة = ۱۳۱ ۲- النّساء=۱۲۵

يستعمل في المقتنيات الخارجة كالمال والجاه في الدّنيا و هو الأكثر و قد يستعمل في المقتنيات النّفسية كالصّحة والسّلامة والعقل الإيمان والثّواب و هو الّذي جعله اللّه تعالىٰ في كتابه من الخسران المبين والخسران في الآية من هذا القبيل لأنّه خسران الدّين لا خسران الدّنيا وأن أردت التّوضيح أكثر من ذلك فنقول هذه الكلمة استعملت في القرآن علىٰ وجوهٍ خمسة.

أحدهما: بمعنىٰ العجز ومنه قوله تعالىٰ حكاية عن إخوة يوسف:

قال اللّه تعالىٰ: **قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَ نَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذًا لَخَاسِرُونَ**[1] أي إنّا إذاً لعاجزون.

ثانيها: بمعنىٰ الغبن و منه:

قال اللّه تعالىٰ: **قُلْ إِنَّ ٱلْخَاسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا أَنْفُسَهُمْ**[2] يعني غُبنُوا أنفسهم فصاروا الىٰ النّار.

ثالثها: بمعنىٰ الضّلالة و منه:

قال اللّه تعالىٰ: **وَ مَنْ يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ ٱللّٰهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا**[3] يعني فقد ضلّ ضلالاً مبيناً.

قال اللّه تعالىٰ: **وَ ٱلْعَصْرِ، إِنَّ ٱلْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ**[4] يعني لفي ضلال.

رابعها: بمعنىٰ النّقصان في الكيل والوزن و منه:

قال اللّه تعالىٰ: **أَوْفُوا ٱلْكَيْلَ وَ لَا تَكُونُوا مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ**[5] يعني من المُنقصين.

قال اللّه تعالىٰ: **وَ أَقِيمُوا ٱلْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَ لَا تُخْسِرُوا ٱلْمِيزَانَ**[6] أي ولا تنقصوا الميزان.

خامسها: بمعنىٰ الخسران بعينه و أن شئت قلت بمعنىٰ الضّرر و منه:

١- يوسف = ١٤
٢- الزّمر = ١٥
٣- النّساء = ١١٩
٤- والعصر = ١/٢
٥- الشّعراء = ١٨١
٦- الرّحمٰن = ٩

قال اللّه تعالىٰ: **وَ إِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنٰا وَ تَرْحَمْنٰا لَنَكُونَنَّ مِنَ اَلْخٰاسِرِينَ**[١].

قال اللّه تعالىٰ: **لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَ لَتَكُونَنَّ مِنَ اَلْخٰاسِرِينَ**[٢].

يعني الخسران بعينه إذا عرفت الخسران وأقسامه ومعانيه فقوله تعالىٰ: **وَ هُوَ فِي اَلْآخِرَةِ مِنَ اَلْخٰاسِرِينَ** يمكن حَمل الخسران علىٰ العجز، والغَبن، والضّلالة، والضّرر والأولىٰ حمله علىٰ الجميع فأن خسران الدّين عجزٌ وغبنٌ و ضلالة وضرر أعاذنا اللّه منه، وفي قوله تعالىٰ ومن يبتغ، أي من يطلب إشارة الىٰ أنّ الإنسان مختار في دينه الّذي إرتضاه لنفسه لأنّ الطّلب لا يكون إلاّ من المختار فهذه الأيات أيضاً قرينة علىٰ أنّ المراد بالإسلام في الآية المتقدّمة ليس هو الّدين المصطلح لمنافاته لقوله وكرهاً و قد مرّ الكلام فيه، أن قلت لو كان الإنسان مختاراً في الدّين فلم قال اللّه تعالىٰ: **فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَ هُوَ فِي اَلْآخِرَةِ مِنَ اَلْخٰاسِرِينَ** أليس هذا التّهديد والوعيد دّالاً علىٰ أنّ الإنسان ليس بمختارٍ بل هو مجبورٌ في هذا المقام، قلت لا، لأنّ الآية تدّل علىٰ أنّ الّدين المرّضي عند اللّه الإسلام و من يبتغ غيره فهو خاسر في الدّنيا والأخرة، وهذا من إرائة الطّريق وكمال اللّطف في حقّ عبده كما يقول الطّبيب أن أكلت السَّم تموتُ، والإنسان مختار في أكله وعدم أكله فمن كان محبّاً لبقاءه وحياته لا يأكل منه و من كان محبّاً لموته يأكل منه فالطّبيب وظيفته الإعلام ليهلك من هلك عن بيّنة و يحيىٰ من حيّ عنها و ما نحن فيه من هذا القبيل و امّا العلّة في هذا الحكم فلأنّ الإسلام أكمل الأديان و لذلك نسخت الأديان بـه فـمن تـرك الكـامل بـل الأكمل وأخذ بأنقص منه فهو من الخاسرين وهذا الّذي ذكرناه من كون الإسلام أكمل لا ينافي أن يكون كلّ دين في عـصره كـاملاً إلاّ أنّـه بـإعتبار مـقايسته الىٰ الإسلام يتّصف بالنّقص لا في حدّ نفسه و هو واضح وسيأتي تفصيل الكلام فيه.

■

١- الأعراف = ٢٣

٢- الزّمر= ٦٥

كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَ شَهِدُوٓا أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ وَ جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَاتُ وَ ٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّالِمِينَ ﴿۸۶﴾ أُولَٰئِكَ جَزَآؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ ٱللَّهِ وَ ٱلْمَلَآئِكَةِ وَ ٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿۸۷﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَ لَا هُمْ يُنْظَرُونَ ﴿۸۸﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَ أَصْلَحُوا فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿۸۹﴾

◁ اللّغة

ٱلْبَيِّنَاتُ: جمع بيّنة وهي الشّاهد أو كلّ إمارةٍ وعلامة دلّت علىٰ إثبات المدّعىٰ.
تَابُوا: تاب يتُوب تَوباً وتَوبةً أي رجع.
وَ أَصْلَحُوا: الإصلاح ضدّ الفساد.

◁ الإعراب

كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ حال أو ظرفٌ والعامل فيها، يهدي وَ شَهِدُوٓا حال من الضّمير في كفروا و، قد، معه مقّدرة و يجوز أن يكون معطوفاً علىٰ، كفروا أُولَٰئِكَ مبتدأ و جَزَآؤُهُمْ مبتدأ ثانٍ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ ٱللَّهِ أنّ إسمها وخبَرها، خبر جزاء، أي جزاءهم اللَّعنة خَالِدِينَ فِيهَا حال من الهاء و الميم في عليهم، والعامل فيها الجارّ أو ما يتّعلق به و فيها يعني اللّعنة.

◁ التّفسير

كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا إختلفوا في سبب نزولها فقيل أنّ رجلاً من الأنصار أسلم ثمّ إرتّد ولحق بالشّرك ثمّ ندم فأرسل الىٰ قومه سلوا رسول

الله ﷺ هل لي من توبة فجاء قومه الىٰ رسول الله ﷺ فقالوا هل له من توبة فنزلت **كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ ايمٰانِهِمْ** الىٰ قوله: **غَفُورٌ رَحِيمٌ** فأرسل اليه فأسلم.

وقيل أنّ رجلاً من الأنصار إرتَّد فلحق بالمشركين فأنزل اللّه، **كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا** الىٰ قوله: **إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا** فبعث بها قومه اليه فلمّا قرأت عليه ما كذّبني قومي علىٰ رسول اللّه ﷺ ولا أكذبت رسول اللّه ﷺ عن اللّه عزّ و جلّ واللّه عزّ وجلّ أصدق الثّلاثة فرجع تائباً فقبل منه رسول اللّه ﷺ و تركه.

و قيل نزلت في اليهود لأنّهم كانوا يبشّرون بالنّبي ﷺ وستفتحون علىٰ الّذين كفروا فلمّا بعث عاندوا وكفروا فأنزل اللّه عزّ وجلّ:

أُولٰئِكَ جَزٰآؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ ٱللَّهِ وَ ٱلْمَلآٰئِكَةِ وَ ٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ.

ثمّ قيل، كيف، لفظة إستفهام ومعناه الجحد ي لا يهدي اللّه ونظيره قوله تعالىٰ: **كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ ٱللَّهِ وَ عِنْدَ رَسُولِهِ**[1] قال الشّاعر:

كيف نَومي علىٰ الفراش ولَمّا ... يشـمل القـوم غـارةُ شـعواءُ

أي لا نوم لي و قال الأخر:

فـهذي سُيوفُ يـا صُدّي بـن مـالكٍ ... كثيرُ و لكـن أيـنَ بـالسَّيف ضـاربُ

و لنرجع الىٰ تفسير ألفاظ الأيات **كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَـفَرُوا بَـعْدَ ايمٰانِهِمْ** أي لا يهديهم لأنّ الكفر بعد الإيمان يعبّر عنه بالإرتداد **وَ شَهِدُوٓا أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ** بعث من عند اللّـه **وَ جٰآءَهُمُ ٱلْبَيِّنٰاتُ** الدّالات علىٰ حقّانية الرّسول **وَ ٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظّٰالِمِينَ** أي الكافرين بعد الإسلام وأيّ ظلم أفحش منه، قال صاحب الكشّاف في قوله: **يْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا** أي كيفَ يلطف بهم وليسوا من أهل اللُّطف لما علم اللّه من تصميمهم علىٰ كفرهم لأنّهم كفروا بعد إيمانهم وبعد ما شهدوا بأنّ الرّسول حقّ الىٰ أنّ قال و هم

١- التوبة = ٧

اليهود كفروا بالنّبي صلى الله عليه وآله بعد أن كانوا مؤمنين به و قيل نزلت في رهطٍ كانوا أسلموا ثمّ رجعوا عن الإسلام ولحقوا بمكّة الىٰ أخر ما قال و قال المراد بالظّالمين المعاندين الّذين علم اللّه أنّ اللّطف لا ينفعهم، و قال بعض المفسّرين من العامّة في قوله: **وَ ٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ** أي لا يخلق في قلوبهم الهداية والظّالمين عامّ معناه الخصوص أي لا يهدي من قضىٰ عليه بأنّه يموت علىٰ الكفر انتهىٰ.

أقول ما ذكره في تفسير الآية لا يستقيم لأنّه جبرٌ محض و ذلك لأنّ من قضىٰ عليه بأنّه يموت علىٰ الكفر، أو أنّ اللّه لا يخلق في قلوبهم الهداية، يوجب سلب الإختيار عن المخلوق وأنّه مجبور في كفره لأنّه قضي عليه بالكفر، أو لم يخلق في قلبه الهداية ولو كان كذلك فما ذنب المخلوق ثمّ كيف يعقل عقاب من قضي عليه بالكفر حتّىٰ يموت أليس عقابه هذا منه تعالىٰ ظلماً علىٰ عبده ثمّ أنّ الهداية ليست ممّا يخلق في القلب لأنّها من المعاني الإضافية الإعتبارية فكيف يعقل خلقها في القلب فالحقّ في المقام للزّمخشري و هو أن يكون المراد بالظّالمين المعاندين الذّين لا يقبلون الحقّ وأن كان واضحاً ظاهراً لعنادهم ولجاجهم و امّا أنّ اللّه تعالىٰ لا يلطف بهم لعلمه بأنّه لا ينفعهم، ففيه أنّ اللّه تعالىٰ لا يمنع اللُّطف عن عبده أبداً وفائدته إتمام الحجّة عليه **وَ شَهِدُوٓا۟ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ وَ جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَ ٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ** أي كيف يهديهم اللّه وأنّهم كفروا بعد إيمانهم وبعد شهادتهم بأنّ الرّسول حقّ وبعد أن جاءهم البيّنات، وهي المعجزات وخوارق العادات التّي أجراها اللّه علىٰ أيدي الأنبياء كما قال تعالىٰ: **لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَ أَنْزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَابَ وَ ٱلْمِيزَانَ**[1] و قوله: **وَ ٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ** معناه أنّ اللّه تعالىٰ يكلهم الىٰ أنفسهم ومن وكله اللّه الىٰ نفسه وسلب عنه التّوفيق فمصيره الىٰ جهنّم وبئس المصير **أُولَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمْ أَنَّ**

١- الحديد= ٢٥

عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ ٱللّٰهِ وَ ٱلْمَلاۤئِكَةِ وَ ٱلنّٰاسِ أَجْمَعِينَ أي أنّ جزاء الكافر المعاند للحقّ بعد ظهوره له هو لعنة اللّه والملائكة والنّاس أجمعين هذا في الدّنيا، و امّا في الأخرة فهو قوله:

خٰالِدِينَ فِيهٰا أي في جهنّم **لاٰ يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذٰابُ وَ لاٰ هُمْ يُنْظَرُونَ** أي لا يُؤخّرون ولا يُؤجّلون.

إِلَّا ٱلَّذِينَ تٰابُوا أي رجعوا عن كفرهم **مِنْ بَعْدِ ذٰلِكَ** الكفر **وَ أَصْلَحُوا** أي تجّنبوا عن الفساد، أو دخلوا في الصّلاح، و قيل معناه أظهروا أنّهم كانوا علىٰ ضلالٍ **فَإِنَّ ٱللّٰهَ غَفُورٌ** يغفر الذّنوب جميعاً **ورَحِيمٌ** بعباده بل هو أرحم الرّاحمين.

يستفاد من الأيات أنّ توبة المرّتد تقبل، لقوله: **إِلَّا ٱلَّذِينَ تٰابُوا** و هو كذلك في المرّتد الملّي و هو الّذي لم تنعقد نطفته علىٰ الإسلام بل إنعقدت علىٰ الكفر ثمّ أسلم ثمّ كفر بعد إسلامه فهو الّذي يستتاب بعد الكفر فأن تاب قبل منه وما نحن فيه من هذا القبيل و لذلك قبلت توبتهم علىٰ أساس حيث قال: **إِلَّا ٱلَّذِينَ تٰابُوا** و امّا المرّتد الفطّري و هو الّذي إنعقدت نطفته علىٰ الإسلام ثمّ كفروا فهذا لا تقبل توبته علىٰ المشهور بين الفقهاء بل هو مجمع عليه بل يقبل بعد ثبوت إرتداده و قيل تقبل توبته بالنسّبة الىٰ الأخرة و لا إشكال فيه فأنّ اللّه تعالىٰ أعلم بعباده و مع ذلك لا يسأل عمّا يفعل و هم يسألون، ثمّ أنّ الإرتداد يثبت بإنكار أصلٍ من أُصول الدّين مثل التّوحيد و النّبوة والمعاد، أو إنكار ضرّوريٍّ من ضرّورياته كالصّلاة والصّوم والحجّ و الزّكاة و غيرها من الضّروريات التّي أطبق المسلمون علىٰ وجوبها و أمّا إنكار غير الضّروري من الدّين كصلاة الجمعة في زمان الغيبة أو الجهاد كذلك فلا و بالجملة كلّ واجب لا يعّد منها يوجب الإرتداد وتفصيل الكلام في الفقه.

■

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ ايمٰانِهِمْ ثُمَّ ٱزْدٰادُوا كُفْرًا لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَ أُولٰئِكَ هُمُ ٱلضّٰآلُّونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَ مٰاتُوا وَ هُمْ كُفّٰارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَ لَوِ ٱفْتَدٰى بِهِۦٓ أُولٰٓئِكَ لَهُمْ عَذٰابٌ أَلِيمٌ وَ مٰا لَهُمْ مِنْ نٰاصِرِينَ ﴿٩١﴾

◁ اللّغة

مِلْءُ ٱلْأَرْضِ: المِل بكسر الميم مقدار ما يمل الشّيء وبالفتح مصدر لأت الشّيء.

◁ الإعراب

ذَهَبًا تمييزه، و الهاء في به، تعود علىٰ المل أو علىٰ ذَهب.

◁ التّفسير

قال كثير من المفسّرين أنّها نزلت في اليهود كفروا بعيسىٰ والإنجيل ثمّ إزدادوا كفراً بمحمّدٍ ﷺ والقرآن قاله القرطبي ونقل عن أبى العالية أنّه قال نزلت في اليهود والنّصارىٰ كفروا بمحمّدٍ ﷺ بعد إيمانهم بنعته وصفته ثمّ إزدادوا كفراً بإقامتهم علىٰ كفرهم و قيل إزدادوا كفراً بالذّنوب الّتي إكتسبوها وهذا مختار الطّبري و هي عنده في ايهود، و قال الشّيخ في التّبيان في هذه الأية أي قوله: **إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ ايمٰانِهِمْ ثُمَّ ٱزْدٰادُوا كُفْرًا** الىٰ آخر الأية، أربعة أقوال.

أحدها: قال إبن عبّاس هي فرقة إرتدّت ثمّ عزمت علىٰ إظهار التّوبة علىٰ

جهة التَّورية فإطّلع اللّه نبيّه علىٰ ذلك بإنزال هذه الآية.

ثانيها: قال قتادة هم اليهود آمنوا بموسىٰ و كفروا بعيسىٰ ثمّ إزدادوا كفراً بمحمّدٍ صلى الله عليه وآله فلن تقبل توبتهم عند حضور موتهم.

ثالثها: قال الحسَن هم اليهود والنّصارىٰ كفروا بالنّبي، فلن تقبل توبتهم، الّتي كانت في حال إيمانهم، فأن قيل لم لم تقبل التّوبة من هذه الفرقة، قيل لأنّها كفرت بعد إيمانها ثمّ إزدادت كفراً الىٰ إنقضاء أجلها فحصلت علىٰ ضلالتها الىٰ أن قال و قيل أنّما لم تقبل توبتهم لأنّهم لم يكونوا فيها مخلصين بدلالة قوله **أُولٰئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ**.

رابعها: قال الطّبري أنّه لا يجوز تأويل من قال لن تقبل توبتهم عند حضور موتهم قال لأنّه لا خلاف بين الأمة أنّ الكافر إذا أسلم قبل موته بطرفة عينٍ في أنّ حكمه حكم المسلمين في وجوب الصّلاة عليه و مواريثه و دفنه في مقام المسلمين و إجراء جميع أحكام الإسلام عليه ولو كان إسلامه غير صحيح لما جاز ذلك انتهىٰ.

ثمّ إعترّض الشّيخ عليه بأنّه لا يمتنع أن نتّعبد بإجراء أحكام الإسلام عليه و إن كان إسلامه علىٰ وجهٍ من الإلجاء لا يثبت معه إستحقاق الثّواب عليه كما إنّا تعبدّنا بإجراء أحكام الإسلام علىٰ المنافقين وأن كانوا كفّاراً و أنّما لم يجز قبول التّوبة في حال الإلجاء اليه لأنّ فعل الملجأ كفعل المكره في سقوط المدح والذّم:

قال اللّه تعالىٰ: **وَ لَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّاٰتِ حَتّٰى إِذاٰ حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْاٰنَ**(١).

قال اللّه تعالىٰ: **فَلَمّٰا رَأَوْا بَأْسَنٰا قٰالُوٓا اٰمَنّٰا بِاللّٰهِ وَحْدَهُ وَ كَفَرْنٰا بِمٰا كُنّٰا بِهِ مُشْرِكِينَ،فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ اِيمٰانُهُمْ لَمّٰا رَأَوْا بَأْسَنٰا**(٢).

١- النّساء = ١٧
٢- المؤمن = ٨۴- ٨٥

فأمّا إذا عاد في الذّنب فلا يعود اليه العقاب الّذي سقط بالتوّبة لأنّه إذا تابَ منه صار بمنزلة ما لم يعلمه فلا يجوز عقابه عليه كما لا يجوز عقابه علىٰ ما لم يعلمه سواء قلنا أنّ سقوط العقاب عند التّوبة كان تفّضلاً أو واجباً و قد دلّ السّمع علىٰ وجوب قبول التّوبة و عليه إجماع الأمّة.

قال اللّه تعالىٰ: **وَ هُوَ ٱلَّذِي يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَ يَعْفُوا عَنِ ٱلسَّيِّئَاتِ**[١].

قال اللّه تعالىٰ: **غَافِرِ ٱلذَّنْبِ وَ قَابِلِ ٱلتَّوْبِ**[٢] أنتهىٰ.

ما ذكره الشّيخ في المقام وتبعه الطّبرسي ﷺ في المجمع فأنّه نقل في سبب نزول الآية ما نقله القوم ثمّ قال قد ذكرنا الإختلاف في سبب نزوله وعلىٰ ذلك يدور معناه و قيل كلمّا نزلت آية كفروا بها ثمّ إزدادوا كفراً الىٰ كفرهم **لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ** لأنّه لم تقع علىٰ وجه الإخلاص ويدّل عليه قوله: **أُولَٰئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ**.

أقول ما ذكروه في تفسير الآية لا يرجع الىٰ محصّلٍ فلا ينبغي الإعتماد عليه.

أمّا الوجه الأوّل: و هو ما ذكره إبن عبّاس حيث قال هي فرقة إرتدّت ثمّ عزمت علىٰ التّوبة الخ ففيه أنّ الإرتداد علىٰ قسمين، فطّريٌ و ملّيٌ.

والأوّل: لا تقبل توبته في الدّنيا ويقتل بمجرّد ظهور الكفر منه و لا يشترط فيه إزديادٌ في الكفر فهو خارج عن الآية لأنّها دلّت بظاهرها علىٰ عدم قبول التّوبة لمن إزداد في كفره والفطري ليس كذلك، وأن كان مراده من الإرتداد الإرتداد عن ملّةٍ كما ظاهر الآية بمعنىٰ أنّه آمن ثمّ كفر ثمّ إزداد في كفره علىٰ ما بيّنوه في معنىٰ الإزدياد فهو تقبل توبته في المرحلة الأوّلىٰ علىٰ المشهور بين علماء المسلمين ولا يقتل، و امّا قوله عزمت علىٰ إظهار التّوبة علىٰ جهة التّورية فإطّلع اللّه نبّيه علىٰ ذلك بإنزال هذه الآية فكلام لا يساعده العقل ولا النّقل.

١- الشوریٰ = ٢٥ ٢- غافر= ٣

أمّا العقل فمعلوم و امّا النّقل فلأن الإسلام يحكم بظاهر الأمر فأن كان المرتّد ممّن يستتاب شرعاً فأن تاب قبلت توبته سواء كانت علىٰ وجه التّورية أم لم يكن و امّا تفتيش القلوب فهو علىٰ خلاف القواعد فقوله فأطّلع نبّيه علىٰ ذلك كلام لا طائل تحته وقول أبي العالية، لم تقبل توبتهم من ذنوب أصابوها مع الإقامة علىٰ كفرهم، لا نفهم معناه و ذلك لأنّ التّوبة أن قبلت قبلت وإلاّ فلا فأن لم تقبل توبته من الذّنوب الّتي أصابها في حال كفره، فمن أيّ شيٍ تاب وأيّ فائدة في هذه التّوبة.

أمّا الوجه الثّاني: و هو ما ذكره قتادة و قال هم اليهود آمنوا بموسىٰ وكفروا بعيسىٰ ثمّ إزدادوا كفراً بمحمّدٍ ﷺ فلن تقبل توبتهم عند حضور موتهم، فهو أيضاً كلام بلا محصّلٍ إذ لازم ذلك القول أنّ اليهود أو كلّ كافرٍ لو آمن باللّه وبرسوله قبل موته بالطّوع والرغبة لا بالجبر والكراهة والإلجاء أن نقول بعدم قبولها و هو ممّا لا يقبله الشّرع قطعاً.

أمّا الوجه الثّالث: و هو ما قاله الحسن، هم اليهود والنّصارىٰ كفروا بالنّبي فلن تقبل توبتهم الّتي كانت في حال إيمانهم الىٰ آخر ما قال فهو أيضاً باطل لأنّه مستخرجٌ من ظنّه الفاسد و لا دليل عليه و ذلك لأنّ اليهود والنّصارىٰ في عهد النّبي كانوا داخلين في المرّتد الملّي و قد قلنا أنّ المرتّد الملّي تقبل توبته في الرّدة الأوّلىٰ بالإتّفاق و قوله في آخر كلامه لأنّهم لم يكونوا فيها مخلصين شطط من الكلام لأنّ الإسلام تجري أحكامه علىٰ الظّواهر لا علىٰ البواطن إذ لو كان كذلك فأكثر المسلمين في زمان النّبي لم يكونوا مخلصين في قبولهم الإسلام و هو ظاهر.

أمّا الوجه الرّابع: و هو قول الطّبري فهو أيضاً لا يصّح علىٰ إطلاقه و ذلك لأنّ الكافر إذا أسلم قبل موته فهو علىٰ أقسام.

أحدها: أن يكون كافراً من حين ولادته الىٰ وقت حضور موته ثمّ آمن قبل

الموت علىٰ أساس الميل والإختيار من غير إكراهٍ ولا إلجاءٍ فهو ممن تقبل توبته قطعاً.

ثانيها: أن يكون كافراً ثمّ آمن ثمّ كفر وبقي علىٰ كفره الىٰ وقت حضور موته ثمّ آمن قبل الموت لا عن إلجاء واضطرارٍ فهو أيضاً تقبل توبته لأنّه كفر بعد إيمانه مرّةً واحدة لأنّه بقي عليه الىٰ حضور أجله ثمّ ندم وتاب فهو مرتّد ملّي و قد قلنا أنّ توبة المرّتد اذا كان الإرتداد عن ملّةٍ في المرتبة الأُولىٰ تقبل و لا يقتل وما نحن فيه كذلك.

ثالثها: أن يكون مؤمناً مسلماً عن فطرةٍ ثمّ كفر وَ إرتَّد و بقي علىٰ كفره الىٰ حضور أجله ثمّ ندم وتاب، فالظّاهر أنّ توبته لا تقبل عند النّاس و بحسب موازين الشّرع لأنّه كان محكوماً بالقتل بمجّرد إرتداده إلاّ أنّه لم يقتل وبقي حيّاً بأيّ سببٍ كان ففي هذه الصُّورة أن كان إرتداده معلوماً للنّاس بمعنىٰ أنّ المسلمين كانوا عالمين بإرتداده إلاّ أنّه كان في مكانٍ أو وضعٍ لم يقدروا علىٰ إجراء حكم القتل عليه فالقاً عدة تقتضي عدم قبول توبته في الظّاهر فلا يجوز إجراء أحكام الإسلام عليه بعد موته و امّا في الواقع و نفس الأمر فاللّه أعلم بقبول توبته و عدمه و امّا أن لم يكن إرتداده معلوماً لهم فالظّاهر إجراء أحكام الإسلام عليه لأنّه أمن قبل موته و لم يكن مرّتداً بالإرتداد الفطري علىٰ الظّاهر فلا مانع في عدّه من المسلمين بعد موته فقول الطّبري علىٰ الإطلاق لا يصّح و أمّا ما ذكره الشّيخ قدّس سرّه ردّاً علىٰ الطّبري فهو أيضاً علىٰ إطلاقه لا يصّح كما عرفت من أقسام الكافر و امّا إستدلاله قدّس سرّه بالأية و هي و ليست التّوبة للّذين يعملون السّيئات حتّىٰ اذا حضر أحدهم الموت الآية فسيأتي الكلام فيه عند البحث في الآية إن شاء اللّه في سورة النّساء.

و أمّا ما ذكره الطّبرسي في عدم قبول التّوبة و هو أنّها لم تقع علىٰ وجه الإخلاص منهم، ففيه أن كان المراد بعدم قبول توبته عدمه في الواقع عند اللّه

تعالىٰ فلا علم لنا به لا نفياً ولا إثباتاً، وأن كان مراده بعدم قبولها في الدّنيا عند الحاكم أو عند المسلمين فلا دليل عليه ومجّرد القول بأنّها لم تقع علىٰ وجه الإخلاص، لا يكفي في الرّد لأنّ اللّه تعالىٰ هو العالم بالضّمائر والأسرار وليس شرط قبول التّوبة من التّائب العلم بكونها علىٰ وجه الإخلاص و هو ظاهر.

و قال البيضاوي في تفسير الآية **إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ اِيمَانِهِمْ ثُمَّ ٱزْدَادُوا كُفْرًا** كاليهود كفروا بعيسىٰ والإنجيل بعد الإيمان بموسىٰ والتّوراة ثمّ إزدادوا كفراً بمحمّدٍ والقرأن وكفروا بمحمّدٍ ﷺ بعد ما آمنوا به قبل مبعثه ثمّ إزدادوا كفراً بالإصرار والعناد والطعن فيه والصَّد عن الإيمان ونقض الميثاق أو كقومٍ إرتّدوا ولحقوا بمكّة ثمّ إزدادوا كفراً بقولهم نتربّص بمحمّدٍ ريب المنون أو نرجع اليه وننافقه بإظهاره انتهىٰ.

أقول ما ذكرهالبيضاوي أخذه من الكشّاف كما هو دأبه ودأب كثير من مُفسري العامّة بعد الزّمخشري وقس علىٰ ما ذكرناه من أقوالهم ما لم نذكره حذراً من الإطناب فأنّك اذا تفحّصت التّفاسير تجدها علىٰ وتيرةٍ واحدةٍ في تفسير الآية مع إختلاف في الألفاظ والعبارات فأنّا لم نجد في تفاسير العامّة و الخاصّة ما يرفع الإشكال أو الإبهام عن الآية والّذي جعل الآية من المشكلات أمران:

أحدهما: قوله: **ثُمَّ ٱزْدَادُوا كُفْرًا** مامعناه وما المراد بإزدياد الكفر.

ثانيهما: قوله: **لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ** هل هو في الدّنيا أو في الأخرة وعلىٰ التّقديرين لم لا تقبل فالبحث في مقامين:

المقام الأوّل: في المراد بقوله **ثُمَّ ٱزْدَادُوا كُفْرًا** فنقول ما ذكروه في معناه علىٰ مامرّت الإشارة اليه لا يساعده العقل و لا اللّفظ.

أمّا العقل فلأنّ الكفر عبارة عن إنكار الحقّ من التّوحيد والنّبوة والمعاد أو ضرّوري من الضّروريات فهو من الأُمور العدّمية التّي لا تقبل الزّيادة والنّقصان

في حدّ نفسه فلا يقال زيد أكفر من عمروٍ اذا كانا كافرين، إلاّ بضربٍ من المسامحة و بعبارةٍ أوضح من كان منكراً لِلّه تعالىٰ وحده فهو كافر ومن منكراً له تعالىٰ و لرسوله فهو أيضاً كافر و من كان منكراً لهما و للمعاد فهو أيضاً كافر و هكذا ويطلق لفظ الكافر علىٰ الأوّل و الثّاني و الثّالث علىٰ سبيل التّواطئ لا علىٰ سبيل التّشكيك حتّىٰ يقال الأوّل كافر والثّاني أكفر منه والثّالث أكفر منهما بل يقال هذا كافر سواء أنكر اللّه وحده أم أنكره والرّسالة والمعاد، والسِّر فيه هو أنّ الزّيادة والنّقصان والشّدة والضّعف وأمثالهما من شئون الموجودالعدم فلا يعقل فيه منها شئ، اذ لا ميز في الإعدام من حيث العدم، والكفر عدم لأنّه عدم إظهار الحقّ فليس فيه شئ منها عقلاً.

و أمّا اللّفظ فلأنّ قوله تعالىٰ: **ٱزْدَادُوا كُفْرًا** بمعنىٰ طلب الزّيادة قال في المنجد إزدادوا بمعنىٰ زاد لازماً ومتّعدياً طلب الزّيادة ويظهر من كلام الرّاغب في المفردات أنّه بمعنىٰ قبلو الزّيادة، قال الزّيادة أن ينّضم الىٰ ما عليه الشّئ في نفسه شئ أخر يقال زدته فإزداد، أي قبل الزّيادة و قال إزددت فضلاً أي إزداد فضلي انتهىٰ و عليه فقوله: **ثُمَّ ٱزْدَادُوا كُفْرًا** أي ثمّ زادواً كفراً، فليس هناك شيئاً أخر ينضّم الىٰ ما عليه الشّئ و بعبارةٍ أُخرىٰ ليس هناك كفراً أخر غير الأوّل لينضّم اليه حتّىٰ يصدق الإزدياد فمن كان مؤمناً بموسىٰ ثمّ كفر بعيسىٰ صار كافراً فاذا كفر بمحمّدٍ صلّى الله عليه وآله أيضاً لم يزد علىٰ كفره شيئاً وهكذا من كان كافراً باللّه ثمّ كفر برسوله أيضاً، لم يزد علىٰ كفره لأنّه كافر بالأصل سواء كفر بالفرع أيضاً أم لم يكفر و محصّل الكلام هو أنّه اذا ثبت الكفر فهو كافر من غير فرقٍ بين الكفر بواحدٍ أو أثنين أو ثلاث أو مائة أصّر علىٰ كفره أو لا كفر بجميع الأنبياء أو بواحد منهم، لا فرق بين هذه الموارد من حيث الكفر و لا يعقل الازدياد فيه، ولا اللّفظ يساعده اذ ليس هناك غمّ شئٍ الىٰ شئٍ فما ذكروه في معنىٰ **ثُمَّ ٱزْدَادُوا كُفْرًا** لا يصّح.

والّذي نفهم من هذا الكلام هو أنّ الكفر هنا بمعنىٰ الإرتداد وأن شئت قلت المراد به الكفر الحاصل من الإرتداد لا مطلق الكفر والدّليل علىٰ المدّعىٰ هو أنه قال: **إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ ايمٰانِهِمْ ثُمَّ ٱزْدادُوا كُفْرًا** فقوله **كَفَرُوا بَعْدَ ايمٰانِهِمْ** معناه أنّهم إرتّدوا عن إيمانهم الىٰ الكفر فصاروا كافرين بعد ما كانوا مؤمنين فيصير معنىٰ قوله: **إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا** أنّ الّذين إرتّدوا، و اذا كان الكفر الأوّل بمعنىٰ الإرتداد أو ناشئاً منه فالكفر الثّاني و هو قوله ثمّ إزدادوا كفراً أيضاً يكون بهذا المعنىٰ وعلىٰ هذا يصير المعنىٰ أنّ الّذين كفروا بالإرتداد بعد إيمانهم ثمّ إزدادوا علىٰ الإرتداد الأوّل إرتداداً وكفراً ثانياً، ولازم ذلك أن يكون بين الكفرين أو الإرتدادين رجوع الىٰ الإيمان اذ لولا ذلك لا يتّحقق الإرتداد ثانياً واذا كان كذلك أي اذا صدر عنه إرتدادين فلن تقبل توبته بالإتّفاق و ذلك لأن المرّتد عن ملّةٍ في المرتبة الأولى يستتاب فاذا تاب ورجع الىٰ الإيمان ثمّ صدر عنه الإرتداد ثانياً فلا يستتاب علىٰ المشهور ولا تقبل توبته بل يقتل و لذلك قال اللّه تعالىٰ: **لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَ أُولٰئِكَ هُمُ ٱلضّآلُّونَ** وأنّما قلنا ذلك لأنّ الكفّار في عهد الرّسول كانوا صنفين صنفٌ منهم كانوا كافرين به صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِه مطلقاً وصنف كانوا كافرين ثمّ آمنوا به ثمّ كفروا والأية نزلت في هذا الصِّنف لا في الصّنف الأوّل لقوله: **إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ ايمٰانِهِمْ** و اذا كان كذلك فكانوا مرّتدين عن ملّةٍ لا عن فطرةٍ لإنعقاد نطفتهم علىٰ الكفر فصّح أن يقال أنّ الّذين كفروا بعد إيمانهم بالرّسول ثمّ إزدادوا كفراً، أي إرتداداً و ثانياً **لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَ أُولٰئِكَ هُمُ ٱلضّآلُّونَ**.

أن قُلت يلزم ممّا ذكرته في تفسير الآية أن يكون كفراً أوّلاً وكُفراً ثانياً أمّا الأوّل فمعلومٌ و أمّا الثّاني فليس بمعلوم.

قلت أمّا الكفر الأوّل مُصّرح به في الآية في قوله: **إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ ايمٰانِهِمْ** وأمّا الثّاني فيستفاد من قوله: **ثُمَّ ٱزْدادُوا كُفْرًا** فأنّ الإزدياد ضمّ شيءٍ

الىٰ شيئ وفي المقام ضمّ كفرٍ الىٰ كفرٍ فلو كان الكفر الثّاني في الآية هو الكفر الأوّل كما زعموا فلم يزد شئياً علىٰ شيئ وقلنا أنّ الكفر من حيث أنّه أمرٌ عدّمي لا يقبل الشّدة والضّعف والكمال والنّقصان فما معنىٰ قوله: **ثُمَّ ٱزْدَادُوا كُفْرًا** هذا كلّه في المقام الأوّل.

وأمّا المقام الثّاني و هو قوله: **لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ** فقد ظهر معناه ممّا ذكرناه والحمد للّه ربّ العالمين.

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَ مَاتُوا وَ هُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا

أي أنّ الّذين ماتوا علىٰ الكفر فلن يقبل من أحدهم مل الأرض ذهباً أي مقدار ما يملأ الأرض من الذّهب **وَ لَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ** الإفتداء، البدل من الشّيئ في إزالة الأذية، والمعنىٰ ولو إفتدىٰ به نفسه من العذاب قيل تقديره فلن يقبل من أحدهم فدية ولو إفتدىٰ بملأ الأرض ذهباً ويحتمل أن يكون المراد فلن يقبل من أحدهم إنفاقه في سبيل اللّه بملأ الأرض ذهباً في الدّنيا ولو كان علىٰ وجه الإفتداء من عذاب الأخرة من دون توّقع ثوابٍ أخر.

قال صاحب الكشّاف فأن قلت كيف موقع قوله: **وَ لَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ** قلت هو كلامٌ محمول علىٰ المعنىٰ كأنّه قيل فلن تقبل من أحدهم فدية ولو إفتدىٰ بمل الأرض ذهباً و يجوز أن يراد ولو إفتدىٰ بمثله كقوله ولو أنّ للّذين ظلموا ما في الأرض جميعاً ومثله معه، والمثل يحذف كثيراً في كلامهم كقولك ضربته ضرب زيد تريد مثل ضربه، و يجوز أن يقال، فلن يقبل من أحدهم مل الأرض ذهباً كان قد نصّدق به ولو إفتدىٰ به أيضاً لن يقبل منه انتهىٰ كلامه ومنهم من قال أنّ الواو في قوله: **وَ لَوِ ٱفْتَدَىٰ** هي مقمحة زائدة والمعنىٰ فلن يقبل من أحدهم مل الأرض ذهباً لو إفتدىٰ به، و قال أهل النّظر من النّحويين لا يجوز أن تكون الواو مقحمة لأنّها تدّل علىٰ معنىٰ.

أن قلت أليس هذا منافياً لقانون العدل من حيث أنّ عدم القبول من الكافر تضييعٌ لحقّه و قد قال اللّه تعالىٰ: **فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ، وَ مَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ**[1] قلت قوله تعالىٰ في الآية لا يدّل علىٰ أنّه مثل مَن لَم ينفق بل يدّل علىٰ أنّه تعالىٰ لن يقبل الإنفاق منه بحيث كان مُوجباً لرفع العذاب عنه يوم القيامة و بعبارة أخرىٰ أنّ الآية قد دلّت علىٰ أنّ الكافر لا يمكن له التّخلص من عذاب اللّه لأجل العّامة أو أنّ المال لا يخلصه من عذاب اللّه **وَ لَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ** من نفسة و هو عين العدل فأنّ اللّه تعالىٰ بعد إتمامه الحجّة علىٰ عباده بالعقل الدّين جعل الجنّة للمطيع المؤمن والنّار لعاصي الكافر فمن أطاعه علىٰ أساسى المعرفة فله روحٌ وريحان وجنّة نعيم، ومن عصاه علىٰ أساس الكفر به فله عذاب جهنّم وبئس المصير، ثمّ أنّ في قوله تعالىٰ: **وهُم كُفار**إشارة الىٰ أنّ الكافر لو آمن باللّه ورجع عن كفره قبل موته فليس من مصاديق الآية لأنّ الإسلام يجب ما قبله، و امّا إذا بقىٰ علىٰ كفره حتّىٰ مات عليه فلا ينجو من عذابه بوجهٍ من الوجوه فأنّ النّار أعدّت للكافرين، و في قوله: **وَ مَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ** دليل علىٰ ذلك أي علىٰ خلودهم في النّار.

■

١- الزّلزال ٧/٨

لَنْ تَنَالُوا ٱلْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَ مَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴿٩٢﴾

◁ اللّغة

ٱلْبِرَّ: بكسر الباء علىٰ ما قيل إسمٌ جامع للخير كلّه والمراد به هنا الجنّة.

◁ الإعراب

مِمَّا تُحِبُّونَ ما بمعنىٰ الّذي أو نكرة موصوفة (والهاء) في، به، تعود علىٰ، ما، أو علىٰ، شيئ.

◁ التّفسير

لَنْ تَنَالُوا ٱلْبِرَّ أي لن تصلوا الخير أو الجنّة **حَتَّى تُنْفِقُوا** في سبيل اللّه **مِمَّا تُحِبُّونَ** أي حتّىٰ تنفقوا في سبيله أحبّ الأشياء وأعزّها عندكم من المال والجاه وغيرها في طاعة اللّه **وَ مَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ** أي شيئٍ كان ولهذا نكره **فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ** جميلاًكان الشّيئ أو رديئاً.

رُوي عن مفضّل بن عُمر قال: دَخلتُ علىٰ أبي عبد اللّه عليه السلام يوماً ومَعي شيئاً فوضَعته بين يَدية فقال ما هذا قلتُ هذه صِلة مواليك وعبيدَك قال: فقال عليه السلام لي يا مُفضل أنّي لا أقبل ذلك وما أقبله من حاجةٍ بيَ اليه وما أقبله إلاّ ليَتركوا به ثمّ قال عليه السلام سَمِعتُ أبي يقول مَن مَضَت له سَنة لَم يَصِلنا من ماله قلّ أو كَثُر لم ينظر اللّه اليه يوم القيامة إلاّ إلاّ أن يعفو اللّه عنه ثمّ قال عليه السلام يا مفضل أنّها فريضة فرضَها اللّه علىٰ شيعتنا في كتابه إذ يقول لَنْ تَنَالُوا ٱلْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ فنحن البِرّ والتّقوىٰ وسبيل الهُدىٰ وباب التّقوىٰ



ولا يحجب دُعاءنا عن اللّه إقتصروا علىٰ حلالكم وحرامكم فأسألوا عنه، وإياكم أن تسألُوا أحَداً من الفُقهاء عمّا لا يُغنيكم وممّا سَتر اللّه عنكم انتهىٰ.

محمّد بن يعقوب بأسناده عن أبي عبد اللّه عليه السلام أنّه كان يـتّصدق بالسّكر فقيل له أيُتصدّق بالسّكر فقال عليه السلام: نعم أنّه ليس شئ أحَبّ إلّيَ منه فأنا أحّبُ أن أتّصدق بأحَبّ الأشياء إلّي وعن تفسير علّي بن إبراهيم - أي لن تَنالوا الثّواب حتّىٰ تَرّدُوا الىٰ آل محمّدٍ حقّهم من الخُمس والأنفال والفيْ انتهىٰ.

و روي أبو علّي الطّبرسي عن إبن عمر أنّ النّبي صلى الله عليه وآله سُألَ عن هذه الأية فقال: هو أن يُنفق العَبد المال و هو شحيح بأمل الدّنيا و يرجو الغنىٰ و يخاف الفقر انتهىٰ[1].

تمّ الجزء الثّالث بعون اللّه و توفيقه ويتلوه الجزء الرّابع أوّله كلّ الطّعام كان حلاً لبني إسرائيل.

■

١- تفسير البرهان ج ١ ص ٢٨۴

الفهرست

■


ضياء الفرقان في تفسير القرآن
جزء٣
المجلد الثالث

■